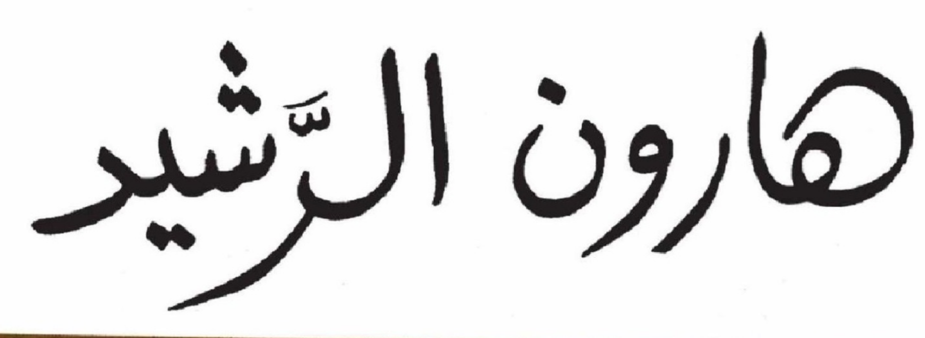
د. عبد الجبار الجومرد



حقائق عن عهده وخلافته

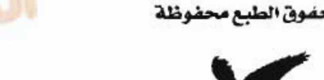


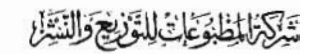
الناشر



هارون الرشيد

حقوق الطبع محفوظة





شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى ١٩٩٩

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخـراج الفنـي: تركية التالي

الدكتور عبد الجبار الجومرد



كلمــة

كـان اسـم «هـارون الرشـيـد» ولا يزال أشـهـر مـن نـار علـى علـم فـي دنـيـا الـعـرب والمسلمين، ولدى الأمم الأخرى التي ترجمت أخباره إلى لغتها.. ولهذه الشـهرة أسـباب كثيرة، منها: آثار تلك الحضارة الرائعة التي انبثقت في عصره، ونشطت في ظل حكمه، فرعاها بعطفه، وغذاها ببذله، حتى ازدهرت وأثمرت علماً وأدباً وفناً وثراء، ومنها أيضاً، خطورة الأحداث التي جرت في عهده وتركت وراءها دوياً في سمع التاريخ.. وربما كان من أهم تلك الأسباب ما نسجته أخيلة الأدباء والكتاب حول الترف والبذخ في بلاطه وقصور وزرائه وحاشيته، وحول تلك الرفاهية، والإسراف في التأنق الذي اتصفت به. ظلت طوال أيامه، عاصمته «بغداد» التي أطلق عليها اسم «العروس» لبهجتها ونضارة العيش فيها.

بيد أن الذي يقرأ الأخبار المتناثرة، مما كتب عن شخصية هذا الرجل وأعماله، يرى تناقضاً ظاهراً، وتبايناً واختلافاً، يصعب معه تكوين فكرة صحيحة عن سيرته وسجاياه فمن حزم ويقظة إلى ميوعة وتراخٍ، ومن إصلاح وتدبير إلى تعسف وتبذير، ومن ورع وتقوى إلى سكر وعربدة وانغماس في اللذائذ، ومن رقة ودموع تنهمر أمام المواعظ إلى غلظة وشراسة ودماء تسفك ظلماً واستبداداً..

ذلك أن عوامل غير محدودة، ونزعات وأهواء متفرقة، تضافرت كلها وعبثت بسيرته، وشوهت الحقائق في سجل حياته، فصيَّرت من شخصه أسطورة تلتف حولها نوادر المجون والخلاعة، وتصوّر أحلام السمَّار والعابثين والمؤلفين لحكايات «ألف ليلة وليلة» وما يشابهها، عن قصد وعن غير قصد.. وكانت أشدها وطأة وجرأة على تشويه

تاريخه، تلك النزعة الشعوبية التي أعمت جماعات من المؤرخين ومدوّني الأحداث، في العصور المتعاقبة، فجعلتهم يهاجمونه في نواحٍ شتى، لحرصه على قوميته العربية، ولا سيّما عندما رأى «سيادة العرب» تكاد تحتضر بين أيدي أناس يتشاورون في إيذائها، ويحيكون لها الدسائس، فانقض عليهم ومزقهم شر ممزق.

ولا نبعد عن الواقع إذا قلنا: ما من زعيم أو كبير من عظماء الناس علق بتاريخه كما علق بسيرة هارون الرشيد من دس وافتراء وبهتان.. وقد خطرت لنا فكرة دراسة حياته، لأسباب سيعلمها القارىء، وأمعنًا في البحث والتتبع، فوجدنا حقائق مطمورة، تفرقت بين الكتب والأسفار، وتبعثرت بحيث أصبحت تحتاج إلى جمع شملها، وربطها ببعضها بعد تنقيتها من الزائد والدخيل عليها، لتعطينا صورة جلية عن كيانه وخلافته وعهده، منذ ولادته حتى ساعة وفاته، وهي في الحقيقة فترة تاريخية غريبة، أدى فيها الدهاء السياسي أخطر أدواره، وتمثل فيها نفوذ المرأة بأبشع صوره، واصطرعت على مسرحها السياسي القوميتان، العربية والفارسية، اصطراعاً لم يعرف مثله منذ الفتح الإسلامي.

واذا كان لتاريخ الأمة صلة متينة بحاضرها، فالحقبة التي اجتازها هارون الرشيد، وجال في ميدانها، كانت من أهم الحقبات في سلسلة ماضينا الغابر: مليئة بالعِبَر والدروس، مشحونة بالأحداث والمناورات والمؤامرات الدامية، مثقلة بالمسرات والأفراح، وبالأحزان والمآسي، في آن.

ونحن لا ننزع إلى التطرف ولا إلى الادعاء، وكل ما نرجوه أن نكون قد قمنا في عملنا المتواضع هذا ببعض الواجب.. ولكن تاريخ العرب لا يزال بحاجة إلى دراسات مستفيضة ليخلص من عبث العابثين به، والحاقدين عليه، وليكون سنداً في بناء القومية العربية، التي لا تزال، منذ موت هارون الرشيد حتى يومنا هذا، واقفة في مفترق الطريق، تبحث عن نقطة للانطلاق في سبيل تحررها، وأداء رسالتها الإنسانية من جديد.

توطئة

- هاشم وأمية
- دولة بني العباس
- عباسيون وعلويون
- بناء مدينة بغداد

هاشم وأمية [1]

في أواخر القرن الخامس الميلادي، توفي «عبد مناف بن قصي» وهو سيد من سادة مكة، وعلم من أعلام قريش، تاركاً وراءه أربعة أولاد «هاشماً وعبد شمس، ونوفلاً، والمطلب»، فانتقلت زعامة الأسرة إلى هاشم، أكبرهم سناً، وأُعطي بعض الخدمات الدينية التي كان يمارسها جده في الكعبة أثناء موسم الحج: كالسقاية والرفادة [2]

وانصرف عبد شمس وأولاده إلى ممارسة التجارة في الحجاز وما جاورها من البلاد، فنشأ ابنه «أمية بن عبد شمس» ثرياً نابه الشأن، رأى عمه هاشماً قد طعن في السن، فنافسه على مركزه الأدبي، ونازعه الزعامة، ثم نافره، فخسر النفار، ولم يستطع البقاء في مكة، فنزح عنها غاضباً، وأقام في الشام عشر سنوات. ولدى عودته إلى موطنه، انشقت أسرة عبد مناف إلى شقين متباغضين، هاشمي وأموي، نمت بينهما الأحقاد على مدى الأيام، وترسبت الضغائن حتى استحالت إلى عداء شديد، ثم تطورت إلى صراع عنيف، دام أجيالاً طويلة، وكلف العرب والمسلمين، فيما بعد، غالياً من الدماء والأرواح، وكان له أدوار خطيرة في توجيه السياسة العليا للدولة الإسلامية في عصورها الأولى.

وكان هذا الصراع، في بادىء أمره، صراعاً خفيفاً، لم يتعدَّ الكره والتنازع والتنافر،

---

(١) يهمنا في هذه التوطئة ذكر الحوادث الرئيسية التي سبقت عهد هارون الرشيد، وكان لذيولها أثر في تاريخه.. وقد أخذناها من أقدم المصادر وأهمها.

(٢) عندما كبر «قصي بن كلاب» ولم يبق قادراً على تولي أمور الكعبة، أعطى مفتاحها إلى ابنه الأكبر «عبد الدار» كما أعطاه السقاية والرفادة واللواء الذي يحمل في الحرب. وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصي ليصنع منه في موسم الحج طعاماً يأكل منه فقراء الحج. وكان عبد مناف أخو عبد الدار هو زعيم الأسرة في الواقع، ولكنه أصغر من أخيه، فلم يُصب شيئاً من خدمات أبيه. ولما توفي عبد مناف اختصم أولاده مع أولاد أخيه عبد الدار وانتزعوا منهم السقاية والرفادة، وأبقوا لهم الحجابة «مفتاح الكعبة والراية الحربية».

كما حدث بين «حرب بن أمية» و «عبد المطلب بن هاشم».. والواقع أنه صراع بين زعامتين: إحداهما دنيوية تستند إلى الثراء والغنى والجاه، والأخرى روحية يدعمها الشعور الديني والحس المعنوي في ذلك الوسط الاجتماعي.

فلما ظهرت «الرسالة المحمدية» في بيت هاشم، وأخذ نطاق دعوتها يتسع في ما بين سكان مكة والقبائل الوافدة إليها، وأوجس وجوه قريش ومن حولهم خيفة على أصنامهم ومعتقداتهم، رأى زعيم بني أمية، يومئذ، «أبو سفيان، صخر بن حرب بن أمية» أن ذلك النجاح المطرد للدعوة الجديدة سيوصل، حتماً، صاحبها الهاشمي إلى زعامة العرب أجمعين، فانضم إلى صفوف المعارضين، وقاوم «محمداً»، ﷺ، بنفوذه وثرائه، وألّب عليه الجموع وحاربه في عدة مواقع، حتى كلّ ساعده وقلّ عدده، ثم وقع أسيراً في أيدي المسلمين يوم «فتح مكة». فعفا عنه النبي ﷺ، وكرّمه وأزال مخاوفه، فاعتنق الإسلام وفي نفسه ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ شيء مما يكنّه الخصم المغلوب.

ثم كانت وفاة النبي ﷺ عام (١١ هـ ـ ٦٣٢ م)، فانتخب المسلمون عبد الله بن أبي قحافة «أبا بكر الصديق» خليفة لهم، وأجمعوا بعد وفاته على خلافة «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنهما ـ وكلاهما ليس من صلب عبد مناف، ولا في أحد الطرفين المتباغضين. فسارت سفينة دولة المسلمين في ظلهما هادئة رضية، وانشغل العرب في تلك الفترة بالتوسع والفتوح، في العراق وبلاد فارس والشام ومصر.

ولما قتل الخليفة «عمر بن الخطاب» (رض) غيلةً، عام (٢٣ هـ ـ ٦٤٤ م) على يد فارسي مجوسي، خلفه في الحكم «عثمان بن عفان الأموي» (رض) وكان شيخاً طاعناً في السن، فاعتمد في إدارة الدولة على من أحاط به من شباب أمية، الذين غلبوه بعض الشيء على أمره، وشغلوا، هم وأعوانهم، جانباً من المناصب العالية، واستأثروا بها دون غيرهم. فكان من جراء ذلك كله أن حدثت أخطاء وتصرفات أثارت التذمر بين جماعات من المسلمين، وكثرت على أثرها الشكاوى، وازداد القيل والقال في أطراف البلاد. ولم يستطع الخليفة الشيخ تدارك الأمر، فحصلت اضطرابات قتل على أثرها عام (٣٥ هـ ـ ٦٥٦ م)، وشقّ بدمه أول صدع في صفوف المسلمين.

وقبل أن يجف دم الشهيد الأموي، بايع الناس «عليَّ بن أبي طالب الهاشمي» (رض)

واستطاع بعض من كان في الحجاز من بني أمية أن يخرجوا من المدينة إلى قريبهم والي الشام «معاوية بن أبي سفيان» ومعهم قميص عثمان الذي قتل فيه وهو يقرأ القرآن، مع أصابع زوجته التي قطعت بسيوف المهاجمين، أثناء دفاعها عنه.

وما كان مقتل عثمان حادثاً بسيطاً، بل فاجعة أحزنت المسلمين على الإطلاق، استغلها معاوية أحسن استغلال، إذ نشر القميص الملطخ بالدم على منبر المسجد الجامع في دمشق، وخطب بالناس، واصفاً الحادث بأسلوب مثير أبكى السامعين، وأثار الشعور بطلب إجراء العدل ضد المعتدين.. ثم نشط من عقاله يطالب بدم القتيل وإجراء الحقّ فوراً، مخفياً وراء ذلك طموحه إلى الملك.

ولكن انضمام الثوار والقاتلين إلى جيش الخليفة الهاشمي، جعل اجراء التحقيق واحقاق العدل، بإنزال العقاب على المعتدين، أمراً صعباً، وخطراً على وحدة الصفوف، ما لم تستقر الأحوال وتهدأ الغائلة.. بَيْد أن معاوية لم ينتظر، فحمل راية الثورة وامتنع عن البيعة، فالتبس الأمر على الناس، وانقسموا إلى معسكرين متحاربين: هذا يؤيد الأموي الثائر ويرى أن لديه الحق في طلبه العادل، وذاك يساند الخليفة الهاشمي تأييداً للبيعة وحرصاً على وحدة الصفوف.

وخرج الإمام علي بن أبي طالب (رض) من الحجاز إلى العراق ليجمع الشمل، ويكون على بصيرة من الأمر. غير أن عدداً من كبار صحابة رسول الله ﷺ، لم يرضهم أن يبقى القاتلون في مأمن من القصاص. فزحفوا بجيش كبير نحو البصرة، والتقوا على مقربة منها بجيش الخليفة علي. وكاد التفاهم يحدث بين الطرفين لولا أن يداً خفية أثارت نار الفتنة[1]، وأوقدت حرباً طاحنة بينهما، سميت بـ«واقعة الجمل» انتصر فيها جيش علي(رض).

ثم تقابل الهاشمي والأموي في حروب دامية شعواء، لا رحمة فيها ولا هوادة، وكاد النصر أن يكون لعلي على معاوية في موقعة «صفّين»، لولا أن «عمرو بن العاص» وهو أحد

(١) يرى الكثير من المؤرخين أن مقابلة الإمام علي لطلحة والزبير كادت تؤدي إلى السلام، غير أن العناصر التي سببت الثورة على عثمان وقتلته خافت من أن تحين الفرصة بعد ذلك لإنزال العقاب فيهم، فعمدوا إلى إشعال الحرب.

دهاة العرب من أعوان معاوية تدارك الأمر، وأشار على جيشه برفع المصاحف على الرماح، وطلب التحكيم والرجوع إلى كتاب الله. فسكنت الحرب، وجرت المفاوضات، وأجري التحكيم بخدعة من عمرو بن العاص هذا ـ كما هو معروف في التاريخ ـ وحدث التصدع في جيش الخليفة علي بن أبي طالب، وانشقَّ عنه جماعة، أطلق عليهم اسم «الخوارج»، الذين قاموا فيما بعد بأدوار خطيرة في دولة المسلمين(١).

واستمرت الحال أعواماً عديدة بين الهاشمي والأموي، حتى تآمرت فئة من هؤلاء الخوارج على اغتيال أكبر ثلاثة من زعماء الجانبين. فاستشهد علي، رضوان الله عليه، في مسجد الكوفة، ونجا معاوية بعد جرح خفيف في جامعه بالشام، وسلم عمرو بن العاص في مصر بعد مقتل نائبه في الصلاة، وانتهى الأمر بانضواء العالم الإسلامي من جديد تحت راية بني أمية، بعد ان تنازل الحسن بن علي، وبايع معاوية بن أبي سفيان، على شروط سجلها عليه، ثم مات بعد ذلك مسموماً(٢).

دام سلطان معاوية زهاء عشرين عاماً، كانت فترة استقرار وهدوء. فلما شعر بضعفه وتقادم سنه، أبى أن يترك أمر الخلافة، بعد موته، شورى بين المسلمين، وعمل على إبقائها في آل بيته، فأخذ من الناس البيعة بولاية العهد لابنه «يزيد»، وجعل دستورها وراثياً بعد ان كان انتخابياً. لكن هذه البدعة الأعجمية لم تلق ارتياحاً لدى الكثير من زعماء العرب؛ وفيهم من يطمح لها، ويرى نفسه أجدر بها من غيره.

وفي عام (٦٠ هـ ـ ٦٨٠ م) تولى يزيد الحكم، ولم يكن متحلياً بشي مما عرف به أبوه، من حسن التدبير والكياسة والحلم. فجرت في عهده، أمور لم يستسغها عقلاء القوم، وتصرفات استاء منها الرأي العام في نواحي البلاد كافة، وبخاصة في الحجاز حيث تقطن مجموعة من الأسر الكبيرة من قريش.

---

(١) قام الخوارج في ثورات وحروب كثيرة ضد علي بن أبي طالب وخلفاء بني أمية وبني العباس وفي عهد هارون الرشيد نفسه كما سنرى فيما بعد.

(٢) توفي الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ مسموماً بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية وقد اختلف المؤرخون في أسباب سمّه.

وكان في طليعة الناقمين على الوضع الذي انتاب سياسة الدولة العليا، الحسين بن علي بن أبي طالب (رض) فخرج من الحجاز يريد العراق، على اثر دعوات وجهت إليه من قبل أشياع أبيه هناك، مصطحباً معه أفراد أسرته، أطفالاً ونساء، وعدداً قليلاً من الأعوان، ولكنه التقى، بطريقه في العراق، فرقة من جيش العامل الأموي، فمنعوه من الدخول إلى الكوفة، وسدوا أمامه السبل، فقاتلهم في موقع (كربلاء) حتى استشهد هو وبعض من كان معه من ذويه ورجاله. فكان لتلك المأساة صدى حزن عميق في قلوب المسلمين لما للحسين الشهيد من صلة قربى بالرسول الأعظم ﷺ.

ويبدو أن هذه النكبات التي نزلت متتالية في بيت الإمام علي بن أبي طالب، دعت آله وأشياعهم إلى التفكير في إيجاد تكتل سرّي منظم، يعمل على نسف سلطان بني أمية من قواعده.. بيد أن اختلاف المؤرخين في كيفية نشوء هذه الفكرة، ودخولها حيز التنفيذ، ألقى غشاء كثيفاً من الغموض على نهجها في خطواتها الأولى.. وتدل الروايات على أن الأنظار اتجهت، بعد مقتل الحسين، إلى أخيه من أبيه «محمد بن الحنفية» أكبر أولاد علي سناً. ولما توفي أجمعت الآراء على ابنه «عبد الله»، المكنّى بأبي هاشم، ليقود الدعوة إلى أهدافها.

كان أبو هاشم حسن التدبير، بعيد النظر، قاد دفة الدعوة السرية وأحسن قيادتها في مرحلتها الأولى، ولم تستطع عيون بني أمية وأرصادهم معرفة نظمها ومحركيها، رغم شعورهم بوجودها، حتى كان عام (٩٧ هـ ـ ٧١٦ م) إذ قدم أبو هاشم إلى الشام، وقابل الخليفة سليمان بن عبد الملك في أمور جاء من أجلها، فأعجب سليمان برجاحة عقله، ووضوح منطقه، وحسن بيانه، وقال: «ما كلمت قرشياً قط يشبه هذا، وما أظنه إلا الذي حدثنا عنه». ثم بعث أناساً قطعوا عليه طريقه، وهو يريد فلسطين، وسقوه السمّ في قعب من لبن.

وعلم أبو هاشم، بعد شربه السمّ، بأنه هالك لا محالة، فوجّه رَكْبَهُ إلى أقرب قرية منه، وتدعى (الحُميمة)، وفيها يقيم «محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عم النبي». فأخبره بحاله، وأطلعه على أسرار الدعوة التي كان يعمل من أجلها، وقلّده رئاستها، وأرشده إلى ما يجب اتخاذه من تدابير، ثم كتب إلى شيعته وأعوانه في العراق وخراسان، يخبرهم

بأنه قد أوكل أمر الدعوة إلى محمد بن علي العباسي، وإلى ولده من بعده، وطلب منهم أن يقصدوه ويتعرفوا إليه ويمتثلوا لأوامره.

وكان العراق وخراسان ميدانين صالحين لاحتضان نواة هذه الدعوة ورعايتها.. فقد كان في العراق عدد كبير من أشياع الإمام علي، ومن بقايا جيوشه التي حاربت تحت رايته، وكان مركزهم الأكبر مدينة الكوفة.. أما خراسان، فكان لها شأن آخر، نلخصه فيما يأتي:

كانت هذه البلاد ذات حضارة عريقة وسيادة قديمة، فتحها العرب حرباً، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. لكن جماعات من أبنائها ظلت تسعى للاستقلال عن العرب، وإن جمعتهم وإياهم جامعة الدين الإسلامي، وقد كان من شأن هذه الجماعات تأييد كل متذمر من الحكم، ومؤازرة كل متمرد على سلطان بني أمية الذين استقلوا بالخلافة والملك.

وأكثر من هذا، أن طبقة من الفرس، الذين ألفوا النظام الملكي منذ عصورهم السالفة، كانت ترى بأنه: إن لم يكن هناك مفر من حكم العرب لهم، فليكن عن طريق رجل من آل البيت، الذين هم أقرب من غيرهم إلى ذات النبي ﷺ صاحب الرسالة الإسلامية، التي ساعدت العرب على حكم باقي الشعوب.. فضلاً عن أن شخصيات كريمة من آل البيت العَلَوي أصبحت، في صدر الإسلام، تمتُّ إلى العنصر الفارسي بِصِلَةِ المصاهرة أو القرابة.. كل ذلك وغيره جعل الأكثرية من أهل خراسان تؤيد الهاشميين بوجه عام، والعَلَويين بوجه خاص، على خصومهم بني أمية.

وفي كل حال، فقد كان عمل أبي هاشم في إعطاء قيادة الدعوة إلى محمد بن علي العباسي، وأبنائه من بعده، عملاً خطيراً ظهرت نتائجه فيما بعد، لأنه نقل غرس هذه الشجرة من بيت أبيه العَلَوي إلى بيت عمه العباسي، ولا بد من أن تصير ثمارها لمن ستزهر وتثمر في بستانه غداً.. ولأبي هاشم في عمله هذا أعذار كثيرة: منها، خوفه من أن يموت في الطريق قبل أن يتمكن من إيجاد خلف له من آل بيته، فتضيع الفكرة وتذهب الجهود عبثاً، أو تتمزق وحدة الصفوف بين الأشياع والمؤازرين. ومنها أيضاً، أن البنين من أحفاد الإمام علي، في تلك الآونة، كانوا صغار السن، وربما لم يكن بينهم من يستطيع تحمل هذه المسؤولية الخطيرة التي تحتاج إلى الكفاءات والجهود المضنية، هذا مع كثرة

الشباب في آل العباس وسعة نطاق نشاطهم الاجتماعي والسياسي: فقد كان لمحمد بن علي وحده، واحد وعشرون أخاً في سن الفتوة، وثمانية أولاد من البنين، عدا من كان يلتف حوله من بني أعمامه الهاشميين الآخرين[1].

فلم يكد يستلم قيادة الدعوة حتى تنشط من عقاله إلى غايته، فجمع أعوانه والرؤساء من أصحاب أبي هاشم المتوفى، ووضع لهم الأنظمة وسن الخطط، ووزع عليهم الأعمال، وحدد لكل منهم منطقة يعمل فيها.. وأمر بأن تبقى الدعوة باسم رجل من آل البيت أو «آل محمد» وأخفى هويته إلا عن الخاصة من زعماء الحركة الذين يتصلون به مباشرة، تحسُّباً للانشقاق، ولكي تكون الفكرة أكثر استساغة عند الناس.

ولم تجهل حكومة بني أمية أمر هذه الدعوة ونشاطها، ولكنها لم تستطع العثور على مصدرها ومعرفة من يقود زمامها، فاكتفت بمطاردة الدعاة حيث وجدتهم، وضيقت المجالات على الهاشميين بوجه عام، ولا سيما العلويين منهم، وأوجدت مختلف الوسائل للدعاية ضدهم على أعواد المنابر وغيرها، حتى إذا كان عام (٩٩ هـ ـ ٧١٧ م) تولى الخلافة في الشام «عمر بن عبد العزيز بن مروان» وكان ورعاً تقياً، لم يتَّبع سنن أسلافه في الشد على الخصوم، فانتعشت الدعوة واتسعت رقعتها، ووجد صاحبها، محمد بن علي، المجال الكافي لإعادة تنظيمها، وإحكام حلقاتها، فاختار لها سبعين رئيساً من ثقات رجاله، وجعل عليهم اثني عشر نقيباً لهم الكلمة النافذة بعد إرادته[2].

لكن أمد خلافة ابن عبد العزيز لم تطل كثيراً. فمات بالسمّ، وخلفه على الحكم «يزيد

---

(١) أخوة محمد بن علي، هم: عثمان. ومبشر، وبشير، وداود، وعبد العزيز، وعيسى، وعبيد الله، وسليمان، وصالح، وأحمد، وإسحاق، ويحيى، وعبد الصمد، واسماعيل الأكبر، واسماعيل الأصغر، ويعقوب، وعبد الملك، وعبد الرحمن، وعبد الله الأكبر، وعبد الله الأوسط، وعبد الله الأصغر.
وأما أولاده فهم: ابراهيم الذي عرف بـ«الإمام» وعبد الله «الخليفة، أبو العباس السفاح» وعبد الله «الخليفة، أبو جعفر المنصور»، وعباس، ويحيى، وموسى «أبو عيسى، ولي عهد المنصور».

(٢) كان من أشهر الدعاة لآل البيت قبل اختيار النقباء: ميسرة أبو رباح وأبو سلمة الخلال، ومركزهما العراق؛ ومحمد بن خنيس، وأبو عكرمة السراج، وحيان العطار في خراسان. فلما انتظمت الدعوة ترأسها أثنا عشر نقيباً هم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريض التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب أبو عيينة التميمي، وأبو النجم عمران بن اسماعيل، وأبو داود خالد بن ابراهيم الشيباني، والقاسم بن مجاشع التميمي، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وأبو حمزة عمرو بن أعين، وشبل بن طهمان الهراوي، وأسلم بن سلام التميمي، ولحق بهم آخرون لسد فراغ من مات منهم مثل بكير بن ماهان، وغيره.

ابن عبد الملك» فلم يحدث في عهده جديد، ولم يمتد أجله، فأعقبه أخوه «هشام بن عبد الملك» الذي لم يشأ ترك الدعوة وشأنها، بل ضيَّق على أهلها الخناق، وطارد دعاتها في كل مكان، وقتل قسماً منهم وسجن آخرين، وبث العيون والأرصاد ليعرف زعيم الحركة ومكانه، فلم يهتد إلى ذلك، وطال به البحث حتى عثر عليه، فزجه في غيابة السجن، ثم قتله فيه خنقاً عام (١٢٤ هـ - ٧٤٢ م). ولكن محمد بن علي كان قد أوصى قبل موته بالزعامة لابنه ابراهيم الذي لقب نفسه «الإمام».

لم يتوان ابراهيم عن إتمام رسالة أبيه، ولم يضعف أمام ذلك الإرهاب والتنكيل، وراح متخفياً يتصل بدعاة أبيه. ويحثّهم على الصبر والكفاح والعمل، ويعدهم قريباً برفع راية الثورة.. وكان من بين من يتردد عليه في مخبئه شاب فارسي في مقتبل العمر، حاد الذكاء نافذ الرأي يدعى «عبد الرحمن بن عثمان» ويعرف بكنيته «أبي مسلم الخراساني». وقيل إنه من أحفاد «بزرجمهر» أحد ملوك الفرس الأقدمين، وكان شديد الكره للعرب، كثير التعصب لعنصره، يطمح إلى إعادة أمجاد قومه.. أعجب به ابراهيم الإمام، ولمس إخلاصه للدعوة وتفانيه في سبيلها، فجعله أميراً على النقباء والرؤساء كافة في خراسان، وقلّده قيادة الحركة فيها، وصيّر كلمته العليا، وأمره بالالتحاق ببلاده للعمل، وانتظار ساعة ظهور الدعوة.

ومضت الأيام في صالح القوم. فمات هشام بن عبد الملك عام (١٢٥ هـ - ٧٤٣ م) وتضعضع بموته صرح دولة أمية، واعتلى العرش في مدة وجيزة ثلاثة خلفاء، في جو تسوده الاضطرابات والفوضى والتفكك، ما ساعد ابراهيم الإمام وأعوانه على السير شوطاً بعيداً في رسالتهم، وجعل الناس في كل مكان يقبلون على دعوتهم، رغبة في التخلص من فوضى الإدارة وسوء تدبير الحاكمين.

وفي عام (١٢٧ هـ - ٧٤٥ م) تولى الخلافة «مروان بن محمد الجعدي» المعروف بإقدامه وصبره على الشدائد، فوجد المملكة تتمخض بالفتن والثورات، ولا سيما الجانب الشرقي منها: ففي خراسان عداء ونفور بين القبائل العربية القاطنة فيها يُعزى سببهما إلى سوء إدارة الولاة المتعاقبين عليها، ومحاباة كل منهم لقبيلته ضد الآخرين. وفي شمال العراق وأذربيجان قيام الخوارج باضطرابات واسعة النطاق. وفي فارس دعوة جديدة ضد

السلطان بزعامة «عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب».. فلم يكن أمام مروان، وهو القائد الحازم، إلا أن يشمِّر عن ساعده لإصلاح ما أفسد الدهر، لكن الخرق كان قد اتسع على الراقع.

وجاء عام (١٢٩ هـ ـ ٧٤٧ م) مشحوناً بالأحداث. فقد كانت جيوش مروان تقاتل كتائب الخوارج، وتعمل على إخماد جذوتهم شيئاً فشيئاً، في حين كانت عساكر والي العراق تخوض حرباً عنيفة ضد جموع الثائر «عبد الله الطالبي»، كما كان عامل خراسان «نصر بن سيار» يصارع «جديع بن علي الكرماني» ومن معه من القبائل العربية المتمردة.

إلى جانب هذا كله، بدأ أبو مسلم يستعد في خراسان، فجمع أعوانه ونظم جيوشه من الفرس والعرب، وضمّ إليهم فلول المنهزمين من جماعة «الكرماني» الذي قتله نصر ابن سيار، بانتظار أوامر ابراهيم الإمام الكامن في قرية (الحُميمة)؛ لكن انتظاره لم يطلْ، وقد دنت الفرصة السانحة، فأرسل ابراهيم رايته السوداء مع أحد النقباء «قحطبة بن شبيب الطائي» عام (١٣٠ هـ ـ ٧٤٨ م) مشيراً بإعلان الحرب. فاستلم أبو مسلم الراية من قحطبة، وعيّنه على مقدمة الجيش، وأمره بالزحف إلى ميادين القتال.

وكان نصر بن سيار يعلم بنوايا أبي مسلم قبل أن تنبعث ثورته، فراح يرسل أخبار تحفُّزِه إلى الخليفة الأموي عن طريق عامل العراق «يزيد بن هبيرة» ويحذره نتيجة أمره، طالباً إرسال المدد إليه ليطفيء النار في مكمنها. لكن ابن هبيرة كان يكره ابن سيّار، ويتعمد حجز رسائله الموجهة إلى مروان، كي لا يمده بالقوى المطلوبة فينتصر على خصمه، ويقوى نفوذه.

وضاق ابن سيار ذرعاً بأمره، فأرسل من عنده إلى مروان شخصاً يحمل رسالته المشهورة التي يقول فيها:

أرى خللَ الرمادِ وميضَ نارٍ	ويوشك أن يكونَ لها ضرامُ
فإن لم يطفها عقلاءُ قومٍ	يكون وقودَها جثثٌ وهامُ
أقول من التعجُّبِ: ليتَ شِعري	أأيقاظٌ أميةُ أم نِيامُ ؟؟
فإن كانوا لحينهمو نياماً	فقلْ: قوموا فقد حانَ القيامُ

فبعث مروان إلى ابن هبيرة، يؤنبه على فعلته، ويأمره بإرسال المدد إلى عامل خراسان، ويهدده بالشر إذا تقاعس عن ذلك. فأرسل ابن هبيرة جيشاً صغيراً إلى ابن سيّار الذي ظل يقاوم زحف جيوش أبي مسلم، ويتلقى الضربات العنيفة، الواحدة تلو الأخرى، حتى مرض ومات قرب مدينة (الريّ) عام (١٣١ هـ ـ ٧٤٨ م) عن عمر يناهز الخامسة والسبعين. وبموته خلا الجو في خراسان كلها. وقضى قحطبة بن شبيب الطائي، وخزيمة بن خازم، وغيرهما من قواد الدعوة الهاشمية، على بقايا فلول بني أمية، وراحوا يتقدمون نحو العراق.

خلال تلك العواصف الجامحة، وقع في يد مروان كتاب مرسل من ابراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني، وفيه ما يكشف عن بعض أسرار الثورة وأسماء المشتركين في قيادتها. فقبض في الحال على ابراهيم. وأودعه السجن، كما قبض على عدد من أعوانه. وعلم هذا أنه هالك، فأوصى بالرئاسة والبيعة لأخيه عبد الله المكنّى بأبي العباس، وأمره بالسفر حالاً إلى الكوفة متنكراً، مع رجال من آل بيته، وأوصى بأن يكتم خبر موته إذا حان أجله، حتى يتم النصر. فكان ما أراد، وقد مات مخنوقاً في حبسه.

واجتاز جيش قحطبة حدود العراق، يريد الكوفة، فتوجه يزيد بن هبيرة لقتاله على رأس عسكر كبير. والتقى الفريقان قرب الفرات في شهر المحرم من عام (١٣٢ هـ ـ ٧٤٩ م) فاقتتلا قتالاً عنيفاً، صرع فيه قحطبة، فاستلم القيادة ابنه الحسن، وانتهت المعركة بهزيمة جيش والي العراق، فولى الأدبار. ودخل عسكر بني العباس مدينة الكوفة، وأخرجوا من كان في السجون من الدعاة، ومن بينهم النقيب «حفص بن سليمان» المعروف بأبي سلمة الخلال، وكان من أكبر أقطاب الحركة في العراق، ويلقبونه «وزير آل محمد»، فاستلم شؤون الإدارة هناك وتدبير الأمور، ريثما يظهر صاحب الدعوة.

وكان أبو مسلم الخراساني وراء خطوط القتال، ينظم الإدارة، ويطهر البلاد المفتوحة من العناصر المعادية، ويجبي الخراج، ويوزّع الأموال على المستحقين، ويغذّي قيادة الجيوش، حتى دخل حميد بن قحطبة أراضي العراق، فصار «خالد بن برمك» يعنى بالشؤون المالية وراء انتصاراته.. فلما سقطت الكوفة بأيدي الثائرين، وانهزم ابن هبيرة بفلوله، تجزأ الجيش العباسي الكبير إلى فرق عديدة لفتح زوايا البلاد وملاحقة تلك الفلول. فتوجّه «حميد بن قحطبة» لفتح المدائن، وسار خالد بن برمك إلى (دير قُنى) وزحف

«سفيان المهلبي» لحصار البصرة، أما شمال العراق فقد بقي في قبضة مروان بن محمد الجعدي.

وبينما كانت كتائب الثورة هذه تنشر ظلالها على جنوب وادي الرافدين، قَدِمَ الكوفة أبو العباس، صاحب الدعوة، وجماعة من آل بيته، فأنزلهم أبو سلمة الخلال خارج المدينة، ثم نقلهم إلى داخلها، وأسكنهم دار رجل من الدعاة، وطلب منهم كتم أمرهم عن الناس بحجة أن النصر لم يتم بعد، وأن الخليفة الأموي لا يزال على قيد الحياة ويرأس جيشاً كبيراً مرهوب الجانب. ولكن الحقيقة غير ذلك، إذ إن الرجل كان ميالاً إلى آل البيت العَلَوي، وراغباً في إعطائهم قيادة الدعوة. وهناك رواية تقول إنه فاتح بعض العلويين في رغبته هذه. غير أن خبر قدوم أبي العباس وصحبه، تسرب إلى أسماع بعض القادة الموجودين في الكوفة وما حولها، فأسرعوا إلى مقابلته، وبايعوه، وعنفوا أبا سلمة على فعله، وأجبروه على مواجهة صاحب الدعوة، فأذعن وبايع واعتذر عما حدث منه من تأخير، وإن لم يعترف بميوله.. وكادت القضية تخرج من أيدي بني العباس بعد أن بات النصر النهائي قريباً منهم(١).

وفي صباح يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول من عام (١٣٢ هـ ـ ٧٤٩ م) خرج أبو العباس من مخبئه بحفل رسمي، حضره القواد والأمراء وجماعة من أفراد الاسرة العباسية، ودخل مسجد الكوفة، فخطب بالناس، وذكر مظالم بني أمية، وبيَّن منهاج عمله في المستقبل، ثم صلى إماماً بالحاضرين، وأُخذت له البيعة بالخلافة.. وهكذا أعاد التاريخ نفسه، فانقسم المسلمون، مرة أخرى، الى معسكرين، في ظل خليفتين: أموي على عرش الشام، وهاشمي يبني عرشه في العراق. ولكن الزمان الذي حالف معاوية بن أبي سفيان الأموي ضد علي بن أبي طالب الهاشمي، قبل مائة عام، أراد اليوم أن يؤدي دوراً آخر.. فقد ظل مروان بن محمد على رأس جيشه في شمال العراق يقمع الفتن ويطفىء الثورات، ويتلفت إلى ما آلت اليه انتصارات خصمه أبي العباس، ويتحيَّن الفرص لمنازلته في معركة حاسمة تكون إما له وإما عليه.

وعبّأ أبو العباس جيشاً كبيراً بقيادة عمه «عبد الله بن علي» وأرسله لمنازلة مروان،

---

(١) انظر الجهشياري ٨٦.

فالتقى العسكران على ضفة نهر (الزاب) قرب مدينة (الموصل) في شهر جمادى الآخرة من عام (١٣٢ هـ - ٧٤٩ م)، ودارت بينهما رحى حرب ضروس، دامت تسعة أيام، كاد النصر في أولها أن يكون للأموي، لكن خبراً خاطئاً أذيع في صفوف جيشه ينبىء بمقتله، فلاذ العسكر بالفرار، ما اضطر مروان إلى الانسحاب، لكن عبد الله بن علي تبعه وأمعن في ملاحقته.

وراح مروان يلتجيء إلى المدن التي يريد منها أن تحميه، فكانت تغلق أبوابها في وجهه خوفاً من سيوف مطارديه، حتى وصل عاصمته (الشام) فلم تستطع حمايته هي أيضاً، فتركها إلى فلسطين، ثم توغل في مصر، واستقر في قرية (بوصير)، فداهمته خيول صالح بن علي العباسي فيها، فقاتلها حتى قتل، في ٢٧ ذي الحجة من عام (١٣٢ هـ - ٧٥٠م).. وبموته زال سلطان أمية في المشرق، وخفقت راية هاشم، من جديد.

دولة بني العباس

كان انتقال الخلافة إلى أيدي العباسيين، بالطرق التي رأيناها، فاتحة عهد جديد، تسوده فكرة تبديل إطار الدولة، من عربي صميم ضيق إلى إسلامي أعم، وتشترك فيه العناصر الأخرى من غير العرب، ولا سيما الفرس الذين ساهموا في الكفاح، وعملوا في سفينة الدعوة وقيادتها إلى ساحل النجاح.

غير أن مصرع الخليفة الأموي وتمزيق جيوشه، لم ينهِ متاعب المسؤولين عن الحكم الجديد، وهم ما زالوا في دور التأسيس. وكان على الخليفة الأول أبي العباس أن يبدأ قبل كل شيء بتطهير ساحة الدولة من ذيول العهد السابق، وكَسْرِ شوكة خصوم كثيرين ليس من الحزم تَرْكُهُم يتحيّنون الفرص للإيقاع به أو النيل منه: وفي مقدمتهم جماعات بني أمية، وشخصيات عربية أخرى من قوادهم وفلول جيوشهم، وفيهم من قد تحدثه نفسه بالثأر للملك الزائل، وبإعادة النفوذ العربي الذي أوهنت كيانه ثورة بني العباس التي تستند إلى الكثير من حراب الفرس.

إلى جانب هؤلاء، ظهرت على مسرح السياسة الحديثة، عناصر أعجمية وتبوأت مكانة الزعامة في قومها، ولكنها لم تخلص لحكم بني العباس، فكان هوى بعضها مع العلويين، ونزعة بعضها الآخر قومية فارسية خالصة، ترمي إلى الانفصال والاستقلال، واعادة أمجاد فارس التي قوضتها فتوحات العرب منذ عهد قريب.

وجّه أبو العباس ضربته الأولى نحو فلول الأمويين، مستعيناً بكتائبه التي لم تطوِ راياتها السوداء الثائرة بعد.. فطاردهم في كل مكان، وأعمل فيهم السيف، دون أن يستثني صغيراً في بيته أو كبيراً في معتكفه؛ وغالى في سفك دمائهم بأشد ما تكون القسوة والإبادة، حتى إنه نبش قبورهم، وأخرج جثث بعض خلفائهم منها، وصلبها ثم جلدها..

ولم يفلت من قبضة جلاديه سوى نفر قليل، كان منهم فتى في مقتبل العمر يدعى «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» المعروف «بصقر قريش»، وقد هرب بأعجوبة إلى شمال أفريقيا، ثم عبر البحر إلى شبه جزيرة الأندلس، وشكل فيها إمارة مستقلة، حكمها هو أربعة وثلاثين عاماً (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ) وأعقبه أولاده على حكمها من بعده.

وكانت سياسة الإبادة هذه، آخر ما وصل إليه الصراع والحقد بين الهاشميين والأمويين، والتي لم يحدث مثلها عند العرب المسلمين، من قبل، فلقّب صاحبها بأبي العباس «السفّاح» لكثرة ما جرى في عهده من سفك دماء خصومه، وإن كان بعض المؤرخين ينكرون ذلك، ويزعمون أن هذا اللقب أطلق عليه قبل خلافته، لما اتصف به من الكرم والضيافة ونحر الجزور للضيوف.

والواقع أن قسوة أبي العباس السفّاح هذه، ضد الأمويين ومن التفّ حولهم من كبار الشخصيات العربية، كانت تلاقي هوى وارتياحاً من عناصر أخرى تؤازره وتعمل معه، وبخاصة الفرس الحانقين على العنصر العربي، والطالبين للثأر القديم. وقد أجمعت الأخبار التاريخية على أن كتائب التطهير، التي اعتمد عليها بنو العباس في حملة الانتقام والإبادة هذه، كانت من الفرس.. وفي رواية أخرى، أن أبا العباس أراد أن يوقف سفك الدم الأموي بعد ان أشفى غليله منه، فاجتمع في مجلسه ذات يوم عدد كبير من الأمويين يحادثونه ويسترضونه، فلم يرق هذا بعض حاشيته من الأعاجم، فأدخلوا عليه شاعراً يقول له:

لا يغرنّك ما ترى من رجالٍ	إن تحتَ الضلوعِ داءً دويا
فارفَعِ النِّطْعَ واعملِ السيفَ حتّى	لا ترى فوق ظهرِها أمويا

فقتلهم جميعاً.. وهكذا بدأ النفوذ العربي يتقلص، وتنكمش أكثرية عناصره عن البلاط الهاشمي الجديد.

ثم التفت السفّاح إلى وزيره «أبي سلمة الخلال» الذي ارتاب بميله إلى العلويين، فصمم على قتله والتخلص منه، لكنه شعر بخطر الاقدام عليه، لما لهذا الرجل من مكانة بين أعوانه، فكتب إلى أبي مسلم الخراساني يستشيره بأمر هذا الوزير الذي يضمر في نفسه الغش، فأجابه: «إن كان أمير المؤمنين اطّلع على ذلك منه فليقتله»، فقال له أحد نصحائه من

بني العباس: «لا تقتله أنت، فيحتج عليك أبو مسلم، لأن أهل خراسان والذين معك هم أصحاب أبي سلمة. ولكن أكتب إلى أبي مسلم، فليبعث إليه من يقتله، بعد أن تتظاهر أنت بالرضا عنه والثقة به» فكتب ذلك، فأرسل أبو مسلم الخراساني نفراً من عنده لتنفيذ المؤامرة، فاغتالوه ليلاً، وأشاعوا في الناس صبحاً أن الخوارج قتلوه.

ولم يكن أبو مسلم أقل خطراً على أبي العباس من صاحبه، وقد تفاقم أمره في خراسان، وتضخمت جموعه، وقوي نفوذه، فاستبد في إقليمه، وطارد بعض رجال الثورة هناك، وقتل عدداً من رؤساء الدعوة الذين عارضوا سيرته، وراح يتظاهر بأنه هو الذي أدال دولة أمية وشاد صرح هاشم، ويزعم أنه باقٍ مدى حياته سيداً وزعيماً على خراسان، ويهدد بقتل كل من يأتي من قبل الخليفة ليحل محلّه.. ويبدو أنه لم يبق بينه وبين انفصاله عن الدولة إلا غضبة فثورة على السلطان.

وشعر أبو العباس بخطره، لكنه لم يستثره في شيء، وأرسل اليه أخاه «عبد الله بن محمد» المكنّى بأبي جعفر، زائراً ومسلّماً، وكلّفه بدراسة موقف الرجل ونواياه. فذهب ثم عاد إليه يقول: «لست خليفة، وليس أمرك في شيء إن لم تقتل أبا مسلم» قال: وكيف؟؟ قال: «والله ما يصنع إلا ما يريد» قال أبو العباس: «أكتمها، ولا يسمعك أحد». ثم أمر سراً أحد خاصة أبي مسلم أن يكتب إليه بما يُرغبه في المجيء إلى العراق ومقابلة أمير المؤمنين.

وما زال حتى اطمأن وزالت مخاوفه، فكتب إلى أبي العباس يستأذنه بالزيارة له، والحجّ مع قسم كبير من جيشه، فأجابه موافقاً على أن لا يكون معه أكثر من خمسماية جندي، فلم يرضَ أبو مسلم، وكتب يقول: «إني قد وترت الناس، ولست آمن على نفسي. وإن هذا العدد قليل». فأجابه: «أقبل في ألف جندي، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك، وطريق مكة لا يتحمل العسكر». فسار أبو مسلم في ثمانية آلاف من جيشه، فرّقهم في طريقه، وترك خزائنه في مدينة (الريّ)، وورد العراق بألف جندي، ودخل العاصمة (الأنبار) فاستقبله القواد والأمراء، وأكرمه أبو العباس أيما إكرام، ثم همّ بقتله، ولكنه لم يفعل، وأذن له بالحج مع الناس بإمرة أخيه أبي جعفر عام (١٣٦ هـ - ٧٥٣ م).

وفي شهر ذي الحجة من العام نفسه، مرض أبو العباس السفّاح، وأحس بأنه ملاقٍ ربه، فقرر أن يعهد بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر، على أن تكون من بعده لابن أخيه

«عيسى ابن موسى بن محمد». فكتب العهد بخطِّه، وجعله في ثوب، وختمه بخواتم أهل بيته.. وكان أبوجعفر هذا من أذكى بني العباس، وأكثرهم علماً، وأحسنهم تدبيراً، كما كان عيسى بن موسى أشجع شباب بني العباس، وأبرزهم في القتال وقيادة الجيوش.

ومات أبوالعباس في مرضه ذاك، ووصل خبر الوفاة وولاية العهد إلى أبي جعفر، وهو في مكة، فصعد المنبر ونعى أخاه للناس وعزَّاهم بموته، وأنبأهم بالعهد، فبايعوه، وبايع أبومسلم الخراساني معهم[1]. وقبل أن يتأهب للعودة إلى العراق ـ وقيل بعد عودته ـ وصله نبأ أن عمه «عبد الله بن علي» قائد موقعة الزاب ضد الخليفة الأموي، ادَّعى أن السفّاح أوصى له بالخلافة من بعده ولم يوصِ لغيره، وأنه أعلن عصيانه وثورته على بيعة أبي جعفر الذي لقَّب نفسه بالخليفة المنصور، فلم يكن من أبي جعفر إلا أن وجَّه أبا مسلم لقتاله، ضارباً بذلك خصمين لدودين بعضهما ببعض، فأيهما انتصر كان له معه غداً موقف وحساب.

والتقيا بالقرب من الشام، فاقتتلا شهراً كاملاً، كانت الغلبة في النهاية لأبي مسلم، وفرَّ عبد الله إلى أخيه والي البصرة «سليمان بن علي» فتشفَّع له عند أبي جعفر المنصور، فلم يقتله وأعطاه الأمان، لكنه سجنه في بيت قيل إنه بُنِي على أسس من الملح، ثم أُسيل فيه الماء فسقط البناء عليه، فمات.

لا شك في أن انتصار أبي مسلم على عبد الله ـ قاهر جيوش مروان ـ زاده هيبة ونفوذاً عند الناس، وجعل تعلُّق العناصر الفارسية به أشد وأقوى، ما ضاعف خشية أبي جعفر منه، وأقضَّ مضجعه، وأخافه من عودته إلى خراسان. فكتب إليه يهنئه بالنصر، ويكرِّمه بتوليته على مصر والشام. لكن أبا مسلم رفض وأبى إلا العودة، وخرج يريد موطنه الأول، ولم يفد إلحاح الخليفة به، فاستدعاه، فامتنع وازداد عناداً وإصراراً، وهدده بالخلع إن طلب منه غير ذلك، فاضطرب أبوجعفر وهو يعلم أن تمرده هذا يعني تمرد خراسان كلها، وخراسان حديثة عهد بالنصر، وفيها السلاح والرجال، حتى الجيوش التي قاتلت بني أمية لا تزال في ثكناتها، وهي مرتبطة بشخص زعيمها الحقيقي، أبي مسلم، ارتباطاً أشد من ارتباطها بأي شخص آخر.

(١) هناك رواية تقول إن خبر وفاة السفاح وصل أبا جعفر وهو في طريق العودة إلى الأنبار.

ولم يبقَ أمام المنصور غير الحيلة والمخادعة، وإلا فالحزم والشدة، فأوعز إلى مشيخة بني هاشم أن يكتبوا له، ويحذروه عاقبة البغي، وأرسل الكتب مع رسول من خاصته، وأوصاه بأن يجامله بلطيف الكلام، ويظهر تقدير الخليفة لجهوده ومواقفه، ويدعوه إلى مقابلته بزيارة ودّية، فإن رأى منه إعراضاً وشماساً قال له: «إن أمير المؤمنين يقسم بالله ويقول: لو خضت البحر لخضته وراءك، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها، حتى أقتلك أو أموت».

فارتعب أبومسلم من ذلك القسم، ومن وحدة صفوف مشيخة بني هاشم تجاهه، وانحراف نائبه في خراسان إلى جانب الدولة. فأذعن للأمر، وترك جيشه، وسار بعدد من الحرس إلى (المدائن) حيث يقيم الخليفة، فوصلها في ٥ شعبان من عام (١٣٧ هـ ـ ٧٥٥م). وكان المنصور قد دبَّر المؤامرة له، فاستدعاه إلى قصره وحيداً، ثم عاتبه وأنَّبه، وأمر الحرس بقتله، ورمى برأسه إلى الجند الذين جاؤوا برفقته مع أكياس من الدراهم والدنانير الذهبية، ومنحهم العلاوات، وغمر رؤساءَهم بالجوائز والمناصب المغرية.. وانتهى الأمر[١].

كان مقتل أبي مسلم نصراً عزيزاً لسلطان بني العباس[٢]، وضربة قوية لتلك القومية الفارسية المشبوبة، يومئذ، في خراسان. وعلى أثر ذلك، خرج أحد صنائع القتيل ـ وكان زعيماً من مجوس فارس ـ يدعى «فيروز اصبهد» ويلقب بـ«سنباذ» يطالب بالثأر، فالتفَّت حوله جموع كثيرة، وغلب على عدة مدن هناك، ودخل (الري) واستولى على خزائن أبي مسلم المودعة فيها. فأرسل إليه المنصور قائداً عربياً من رجاله الأشداء يدعى «جهور بن مرار العجلي» فقاتله وهزمه وأسر عدداً كبيراً من أعوانه، واستردَّ الخزائن المغصوبة.

لا يهمنا التبسط بالبحث أكثر من هذا، لنعلم كيف تمكن أبوجعفر المنصور من السيطرة على زمام دولته وردِّ اعتبارها بعد أن كادت الأحداث تطوح بكيانها، وبخاصة

---

(١) الذي قتل ابا مسلم هو «عثمان بن نهيك» وأربعة من حرس المنصور.

(٢) قيل إن عيسى بن موسى كان صديقاً لابي مسلم، فلما سمع بقتله أسف عليه، فقال له أبو جعفر: «أسكت، فما تم سلطانك وأمرك إلا اليوم».

تجاه العنصر الفارسي الذي برز إلى الميدان بشكل مارد جبار بعد أن تضاءلت شوكة القومية العربية إلى حد ما.. واستقرت سياسة الدولة على لون ثابت: خليفة عباسي في يده الحل والعقد، وأمراء من بني العباس لهم المكانة العليا، وحاشية كبيرة تدير المناصب وأعمال الدولة، وهي خليط من العرب وغير العرب وإن كان العنصر الثاني هو الغالب، كما استأثر الفرس بالمركز الوزاري حتى أصبح ذلك قاعدة مألوفة لدى الخلفاء العباسيين الأولين.

عباسيون وعَلَوِيّون

لم يبق أمام أبي جعفر المنصور من المشاكل الرئيسية سوى مشكلة العَلَويين، وقد بدأت حركتهم تتمخض في الخفاء قبيل استيلاء العباسيين على الحكم. وحجتهم في ذلك أن الدعوة ولدت في بيتهم، ورعاها أشياعهم، وتغذت باسمهم - آل البيت، أو آل محمد - فلا يصح أن تكون ثمرتها من نصيب أبناء العباس، ويكون نصيبهم منها الحرمان، وهم أقرب إلى النبي ﷺ من أبناء عمه هؤلاء.. وقادهم استياؤهم هذا إلى التكتل من جديد، برئاسة «محمد بن عبد الله بن الحسن» المعروف بـ«النفس الزكية». وامتنع بعضهم عن البيعة منذ البداية، وجعلوا الحجاز مركز دعوتهم.

ولم يشأ أبو العباس، يومئذ، أن يأخذهم بالشدة لئلا تكون بادرة عداء وانشقاق بين الهاشميين أنفسهم، والدولة لا تزال حديثة العهد رقيقة الأركان والدعائم. فصبر على مضض منه، حتى قدم عليه «عبد الله بن الحسن» مع من قدم من المدينة مبايعاً ومهنئاً. فأكرمه أبو العباس السفّاح وبرّه، ثم أبدى له استياءه مما يسمعه عن ابنه محمد الذي لم يبايع حتى تلك الساعة. فأجابه عبد الله يقول: «يا أمير المؤمنين، ما عليك من ابني محمد شيء تكرهه. إنا نحميها من كل قذاة يحل ناظرك منها» فسُرَّ أبو العباس لجوابه وقال له: «بك أثق، وعلى الله أتوكل».

وبرّ محمد بن عبد الله بوعد أبيه حتى توفي أبو العباس دون أن يحدث في عهده القصير ما يعكّر الجوّ بين الطرفين، وإن كانت الحركة مستمرة بالتوسع والعمل في الخفاء. فلما تولى أبو جعفر المُلك، وتوطدت بين يديه الأمور، التفت إليهم بعين الغاضب الحانق، وألقى القبض على جماعة منهم، وسألهم عن مكان محمد بن عبد الله المتخفّي، فلم يدلّوه، وقال له بعضهم: «علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فخافك على نفسه،

ولكنه لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية» وقال آخرون: «إنه والله الذي لا ينام عنك، فالرأي رأيك». فقلق المنصور وساورته المخاوف وراح يحسب للأمر حسابه.

وكان محمد بن عبد الله متخفياً في الحجاز يعمل للدعوة، وقد أرسل أخاه ابراهيم لينشط بالأمر هناك، فأرسل المنصور «رياح بن عثمان» والياً على المدينة، وأوصاه بأخذ الناس بالشدة، ومطاردة الخصوم. فأتاها، وخطب في الناس بلهجة قاسية لا تخلو من التهديد، متوعداً كل من علم أو سمع بأخبار العَلَوي الثائر ولم يأته بها، فأجابوه بما لا يحب، وأهانوه. فبعث لهم المنصور كتاباً قُرِىء عليهم يقول فيه: «يا أهل المدينة، إن واليكم كتب إليَّ يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين.. وأمير المؤمنين يقسم بالله، لئن لم تنزعوا ليبدلَنَّ بعد أمنكم خوفاً وليقطعَنَّ البر والبحر عنكم، وليبعثنَّ عليكم رجالاً غلاظ الأكباد، بعاد الأرحام».

وتوترت الأزمة بين رياح بن عثمان وأهل المدينة، فألقى القبض على جماعة من العَلَويين ومن بينهم عبد الله بن الحسن نفسه، وضيَّق عليهم، وغالى بالتهديد والوعيد في خطبه على المنبر، فرموه بالحصى، وأنزلوه من على المنبر قسراً وتوعدوه بالقتل، وكادوا يفتكون به، فاستتر عنهم خوفاً على حياته.

وبقي الحبل مضطرباً بين الطرفين خلال ذلك العام (١٤٤ هـ ـ ٧٦٢ م) حتى حان موسم الحجِّ، فقصد المنصور أرض الحجاز، ونزل (الربذة) قرب المدينة، فجاءه عاملها، وقص عليه الأخبار، فأمر بإحضار العَلَوِيين المسجونين وسألهم عن محمد بن عبد الله، فلم يجبه أحد منهم، فبعث بهم جميعاً إلى الكوفة حيث سجنوا في أقبية تحت الأرض، ريثما ينظر في أمرهم.

واستاء أهل المدينة مما حدث، فجاء بعضهم إلى الفقيه الكبير «مالك بن أَنَس» يستفتونه في أمر البيعة التي سبق أن أعطوها لأبي جعفر المنصور، فقال لهم: «إن كنتم بايعتم مكرهين، فليس على مكره يمين» فخلعوا البيعة، وتظاهروا بإمامة محمد بن عبد الله، ولقَّبوه بأمير المؤمنين. ولا يعني هذا إلاّ العصيان والثورة.

واضطرب أبوجعفر مما حدث، وراح ينهج سبل الحيلة، كعادته، في إقناع صاحب الدعوة ورَدِّه عن غايته، فكتب إليه مظهراً رضاءه عنه، واعداً إيّاه بما يحب إلا الخلافة فهي بيعة في أعناق المسلمين، ولا يمكنه التخلي عنها، ويقسم له، إن عاد إلى طاعته ليؤمننَّه

وجميع وِلْدِهِ وأخوته وأهل بيته ومن اتَّبعه على دمائهم وأموالهم. فأجابه محمد برسالة طريفة يعرض فيها، هو أيضاً، الأمان على المنصور، ويعدُهُ بصيانة أرواح آل بيته وأموالهم إذا رجع إلى الحق ودخل في طاعته وتنازل عن الخلافة التي اغتصبها العباسيون من آل علي وهم أحق بها من غيرهم وأفضل مكانة في الإسلام.

فأجابه المنصور برسالة طويلة يردُّ على ما ادّعاه من تفضيل آل علي على آل العباس، وذيَّلها ببذل الوعود والأماني والعهود، فلم ينخدع محمد بما جاء في كتابه من عهود، وردَّ عليه مذكراً إياه بالعهد الذي أعطي للعامل الأموي «يزيد بن هبيرة» قبل قتله، وبالأمان الذي منحه لعمِّه عبد الله بن علي ثم أماته، وبمقتل أبي مسلم الخراساني بعد أن وثقه وطمأنه، إلى آخر ذلك من الخدع والمكائد التي دبَّرها لخصومه.. فلما لم تُفِدِ محاولات المنصور، وعلم أن الرجل ثائر لا محالة، راح يستعد للساعة الحرجة التي تنتظر يوم يخرج فيه العَلَوي سافراً من مخبئه ليقود ثورته.

ويقال: إن محمد بن عبد الله كان راغباً بالاستمرار في الدعوة سراً، فلا يخرج لها علناً إلا بعد اكتمال أسباب نجاحها، ولكن بعض أعوانه ودعاته ملّوا الانتظار، وقدَّروا خطأ أن الفرصة قد سنحت للظهور وامتشاق السيف. فخرج مضطراً في شهر رجب من عام (١٤٥ هـ ـ ٧٦٢ م) واجتمع حوله خلق من سكان المدينة وما جاورها، فألقى القبض على عامل المنصور وأوثقه وسجنه، ووجَّه رسالة إلى الأمصار مشيراً على دعاته هناك بإعلان الثورة في وجه سلطان بني العباس.

وتواردت أخبار ذلك إلى أبي جعفر، وكان يومئذ منشغلاً في بناء عاصمته الجديدة (بغداد). فترك العمل، وسار بجيشه إلى مدينة الكوفة، فأقام فيها لمواجهة الطوارىء، وبعث ولي عهده «عيسى بن موسى» مع بعض قواد الثورة العباسية على رأس جيش كبير، إلى الحجاز حيث يعسكر الثائر العَلَوي. والتقى الطرفان واقتتلا قتالاً شديداً لم يصمد أمامه جيش محمد بن عبد الله الذي ثبت هو وجماعة من صحبه في الميدان، إلى أن قتلوا.

وكان أخوه ابراهيم بن عبد الله، قد قصد الكوفة، فلم يجدها صالحة لدعوته بحكم قربها من مقر الخليفة، فصار إلى البصرة، وغلب عليها، وعلى الأهواز وواسط وكسكر وغيرها، فكثر عدده وعظم أمره. وكان يدعو لأخيه، فلما سمع باستشهاده دعا لنفسه، وزحف، في السنة نفسها، إلى قتال المنصور، ومعه من الجيوش أضعاف ما مع خصمه

الذي كان قد وزع جيوشه إلى أماكن عديدة في خراسان والحجاز . ولما علم المنصور بالأمر، دعا عيسى بن موسى من الحجاز وكان قد انتهى من أمر الثورة هناك، ووجَّهه لقتال ابراهيم. فالتقى العسكران قرب قرية (مسحا)[1] في حرب طاحنة كاد النصر فيها أن يكون للعَلَوي لولا أن اضطرب جيشه فانهزم، وبقي ابراهيم وبعض أعوانه يقارعون السيوف حتى استشهدوا.

فكانت هذه المعارك بشقَّيها، في الحجاز والعراق، بادرة انشقاق وعداء سالت فيها دماء بني هاشم على حراب بعضهم، وجرّت بعدها ثورات ومصائب دامت زمناً طويلاً، كان لتاريخ هارون الرشيد ـ كما سنرى فيما بعد ـ نصيب منها..

وعلى كل، فإن القضاء على حركة العلويين هذه، كان قد أنهى مشاكل أبي جعفر المنصور الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس، وإن لم يكن الخليفة الأول فيها، وفسح له المجال للانصراف بكلِّه إلى تدعيم أركانها وبث الاستقرار والطمأنينة في ربوعها على قدر الإمكان، والعمل على تقدمها الاقتصادي والاجتماعي والعمراني. وما ساعده على ذلك مدة بقائه في الحكم، التي بلغت زهاء اثنتين وعشرين سنة.

والجدير بالذكر، أن الأمويين عندما تركوا العراق لبني العباس كان بلداً فقيراً يعاني من ضائقة اقتصادية وإهمال زراعي كادا يوديان به إلى الخراب التام، بسبب تلك الفوضى الإدارية التي انتابت حكمهم في الزمن الأخير لكثرة القلاقل والاضطرابات والحروب التي جرت فوق أراضيه. فنشط أبو جعفر إلى إصلاح ما أفسدته الأيام، فشجّع الزراعة والريّ إلى أن انتعشت في العراق وغيره من الأقطار، وبدأت الحياة الاجتماعية والفكرية بالتقدم والازدهار، حتى قيل إن عهده كان نقطة انطلاق وتوسع لتلك الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب والفنون وغيرها.

وكان أكثر ما عُنِي به المنصور الحركة العمرانية، فبنيت في عهده القناطر والجسور والقنوات، وشُيدت المباني والحصون. وكان أهم ما شُيد على يده، مدينة بغداد، العاصمة الجديدة لأمبراطورية بني العباس.

---

(١) تقع قرية (مسحا) هذه جنوب العراق وهي أقرب إلى البصرة منها إلى بغداد.

بناء بغداد

ما كان في العراق، خلال هذه الفترة التي تحدثنا عنها، مدينة عامرة واسعة المباني والحدائق والميادين، على غرار مدينة الشام، تصلح لأن تكون عاصمة لتلك الأمبراطورية الفتية، المترامية الأطراف. وما كانت الكوفة سوى مدينة ثانوية، بُنيت في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب، وجُعلت مقراً للعمال والولاة المرسلين إلى بلاد الرافدين، فأصبحت مركزاً سياسياً للأحداث التي كان لها أدوارها التاريخية في هذه الربوع، وترسبت فيها طبقات من الناس تجمل أهواء ومبادىء متنافرة متضاربة، استطاعت أن تخلق جواً اجتماعياً صاخباً لا يستكين إلى قرار، ولا يصلح لأن يكون جو عاصمة جديدة لدولة تحاول التقدم والاستقرار.

فلما بويع أبو العباس السفّاح في مسجدها، جعل بلاطه في قصر «يزيد بن هبيرة» العامل الأموي المقتول. وهو قصر فخم يبعد عن حوض المدينة عدة فراسخ، ثم استتمَّه وزاد فيه، وبنى حوله شبه ضاحية سماها (الهاشمية). لكن الناس لم يلتفتوا إلى الاسم الجديد، وبقوا يسمونها: قصر ابن هبيرة، فلم يَرُق ذلك لأبي العباس، فتركها وبنى بجانبها ضاحية جديدة أشبه بمدينة صغيرة وسماها (الهاشمية) وجعلها مقر خلافته. ثم هجرها وشَيّد مدينة قريبة منها عرفت باسم (الأنبار)، سكنها مدة عامين، توفي بعدها ودفن فيها.

وخلفه أبو جعفر المنصور، فاختار الهاشمية عاصمة، وأكمل بناء ما كان ناقصاً فيها، وزاد عليها ما أراد. ولكنه كرهها لأسباب كثيرة منها: قربها من الكوفة التي يقطنها عدد كبير من شيعة العلويين الذين لم يأمن جانبهم، وسوء مناخ تلك المنطقة التي كانت تهب في أجوائها، أحياناً، عواصف من الرمل تعفر على الوجوه وتؤذي الصدور. وما زاده

كرهاً لها حادثة خطيرة كادت تودي بحياته: وذلك أن جماعة من فلول جيش أبي مسلم الخراساني تدعى «الراوندية»، وتعتقد بالحلول، وتزعم أن الله حلّ في شخص أبي جعفر، وأن روح آدم قد حلَّت في جسد عثمان بن نهيك قاتل أبي مسلم. وقد أقامت في الهاشمية وتظاهرت بمعتقداتها، ما دعا أباجعفر إلى سجن رؤسائها والتضييق عليهم، فكان من أفرادها أن هاجموا السجن وأخرجوا جماعتهم منه، واتجهوا نحو قصر الخليفة يريدون قتله، ولم يكن حوله حرس كاف يدافع عنه، فخرج إلى قتالهم مع من معه، وتنادى الناس عليهم وأعملوا فيهم السيوف، فأبادوهم عن بكرة أبيهم. على أثر ذلك، قرر أبوجعفر بناء عاصمة جديدة بعيدة عن هذا المكان تكون صالحة، مريحة. فراح يتنقل في جوانب العراق حتى استقر رأيه على موقع حسن جميل، عليه قرية قديمة تسمى (بغداد).

ويبدو أنه مرًّ بهذا المكان في موسم طاب هواؤه وعذب ماؤه، فاختاره، وارتاح له لوقوعه في وسط مملكته حيث تتقاطع طرق المواصلات بين الشام وخراسان وهما الاقليمان الأشد خطراً عليه في دولته، ولوجوده في نقطة عسكرية حصينة بين دجلة والفرات، فلا يصل العدو إليه من الشرق أو الغرب إلا بعد اجتياز أحد النهرين.

كان ذلك في أوائل عام (١٤٤ هـ ـ ٧٦١ م)، عندما أمر بإحضار المهندسين من كل مكان، فخططوا له رسومها، ثم صوروا له معالمها على الأرض في بقعة واسعة، ووضعوا حب القطن فوق خطوطها، وأحرقوها ليلاً، وهو واقف على مرتفع ينظر إلى هندستها ومعالمها، فأعجبته وراَقَهُ منظرها، فأمر بحفر الأسس، ثم وضع بيده حجر البناء الأول وسماها «مدينة السلام».

واستمر بناؤها زهاء خمسة أعوام، اشترك فيه عدد كبير من أشهر البناة والصنَّاع والصباغين والرسامين، الذين جيء بهم من أنحاء الدولة العباسية، فجاءت غاية في الجمال والروعة والإتقان: في دائرة محيطها أربعة أميال، محصنة بسورَين، سور خارجي وسور داخلي، عرض كل منهما خمسون ذراعاً من الأسفل وعشرون ذراعاً من الأعلى، والسور الداخلي منهما يعلو الخارجي بعدة أذرع، وكلاهما مبني باللبن القوي الضخم، كما حُفر حول السور الخارجي خندق عميق يجري فيه الماء من نهر (كرخايا) وعليه عدة جسور للعبور، يمكن كسرها عند حدوث خطر مهدد. وبُنِيَتْ على كل سور أبراج شامخة

يبلغ عددها المائة والستين، موضوعة على أشكال هندسية عسكرية تصلح لقتال المحاصرين، وبينها أربعة أبراج واسعة ضخمة يمكن الصعود اليها على الخيل، وتقع على أربعة أبواب كبيرة : «باب خراسان» المشرَّع على نهر دجلة ويسمى أيضاً باب الدولة، و«باب البصرة» وقبلته نحو الجنوب تجاه قناة (الصراة) التي تأخذ ماءها من الفرات وتلقيه في دجلة، و«باب الكوفة» وجبهته نحو الجنوب الغربي، و«باب الشام» نحو الغرب.

ونقلوا لهذه المداخل الرئيسية، أبواباً تاريخية أربعة كانت قد صنعت لأربع مدن قديمة في عهود مختلفة، فباب جيء به من (واسط) وهو الذي صنع في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، عامل بني أمية على العراق، وباب من الكوفة صُنع في أيام واليها الأموي أيضاً خالد بن عبد الله القسري، وباب ثالث من الشام وآخر من خراسان وهما من الأبواب القديمة. ولم يكن نقل هذه الأبواب عجزاً عن صنع مثلها وأجدّ منها وأقوى ، بل كان رمزاً لجمع شمل الدولة حول سور العاصمة الجديدة، وتيمناً بها.

ووصف بعض المؤرخين جمال هذه المداخل الأربعة وأبراجها الملونة المغطاة بقباب مذهبة، تحتها مجالس واسعة تتصل بها طرق معبدة تمر بمكامن للجند من رماة السهام المدافعين عن تلك الأبواب أثناء الخطر، وتنتهي بالطرق الممتدة على الأسوار حيث تقوم الأبراج الثانوية الأخرى.

وقد شيد المنصور لنفسه في وسطها قصراً عظيماً، تبلغ مساحة أرضه مائة وستين ألف ذراع مربع، سماه «قصر الذهب» ويشتمل على عشرات من المقاصير المزخرفة المرقشة بخطوط ذهبية وأصباغ زاهية، تحيط بإيوان واسع عليه قبة يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً، صُبِغ سطحها الخارجي باللون الأخضر، ووُضِعَ فوقها تمثال من البرونز الأصفر بحجم فارس، يدور حول نفسه، وفي يده رمح طويل يشير به إلى اتجاه الريح.. وعمَّر إلى جانب القصر مسجداً جميلاً كان من أبدع ما شيّد المسلمون من المساجد وأكثرها حُسناً وزينة، يقال له «مسجد المنصور» أو مسجد مدينة السلام.. وبنى بين السورين سجناً كبيراً، سمّي «المطبق» أعده للمغضوب عليهم من خاصته وكبار رجال دولته.

وتنقسم المدينة في الداخل إلى أربع مناطق متساوية المساحة، تفصلها أربعة شوارع رئيسية يبلغ عرض كل منها أربعين ذراعاً، تتقاطع وسط المدينة في الساحة الكبرى حيث

يقوم في وسطها قصر الذهب ومسجد المنصور. وقد بنى أمراء بني العباس وكبار رجال الحاشية والقواد قصورهم في تلك المناطق الأربع جاعلين جباهها وحدائقها علي شكل أقواس تتجه نحو دار الخليفة وجامعه. وأقاموا لكل ربع سوقاً مستقلة تحتوي على كل ما يلزم السكان من الحاجيات. ولما كانت الأسواق تشتمل على أشتات من الناس والغرباء والجواسيس ومسبِّبي الجلبة والضوضاء، أمر المنصور بنقلها إلى جانب الكرخ، خارج المدينة، بعيداً عن الأسوار، واكتفى بسوق واحدة لكل ربع، وبنى بين تلك الأسواق مسجداً يؤمه الناس ليبقى مسجد المدينة خالياً من الزحام.

وفي أطراف المدينة من الداخل، بُنيت حمّامات عديدة، ومراكز للحرس والكناسين، وفُرضت أنظمة وشروط قاسية للنظافة، ولم يُسمح لأحد بالدخول فيها راكباً إلا برخصة من الخليفة نفسه. كما حُفرت في المدينة قناتان تخترقانها من الغرب إلى الشرق، وتستمدان مياههما من نهر كرخايا وذلك للتجميل وسقي الأشجار والأوراد المزروعة في تلك الحدائق والميادين.

ولقد انتهى المنصور من بناء هذه المدينة عام (١٤٨ هـ ـ ٧٦٦ م) وهو العام الذي ولد فيه هارون الرشيد، على وجه التقريب، في مدينة الريّ، كما سنرى[(١)]، فكانت أجمل مدينة إسلامية في ذلك العهد على الإطلاق.

وتناقضت الأخبار والروايات حول مقدار ما أُنفق على بنائها، وبالغ بعضهم فقال: «ثمانية عشر ألف ألف دينار» وهو مبلغ ضخم إذا علمنا بأن قيمة الكبش من الغنم، في ذلك العهد، لا تزيد على درهم واحد، والدينار يساوي عشرين درهماً، وقال آخرون دون ذلك.. وهناك رواية تقول إن أبا جعفر المنصور نقل إليها الخزائن والدواوين وبيوت الأموال فور الانتهاء من تشييدها.

---

(١) اختلف المؤرخون في تعيين العام الذي انهى فيه أبو جعفر بناء عاصمته هذه، لكن المصادر القديمة تشير إلى عام ١٤٨ هـ، والله أعلم.

القسم الاول

مولد هارون الرشيد ونشأته

- محمد المهدي في خراسان
- مولد هارون في الريّ
- تربيته ونشأته
- بنو برمك

محمد المهدي في خراسان

كان إقليم خراسان موطناً للشغب والاضطرابات في العهد الأموي، للأسباب التي ذكرناها، ثم أصبح، على أثر نجاح الدعوة العباسية، وكْراً للقومية الفارسية الطامحة إلى إعادة حريتها واستقلالها.. ولم يستطع أبو جعفر المنصور، لدى توليه الخلافة، أن يقضي على ذلك التوثب المستمر قضاء تاماً، على الرغم من شدته وحزمه وفتكه بأبي مسلم الخراساني، والقضاء على ثورة صاحبه «سنباذ» من بعده، ما جعله يتلفت ـ بين الفينة والفينة ـ بعين حذرٍ متيقظٍ نحو هذا الجانب القلق من دولته، ويفكر في ترويضه، وإقرار الأمن والدعة فيه.

ففي عام (١٤٠ هـ ـ ٧٥٧ م) فاجأه نبأ يفيد بأن فرقة من حامية مدينة (مرو) تمردت على عامله هناك وتسببت في قتله، فاهتم بالأمر، وأرسل أحد رجاله الأشداء «عبد الجبار ابن عبد الرحمن الأزدي» مع قوة من جيشه، وأمره بالإسراع في وأد الحركة قبل أن تكون فتنة لها ذيولها.. لكن عبد الجبار، هذا الذي أَلِفَ القسوة والغلظة منذ كان رئيساً لشرطة أبي العباس السفّاح، لم يكتفِ بتأديب المتمردين وإعادة الأمور إلى نصابها، بل استرسل في مطاردة الناس وأخذهم بالحق وبالباطل. و حتى رجال الدعوة المقربين لم يسلموا من بطشه. فاستاء الرأي العام منه، وكثرت الشكاوى ضده، واتهم بالتصرف بأموال الدولة، والقيام على السلطان، ما حثّ المنصور على استدعائه لمحاسبته، فخاف على نفسه، وأحجم عن المجيء، ثم أعلن عصيانه وتمرّده.

لم يعبأ أبو جعفر كثيراً بعصيان هذا الرجل، لعلمه بأنه لا يستطيع أن يجمع الناس حوله بعد أن ظلمهم وأساء إليهم، ولكنه صمَّم على وضع حدٍّ لهذه الاضطرابات المتكررة، كي لا يتجرأً كل من أراد الخروج ونكث العهود والعبث. فرأى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك

إرسال رجلٍ من آل بيته المخلصين، مزودٍ بجيش كبير، يمكّنه من البقاء زمناً كافياً في إقليم خراسان، والعمل على توطيد السلم وتهدئة النفوس. فاستقر رأيه على انتداب ابنه «محمد» لهذه المهمة، مزوداً إياه بعسكر من ثلاثين ألف مقاتل مجهّزٍ بأحدث السلاح، واختار له «خازم بن خزيمة» وهو أمهر قائد في دولته وأحد أبطال الثورة العباسية المعروفين.

وكان محمد بن المنصور، يومئذ، حديث السن، لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره، وربما كان في بني العباس من هو أكفأ منه وأكثر خبرة بالأمور، لكن أبا جعفر أراد أن يعلّي شأنه ويرفع مكانته، تمهيداً لتحقيق فكرة كانت تخامره، وهي ان يضمن البيعة له بولاية العهد، لكي يبقي الخلافة في بيته قبل أن يدركه الموت فتنتقل إلى عيسى بن موسى العباسي، صاحبها الشرعي.

وزحف الأمير الصغير بعسكره نحو خراسان، وألقى رحاله في مدينة (الريّ)[1]، بحسب وصية أبيه، وسار خازم بن خزيمة بجموعه نحو (مرو روذ) لتأديب المتمرد العاصي، لكن أهلها الذين خافوا على أنفسهم ومدينتهم من القتل والتخريب، انتقضوا على صاحبهم عبد الجبار، وحاربوه فأسروه وسجنوه منتظرين وصول خازم، الذي تسلّمه منهم مكبلاً بحديده، وأرسله مهاناً إلى الخليفة في العراق حيث لقي حتفه جزاء صنعه[2].

ولم يُرِدْ أبو جعفر أن يكتفي هذا الجيش بتلك الغنيمة الباردة، فبعث إلى خازم يأمره بالتوغل في طبرستان وما وراءها، وأمده بكتائب أخرى من عنده، فزحف خازم يكتسح المدن والقرى والقلاع، ويتوسع بالفتوحات إلى أقصى ما يستطيع، حتى اجتمعت بين يديه غنائم وأموال لا تحصى، وزعها على جنده، وأرسل حصة بيت المال إلى العاصمة. وقد كان لتلك الانتصارات صدى استحسان عظيم في صفوف الناس، رفع من مكانة الأمير محمد بن المنصور، وإن لم يكن له أثر كبير فيها.

وهنا ساعده الحظ أكثر مما أراد، فقد كان بصحبته في الريّ عدد من رجال الإدارة،

(١) كانت الريّ في العصر العباسي الأول عاصمة خراسان القديمة، ثم أصبحت فيما بعد عاصمة «إقليم الجبال» وهي إحدى المدن التي فتحها العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ١٢٢

نظموا شؤون تلك الأقاليم، وأحسنوا السيرة في أهلها، وقضوا على الاضطرابات في جوانبها، فحسنت اقتصادياتها، واستقرت نفوس القوم فيها واطمأنت بعد تلك الفوضى والمظالم التي ضربت أطنابها زمناً طويلاً في ربوعهم، منذ أواخر العهد الأموي.

وعندما عاد إلى العراق، بعد غيبة دامت ثلاثة أعوام، استقبله أبوه ورجال حاشيته استقبالاً حافلاً يليق بالفاتحين المنتصرين، وألقى الشعراء بين يديه قصائد الثناء والمديح، وهو لم يبلغ بعد سن العشرين. ولكنه لم يمكث بجانب أبيه سوى أشهر قليلة، وكأنه استطاب العيش والصحبة في الريّ، فعاد ثانية إليها، بعد ان تزوج ابنة عمه «ريطة بنت أبي العباس السفاح»، مصطحباً فرقة من الجيش وجماعة من ذوي الخبرة والرأي، وفي مقدمتهم «معاوية بن عبيد الله بن يسار» الذي اختير ليكون وزيراً له ومدبِّراً لشؤونه[1].

ولم يكد يستقر ومن معه في الريّ من جديد، حتى انصرفت جماعته إلى تشجيع الحركة العمرانية فيها: فوسَّعوا دار الإمارة، وبنوا إلى جانبها مسجداً، وضربوا حولها سوراً منيعاً، وخندقوا حوله، وشيَّدوا خارج ذلك السور ضاحية سمِّيت «المحمدية» نسبة إلى اسم الأمير، وسمّيت أيضاً المدينة (الخارجة) ليفرّقوا بينها وبين المدينة (الداخلة) ضمن نطاق السور.. ولم تزل حركة البناء ناشطة، حتى زها فيها العمران وأصبحت من أمهات البلاد في شرق دولة بني العباس. وقد قال عنها ابن حوقل الذي زارها بعد ذلك: «ليس بعد بغداد في المشرق أعمر من الريّ»[2].

وتقع الريّ هذه على أقدام جبل صغير تشرف قمته على سطوح مبانيها، وفوق تلك القمة قصر قديم لأحد ملوك الأكاسرة على شكل قلعة حصينة، يدعى (الزينبدي)[3]، لم يكن قد تداعى بعد، فأُعجب الأمير محمد بن المنصور بجمال موقعه ومناعة مكانه،

---

(١) تاريخ بغداد: ج ١٢، ص ١٦٩.

(٢) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية: ٢٤٩.

(٣) كتاب البلدان: ج ٥ ص ٢٦٨ ـ وقد اختلفت الروايات حول اسم هذا القصر فقيل: هو «الزيبندي» بتقديم الباء على النون، وقيل: «الزينبدي» وما ذكره صاحب معجم البلدان بتقديم النون على الباء هو الأصح.

وأمر بترميمه وتجديد جوانبه، وتأثيثه بأثاث يليق به، ثم انتقل إليه وجعله سكناً له ولأسرته.

طال ثواؤه هناك، في هذه المرة، سبعة أعوام، جرت خلالها لأبيه المنصور في دولته أحداث مهمة، منها: القضاء على ثورة العلويين في الحجاز والعراق، كما أسلفنا، وبناء مدينة بغداد، وأعمال عسكرية وإدارية كثيرة تتوخى الأمن والاستقرار في نواحي المُلك. وكان أخطر تلك الأعمال انتزاع ولاية العهد من عيسى بن موسى العباسي بعد جهود ومحاولات، يهمنا التنويه عنها، وهذا ملخصها:

كانت أخبار الفتوحات والإصلاح والتعمير التي قام بها رجال محمد بن المنصور في خراسان، تصل متتالية إلى أبيه في عاصمة العراق، فيتعمد إذاعتها على رجال حاشيته، لتنتشر بين الناس كأعمال قام بها ابنه هناك، فيكون لها صدى استحسان وإعجاب. وما إن تم له ذلك، وانتهى هو من تذليل المشاكل الرئيسية في توطيد كيان الدولة، واستقرت الأمور بين يديه، حتى فاتح عيسى بن موسى بأمر التنازل عن حقه في ولاية العهد، لتصحَّ البيعة بعده لابنه محمد. فامتنع عيسى، مدّعياً بأنها أمانة المسلمين في عنقه، وأنه أجدر بها من غيره لما سبق له من أعمال وجهاد في سبيل القضية العباسية(١).

لكن أبا جعفر كان مصرّاً على طلبه، فاستخدم كل ما لديه من وسائل الإغراء والتهديد، وأشار إلى من حوله بمقاطعته وإطلاق ألسنتهم فيه. فضاق الأمر بعيسى، وانزوى غاضباً في قصره بالكوفة. وفي عام (١٤٧ هـ - ٧٦٤ م) قدِم وفد من خراسان إلى مقرّ الخلافة، وحضر مجلساً عاماً للخليفة ورجال دولته، فأثنى على سيرة محمد هناك، وعدد أياديه البيضاء، واقترح أن تؤخذ له البيعة بولاية العهد. وقد يكون مجيء هذا الوفد واقتراحه أمراً دُبِّر ليلاً، ولكن المنصور اتخذه ذريعة للضغط على عيسى بن موسى، وخيّره بين أن يقبل ولاية العهد الثانية بعد محمد وبين أن يقتله لعصيانه وعدم تلبيته للرغبة العامة. ما

(١) قام عيسى بن موسى بأعمال كثيرة منها: أخذ البيعة بالخلافة لأبي جعفر في العراق يوم كان أبو جعفر غائباً في مكة أثناء وفاة أبي العباس السفّاح، ومنها أيضاً قيادة الجيوش وانتصاراته على محمد بن عبد الله العلوي وأخيه ابراهيم، كما رأينا... إلى آخر ذلك.

اضطر عيسى إلى التنازل مكرهاً عن ولاية العهد الأولى والقبول بالثانية، فأخذت البيعة في الحال لابن المنصور، ولقّب بـ «المهدي».

جاءت هذه النتيجة متوجة لسعادة محمد المهدي الذي خدمته الأيام دون أن تكبده العناء والمشقات، فجعلت منه أميراً منتصراً فاتحاً وهو لم يخض معركة واحدة في ميادين القتال، ووضعته في مصاف الإداريين الحازمين والبناة المعمرين وكان غيره من أدار وعمَّر وشيَّد، ثم جاءته ولاية العهد طائعة وهو في قصره يرفل بالنعمة والراحة بين ذويه وأفراد أسرته.

وكانت أسرته، يومئذ، تتألف من زوجة واحدة من المهائر هي «ريطة بنت ابي العباس» وعدد من الجواري الحسان. ويبدو أن زواجه بريطة هذه لم يكن زواجاً موفّقاً من الناحية العاطفية، فقد علمنا بأنه غادر العراق لأول مرة نحو خراسان وعمره خمس عشرة سنة، ثم عاد بعد ثلاثة أعوام، وتزوجها أثناء إقامته القصيرة قبل أن يرجع ثانية إلى الريّ. وقد يكون اقترانه بها تلبية لرغبة أبيه الذي كان يحبها ويعطف عليها ليُتمها بعد موت أبيها، وكان يدللها ولا يردّ لها طلباً أو شفاعة أبداً. وفي بعض الروايات يقال إنها لم تكن ذات جمال ظاهر أو أنوثة فاتنة، بل كانت متينة الجسم قوية العضل، وقيل إن أخاها محمد ابن أبي العباس كان يمارس الرياضة العنيفة فتشاركه في ذلك، فإذا لوى العمود الحديدي رمى به إليها، فتقوّمه وتعيده إلى سابق عهده [1]. وفي رأينا ان امرأة من هذا الطراز لا تستطيع أن ترضي زوجاً عرف بدقة الحس ورقة الشعور كالمهدي.

لذلك كان له، إلى جانبها، عدد من الجواري الناعمات الغيد، عرفنا من بينهن جارية فاتنة تدعى «الخيزران بنت عطاء، الجرشية» نسبة إلى (جرش)، صقْع من أصقاع اليمن، وكان يحبها لرقتها وأنوثتها الصارخة.. وقد اختلف الرواة في كيفية وصولها إليه، فمنهم من قال إنه رآها في سوق الجواري فأعجب بها، وكلّمها فأجابته بكلام ظريف، فاشتراها، ومنهم من قال، وهذا الأصوب، إنها كانت مملوكة لرجل من بني ثقيف في الحجاز، عرضها للبيع في مكة، وكان أبو جعفر المنصور حاضراً فاستحسنها، وسألها عن أهلها، فادّعت، كذباً، بأنها وحيدة لا أهل لها، فأرضاه أن لا يكون لها أهل يصبحون عالة عليها، فاشتراها وأهداها لابنه.

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٥.

وشاءت الأقدار أن يكون لهذه الجارية، فيما بعد، دور من أخطر أدوار تاريخ بني العباس، فولدت لمحمد بن المنصور، قبل توليه ولاية العهد بعام واحد، غلاماً، فرح به فرحاً لا مزيد عليه، شأن كل أب عاطفي تجاه مولد البكر من بنيه، وسماه «موسى». ثم أعتقها وتزوجها[1]، وساوى منزلتها بمنزلة زوجته ريطة التي ولدت له، هي أيضاً، في العام التالي غلاماً سماه «علياً»، وهو الذي عرف، فيما بعد، باسم «علي بن ريطة».

لا شك في أن مولد موسى قد رفع منزلة أمه في قصر ولي العهد، فهي لم تعد جارية كباقي الجواري، بل خصص لها ولابنها جناحاً جميلاً خاصاً.. وكان طبيعياً ان يحدث بينها وبين ريطة شيء مما يحدث عادة بين الضرتين من تنافس أو تنافر، ولا سيما اذا كانتا من وسطين اجتماعيين مختلفين كل الاختلاف، مما يعكر قليلاً أو كثيراً صفو الزوج في حياته الخاصة.

ونحن لا نملك من النصوص ما يعرفنا بحقيقة الوضع داخل هذه الأسرة، لكن بروز اسم الخيزران وتألقه في أجواء ولي العهد هذا، مع خمول اسم ريطة فيه، يجعلنا نعتقد أن الصراع بين هاتين الزوجتين لم يدم طويلاً حتى استقر على حال.. فقد كانت ريطة هاشمية بنت أول خليفة عباسي، ولم يكن زوجها، في نظرها، غير ندٍّ وابن عم لها، فليست هي، اذن، في حاجة إلى إجهاد نفسها والتكلف في استرضائه أو التزلف إليه، كما تفعل الخيزران التي ترى فيه ولياً لنعمتها، ومنقذاً لها من الرقّ الذي كانت فيه، وسبباً مباشراً لسعادتها. غير أن الفارق في الجمال والأنوثة بين المرأتين هو الذي كان يقود الزوج إلى التفريق بينهما والتوجّه نحو عواطفه وميوله.

وأكثر من ذلك، فإن ريطة، بفضل مكانتها الاجتماعية، لا تعبأ بمداراة الناس والتودُّد إلى نساء الحاشية الملتفة حول زوجها، إذ يُفترض أن يأتي التودُّد من جانبهن تجاهها، والعمل على كسب صداقتها، بعكس الخيزران التي اعتادت، بحكم نشأتها المتواضعة، استمالة الصغير والكبير ممن حولها، وقضاء حاجات قاصديها، وعدم الترفع على أحد أياً كان. ومن ذلك نشأ حب الجميع لها، والتحدث بالثناء عليها.

---

(١) يقال في بعض الروايات، إن المهدي أعتقها بعد عدة أعوام من مولد موسى، أي بعد ولادة هارون الرشيد، والغالب على الظن أنه أعتقها بعد مولد موسى مباشرة.

ولا شك في أن ريطة كانت تحس هذا الفارق، ولكنها لم تكن تستطيع أن تجاري صاحبتها فيما هي فيه، أو أنها لم تكن تريد لنفسها ذلك، فتركت لها الميدان، وانزوت في جناحها انزواء ناشئاً عن أنفة وترفُّعٍ حيناً، وعن عجز وتقصير حيناً آخر. فخلا الجو للخيزران، وطغت شخصيتها في ذلك المحيط المنغمس بالترف والنعمة والسلطان معاً، وأصبحت وحدها صاحبة الحل والعقد فيه، ثم بدأت، شيئاً فشيئاً، تتغلب على إرادة زوجها وتقوده إلى تنفيذ رغباتها، كما سنرى. ولم تستطع أيٌّ زوجة أو جارية من أمهات أولاد المهدي، فيما بعد[1]، أن تزاحمها على مكانتها أو تنقص من سلطانها المكتسب هذا.

وكان يُعرف عن مدينة الريّ إنها كانت، يومذاك، أشبه بعاصمة ثانية للدولة بفضل وجود ولي العهد وحاشيته فيها، وبعد ذلك العمران الذي شملها. كما أنها كانت مركز تلك الحضارة الفارسية القديمة التي كانت تتَّسم بطابع الرقي الفكري، والتأنق في كل ما يلامس الحياة الاجتماعية. فقصدها عدد كبير من الأسر العريقة، من فارسية وعربية، عرفنا من بينها أسرة يحيى بن خالد البرمكي، التي استطاع نساؤها أن يتقربن من الخيزران، ويكسبن ودَّها وصداقتها إلى حد بعيد، بفضل الصلة الروحية المتينة التي جمعت بين يحيى والمهدي لأسباب عديدة سنعرضها لاحقاً.

---

(١) تزوج المهدي بعد ريطة والخيزران عدة نساء وأمهات أولاد من الجواري وأنجب منهن عدداً كبيراً من البنين والبنات، منهم «ابراهيم بن شكلة» و«العباسة والبانوقة وعلية» وغيرهم ممن سترد أسماؤهم في المناسبات المقبلة.

مولد هارون وطفولته

تشير الروايات إلى أن الخيزران بذلت، في سبيل العناية بوحيدها موسى، جهوداً مضنية، فلم تعتمد على غيرها في إرضاعه وتغذيته، والسهر على راحته في نومه ويقظته، وهي، مع ذلك، أسيرة الهواجس والمخاوف عليه من أن يدهمه القدر يوماً ما، فتصبح بعد نعمتها هذه كالقابض على الريح. ولكن الحظ كان مقبلاً نحوها، والأيام مواتية لها، فلم يكد الطفل يدب على قدميه في مقاصير (الزينبدي) ويتخطى عتبة عامه الأول، حتى شعرت بحمل جديد، كان الأمل بمداعبة أحلامها بمولود سعيد آخر.. وهكذا كان، ففي ليلة شتاء باردة من عام (١٤٨ هـ ـ ٧٦٥ م)[١] وضعته غلاماً كامل الجسم موفور الصحة، سماه أبوه «هارون»[٢].

ولم يكن هذا الحدث، بالنسبة إلى المهدي، حدثاً جديداً في حياته، لأنه الإبن الثالث بعد أخويه موسى وعلي بن ريطة. لذا، فإن سروره به لم يكن كذلك السرور الذي شمله يوم مولد ابنه البكر، وبعكس الخيزران التي شعرت في قرارة نفسها بأن مجيء هارون كان خير ضمان لبقاء سعادتها، وفيضاً من الرحمة بدد هواجسها وأحال خوفها إلى أمن. ولم يغفل المهنئون من الشعراء عن هذا الحس الذي خامر الأم الفرحة المستبشرة، فقال أحدهم:

ليس في الناسِ مثلُ موسى وها	رون هجينانِ أنجبا لهجانِ
ما استثرنا عرقَ الخلافة حتّى	أورقَ العودُ في بني الخيزرانِ[٣]

---

(١) اختلف المؤرخون في تاريخ ولادة هارون إذا كان بين عامي (١٤٥)، (١٥٠) هـ، ولكن الأحداث تؤيد ما ذكرنا.

(٢) بقي اسم هارون خالياً من اللقب حتى بويع بولاية العهد، فلقَّبه أبوه بالرشيد، كما سنرى.

(٣) تاريخ بغداد: ج ٤ ص ٣٨٢.

وكيفما كان، فقد سرى خبر المولد نحو العراق، فطرق سمع الخليفة المنصور أثناء انتقاله من عاصمته الهاشمية إلى مقره الجديد (بغداد) فور انتهائه من بنائها. فسُرَّ لهذه الصدفة الجميلة، وعدَّها فألاً حسناً، اوحى في نفسه الاعتقاد حالاً بأن هذه المدينة المباركة ستكون، في زمن ما، عاصمة لخلافة هذا الطفل الذي اتفق تاريخ مولده مع يوم انتهاء بنائها. ولا عجب، إذا كان المنصور ممن يعبأ ويستبشر كثيراً بالفأل الحسن.

وكانت الخيزران متعبة على أثر تلك الولادة، فلم تستطع الاستمرار والسهر منفردة على العناية بهارون كما فعلت تجاه أخيه. فتبرعت أسرة يحيى بن خالد بمساعدتها في ذلك، فدفعته إليهن ملففاً في خرقة[1]... وكان في عصمة يحيى، يومئذ، ثلاث زوجات هن في ربيع الشباب، ولدت إحداهن وهي «زينب بنت منير» قبل يوم هارون بسبعة أشهر غلاماً، سمَّته «الفضل» فجمعت هارون معه على ثديها[2]، وبعد ذلك ببضعة أشهر ولد ليحيى غلام آخر من زوجته «عتابة» فسمّاه «جعفراً»، لكن أمه، لسبب ما، لم تستطع إرضاعه[3]، فأرضعته الزوجة الثالثة «فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة الطائي»، وكانت فيما مضى قد أرضعت هارون أيضاً، فتآخى الرضيعان بلبانها.

وعليه، يصح القول بأن العام الأول من حياة هارون انقضى بين أحضان أمه تارة ونساء يحيى بن خالد تارة أخرى، حتى اشتد عوده، فاستقر في قصر أبيه ترعاه الجواري والمربيات. وكان في فترته هذه قد اتضحت قسمات وجهه، فبدا رقيق الحاشية، أبيض اللون فاحم الشعر، أدعج العينين كأجمل ما يكون الصغار في سنِّه. فلما تخطى عتبة عامه الثاني، انطلق مع أخويه وأترابه يدب في حدائق (الزينبدي) وأبهائه وعلاليه المشرفة على مدينة الريّ وحقولها الخضراء المتناثرة على السفوح والسهول والتلال حتى الأفق البعيد. ثم يتنقل بين آونة وأخرى مع أمه وعقائل الأسر الصديقة في متنزهات المحمدية وضاحية (مندان) وغيرها حيث تنتشر قصور ملوك الأكاسرة الأقدمين[4]

(١) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٠.

(٢) الجهشياري: ١٣٦ - ويقال إن الخيزران نفسها كانت ترضع هارون الرشيد أحياناً، ثم ترضع الفضل إكراماً لأمه وتقديراً لمساعدتها.

(٣) يقال في بعض الروايات، إن عتابة أم جعفر البرمكي ماتت على أثر الوضع، وقيل إنها عاشت طويلاً بعده.

(٤) انظر كلمة «مندان» في معجم البلدان.

ثلاثة أعوام هادئة انصرمت من عمر هارون، في تلك البلدة الجميلة، بين أهله وذويه، وهم، على ما يبدو، في دعة من خلو البال وصفاء العيش. لكن الدهر لا يستقر على حال، ففي أوائل العام (١٥٠ هـ - ٧٦٧ م) خرج على الدولة رجل من أهل (هراة) الخراسانية، يدعى «استاذسيس» ومعه جموع غفيرة، فاكتسح معظم إقليم خراسان، وقتل الناس وسفك الدماء، وهزم الجيوش التي كان يرسلها إليه محمد بن المنصور حتى تفاقم الأمر، واضطرب الخليفة في عاصمته، وكان خازم بن خزيمة، في تلك الأثناء، غائباً في العراق، فأرسله المنصور في الحال لتدارك الموقف. فأسرع خازم إلى (نيسابور) حيث نزل المهدي لمجابهة الطوارىء، فسلَّمه القيادة، وأمدَّه بالجيوش، فتغلَّب على «استاذسيس» وأباد عسكره، ولاحقه في كل مكان، حتى قضى عليه.

وفي نهاية السنة نفسها، ورد على الريّ نبأ فاجع، يفيد بأن «جعفراً الأكبر»[1] ابن المنصور قد اختطفته المنية وهو في ريعان شبابه إثر مرض لم يمهله. فبكى المهدي أخاه وجزع عليه، وران على قصر (الزينبدي) من جراء ذلك حداد ثقيل، لم ينكشف حتى جاء كتاب الخليفة إلى ابنه يأمره بترك خراسان نهائياً، والعودة إلى العراق.. فأعدت الأسرة عدتها وغادرت الريّ مع حاشيتها وفرقة من الحرس المسلح.

وفي يوم الرحيل، ودَّعت الخيزران معارفها، وأعزَّ أصدقائها من آل برمك الذين بقوا على أعمالهم هناك، تاركة وراءها ذكريات خالدة لا تنسى. وودَّع هارون، مع من ودَّع من الصغار، أخويه بالرضاعة «الفضل» و«جعفراً» ولَدَيْ يحيى بن خالد، وشخص الركب قاصداً بغداد.. وكان السفر بين البلدين شاقاً ومتعباً لبعد المسافة، واعتراض الجبال الشاهقة في الطريق، ولم يكن ثمة واسطة لنقل النساء والأطفال إلا الهوادج على ظهور الدواب.. فكان ذلك أول تعب جسماني يتجشمه هارون في طفولته.

وصل الموكب أبواب العاصمة في شهر شوال من عام (١٥١ هـ - ٧٦٧ م) فاستقبله

(١) لقب جعفر بن المنصور بـ «الأكبر» لأن أباه سمى أحد أولاده الآخرين جعفراً أيضاً، وعرف بـ «الأصغر». وقد توفي جعفر الأكبر هذا تاركاً وراءه عدداً من الأولاد كان لهم دور في تاريخ هارون الرشيد، منهم «أمة العزيز» التي عرفت فيما بعد باسم زبيدة التي تزوجت هارون.

الخليفة ورجال دولته ووجهاء القوم. ثم اجتاز الجميع جانب الرصافة ـ ولم تكن قد عُمِّرت بعد ـ وعبر هارون في هودجه الجسر، ولم ير قبل ذلك نهراً كبيراً كدجلة هذا، ودخل مع الداخلين مدينة السلام من باب خراسان، فاستهوته، بقدر ما تستهوي الأطفال، مناظر القباب المزخرفة والقصور الملونة والحدائق المزهرة، ونزل وأسرته في جناح أُعِدَّ لهم في قصر الذهب حيث يقيم جده المنصور.

وفي رواية، أن المهدي دخل على أبيه، بعد الراحة من وعثاء السفر، وقدَّم له أولاده الثلاثة، فضمهم إليه يقبِّلهم، وأعجب بجمال هارون وتذكر تاريخ مولده الذي ترافق مع يوم انتهاء بناء بغداد، فحمله على ذراعيه يتفرس في وجهه، ثم التفت إلى المهدي يقول: «إن ابني هذا الأدعج، سَيَلي الأمر إن شاء الله، ويسير سيرة صالحة» فسأله المهدي: «أتقول ذلك يا أبتي عن أمر بان لك ؟؟» قال: «لا، ولكني أتوسم ذلك»[1].. وارتاح هارون بين ذراعي جده الذي يراه لأول مرة، وكان سمعه قد امتلأ باسمه لكثرة تردّد ذكره في قصر الزينبدي، فراح يقلِّب الطرف، ببراءة الطفولة وسذاجتها، في صورة شيخ أسمر البشرة أقنى الأنف، عريض الجبهة، وافر اللحية أشيبها، نافذ النظرة في عينين سوداوين واسعتين كأنهما لسانان ناطقان.

وكانت بغداد يوم قدوم المهدي في شبه مهرجان كبير، فقد حضرتها وفود كثيرة للاستقبال، فيها عدد من الأسر العباسية القاطنة في بلاد متفرقة، فأكرمهم أبو جعفر وبرَّهم، واختار منهم جماعة ليكونوا حاشية لابنه، وبنى لهم المساكن داخل مدينة السلام، وأبقى معه وزيره الذي كان إلى جانبه طوال فترة إقامته في خراسان «معاوية بن عبيد الله ابن يسار». وأمر بإنزال فرقة الحرس في أرباض العاصمة، وهي خليط من العرب والعجم[2].

لم تمكث هذه الفرقة طويلاً في مقرّها حتى بدأ الشغب يدبّ في بعض صفوفها، على أثر طلب جندها علاوات كانوا في حاجة إليها، ولم يلبِّ المنصور طلبهم، فتكتَّل عدد منهم حول باب قصره، فأرسل إليهم من فرَّقهم بلسانه وأعادهم إلى مقرّهم. وهناك تذكَّر

---

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٧٩.

(٢) الطبري: ج٣ ص ٣٦٤.

الخليفة حادث «الراوندية»، في عاصمته القديمة (الهاشمية)، فلم يشأ أن يتكرر مثلها في بغداد نفسها، فشيَّد للمهدي قصراً إلى جانب الرصافة، وبنى بالقرب منه جامعاً، وخطَّط إزاءهما معسكراً، نقل إليه نصف ذلك الجيش المرابط قرب مدينة السلام، وترك النصف الآخر في موضعه، هذا عربي وذاك عجمي، فإذا تمرد أحد النصفين ضربه بالنصف الثاني، سيراً على قاعدة: فرِّقْ تَسُدْ[1].

وانتقل المهدي بأسرته إلى القصر الجديد بعد سنة من وصوله إلى بغداد، وسمح لمن يريد من الناس الانتقال معه، وشجعهم على ذلك بمساعدتهم على البناء والتعمير، فانتقل إلى الرصافة خلق كثير، ولم تمضِ حقبة قصيرة من الزمن حتى عَمَرَتْ وزَهَتْ بالقصور والحدائق والمتنزهات[2]. ولم يطل مكوث الخيزران وولديها في قصر الذهب، فانتقلت إلى المسكن الجديد، وبقيت فيه زهاء ستة أعوام[3].

كان المحيط الاجتماعي في بغداد أوسع مما كان في مدينة الريّ، وأكثر سلوة ورفاقاً لهارون، بسبب كثرة الأُسَر العباسية المقيمة فيها، وأُسر رجال الدولة المقربين من شخص المهدي والعاملين تحت راية أبيه.. ومهما كانت هذه الفترة من طفولته غامضة مجهولة لدينا، فإن سعة المجال ويُسْرَ الحال يدلآن على أن هارون كان في مرح دائم وتنقلات مستمرة بين تلك القصور المتنشرة في مدينة السلام، وفي الرصافة على ساحل دجلة المنسابة بين النخيل. فهو تارة مع أمه في زيارة صديقاتها، حيث يتمتع باللعب واللهو مع أترابه من أبناء الأمراء والوزراء والقواد، وتارة أخرى مع خدم أبيه وجده، أمثال «سعيد الخفتاني، ومنارة، ومسرور، وحسين، ورشيد» وغيرهم، في أسواق المدينة والحدائق العامة، مجتازاً الجسور المنصوبة بين الرصافة والكرخ. وكان أشهى ما عنده، زيارة بيت جعفر المنصور حيث يلتقي عدداً من الصغار المدلَّلين، ومن بينهم عيسى بن جعفر الذي أَحَبَّهُ كثيراً، وزبيدة التي أَلِفها منذ الصغر حتى كبرت وتزوجت به.

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٥.

(٢) الطبري: المصدر السابق.

(٣) لي سترنج: ٢٤٢.

وامتدت الأيام قليلاً، وناهز هارون الثامنة من سنيه، فتفتقت أكمامه عن سجايا طيبة مرضية: قلب ساذج سليم، وطبع سلس ليِّن العريكة، يزيِّنه جمال الصورة وخفة الروح وحدَّة الذكاء. ولم يكن أخوه موسى على شاكلته، بل كان جاف الطبع إلى حد ما، شديد العناد، تغلب عليه صفة الجد والميل إلى العزلة والانزواء، وهو وإن لم يكن دميماً، إلا أنه كان أقل رقة وجمالاً من أخيه هارون. وقيل: كان في شفتيه غلظة وتقلص، يفتح بسببهما فمه إذا سكت أو مشى، ما اضطر أبويه أن يوصيا القائمين على خدمته بأن يقولوا له، كلما نَسِيَ فاهُ مفتوحاً: «أطبق.. يا موسى» حتى شاعت هذه الكلمة بين أترابه الصغار ومعارفه، فسمُّوه «موسى إطبق» وبقي هذا اللقب لاصقاً به حتى كبر، فصار يغضب ممن يفوه بها[1].

يبدو جلياً، أن هذه الفوارق في الصورة والسيرة معاً بين الصغيرين جعلت هارون أقرب إلى نفوس والديه وذويه. فنشأ محبباً مدللاً، لم يذق قليلاً أو كثيراً من ألم الحرمان وغلظة التأديب، واجتاز مرحلة الطفولة على بساط ناعم سهل داخل بيته وفي المحيط الذي كان يمرح فيه.. وليس بعيداً أيضاً أن يكون هذا الفارق والتفريق بين الأخوين قد خلق عُقَداً وترسبات مؤلمة في نفس موسى، الوحيد المدلَّل في بيت الخيزران، جعلته يشبُّ على التذمر والتصلب والعناد، ويكنُّ في حنايا صدره الصغير كرهاً وحقداً غامضين متناميين تجاه مزاحمه هارون وتجاه أمه التي بدأت تحنو عليه أكثر منه، مع تقارب السن بينهما.. وقد ظهرت آثار ذلك في تصرفاته حين كبر وشبَّ عن الطوق.

والجدير بالذكر أيضاً، أن هارون، في فترته هذه، كان سليماً معافى. ولم نجد في أخباره ما يدل على أن مرضاً انتابه فأثَّر في صحته، أو عاهة علقت به فشوهت ناحية ما في جسمه، أو اصطداماً بحادث عارض خلق في طبعه أو غرائزه شيئاً من الانحراف والشذوذ. ولكنها كانت طفولة صافية، في طريق معبدة، مشى فيها على سجيته، وتخطاها نشيطاً إلى ميدان صباه وشبابه.

(١) الجهشياري: ١٢٧

تربيته ونشأته

البيت مدرسة الطفل الأولى، ثم يأتي بعد ذلك أساتذته، فمجتمعه. وهي مدارس ثلاث تتضافر، في حياة كل ناشىء، على تكوينه، خلقاً وعلماً وتفكيراً.

وقد علمنا، ان بيت الرشيد كان واسع الآفاق، فيه من وسائل التنوير الذهني ما يكفي، لكثرة ما بذلت الأيام فيه من الرخاء والترف.. وعلمنا أن الأساتذة الذين أشرفوا على تدريسه وتثقيفه كانوا من خيرة علماء عصرهم ومن أنبههم ذكراً. وأما مجتمعه فكان ذا لون خاص يغلب عليه الطابع الأرستقراطي، وتعوزه الصبغة الشعبية إلى حد ما.. ولإيضاح ذلك، يجدر بنا التحدث عن أهم الشخصيات التي عاشت إلى جانبه، في فترة طفولته وصبوته، وكان لها الأثر الظاهر في تكوين طباعه وميوله وثقافته، وفي مقدمتهم أمه وأبوه.

كانت الخيزران، التي عرفنا الشيء الكثير عن تاريخ حياتها، عصبية المزاج إلى حد بعيد، مرهفة الحس، حادة العاطفة: إذا أحبت أسرفت في حبها، وأسلمت قيادها لعاطفتها فيه، وإن كرهت غالت في كرهها إلى حدود الشراسة والوحشية، وربما كان ذلك بعض السبب في جَعْلِ زوجها المهدي يتجنب إغضابها، وينقاد في الكثير من أموره إلى رغباتها ومطالبها.

يقول الواقدي: دخلت على المهدي يوماً، ورويت له بعض الأحاديث فكتبها عني، ثم قام فدخل بيت نسائه، ولم يطل، فخرج وهو ممتقع غيظاً. فقلت له: ما بك يا أمير المؤمنين؟؟ قال: دخلت على الخيزران وهي مغضبة، فسحبت ثوبي حتى مزقته، وقالت: ما رأيت منك خيراً منذ عرفتك يا قشّاش، أي يا كنّاس، !! وإني والله إنما اشتريتها من نخاس، ورأت مني ما رأت. ويحك فأنا قشّاش يا واقدي !![1].

---

(١) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٤٣١.

لقد كانت للخيزران رغبة جامحة في جمع المال، والتظاهر بالثراء، وقد أصبحت في أواخر أيامها أغنى نساء عصرها قاطبة، لكثرة ما ملكت من القرى والمقاطعات والجواهر والأعلاق النفيسة، كما كانت سخية اليد والعطاء إلى حد بعيد. وربما كان دافعها إلى حب الثراء والبذل هذين، شعورها بالنقص في مكانتها الاجتماعية بين الهاشميات والمهائر من نساء الأمراء ورجال الدولة الآخرين بحكم نشأتها كجارية مملوكة. فكأنها تحاول تغطية هذا النقص بالتفوق المادي، ثم بالسخاء والإفضال على من حولها، والمساعدة لكل من يرجو يدها.

ولدينا روايات كثيرة، تدل على ما كانت تحمل الخيزران بين جنبيها من شفقة ورحمة بالمحتاجين، والعطف على المعوزين ومَنْ نَكَبَتْهم الأيام بعد العز. وقد قيل: إن «مزنة» زوجة الخليفة الأموي «مروان بن محمد الجعدي» التجأت يوماً إلى بيتها، وقد أخذ الفقر والبؤس منها مأخذهما، وكان بحضرتها جماعة من الهاشميات، فعرفنها، فأسأن إليها بالكلام، وطردنها شماتة بها. لكن الخيزران بكت لحالها، وأمرت جواريها بأن يهيِّئن لها غرفة داخل القصر، حتى قدم زوجها المهدي فأخبرته بما جرى، فدمعت عيناه هو أيضاً، وقال لها: «والله لو لم تفعلي ذلك لما كلمتك أبداً» وبقيت مزنة حتى وافاها أجلها [١].

غير أن هذه العصبية الجامحة، والحس المرهف، والرغبة في قضاء حاجات الناس، أضعفت زوجها أمام رغباتها، وولدت لديها حب التدخل في الكثير من الشؤون العامة التي كان يمارسها كَوَلِيٍّ للعهد ثم خليفة للمسلمين. وأغراها ذلك إلى مد يدها في ما لا يعنيها من شؤون الدولة، حتى قيل إنها كانت تشاركه في سلطانه من وراء ستار، ما جعلها تتمادى في أمرها، حتى أصبحت تطمح إلى السيطرة والحكم، ولولا عقبات صعبة كانت تحول دون ظهورها لبرزت سافرة إلى مسرح السياسة العليا.

واختلف الرواة في شأن ثقافتها: فمنهم من قال بأنها تحب الأدب وتنظم الشعر وترويه، ومنهم من ادعى أنها لم تكن تحسن غير القراءة والكتابة. والأقرب إلى الظن أنها كانت وسطاً بين هذا وذاك، أي بقدر ما كان تجار الرقيق يثقفون جواريهم لعرضهن على

(١) العقد الفريد: ج ٢ ص ١٢٧.

الأمراء عند البيع. وربما استفادت الخيزران أكثر من هذا بفضل دخولها قصر ولي العهد حيث يروج الأدب والعلم، ويبحث في أوامر الدين ونواهيه، إلى غير ذلك. والذي يمعن في دراسة تاريخ هذه المرأة، ويتتبع تصرفاتها في أمورها يعلم أنها لم ترزق الحظ الوافي من الذكاء والبصيرة وتدبّر الأمور.

وأما المهدي، فلم يكن كأبيه المنصور في الثقافة والعلم، ولا في الدهاء والحزم، بل كان في ذلك بين بين. وقد رأيناه ينصرف إلى الشؤون العامة في سن مبكرة، وقبل أن تمتد به الأيام فيدرس ويتعلم ويضرب شوطاً في الثقافة. فقد مارس الحياة في الخامسة عشرة من عمره، فاكتسب الخبرة والتجارب من الزمن، واقتبس بعض العلم من جلاّسه ورجال حاشيته، وفيهم العلماء والأدباء والفقهاء.

ولم يكن كأبيه أيضاً مفرطاً في الاقتصاد والتقشف، بل كان سمحاً كريم اليد إلى حد بعيد، يدني الشعراء ويتقبل مديحهم، ويفيض عليهم بعطائه وهباته. ويحب سماع العزف والغناء، ولكن من وراء ستار وضمن حدود الحشمة والوقار. لذلك كان عهده عهد انتقال من جفاف العيش وشظفه في عهد سلفه إلى ترف زائد ونعومة متناهية في عهد أخلافه. ولكنه مع ذلك كان تقياً لا يقبل العبث والجدل في الدين، ولا يألو جهداً في قتل الزنادقة ومطاردتهم حيث وجدوا، عادلاً في الكثير من أحكامه، وإن لم يخل من الأخطاء والشطط في بعضها. وقيل: إنه كان إذا جلس للمظالم خشي أن يفرِّط بحقوق الناس، فيدعو القضاة أو الفقهاء إلى جانبه ليستشيرهم في ما لا يعلم، ويقول في ذلك: «لو لم يكن ردّي للمظالم إلا الحياء منهم لكفى»[1].

وأكثر ما كان يؤخذ عليه ضعفه أمام النساء، وتساهله تجاه تصرفاتهن وتجاه الخيزران بخاصة، التي استحوذت على شعوره وسيطرت على إرادته كما أسلفنا القول. وضعفه هذا خلقةٌ فيه وطبعٌ جبل عليه، وقد لوحظ منه ذلك قبل توليه الخلافة وبعدها. وكان أبوه المنصور يعرف أنه يعاني هذا النقص، فيحاول إصلاحه وتلافيه بالنصح تارة واللوم والتحذير من العواقب تارة أخرى، ولكن دون جدوى. وكان آخر ما أوصاه به قبل

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٢.

وفاته قوله: «يا بني إياك وإدخال النساء في أمورك، وأظنك ستفعل ذلك»[1]. وقد فعل، فكانت النتيجة ما سنراه من سوء العاقبة، غير أن هذا لا ينفي عن المهدي ما كان يتحلّى به من الصفات الحسنة الأخرى التي كانت ترفع من شأنه وتضعه في مصاف الرجال الطيبين.

ورث هارون من أبويه تكوينه الجسمي والحسي، وبهما تأثرت ميوله وطباعه منذ صغره، وعلى أيديهما تلقّى دروسه الأولى في مدرسة بيته، وإن لم يُحرم من صفات جده التي اقتبسها بالوراثة، كما يقول بعض المؤرخين. على أن هنالك أشخاصاً آخرين كان لهم نصيب في ذلك التكوين الخلقي والروحي بحكم اتصالهم الوثيق بشخصه وبالمحيط الذي عاش فيه. فقد كانت أمه بالرضاعة «فاطمة بنت محمد» زوجة يحيى بن خالد وحفيدة القائد المشهور «قحطبة بن شبيب الطائي» من خيرة النساء ديناً وخلقاً ورزانة في الطبع. وقد قيل إن هارون كان يحبها ويحترمها كما تحبه وتحترمه، ولم يكن يتمنَّع عن زيارتها كلما سنحت له الفرصة، فلما نشأ وترعرع أقسم لها أن لا يردَّ طلبها في حاجة، فأقسمت له بأن لا تطلب منه حاجة في مصلحة دنيوية لها.. وقد عاشت هذه السيدة الطائية حتى أواخر أيامه[2].

ومن أولئك الرجال الذين كانوا ملء سمع هارون وبصره «معاوية بن عبيد الله بن يسار» وزير أبيه، وصاحبه الذي لم يفارقه في الريّ وبغداد طوال ولاية عهده، وأعواماً أخرى من خلافته حتى عام (١٦١ هـ ـ ٧٧٨ م)[3]. وهو رجل من أهل (طبرية) معروف بالورع والتقوى ورواية الحديث. اشتهر بعطفه على الفقراء والمساكين والمحتاجين، فكان يوزع كل يوم من ماله الخاص على الجائعين (كُرّاً) من الدقيق أو كُرّين، ويتصدق عليهم بالدراهم أيام ترتفع الأسعار ويزداد الغلاء. ويقول صاحب كتاب تاريخ بغداد: «عندما مات معاوية هذا، امتلأت الجسور بالمشيِّعين فلم يستطع العبور عليها وراء جنازته إلا مواليه واليتامى والأرامل والمساكين الذين كان يتصدق عليهم»[4].

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٨٧

(٢) الإمامة والسياسة ٣ ج ٢ ص ٢٣٤.

(٣) الطبري، أنظر سنة ١٦١ هـ.

(٤) تاريخ بغداد: ج ٣ ص ١٩٦

وكان من أساتذته «علي بن حمزة الكسائي»، وهو رجل تقيّ ورعٌ، وأحد القراء السبعة للقرآن، وإمام أهل الكوفة في اللغة والنحو والأدب [1]. وقد عني بتدريسه وتلقينه العلم في طفولته، وبقي إلى جانبه حتى نشأ ونَبُهَ شأنه فصار من جلاسه، ثم من علماء بلاطه، ولم يفارقه حتى توفي عام (١٨٩ هـ) وقيل (١٨٣ هـ). وأما «المفضل بن محمد الضبي» فهو شيخ من شيوخ الأدب والأخبار وأيام العرب. اتصل بالمهدي قبل توليه الخلافة وبعدها، فقرّبه وأدناه، ثم كلّفه بتعليم أولاده، ومنهم هارون، فعلّمه ولكنه لم يلازمه ملازمة الكسائي ولم يدرك خلافته [2]. وغير هذين الأستاذين هناك عدد آخر من العلماء المشهود لهم بالفضل والتقوى وحسن السيرة.

وتدلُّ أخبار هارون على أنه انصرف إلى الدرس حتى بلغ عامه الرابع عشر، عندما انقطع عنه لانشغاله، في هذه السن، ببعض الشؤون العامة، ولكنه لم يترك الاستفادة قط، بل كان يتحين الفرصة بين الفينة والفينة فيعود إلى أوراقه وأساتذته. وما نعتقده، هو أنه اغترف في صغره شيئاً كافياً من مبادىء تلك العلوم، بفضل ما أوتي من ذكاء وقوة حافظة، ولا سيّما في الأدب الذي كان يتذوقه، فحفظ الكثير من الشعر والأمثال والحِكَمِ وأقوال الفصحاء وخطبهم، ما وسع ملكته الأدبية وشجعه على مجالسة العلماء والفقهاء والشعراء وأصحاب الأدب والفكر طوال حياته، كما سنرى.

وكان المهدي من أشد الخلفاء رغبة في تثقيف بنيه ثقافة عسكرية رياضية، وأكثرهم رغبة في تقوية أجسامهم، وتدريبهم على المتاعب والمخاطر، وتهيئتهم لتحمّل أعباء الإمارة والملك، وكل ما يقتضيه ذلك العهد من أسفار وغزو وجهاد. وبفضل تلك الرغبة، تعلَّم هارون منذ صغره ركوب الخيل، وأصول الرمي بالسهام، والطعن بالرمح، والضرب بالسيف على أيدي جماعة من نوابغ الفرسان الذين كانوا يقومون بتدريب أبناء الأمراء والقواد على طريقة التمارين الحربية التي يستطيع الفتيان الصغار ممارستها حتى تقوى أجسامهم وتشتد سواعدهم.

وما ساعد هارون على النبوغ في هذه الرياضة العسكرية في صبوته، رغبته بها،

---

(١) تاريخ بغداد: ج ١١ ص ٤٠٣.

(٢) تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ١٢١

ووجود المنافسين له من أترابه فيها، من أخوته وأبناء عمه وأولاد الوزراء والقواد. وربما تفوَّق عليهم بفضل ما أوتي من صحة ومتانة في الجسم وجرأة على المخاطر. وقد روي عنه أنه أصبح بعد بلوغه العاشرة من عمره يركب الجواد الصعب فيروِّضه. ولا غرابة في ذلك، فقد بلغ من تشجيع المهدي لأولاده في هذا المجال أن علَّم بعض بناته ركوب الخيل، فكانت «البانوقة» ابنته تركب الفرس وتصحب أباها في أسفاره وهي صبية قد نهد ثديها[1].

وفي الوقت الذي كان فيه هارون يخلع أثواب الطفولة عاماً بعد عام، كانت الأحداث في خلافة جده وأبيه تمر بجانبه، فيراها أو يسمع بها.. وقد كان لبعض هذه الأحداث صلة مباشرة بمستقبله، في حين أن صلته ببعضها الآخر لم تكن إلا بمقدار ما ترك في نفسه من أثر أو ذكريات ترسبت في خلده، فيفيد منها بقدر ما يفيد الصغار من الدروس التي تعطى لهم على الشاشة «السينما» في عصرنا هذا.

أفاق ذات صباح، وهو في عامه السادس، فرأى أباه يحمل على رأسه شعاراً غير تلك العمامة السوداء المكورة، وقد استبدلت بقلنسوة أعجمية سوداء طويلة، تلتاث عليها عمامة رقيقة من الخزِّ الأسود، ترفع وتدق من الأمام والخلف، وتعرض وتتضخم على الجانبين. وكان المنصور قد اختار هذا الزيَّ الجديد له ولرجال دولته في عام (١٥٣ هـ ـ ٧٧٠ م) فجاء هذا الاختيار نابياً عن أذواق بعض العرب، فتندّروا به في أول الأمر ثم ألِفوه.. وقيل: إن الشاعر الظريف «أبا دلامة» كان من أكثر الناس تبرُّماً به، فلبس ذات يوم قلنسوة ضخمة جداً، ودخل بها على المنصور، وأنشده:

وكنا نرجّي من إمام زيادةً ... فزادَ الإمامُ المصطفى في القلانسِ

تراها على هامِ الرجالِ كأنها ... دنان يهود جلّلتْ بالبرانسِ

فضحك المنصور لقبح مظهره، وسمح له وحده بالعودة إلى العمامة العربية المكورة. وبقي ذلك الشعار عصوراً عديدة، حتى انقراض الدولة العباسية[2].

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤١٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٢

ولم يشهد هارون قبل عامه السابع جيشاً يستعرض بكامل عدده وسلاحه مثل ذلك الجيش الذي زحف بقيادة جده نحو بلاد الشام، على أثر حدوث ثورات في بعض أصقاع شمال أفريقيا التي كان المنصور يهتم بأمرها، ويحرص على أن لا تفلت من يده فتستقل، أو تلتحق بالدولة الأموية في الأندلس. ولأول مرة كان هارون يرى جده هذا لابساً لامة حربه، متأهباً إلى سفر طويل، فيودّعه مع صغار المودّعين، وفي نفسه شيء من الفخر والإعجاب.

وكان المنصور في عودته من سفره هذا قد مرّ بمدينة (الرقة) على نهر الفرات، فأعجبه موقعها وطيب هوائها وعذوبة مائها، فأقام فيها أياماً، وتاقت نفسه إلى بناء مصيف بجانبها، يأوي إليه حين يقسو عليه حرُّ العراق. ولدى وصوله بغداد، أرسل ابنه المهدي لتحقيق تلك الرغبة، وأمره بأن يبني ذلك المصيف على طراز بناء مدينة السلام. فخرج المهدي عام (١٥٥ هـ ـ ٧٧٢ م) إلى الرقة، وأتم بناء المدينة الجديدة بجانبها وسماها (الرافقة)[1] ثم عاد إلى بغداد. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يفارق هارون، أباه مدة طويلة كهذه التي استغرقت عاماً كاملاً[2].

وفي ربيع (١٥٧ هـ ـ ٧٧٣ م) عزم الخليفة المنصور على إقامة عرض عسكري كبير تشترك فيه الجيوش الرابضة في العراق وما جاوره، عدا تلك التي ترابط على حدود الدولة وفي الثغور، وكان قد تعود إجراء مثل هذا العرض في فترات مختلفة لغايات مهمة، كتفقّد القوى العسكرية، وتقوية معنويات الجند بإظهار اهتمامه الشخصي بأحوالهم، وإرهاب ذوي النفوس المتمردة على سلطانه. وعيَّن الموعد في يوم جمعة على أرض ميدان فسيح في ضاحية (قطربل) إحدى كور بغداد، وأمر رجال دولته وأمراء بني العباس بالحضور مع كامل أسلحتهم وعِدَدِهم المدخرة للقتال.

وفي الوقت المحدد، امتلأ الميدان بتلك الكتائب الجرارة على اختلاف أنظمتها، وغصَّت جوانبه بالناس الذين قَدِموا من كل مكان للتمتع بمناظر القوة والعزة، وأقبل موكب أمير

---

(١) بنيت الرافقة على بعد ثلاثماية ذراع عن الرقة. وقد اتخذها الرشيد مصيفاً له طوال خلافته، وبنى فيها قصره المعروف بـ «قصر السلام».

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٢.

المؤمنين بأبهى زينة من السلاح المحلّى بالذهب والجوهر، وفي مقدمته الخليفة المنصور على بغلة بيضاء في درع جميل، وسيف من الذهب المرصع بالأحجار الثمينة، وقلنسوة سوداء بدل البيضاء، وحذاء معدني يستعمل في الحرب. وأخذ الجميع أماكنهم حول منصَّة الخليفة، المشرفة على ساحة العرض، وجلس عن يمينه ويساره وليًا عهده، المهدي وعيسى بن موسى.

وبدأ الحفل على نظام مسنون، فنادى المنادي بأسماء القادة، بحسب مراتبهم، فأقبلوا على خيولهم يتقاربون أمام أمير المؤمنين وهو يتفقد سلاحهم، ويشير إليهم بالعودة إلى مواقعهم حتى انتهى منهم. ثم بدأ الزحف، فأقبلت الكتائب، وأعقبتها فرق الرماة بالسهام، ثم صفوف المشاة، تليها المجانيق وآلات الحصار، حتى إذا ما تم كل شيء وانتهت ألعاب الفروسية، وزعت الجوائز على الجميع، كلٌّ بحسب مرتبته.

شهد هارون هذا العرض العسكري الجميل، وهو ابن عشرة أعوام[1]، وكان يومئذ في دور التدريب الرياضي، فاستهواه ذلك المهرجان بكل ما فيه، واستثارته مناظر الخيل والفرسان والسلاح بقدر ما يتأثر الصغار بمشاهد الفروسية والبطولة. كما شهد هذا العرض عدد كبير أيضاً من صبايا بني العباس وأبناء القواد ورجال الدولة وغيرهم من ذلك الجيل الذي قام، فيما بعد، بأدوار مهمة في تاريخ الأمبراطورية العباسية خلال ربع قرن كامل أو ما يزيد.

بعد أن مضى على بناء مدينة السلام زهاء عشرة أعوام، ضاقت بالسكان وازدحمت البيوت والأسواق حولها[2].. وكان المنصور قد ملَّ المقام في قصر الذهب، فعزم على الخروج منه إلى فسحة أوسع رقعة وأجمل منظراً، فاختار موقع دير قديم في جانب الكرخ جنوب العاصمة وشيَّد عليه قصراً من أضخم وأجمل قصور ذلك العهد وأوسعها أجنحة وحدائق غناء، وجعل بعض مقاصيره وجواسقها تجاه دجلة، تطلُّ على الجسور وقصور الرصافة، وسماه (الخلد)[3]، وانتقل إليه عام (١٥٨ هـ - ٧٧٥ م) باحتفال عظيم حضره من كان في بغداد من عِلْية القوم، فكان مقراً وبلاطاً له ولابنه وأحفاده من بعده.

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٣٧٩.

(٢) معجم البلدان، كلمة الخلد.

(٣) قصر الخلد هو الذي جعله هارون الرشيد قصراً له أثناء خلافته.

وكان أبو جعفر قد ناهز السبعين[1]، وكانت الأحداث وأعباء السياسة والملك والكفاح المستمر منذ أيام الشباب، قد أكلت من صحته، وهدَّت من قواه، فصار يشعر بآلام وأمراض تعتاده، وكان أقساها عليه مرض معدته الذي يمنعه عن الطعام.. وشاءت الأقدار أن لا يقيم هذا الشيخ المتعب في قصره الجديد أكثر من بضعة أشهر، فعزم على السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وصمم أن يصحب في موكبه أحد أحفاده، فاختار موسى بن المهدي، وأمر بالاستعداد للرحيل.

وفي أواخر شهر شوال من السنة نفسها، غادر بغداد في موكبه الفخم، ونزل بالقرب منها في «قصر عبدويه» حيث أقام بضعة أيام يتفقد فيها ما نقص من لوازم ذلك السفر الطويل، وخرج معه أهل بيته ورجال دولته لتوديعه هناك، ولكن الرجل كان منقبض النفس كئيباً، لشعوره بضعفه، وحسِّه بدنوِّ أجله، فدعى ولي عهده المهدي إليه في خلوة، وصار يحدثه عن أسرار الدولة، ويرشده إلى طرق حكمها، وأي الرجال يعتمد عليه، وأيّهم يجب اجتنابه، ثم قال له: إني قد تركت لك (مذكرات) في دفاتر، تفيدك إذا اطلعت عليها في أيام مِحَنكَ، وانتهى حديثه بتذكيره بعيوبه ونصحه أن يتخلَّص منها، وأهمها ادخال النساء في أموره.. حتى إذا أُزفت ساعة الفراق عانقه عناقاً حاراً، ثم بكى وبكى المهدي معه، وودَّع هارون جده مع المودِّعين وسار الركب حتى توارى عن الأنظار.

وفي الطريق أحس بمرضه يعاوده ويشتد عليه، فأمر بالإسراع بالمسير للَّحاق بمكة والتخلص من مشاق السفر، ولكنه قبل وصوله بمرحلة واحدة، ثقل مرضه فاضطر إلى ملازمة الفراش في (بئر ميمون). وفي أوائل شهر ذي الحجة، انتهى نصيبه من الحياة، وصعدت روحه إلى بارئها، فحمل نعشه العلماء والفقهاء الذين كانوا معه ودخلوا به مكة، فصلُّوا عليه ودفنوه هناك[2].

وكان وزير المنصور «الربيع بن يونس» حاضراً الموقف، فتدارك الأمر بأخذ البيعة، ممن كان في مكة، بالخلافة للمهدي، وبولاية العهد لعيسى بن موسى الذي كان برفقة

---

(١) توفي المنصور عن ٦٣ سنة وقيل عن ٧٥ سنة.

(٢) إبن الأثير: ج ٦ ص ٩.

المنصور في موكبه ذاك، وأرسل في الحال إلى بغداد من ينعى لها أبا جعفر، ويقدم بردة النبي ﷺ والخاتم والقضيب للخليفة الجديد... ثم قفل الركب، بعد أداء فريضة الحج، راجعاً على أثره إلى العراق.

وحزنت بغداد لذلك النعي، وسَرَتْ موجة أسف عميق في أنحاء البلاد بين محبي هذا العاهل الكبير والمعجبين بشخصه ومزاياه. وشعر بنو العباس بفراغ واسع، تركه مؤسس دولتهم هذا الذي بقي طوال مدة خلافته يحنو عليهم ويبني مجدهم، فبكوه أحر البكاء، والتفّت مآتمهم عليه.. وكان هارون، يومئذ، قد ناهز الثالثة عشرة من عمره، وهي مرحلة يتفتق فيها الذهن عن فهم مغازي الأحداث ومجاري الأمور إلى حد ما، فكان أكثر الناس بكاء على جده الذي أحبه ودلله بين ذراعيه منذ نعومة أظفاره، وتوسم له الخلافة في المستقبل.

ولم يتأخر المهدي، رغم فاجعته، عن ان يتهيأ لإجراء مراسم البيعة له بالخلافة، فسار موكبه من قصر الرصافة إلى جانب الكرخ، ودخل القاعة الكبرى في قصره الخلد، وقد أعدت لهذا الأمر، وغصت بالأمراء والقواد ورجال الإدارة، فتوسط الجمع الحاشد على أريكة أبيه، وعليه تلك البردة المقدسة، وفي يده الخاتم والقضيب، وكان، يومئذ، في الثانية والثلاثين من عمره، أسمر البشرة، رقيق الوجه، مليح الشكل، أجعد الشعر، فارع القامة نحيفها، وعلى عينه اليسرى نكتة بيضاء لا تبدو واضحة للناظر إليها. ووقف وراءه وزيره معاوية بن عبيد الله بن يسار، وعدد من الكتَّاب [1].

هناك نودي على الحاضرين بأسمائهم، وبدىء أولاً، بأمراء البيت الهاشمي، أعمارهم وقرابتهم من أمير المؤمنين، ثم بالقواد، بحسب مراتبهم، ثم برجال الحاشية والإدارة.. وكانت طريقة البيعة أن يتقدم كل واحد من هؤلاء فيقبِّل يد الخليفة، ويحلف يمين البيعة له بالخلافة، ولعيسى بن موسى بولاية العهد. والظاهر أن هارون كان حاضراً ذلك الاجتماع التاريخي، بصفته أحد أبناء الخليفة المتوَّج، ولكنه لم يُبايع لأنه لم يبلغ سن الرشد بعد.

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٥٨ ـ وفي رواية أخرى يقال إن البيعة هذه جرت في مسجد مدينة السلام.

واستهل المهدي حكمه بأن جَمَعَ وزراء دولة أبيه، وعماله على الدواوين والخزائن، وأحصى ما عندهم من الأموال، فوجد ثراء طائلاً لم يكن في حسبان أحد، بفضل ذلك الاقتصاد والتدبير الذي عرف به المنصور.. وفي رواية أخرى، أن المنصور قال لابنه يوم ودّعه الوداع الأخير «تركت لك من الأموال ما لو انقطع الخراج عنك عشرة أعوام لكفاك مؤونة الحاجة». وقد اختلف المؤرخون في تقدير تلك المخلفات، فقيل: ثمانمائة ألف ألف درهم بين الزيادة والنقصان [١]. وهي ثروة لم تجمع في بيت مال خليفة قبله.

من هذا كله، نرى أن أبا جعفر قد مهد لابنه بساط الحكم تمهيداً غير منقوص من مختلف نواحيه السياسية والإدارية والاقتصادية. وترك له حاشية من الرجال هم، في الحقيقة، نخبة طيبة، قلّما يجود الزمن بمجموعة مثلها، خبرة وثقافة وجلال قدر وحسن تدبير، منهم الربيع بن يونس وابنه الفضل، والبرمكيان خالد وابنه يحيى، ومعاوية بن عبيد الله، وابان بن صدقة. ومن قادة الحرب وأرباب السيف: معن بن زائدة [٢] ويزيد بن مزيد الشيبانيين، وهرثمة بن أعين، ومحمد بن فروخ الأزدي، وعدد من أحفاد المهلّب بن أبي صفرة، وأبناء قحطبة، وغيرهم من مشاهير رجال الإدارة واصحاب الأقلام ممن عرفوا في التاريخ.

فكان المهدي أول خليفة عباسي يتولى الملك وليس في الدولة مشكلة أو عقبة يحتاج إلى تذليلها، فانسجم هذا الواقع مع طباعه وأخلاقه المعروفة باللين والمسالمة إلى حد بعيد. لذلك نراه يفتتح أعماله السياسية بالإفراج عن العلويين المسجونين جميعاً بسبب تلك الثورة التي تحدثنا عنها في مقدمة الكتاب، ولم يستثنِ منهم غير «الحسن بن ابراهيم العلوي» خوفاً من طموحه ونشاطه الملحوظ [٣]. ولم يكتفِ بإطلاق سراحهم، بل خيَّرهم

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٥٦.

(٢) كان معن بن زائدة أحد قواد بني أمية، قاتل الجيوش العباسية أيام الثورة، فقتل قحطبة بن شبيب الطائي قائد جيوش بني العباس في معركة الفرات، كما رأينا، ثم هرب واختفى بعد انقراض الدولة الأموية، ولكنه حضر الهاشمية في عهد أبي جعفر ملثماً، ودافع عنه ضد الراوندية يوم أرادوا قتله، فعفا عنه الخليفة وعيَّنه. وبقي حتى توفي في خلافة المهدي. وقد كان لابن اخيه يزيد بن مزيد أخطر الأدوار العسكرية في عهد هارون الرشيد كما سنرى.

(٣) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٨٢.

بين البقاء في بغداد والعودة إلى الحجاز. فعادوا بعد أن أكرمهم وأمر بأرزاق تجري لهم.. وأطلق سراح جميع المتهمين السياسيين الآخرين، عدا الزنادقة والمجرمين، فكان منهم وزير المنصور «يعقوب بن داود» المتهم بالتآمر مع العلويين ضد عرش بني العباس، فاستدعاه إليه، وقرَّبه منه، ثم استوزره وأعاد مكانته، ولكنه أحس ثانية بأنه ما زال على هواه، فارتاب منه، واختبره فتأكد بعد تلك الريبة، فأمر بإعادته إلى السجن مرة أخرى [١].

هذا ما كان من أمر المهدي أثناء انتقال الحكم إلى يديه، أما الخيزران فقد تنفست الصعداء على أثر وفاة أبي جعفر المنصور الذي كان قابضاً على شؤون دولته وعلى تصرفات أفراد أسرته بيد من حديد. وكان أبغض ما يبغض إدخال النساء في أمور الرجال، ولا سيّما ضعف ابنه المهدي تجاه زوجته هذه التي كانت تتحرق طموحاً إلى التدخل في أعمال زوجها. فلما مات انتقلت هي وولداها إلى قصر الخلد وتبوأت مكانتها فيه كسيدة القصر الأولى. ولم تمضِ حقبة قصيرة من الزمن حتى أصبحت مقصداً لذوي الحاجات عند الخليفة، فتدافعت المواكب على بابها من القواد والعمال، وكل طالب وطامح، على مرأى ومسمع من زوجها.

وكان أول عمل قامت به، أن طلبت البحث عن أفراد اسرتها في بلاد اليمن، وجلبهم إلى بغداد، ولم تكن تجرؤ على هذا قبل وفاة المنصور، فأرسل المهدي إلى عامله هناك يأمره بذلك، فعثر عليهم في صقع (جرش) وهم في حالة من الفقر والبؤس: الأم وابنتاها «سلسل» و«أسماء»، وأخ لهما يدعى « الغطريف بن عطاء» ويعمل ناطوراً في أحد بساتين الأعناب. فأرسلهم إلى عاصمة الخلافة بتجلة واحترام، فاستقبلتهم الخيزران وولداها، وأنزلتهم في قصر كانت أعدته لهم في مدينة السلام وعندها تعرّف هارون للمرة الأولى إلى جدته وخاله وخالتيه الجميلتين اللتين تزوجتا، فيما بعد، بشخصيتين كبيرتين من وجهاء الدولة. وقيل من أمراء بني العباس.

على أن هذا التطور الملحوظ في أسرة المهدي شمل أفرادها جميعاً، ولا سيّما ولدي الخيزران موسى وهارون، اللذين كانا فيما مضى من جملة أحفاد المنصور الكثيرين،

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٨٢.

فأصبحا ولدي أمير المؤمنين، وابني سيدة القصر ذات الحظوة الكبرى عنده.. وقيل إن موسى بن المهدي يوم صاحب جده في سفرته الأخيرة إلى الحجاز، كان يأتي في المنزلة بعد عدد من أمراء بني العباس، فلما توفي المنصور تقدم الصفوف، وأخذت البيعة بالخلافة لأبيه على يده، وفي العودة إلى بغداد كان هو الذي يترأس الموكب، بصفته أكبر أبناء الخليفة الجديد، على الرغم من صغر سنه (١).

ثم إن موسى وهارون، أصبحا في طليعة أمراء بني العباس على مسرح السياسة العليا، وقد تسلطت الأضواء عليهما وعلى موسى بوجه خاص. فلم تكد تمرّ حقبة قصيرة جداً من الزمن على تصرف المهدي في شؤون دولته، حتى بدأ يفكر بانتزاع ولاية العهد نهائياً من عيسى بن موسى وإعطائها لابنه، ولكن عقبة ما كانت تحول دون ذلك، وهي ان موسى ابن أمير المؤمنين لا يزال قاصراً فهو في السادسة عشرة من العمر، ولم تجر التقاليد قبل اليوم بإعطاء ولاية عهد المسلمين لقاصر في هذه السن. غير أن خوف المهدي، وربما خوف الخيزران أيضاً، من موت يفاجئه قبل أن يصبح كبير أولاده راشداً، فتذهب الخلافة من بيته، جعله يقدم مسرعاً على تحقيق هذه الرغبة مهما كلف الأمر، ولم يعدم من بين رجال الحاشية، كما هي العادة في كل زمان ومكان، من يؤيده في ذلك ويشجعه.

ومشت الفكرة في صفوف الحاشية، وتناقلتها الألسن همساً حتى استقرت في سمع عيسى بن موسى، فساءه ذلك وعلم بأنها ستخرج من يده هذه المرة إلى الأبد، فراح يتهيأ للمعارضة ويجمع صفوف أعوانه. لكن المهدي لم يمهله، وفاتحه بالأمر، فأبى وأصرّ، فدعاه للمجيء إلى بغداد، فلم يفعل وخاف على نفسه، ولم تُجدِ نفعاً المخابرات بينهما في سبيل إقناعه بالمجيء، فكتب اليه يقول: «.. إنك إن لم تجبني إلى أن تخلع منها حتى أبايع لموسى، استحللت منك ما يستحل من العاصين، وإن أجبتني عوّضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً» (٢) وعرض عليه مبلغاً كبيراً جداً من المال، فلم يفعل، فأرسل إليه قائداً من قواده «محمد بن فروخ الأزدي» وأمره أن يأتي به طائعاً أو كارهاً.

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٧٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٧.

وكان عيسى يومئذ قد قارب الستين، والمهدي لا يزال في ربيع شبابه، والأمل بانتقال الخلافة إليه بعيد، إلا إذا حدث قدر مفاجىء، فلا يستحق الأمر إذن أن تصل المعارضة إلى حد العصيان فالقتال. فأذعن وجاء إلى بغداد طالباً من المهدي إصدار فتوى عن الفقهاء، تبيح له التنازل عن حقه والانعتاق من أمانة المسلمين التي في عنقه، فأفتاه بعض الفقهاء بذلك، فتنازل عنها، وكتب عهداً بتنازله أمام مجلس عام، ووقّعه في اليوم الرابع من المحرم (١٦٠ هـ - ٧٧٦ م)، وأخذ المال وعاد وانزوى في قصره بالكوفة [١].

وعلى أثر ذلك، وجّه المهدي دعوته إلى من كان في بغداد من وجهاء القوم للحضور إلى مسجد المنصور داخل مدينة السلام، من أجل البيعة. وفي الموعد المعيَّن حضر رجال الدولة من مختلف الطبقات، وجرت المراسم المعتادة لتجديد البيعة بالخلافة للمهدي وبولاية العهد لابنه موسى الذي لقب في تلك الساعة بـ «الهادي». ثم أرسلت الكتب إلى أنحاء البلاد لأخذ البيعة من الناس [٢]. ولا يبعد أن يكون هارون حاضراً ذلك المشهد الذي رقصت له جوانح الخيزران طرباً.

لم تجد فعلة المهدي هذه ارتياحاً في نفوس العديد من الناس، لما تقدمها من أساليب التهديد والإكراه أولاً، ولأن موسى الهادي لم يكن، بعد، نابه الذكر والشأن، ولا معروفاً لدى العامة، ولم يبد منه حتى تلك الآونة ما ينمُّ على كفاءة ومواهب شخصية فذة يطمئن لها الحريصون على مستقبل الدولة.. وأكثر من هذا، فإن تكرار نقل ولاية العهد من شخص إلى آخر، كما حدث مع عيسى بن موسى، لم يُرضِ عقلاء القوم خوفاً من أن يتعوّد الناس نكث الأيمان في البيعة.

وكان في مقدمة المتذمرين عدد من أمراء بني هاشم، أحفاد «علي بن عبد الله بن عباس» الذين يرون أنفسهم أصلح للخلافة من المهدي، فضلاً عن ولاية العهد التي أُعطيت لهذا الفتى الصغير [٣]. ولتذمُّرهم هذا قصة قديمة جديرة بالتنويه: ملخصها، أن الدعوة

(١) توفي عيسى بن موسى في خلافة المهدي ولم يدرك خلافة الهادي.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٩.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٤٩٦.

العباسية التي قام بها «محمد بن علي» لم تهدف إلى جعل الخلافة منحصرة في أبنائه، بل هي بيعة للأصلح من بني العباس الذين اشتركوا جميعاً في تحقيق أهداف الثورة على سلطان بني أمية. فلما تولى الخلافة الأولى «عبد الله السفاح بن محمد» في تلك الظروف الحرجة، لم يظهر هؤلاء استياءهم أول الأمر ما دامت دولتهم فتية لم تتركز بعد، وانصرفوا إلى جانبه لإتمام تلك الرسالة، فكان منهم عبد الله بن علي قائد موقعة الزاب، وصالح بن علي قاتل الخليفة الأموي، مروان، في مصر، وآخرون ممن قاموا بأعمال جليلة، لكن نقلها من السفاح إلى أخيه أبي جعفر المنصور سبّب استياءً لدى بعضٍ منهم، وانفجر ذلك الاستياء عن ثورة عبد الله بن علي، كما بيَّنا، الذي قتله المنصور وكان ذلك بادرة عداء خفي، لم تظهر آثاره، خوفاً من بطش هذا الخليفة الحازم الذي قبض على زمام الأمور بيد قوية. واستمرت خلافة المنصور مدة تنوف على العشرين عاماً، زال فيها ذلك التذمر إلى حد ما، حتى إذا أُخذت ولاية العهد للمهدي وانتقلت الخلافة، إليه تجدد الاستياء بين أحفاد علي، ولا سيّما أن لديهم من هو أصلح منه للخلافة كعبد الملك بن صالح وعيسى بن موسى وغيرهما. ولم يرتح هؤلاء إلى أن يكون السلطان منحصراً في ذرِّية المنصور دون غيره، وزاد ذلك التذمر عندما أخذت البيعة بولاية العهد لموسى بن الخيزران، وهو صغير، فكان هذا آخر ضربة قطعت آمال الآخرين من بني العباس للوصول اليها.

بيد أن الرأي العام لم يلتفت إلى هذه التطورات في مراحلها، ولم يتذمّر إلا عندما أخذ المهدي ولاية العهد كرهاً من صاحبها، وقلَّدها ابنه موسى الذي لم يبلغ سن الرشد بعد [(١)]، فتقوّل الناس بما لا يحب، وسلقوا عيسى بن موسى بألسنة حداد لتنازله عنها لقاء دراهم وأعلاق، فقال أحد الشعراء:

كرِهَ الموت ابو موسى وقد ... كان فـي المـوتِ نجاءٌ وكـرمُ

خَلَعَ المُلْكَ وأضحى لابساً ... ثوبَ لؤمٍ ما تُرى منها القدمُ [(٢)]

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ١٥٣ ـ عارض بعض القواد رأي المهدي في اخذ البيعة بولاية العهد لموسى، ثم بايعوا بعد أن تنازل عيسى بن موسى عن حقه.

(٢) ابن الأثير: ج ٦ ص ٣١٥ ـ وكلمة (أبو موسى) في هذا الشعر تعني عيسى بن موسى الذي يكنّى باسم ولده موسى.

ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك من ارتياح لتلك النتيجة التي مرَّت بسلام، ولا سيما أسرة المهدي، ورجال حاشيته، وصنائع نعمته، وعلى رأسهم الخيزران التي رأت في بيعة ابنها دنيا مليئة بالآمال قد تفتحت على مصراعيها، وهي فيها زوجة أمير المؤمنين، وأم وليّ عهد الدولة.. ولم نعلم في الحقيقة ما هو شعور «ريطة بنت السفاح» تجاه هذا الحادث، ولكن أغلب الظن أنها ارتاحت قبل كل شيء لبقاء كرسي الخلافة في بيت زوجها، ولم تزعجها ولاية ابن الخيزران العهد، مادام هو أكبر سناً من ابنها «علي»، وما دامت الأبواب لم تغلق في وجهه بعد. وأما هارون فلم يكن، يومذاك، في الحساب.

وكان المهدي فرحاً مستبشراً بذلك الحادث الموفق، فعزم على السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وأمر ببناء المنازل، وحَفْرِ البرك وركايا الماء على الطريق للتخفيف من عناء السفر في حر ذلك الصيف القائظ[1]. وعيّن ابنه موسى نائباً عنه في بغداد، وأبقى معه نخبة من رجاله يديرون شؤون الدولة معه طوال غيبته، ثم توجَّه بموكب ضخم يضمّ عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء وأمراء بني العباس، ومن بينهم ابنه هارون.

وبعد سفر طويل وشاق، وصل مكة، فنزلها وأمر بنزع الكسوة القديمة للكعبة وكساها بأخرى أحسن منها، وقسَّم في أهالي الحرمين ثلاثين مليون درهم كانت معه، ووزَّع أموالاً أخرى وردت إليه هناك من مصر واليمن، وفرَّق معها على الناس ثياباً وحللاً لا تُحصى، فلم يبق في تلك البقاع أحد إلا أصابه شيء كثير من تلك الأفضال والأنعام، ثم أمر بتوسيع مسجد النبي وتزيينه بما يليق به.. وأقام بعد أداء فريضة الحج مدة في الحجاز، تزوج خلالها «رقية بنت عمرو العثمانية» واختار من الأنصار في المدينة خمسماية رجل، جعلهم حرساً خاصاً له، واصطحبهم معه إلى العراق، فأسكنهم عاصمته[2].

كانت هذه هي المرة الأولى التي يؤدي فيها هارون بن المهدي فريضة الحجّ. وقد تجشَّم المشاق والمتاعب في صيف قاسٍ، وفوق رمال محرقة، ومارس الاغتراب عن بيته

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٨٥.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٤٨١.

بضعة أشهر، ورأى أعمال أبيه في صنع الخير، وبذل الإحسان، وسمع ألسنة الشكر في كل مكان تلهج بحمده وتتحدث بمكارمه، وشاهد تلك الجماهير الزاخرة تلبّي وتكبّر، وتطوف وتستغفر، ثم تنتظم في صفوف متراصة حول الكعبة للصلاة، فلبّى هو معهم وكبّر، وطاف واستغفر، وصلّى وابتهل، فشعر بالطمأنينة الروحية، وامتلأ صدره بروعة تلك الذكرى.

وكان إلى جانبه، طوال هذه الرحلة، أحد رجال أبيه الفضلاء «ابان بن صدقة»[1]، يعرّفه بالمواقع الأثرية التي يمرّ بها، ويحدّثه عن تاريخها، ويقصّ عليه سِيرَ أبطال المسلمين فيها، ويشرح له شعائر الحج ومعانيها وأهدافها، ولم يترك أمراً مجهولاً لديه إلا أفهمه إياه وأوضحه له بقدر ما يستطيع طفل في الرابعة عشرة من عمره أن يفهم، فكانت تلك الرحلة درساً عملياً له لا يستطيع أن يجده في كتاب، ورياضة نفسية مليئة بالفوائد والعِبَر.

وعاد المهدي بموكبه إلى العراق في منتصف عام (١٦١ هـ ـ ٧٧٨ م) بعد غيبة دامت أكثر من نصف عام، فوجد إدارة شؤون الدولة سائرة على خير ما يرام، بفضل من كان حول ولي العهد من ذوي الرأي والتدبير، فأفاض عليهم جميعاً بالعطاء والإكرام.. وألحق ابان بن صدقة بموسى الهادي كوزير له ومدير لشؤونه وأعماله، وجعل مكانه، إلى جانب هارون، يحيى بن خالد البرمكي.

(١) كان ابان بن صدقة يكتب لوزير المنصور «أبي أيوب المورياني» فلما نكب هذا الوزير قلّده أبو جعفر كتابة الرسائل والسر، وقلّده المهدي بعد ذلك وزارة ابنه موسى الهادي وكتابة رسائله. توفي عام ١٦٧ هـ وهو على رسائل الهادي بجرجان، حين أنفذه أبوه الى الريّ، كما سنرى.

بنو برمك

لأسرة البرامكة تاريخ يتصل بالدعوة العباسية وبعدها، ولا سيّما بتاريخ هارون بن المهدي.

والبرامكة يُنسبون إلى جدهم « برمك» وهو من مجوس (بلخ) ومن كبار قومها وأشرافهم ، وأحد خدام معبد (النوبهار) يوقد نيرانه التي يقدّسها المجوس.. أسلم ابنه «خالد» في أواخر عهد الدولة الأموية، والتحق بالدعوة العباسية في خراسان، وقاتل من أجلها تحت راية أبي مسلم الخراساني. ثم انضم إلى جيش «قحطبة بن شبيب الطائي» الذي زحف نحو العراق، واكتسح جيوش الأمويين فيه، كما أسلفنا.

فلما عقدت البيعة بالخلافة لأبي العباس السفّاح، جاء خالد يبايعه، فكلّمه بكلام عربي فصيح، فأعجب بمنطقه ورجاحة عقله، وكان قد سمع ببلائه وإخلاصه للدعوة، فجعله على ديوان الخراج، ثم أضاف إليه ديوان الجند، فنظّم حسابات هذين الديوانين تنظيماً متقناً لم يكن معروفاً من قبل، وأبدى كفاءة فائقة، فأحبه أبو العباس، وعيّنه وزيراً له بعد مقتل أبي سلمة الخلال.

وصفه «الفخري» في كتابه قال: «كان خالد من رجال الدولة العباسية، فاضلاً جليلاً، كريماً حازماً يقظاً، استوزره أبو العباس وخفّ على قلبه». وقيل إن أبا العباس قال له يوماً:

- «يا خالد، ما رضيت حتى استخدمتني ؟؟»

ففزع خالد وقال:

- «كيف يا أمير المؤمنين، وأنا عبدك وخادمك !؟»

فضحك أبو العباس، وقال:

- «إن - ريطة - ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد، فأقوم بالليل، فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما، فأردُّه عليهما..» فقبَّل خالد يده وقال:

- «مولى يكتسب الأجر في عبده وأمته»[1].

وبقي في وزارته حتى تولَّى الأمر أبو جعفر المنصور، فأقرَّه على منصبه، وكلَّفه تنظيم حسابات الدولة كلها. لكن نفوراً وخلافاً نشب بينه وبين منافسه الوزير «أبي أيوب المورياني» وكان غالباً على أمر المنصور، فوشى به عنده، وأوغر صدره عليه، فعزله وقلَّده بعض أعمال (طبرستان، والريّ، ودنبا وند). فكان خالد يقيم في طبرستان ويخلف ابنه «يحيى» في مدينة الريّ، وكان عمره يومئذ قد ناهز الخامسة والعشرين أو ما يزيد[2]. فاتصل بالمهدي أثناء وجوده هناك بحكم الصلة السابقة بين أسرتيهما، وتوثقت عرى الصداقة والمودة أكثر من قبل حتى شملت نساء الأسرتين، ثم ارتبطت بنَسَبِ الرضاعة بين صغارهن يوم مولد هارون، على الشكل الذي بيناه.

ولما عاد المهدي وأسرته من الريّ إلى بغداد، بقي بنو برمك على أعمالهم في خراسان عدة سنوات أخرى، لكن أبا أيوب المورياني وشى مرة ثانية على خالد في حضرة المنصور، واتهمه في ولايته على أعماله هناك بالتلاعب بأموال الدولة. فاستدعاه إلى بغداد ليحاسبه، فجاء خالد ومعه أسرته، وبنتيجة التحقيق، تبيّن للمنصور أن هناك نقصاً يبلغ ثلاثة الآف ألف درهم، فألزمه بإعادتها إلى بيت مال المسلمين خلال ثلاثة أيام، وهدَّده بالقتل إذا تأخر عن الدفع[3].

وكان خالد قد تصرَّف بتلك الأموال، ولم يبق لديه منها سوى القليل، فالتجأ إلى أصحابه يتوسطهم لدى المنصور ليرفع عنه ذلك الطلب، فلم يقبل، فمدَّ خالد يده إلى الموسرين من أصحابه، فأمدّوه ببعضها.. وأرسل يحيى نساءه إلى صديقتهن الخيزران،

(١) الفخري: ٧٢.

(٢) كان مولد يحيى البرمكي في عام ١٢٠ هـ.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٨٣

فقدمت له من حليِّها ومجوهراتها ما تبلغ قيمته ألف ألف ومايتي ألف درهم، ثم توسَّط المهدي له عند أبيه بما بقي عليه، فعفا عنه (١).

وحدث في العام نفسه (١٥٨ هـ ـ ٧٧٥ م) أن نشبت اضطرابات في نواحي الموصل والجزيرة وبلاد الكرد وتفاقمت حتى اهتم بها المنصور واستشار رجاله في من يرسل لها؟؟ فأشاروا عليه بخالد البرمكي؛ لِما عُرِفَ عنه من سعة اطلاع بأمور تلك البلاد، فأبى ذلك، ثم عاد فاستدعاه إليه، ورضي عنه، وأرسله والياً على الموصل وأطرافها، وعقد لابنه يحيى، وكان عمره، يومئذ، ثماني وثلاثين سنة، على ولاية (اذربيجان)، وأرسل معهما ابنه المهدي على رأس جيش كبير للقضاء على تلك الفتن الناشبة.

وسافر الجميع، فأخمدوا جذوة الاضطرابات في أقصر وقت، وعاد المهدي إلى بغداد في الحال، وبقي البرمكيان يتعاونان على أعمالهما، ولكن المنصور توفي في تلك السنة، وتولى المهدي الخلافة، فلم يطل بقاؤهما، وعادا على الأثر (٢). فاستقر يحيى إلى جانب صديقه الخليفة الشاب، وعادت الصلة بين الخيزران ونسائه أشدّ وأمتن مما كانت عليه، ولم يمضِ زمن طويل على ذلك حتى اختاره المهدي وزيراً لهارون وكاتباً لرسائله ومدبراً لشؤونه، كما أسلفنا القول، وكان أثناءها قد بلغ الأربعين وأصبح في سن النضج والكمال.

ويحيى هذا من أنبغ رجال عصره ذكاءً وعلماً وتدبيراً، وأقواهم حجةً وبياناً، وأنداهم يداً في شراء الحمد، وقد عرف بطموحه الذي ليس له حدود وبإرادته وعزيمته في تحقيق رغباته، واللتين لا تثنيهما عقبة ولا يقف دونهما عارض. وكان المنصور من أشد المعجبين بخصاله هذه وحسن معالجته للأمور، فقال فيه كلمته المشهورة: «ولد الناس إبناً، وولد خالد أباً».

من هذه النظرة العاجلة، نرى أن يحيى بن خالد لم يكن المؤدِّب والمثقِّف الوحيد لهارون، فخلال مرحلة طفولته لم يكن اتصاله به إلا قليلاً وفي فترات متقطعة. لكن اتصاله

(١) الجهشياري: ٩٩.

(٢) الطبري: ج٣ ص ٣٨٣.

وعنايته به كانا بعد خلافة المهدي مباشرة، فسهر على توجيهه وتعليمه قبل أن يعيَّن وزيراً له بعامٍ أو عامين.. فلما ضُمَّ إليه بأمر الخليفة عام (١٦١ هـ ـ ٧٧٨ م) كان هارون قد ألِف شخصيته وأحبه، وأُعجب بتصرفاته ولين عريكته، فاحترمه غاية الاحترام، وصار يناديه بكلمة: «أبتي» تودداً واعترافاً له بأبوَّته بالرضاعة.

ولم يكن المهدي يدري، حين وضع ابنه بين يدي هذا البرمكي، بأن تاريخاً حافلاً بالأحداث الجسام بدأ يدون صحائفه.. إذ لم يكد يحيى يمتلك هذا السلاح القوي، المتكون: من ثقة الخليفة، وتأييد الخيزران، وطاعة هارون، حتى بدأ يشعر بطموح جديد يساور نفسه، ويدفعها إلى تأدية دور خطير في تاريخ دولة بني العباس.

القسم الثاني

هارون الرشيد بين ولاية العهد والخلافة

- هارون وولاية العهد
- صراع وجريمة
- بين الخليفة الهادي والرشيد
- اغتيال موسى الهادي

هارون وولاية العهد

أراد المهدي أن يسير العهد، مع ولي عهده موسى، سير أبيه المنصور معه يوم أراد له الخلافة وهو صغير، ذلك بأن يسند إليه أعمالاً خطيرة، تكون سليمة العواقب مضمونة النجاح، تسمو بمكانته إلى مصاف مشاهير الرجال، فتقرِّبه من قلوب الناس، وتكسبه هيبة في أعينهم، وتحبِّبه للخاصة والعامة، ريثما تطمئن له النفوس، وتتقبله لمنصب الحكم والخلافة في غده.. فكان أول واجب أسنده إليه بعد ولاية العهد، إشغال مركز الخلافة نيابة عنه أثناء غيبته في الحجاز، كما قدمنا.

وفي الموسم التالي، عيَّنه أميراً على الحج، وسيَّره مع وزيره أبان بن صدقة في موكب جليل، يضم عدداً من فقهاء بغداد وعلمائها ووجهائها، وزوَّده بنصائح من عنده، وأوامر ينفذها هناك. فوصل مكة باستقبال حافل، واتصل بالوفود القادمة من كل فج عميق، ووزَّع في كبرائهم الهبات والعطايا، وبذل في سكان الحرمين أموالاً وصدقات طائلة، ثم عاد وقد ترك وراءه ذكراً حسناً يتردد على الألسن في جوانب البلاد[1].

وعلى أثر عودته، ولاّه سائر الأقاليم الواقعة في الجانب الشرقي من دولته، بما فيها خراسان وفارس وجرجان وغيرها، ولاية حقيقية يمارس شؤونها الإدارية والمالية بمساعدة حاشيته الخاصة المكونة من وزيره ومستشاريه وكتَّابه، وبإشراف الخليفة وتوجيهه، على أن يقيم هو في بغداد، ويدير دفة أعماله بواسطة عمال يعيِّنهم على تلك الأقطار.. وهي سنَّة جديدة اتخذها المهدي لتدريب ابنه على مزاولة الحكم، والاتصال برجال الإدارة، ومعرفة شؤون البلاد، في سن مبكرة من العمر، فكان من نتائجها أن رمقته

---

(١) الطبري: سنة ١٦١.

الأنظار، وتودد إليه الطامحون والراغبون من أفراد الحاشية والقواد. وبعض أمراء بني العباس أنفسهم .

وبدأ نجم موسى بالتألق، ولم يجد من يزاحمه أمام سلَّم المجد هذا، الذي يريد الصعود إلى نهايته وحده، ولا من يعارض تلك السنّة التي يريد أبوه السير عليها معه، مادام هو الوحيد ولي عهد الدولة، والخليفة المنتظر في المستقبل: لكن سير الأحداث يشير إلى أن أصابع خفية بدأت تتحرك وراء الستار لترفعه عن فصل جديد، له شأن آخر في سياسة البلاط.

فلم يكد موسى يباشر أعمال ولايته تلك حتى أشيع بأن الخليفة المهدي عازم على تعبئة جيش كبير لغزو بلاد الروم، ولم يمض وقت طويل حتى بعث كتبه إلى خراسان والشام وشمال العراق يطلب الجند والقواد، فتوارد عليه عدد كبير منهم، بلغ ما ينوف على التسعين ألف مقاتل، فعسكر بهم خارج بغداد[١]. ونظمهم في جيش واحد، عُنِي بتسليحه وتفقد شؤونه بنفسه مدة شهرين كاملين، وألحق به نخبة من خيرة قواده، وقيل إنه لم يترك أحداً من رجاله ممن عرف بالحزم والتدبير وتصريف الأمور، إلاّ أمره بالانضمام إليه. ووزع على الجميع الهبات والعلاوات وكل ما يحتاجونه من أجل الغذاء والقتال، وخصَّص للحملة مبلغاً ضخماً من المال يُصرف عليها حين الزحف[٢].

وتساءل الناس: من سيكون أمير هذه الحملة العظيمة؟ فقيل: الخليفة نفسه، وقيل أحد أمراء بني العباس المعروفين بقيادة الجيوش، أمثال عبد الملك بن صالح وموسى بن عيسى، و كانا قد التحقا بهذا العسكر، وزعم بعضهم أنها حملة عُنِي بها كل هذه العناية ليترأسها ولي العهد الذي لم يسبق له أن غزا حتى ذلك اليوم، لكن بياناً صدر من بلاط الخليفة، على ألسنة المقربين، يفيد بأن صاحب الراية سيكون هارون بن المهدي، وكان يومئذ، في عامه السادس عشر!! فلم يخفِ الناس استغرابهم من هذا الاختيار المفاجيء، إذ لم يحدث قبل هذا أن غزا بلاد الروم أمير في مثل هذه السن[٣].

---

(١) كان ذلك في مكان يدعى «البردان».

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٣) كان عبد الملك بن صالح وموسى بن عيسى يتغامزان إذا رأيا هارون يركب أمام ذلك الجيش استخفافاً بصغر سنه «الطبري ج ٣ ص ٤٩٥».

وقبل الزحف بأيام قليلة، جمع المهدي عدداً من أبناء الدعوة ليختار من بينهم رجلاً يقوم بإدارة شؤون هذا العسكر ويشرف على لوازمه. وقد حدثنا يحيى بن خالد البرمكي عن ذلك الاجتماع، قال: دعانا المهدي إلى حضرته فدخلنا جميعاً، وكنت أسير في مؤخرة القوم، فلما استقر بنا المجلس، استدعاني إليه وقال:

- «إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي لأختار منهم رجلاً أعتمد عليه، فأضمه إلى ابني هارون في غزوته هذه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته، فلم أجد غيرك، ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته، وقد ولَّيتك كتابته وأمر عسكره. وأمرت بمائة ألف درهم معونة لك على سفرك، فكن عند حسن ظني، وسر على بركة الله»[١].

ولما اقترب موعد السير، أعلن المهدي أنه سيصحب العسكر بنفسه إلى حدود البلاد، فاستخلف ابنه موسى في بغداد، وجعل معه وزيره أبان بن صدقة، وعلى الخاتم عبد الله ابن علاثة، وعلى حرسه عليَّ بن عيسى بن ماهان، وعلى شرطته عبد الله بن خازم، ثم سار هو بالجيش نحو الشمال، ماراً بمدينة الموصل والجزيرة، وأقام في حلب عدة أيام، ثم صعد نحو تخوم الروم، وهناك جمع زعماء الحملة، وأوصاهم بهارون وعدم زجه في المخاطر، لصغر سنه، وأوصى هارون باستشارة ذوي الرأي من صحبه، كخالد بن برمك والربيع بن يونس وغيرهما، وعاد، بعد توديعهم، إلى عاصمته[٢].

وتوغل هارون بجموعه في بلاد الروم عام (١٦٣ هـ - ٧٧٩ م) حتى نزل رستاقاً فيها، عليه قلعة رئيسية حصينة، تدعى (سمالو)، فأغلقت أبوابها في وجهه، فحاصرها ونصب أمامها (المجانيق) وآلات الحصار، وبقي حول أسوارها ثمانية وثلاثين نهاراً، جرت خلالها مناوشات وملاحم قتل فيها عدد من الطرفين، وأصاب سكان القلعة عطش شديد فأعلنوا رغبتهم في التسليم ولكن شَرْطَ أن لا يُقتلوا ولا يُرحَّلوا ولا يُفرَّق بينهم، فأعطاهم هارون الأمان، ودخل القلعة وبقي فيها عدة أيام، عامل أهلها أطيب المعاملة، وأعطى الخيار لمن أراد منهم أن يأتي إلى بغداد ويقيم فيها آمناً، فرغب بعضهم في ذلك، وعاد مع الجيش الذي اكتفى بما حصل عليه من النصر، وإن كان ضئيلاً.

لكن صدى هذه الغزوة في بغداد كان كبيراً، وربما كان هنالك من يعمل للدعاية لها بين

---

(١) الطبري: ٣ ص ٤٩٤.

(٢) إبن الأثير: ج ٦ ص ٤٠.

الناس، فخرج أهلها مع الخليفة و حاشيته لاستقبال القادمين استقبالاً يليق بالمجاهدين الفاتحين. ودخل هارون وحوله عدد من أبناء الروم، يحملون الجزية والهدايا أمام ذلك الجيش العظيم، بين التهليل والتكبير، والهتاف لابن أمير المؤمنين الموفق على الأعداء. ونام الناس ليلتهم مستبشرين فرحين يتحدثون بأخبار الغزوة والنصر، باستثناء آل برمك الذين أعلنوا حدادهم على فَقْدِ زعيمهم «خالد» الذي مرض أثناء الحصار، فمات ودفن بجانب أسوار القلعة[1]. فكان ذلك مدعاة لعطف الخليفة، والناس أجمعين، على هذه الأسرة التي ضحَّت في سبيل دولة بني العباس، غابراً وحاضراً.

لقد حدثنا المؤرخون عن هذه الغزوة بتفصيل وإسهاب، ولكنهم لم يعلِّقوا على بواعثها، ومصادر الوحي فيها، والملابسات التي التفّت حولها، وأسباب اختيار هارون لإمارتها دون غيره.. فهل كانت مجرد فكرة خطرت للمهدي وحده فعمل على تحقيقها؟؟ أم أن هنالك مخرجاً يكمن وراء (الكواليس) كما يقولون، لإخراج مسرحية لها فصولها وأدوارها؟؟

سبق للمنصور أن أرسل ابنه المهدي، وكان يومئذ في سن هارون الآن، على رأس جيش كبير إلى خراسان، فأخمد ثورة عبد الجبار الأزدي، كما رأينا، وتوغل جيشه في بلاد الأعداء وراء الحدود. ولكن هدف المنصور، حينذاك، كان إعلاء شأن ابنه من أجل إعطائه البيعة بولاية العهد، وانتزاعها من عيسى بن موسى الهاشمي. وهذا لا ينطبق على حالة المهدي اليوم بعد أن حصل على البيعة بولاية العهد لابنه الهادي، وضَمِنَ بقاء الخلافة في بيته، فلماذا وقع الاختيار إذن على هارون لإمارة الحملة، وكان أخوه الهادي أَولى بها؟؟ ولماذا لم يقع اختياره على أخيه الثاني «علي بن ريطة» وهو ابن هاشمية، وأكبر من هارون سناً؟؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤالان: ما هو السر في اشتراك آل برمك، بأجمعهم، في هذه الغزوة، شيوخاً وشباباً، أمثال «خالد وأخويه الحسن وسليمان، وابنيه يحيى ومحمد» وغيرهم، بحيث لم يبق منهم في البيوت إلا الصغار؟؟[2] ثم لماذا اكتفى ذلك الجيش

(١) الجهشياري: ١٥١.

(٢) الطبري: ج٣ ص ٤٩٦.

العظيم بتلك الغنيمة الضئيلة، وعاد بعد فَتْحِ قلعة واحدة، لم يدم حصارها أكثر من شهر وبضعة أيام ؟؟ فهل كان الهدف الرئيسي من تلك التدابير كلها مجرد إعلاء شأن هارون ؟؟ أم أن هنالك خطة مرسومة كانت هذه الحملة أولى خطواتها ؟؟

كانت شخصية الخيزران مسيطرة على الشؤون الداخلية في قصر الخليفة، والغالبة على كل شيء فيه. حتى إرادة المهدي نفسه. وليس هذا غريباً، فقد حدثنا التاريخ عن كثير من عظماء الرجال الذين دانت لهم الدول والشعوب، ولكنهم خضعوا للنساء الجميلات، والمهدي أحد هؤلاء.. ولم تضعف الخيزران أمام شيء كضعفها أمام عاطفتها وحبها لابنها هارون دون أخيه موسى. ويبدو أن هذا الحب له والعطف عليه، ولَّدا في صدرها حب نساء يحيى بن خالد البرمكي، أمهات هارون في الرضاعة، وقد استطعن بذكائهن أن يتقربن منها كل القرب، ويعرفن مواطن الضعف في إرادتها، وجوانب الثورة في أعصابها.. لذلك كان يحيى بن خالد، بفضل هذه العلاقة، أقرب الرجال بعد زوجها إليها وأعرفهم في كيفية استخدام مركزها لتحقيق طموحه وأحلامه.

فلما اختار المهدي «أبان بن صدقة» وزيراً للهادي، واختار يحيى إلى جانب هارون، تباعدت الشقة بين هذين الوزيرين، وهما ما هما عليه من نفور وكراهية قديمة، منذ كان «أبان» كاتباً لوزير المنصور «أبي أيوب المورياني» الخصم اللدود لآل برمك، والذي وشى على خالد بن برمك مرتين، فأخرجه في الأولى من وزارته وأبعده إلى طبرستان، وسبَّب له في الثانية نكبته وإلزامه بثلاثة آلاف ألف درهم يؤديها إلى بيت المال، كما بينا سابقاً.. فلا بد إذن من أن يحدث بين هذين الخصمين منافسة، تتبعها أمور كثيرة تعكر صفو العلاقة بين الأخوين الصغيرين موسى وهارون.. ولم يكن أبان بن صدقة أقل دهاء ومكراً من يحيى بن خالد، لكنه أضعف منه سلاحاً بحكم تأثير نسائه على سيدة القصر «الخيزران» في كل ما يريد يحيى أن ينفذه عند المهدي أمير المؤمنين، فهو، من جهة، لم يكن يملك هذا السلاح النافذ، أما من جهة أخرى، فلا نعتقد أن يحيى بن خالد، الطموح، المتوقد ذكاء وفطنة، كان مكتفياً راضياً بخدمة أحد أولاد الخليفة المغمورين، وهو الذي يملك ثقة سيد الدولة، ويستطيع التأثير على ربة القصر، في حين يكون خصمه أبان بن صدقة وزيراً لولي العهد والخليفة المنتظر في غده، والوالي على الجانب الشرقي للدولة كلها.

لا يستغرب إذن أن يكون له اليد الطولى في تعيين هارون أميراً على تلك الحملة الموفقة، مستعيناً على تحقيق ذلك بلباقة نسائه ونفوذ الخيزران.. فلم يكد هارون يعود من غزوته تلك حتى صدر أمر الخليفة بتعيينه والياً على الجانب الغربي من الدولة كلها، بما فيها شمال أفريقيا ومصر والشام وأرمينية وأذربيجان، على أن يكون يحيى بن خالد وزيراً له يدير شؤون ولايته ويكتب رسائله(١).. كان هذا أول الغيث، ثم جاءت الحوادث تترى.

ودارت الأيام دورة قصيرة، لتقف أمام حادث آخر، له أثره الكبير في مستقبل هارون، من الناحيتين الشخصية والعامة، ذلك أنه بلغ من العمر سناً تطورت فيها صلته بابنة عمه «زبيدة بنت جعفر» من حب صبياني بريء إلى تعشُّق وافتتان، ثم إلى رغبة في الزواج، فكاشف أبويه في ذلك، فلم يجدا ما يحول دون تحقيق هذه الرغبة في إسعاد الحبيبين. فأعلنت خطوبتهما بين الناس، وتأهب القصر لإعداد حفلات الزواج، الذي تعيَّن موعده في شهر صفر من عام (١٦٥ هـ ـ ٧٨١ م).

ولزبيدة، حتى ذلك العهد، تاريخ قصير، اجتمع فيه الألم والرقة والحب. فقد ولدت عام (١٤٩ هـ ـ ٧٦٦ م)، أي بعد مولد هارون ببضعة أشهر، في قرية تدعى «حديثة دجلة»(٢)، وتسمى أيضاً حديثة الموصل لقربها من هذه المدينة لجهة الجنوب، على الضفة اليمنى من النهر، حيث كانت أسرتها تتمتع بنزهتها في موسم الربيع الجميل، في (قصر حرب) الذي شيَّده المنصور وأهداه لابنه جعفر الكبير.

سماها أبوها «أمة العزيز» ثم توفي في عنفوان شبابه، وكانت هي في الثالثة من عمرها، فكفلها جدها المنصور مع أخوتها، وصار يدلِّلها ويعزُّها، ويحرص على تربيتها وإسعادها، ليُتمِها وحبه الشديد لأبيها الفقيد، وكانت بارعة الجمال: رقيقة القسمات، ساحرة العينين، فاحمة الشعر، هيفاء القامة(٣)، لقَّبها جدها «زبيدة» لبضاضة جسمها، ونعومة بشرتها البيضاء، فغلب اللقب عليها وغطى على اسمها، فعرفت به.

(١) الطبري: انظر سنة ١٦٣

(٢) إبن حوقل: ١٤٧، ١٥٥ ـ كانت حديثة الموصل من أجمل القرى في العراق، ذات بساتين وأشجار، كثيرة الصيود والطيور.

(٣) تزيين الأسواق: ١١٧.

توفي المنصور، وهي في عامها العاشر، فاحتضنها عمُّها المهدي، وأفاض عليها حناناً وعطفاً، وأوكل بها من النساء المتعلمات من يسهرن على تهذيبها وتثقيفها، فنشأت كأحسن ما ينشأ عليه بنات الملوك، خلقاً وعلماً: فقرأت القرآن وحفظت الكثير منه، ودرست الأدب، وروت الشعر ونظمته، وتلقنت الأخبار والسِيَر والتاريخ، فازداد اعتزازها بقوميتها العربية وأرومتها الهاشمية. وتحلَّت بالتقوى وحب الخير وصنع المعروف، وخدمة المشاريع الانسانية، والعطف على البائسين، وهي مع ذلك كريمة اليد إلى أبعد حدود الكرم والجود.. كل هذه الصفات قرَّبتها من نفوس معارفها، فأحبها بنو العباس على الاطلاق، فضلاً عن أفراد أسرة المنصور.

وتشير الأدلة إلى أن الخيزران كانت ترقُّ على هذه الصغيرة الفاتنة «زبيدة» منذ طفولتها، فلما كفِلها المهدي أحبتها حب الأم لابنتها. وكانت تعلم بميل ابنها هارون إليها، فتؤيده وتشجعه كأنها تتمنى أن تراها يوماً ما كنَّة لها في بيتها، لتربح بها تأييد بني هاشم، إن لم يكن كلهم فجُلّهم، وقد حققت الأيام أمنيتها، فأُعلنت الخطبة، وحان موعد الزفاف، فأصرت الخيزران على أن يتم ذلك في مهرجانات فخمة تقوم لها بغداد وتقعد، وخصصت لهذا مبلغاً ضخماً من ثروتها الخاصة، غير ما سينفق من خزائن المهدي.

يقول «الشابشتي» في كتابه الديارات: «زوَّج المهدي ابنه هارون بابنة أخيه زبيدة، فاستعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها من لآلئ وصناديق الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الذهب والفضة والطيب والكسوة..

وحشر الناس من الآفاق، وفرّق فيهم من الأموال أمراً عظيماً. فكانت الدنانير تجعل في جامات فضة، والدراهم في جامات ذهب، ونوافح المسك والعنبر والغالية في بواطن زجاج، ويفرق ذلك على الناس، ويخلع عليهم خِلَعَ الوشي المنسوجة.. وأحضر نساء بني هاشم، فكان يدفع إلى كل واحدة منهنّ كيساً فيه دنانير وكيساً فيه دراهم، وصينية كبيرة من فضة فيها طيب، ويخلع عليها وشياً مثقلاً. لم ير في الإسلام مثلها. وبلغت النفقة في هذا العرس من بيت مال الخاصة، باستثناء ما أنفقه الرشيد من ماله: خمسين ألف ألف درهم»[1].

---

(١) كتاب الديارات للشابشتي: ١٠١.

وفي ليلة الزفاف، أضيئت الأنوار في قصر «محمد بن سليمان العباسي»[1] الذي خصص لسكنى العروسين، بعد تجميله وتأثيثه على أيدي أمهر الصناع والفنانين[2].. وقيل إن الخيزران في تلك الليلة تقدمت إلى زبيدة بثوب مرصّع باللآلئ والجواهر، يحمله عدد من الجواري الحسان، فلبسته ولكنها لم تستطع السير فيه لثقل ما عُلِّق به من الأحجار الكريمة، فاستبدلت به غيره[3].

وكان البرامكة من أشد الناس اهتماماً بهذا القران السعيد، وأكثرهم بذلاً وسخاءً في سبيله، وتدخلاً في شؤونه، لقرب هارون منهم أولاً، ولأن زواجه بزبيدة زادهم قوة أدبية ونفوذاً إلى جانب نفوذ الخيزران عند زوجها في تحقيق رغباتهم السياسية إذا اقتضى الأمر.

ومضت الأقدار تنسج خيوطاً أخرى لخدمة هارون.. ففي الوقت الذي كانت بغداد غارقة في زينتها أمام هذا العرس ومهرجاناته، كان على حدود بلاد الروم وثغورها أخذ قواد الدولة المعروفين «عبد الكبير بن عبد الحميد» من ولد زيد، أخي عمر بن الخطاب. أراد في عام (١٦٤ هـ ـ ٧٨٠ م) أن يغزو أرض العدو، فسار إليها من درب (الحدث). وكان جيشه صغيراً لا يجاوز الثلاثة آلاف مقاتل، فقابله البطريق الرومي بعسكر في نحو تسعين ألف محارب، بينهم عدد من فرسان الأرمن ورجال دينهم.. ودارت بين الطرفين رحى حرب عنيفة، صمد فيها المسلمون بادئ الأمر، ولكن عدم تكافؤ القوى أمال كفة القتال عليهم، فقتل منهم خلق كثير، ولم يصمد عبد الكبير أمام الموت، فهرب تاركاً وراءه فلول جيشه طعمة للسيوف والحراب، ولم يفلت منهم إلا نفر قليل تشرّد بعضهم في البلاد، وجاء بعضهم الآخر إلى عاصمة الدولة لينبىء الخليفة بالكارثة[4].

استاء الرأي العام من تلك الهزيمة استياء شديداً، وأرسل المهدي إلى عبد الكبير من يأتي به مقيَّداً، فحاكمه وعزم على قتله، لكن بعض رجال الحاشية ووجهاء القوم تشفعوا

(١) محمد بن سليمان العباسي، هو زوج العباسة بنت المهدي، كان والياً، يومئذٍ، على البصرة.

(٢) الطبري: ج٣ ص ٧٥٧ ـ وفي رواية أخرى أن الزواج تم في قصر الخلد.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢ ص ١٣٤.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٥٠١.

في أمره، وذكّروا الخليفة بقرابة الرجل من «عمر بن الخطاب» وبما لأسرته من مكانة جليلة لدى المسلمين، فاكتفى بزجّه في سجن المطبق حتى الموت[1]. ثم أمر بتجهيز جيش كبير يغسل عار الهزيمة، ويعيد الثقة والطمأنينة إلى نفوس المؤمنين ولا سيّما القاطنين منهم في الثغور على تخوم بلاد الروم.

ولم تمضِ فترة قصيرة حتى اجتمع للجهاد جيش لجب، قوامه مائة ألف مقاتل من رجال الحروب الأشداء، فجهّزه الخليفة بالسلاح والعدد، ونظم كتائبه أحسن تنظيم، وعيّن على كل فرقة قائداً له راية خاصة، وجعل القيادة العليا بيد «يزيد بن مزيد الشيباني» أحد فتيان المعارك الممتازين، وأنبغ قائد في جيوش بني العباس، يومئذ، على الإطلاق.

وانتظر الرأي العام في بغداد أن يعيّن المهدي، بحسب العرف المتّبع، أميراً من آل بيته على هذه الحملة الجبارة التي أُلقي على عاتقها أثقل واجب عسكري بعد تلك الهزيمة الشائنة. ولكن الأمر في مثل هذا الموقف لم يكن بالأمر السهل، فيتخذ وسيلة للدعاية لأحد أولاد أمير المؤمنين، إنها معارك طاحنة تهيأ لها الروم بما عندهم من قوى وسلاح، وإن لم يكن هناك مفر من إمارة أحد أبناء الخليفة فليكن الإبن الأكبر، موسى الهادي، فهو وليّ عهد الدولة، وأكبر سناً من هارون الذي لايزال يرفل في أثواب عرسه.

نحن لا نشك في أن هارون كان شديد الرغبة في الجهاد وقتال الأعداء والإمارة على الجيوش في حملاتها، ولكننا لا نذهب مع المؤرخين في جعله من أبطال الغزوات الدامية وهو في التاسعة عشرة من عمره، ولا يعقل أن يعتمد أبوه عليه، في مثل هذه الشدائد، دون غيره، وبين يديه من الرجال من خاض ميادين القتال حتى نبغ فيها وألفها وألفته، من أمراء بني العباس وغيرهم، وليست هذه بالسنّة التي لا مناص منها، فقد سبق لجيوش المسلمين أن غزت الروم وقاتلت فانتصرت دون أن يقودها أمير من آل بيت الخلافة، لكن السياسة الخفية التي توجّه إرادة البلاط من وراء ستار، أرادت أن يكون هارون لها مرة أخرى.

ولم يستغرب الناس كثيراً في هذه المرة من اختياره أميراً على حملة يزيد بن مزيد الشيباني، فقد سبق له، قبل اليوم، أن غزا وانتصر، إن لم يكن بساعده وكفاءته فبسعده

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٠٢.

وحسن طالعه. ولم يكن اهتمام المهدي بهذه الغزوة أقل من تلك، من حيث التسلح والترفيه عن الجند وحشد الرجال المعروفين بحسن تصريف الأمور. وقيل إنه لشدة عنايته بها، دفع إلى هارون واحداً وعشرين ألف ألف درهم، ومائتي ألف دينار من الذهب لينفقها على العسكر أثناء الزحف، ولم يحصل أن عبّأ خليفة، من قبل، جيشاً بمثل عدد هذا الجيش وقوته لحرب الروم، ولكنه لم يرد أن يقف هذا الجيش أمام أول غنيمة يربحها، كما فعل سابقه يوم قلعة (سمالو)، فأوصى قائد الحملة ان يتوغل في أراضي الأعداء إلى أبعد مدى يستطيعه[1].

وفي شهر جمادى الآخرة من عام (١٦٥ هـ ـ ٧٨١ م) ترك هارون حدود بلاد أبيه وراءه، وراح يكتسح المدن والقرى والقلاع، مدمراً كل ما يصادفه من مقاومة، حتى التقى جيش العدو الرئيسي، وعليه كبير قواد دولته «نقيطا» و يدعى «قومس القوامسه» فالتحم الطرفان بقتال شديد، دام عدة أيام دون أن تكون الغلبة لأحد منهما، فأراد يزيد بن مزيد أن يعطي لتلك المجازر الدامية نهايتها، فالتقى في حومة الميدان بخصمه «نقيطا» والتحم معه في صراع فردي طال عدة ساعات حتى سقطا عن فرسيهما، واشتبكا بالسيوف زمناً، استطاع يزيد في نهايته أن يقتل صاحبه، فانهزم الروم وغلب المسلمون على عسكرهم.. واستمر يزيد يطارد فلولهم حتى أبواب (نقمودية)، وكان من بينهم وزير دفاعهم «الدمستق» صاحب المسالح، فخاف هذا على نفسه من سيوف يزيد، ورفع راية التسليم، مفتدياً شخصه ومن معه بمال كثير.

واتجه هارون نحو أبواب القسطنطينية، وأقسم أن يفتحها أو يموت، وكان فيها الوصية على عرش الروم «ايريني» زوجة «اليون» وأم الملك الطفل «قسطنطين السادس»، فأجرت معه المفاوضة من أجل الصلح، وإعطاء الفدية، ودفع الجزية في كل عام، فصالحها هارون على ذلك، وشرط عليها إعاشة جيشه في حلّه وترحاله، وأن تقيم الأدلاء والأسواق في طريق عودته حتى الحدود العربية، لأن هارون كان قد دخل مدخلاً صعباً، وطرق بلاداً لم يعرفها أحد من أفراد جنده.. ثم تبادل الطرفان الأسرى، وجعلا فترة الهدنة ثلاثة أعوام لا يغزو، خلالها، أحدهما الآخر، وعاد هارون بعد أخذه الجزية، محمّلاً بعدد كبير من

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٠٢.

الغنائم، ومصطحباً جماعة من الروم يحملون الفداء والهدايا إلى الخليفة في بغداد [١]، فوصلها في شهر المحرّم من عام (١٦٦ هـ ـ ٧٨٢ م).

كانت أخبار هذه الانتصارات المتلاحقة تتوالى على العاصمة باستمرار، فتنتشر بين الناس ويتلقفها الرأي العام بتفاصيلها، وبزيادات تنسجها أخيلة العامة.. والحقُّ انها كانت حملة موفقة، وهي المرة الرابعة التي وصلت فيها قوة عربية إلى أسوار القسطنطينية [٢]. وربما كان وقعها في النفوس أكبر من سابقاتها، لأنها غسلت عاراً لحق بالدولة إثر هزيمة سابقة شنعاء، أحدثت أسفاً في صدور الناس.

وجاء في الأنباء أن هارون لم يكن في هذه الغزوة كما كان في سابقتها، مجرد رمز يمثل أباه أمام الجند، بل ساهم في القتال وتعرض للمخاطر بقدر ما استطاع، واغترب عن أهله وعرسه ثمانية أشهر، في معارك دامية صعبة. فحقٌ للناس بعد ذلك ان يُكبِّروه ويعظِّموه، ويتغنوا باسمه واسم قائد حملته يزيد بن مزيد، فتى بني شيبان، وقائد جموعه إلى النصر المبين.. ولم يحرم أيضاً يحيى بن خالد من سهم وافر في ذلك التعظيم والتبجيل، وهو صاحب هارون ومربيه.

واقترب العسكر من أبواب بغداد، فخرج سكانها جميعاً، ينثرون الورود والرياحين على طريق المجاهدين المنتصرين، هاتفين لأميرهم، الأبلج الأغر، الذي أكسب الدولة هيبة في مسمع الدهر، فأذلَّ الأعداء وألبس أباه الخليفة ثوباً جديداً من الرفعة والجلال.. ولم يستطع الناس أن يحافظوا على النظام في ذلك المهرجان المتدفق بعواطفهم، فاختلطوا بالجند والفرسان بين التهليل والتكبير والقِبَل ودموع الفرح.. ولم يكن هناك، ساعتئذ، من هو أكثر غبطة من الخيزران، وهي تطلُّ من شرفات قصرها على تلك الجماهير المتدفقة في الشوارع، اللهم إلا زبيدة بنت جعفر التي كانت تنتظر بفارغ الصبر فتاها الغزّاء المنتصر، لتضمَّه إلى صدرها.

وفي صباح اليوم التالي، جلس المهدي في قصر الخلد، مجلساً عاماً، استقبل فيه قادة

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٠٢.

(٢) وصل العرب ثلاث مرات إلى القسطنطينية في عهد الأمويين.

ذلك الجيش ورؤساء إدارته، وسمح للشعراء بالإنشاد، فقال مروان بن أبي حفصة، يخاطب هارون الرشيد:

أطفتَ بقسطنطينة الرومِ مُسنداً إليها القنى حتى اكتسَى الذلَّ سورُها

ومـا رمْتَها حتى أتَتْكَ ملوكُها بجزيَتِها والحربُ تغلي قدورُها [1]

ثم أمر بتوزيع الهبات والعطايا على كل من اشترك في تلك الحملة، فلم يبق أحد منهم إلا وصله ما يستحق. وأوصى بأن تباع الأسلاب والغنائم في أسواق العاصمة، فغمرتها بالخيل والسلاح والأسلاب والجواري المسبيات، وسببت رخصاً عظيماً في الأسعار: فبيع البرذون بدرهمين، والدرع بدانق، وكل عشرين سيف بدرهم واحد [2].

لا شك في أن هذا النصر العظيم، مع ما سبق لهارون من مآثر، قد بوآه مكاناً علياً في نظر خاصة الخليفة وحاشيته، وكاد يخفت ضوء موسى أمام ذلك المجد الذي بناه أخوه، لولا أنه ولي العهد بعد أبيه. وهذه الخيزران التي أحبت هارون منذ طفولته أكثر من موسى، صارت اليوم تفخر به وتعتز باسمه، ويسرُّها كما يسرُّ زبيدة أن يلتفت الخليفة إلى مكافأته على تلك الجهود وذلك التوفيق الذي لم يكن يحلم به صاحب التاج نفسه. إذن، لم يعد يبقى أمام يحيى بن خالد ما يحول بينه وبين الخطوة الثانية في دفع هارون إلى ولاية العهد بعد أخيه؟؟

وفي يوم جمعة من شهر رجب عام (١٦٦ هـ - ٧٨٢ م) اجتمع الخليفة وأمراء بني هاشم وقواد الدولة ورجالها في جامع المنصور، فجددوا البيعة بالخلافة للمهدي وبولاية العهد الأولى لابنه موسى الهادي، ثم من بعده، لهارون. ولقَّبه أبوه في تلك الساعة «هارون الرشيد» [3].

---

(١) الطبري: ج٣ ص٥٠٦ - في رواية أخرى: أن قصيدة مروان هذه ألقيت في غير ذلك المجلس.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٠٦.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٥٠٧

صراع وجريمة

على الرغم من أن المكانة التي تبوأها هارون في قلوب الناس، وتألُّق نجمه في سماء دولة بني العباس، فإن عقلاء القوم لم يرتاحوا لإعطائه ولاية العهد الثانية، وجعلِهِ غداً عرضة للتخاصم والتنافرمع أخيه، وغير ذلك مما يحتمل أن يجرَّ البلاد إلى الانشقاق وتمزيق الوحدة. فقد أثبت التاريخ البعيد والقريب بأنه: قلما أُعطِيت ولاية العهد لاثنين وأخذ أحدهما زمام الملك إلا عمل على انتزاعها من صاحبه، لإعطائها إلى الأقرب منه. وما أمر عيسى بن موسى العباسي مع المنصور ومع المهدي نفسه ببعيد، فكيف رضي هذا أن يخلق بين ولديه غداً ما لمس خطأه بالأمس؟؟

إن النصوص التاريخية تمر صامتة على تلك المناورات الخفيَّة التي كانت تتمخض وراء الستار، وتعمل على الوصول إلى هذه النتيجة.. ثم إن الزمن بين انتصار هارون على أبواب القسطنطينية وعودته إلى بغداد وإعطائه ولاية العهد كان زمناً طويلاً، استغرق زهاء سبعة أشهر، وهذا ما يدل على أن المهدي تريَّث وفكَّر طويلاً قبل الموافقة على ذلك الاقتراح الذي دبرته المناورات الخفيَّة، وقدمته على لسان الخيزران، إلى غيرها، لأنها هي الوحيدة التي كانت تجرؤ على مفاتحة أمير المؤمنين بمثل هذا الأمر الخطير، وتلحُّ عليه من أجل تحقيقه.

نعتقد بأن المهدي عارض الفكرة في بادئ الأمر، وخاف عاقبتها السيئة، ثم أذعن أمام إلحاح الخيزران ورغبتها الجامحة.. وإذا كان هذا الرجل قد سبق له أن ارتكب، بالأمس، أخطاء كثيرة ليلبِّي رغبات زوجته تلك، فإنه لم يرتكب خطأ أخطر من موافقته على إعطاء ولاية العهد لهارون الرشيد. فهو بعمله هذا، وإن كان يجهل ما تخفي الأقدار، قد حكم على زجِّ أسرته في مأساة دامية، وحفر قبره بيده، وكتب تاريخ المستقبل القريب بسطور حمراء.

وما يدل أيضاً على أن المهدي أقدم مكرهاً على عمله هذا، ما جاء في الأخبار: أنه سهر ليلة البيعة تلك قلقاً يفكر في الأمر ويقلِّبه على جوانبه، ويستعرض الاحتمالات السيئة التي قد تحدث منه غداً بين هذين الأخوين المتقاربين في السن. ثم أخذه النعاس، فرأى في منامه أنه دفع إلى موسى الهادي قضيباً، ومثله إلى هارون الرشيد، فأورق قضيب موسى من أعلاه، وأورق قضيب هارون كله، فتنبّه من سباته، ودعا المفسرين، فأخبروه بأن موسى ستقلّ أيامه في الخلافة، وسيبقى هارون الرشيد فيها طويلاً، وستكون أيامه أحسن الأيام[1].

وذاع خبر الرؤيا بين الناس، فتسرّب إلى سمع موسى الهادي، فامتعض من ذلك، وأسرَّها في نفسه. فقد كان موسى يشعر بأن أخاه هارون قد استأثر بحنان أمه وعطفها، وأنها هي التي تعمل عند أبيه على تقديمه لكل مكرمة وخدمة عامة ترفع من شأنه بين الناس، ويعلم بأن يحيى بن خالد وراءها في كل عمل من تلك الأعمال، مستغلاً صداقتها وحبها لنسائه، ولا يجهل طموح هذا البرمكي نحو السيطرة والاستئثار، وإذا كان هو يجهل ذلك فلا يعدم من بين خاصته وحاشيته من ينبِّهه إلى حقيقة الأمر في كل مناسبة تمرُّ به.

من أجل هذا، كان موسى يمقت يحيى، ويصرِّح بمقته له، وينتقد أمه في تلبيتها لرغباته، ويتمرد على إرادتها في بعض الأحيان، ولا يطيع لها أمراً، وفي الوقت نفسه، يشعر بأن أباه كان منصفاً في توزيع حبه وعطفه بين ولديه لولا ضعفه أمام إرادة أمه، ولكنه لم يستطع مفاتحته أو نقد أعماله احتراماً له وخوفاً من غضبه، وقد بدأ شعوره نحو أخيه هارون يتبدَّل شيئاً فشيئاً حتى أصبح ينظر إليه نظرة المنافس الخطر على مركزه ومستقبله، ولكنه لم يكن يصرح بشيء من هذا.

فلما بويع هارون بولاية العهد، وبدأت تتكشّف حقائق المنافسة بين الأخوين، شعر موسى بأن جبهة أخيه تزداد قوة وأعواناً على مدى الأيام، وتلتف حول الخليفة نفسه دون أن يشعر بها، ولم يجد بداً من أن يصارح أعوانه بما يختلج في صدره من كرهٍ يمتزج

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٢٨٥.

بخوفٍ من المستقبل، فالتفّ حوله عدد من أمراء بني العباس أمثال: عبد الملك بن صالح، وموسى بن عيسى، والعباس بن محمد، ووقف إلى جانبه وزيره أبان بن صدقة، والفضل ابن الربيع، وعلي بن عيسى بن ماهان فضلاً عن عدد من القواد، أمثال: يزيد بن مزيد الشيباني، ومحمد بن فروخ الأزدي، وعبد الله بن علاثة، وعبد الله بن خازم، وغيرهم ممن جمعتهم عوامل مختلفة، منها الكره لشخص يحيى، ومنها النزعة القومية ضد شعوبية البرامكة.... إلى آخر ذلك مما سيأتي تفصيله لاحقاً.

وانقسم بلاط المهدي إلى معسكرين متنافرين، تدور بينهما رحى صراع خفي صامت ليس له دويٌّ يسمع. هذا يؤيد موسى الهادي ويحرص على مكانته في طليعة اولاد الخليفة، وذاك يعمل على تقديم هارون الرشيد، ويريد له التفوق والغلبة على غيره. لكن كفّتي الميزان لم تكونا متعادلتين لسبب بسيط وهو أن نفوذ الخيزران وزبيدة كان يدعم جانب يحيى ويشدّ أزره للعمل في سبيل هارون وتثبيت أقدامه.. وإذا قلنا زبيدة والخيزران، وجب علينا أن نفرّق بين موقف كل منهما: فالخيزران، كأمٍّ لولي العهد، تشفق على الإثنين، ولكنها كانت تشعر بنفرة خفية تجاه موسى الذي بدأ يتمرد على إرادتها، وهي كأمٍ، كذلك، لا تشعر بأنها خاسرة إذا فضلت الصغير على الكبير، فاندفعت على سجيّتها، في تفضيل هارون المطيع لها، راكضة وراء كل فكرة تعمل على تقدمه، ولو أدى ذلك إلى تأخير موسى وسدٍّ طرق مستقبله.. أما زبيدة فما زالت صغيرة ترفل في ثياب عرسها، وهي، باعتقادنا، لم تكن تريد إلحاق ضرر بموسى الهادي، ولم تكن تدرك أهداف ذلك الصراع الخفي الجبار، وكل ما كانت تريده أن يصوّت أمراء البيت الهاشمي، بغالبيتهم، إلى جانبها ويؤيدوا حماتها الخيزران في تقديم هارون، لأنه زوجها، وكان يحيى بن خالد هو الذي يدير دفة تلك القوى بأسلوبه اللبق الحكيم وراء قناع كثيف.

ولم تمضِ بضعة أشهر على تلك الحال، حتى وردت الأنباء من (جرجان) تخبر الخليفة بأن ثورة جامحة قد اندلعت في جبالها بزعامة أقوى رئيسين في تلك الأقاليم، هما «وندا هرمز» و «شروين». ثم تعاقبت الأخبار بأن الثورة قد تفاقم أمرها. وشملت جزءاً كبيراً من طبرستان، وما زالت آخذة في الاتساع. فاهتم المهدي للأمر، وجهّز جيشاً كبيراً لم يسبق له أن جهّز أعظم منه، وجعل على قيادته العسكرية يزيد بن مزيد الشيباني صاحب معركة القسطنطينية، وأمر عليه ولي العهد موسى الهادي بصفته والياً على

الجانب الشرقي للدولة، وألحق معه وزيره أبان بن صدقة، وجعل على حجابته «نفيعاً» مولى المنصور، وعلى حرسه عليّ بن عيسى بن ماهان، وعلى شرطته عبد الله بن خازم، وعلى إدارته محمد بن جميل [١].

وزحف الجميع من بغداد في أوائل العام (١٦٧ هـ ـ ٧٨٣ م) نحو جرجان. فأقام موسى في عاصمتها بحسب رغبة أبيه، وزحف يزيد بن مزيد بعسكره إلى طبرستان، مقر الثورة.. ونشبت المعارك الدامية بين الطرفين، ولم يكن الأمر سهلاً، لوعورة الجبال الشاهقة، وشدة مراس الثائرين من سكان تلك الجبال، فطال أمد الحرب عاماً وبضعة أشهر، ويزيد بن مزيد في كر وفر وقتال مستميت، وموسى الهادي على مقربة منه يتتبع أخبار تلك الحروب، ويمدّه بالمال والرجال، ويرسل الأخبار تباعاً إلى أبيه الخليفة الذي كان في قلق شديد ينتظر بفارغ الصبر ما ستسفر عنه الملاحم الرهيبة [٢].

وبينما كان الموقف على هذه الحال من الخطورة، وقد خلت بغداد من موسى الهادي وأعوانه باستثناء القليل منهم، بدأت المناورات الخفية تعمل من جديد على انتزاع ولاية العهد الأولى منه، وإعطائها لهارون الرشيد، وظلت تشتد وتنتظم وتحيط بخناق المهدي، وتضيِّق عليه أنفاسه، حتى رضخ وأذعن، وأعلن قبول الفكرة مكرهاً لا مختاراً. نقول مكرهاً، لأنه لا يعقل أن يفكر خليفة مسؤول، في مثل تلك الساعة الحرجة، بتنفيذ خطة كهذه، والجانب الشرقي من دولته مهدد بالضياع، والنار متأججة بين جيوشه وأعدائه، وأمير تلك الجيوش هو صاحب ولاية العهد الذي يراد ضربه ومحو مستقبله.

هذا ما حدث، وهو دليل واضح على ضعف المهدي وتراخيه أمام رغائب النساء، وعلى رعونة الخيزران وقصر نظرها تجاه عواطفها ورغباتها الجامحة، وعلى اغتنام يحيى بن خالد الفرص بأي ثمن كان، واتِّباعه سياسة «الغاية تبرر الوسيلة».

ومهما يكن من أمر، فقد دلَّت الأخبار على أن المناورة اجتازت عدة مراحل حتى انتهت إلى تلك النتيجة السيئة. وما يبدو لنا هو أن المهدي عارض الفكرة للوهلة الأولى، وربما

(١) يهمنا ذكر هذه الأسماء لأهمية أصحابها في الفصول القادمة.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٩.

بهت لدى سماعه بها، إذ لم يكن قد فكر بها من قبل، لأنه أب يرى ولديه في ميزان واحد، وما كان موسى الهادي في نظره بالقاصر العاجز، ولا بالمستهتر الخامل، بل كان حازماً شجاعاً، جريئاً في الحق، سخي اليد محبوباً عند الكثير من القادة، لما يتحلى به من صفات الرجولة والإقدام.

ومن ناحية أخرى، فقد سبق للمهدي بالأمس أن نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى إلى ولده موسى الهادي، ورأى ما أحدث ذلك من استياء عام، فهو إن نقلها مرة أخرى من موسى إلى هارون، استخف الناس بأمر البيعة، وهان عليهم الخلع غداً ونقض العهود..واكثر من هذا، فإن تقديم هارون على موسى، وهو الأكبر، وقد جددت له البيعة مرتين كما رأينا، قد يحدث بين الأخوين ما لا تحمد عقباه وقد جرَّب المهدي ذلك بنفسه، حين سمع يوماً، خطأ، بأن أباه المنصور يريد انتزاع ولاية العهد منه ليعطيها لأخيه جعفر الأصغر، فأرسل إلى أبيه من يقول له: «والله إن فعلت ذلك لأقتلنه» فأجابه المنصور: «لقد سمعت خطأ، ونحن أشفق على جعفر من أن نعرضه لك» [(١)].

هذه الأسباب مجتمعة، جعلت المهدي يعارض ويصرُّ على معارضته، ولكن الضغط عليه من داخل القصر بوساطة الخيزران، ومن خارجه بوساطة أنصارها من أمراء بني العباس، كان يضعف من إرادته شيئاً فشيئاً. وأحس ذات يوم بالحملة تضايقه، فدعا أولئك الذين يناصرون الفكرة من أمراء بيته، إلى مجلس خاص، وقال لهم: «إن في عنق موسى الهادي بيعة المسلمين، ولا يصح انتزاعها منه إلا إذا تنازل هو عنها»، قالوا: «إن موسى قد لا يصر عليها إذا طلب أمير المؤمنين منه ذلك»، قال: «إذهبوا أنتم إليه، واقنعوه، فإن فعل فلا مانع لدي». فسار عدد منهم إلى (جرجان) وفاتحوه بالأمر، فأجفل من طلبهم، فحاولوا إقناعه فلم يقتنع، وألحُّوا عليه فغضب وأسمعهم قارص الكلام، فعادوا خائبين، وقد غرسوا في صدره حقداً دفيناً على أمه وأبيه اللذين يؤيدان خصومه في مؤامرتهم الظالمة، وزادوه ريبة وخوفاً على مستقبله [(٢)].

---

(١) الطبري: ج ٣ ص٣٩٧.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٢٣.

وأخيراً قيل للمهدي: لو أرسلت إليه من لدنك كتاباً لما استطاع الرفض وأنت وليٌّ أمره، فبعث إليه برسالة مع أحد مواليه يأمره فيها بالقدوم إلى بغداد، فأبى، ومزق الرسالة وضرب الرسول وطرده وهدَّده بالقتل [١]، ثم نادى بأنصاره وجمعهم إليه، وشكا لهم ما يصنع خصومه في عاصمة أبيه، وكتب إلى من بقي من أعوانه هناك أن يراقبوا تطورات الموقف، ويخبروه بكل ما يحدث في هذا الشأن، وربما هيأ ما هو أخطر من ذلك.

وسمع المهدي خبر تمزيق كتابه و ضرب رسوله، فآلمه وساءه، وأحس بأنه كان في غنى عن مثل هذه الأزمة التي بدأت تتمخض عن كل ما يسيء إليه، حتى أدت إلى العبث بكرامته، ومع ذلك كان يحسُّ بأن موسى الهادي معتدى عليه، ولولا إحراجه لما خرج عن طاعته، وتمرَّد في سبيل حقه ومستقبله. لكن الخيزران حملت الراية ضد هذا الولد المتمرد، وراحت تنتصر لكرامة زوجها كأنها لم تكن هي السبب الأكبر في كل ذلك. «إنها لن تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

لقد كان باستطاعة المهدي، وهو السيد المطلق، أن يوقف هذه المهزلة بعد أن تطورت إلى ذلك الحد، ويعيد المياه إلى مجاريها ما دام هو غير مقتنع بعدالة الفكرة ويعتبرها محاولة فاشلة. وكان عليه أن يحدَّ من غلواء هذه الجارية الأم التي تتدخّل بما لا يعنيها فيتذكر قول أبيه له: «.. إياك وإدخال النساء في أمرك.. وأظنك ستفعل ذلك».. وإن كان ولا بد من تحقيق ما بدأ به، فعليه أن ينتظر نهاية المعارك في جرجان، فيعود الهادي إلى موطنه، وعندئذ يسهل تصفية الحساب على طريقة من الطرق.

غير أن الرجل كان مغلوباً على أمره، فلم يجد بداً من اتِّباع الرأي القائل بضرورة السفر إلى حيث يقيم ولي العهد، فسافر بحاشيته وعدد من أمراء بيته، ومعهم هارون وحاشيته. وجاءت الأنباء إلى الهادي بما عزم عليه أبوه، فقلق وأيقن أنه خاسر حقه لا محالة، إلا إذا طرأ ما يوقف هذه الرغبة في حال من الأحوال.

كان سفر المهدي في أوائل المحرَّم من عام (١٦٩ هـ - ٧٨٥ م)، ومعه فرقة من جيشه لحراسة الطريق. وكان خروجه على غير رغبة منه، إذ يقول أحد خاصته: «رأيته والله وقد

(١) الطبري، ج ٣ ص ٥٢٣.

أمر بالرحيل وكأنه يساق إليه سوقاً»[١].. فلما وصل (ماسبذان) قرب النهروان على بضع مراحل من بغداد، نزل فيها وهو على أتم ما يكون من الصحة، ولكنه في اليوم الثاني مات فجأة وبصورة مريبة[٢].

والغريب ان تتضارب الأخبار في أسباب موته، مع العلم أنه كان في جمع حشد من الناس: فقد قيل: «إنه خرج للصيد فطرد ظبياً على فرسه، فاقتحم الظبي باب خربة فتبعته الكلاب، واقتحم الفرس المكان، فسقط المهدي عنه ودق ظهره فمات من ساعته»[٣]. وقيل: «إن جارية من جواريه اللواتي كن معه. بعثت إلى ضرة لها تكرهها بطعام مسموم، فمرَّ حامله بالمهدي وهو في بستان القصر، فدعا به، وأكل من الطعام المسموم فمات»[٤].. وقيل: «عمدت جارية له إلى كمثرى فأهدته إلى جارية أخرى كان المهدي يتحظاها، وسمّت منه كُمَّثراة هي أحسن ما في الطبق، فاجتاز حامله بالمهدي، فأكل تلك الكمثراة المسمومة فمات»[٥].. وفي رواية للجهشياري يقول: «فذهب المهدي وأكل من اللوزينج المسموم، المشهور خبره، فمات من وقته»[٦].

لا يعقل، قطعاً، أن تكون أسباب موته مجهولة إلى هذا الحد، فلا نعلم أكان ذلك بالصيد وراء الظباء، أم بأكل الكمثرى، أم اللوزينج، وهو في حاشيته وموكبه وخدمه وجواريه.. ولكن غموض الأسباب هذا يدلّ على أن الأمر منطوٍ على جريمة بشعة، أراد المطلعون على حقيقتها أن يكتموها خوفاً من حدوث الشغب ووقوع الفتن، أو أنهم أخفوا معالمها لأن المتهم فيها موسى الهادي، وقد أصبح خليفة، وليس باستطاعة أحد أن يصرّح بها بعد وقوعها.. وهذا هو الأصح.

وقد أشار المؤرخ ابن الأثير إلى هذا بقوله: «مات ميتة تدعو إلى الشك والريبة»[٧].

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٢٣.

(٢) ابن الأثير: ج٦ ص ٥٤

(٣) الطبري: ج٣ ص ٥٢٤.

(٤) الطبري: ج٣ ص ٥٢٤.

(٥) ابن الأثير: ج ٦ ص ٥٤

(٦) الجهشياري: ١٦٨

(٧) ابن الأثير: ج ٦ ص ٥٥.

وزاد ابن قتيبة وضوحاً عليه بقوله أيضاً: «إن المهدي عندما أراد تولية هارون الرشيد الخلافة، سعى الهادي، فدسَّ على أبيه بعض الجواري المتمكنات منه، فسمّته»[1]. ثم ذهب إلى أبعد من ذلك فقال: «إن المهدي أحس بأنه مسموم من قبل ابنه الهادي»[2].

(١) الإمامة والسياسة: ج٢ ص ٢٩٠

(٢) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩١.

بين الخليفة الهادي وأخيه الرشيد

وعلى أثر موت المهدي، في ٢٢ من المحرَّم عام (١٦٩ هـ - ٧٨٥ م) فشل مشروع نقل ولاية العهد الأولى إلى هارون الرشيد، بعد أن أصبح بينه وبين النجاح مقدار ما هنالك من مسافة بين الخليفة وموسى الهادي، فانكمش الأمل في صدر يحيى بن خالد ومن معه، وأصبح لزاماً عليهم إنكار ما كان في نفوسهم، وإعادة المياه إلى مجاريها قدر المستطاع.

وقد قيل إن جماعة من قواد الجيش ورؤساء الموالي الذين كانوا بصحبة المهدي، أتوا هارون الرشيد، لدى حدوث الوفاة، يسألونه ماذا يريد أن يتخذ من التدابير، وأشاروا عليه قائلين: «إن علم الجند بوفاة المهدي لم يأمن الشغب من جانبهم، والرأي أن تنادي بهم بالرجوع، ونحمل معنا جثمان الخليفة إلى بغداد فندفنه» فدعا الرشيد يحيى بن خالد واستشاره فقال: «لا أرى رأي هؤلاء، لأن هذا الأمر لا يخفى، ولا يؤمن جانب الجند إذا علموا بموت الخليفة أن يتعلقوا بنعشه ويطالبوا برواتب سنين كثيرة، أو يشتطوا. والأصوب أن يدفن الخليفة ها هنا، ثم تتوجه بالخاتم والقضيب سراً إلى موسى الهادي، وتأمر لكل جندي بمائتي درهم، وتنادي فيهم بالرجوع، فلا تكون لهم همة سوى رؤية أهلهم» ففعل الرشيد برأيه، وصلَّى على أبيه، ودفنه في قرية (الرذ) من قرى (ماسبذان)[(١)]. وجمع من كان في الموكب معه وأخذ منهم البيعة بالخلافة لأخيه موسى، وعاد بعد أن أرسل الجيش أمامه إلى بغداد[(٢)].

ولدى وصولهم، دعت الخيزران الربيع بن يونس ويحيى بن خالد عندها، لتستشيرهما في بعض الأمور، فذهب الربيع وامتنع يحيى. وقد زعم بعض المؤرخين أن

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٢٦.

(٢) ابن الاثير: ج ٦ ص ٥٨.

امتناعه هذا عن مقابلة الخيزران كان خوفاً من غيرة الهادي على أمه [١]. ولكن الواقع غير ذلك، فقد كان يحيى يعلم جيداً بأن مجرد اتصاله بالخيزران سيثير الريبة والشك في نفس الهادي، وهو في غنى عن ذلك الآن بعد أن أصبح الحل والعقد بين يديه، وربما كان في الأمر سبب آخر، هو أن يحيى كان يعرف جيداً رعونة الخيزران واندفاعها حين تغضب، فخشي إذا اجتمع بها مع الربيع بن يونس أن تبدي من الآراء والأسرار ما يفضح يحيى أمامه، ويسمع الهادي بها فتكون نقمة عليه ما بعدها نقمة.. فلم يحضر.

وبعد مرور ثمانية عشر يوماً على موت المهدي، وصل الخليفة موسى عاصمة ملكه، بعد أن أخذ هارون له البيعة من الناس، وأرسل الكتب إلى الولاة والأمصار في ذلك، فاستقبله وجهاء القوم خارج بغداد، وفي مقدمتهم يحيى بن خالد، فسلَّم عليه وقبَّل يديه معزياً ومهنئاً، ومظهراً الطاعة والخضوع كأنه لم يكن له في ذلك الصراع الدامي يد أو رأي. فلما رأى الهادي نفسه من يحيى ما رأى، وسمع بامتناعه عن مقابلة أمه الخيزران في تلك الساعة الخطيرة، وعلم بأنه كان المشجع الأكبر لهارون الرشيد على أخذ البيعة في الحال، وتعبيد الطريق له، أراد أن يتَّبع معه سياسة نسيان الماضي والتسامح والعفو عما سلف، فأبقاه على عمله إلى جانب هارون الرشيد وإدارة شؤونه [٢].

وحاول موسى الهادي أن يصلح ما بينه وبين أمه بعد الذي جرى من أمرها، وكان يأمل المأمول من الخيزران أن تعتبر بالحوادث بعد فقدان زوجها الشاب، فتقبع في بيتها منطوية على أحزانها وترمُّلها الذي صنعته بيدها، وتترك الجو صافياً لابنها وقد استقرت له الأمور، ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك، بل عادت إلى سابق عهدها في التدخل بالأمور العامة والتوسط لذوي الحاجات من معارفها وممن يلتجيء إليها. وبقيت صلتها المتينة بآل برمك كما كانت في عهد زوجها، بل ازدادت مع الأيام جدة ومتانة.

ولم يشأ الهادي في أول حكمه أن يثير غضبها بإيقافها عند حدِّها، وإعلان الخصومة من جديد معها، بل كان يكتفي بقوله لها بين حين وآخر: «ما للنساء والتدخل بأمر الرجال؟» [٣]

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٥٨

(٢) ابن الأثير: ج ٦ ص ٦٥

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٥٤٦.

فلم ترتدع، بل أسرفت، فأرسل إليها يقول: «أريد منك أن لا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك. وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك»[1]. لكن هذا الإنذار لم يزدها إلا إصراراً وإمعاناً في التدخل، فتكدست المواكب على بابها من طلاب الوساطة والحاجات، كما كانت الحال في عهد زوجها، حتى كادت تفسد عليه الكثير من أموره.

وذات يوم جاءت إليه بحاجة تريد قضاءها منه، فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً، واعتل بعلَّة، فقالت لا بد من إجابتي!! قال: لا أفعل، قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك (رئيس حرس الخليفة) فغضب موسى وقال: ويل لابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحب الحاجة.. والله لا قضيتها لك. قالت: إذن والله لا أسألك حاجة أبداً. قال: إذن والله لا أبالي. وحمي موسى وغضب، وقامت هي غاضبة تزبد وترعد.. فقال لها: «مكانك تستوعي كلامي.. والله فأنا نفي من قرابتي من رسول الله. لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله. فمن شاء فليلزم ذلك.. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم؟؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟؟ إياك ثم إياك، ما فتحت بابك لملّي أو ذمّي» فانصرفت من عنده، وهي لا تعقل ما تطأ[2].

ثم جمع الهادي قواده وخاصته في مجلس، وقال لهم: «أيما خير، أنا أم انتم؟؟» قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين. قال: «فأيما خير، أمي أم أمهاتكم؟؟» قالوا: بل أمك. قال: «فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولون: قالت أم فلان، وصنعت أم فلان، وفعلت أم فلان؟؟» قالوا: ما أحد يحب ذلك. قال: «فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها؟؟» فسكتوا، وعلموا ما أراد، فانقطعوا عنها البتة.. فشقَّ عليها ذلك، واعتزلت ابنها وحلفت لا تكلمه بعد اليوم أبداً حتى في شؤونها الخاصة[3]. وهكذا تقلص ظلها في ميدان الشؤون العامة، وسيطر الهادي على الموقف سيطرة تامة، ولم يلتفت إلى أمه ولا إلى حاجاتها، إلا

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٠.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٥٧١.

في ما يتعلق بشخصها بعض الأحيان. فبلغت النفرة والضغائن بينهما حدها الأقصى، ولم يكن قد مضى بعد على خلافته أكثر من بضعة أشهر.

أما هارون الرشيد، فقد تعطلت في الواقع ولايته على الجانب الغربي للدولة، وإن لم يتعمد الهادي سحبها منه علناً كي لا يقال إنه أبطل عملاً أقرَّه أبوه من قبل. فانصرف إلى شؤونه الخاصة، وبقي على صلته بيحيى البرمكي الذي هو نفسه قد ضاق ذرعاً من القيود التي فرضها عليه نفوذ الخليفة، والعيون والأرصاد التي كانت تحيط به في غدوه ورواحه. وتعدُّ عليه أنفاسه وحركاته، لتخبر بها موسى الهادي.

وبقيت الصلة فاترة بين الخليفة وأخيه، يمازجها كره وحقد من جانب موسى، وخوف ونفور من جانب هارون.... وقيل: إنه كان في مجلسه يوماً مع جماعة من خاصته، فدخل الخادم وأخبره بقدوم هارون الرشيد، فأذن له، فدخل وسلَّم عليه وقبَّل يده وجلس على يمينه بعيداً عنه. فأطرق موسى، ثم صار ينظر إليه، وفعل ذلك مراراً، ثم قال له: «يا هارون كأني بك تحدِّث نفسك بتمام الرؤيا ـ ويقصد بها رؤيا المهدي التي أعطى فيها للأخوين قضيبين فأورق قضيب موسى من أعلاه وأورق قضيب هارون كله، وقد بيَّنا ذلك وتؤمل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرط القتاد. أتؤمل الخلافة ؟؟» فبرك هارون على ركبتيه وقال: «يا موسى. إنك إن تجبرت وضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت ختلت، إني لأرجو أن يفضي الأمر إلي فأنصف من ظلمت، وأصل من قطعت، وأصيِّر أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق المهدي» فابتسم موسى راضياً، وقال له: «ذلك الظن بك يا أبا جعفر.. أدن مني» فدنا منه هارون وقبَّل يده، ثم همَّ بالعودة إلى مجلسه. فقال له الهادي: «لا وربِّ الشيخ الجليل والملك النبيل، أعني جدَّك المنصور، لاجلست إلا معي» وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال لوزيره ابراهيم الحراني: «يا حراني، إحمل إلى أخي ألف ألف دينار، وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف منه، واعرض عليه الخزائن من مالنا فليأخذ منها ما يريد». فلما قام الرشيد، قال الهادي لصالح الخادم: «إدنُ دابته إلى البساط»[1]. وبقي الأخوان مدة وجيزة على أتم وئام وصفاء، لولا أن جوَّ البلاط بدأ يضطرب من جراء تلك الأهواء والمنافسات والضغائن. فهنا جلست الخيزران

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٨.

حانقة غاضبة تندب حظها في زوجها المسموم وقسوة ابنها الخليفة في معاملته لها، وإلى جانبها نساء آل برمك، ووراءهن يحيى، يزدن النار بين الأم وابنها ضراماً، وربما كان يحيى يرى في هذا النفور بينهما مخرجاً من عزلته المفروضة عليه، ووسيلة للوصول إلى أهدافه عاجلاً أو آجلاً. وهناك رجال من حاشية الخليفة الجديد يذكرونه بالماضي القريب، ويثيرون أحقاده على يحيى بن خالد، وينسبون إليه تلك الأزمات التي انتهت بذهاب أبيه، انتقاماً منهم وشغباً على هذا البرمكي الطموح، الذي يريد أن يوصل هارون إلى الحكم ليكون السيد المطلق في الدولة.

وفي أحد الأيام جمع الهادي قواده ووزراءه وعرض عليهم ما يدور في خلده، بأن يأخذ ولاية العهد من أخيه، ويقلدها ابنه «جعفر بن موسى»، وكان صغيراً لم يبلغ الثامنة من عمره بعد، فأشار بعضهم عليه بأن لا يفعل، وبيّن الأسباب والعلل في ذلك، وحبذ الباقون رأيه وشجعوه على تحقيق رغبته، زاعمين بأن يحيى بن خالد مسيطر على إرادة الرشيد، وأن الملك لا يصلح إذا انتقل إليه وهذا بجانبه[1].. وكان من بين هؤلاء المشجعين شخصيات كبيرة معروفة منها يزيد بن مزيد الشيباني، ومحمد بن فروخ الأزدي وعلي بن عيسى بن ماهان وغيرهم. لكن شخصيتين غير هؤلاء كان لهما أدوار خطيرة متناقضة: أولهما الفضل بن الربيع، حاجب الهادي والأقرب إليه، وكان هذا يحب الرشيد ويتودّد إلى زبيدة، ويذكر فضل جدها المنصور عليه وعلى أبيه الربيع بن يونس يوم كان وزيراً له، ولكنه يكره يحيى البرمكي كرهاً عظيماً، ويستهجن طرقه في سبيل الوصول إلى طموحه، ويستثير الخليفة عليه بين حين وآخر، ويحذّره منه.

وثانيهما «ابراهيم بن ذكوان الحراني الأعور» وكان هذا من رجال الهادي في عهد أبيه، ومن أعوانه في جرجان أثناء اشتداد الأزمة بينه وبين الرشيد، وقد قام في ذلك العهد بأدوار خطيرة أغضبت المهدي فاستدعاه إليه وأقسم يميناً على أن يقتله، لكنه مات قبل تنفيذ قسمه، فلما تولى الهادي الخلافة قرّبه وجعله وزيره وصاحب أسراره. غير أنه كان ميّالاً إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان ينقل إليه أسرار الهادي، وشعوره تجاهه، بوساطة أحد أتباعه «اسماعيل بن صبيح» الذي كان، يوماً ما، كاتباً ليحيى بن خالد نفسه[2].

(١) اليعقوبي: ج٢ ص ٤٩٠.

(٢) الجهشياري: ١٦٨.

وكان أول عمل قام به موسى الهادي في هذا المجال أنه طلب من أخيه هارون الرشيد أن يتنازل طائعاً عن ولاية العهد لابنه جعفر، ووعده بخير كثير وعطاء جزيل، فعزم هارون على إجابته، ولكن يحيى منعه وشجَّعه على التمسُّك بحقه [1]. فسمع موسى بذلك، فدعا يحيى إليه وحباه وقرَّبه، وبذل له المال بغير ميزان، فلم يجد منه غير الرفض والامتناع، فحبسه وأبقاه في الحبس زمناً، ثم أطلقه لعلَّه يتعظ ويحجم عن منع هارون.

ثم حاول معه مرة أخرى، فدعاه إلى مجلسه، وأدناه منه أمام الحاضرين، وقرَّبه حتى أجلسه بين يديه، وقال له: «يا يحيى إني قد ظلمتك وحبستك وكفّرتك، فاجعلني في حلٍّ» فعجب الحاضرون من قوله وإكرامه له، فقبَّل يحيى يديه وشكره على ذلك. فقال له الهادي: من الذي يقول فيك:

لو يمسُّ البخيلُ راحةَ يحيى لَسَخَتْ نفسُهُ ببذلِ النوالِ

قال: «تلك راحتك يا أمير المؤمنين لا راحة عبدك يحيى..» [2]، ثم أبقاه حتى خلا المجلس، وكلمه في أمر البيعة من جديد فقال يحيى: «يا أمير المؤمنين، إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركت بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته» قال الهادي: «صدقت ونصحت»[3].

وكان موسى الهادي يسكن قصر الخلد في أوائل أيام خلافته، ثم أراد الابتعاد عن أمه حين اختلف معها وغضب عليها، فترك هذا القصر ونزل في بستان أبي جعفر، ثم انتقل منها إلى (عيسا باذ) بجانب الرصافة، واتخذ له قصراً فيها سماه «القصر الأبيض». وبقي هارون الرشيد مع أمه في قصر الخلد، فكان يحيى بن خالد يتردد إليه مع ولديه الفضل وجعفر، ولا يفارقونه ساعة واحدة من نهاره، خشية أن يبدر منه ما ينمٌ على موافقته أو إذعانه لمطالب أخيه بالتنازل عن ولاية العهد[4]. وكان كلما اشتد ضغط موسى على

---

(١) الجهشياري: ١٦٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٣.

(٣) ابن الأثير: ج ٦ ص ٦٦

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٥٧١.

هارون، وأحسَّ يحيى بأنه قد تراخى أمام الإكراه أو الإغراء، شدَّ عزيمته ببليغ من القول، وذكَّره بعزَّة السلطان ومجد الخلافة[1].

قيل: إن هارون ضاق ذرعاً بالحصار الذي فرضه عليه الهادي، بعد أن عرض عليه (الهنيء والمريء)[2] من أعمال الرقة إن تنازل عن حقه قي البيعة، فجاء إلى يحيى وقال له: أريد أن أتنازل عن حقي فيها لأستريح من هذا العناء، فقال له يحيى: لا تفعل. قال الرشيد: إذا حصلت على (الهنيء والمريء) وخلوت بابنة عمي، يعني زبيدة، فلا أريد شيئاً. قال يحيى: «وأين هذا من الخلافة؟؟ ولعلَّ ما تقدّر أنه يبقى لك، لا يبقى».. وما زال به حتى أقنعه وثبَّت قدمه[3].

وعلم الهادي بالخبر، فاستاء منه، وراح يلعن يحيى ويتوعده، ثم أمر بإلقاء القبض عليه، وزجِّه في أعماق السجن. فكتب هذا إليه من سجنه يقول: إن عندي نصيحة، أريد أن أقولها لك، فأمر بإحضاره وهو في مجلسه، وسأله عما عنده، فقال: أخلني حتى أتكلم، فأخلى له المجلس، فقال: «يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر الذي لا تبلغه، أي الموت، ونسأل الله أن يقدمنا قبلك، أتظن أن الناس يسلمون الخلافة إلى جعفر وهو لم يبلغ الحلم ؟؟ ويرضون به لصلاتهم وحجِّهم ؟» قال: ما أظن ذلك. قال «أفتأمن من أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم، فتخرج من ولد أبيك ؟؟.. والله لو أن هذا الأمر لم يعقده المهدي لأخيك، لكان ينبغي أن تعقده أنت له، فكيف أن تحلَّه عنه، وقد عقده المهدي ؟؟.. ولكني أرى أن تقرَّ الأمر على أخيك، فإذا بلغ جعفر أتيته بالرشيد فيخلع نفسه ويبايعه». فأطرق الهادي مسحوراً بهذا المنطق القوي والبيان الواضح، ثم قال له: «صدقت، إنك والله نبَّهتني على أمر لم أنتبه إليه» وأمر بإطلاق سراحه[4]..

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٢.

(٢) الهنيء والمريء: نهران بإزاء الرقة حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث عليهما واسطة الرقة (معجم البلدان).

(٣) الجهشياري: ١٦٩.

(٤) ابن الأثير: ج ٦ ص ٦٦

وقبل أن يخرج يحيى من عنده، دارت بينهما أحاديث ودٍّ وصفاء في شؤون مختلفة، حتى قال له موسى: كنت قد طلبت منك أن تكلم هارون في أمر الخاتم الذي كان في يده، وكان أبي قد أعطاه إياه، فأردت أن ألبسه لأن أبي كان يلبسه في خلافته، قال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لقد كلمته في هذا ونحن نجتاز الجسر في طريقنا إلى القصر، وكان هارون منقبض الصدر فأزعجه ذلك الطلب وقال: إن لأخي خزائن الأرض كلها، أفيريد أن يلاحقني حتى على هذا الخاتم الذي أعتز به كذكرى لأبي؟؟ ثم نزعه من إصبعه ورمى به في النهر، فسكت موسى.

ثم استؤنفت الدسائس من جديد، فعاد موسى مرة أخرى يلحُّ على الرشيد بالتنازل عن البيعة، فلم يفعل، فأعلن موسى لخاصته بأنه سيخلع هارون قسراً ويبايع لجعفر، ولو أدى ذلك إلى ما لا تحمد عقباه. وذاع الخبر في الناس، فأطلق بعض أفراد الحاشية وصنائعهم ألسنتهم في الرشيد، وقالوا فيه ما شاءوا، وشغبوا عليه مرددين قولهم: لا نريده خليفة علينا ما دام أمره في يد غيره ـ ويقصدون بذلك يحيى بن خالد ـ ثم أمر الهادي بأن لا يسار أمام موكبه بحربة، كما كان يفعل أمام كل ولي عهد. فاجتنبه الناس، وتركوه ولم يسلِّموا عليه خوفاً من غضب أمير المؤمنين[1].

وضاق الرشيد ذرعاً بأمره، فراح إلى أمه الخيزران يحدِّثها عما في نفسه، ويقول: «إن أخي هذا يزداد غلظة في معاملتي يوماً بعد يوم، وأخشى أن تحدِّثه نفسه في ما هو أخطر من ذلك. وإني قد زهدت بهذا، ولكن يحيى لا يريد أن أخلع نفسي، فأرتاح». فأرسلت الخيزران إلى يحيى إحدى نسائه، فجاءت تبكي أمامه وتشقُّ جيبها وتقول: «إن السيدة تقرئك السلام، وتقول. الله الله في ابني هارون، لا تقتله بسبب إصرارك، ودعه يُجب أخاه الى ما يسأله، ويريده منه، فبقاؤه أحب إلي من الدنيا وما فيها» فصاح يحيى بوجهها غاضباً، وقال لها: ما أنت وهذا؟؟ إرجعي وقولي لها: «إن يكن ما تقولين، فإني وأهلي وولدي سنقتل قبله، فإن اتهمت عليه، فلست متهماً على نفسي ولا عليهم»، فسكتت الخيزران ولم تعاوده في ذلك[2].

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٦.

ويبدو من موقف يحيى هذا، وطاعة الرشيد والخيزران له، أنه يتصرف تصرُّف الوصي عليهما، بل الآمر الذي لا يُرَدُّ أمره. ولا نشك في أن هذه السيطرة باسم الإرشاد والنصيحة، لم تكن وليدة يومها في أسرة المهدي، بل وليدة زمن طويل، كانت مستترة خفية في حياة الخليفة الأب، ثم أسفرت بعد موته لابسة ثوب الوفاء والخدمة لهما.. وهذا يؤكد أيضاً بأن تلك المناورات التي مضت، في تقديم هارون إلى الخلافة قبل أخيه موسى، كانت من صنع هذا البرمكي الداهية.

كانت له في ذلك مصلحة ظاهرة، تتلخص في أن الرجل اجتاز مرحلة الشباب، وأن كلاً من وليِّي العهد ما زال في سن الصبا، فإذا تولى الهادي زمام الخلافة قبل الرشيد، وطالت مدته، ضاعت الفرصة على يحيى في انتظار مجيء الرشيد اليها. وربما بلغها الرشيد ويحيى في أرذل العمر، فتكون همَّتُه قد ضعفت وعزيمته شاخت، ولن يستطيع تولّي زمام الوزارة والتصرف بمقدرات الدولة، كما كان يحلم.

وها قد انتهى الأمر، وتبوّأ الهادي سرير الخلافة، وهو في باكورة شبابه وصحته، وقد عزم نهائياً على خلع هارون، وبدأ باتخاذ أعنف الوسائل لتحقيق رغبته، ولم يفد معه النصح والرأي، فماذا ينتظر يحيى إذن من إصراره في منع الرشيد عن خلع نفسه، وهو راغب في ذلك، وأمه تؤيده؟؟ وأيُّ أمل يداعب صدر يحيى من وراء تصلبه؟؟

إن الأحداث التالية كفيلة بالجواب.

اغتيال موسى الهادي

وقبل أن نتتبع سَيْرَ الأحداث ونقتفي آثار خطوات هذا البرمكي، يجدر بنا أن نلقي نظرة شاملة على جو السياسة العليا الجديد في دولة موسى الهادي وبلاطه، لنرى أن هذا الخليفة الشاب الذي لم يجاوز الثالثة والعشرين من حياته، لم يكن محظوظاً بالرجال الذين أحاطوا به، لقلة من مارس منهم الزمن فاكتسب الخبرة وحسن التدبير: فقد مات وزيره أبان بن صدقة في (جرجان) قبيل خلافته، ومات الربيع بن يونس وزير المنصور والمهدي بعد أشهر قليلة من حكمه، ومات عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى، وغيرهم من الذين عركوا السياسة وخبروها في ظل أسلافه، فالتفَّ حوله جماعة، جلُّهم من الشباب الذين تنقصهم الحنكة وممارسة المشاكل.

ولم يكن يحيى بن خالد من الشباب، وقد ناهز الخمسين من عمره، وهو كما علمنا، كان أكثر الناس دهاءً في فهم الأحداث، وفي خلق الأزمات، وتوجيهها نحو غيره، والتخلص منها إذا انتابته، فقد واكب السياسة منذ أن نشأت الدولة العباسية، وعمل للخلفاء السابقين جميعاً، فبرع في مجال اختصاصه، وتعرَّف إلى رجال الدولة كلهم، شيوخاً وشباباً، واصطنع من بينهم أعواناً وآلات يستخدمهم عند الضرورة. ولما نشبت الأزمة بين هارون وموسى، كان هو قائد الجبهة الأولى، فلم يفتقد من بين رجال الحاشية والإدارة إلى الذين كانوا له عيوناً وأرصاداً يخبرونه عن أسرار الهادي وتحركاته كلها. وحتى إن وزير البلاط «ابراهيم بن ذكوان الحراني» المطلع على أسرار الخليفة، كان من صنائع يحيى وممن يمتثل لأوامره إذا اقتضى الأمر. ويقول الجهشياري: «قلد ابراهيم الحراني اسماعيل بن صبيح ديوان زمام الشام وما يليها بشفاعة يحيى بن خالد إليه لأن اسماعيل كان كاتبه، فأحب أن يضعه بموضع يستعلم منه ما يريد. فرفع إلى موسى الهادي الخبر أن يحيى شفع إلى ابراهيم الحراني حتى استكتب اسماعيل. فهو ينقل الأخبار فيؤديها إلى

هارون. وعرف يحيى الخبر، فبادر بالمشورة على اسماعيل بالخروج إلى (حران)، واستخلف ابراهيم الحراني يحيى بن سليمان على جميع الأزمة. فلما خاطبه موسى بسبب اسماعيل، أخبره أنه بحرّان»[1].

إن هذه الرواية واشباهها تدل على مقدار ما كان لدى يحيى من أسباب لمعرفة خفايا الأمور وأسرار خصمه الهادي. وتدل أيضاً على أن جو البلاط كان محموماً من جراء ذلك الانقسام بين الأخوين، والناس في حيرة من أمرهم، لا يعرفون كيف يتصرفون، فكثرت الوشايات والتجسُّسات والمؤامرات والدسائس. وليس أمهر من يحيى في السير ومعرفة الطرق في مثل هذا الجو المخنوق بالضباب الكثيف. لكن ذلك لا يعني أنه يستطيع تحدي قوى الخليفة وسلطانه وحده. وقد ضعف سلاحه بانزواء الخيزران وتقلص نفوذها، وابتعاد زبيدة وأعوانها عن تلك العاصفة، وتحاشي الرشيد عن كل تحدٍ لسَوْرَةِ أخيه العارمة. ويبدو أن فترة قصيرة مرت على يحيى، كانت أبواب الأمل فيها موصدة أمامه، ولكنه لم يرض بأن يلقي سلاحه ويتخلى عن الميدان، وهو الذي عرف بمكره ودهائه، وصبره على المشاكل حتى تنفرج وينحل عقالها. وأخيراً، فكر بأن يعمل بغير الأسلوب الذي كان يتبعه قبلاً، في عهد الخليفة المهدي. فكان أول بارقة لآماله الخلاف الحاصل بين الخيزران وموسى والذي تطور، فيما بعد، إلى كره وبغضاء، فاتجه إلى العمل على إبقاء تلك النفرة، وإذكاء جذوتها عند الأم التي لا تزال صلته بها على أحسن ما يرام. وسوف لا يكلفه هذا كبير عناء، فهو يعلم كيف يستفزها ويخيفها، ولا يجهل أنها إذا غضبت وحنقت هان عليها ارتكاب أكبر الأخطاء، بل أبشعها، ضد من تحنق عليه، حتى ولو كان فلذة كبدها. ولما كانت تعلم حق العلم بأن الهادي هو الذي أوعز بدسّ السم إلى أبيه فقتله، كان من السهل إذن، إقناعها بأنه يريد سمَّها، وسمّ ابنها الحبيب هارون الرشيد، وقتل يحيى بن خالد أيضاً.

لنقف قبل كل شيء أمام رواية تواترت في مصادر تاريخية مختلفة، تقول: إن موسى الهادي أرسل إلى أمه صحن (أرزة)، وهي نوع من الطعام اللذيذ، وأمر حامله بأن يقول لها: «إني قد وجدت هذه الأرزة لذيذة فكلي منها». فلما تناولتها، انتفضت إحدى جواريها

(١) الجهشياري: ١٦٨.

«خالصة» وقالت لها: إمسكي ولا تأكلي منها حتى تنتظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه. فجاؤوا بكلب فأطعموه منها فتساقط لحمه في الحال، ومات[1].

فإذا صح ما جاء في الحكاية، فإن إرسال الأرزة من قبل موسى الهادي أمر لا يستسيغه العقل ولا يقبله المنطق، إذ كيف يهتم خليفة، من أترف خلفاء المسلمين، بأمر صحن من الأرزة، يهديه إلى أمه كما يتهادى الفقراء، مع العلم بأن النفرة بين الإثنين بلغت أشدها منذ أن خرجت الخيزران من عنده وحلفت بأن لا تكلمه ابداً، ولم يكلمها هو حتى مات؟؟ ولو تصورنا أن هذه الحادثة جرت قبل حدوث النفرة والبغضاء بينهما، لكان موسى الهادي في غنى عن قتل أمه بهذا الأسلوب المكشوف في وضح النهار، وباستطاعته أن يكلف أحد القائمين على خدمتها بذلك، فلا تتكشّف الجريمة، ولا يكون للاغتيال صدى استياء بين الناس.. ثم إن تلك الالتفاتة السريعة من قبل الجارية «خالصة» إلى وجود السم، ومنعها الخيزران من الأكل، يقرِّبنا من الاعتقاد بأن الأرزة المسمومة كانت مرسلة من جهة يهمها فقط أن تعتقد الخيزران بأن ابنها موسى الهادي يريد قتلها، فدُبِّرت تلك المسرحية تدبيراً محكماً بالاتفاق مع الجارية المذكورة. ولكن من هي تلك الجهة؟؟

يبدو لنا أن كثرة الرقباء والعيون من الطرفين جعلت الصراع مكشوفاً، فصار كل جانب منهما يعلم سر الجانب الآخر ونواياه إلا ما كان يحرص على إخفائه. وكانت الخيزران كلما توترت الأزمة واتسع شقها، خافت على ابنها هارون الرشيد وحنت عليه من بطش موسى الهادي، حتى عيل صبرها بين رغبة الخليفة ومَنْعِ يحيى الرشيد تلبية طلبه. وصار موسى نفسه يشك في نوايا هذه الكتلة التي تجمعت ضده، فدعا يحيى بن خالد يوماً إليه، وقال له: «يا يحيى، مالي ولك؟؟» قال: «ما يكون من العبد إلى مولاه إلا الطاعة» قال: «فلِمَ تدخل بيني وبين أخي، وتفسده عليَّ؟؟» قال: «من أنا حتى أفسد بينكما؟؟ إنما صيرني المهدي معه، ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره، فانتهيت إلى أمرك» قال الهادي: «فما الذي صنع هارون؟؟» قال: «ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه، ولا عنده»[2].

ومرَّت حقبة قصيرة من الزمن، انشغل فيها الهادي بثورة العلويين التي نشبت في

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٣.

(٢) اليعقوبي: ج٢ ص ٤٩٠.

الحجاز بزعامة «الحسين بن علي بن الحسن» في تلك السنة نفسها (١٦٩ هـ ـ ٧٨٥ م) وانتهت بمقتل العلوي وجماعته في معركة (فخ)، وهرب كل من إدريس بن عبد الله بن الحسن وأخيه يحيى العلويِّين، فتواريا عن الأنظار، وقاما بأعمال سياسية سنتحدث عنها في مواضعها.

وعاد الهادي بعد ذلك من جديد إلى أمر هارون الرشيد، يشدد عليه الخناق ويحيطه بالمشاغبين والألسنة السليطة، كي يرهقه فيخلع نفسه. فجاء هذا إلى يحيى يقول: «لم يبق لي في قوس الصبر منزع، وقد عزمت على التنازل عنها لأخي» فقال يحيى: «استأذنه بالخروج إلى الصيد بمناسبة العيد، فإذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام.. واعلم أن مدة موسى قصيرة، على ما أوجبته قضية المولد»(١).

هذا حديث صريح، يدل على وجود مؤامرة تدبَّر في الخفاء، وقد قرب موعد تنفيذها، لاغتيال موسى الهادي. ويدل أيضاً على أن هارون الرشيد غير مطلع على حقيقة تلك المؤامرة، بدليل إسناد يحيى قوله إلى آراء المنجمين، تمويهاً على الرشيد، الذي كان طوال مناورات يحيى سائراً على سجيته الطيبة بغير خبث منه ولا التواء.

وخرج للصيد في يوم العيد، كما أشار عليه، متجهاً نحو ناحية الأنبار. وتوسط البر، مما يلي (السماوه). وابطأ في صيده نحو أربعين يوماً، فأنكر الهادي أمره، وقلق من غيبته، ثم كتب إليه يأمره بالعودة مسرعاً. فتعلّل الرشيد وماطل، ما زاد موسى غضباً عليه، فراح يتوعده وينال منه ويجاهر بشتمه(٢). فلما طال انتظاره، بعث إلى يحيى بن خالد في مجلسه، فأنَّبه أشد تأنيب، وشتمه وأقذع في شتمه، وقال له: «ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة؟؟ والله لآتين على نفسك ونفسه قبل ذلك»(٣).. ثم أمر بحبسه، فحبس في مكان ضيق لا يستطيع فيه أن يمد رجليه حتى أن يهلك، فتوسط له ابراهيم الحراني عند الهادي، فنقله إلى سجن آخر، وقيل إلى بيت ابراهيم نفسه، ريثما ينظر في أمره(٤).

وفي اليوم الثاني، دعا الهادي رجال خاصته ورؤساء قواده، واستشارهم في خلع

---

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٦٦

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٤.

(٣) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٠.

(٤) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٠.

هارون وإعطاء البيعة لجعفر بن موسى، فقال بعضهم إن هذا لا يتم حتى يخلع الناس كلهم هارون الرشيد، إن لم يخلع هو نفسه طائعاً. وأطاع بعضهم الآخر، فأجابوا في الحال طلب الهادي بالخلع والبيعة، فاختار من بينهم القائد «محمد بن فروخ الأزدي»، وأمره بالسَّير توّاً على رأس جيش كبير ليستنفر من في الجزيرة ومصر والمغرب، فإن لم يذعنوا أعمل السيف فيهم، فسار القائد الأزدي إلى حيث أمره الخليفة، سالكاً طريق الشام[1].

وكانت الخيزران قد سمعت الأخبار منذ بدايتها، فأرسلت إلى الرشيد تطلب إليه العودة عاجلاً، فجاء إلى بغداد، وتوجَّه نحو (عيساباذ) في جانب الرصافة حيث يقيم الخليفة في قصره (الأبيض)، وهو يجهل ما جرى في غيبته تلك. فأخبرته أمه بما حدث، فخرج من عندها يريد مواجهة الهادي، فوجد الناس في الطريق يشيحون بوجوههم عنه، حتى من كان من خاصته.

وبينما هو يمر في طريقه على قنطرة صغيرة، إذ بـ «جعفر بن موسى الهادي» يمر بجانبه ومعه أحد القواد «أبو عصمة»، فلما اقترب منهما صاح أبو عصمة في وجهه صيحة الآمر الغاضب: «مكانك، حتى يجوز ولي العهد» فبهت الرشيد ولم يجب، ووقف حتى اجتاز جعفر القنطرة، ثم تابع سيره، ولم يكن قد أهين قبل اليوم بمثل تلك الإهانة[2].

ودخل على أخيه مسلِّماً، ولا ندري ما دار بينهما من حديث وحوار، سوى أن يكون قد طلب منه خلع نفسه، فتردَّد الرشيد وتعلَّل، فأمر الهادي في الحال بسجنه في بيت خاص بإشراف السجان المشهور «سلامة الأبرش»، وكان هذا سجاناً قبل ذلك للمنصور والمهدي، فأغلق هذا عليه الباب بأمر من الخليفة، ومنع عنه الزيارة. فانقطعت عن الرشيد الأخبار، وأخذته المخاوف من كل جانب.

على أثر ذلك، اجتمع الهادي بعدد من المقربين إليه، من بين حاشيته وقواده، وعرض عليهم فكرة قتل يحيى بن خالد، ما دام مصراً على إفساد هارون ومنعه عن التنازل، وبينما هم مجتمعون، عرضت له حاجة، فقام يريد الدخول إلى قصره، وطلب منهم أن يتداولوا في

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٦٧

(٢) الطبري ج ٣ ص ٦٠٢

الأمر، ولكنه لم يرجع إليهم، وأشيع بأنه مريض في فراشه، ولم يستطع مقابلة أحد. وفي اليوم الثاني، اجتمع المؤيدون للهادي في خلع هارون، وتداولوا بينهم في قتل يحيى، فقال بعضهم: «اذا مات الهادي وتولى هارون الخلافة، قتلنا وزيره يحيى واحداً واحداً، فالرأي أن نعجل به قبل ذلك» وقال آخرون: «قد يفيق موسى من مرضه ويستريح ثم يغيِّر رأيه في قتل يحيى، فما جوابنا عنده إذا علم أننا قد عجلنا عليه قبل أخذ موافقته؟؟» فالرأي أن تتريَّثوا حتى ينكشف لكم الموقف.. فأرجأوا الأمر(١).

يزعم بعض المؤرخين أن يحيى بن خالد جازف في حياته حتى عرَّض نفسه للموت في سبيل خلافة هارون، وهم يشيرون في ذلك إلى هذه الساعة التي عزم الخليفة فيها على قتله، كما تآمر خصومه عليه وكادوا يقتلونه. ولكننا، بعد أن تتبعنا سير الأحداث على الشكل الذي بيَّناه، نعتقد بأن يحيى كان مطمئن البال حتى تلك الساعة، لأن أرصاده وعيونه قد توغلوا في كل مكان، وربما كانوا في ذلك المجلس الذي تآمر عليه، وكانوا هم الذين اقترحوا إرجاء الأمر إلى حين شفاء الهادي، في حين كانت المؤامرة على الهادي قد طوَّقته وأسجته على سريره، فقضت عليه.

وتشير الأخبار إلى أن الخيزران، على أثر إشاعة مرض الهادي، أرسلت إلى يحيى بن خالد في سجنه تقول: «إن الرجل صائر إلى مآبه، وهالك لا محالة، فاستعد لما ينبغي». فبعث يحيى من سجنه إلى ابنه «الفضل» يأمره بأن يجمع الكتّاب، ممن يعتمد عليهم، في بيته، ويكتبوا كتباً باسم الرشيد إلى العمال في الأقطار كافة، يخبرهم فيها بموت أخيه الهادي، ويطلب منهم أخذ البيعة من الناس له، ويأمرهم بالبقاء على أعمالهم وفي أماكنهم، وينصحهم بحفظ الأمن، وإجراء العدل.. ففعل الفضل بن يحيى ما أمره به أبوه، بمساعدة عدد من الكتاب الذين يعملون لحساب آل برمك(٢). وراحوا ينتظرون إعلان خبر الوفاة.

وفي اليوم الثالث من دخول موسى القصر، المصادف لليلة النصف من شهر ربيع الأول عام (١٧٠ هـ ـ ٥ سبتمبر ٧٨٦ م) أعلنت وفاته، بعد أن بعثت الخيزران إلى يحيى من

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٦٧

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٨.

أخرجه من السجن وأخبره بالأمر. فتوجّه في الحال إلى القصر الأبيض، ليتأكد من صحة الخبر، وقيل إنه أول من دخل عليه من الرجال منذ أشيع خبر مرضه حتى توفي، فوجده ميتاً محوَّلاً وجهه إلى الحائط [١].. هنالك، سار مع بعض القواد ومن يواليه من رجال الحاشية، ومن ضمنهم الوزير ابراهيم الحراني، نحو البيت الذي يقيم فيه الرشيد مسجوناً، فوجده نائماً، فأيقظه، فاستفاق مرعوباً، فقال له يحيى: «قم، يا أمير المؤمنين» فنهره الرشيد عن هذا القول، و قال له: «كم تروعني إعجاباً منك بخلافتي، وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل، فإن بلغه هذا فما يكون أمري عنده؟؟»[٢].. قال الرشيد ذلك، وهو لم يدرِ بما جرى، فابتسم يحيى، وقال: «لقد مات الهادي، وهذا خاتمه، وبالباب وزيره الحراني». فنهض من فراشه وأصلح شأنه واتجه إلى حيث الهادي قد سجِّيت جثته بردائه، وحوله الخدم والحاشية، فأمرهم بغسله فغسلوه، ثم صلى عليه ودفنه في بستان قصره[٣]».

روى الطبري، عن أحد الهاشميين الذين عاصروا هذه المأساة، وكانوا على قرب منها، قال: «إن سبب موت الهادي، كان لما جدَّ في خلع هارون، وأخذ البيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزران على هارون منه، دست إليه من جواريها، لما مرض، من قتله بالغمِّ والجلوس على وجهه»[٤].. وأيّد الطبري، في هذا، عدد كبير من المؤرخين.

وسواء أكان الهادي مريضاً قبل اغتياله، أم أنه أطعم شيئاً أودى بحياته، فإن اغتياله خنقاً من قبل الجواري، وبإيعاز من الخيزران، قد أيَّده معظم المؤرخين إن لم يكن كلهم. وسواء أفعلت الخيزران ذلك خوفاً على ابنها هارون من القتل، أم طمعاً في إعادة سلطانها وحقداً على ولدها الذي تمرَّد عليها، فإن يحيى بن خالد هو بطل الرواية أولاً وآخراً.. ولو كان يحيى يعلم بأن الأمر خارج عن إرادته وقبضته، وإن سيف الجلاد سيحزُّ رأسه حتماً، لما تردد ساعة واحدة عن خلع هارون، وبيعة جعفر بن موسى.

(١) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٠.
(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٨.
(٣) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٨.
(٤) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٩.

وليس غريباً أن تختفي معالم هذه الجريمة النكراء، أو يُسْدَل الستار عليها دون أن يسعى وراءها مُطالب، ذلك لأن الحكم انتقل مباشرة إلى أيدي من يهمُّهم إخفاء معالمها، وإسدال الستار عليها. كما ليس غريباً أيضاً أن لا يبدو على الخيزران أي أثر للحزن والتفجع، حين أذيع خبر موت ابنها، ما دامت هي التي نفذت المؤامرة.. وقد جاء في عدة روايات، أن الجارية «خالصة»، إياها، دخلت على الخيزران وهي جالسة بين بعض الهاشميات، فقالت لها: «يا سيدتي، لقد مات موسى» فقالت الخيزران وهي هادئة مطمئنة: «إن مات موسى فقد بقي هارون» ثم دعت بسويق، فشربت وسقت ضيوفها، وطلبت مبلغاً من المال، فوزَّعته عليهن.. كأن بشارة زفت إليها[1].

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٩ ـ مات الهادي وعمره أربعة وعشرون عاماً وبضعة أشهر، تاركاً وراءه سبعة من البنين وابنتين، وكانت مدة خلافته سنة وشهراً وبضعة أيام.

القسم الثالث

بداية خلافة الرشيد

- البيعة بالخلافة للرشيد
- أول الحكم
- ولي عهد الرشيد
- العلويون والرشيد

البيعة بالخلافة للرشيد

كانت ليلة وفاة موسى الهادي ليلة تاريخية ذات أحداث: فيها خرج الرشيد من سجنه، وبويع بالخلافة، وبُشّر بغلام من جارية له فارسية تدعى «مراجل» فسمّاه «عبدالله» وهو الذي عرف، فيما بعد، باسم «المأمون». وقالوا: إنها «ليلة الخلفاء»: مات فيها خليفة، وبويع خليفة، وولد خليفة.

وعند انبلاج صبحها، دفن القوم جثمان الفقيد، واجتمع يحيى بن خالد بالكتّاب، الذين سبق لهم أن حرروا الرسائل إلى عمال الأقاليم بأمر منه، وأعاد النظر فيها، وأرسلها مختومة عن طريق البريد العاجل، إلى جوانب الدولة. ثم أوعز إلى القائد «خزيمة بن خازم» في أن يتوجّه إلى دار جعفر بن موسى الهادي، فأخذه من فراشه، وصعد به إلى مكان مشرف، وطلب منه أن يعلن، للملأ المتحشد حوله، خَلْعَ نفسه من البيعة التي أعطيت له في حياة أبيه، فقال: «يا معشر المسلمين، من كانت لي بيعة في عنقه فقد أحللتها منه، والخلافة لعمّي هارون الرشيد، ولا حقَّ لي فيها..»[1].

وقبل الضحى، توارد كبار الدولة ووجهاء بغداد وأعيانها، من جانبي الرصافة والكرخ، إلى ضاحية «عيسا باذ»، ودخلوا قاعة القصر الأبيض لمبايعة الرشيد.. فقام الكاتب «يوسف بن القاسم بن صبيح» خطيباً، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «.. إن الله عز وجل، استأثر بخليفته موسى الهادي، وولّى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين.. وهو يعدكم من نفسه الرأفة بالناس والعدل، وإحقاق الحق بينهم، ويذود عن أرواحهم وأعراضهم من العصاة المارقين» ثم أشار إلى ما قد عزم الرشيد عليه من توزيع الأعطيات

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٢

بينهم، وأنهى كلمته بقوله: «قوموا إلى بيعتكم، واعطوا صفقة إيمانكم، حاطكم الله وحاط عليكم، وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتولاكم ولاية عباده الصالحين..»[1]. فتقدم للبيعة أمراء بني هاشم، ثم الفقهاء فالعلماء والقواد والكتاب، ومن جاء بعدهم.

وانتهى كل شيء في (عيساباذ)، فاستشار الرشيد يحيى بن خالد في ما ينبغي له فعله بعد الذي جرى، فقال يحيى: «أرى أن تتأخر هنا قليلاً، ويذهب بعضنا إلى بغداد، ليهيِّئ لك الجو فيها، فتدخلها باحتفال يليق بخلافتك»[2]. وربما كان يحيى خائفاً من أن يكون لدى أهل بغداد علم بالمؤامرة والجريمة، أو أن أحداً من أشياع الخليفة المقتول قد تسرب إليها في الظلام، فبثَّ سمومه فيها، فتكون النتيجة وخيمة العاقبة. غير أن الرشيد، الذي كان يجهل ما حدث من أمر أخيه، وهو في السجن، رأى أن لا فائدة من بقائه، فقال: لا والله ما في إقامتي هنا فائدة، ولن أصلِّي الجمعة إلا في مسجد المنصور بمدينة السلام.. ثم أمر بتهيئة الموكب قبل فوات الوقت[3]. وعلمت الخيزران بعزمه فاستعدت هي أيضاً للعودة إلى قصرها بعد وصول ابنها إلى عاصمته[4].

ويتبيّن لنا، أن حالة الرشيد النفسية، في ضحوة ذلك النهار، كانت مضطربة تتجاوب مع حدة مزاجه، وأن مسرات الخلافة والملك لم تُنسِهِ آلامه وأحقاده على تصرفات بعض رجال أخيه تجاهه في الأيام الأخيرة، في عيساباذ، ولا سيما إهانة «أبي عصمة» له على قنطرة الجسر، وتجرُّؤ «سلامة الأبرش» على سجنه والتضييق عليه، وغلظة «ابراهيم الحراني» في الكلام معه لدى مقابلته الأخيرة لأخيه الهادي، في قاعة القصر الأبيض، فعزم على قتلهم ساعة استعداد الموكب للدخول إلى بغداد.

وحاول يحيى بن خالد أن يخفف من جموح عاطفته، وأن يجد بعض الأعذار لهؤلاء، فقال له: إن أبا عصمة كان أهوج في صيحته معك وتقديم جعفر بن موسى عليك، وبإمكانك

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٠١

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٢

(٣) ابن الأثير: ج ٢ ص ١٧٣.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٣

العفو عنه واصطناعه ليكون من خدمك، وما «سلامة الأبرش» إلا مستخدم أمين، أمروه فأطاع، وأما ابراهيم الحراني فلم يكن ضدنا، ولم يستطع أن يحدِّثه عن ابراهيم أكثر من ذلك مخافة افتضاح الجريمة والمؤامرة. فاكتفى الرشيد بسجن الأخيرين، وأمر بقطع رأس أبي عصمة(١).. ثم سار بموكبه نحو بغداد.

وكان خبر وفاة موسى الهادي قد وصلها في أواخر تلك الليلة، لقرب عيساباذ منها، فكانت مفاجأة غير منتظرة، دعت البغداديين إلى التساؤل والاستفهام، وكادت الشائعات والأقاويل تدور في صفوفهم، فتسمِّم الجوّ عندهم، لولا أن باغتهم نبأ قدوم موكب الرشيد، فخفُّوا لاستقباله متناسين كل شيء، وتوزعوا على جوانب الطرقات، ورأسيٍّ الجسر الكبير المتصل بالطريق المؤدي إلى قصر الخلد حيث ينزل الخليفة الجديد(٢).

وظهر الموكب الملكي من جانب الرصافة، فاستقبلته الجماهير بالهتاف والتهليل والتكبير، وعلت زغاريد النساء من شرفات المقاصير وسطوح الدور، فكان أشبه بمهرجان شعبي، لم تَرَ مثله بغداد إلا يوم جاءها الرشيد نفسه من غزوته للقسطنطينية في عهد أبيه، قبل بضعة أعوام.. واقترب الموكب من الجسر، تتقدمه كتيبة أبناء الأنصار، بسيوفهم المشهورة وجيادهم المطهَّمة، وألبستهم السوداء المزركشة بالذهب والفضة، ثم عدد كبير من كبار شخصيات بني العباس، يتوسطهم أمير المؤمنين، في حلة سوداء، على فرس أبيض مطهَّم بلجام وسرج من صنع فارس، وسيف رُصِّع غمده بأثمن الجواهر، وهو يحيِّي الناس بابتسامة رقيقة، في وجه وسيم الطلعة، وقامة معتدلة، كأجمل ما يكون الشباب في عامه الثالث والعشرين(٣). ويليه القواد والفقهاء والقضاة والعلماء ورجال الحاشية الآخرون.

ويقول الطبري في إحدى رواياته: إن الرشيد تخطَّى عتبة الجسر في موكبه هذا،

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٤٠٩ ـ علمنا فيما بعد أن يحيى بن خالد تشفّع لصاحبه ابراهيم الحراني فأخرجه من سجنه، وردَّ أمواله إليه، وولاّه عملاً خارج بغداد لكي لا يكون أمام نظر الرشيد، وفاء منه لخدماته السابقة. ثم إن الرشيد أطلق سراح سلامة الأبرش، وجعله سجاناً في المطبق كما كان في عهد جده وأبيه وأخيه.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٤.

وقارب القنطرة الوسطى منه، ثم أمر بالتوقّف، فتوقّف الموكب، وران على الجموع صمت رهيب، فأشار الخليفة بيده إلى موضع في النهر، حيث كان قد رمى خاتم أبيه الذي أراد الهادي اغتصابه منه، وقد ذكرنا قصته، فأسرع عدد من الخدم والعبيد إلى الماء. وفي لحظات معدودات، خرج أحدهم وفي يده الخاتم، فقدمه إلى الرشيد فأعاده إلى إصبعه، واستأنف سيره إلى غايته، في دهشة من الناس، وتفاؤل عظيم بالحادث[١].

وحان موعد صلاة الجمعة، فخرج من قصر الخلد إلى مسجد مدينة السلام في موكب أكثر ضخامة من موكبه الأول، وصلّى إماماً بالناس، ثم جلس بعدها على أريكته في صحن الجامع، فتقدم لبيعته من لم يكن حاضراً من علية القوم في عيساباذ. وانقضى ذلك النهار في مبايعة ومهرجانات شعبية، حتى أسدل الليل أستاره[٢].

وكان الغد، فجلس في قصره مجلساً عاماً حضره أساطين مملكته ممن كان في بغداد أو التحق بها في الأمس. ثم دعا بيحيى البرمكي أمامهم، فقلّده منصب الوزارة، وأعطاه الخاتم، وقال له: «يا أبتي، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلّدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك. فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء»[٣].. فقام أحد الشعراء الحاضرين، وأنشد بين يديه قصيدة يقول فيها:

ألم تَرَ أنَّ الشمسَ كانت مريضةً ... فلمّا وُلِّي هارون أشرقَ نورُها

وألبستِ الدنيا جمالاً بوجهِهِ ... فهارون واليها ويحيى وزيرُها

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٤٠٩ ـ لا نعتقد بحدوث أمر الخاتم هذا على الشكل الذي رواه الطبري، وربما كان له شكل آخر، إذ لا يعقل أن يتوقف الموكب منتظراً إيجاده في تلك اللحظة وهو في قعر النهر، وقد ترسبت عليه الرمال وطمرة الطين بحكم تلك الأشهر المنصرمة على إلقائه. وإذا صحّت الرواية على شكلها؛ فلا يبعد أن يكون ذلك أمراً مصطنعاً دبّره يحيى بن خالد مع الرشيد ليشغل الناس عن أشياء أخرى، ويجعلهم يتفاءلون بأيام الرشيد المقبلة.. وهي في الحقيقة فكرة لبقة.

(٢) الإمامة والسياسة ٢ ص ٣٩٢.

(٣) الطبري: ج٣ ص ٩٠٣.

فأمر له بجائزة سنية، كانت أول جائزة يعطيها لشاعر في خلافته[1].

ولم يكتفِ بما قدم ليحيى بن خالد في تلك الجلسة، حتى عاد فقلَّده لقب «الأمير»، ولم يكن أحد من الخلفاء السابقين قد فعل ذلك مع وزير من وزرائه. وهكذا كان يحيى أول من لُقِّب «أميراً» من الوزراء الفرس في دولة بني العباس[2].

كان هارون أصغر سناً من الخلفاء العباسيين الذين سبقوه، وهو، كما رأينا، لم يَذُقْ من عنت الأيام ومحنها كما ذاق أسلافه، فلم تصقله التجارب والصعاب كما صقلت جدّه المنصور مثلا، ولم يتدرب على يد صارمة متقشفة كالتي دربت أباه المهدي، ولم يأتمر به القريب والبعيد كما ائتمروا بأخيه موسى الهادي.. ولكنه ولد في أحضان العناية والدلال، تحت أجنحة أبوين رحيمين به، عطوفين عليه، يكفيانه كل أمر يهمه، بغير نكد ولا سهر، ثم شبَّ صبياً مرحاً احتضنته الأيدي وامتدت متبرعة لخدمته، فغزا وانتصر وهو صغير لم يطارد في غارة ولم يقارع عدواً إلا بمقدار، واعتبر غازياً فاتحاً حتى غطى اسمه على أسماء قواد جيوشه يوم جهاده. ووُلِّي إدارة نصف دولة أبيه، دون أن يشقى ساعة واحدة في سبيل تلك الإدارة التي جاءت موفقة كل التوفيق. ثم أُريدَ له أن يتولى الخلافة قبل أخيه، فقامت من أجل ذلك متاعب ومشاكل ومؤامرات ارتُكبت فيها أبشع الجرائم، دون أن يشترك فيها أو يلوِّث يده بدمها، وربما كان يجهل جلَّ أسرارها ومناوراتها الخفية، إن لم يكن كلها. وأخيراً تبوّأ العرش دون أن يبذل جهداً يذكر في سبيل الوصول إليه.

على هذا المركب السهل اجتاز طريقه إلى المجد، فوصله وصدره مليء بحسن الظن في الناس جميعاً، دون ريبة تخالجه من كيد الساسة الطامحين، ولا حذر يساوره من عواقب الدهر إلا بمقدار. وليس غريباً إذن أن نقول إنّ مدرسة الحياة عند الرشيد قد بدأت ببداية خلافته، بيد أنها كانت، كما سنرى، مدرسة صعبة، دروسها شاقة، صقلت بأحداثها المتزاحمة جوهره، وثقّفت عوده، وجلت مواهبه الطبيعية في وقت قصير.

---

(١) الأغاني : ج٥ ص ٤٠.

(٢) الجهشياري : ١٧٧ ـ ربما كان إعطاؤه لقب الإمارة في غير هذا المجلس.

أول الحكم

تناول البرمكي خاتم الوزارة، ثم تلفَّت حوله، فلم يجد بين الساسة القدماء نداً له، أو مزاحماً يخشى نفوذه عند صاحب التاج ربيب يده، أو طامعاً يريد مشاركته في تصريف شؤون الدولة الإسلامية كلها. اللهم إلا الخيزران، هذه المرأة التي كانت تهوى التدخل في الشؤون العامة، وها هي الآن تعود إلى سابق عهدها أيام زوجها، وربما إلى أكثر من ذلك، ولشعورها بواجب الإشراف على سير الحكم في مملكة ابنها الشاب، الذي ما زال قليل الخبرة والتجارب في مصائر الأمور.

ولم يجد يحيى بداً من مسايرتها وتحقيق رغباتها، ليس وفاء منه لأياديها التي سلفت عليه، وتضحياتها بأعز ما لديها في سبيل تنفيذ خططه ومؤامراته فحسب، بل لأنه ما زال حتى الساعة في حاجة إليها، لتضمن له جانب القصر، وتحول دون دخول الوشاة والخصوم إليه فيبعثوا آراءهم السامة في أذنَيّ الرشيد، فيتغير عليه في يوم ما.. وماذا يضيره لو استشارها في معالجة المشاكل البارزة، أو صدر عن أمرها بعد أن يوجهه إلى حيث يريد، ثم يستقل بالتصرف في الأمور الأخرى من المسائل الحيوية؟؟ ومن أخبر من يحيى بأساليب إقناعها وجعلها أطوع من بنانه[1]؟؟

تقول المصادر التاريخية: إنه كان يستشيرها، ويصدر عن أمرها[2]، ولكن الروايات التي تؤيد ذلك، ترينا أنه كان لا يصدر إلا عن أمره بعد أن يقنعها بلباقته المعهودة، وهي لم تكن تعارضه في شيء. وكان يعلم أنها تحب جمع المال، فأغدقه عليها دون حساب،

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٠٤

(٢) الطبري ج ٣ ص ٦٠٤

واشترى لها القرى والبساتين والمستغلات التي كانت تهشُّ لها، فتضخمت ممتلكاتها، وبلغ ريعها ما يقرب من خُمْسِ واردات الدولة، وقيل أكثر من ذاك[1]. وهكذا وجد كل منهما في صاحبه خير عون وسند يدعم أسباب نجاحه في ما يستهدفه من غايات شخصية وسياسية.

ووجد الرشيد، وهو في مقتبل العمر، بقاء وزيره الخبير المجرّب ضماناً له من الأخطار والعثرات، ومساعداً يغنيه عن السهر والمتاعب الفكرية، فألقى العبء كله على عاتقه، ومنحه تلك السلطة المطلقة، والثقة العمياء التي لا يشوبها لا حذر ولا ريب. ورأى في إشراف أمه الخيزران وقاية لشخصه وسياجاً لعرشه من الزعازع والأخطار، فأسند إليها زمامه وسار في ركابها، حتى ضاعت شخصيته بين طموحها ودهاء الوزير، وانصرف هو إلى ممارسة هواياته المحببة من غزو وحج ومجالسة الفقهاء والعلماء، ومنادمة الأدباء والشعراء، وسماع المغنين والعازفين والمتندرين في أوقات فراغه.

ولكي يضمن يحيى بقاء الرشيد على هذا المنوال، ودوام ثقته به، حجبه عن مقابلة الناس وحده، فأنزل ولديه الفضل وجعفر البرمكيين في رحبة من رحاب قصر الخلد، ليكونا إلى جانبه، ويقيما معه إذا أقام، ويرحلا إذا رحل، ولا يتركانه ساعة واحدة خارج قصره دون أن يكون أحدهما أو كلاهما معه. ثم وضع على حجابته أخاه محمد بن خالد ليدير شؤون مجالسه، ويحضر اجتماعاته فيها مع الزائرين[2].. وبذلك استطاع أن يُحْكِمَ النطاق حوله، ويسد على الخصوم المنافذ إلى شخصه.

كان هذا، والرشيد في حلم لذيذ، وغمرة من المتعة، ولم يشعر بأي حرج من ذلك التطويق المحكم، لأنه كان يحب الفضل وجعفر، أخويه بالرضاعة، منذ الصغر، وقد نشأ معهما في فترات متعاقبة من طفولته وصبوته، ويميل إلى محمد بن خالد، حاجبه، كل الميل، ولا يستثقله.

ولم يكد يحيى يستلم زمام الوزارة، حتى ضمَّ معها دواوين الدولة كلها، عدا «ديوان

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢ ص ٣٥

(٢) الجهشياري: ١٧٨ ـ تولى محمد بن خالد الحجابة عام ١٧٢ هـ.

الخاتم» فإنه أُعطي لأبي العباس «الفضل بن سليمان الطوسي» وهو رجل من خلصاء بلاط بني العباس، وممن أكسبته الأيام خبرة بالرجال، وكان قد أُعطي هذا الديوان في عهد أبي جعفر المنصور وبقي كذلك زمناً في عهدَي المهدي والهادي، ولما تولى الرشيد أبقاه على عمله[1].

ويبدو أن الطوسي هذا لم يشأ أن يؤيد يحيى في كل تصرفاته، فلم يكن يعجل بتوقيع الأختام على كل ما كان يقدمه له من الرسائل باسم الرشيد، وربما تأخر بعض الشيء في ما لم يكن من رأيه، فشكا يحيى ذلك إلى الرشيد الذي لم يخوله إلا أن يكاتب العمال عن نفسه في الشؤون الاعتيادية، وألاّ يختم إلا المهم منها. غير أن الفضل بن سليمان توفي بعد زمن قليل، فأخذ يحيى بيديه خاتم الخلافة أيضاً، وأصبح يتصرف وحده في كل شيء ولا يطلع الرشيد وأمه إلا على ما يتعلق بسياسة الدولة العليا، أو ما كان يثير اهتمامهما في قليل من الأمور[2].

وكان أول عمل قام به الرشيد، بإشراف وزيره طبعاً، دعوته لمن كان يدير دواوين الحسابات وبيت المال في عهد سلفه، ليرى ما في خزائن الدولة من نقد، فوجدها فقيرة، قد بدَّد معظمها كرم المهدي وعطاؤه، وزادها إفقاراً تبذير موسى الهادي وبذخه[3]. فلم يعبأ بذلك، وأمر بأن تعاد الضياع والأراضي التي كان قد اغتصبها أهل بيته ، في عهد أسلافه، إلى أصحابها، وأن تردَّ الأموال المحفوظة إلى أهلها في مختلف النواحي، وأن تقسَّم أموال ذوي القربى بين بني هاشم كلهم بالعدل[4].. فكان لهذه البادرة السياسية الطيبة أثرها في نفوس الناس.

واقتفى، في المجال السياسي، خطوات أبيه، فأصدر العفو عن المحكومين، وأمن الهاربين من المتهمين، باستثناء الزنادقة والمجرمين منهم، ومن كان في عنقه حق الغير.

---

(١) الجهشياري ١٧٧

(٢) الجهشياري :١٧٨.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي : ج ٣ ص ١٠٨.

(٤) الطبري : ج ٣ ص ٤٠٤.

فكان ممَّن أخرج من سجن (المطبق) يعقوب بن داود الذي كان وزيراً للمنصور فسجنه لميله إلى العلويين ثم أخرجه المهدي فاستوزره ولكنه تأكد من انحرافه عن بني العباس وميله إلى خصومهم، فزجَّه ثانية في السجن، حتى أخرجه الرشيد، وقد شاخ وعَمِي. فأمر بإحضاره فأُحضر، وقيل له: سلِّم على أمير المؤمنين، فسلَّم. فقال له الرشيد: أيٌّ أمير المؤمنين أنا ؟؟ قال المهدي. قال: رحم الله المهدي. قال: فالهادي !! قال رحم الله الهادي. قال: فهارون الرشيد !! قال: نعم، سَلْ حاجتك يا يعقوب، فإني أريد أن أبُرَّك وأكرمك. قال: يا أمير المؤمنين، ما بقي في مستمتع ولا بلاغ، وأحب المقام في مكة. قال: قد أمرنا لك بمال يكفيك، وبإيصالك إلى غايتك معززاً، وأجرينا عليك راتباً تعيش منه حتى آخر يوم من حياتك. فودَّعه شاكراً وانصرف(١).

وكان موسى الهادي قد نفى، على أثر معركة فخ، عدداً من العلويين إلى بغداد، وأجبرهم على السكن فيها، وسجن بعضهم، فأخرج الرشيد من كان منهم في السجن، وسمح للباقين بالعودة إلى موطنهم في المدينة، وأجرى لهم الرواتب، ولم يستثنِ سوى «العباس بن الحسن» خوفاً من نشاطه وتمرده. فوقع ذلك في نفوس الناس وشيعتهم موقعاً حسناً (٢).

وهناك رواية تقول: إن الرشيد رأى النبي ﷺ في منامه، قبل أن يكون خليفة، فقال له: «إن هذا الأمر صائر إليك، فاغْزُ وحِجَّ، ووسِّع على أهل الحرمين»(٣) فآلى منذ ذلك اليوم أن يحج ويغزو كلما سنحت له الفرصة. ولمّا تولى المُلك تذكر الرؤيا، فلم ينتظر حتى جهز جيشاً كبيراً وزحف نحو بلاد الروم، وتوغل في أراضيهم، وانتصر في حملة قصيرة. ثم عاد ليدرك موسم الحج للعام نفسه، فوصل بغداد في شهر شوال من عام (١٧٠ هـ ــ ٧٨٦م)، ولدى وصوله بُشِّر بغلام له من زبيدة بنت جعفر، وهو الولد البكر لها، ففرح به وسمَّاه «محمداً» تيمُّناً باسم أبيه، وقد عرف، فيما بعد، باسم محمد الأمين.

ولم يُطِل إقامته في بغداد؛ فزحف بموكب جليل يضم عدداً كبيراً من وجهاء دولته

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٤٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦١٧

(٣) تاريخ الخلفاء: ١١٤.

وعلماء بغداد وفقهائها، نحو أرض الحجاز عن طريق الكوفة، فوصلها، وقسَّم في أهل الحرمين أموالاً وصدقات كثيرة، وقفل بعد أداء فريضة الحج إلى عاصمته، فكان أول خليفة غزا وحج في عام واحد، فانطلقت بذلك أَلْسُنُ الشعراء، وقال أحدهم وهو«داود بن رزين»:

بهارون لاحَ النورُ في كلِّ بلدةٍ ... وقامَ بِها في عَدْلِ سيرتِهِ النَّهجُ

إمامٌ بذاتِ الله اصبحَ شغلُهُ ... وأكثَرُ ما يُعنَى بهِ الغزوُ والحجُّ

تضيقُ عيونُ الناسِ عن نورِ وجهِهِ ... إذا ما بدا للناسِ منظرُهُ البَلْجُ

وإنَّ أمينَ اللهِ هارونَ ذا النَّدى ... يُنيلُ الذي يَرجُوه أضعافَ ما يَرجو

واقتضت السياسة إجراء تطهير في جهاز الإدارة، من عناصر لا يرتاح لها الوضع الجديد، إما لولائها للعهد الماضي، وإما لعدم ارتياحها من مجيء البرامكة مع الرشيد[١]. فصدرت الأوامر بتبديلات واسعة النطاق في كل من مكة والمدينة والطائف والكوفة وخراسان وأرمينية والجزيرة والموصل وشمال أفريقيا[٢].. حتى إذا ما انتهى كل ذلك، اجتمع الرشيد ويحيى للنظر في أمر أولئك الرجال الذين آزروا الهادي ضدهما، فخلع بعضهم البيعة وأعطاها لجعفر بن موسى، وشاغب الآخرون مع من شاغب ودس على يحيى بن خالد وأثار موسى عليه. وبينما هما في اجتماعهما ذاك، أرسلت الخيزران إليهما تقول: «إني أرى أن يقتل كل من شرع إلى خلع هارون، ودعا إلى بيعة جعفر» فأجابها يحيى: «هنالك خير من ذلك إن أردت، وهو أن نرمي بهؤلاء في نحور الأعداء، فإن دافعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل، وإن أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم» فاستحسنت الرأي[٣].

والحقُّ أنه كان رأياً صائباً، يدل على رجاحة عقل واتزان، لأن عدد هؤلاء كان كبيراً،

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٧٥.

(٢) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٧٠.

(٣) الجهشياري: ١٧٨

وجلّهم من صفوة الناس، وفيهم الأمير والقائد والوزير والحاجب، وليس من الحكمة إثارتهم واستفزاز أعوانهم، وبعضهم من قبائل عربية لها شكيمتها، وتستطيع أن تجرًّ من أجلهم ذيولا من المتاعب والمشاكل. وأكثر من هذا، فقد كان الرشيد يكنّ لبعض هؤلاء صداقة واحتراماً، وهو يعلم بأنهم أطاعوا أوامر موسى ليس كرهاً لهارون، بل عداء ليحيى ابن خالد: إما لشعوبيته وتعصُّبه لقومه الفرس، وإما حنقاً عليه لتلك المؤامرات الدامية التي خاضها في سبيل تحقيق طموحه، أو لأسباب شخصية أخرى.

لكن يحيى يعرف خصومه واحداً واحداً، ويعلم مقدار عداوة كل منهم له، وأسباب ذلك العداء، ولا يجهل ميزان أحدهم في قومه، وأساليب خصومته، وكيف يمكنه معاملته، ولا نظن أنه أطلع هارون على كل هذه الأسرار، لأنه في مثل هذا الموقف، أكثر الناس جدارة، بمعرفة قضاء حوائجه سراً.

كان القائد «محمد بن فروخ الأزدي» في طليعة المغضوب عليهم، لا لأنه بكَّر قبل غيره في تأييد موسى الهادي، وزحف بجيشه نحو شرق الدولة يتحدى الناس بالسيف أو خلع هارون فحسب، بل لأنه كان من أكثر القواد العرب جرأةً على التظاهر ضد شعوبية آل برمك، وتصرفات يحيى الأخيرة التي أقامت البلاط العباسي وأقعدته ثلاثة أعوام.

وكان من أمر هذا القائد أن تلقَّى نبأ وفاة موسى، وهو في طريقه إلى الشام، للعمل على خلع هارون، فتوقف عن أداء رسالته، وعاد إلى معسكره في نواحي الجزيرة، فأبقاه يحيى على عمله ولم يستفزه. وصادف بعد بضعة أشهر، أن ثار «الصحصح» الخارجي في إقليم الموصل، وتعاظم أمره وقويت شوكته، فأرسل الرشيد، باستشارة من يحيى، إلى محمد بن فروخ يطلب منه أن يزحف لتأديب الخوارج، فزحف وقاتلهم، لكنه لم يصمد أمام جلادهم وكثرتهم، فهرب من الميدان بعد مجزرة دامية، فَحُسِبَ ذلك عليه فراراً من الزحف، فاستدعي إلى بغداد، وحوكم، ثم قطع رأسه في قصر الخلد[1].

ولهذا القائد الأزدي زميل آخر، أثقل منه وزناً، وأبعد مرمى السهم، هو «يزيد بن مزيد الشيباني» الذي أطلق عليه المهدي لقب «الأعرابي» لتمسكه ببداوته، ونفوره من ميوعة تلك

(١) الطبري: ج٣ ص ٦٢١ ـ كان مقتل محمد بن فروخ الأزدي أوائل العام ١٧١ هـ.

الحضارة الجديدة ذات الطابع الفارسي. هذه الشخصية العسكرية الجبارة التي قادت جيش هارون إلى أبواب القسطنطينية، ومشت بعكسر موسى الهادي إلى سحق ثورة «وندا هرمز» في جبال طبرستان وجرجان الشاهقة، لم ترتح لسياسة يحيى البرمكي. فكان يزيد من مؤيدي الهادي، وممن خلع هارون، وأشار إلى قتل يحيى ليلة كان في سجنه. وقد حاول يحيى أن يوقع به عند الرشيد، ولكنه لم يستطع لمكانته المنيعة من قومه، ولأن الرشيد نفسه يحبه ويحفظ له ذكريات طيبة رائعة. وبقي العداء بين البرامكة وبينه حتى النهاية، فلم يتركوا كريهة من المخاطر إلا زجّوه فيها، كما سنرى، وكان يخرج منها غالباً ساخراً بخصومه، حتى داهمه الأجل المحتوم[1].

وكان أهم من أدّى الأدوار الخطيرة من بين رجال الإدارة والسياسة ضد يحيى بن خالد، قبل تولي هارون الملك وبعده، اثنان هما: «الفضل بن الربيع بن يونس» و «علي بن عيسى بن ماهان».

أما الفضل بن الربيع، فقد كان أبوه وزيراً للمنصور، ومن أحب وزرائه إليه، وأصوبهم رأياً، وأحسنهم تدبيراً. سأله المنصور يوماً: ألك حاجة فأقضيها لك ؟؟ قال حاجتي يا أمير المؤمنين أن تحب ابني الفضل. قال: ويحك، إن المحبة لا تقع ابتداء وإنما تقع بأسباب، قال الربيع: قد أوجدك الله السبيل إليها، وما ذاك ؟؟ قال: تنعم عليه، فإذا أنعمت عليه أحبك، فإذا أحبك أحببته، قال: ولكن كيف اخترت له المحبة من سائر الأشياء ؟؟ قال: لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت حاجاته عندك مقضية، وذنوبه عندك مغفورة[2].. فولاّه المنصور حجابته[3].

وفي عهد المهدي كان الربيع رئيساً لديوان الأزمة، ثم وزيراً، والتحق الفضل ابنه بحاشية موسى الهادي بحكم الصداقة التي تربطه بوزيره أبان بن صدقة. ولمّا تولى الهادي الخلافة صار حاجبه، ثم وزيراً له إلى جانب ابراهيم الحراني، فكان من ألّد الناقمين على يحيى بن خالد، وأكثرهم شغباً عليه، وأشدّهم تحذيراً لموسى الهادي من نتائج

(١) الطبري: أنظر عام ١٧١

(٢) الجهشياري: ١٣٥

(٣) الجهشياري ١٢٥

مناورات هذا البرمكي... لكنه لم يكن ضد هارون الرشيد، بل كان أكثر الناس تقرُّباً إلى نفسه، ويجمع بينه وبين زبيدة وئام وصفاء، فقد كانت ترعى له خدماته وإخلاصه لجدِّها ولها، يوم كانت طفلة في حضن المنصور.

غير أن الخيزران كانت تمقت الفضل مقتاً شديداً لأسباب نجهلها، وربما كان ذلك بتأثيرات يحيى بن خالد عن طريق إيصال الأخبار إليها يوم اشتدت الأزمة بين ولديها على الخلافة. فلما تولّى الرشيد الخلافة، أراد أن يقرب الفضل إلى المناصب، فكانت الخيزران تحول دون ذلك وتعارض فيه، على العكس من زبيدة التي كانت تريد إكرامه وتقريبه من زوجها، لثقتها به وعطفها عليه. ولكن أمر الخيزران كان هو الغالب، فبقي الرجل مبعداً عن البلاط حتى ماتت سيدة القصر هذه وتغيّرت الأحوال كما سنرى.

وأما «علي بن عيسى بن ماهان» فكان فارسي الأصل، ومن أولاد دعاة الدعوة العباسية، وأحد قواد الجيوش، ظهر على مسرح السياسة في عهد أبي جعفر المنصور، وكان معه في موكبه حين توفي قرب مكة، ومن الذين ساعدوا الربيع بن يونس في أخذ البيعة للمهدي من رجال ذلك الموكب وممن كان في مكة من الحجيج. فقرَّبه المهدي منه وولاّه بعض المناصب، ثم ألحقه بابنه موسى الهادي، فصار من حاشيته وخلصائه وسار معه إلى (جرجان) لإخماد ثورة «وندا هرمز»، كما بينا، ولمّا تولى الهادي الخلافة جعله على ديوان الجند[1].

كان بين هذا الرجل وآل برمك كره وعداء شديد، نجهل سببهما، ولكننا نعلم أن البرامكة كانوا يسلقونه بألسنة حداد، ويهاجمونه في كل مناسبة، كما كان هو يهاجمهم وينال منهم[2]. وعندما تأزمت الأمور بين موسى وهارون، انحاز إلى جانب خليفته، وخلع هارون وبايع جعفراً، ولم يألُ جهداً في كشف مساوىء يحيى بن خالد أمام حاشية البلاط في تلك الآونة. حتى إذا تبدلت الأمور وبويع الرشيد بالخلافة جاءه معتذراً لشخصه، عارضاً خضوعه وولاءه له لا ليحيى خصمه، فكان جزاؤه بعد ذلك كله، إقصاءه عن المناصب أعواماً طويلة، حتى كان من أمره ما سوف نعرضه لاحقاً.

(١) الجهشياري: ١٦٧.

(٢) الجهشياري: ٢٠٥.

إلى جانب هؤلاء نجد «عبد الملك بن صالح» وهو شخصية كبيرة من أمراء بني العباس، ومن أَنْبَه أبناء عشيرته ذكراً، وأرفعهم مكانة عند الناس لتقواه وشجاعته وبلاغة بيانه فوق أعواد المنابر. ولم يكن ممن أيَّد الهادي ضد الرشيد في خصامهما، ولكنه لجلالة شأنه وعدم ارتياحه لوضع الدولة في أيدي شباب صغار تتدخل في شؤونهم النساء، اتهم بأنه يطمح إلى الخلافة، وقد يكون الأمر عنده كذلك، ولكن الأبواب كانت موصدة دونه.. كما كان من أشد الكارهين لآل برمك وليحيى بوجه خاص، فقد رأى عبثه في بيت الخلافة، ولم يكن يرضى لهذا الفارسي أن يصبح سيداً مطلقاً في مملكة بني أبيه. وعبد الملك هذا عربي شديد النزعة إلى قوميته ضد الشعوبية التي بدأت تلتف حول عرش بني العباس، وتأخذ على يده.

وكان الرشيد يعلم بحال عبد الملك، ويعرف ما عنده، وربما زاده يحيى نفوراً عنه وحذراً منه، ولكن قربه من بيت الخلافة، ومواهبه التي تفرض على الناس تقديره والإعجاب به، جعل الرشيد في حَيْرَةٍ من أمره تجاهه: يغضب عليه تارة، ويسترضيه تارة أخرى. ولم يكن عبد الملك يجهل مدى تأثير آل برمك على الرشيد ضده، فيحاول جاهداً ألاَّ يصطدم بهم، حتى تطورت الأحوال، فيما بعد، فصار صديقاً لهم، وانتهى تاريخه بالشكل الذي سنفصله في أواخر هذا الكتاب(١).

وهناك، نفر آخر من أمراء بني هاشم، لم يرتح لهم يحيى البرمكي، أمثال موسى بن عيسى وجعفر بن سليمان، غير أن الرشيد لم يشأ ضرب أحد منهم لحرصه على وحدة بني العباس، وعدم رغبته في تمزيق صفوفهم، وهو في حاجة إلى تأييدهم ومساعدتهم في الأزمات على مدى الأيام.

كانت هذه التصفيات الإدارية والسياسية تسير جنباً إلى جنب مع الإصلاحات الأخرى والتطورات العمرانية والفكرية التي بوشر بها منذ الأعوام الأولى على نطاق واسع فقد عزلت (الثغور) عن صقعَيٍّ الجزيرة وقنسرين، وجعلت حيِّزاً واحداً مستقلاً سمِّي (العواصم) أي القلاع والمدن التي يعتصم بها الجند المعدُّ في كل ساعة للجهاد، والتي أصبحت حدوداً عسكرية ثابتة للدولة، يغزو منها المسلمون بلاد الروم في كل عام

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٧٨.

دون انقطاع، بعد أن كانت حدوداً تمتد وتتقلص بحسب الغارات التي كانت تُشَنُّ من المسلمين وجيوش الروم[1].

وفي عام (١٧٠ هـ ـ ٧٨٦ م) أمر الرشيد خادمه «سليمان بن فرج التركي» أن يبني مدينة (طرسوس) على ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي كان يُعرف، يومئذ، باسم بحر الروم، لتكون نقطة انطلاق لجهاد المسلمين من البر والبحر. فبناها سليمان وعمَّرها، وسكنها الناس، وأصبحت مدينة ذات شأن ومركزاً مهماً جداً من مراكز الجهاد[2]. فضلاً عن مراكز أخرى من قلاع وقرى كثيرة مثل (الهارونية) وغيرها شُيِّدت في هذا العهد وكانت كلها على حدود الروم، إذ كانت دولتهم «البيزنتية» أخطر عدوّ لدولة الرشيد.

واعتُنِيَ في داخل البلاد بأمر الزراعة وتوسيع نطاقها، فبنت الحكومة جسوراً وقناطر كثيرة، وحفرت الترع والجداول التي تصل بين الأنهار حتى أصبحت بلاد الرافدين شبكة من المياه تعكف عليها الحقول والمزارع والبساتين.. وقد وضع ديوان خاص لتلك الأعمال الإصلاحية، ورُفِعَتِ الزيادات من الضرائب عن كاهل الفلاحين تقوية لهم[3].

كما اعتُنِي بتشجيع الصناعات المتنوعة في الأقاليم المختلفة، وحُرِست طرق التجارة بين المدن والجهات البعيدة، ونُظِّمت تنظيماً جديداً، فعمَّ الرفاه في أنحاء الدولة، وتواردت ثروات الخراج والضرائب وغيرها على بيت المال حتى غمرته.

وفي تلك الأثناء، كان الرشيد يفكر ببناء مصيف له، يأوي إليه حين يشتد حرُّ الصيف في بغداد التي كان يسميها في هذا الموسم «مدينة البخار»[4]. فاتَّجه أولاً نحو (مرج القلعة) بين حلوان وهمدان، فنزله، ولكنه مرض فيه فغادره إلى عاصمته. ثم صعد إلى الشمال، ووصل (جزيرة ابن عمر) فبنى في أحد أعمالها (باقردى وبازبدى) قصراً جميلاً، قال فيه أحد الشعراء:

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٨

(٢) معجم البلدان ـ كلمة طرسوس.

(٣) الطبري ج ٣ ص ٦٠٧

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٧

(بقردى وبازبدى) مصيفٌ ومربعٌ وعذبٌ يحاكي السلسبيلَ بـــرودُ

وبغـــدادُ مـــا بغدادُ أمّـــا ترابُهـــا فخـرؤٌ وأمّا حَرُّهـا فشديـــدُ(١)

لكن بُعْدَ هذا المصيف عن عاصمة الدولة جعله يتخلى عن القصر، ويكتفي أخيراً بمدينة (الرافقة) التي بناها أبوه بجانب الرقة، فعمّر فيها قصراً عظيماً سمّاه (قصر السلام) وأوعز إلى بعض رجال دولته أن يبنوا قصورهم إلى جانبه، ففعلوا، ثم أمر بإنشاء كل ما يلزم فيها من وسائل الراحة والترف، كميادين سباق الخيل، وملاعب الصولجان، وحقول الصيد، وموانئ السفن والحراقات، والمتنزهات الواسعة، والحدائق المزهرة على ضفّتَي الفرات، حتى أصبحت من أجمل مصايف الدنيا.

هكذا عاش هارون الرشيد في الأعوام الأربعة الأولى من خلافته، في دعة وخلوّ بال، وغزوٍ وحجٍّ وأسفارٍ وتنقُّلٍ في البلاد، تاركاً أمر دولته بين يدي وزيره البرمكي، وإشراف أمه واستشارتها، الرمزية طبعاً، حتى كان شهر جمادى الآخرة من عام (١٧٣ هـ ـ ٧٨٩م)، فبدأت السفينة التي سارت به رخاء تهتز وتضطرب لأول مرة: ماتت أمه الخيزران، وترمّلت أخته «العباسة بنت المهدي» في يوم واحد أو يومين متقاربين.

كانت أخته العباسة في عصمة الأمير «محمد بن سليمان الهاشمي» عامل البصرة والأهواز وفارس والبحرين منذ خلافة المهدي.. وقد كان بخيلاً يظلم الناس ويسلب الأموال، حتى تجمّعت بين يديه ثروات طائلة، وأصبح أكثر الأشخاص ثراءً في دولة بني العباس بعد الخيزران. ولم يجرؤ أحد على محاسبته، لقربه من بيت الخلافة ومصاهرته له، لكن أخاه جعفر بن سليمان، كان يكرهه ويشي به ويكتب للرشيد قائلاً: «إنه يجمع المال والسلاح ليثور على الدولة» إلا أنه لم يجد عنده أذناً صاغية، لعلم الرشيد بكذبه. ولمّا مات محمد ولم يترك ولداً يرثه، أرسل من أحصى تركته، فوجدها ستين ألف ألف دينار، فضمّها إلى خزائنه، واستصفى الضياع والعقار، ووزع العروض على الحاشية والندماء(٢) وحرم أخاه جعفراً من الإرث محتجّاً بوشايته به، ورسائله التي كان يتهمه بها ويقول فيها

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦١

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦١١

إنه يريد الثورة والعصيان، ومن أراد ذلك فأمواله حِلٌ للخليفة[1]. وعادت العباسة إلى جانب أخيها، وسكنت قصر زوجها المتوفى، وأقامت فيه حتى تزوجت ثانية بالأمير «ابراهيم بن صالح بن علي العباسي»[2].

وكانت الخيزران قد توفّيت عن عمر ناهز الخمسين سنة، إثر مرض لم يمهلها طويلاً، فصعب فقدها على الرشيد، وجزع عليها جزعاً عظيماً، فخرج مع المشيِّعين في حالة تدعو إلى الرأفة والشفقة، آخذاً بقوائم النعش، حافياً يدب في الطين والأوحال، لابساً جبة سعيدية وطيلساناً بسيطاً يلتف على جسمه بحزام عريض. وما زال كذلك حتى وصلت الجنازة «مقابر قريش» حيث تقرر دفن الجثمان.. هناك جيء له بماء، فغسَّل رجليه وتوضأ وصلى في الناس عليها، ودخل قبرها متفجعاً باكياً، ثم دفنها، وتصدق عنها للفقراء بمال عظيم لم يسبق أن تصدق أحد بمثله على ميت[3].

حدثنا المؤرخون: بأن موكب التشييع كان مهيباً للغاية، مشى فيه علية القوم وسراة بغداد وشخصياتها، ليس لأنها كانت أم الخليفة فحسب، بل لما كان لها من الأفضال على الكثيرين منهم في قضاء حوائجهم.. وفي مقدمة القوم، وراء النعش، يحيى بن خالد الذي كان يمشي مطرقاً مفكراً في مستقبل مجهول العواقب. وكان من حقه أن يطرق ويفكر في تلك الساعة الرهيبة، فقد خلَّفت هذه المرأة وراءها ذكريات لا تزال حية تعيش في مخيلته، مليئة بالمسرات والآلام والوحشة والدم، كما تركت بموتها فراغاً واسعاً أمامه، وجانباً من القصر مفتوحاً أمام الخصوم، يسهل عليهم ولوجه، والوصول منه إلى سمع الرشيد.

لقد ماتت سيدة القصر، وستخلفها زبيدة بنت جعفر، وهي شابة في مقتبل العمر، لا تملك من الخبرة والتجارب شيئاً بعد، لم تواكب الأحداث الماضية، ولم تشترك في ذلك الصراع العنيف الدامي، وبالتالي، فهي لا تدري مَنْ كان من حزب زوجها، ومَنْ كان من

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦١١

(٢) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٧٣.

(٣) الطبري ج ٣ ص ٦١٢

أعاديه.. هاشمية منعمة، لا يعوزها المال، ولا يستهويها الثراء كما كان يستهوي حماتها الخيزران، وعربية تتعصب لقوميتها ـ ولا سيما أن الشعوبية والعربية قد دخلتا في صراع مكشوف ـ فمن يضمن لآل برمك أن لا يكونوا غداً هدفاً لنقمتها وهم من هم في العنصر الفارسي؟؟ ومن يدري، فقد لا ترى هذه السيدة الشابة في يحيى وأولاده غير جماعة من الأعاجم يتعاونون مع زوجها الرشيد في إدارة دفة الحكم.. ولا شيء سوى ذلك! ؟

ثم إن كل ما بناه يحيى مع الرشيد، في ماضيه وحاضره، أنهار بموت الخيزران، وكل ما كان مضموناً له بالأمس أصبح اليوم وغداً في حاجة إلى معالجة جديدة، وبأسلوب آخر، ولكن أي أسلوب؟؟ وهل بقي يحيى على نشاطه وعزيمته كما كان قبلاً، بعد أن ناهز الستين، فأتعبته الأحداث، وأثقلته أعباء السياسة إلى حد بعيد؟؟

هذه الهواجس وأمثالها كانت تساور ابن خالد البرمكي، فتثقل رأسه وهو يمشي مطرقاً وراء النعش، وأثناء الدفن.. حتى إذا ما انتهى كل شيء في مقبرة قريش، خرج الرشيد إلى مكان قريب أُعِدَّ لاستراحته، وجلس فيه مجلسه لتوديع المعزِّين والردِّ على دعواتهم بالإشارة واحداً واحداً. وجاء دور الفضل بن الربيع، فتقدم إليه وقبَّل يده، وعزَّاه بكلام رقيق نفذ إلى قرارة نفسه، فلم يتمالك الرشيد أمام ذلك إلا أن استوقفه وقال له: «يا فضل، وحقِّ المهدي، إني لأهمّ لك من يوم تولَّيت الخلافة بالشيء من التولية وغيرها، فتمنعني أمي رحمها الله، فأطيع أمرها.. فخذ الخاتم من جعفر بن يحيى البرمكي»[(١)].. فعجب الحاضرون من موقفه هذا في ذلك المجتمع الحزين، تجاه الفضل بن الربيع، الذي بقي مغضوباً عليه من قبل البلاط حتى تلك الساعة. وبهت يحيى الوزير من هذه البادرة، فهو لم يكن يعهد بالرشيد، قبل اليوم، أن صدر أمراً خطيراً دون استشارته وسماع رأيه. لكنه سكت على مضض، كأن الأمر لا يعنيه في شيء، وعاد وفي رأسه، مما سمع ورأى، ألف حساب.

وشعر ابن الربيع بحراجة الموقف، وأحسَّ بأن ما صدر من الخليفة كان صدى لعاطفته الطيبة تجاهه، وقد استثارتها رقة التعزية التي أخذت من نفسه الحزينة مكانتها،

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٨

ولكن ما العمل؟؟ لا بد من مفاتحة جعفر بن يحيى بهذا الأمر الملكي، فاستعان بصديقه «اسماعيل بن صبيح» كاتب البرامكة ليكون وسيطاً في المسألة. غير أن يحيى تدارك الأمر بلباقته عند الرشيد، واستطاع أن يقنعه بالعدول عن أمره، فاكتفى بتولية الفضل على بعض الشؤون الإدارية، في مدينة الكوفة وما جاورها، ليخفف ما لحق به من أزمة مالية بسبب ذلك الحرمان الطويل، والابتعاد عن أعمال الدولة (١).

قد يكون هذا الحادث بسيطاً في ظاهره، ولكنه يشير إلى معانٍ أخرى لها نتائجها؛ لأن الرشيد كان في حياة أمه مغلوباً على أمره، فجاء موتها نقطة تحوُّل في حياته. فصار يشعر بكيانه الشخصي كخليفة، له حقوق يمارسها، وواجبات يؤديها دون قيد أو تأثير. وفي هذا ما فيه من إنذار ليحيى بن خالد، يشعره بأن الرجل قد ثاب إليه وعيه، فلا بد من تقليص تلك السلطة المطلقة الواسعة، أمام إرادته وأخذ رأيه. ومضت الأيام، وحلّت زبيدة بنت جعفر محل الخيزران في السيادة على القصر. ولكنها لم تتدخّل في شؤون الدولة كحماتها تلك، ولم تهتم، على الإطلاق، في ما كان يدور بين زوجها ووزرائه البرامكة، سوى علمها بأنه يحبهم ويثق بهم ويفرط في تقديرهم ورفع مكانتهم. وهذا لم يكن يهمّها بقدر ما كان يهمّها عمل الخير وحب الجميع، ولا فرق عندها بين من كان بالأمس من حزب موسى الهادي ضد يحيى والخيزران، أو العكس. إنها، فقط، تحب من يوالي زوجها، وتكره من ليس إلى جانبه اليوم، وتعمل على رفع مكانة خلافته بقدر المستطاع، دون أن تلتفت إلى ما جرى بالأمس في أيام موسى الهادي، فهو ابن عمها وأخو زوجها، وهي من أشد الناس عطفاً على أولاده التسعة اليتامى الصغار كزغب القطا.

وربما كان لشعورها هذا أثر ظاهر على زوجها الرشيد في إعادة المياه إلى مجاريها، والتخفيف من حدة التوتر في الخصومات السياسية، بينه وبين المبعدين المغضوب عليهم، من البرامكة والخيزران، وتقريبهم شيئاً فشيئاً إلى حظيرة البلاط. وفي الروايات يقال: إنها أقامت زمناً في قصر الخلد إلى جانب الرشيد، ثم بنت لها قصراً في الرصافة سمّته «دار القرار» وانتقلت إليه، وهي هادئة مطمئنة، لم يكدر صفو عيشها حادث، لولا تلك الهزة التي عرضت حين أريد اختيار ولي عهد للرشيد.

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٨٧.

وليٌّ عهد الرشيد

تولى هارون الخلافة وليس له وليٌّ يرث العرش بعده، والحكمة تقضي بأن يكون له من يخلفه، خشية أن يفاجئه الموت بغتة فتتمزق رقعة الدولة لعدم وجود بيعة سابقة.. ولم يكن له يوم تولاها سوى طفل رضيع، هو «عبد الله بن مراجل» لكن المسلمين لم يألفوا بيعة أحد بهذا العمر. فأهمل البحث في هذا الأمر، لأنه لا يريد إسنادها إلى رجل آخر من غير بيته، ولا يرغب في إعطائها، وقتياً، لأحد من الناس ثم يعود فيستلبها منه، ويخوض أزمة حادة كتلك التي عاناها كل من جده وأبيه وأخيه.

وفي عام (١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م) عاد ففكر ثانية في الأمر، واستشار خاصته، فأشاروا عليه بتوليتها أحد ولديه «عبد الله بن مراجل» أو «محمد بن زبيدة» وقد بلغ كل منهما سنته السادسة. واتجهت الأنظار أول الأمر إلى عبد الله، بصفته الابن الأكبر، وكان، يومئذ، في حجر جعفر بن يحيى البرمكي[1]، لكن زبيدة عارضت وأصرّت على أن تكون البيعة لابنها، محتجة بأنه هاشمي الأبوين وليس ابن جارية كأخيه، وأيّدها في طلبها عدد من شيوخ بني هاشم، ورجال من حاشية البلاط، ممن يذكرون لها أياديها البيضاء عليهم حين قرّبتهم على الرغم من خصومة البرامكة لهم. وانقسمت الآراء إلى شقّين، لكل منهما وجهة نظر تختلف عن الأخرى[2].

ثم تأزم الموقف، فسدّت زبيدة في وجه زوجها الطريق من كل الجهات، ومن ورائها أنصارها الكثر، ومن بينهم الفضل بن يحيى البرمكي بصفته المشرف على تربية ابنها

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٨٤

(٢) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٢٢

محمد[1]. ووقف جعفر بن يحيى يدافع عن حق عبد الله بن مراجل، ويسخِّف رأي خصومه، فجرت بين الأخوين البرمكيِّين مناوشات كلامية أسمع كل منهما الآخر ما لا يحب[2].

وكان يحيى بن خالد قد اعتزل تلك الضجة ولم يعطِ رأيه، خشية أن يسيء إلى زبيدة فيستثيرها ضده، ويحصل نتيجة ذلك ما لا يرضيه. ولكن الرشيد أبى إلا أن يستشيره، فاجتمع معه طويلاً، وخرجا متفقَيْن على أخذ البيعة لابن زبيدة تجافياً لما قد يحدث من إغضاب أمه وأعوانها، ريثما يكبر الأخوان وتتكشف أخلاقهما، فيكون من السهل اختيار الأصلح منهما[3]. فكان ذلك بادرة مشكلة جرّت وراءها أوخم العواقب وأسوأها، كما سنرى.

واختلفت الروايات حول إقدام الرشيد على أخذ البيعة لمحمد وتفضيله على أخيه وكيف انتهى الأمر إلى ذلك، فمنهم من قال: إن الفضل بن يحيى رأى تردُّد الرشيد في الاختيار فأوعز إلى جماعة له في خراسان، فبايعوا هناك لابن زبيدة، ووضعوا الخليفة أمام أمر واقع[4]. وهذا ما لا نستطيع قبوله، لأن أمر البيعة بولاية العهد ليس بالأمر السهل الذي يمكن التصرف به على هذا الشكل.

ومنهم من قال: إن الرشيد كان يميل إلى إعطائها لعبد الله، باعتباره الابن الأكبر، وإرضاء وزيره المفضل عنده جعفر بن يحيى، لكن ضغط زبيدة عليه كان أشد وأقوى من ذلك الميل، فأذعن لإرادتها، وعرف رجال الحاشية ذلك منه. وبينما هو جالس في ندوته، دفع أحدهم الشاعر الراجز «محمد بن ذؤيب العماني» فأنشده أرجوزة يقول فيها:

لمَّا أتانا خبرٌ مُشَهَّرُ ... أغرُّ لا يُخفَى علَى مَنْ يُبصِرُ

قلتُ لأصحابي ووجهي مسفِرُ ... فازَ بِها محمَّدٌ فابشِروا

---

(1) الجهشياري ١٩٣.

(2) الأغاني: ج١٧ ص ٦١١

(3) المختار: ٥٩

(4) الطبري: ج٣ ص ٦١٢

فقال الرشيد: «أبشر يا عماني بولاية محمد العهد»، قال: «اي والله يا أمير المؤمنين، بشرى الأرض المجدبة بالغيث، والمريض المدنف بالبرء» قال الرشيد: «ولِمَ ذاك ؟؟» قال: «لأنه نسيج وحده، وحامي مجده، وموري زنده» قال: «فما لك في عبد الله ؟؟» قال: «يا أمير المؤمنين، مرعى ولا كالسعدان» فضحك الرشيد، وقال: «قاتله الله من أعرابي، ما أعرفه بموضع الرغبة، وأسرعه إلى أهل البذل والفائدة، وأبعده عن أهل العزم والحزم»[١].

ومهما يكن من أمر، فإن الرشيد عزم وتوكل، فدعى أمراء آل بيته ورجال حاشيته والقواد والفقهاء في مجلس عقده يوم ٦ شعبان من عام (١٧٥ هـ - ٧٩١ م)، فأخرج محمد ابن زبيدة إلى الحاضرين، وأوقفه على وسادة كانت إلى جانبه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم جلس.. فقام «عبد الصمد بن علي» عمٌّ أبي جعفر المنصور، وهو أكبر بني العباس سناً، فقال: «أيها الناس، لا يغرنَّكم صغر السن، فإنها الشجرة المباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء». وأعقبه خطباء آخرون من أمراء بني هاشم، فقالوا في ذلك ما قاله كبيرهم عبد الصمد.. وأخذت البيعة لهذا الطفل، ولقَّبه أبوه «محمد الأمين»، وولاَّه في الحال على بلاد الشام والعراق، وجعل ولايته بإدارة مربيه الفضل بن يحيى البرمكي[٢].

وصف لنا الرواة مجلس البيعة هذا، فقالوا: إن بِدَرَ الدراهم والدنانير وفار المسك وبيض العنبر، نثر على الحاضرين، مع كثير من الهدايا الثمينة[٣]، وقالوا أيضاً: إن الشاعر «سلم الخاسر» ألقى قصيدة في ذلك المحفل أمام الأمين وبين يديِّ الرشيد قال فيها:

قد وفَّقَ اللهُ الخليفةَ إذ بنَى	بيتَ الخلافةِ بالهجانِ الأزهرِ
فهو الخليفةُ عن أبيهِ وجدِّهِ	شهدا عليه بمظهرٍ وبمخبرِ
قد بايعَ الثَّقَلانِ في مهدِ الهدى	لمحمدِ بنِ زبيدة ابنةِ جعفرِ

ونقلت القصيدة لزبيدة فأمرت بأن يُملأ فم الشاعر بالجواهر.. فَمُلِئَ[٤].

(١) الأغاني: ج ١٧ ص ٧٨.
(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٣.
(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٣.
(٤) الأغاني: ج ٧ ص ١٢٣.

ولا عجب في أن يصبح اجتماع البيعة بولاية العهد، أشبه بحفلة عرس، فقد عرفت زبيدة بعاطفتها الشديدة تجاه طفلها الوحيد هذا، كما عرفت هي نفسها بالطفلة المدلَّلة عند أمراء بني هاشم كافة. لكن البيعة بولاية عهد الدولة شيء والدلال والعاطفة شيء آخر، وكأننا بالرشيد قد ارتكب غلطة كبيرة في هذا الشأن، فقد كان عليه أن ينتظر ريثما يكبر الصغيران فيختار من بينهما الأصلح، وينتهي الأمر، لا أن يعطيها لأحدهما، أياً كان، فيعود بعد ذلك محاولاً انتزاعها منه إذا ظهر عجزه عنها، ويحدث لنفسه ما لا يريد. هذا بصرف النظر عن الأخطاء الأخرى التي ستكشفها لنا الأحداث.

ومهما يكن من أمر، فقد انتهى المجلس، وخرجت زبيدة منتصرة من تلك المعركة البسيطة ولكنها تحمل في نفسها شيئاً من الكره لأولئك الذين أرادوا إبعاد ولدها عن الخلافة غداً، وفي مقدمتهم جعفر بن يحيى البرمكي الذي خرج مغلوباً ناقماً على كل من تسبّب بحرمان عبد الله بن مراجل من حقِّه لمجرَّد أن أمه فارسية غير عربية، وراح يعطف عليه أكثر من قبل، ويعلِّل نفسه بأمل إرجاع هذا الحق إليه غداً عندما يعود الرشيد فينظر في الأمر نظرة جدية أخرى.

أما الرشيد، فلم يلتفت كثيراً إلى ما حدث في هذا الشأن، ما دام الأمر بيده متى أراد، وفي أيّ ساعة شاء. فوجَّه اهتمامه إلى تربيتهما وتثقيفهما، والعناية بتوجيههما نحو الخير وصلاح البلاد، فأسكن الفضل بن يحيى إلى جانب محمد الأمين وجعله مسؤولا عن تهذيبه وإدارة شؤونه، وفعل الشيء نفسه مع أخيه جعفر البرمكي الذي كان يسهر على تهذيب عبد الله[1]. ثم اختار للطفلين أساتذة من أئمة اللغة والأدب والقرآن، أمثال: علي بن حمزة الكسائي[2]، ويحيى بن المبارك اليزيدي[3]، والأحمر النحوي[4]، وغيرهم.. وراحت الأيام تدور دورتها حتى كان من هذه البيعة ما سوف نذكره.

(١) الجهشياري: ١٩٣

(٢) ابن خلكان: ج ١ ص ٤٦٩.

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ١٨٤.

(٤) المسعودي: ج ٦ ص ٣٢١.

العَلَوِيّون والرشيد

كان هارون الرشيد، في الأعوام الأولى من خلافته، يريد التساهل والجنوح إلى السلم مع العلويين، وكان هذا رأي وزيره يحيى البرمكي أيضاً. لذا، رأيناه ساعة تولّيه الحكم يخرج المسجونين منهم في بغداد، فيكرمهم ويعيدهم إلى موطنهم الأول في الحجاز، ويجري عليهم أرزاقاً وافرة.. وقد لاقت هذه السياسة الحكيمة استحساناً وثناء من جماعات كثيرة من الناس، تمثل جانباً مهماً من جوانب الرأي العام.

لكن العلويين لم يكونوا جميعاً في السجون يوم أخرجهم الرشيد، بل كان هناك عدد منهم، أي من الشباب الذين اشتركوا في معركة (فخ) عام (١٦٩ هـ ـ ٧٨٤ م) ضد جيوش موسى الهادي، ثم نجوا بأنفسهم من سيوف بني العباس، وتوغّلوا في البلاد متوارين عن الأنظار، وفي مقدمتهم «إدريس ويحيى» ولدا عبد الله بن الحسن العلوي واخوا محمد وابراهيم اللذين حاربا المنصور فقتلا، كما أسلفنا.

وظل إدريس يتنقل في شمال افريقيا حتى استقر في بلاد المغرب، وبقي هناك يدعو لنفسه، فاستجاب لدعوته قوم من البربر، وخرجوا معه وناصروه، فغلب على بلاد المغرب وتلمسان، وشكّل له دولة مستقلة عام (١٧٢ هـ ـ ٧٨٨ م)، جعل عاصمتها، بادئ الأمر، مدينة (وليلي) ولقّب نفسه بأمير المؤمنين. فاهتمت حكومة الرشيد لهذا الأمر، واعتبرت وجود هذه الدولة الصغيرة إلى جانب إمارة الأمويين المستقلة في الأندلس سيشكل خطراً دائماً يهدد الجانب الغربي من دولة بني العباس، ولا سيّما اقليم شمال أفريقيا حيث يكثر الاضطراب والتمخض.

فلا بد، إذن، من العمل على إفساد هذه النواة قبل أن تنمو فتتفرع مشاكلها.. فعزم

الرشيد أولاً، على إرسال جيش يقوم بهذه الرسالة، ولكن بُعْدَ الشُّقَّة وجسامة الكلفة، جعلاه يفكر بطريقة أخرى، فأُشير عليه بإرسال من يغتال إدريس في عاصمته، فإذا مات ماتت دولته لعدم وجود من يرثه. فاختار من رجاله داهية يدعى «سليمان بن جرير» وزوَّده بما يلزم، فتظاهر بالتشيع للعلويين، وتاه في شمال أفريقيا زمناً حتى استقر في بلاد المغرب، وتقرَّب من إدريس، ونال ثقته، ثم دسَّ له السمَّ في عام (١٧٧ هـ - ٧٩٣ م) وتوارى عن الأنظار.

ومات إدريس بالسمِّ، وليس له ولد يحلُّ محلَّه إلا أمة كانت حاملاً منه، فانتظر رجاله وَضْعَ حِمْلَها، فَوَضَعَتْ ولداً ذكراً، سُمِّي إدريس أيضاً على اسم أبيه، فبايعوه بالخلافة وجعلوا له وصياً ريثما يشبُّ ويكبر.. وبذلك استمرت الدولة، وبقيت مصدر قلق وحذر لحكومة بغداد [١].

أما يحيى بن عبد الله، فقد اتجه نحو الشرق، وألقى عصى ترحاله في بلاد الديلم، وراح يدعو لنفسه أيضاً، فنزع إليه الناس من مختلف الأمصار، حتى إذا اشتدت شوكته وقوي أمره، أعلن راية العصيان عام (١٧٥ هـ - ٧٩١ م) فاهتم الرشيد بأمره، فأشار عليه يحيى بن خالد بأن يرسل ابنه الفضل لقتاله أو إرجاعه إلى الطاعة [٢]. فوافقه الرشيد ووجّه الفضل على رأس جيش كبير، وولاّه كور (الري وطبرستان، وقومس، ودنباوند، والرويان) وأمدَّه بأموال عظيمة، وأوصاه بأن يتوخى الصلح قبل المبادأة بالقتال، فسار الفضل إلى مقره، وأرسل كتبه إلى العَلَوي يستميله ويمنّيه بالعفو إذا عاد إلى الطاعة، فلم يفعل، فأرسل الفضل إلى صاحب الديلم كتاباً يهدده بحرب لا تبقي ولا تذر من أمره شيئاً إذا لم يقنع العَلَوي بالعدول عن العصيان، ثم أعقبه بهدايا جزيلة وهبات وأموال طائلة. فأذعن يحيى العلوي، على أن يكتب الرشيد له ولسبعين رجلاً من أعوانه عهد أمان بخطّه ويشهد فيه على نفسه جماعة من القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم.. فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسره وعظم موقعه عنده، وكتب صك الأمان على الشكل الذي أراده

---

(١) ابن الاثير: ج ٦ ص ٦٠.

(٢) جاء في رواية للجهشياري: أن يحيى البرمكي أمدَّ هذا الثائر العَلَوي بمال كثير لكي تقوى شوكته فيهتمُّ الرشيد بأمره؛ ويرسل ابنه الفضل، إليه فيستميله دون قتال. فيُسرُّ الرشيد لذلك النجاح فتعظم مكانة الفضل عنده. وبالطبع، فقد فعل ذلك دون علم من الرشيد. أنظر (الجهشياري: ٢٤٣).

العَلَوي، ووجَّه به مع جوائز وصلات وهدايا، فأرسل الفضل كل ذلك إلى يحيى بن عبدالله.. فألقى السلاح[1].

وفي أوائل العام (١٧٦ هـ ـ ٧٩٢ م) وَرَدَ الفضل ومعه العلوي إلى بغداد، فلقيه الرشيد بكل ما أحب، وأمر له بمال وفير، وأجرى عليه أرزاقاً وافية، وأنزله ضيفاً في قصر يحيى ابن خالد البرمكي، ثم أعطاه قصراً خاصاً، وسمح للناس بزيارته والتسليم عليه. فارتاح الناس لتلك النتيجة السارة، واثنوا على الفضل بن يحيى الذي حقن الدماء، وقرَّب بين الخليفة وابن عمه، فقال الشاعر مروان بن أبي حفصة في ذلك:

ظَفِـرْتَ فلا شُلَّتْ يَـدٌ برمكيـةٌ ... رَتَقْـتَ بِهـا الفَتْـقَ الـذي بين هاشمِ

على حين أعيَى الراتِقين الْتِئامُهُ ... فكفّـوا وقالـوا ليـس بالمتلائـمِ

فأصبحتَ قد فازَتْ يداكَ بخطَّةٍ ... من المجدِ باقٍ ذِكرُها في المواسمِ[2].

وكان يحيى بن عبد الله هذا من كبار شخصيات آل البيت، وعلماً معروفاً بين الناس ليس بسبب حركته تلك فحسب، بل لما كان قد قام به أخوته قبله من ثورات وحروب دوَّخت بني العباس زمناً طويلاً أيضاً. فلما قدم بغداد وأكرمه الرشيد، زالت مخاوف الناس من الاتصال به، فكثر زائروه من جميع الطبقات حتى من أمراء بني هاشم أنفسهم.. ولكن هذا الإقبال على قصره، والالتفاف حوله جعل رجال حاشية الخليفة، وفيهم من كان يكره العلويين، يشون به عنده ويحذرونه منه قائلين: «إنه قد أفسد عليك أعز أقربائك»[3]. فأحاطه الرشيد بعيونه وأرصاده، ثم صار يسأله عن بعض من يرتاب في أمرهم من زواره، فيجيبه يحيى بأنهم من السبعين رجلاً الذين أعطاهم الأمان. فلما تكرر ذلك منه، قال له الرشيد: عدَّ لي أسماء هؤلاء السبعين لأكون في حلٍّ من أمر غيرهم، فقال: «والله لو كانوا تحت قدمي، ما رفعتها عنهم»[4].

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٦٢٢

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٢٣

(٣) مقاتل الطالبيين: ٣٠٨.

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٢٣.

كان ذلك في عام (١٧٦ هـ ـ ٧٩٢ م) وكان إدريس بن عبد الله، يومئذ، لا يزال حياً في المغرب، ولم يذق السمَّ بعد. وهذا أخوه يحيى على ما هو عليه في بغداد، وأشياعه في بلاد الديلم لا يزالون يعملون على إفساد الجانب الشرقي من الدولة كما كان إدريس يهدد الجانب الغربي منها. وكانت لدى الرشيد أخبار أخرى تنبئه بأن في الحجاز مجموعة مهمة من العلويين، من بينهم شخصيات لها حرمتها ومكانتها في قلوب الناس، وتستطيع إحداث ما يقضُّ مضجعه إذا أرادت، فكيف لو تضافرت هذه القوى العَلَوية الثلاث عليه في آن؟؟. يبدو لنا أن الرشيد كان يفكر في هذا كله أو بما يشبهه، فوجد نفسه أمام أمرين: إما الأخذ بالشدة والقسوة، وإما بالصبر والحلم، وفي ذلك ما فيه من خطر قد يقوِّض عرشه يوماً ما.

حدثتنا الأخبار بأنه لم يصبر طويلاً على إبقاء يحيى بن عبد الله على حالته تلك، وهو يستقبل الناس، ويحمي من يريد منهم بميثاق الأمان الذي بين يديه. فدعا إليه جماعة من القضاة والفقهاء، وأحضر يحيى أمامهم وقال لهم: «إني قد أمنت هذا الرجل وسبعين رجلاً معه، فكلما أخذت رجلاً رابني أمره، قال: هذا منهم. فقلت له سمِّهم لي، فقال: والله لو كانوا تحت قدمي ما رفعتها عنهم» فهل هو محقٌّ في ذلك؟؟ قال أبو يوسف القاضي: ليس لك أن تسأل عنهم. فأخرج الرشيد صورة من ميثاق ذلك الأمان، وناوله الفقيه «محمد بن الحسن» وقال: ما تقول في هذا الأمان، أصحيح هو؟؟ قال: هو صحيح، قال: وكيف؟؟ قال: «ما تصنع بالأمان، يا أمير المؤمنين؟؟ لو كان هذا الرجل محارباً، ثم ولى، كان آمناً» فلم يقتنع الرشيد بقوله، فقال القاضي «أبو البختري»: إن هذا الأمان لا قيمة له، لأنه منتقض من وجه كذا وكذا، وعلَّل الأسباب، فمزَّق الرشيد الميثاق، وأمر بحبس يحيى، الذي مات في سجنه بعد فترة قصيرة. وقد اختلفت الروايات في أسباب موته:

يقول الطبري: «إن الرشيد دعا بيحيى هذا إلى مجلسه، وكان عليه أثر مرض شديد، فقال للحاضرين: ألا ترون عليه آثار علة؟؟ قالوا: بلى، قال: هذا إن مات قال الناس: سمّوه. فقال يحيى: كلا ولكني ما زلت عليلاً في السجن، وقبل ذلك أيضاً»(١)

وفي تاريخ بغداد: إنه سُقي السمَّ، فشكا ذلك إلى الرشيد، فدعا به إلى مجلسه، وقال:

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٢٦

«إن هذا يدَّعي بأني سقيته السمَّ، فوالله لو رأيت عليه القتل لضربت عنقه. وعليَّ أيمان البيعة إن كنت سقيته السمَّ، ولا أمرت أحداً بِسَقْيِه»[1]

وروى اليعقوبي، نقلاً عن كلام رجل كان مسجوناً مع يحيى بن عبد الله: «إن الموكل بسجنه منعه من الطعام أياماً، فمات جوعاً»[2]

وشاءت الصدف أن يكون الزمن قصيراً جداً بين موت يحيى بن عبد الله وهلاك أخيه إدريس، في المغرب، فأحدثت صدى استياء عميق في نفوس العلويين وشيعتهم في كل مكان، جعل الرشيد نفسه يخاف العواقب، ويرتاب من كل حركة تحدث منهم، ويصغي إلى كل وشاية تقال فيهم. ولم تخلُ حاشية البلاط من رجال يكرهون طموح العلويين ونشاطهم في مقاومة بني العباس، فقد كان منهم من عمل للخلفاء في الحجاز واصطدم بنفوذ آل البيت، فترسبت بينه وبينهم البغضاء والأحقاد، أمثال «الزبيري» و«الرياحي» وغيرهما. فاستغلوا شعور الرشيد تجاههم، وسعوا إليه بكل ما يثير مخاوفه منهم، ويوغر صدره عليهم، وعلى تلك الجماعة القاطنة في الحجاز بخاصة. وما زالوا به حتى صار يعتقد بأن القوم يقومون بِدَوْرٍ ضد عرشه، أشبه بِدَوْرِ العباسيين ضد سلطان بني أمية في الأمس، بل إنهم اليوم أمْيَلُ إلى بني أمية منهم إلى أبناء عمهم بني العباس[3]. فراح يهتم بالصغيرة والكبيرة منهم، حتى ولو كان ذلك مجرد كلام يخرج من شفاههم، وربما عدَّه وسيلة لإفساد ملكه، كما حدث بينه وبين «موسى بن جعفر» الملقب بـ«الكاظم» أحد أئمة الشيعة.

والإمام الكاظم، هو موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان ذا تاريخ حافل بالزهد والورع والكرم ودماثة الخلق، وقد لقِّب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسيء إليه.. وُشِي به يوماً عند الخليفة المهدي، فخاف منه وسجنه في بغداد، ثم تهيّبه إثر حلم مفزع رآه في نومه، فأطلق سراحه وأكرمه وأعاده إلى بيته في المدينة. ولمّا تولى الرشيد الخلافة، وحدث ما حدث في عهده من نشاط العلويين

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١٠.

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٢٢.

(٣) تاريخ الخلفاء: ١١٤.

بوجه عام، أعاد المغرضون على سمعه ما قالوه بالأمس لأبيه. وصادف أن حجَّ الرشيد في عام (١٧٩ هـ ـ ٧٩٥ م)، وأتى المدينة لزيارة القبر الشريف مع مشيخة من قريش، ورؤساء وفود الحج، فسلّم على صاحب القبر، وقال: «السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عمي»، افتخاراً على من حوله، وكان موسى وراءه، فسلّم وقال: «السلام عليك يا رسول الله، يا أبتي»، فتغير وجه الرشيد وقال له: «هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً». ثم أخذه معه إلى العراق وحبسه عند «السندي بن شاهك».

ولما طال حبسه كتب إلى الرشيد يقول: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا ينقضي عنك معه يوم من الرخاء، حتى ينقضيا جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون» فلم يجبه الرشيد. وبقي في بيت السندي بن شاهك حتى توفي عام (١٨٣ هـ ـ ٧٩٩ م)، وقيل إن أسباب وفاته كانت مريبة: لقد جاء في كتاب «مقاتل الطالبيين»: إن يحيى بن خالد البرمكي أمر السندي بن شاهك فلفَّه ببساطه، وقعد الفراشون على وجهه حتى مات[(١)]. ويقول اليعقوبي: إنه توفي في حبس السندي، فلما شاع خبر وفاته، أمر هارون الرشيد بإحضار الهاشميين، ومن في بغداد من الطالبيين والفقهاء والكتاب والقضاة، وجاء بهم جميعاً إلى جثمان موسى، فكشف عن وجهه، وقال لهم: أتعرفون هذا؟؟ قالوا: نعرفه حق المعرفة، هذا موسى بن جعفر. قال: أترون عليه أثر سمٍّ أو غير ذلك؟؟ قالوا: لا. فغطّاه، وأمر بتغسيله وتكفينه، وصلّى عليه، ثم دفنه في مقابر قريش في الجانب الغربي[(٢)].

وقد أيَّد صاحب تاريخ بغداد هذه الرواية نفسها[(٣)]. ويقال في روايات أخرى: إنه مات مسموماً[(٤)].

قد يتبادر إلى الذهن، بعد كل هذه الأحداث، أن هارون الرشيد كان رجلاً سفّاكاً محباً

(١) مقاتل الطالبيين ٣٣١.

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٩.

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٣٠.

(٤) مختصر تاريخ الخلفاء: ٤١.

للقتل والدماء، أو أن كل ما جرى للعلويين في عهده كان من صنع يده. لكن الحقيقة غير ذلك، فقد يكون الرجل خائفاً من انتفاضات العلويين على عرشه، فيسجن من يرتاب به منهم أو ينفيه، كما يحدث عادة في كل صراع سياسي بين حاكم ومحكوم. وليس من الأمانة العلمية أن نلقي على عاتقه وحده مسؤولية دماء الذين توفوا في سجونه من الخصوم، سواء أكانوا من العلويين أم من غيرهم، كما أننا لا نستطيع أن نبرىء ساحته من كل ما حدث في عهده:

فقد بيَّنا في ما مضى أن الرشيد كان في الأعوام الأولى من حكمه مغلوباً على أمره من قبل أمه الخيزران ووزيره يحيى بن خالد. فلما ماتت الأم، ظل يحيى يمارس سلطته المطلقة في تدبير شؤون الدولة الخطيرة حتى عام (١٨٧هـ) هو وولداه الفضل وجعفر مع الرشيد، جنباً إلى جنب. وقد أنبأتنا الأخبار بأحداث جرت من هذا القبيل وليس للرشيد يد فيها، وإن كان يُلام على السكوت عنها: فقد جاء في كتاب مقاتل الطالبيين مثلاً: إن الرشيد سجن ذات يوم «عبد الله بن الحسن» العَلَوي المعروف بالأفطس، عند جعفر بن يحيى، فضيِّق عليه جعفر في سجنه، فأرسل عبد الله إلى الرشيد كتاباً فيه لوم وسباب، فطلب هارون من جعفر أن يرفِّه عنه ولا يلجئه إلى مثل هذا الكلام، لكن جعفراً قتله وبعث برأسه إلى الرشيد، كأنه يريد بذلك إرضاءه والتقرب إليه، فارتاع الرشيد مما رأى وبهت، وعاتب وزيره جعفراً على فعلته ووبَّخه[1]. وكان عليه أن يحاكمه ويجري العدل بحقِّه، لكنه لم يفعل لأسباب سياسية سنراها فيما بعد.

ثم إننا نرى أن أشياع العلويين كانوا في نشاط شديد في العصر الأول من دولة بني العباس، وكان من سنَّتهم اتهام الخليفة بقتل كل من يموت من العلويين في السجن او الموقف، حتى وان كان موته طبيعياً، رغبة في إثارة الكره ضد حكم العباسيين، وجلب عطف الناس على دعوتهم. وهذا ما يفسر لنا أسباب إشهاد الرشيد رجال دولته والفقهاء، لدى موت كل علوي، بأن الموت كان طبيعياً لا ريبة فيه، وكان يكرِّر عند كل حادث من هذا النوع قوله: «سيقول الناس قتله الرشيد».

وقد روى صاحب «تاريخ الخلفاء» قولاً للرشيد في هذا المجال: «بلغني أن العامة

(١) مقاتل الطالبيين: ٣٢٨.

يظنون بأني أبغض علي بن أبي طالب !؟ والله ما أحب أحداً حبي له. ولكن هؤلاء، ويقصد العلويين الذين يعاصرونه، أشد الناس بغضاً لنا، وطعناً علينا، وسعياً في إفساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا إياهم ما حويناه، حتى إنهم لأمْيَل لبني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه، أي ولد علي رضي الله عنه، فهم سادة الأهل والسابقون إلى الفضل» (١)

وكان لا يسمح لأحد أن ينال من العلويين في مجلسه، بعكس ما يدَّعي بعض المؤرخين المغرضين، ولكنه كان يجيز الشعراء الذين يقدمون العباسيين على العلويين بالحقِّ في الخلافة، وذلك دفاعاً عن سلطانه.

وقد جاء في كتاب الأغاني: إن الشاعر «منصور النمري» مدحه مرة وثَلَبَ العلويين، فضجر من ذلك، وقال له: «يا ابن اللخناء، أتظن أنك تتقرب إلي بهجاء قوم، أبوهم أبي، ونسبهم نسبي، وفرعهم وأصلهم فرعي وأصلي؟؟» فقال الشاعر: «وما شهدنا إلا بما علمنا» فغضب وأمر بوَجْأ عنقه وطرده. ثم جاء الشاعر بعد ذلك معتذراً، وأنشده أبياتاً يقول فيها (والضمير يعود للعلويين):

وإنك حين تبلغهم اذاءً ... وإنْ ظلموا لمحزونُ الضميرِ

فقال الرشيد: صدقت. ثم التفت إلى من حوله، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه لا يريد إيذاءهم لو لم يبادئوه، وينافسوه على الخلافة (٢)

وللشعراء في مجالسه آثار كثيرة من هذا اللون السياسي:

أعمُّ رسولِ الله أقربُ زُلْفَةً ... لديهِ أم ابنُ العمِّ في رتبةِ النَّسبْ؟

فإنْ كانَ «عباسٌ» أحقَّ بتلكُمُ ... وكان «عليٌّ» بعد ذاكَ علَى سَبَبْ

فأولادُ عباسٍ هُمُ يرثونهُ ... كما العمُّ لابنِ العمِّ في الإرثِ قد حَجَبْ

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١١٤.

(٢) الأغاني: ج ١٢ ص ١٨.

وهو أسلوب من أساليب الدعاية السياسية في الأوساط الشعبية، كان الرشيد يسمح به ويجيزه. وربما كان في حاجة إليه تجاه ألسنة الشعراء الآخرين الذين يدعون للعلويين بأشعارهم في كل مناسبة، على الرغم مما كان للرشيد من شخصية لامعة، وصفات رائعة، تقرِّبه من قلوب رعيَّته، في مختلف طبقات ذلك المجتمع الزاخر.

القسم الرابع

شخصية هارون الرشيد، ومجتمعه

- بغداد عاصمة الرشيد
- أمراء بني العباس
- شخصية هارون الرشيد
- صفاته وأخلاقه
- هواياته الرياضية
- لباسه، وطعامه، وشرابه
- بلاطه، ومجالسه، ومواكبه

بغداد عاصمة الرشيد

وصف أحد كبار المؤرخين القدماء شعب العراق فقال: «إن العراق الذي بنيت فيه بغداد هو صفوة الأرض ووسطها. يحيط به ستة أقاليم هي: الترك، والهند، والصين، والشام، والحجاز، ومصر. لذلك اعتدلت ألوان أهله، وامتدت أجسامهم، وسلموا من شقرة الروم والصقالبة ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان، وجفاء أهل الجبال وخراسان، ودمامة أهل الصين ومن جانسهم وشاكل خلقهم، فسلموا من ذلك كله. واجتمع في أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار بلطف من العزيز القهار.. وكما اعتدلوا في الخلقة كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور»[1].

ويبدو أن الرجل أراد بوصفه هذا أن يخصَّ شعب بغداد وحده، إذ لا يمكن اعتباره وصفاً شاملاً للشعب العراقي كله في عهد الرشيد، يوم كان يتألف من عناصر متعددة، احتفظ بعضها بطابعه العنصري وتقاليده الموروثة: كالعرب، والكرد، والأقليات المتزمتة المنعزلة عن غيرها من الطوائف الأخرى.

كان العنصر العربي، يومذاك، يؤلف أكثرية سكان البلاد، وقد نزح من الجزيرة العربية في موجات متعاقبة، قبل الفتح الإسلامي وبعده، وبقي سواده الأعظم في مجموعات قبلية بدوية رحالة تتنقل بخيامها ومواشيها إلى حيث يكون الكلأ والماء، بين النهرين، وفي الجانب الغربي، من شمال العراق إلى جنوبه.. وهي أشبه بمَعِينٍ مستمر يغذي القسم المتحضر من الشعب العراقي على مدى الأيام، فيحافظ على أكثريته العربية تجاه العناصر الأخرى، ويمد الدولة الإسلامية بالجيوش المقاتلة للجهاد والفتوح.

---

(١) تاريخ بغداد: ج ١ ص ٢٢.

والعنصر العربي أقل الشعوب اختلاطاً بغيره، فهو يرى أن العناصر الأخرى دونه منزلةً، بعد أن أذلَّها بسيفه، ويأنف من مزاولة الزراعة والأعمال المهنية الأخرى، مكتفياً بتربية المواشي والعيش على إنتاجها، متطلباً الغنى والثراء عن طريق الجهاد وكسب الغنائم في الفتوحات. فإذا ما يَسُرَتْ حال بعضهم وملك الأراضي والقرى، استخدم في استثمار خيراتها الأقليات من سكان البلاد القدماء، كالنبط والسريان والكلدان والصابئة وغيرهم من الذين استوطنوا جوانب الأنهار وضفافها الخصبة، ومهروا منذ القدم بزراعة الحقول والبساتين، وعمَّروا القرى والأرياف، وشقَّوا الأراضي بالترع والقنوات، ووصلوها ببعضها حتى أصبحت شبكة متصلة من الماء على رقعة سندسية خضراء، سمِّيت «سواد العراق» لالتفاف خضرتها بعضها على بعض. ويعود إلى هؤلاء الفضل الأكبر في إنعاش حالة البلاد الاقتصادية باستثناء الأكراد الذين بقوا في جبالهم الشاهقة، ولم يغادروها منذ أبعد العصور.

وليس من صلب بحثنا التعمق في دراسة كل طبقة أو مجموعة من هذه الأقليات، ومعرفة وضعها الاجتماعي، وتقاليدها الموروثة، لأنها غير موحدة، ولا تجمعها في ذلك جامعة ما. وربما استقل كل منها بطابع خاص يختلف عن غيره كل الاختلاف، وإن كنا لا ننكر أن شعاعاً من حضارة الدولة كان يمر بها كلها مروراً خفيفاً، فيترك في مجتمعاتها آثاراً متشابهة، تضعف وتقوى بالنسبة إلى بُعد مَواطن تلك الجماعات أو قربها من عاصمة البلاد وحواضرها الكبيرة.

كل ما يهمنا في هذا الصدد، إلقاء نظرة على تلك المجموعة المتحضرة من شعب العراق، القاطنة في حواضره الكبرى. وقد قيل قديماً: إذا أراد المؤرخ الاجتماعي أن يكتب عن دولة الرشيد، كان يكتفي بالبحث عن حالة الشعب العراقي. وبالطبع، فقد كان يراد بذلك سكان مدنه، الذين يمثلون المجتمع البغدادي تمثيلا صحيحاً، فهو ملتقى حضارات الأمم القديمة التي انضوت أخيراً تحت راية دولة بني العباس، أو كانت مجاورة لها.

وكانت بغداد، حينذاك، عروس الدنيا، وعاصمة أكبر أمبراطورية فيها، ومستودع أضخم بيت للمال، وقبلة الطامحين للثراء السهل، والبذخ والترف، فقصدها النوابغ والعباقرة والصناع والحذاق من تلك الشعوب كافة، التي ورثت مدنيات فارس والهند

والصين والفراعنة والفينيقيين، حتى اليونان والرومان، واختلطوا في شعبها الأصيل، وانصهروا شيئاً فشيئاً في بوتقة اجتماعية واحدة، فكوّنوا كتلة شعبية ذات لون خاص، وغلب عليهم طابع الأكثرية العربي، وسادت فيهم لغة الحاكمين العرب، واعتنق معظمهم الاسلام.

كانت بغداد[١] حين بناها أبو جعفر المنصور، منقسمة داخل أسوارها إلى أربع وعشرين محلة. ثم اتسعت رقعتها، بعد زمن قصير، إلى أضعاف ما كانت عليه، فشملت جانبي الرصافة والكرخ، وتفرَّعت شوارعها العريضة إلى فروع كثيرة، وتناثرت قصورها إلى مسافات شاسعة، وبنى سكانها في كل حيٍّ من أحيائها عدداً من المساجد، كانت في غاية الأناقة، ودقة الهندسة وجمال الذوق: ففرشوا بعضها بالمرمر المسنون، أو الحجارة السوداء اللامعة، وغطوا جدرانها بالفسيفساء على صور حدائق مورفة بأزهارها وأثمارها الملونة بألوانها الطبيعية، ونصبوا في أفنيتها الأحواض والنافورات، وأقاموا منائرها العالية حول القباب المزدانة بالخزف المدهون بالأخضر والأبيض والأزرق والأحمر. فبدت لناظرها عن بُعد أشبه بغابة كثيفة من تلك المنائر، وقد انعكست أشعة الشمس فوق أهلّتها المذهبة.

وشيَّدوا قرب كل مسجد حمَّامات أنيقة للاستحمام والنظافة، حتى بلغ عددها الآلاف، وغرسوا الحدائق العامة، وتفننوا في جلب أنواع الورود والزهور من البلاد النائية، وأكثروا من المتنزهات الشعبية عند تقاطع الشوارع، وحول الأحواض المائية، وقد اشتهر منها «بركة زلزل» التي قال فيها الشاعر:

لو أن زهيراً وامرأَ القيسِ أبصرا ... ملاحةَ ما تَحويهِ بِرْكةُ زلزلِ

لمَا وصَفا سلمى ولا أمَّ جندبِ ... ولا أكثرا ذِكْرَ الدّخولِ فَحَوْمَلِ[٢]

والجسور الثلاثة القائمة على نهر دجلة، وفيها قال «علي بن الجهم»:

---

(١) مصادر البحث: معجم البلدان، تقويم البلدان، تاريخ ابن خرداذبة، تاريخ بغداد، الجهشياري، الطبري، ابن الأثير، القزويني.. وغيرها.

(٢) بركة زلزل هذه من آثار الموسيقار زلزل الذي اشتهر بالضرب على العود في عهد الرشيد، انشأها في بغداد ووقفها على المسلمين فاشتهرت باسمه، واشتهرت المحلة الكائنة بها باسمها أيضاً.

عيونُ المَها بينَ الرَّصافةِ والجِسْرِ جَلَبْنَ الهوَى من حيثُ أدري ولا أدري

أعِدْنَ لي الشوقَ القديمَ ولم أكنْ سلَوْتُ ولكِنْ زِدْنَ جَمْراً على جَمْرِ

وفيها الكثير من الممرات على ضفاف الجداول والقنوات المتصلة داخل المدينة، والتي بلغ مجموع القناطر الفرعية عليها ماية وخمسين قنطرة، موزعة بين قصور الأمراء والبرامكة والقواد والموسرين. ونجد في كتب الأدب روايات كثيرة عن متنزهات أخرى خارج المدينة وفي ضواحيها أمثال «قطربل» و «طير ناباذ» التي كان يقصدها الناس في أيام عطلهم وأعيادهم، ويرتادها الشعراء والمجان وعشاق الطرب والتبذل. كما أن هناك عدداً كبيراً من الأديرة المبثوثة في المواقع الجميلة قرب العاصمة(١).

وعُنِيَ البغداديون ببناء قصورهم ومساكنهم، وتشييدها على طراز هندسي جميل، فكانت مزيجاً من الذوقين العربي والفارسي.. يقوم معظمها على طابقين: يبنى الأسفل منها بالحجارة والنورة، دفعاً لأخطار المياه أثناء الفيضان، ثم يشيَّد الباقي بالآجر المجلل بالكلس. وترتفع فوق سطوحها قباب، تركَّز على أسطوانات دقيقة، ويحوَّط بعض مقاصيرها بجدارين لمنع تسرُّب الحرّ والبرد إلى الداخل.. ولقصور الموسرين أجنحة: يُخصَّص أحدها لسكنى الحريم، ويُعدُّ الثاني لعقد المجالس واستقبال الضيوف وإقامة الولائم والأفراح، ويكون الثالث للحاشية والخدم. وقد قيل إن عدد قصور الخليفة التي شُيِّدت في جانب الكرخ، وقصور الأمراء في مدينة السلام، والبرامكة في الشماسية بجانب الرصافة، بلغ ما يزيد على المائتي قصر، لم يُبنَ أفخم منها، هذا عدا قصور القواد وعظماء الدولة وكبار التجار.

وكانت كل هذه القصور محوطة بحدائق غناء، عامرة بألوان الورد والزهر والشجر النادر والأحواض المائية، وعليها تماثيل البرونز والمرمر على شكل حيوانات وطيور يخرج من أفواهها الماء بأصوات مختلفة.. وقد وصف لنا بعضهم قصر «زبيدة بنت جعفر» واسمه «دار القرار» فقال: إنه كان محوطاً بحديقة عظيمة، جمع فيها جُلُّ ما في الدنيا من أنواع الطيور والوحوش والحيوانات النادرة، وإن قاعة الاستقبال، التي يبلغ طولها ثمانين

(١) كتاب الديارات للشابشتي، وأخبار أبي نواس.

ذراعاً، كانت مفروشة ببساط واحد مرصّع بالأحجار الكريمة، ويقوم سقفها على أسطوانات من الأبانوس المزيَّن بالعاج والذهب، وقد كتبت على جدرانها آيات من التنزيل الحكيم بخطوط ذهبية زاهية، وليس فيها مسمار واحد إلا من الذهب. ولم يكن هذا القصر أفخم قصور بغداد، آنذاك، فقد قيل: إن جعفر بن يحيى البرمكي بنى قصره في جانب الرصافة بعشرين مليون درهم، وأثّثه بمثلها، مع العلم بأن كبش الغنم كان يساوي، يومئذ، درهماً واحداً.

وكان في المدينة أسواق كثيرة واسعة نظيفة، حوَت كل ما يحتاجه السكان الذين كان عددهم يفوق المليوني نسمة. وتختصّ كل سوق ببيع بضاعة معينة، أو أنواع متقاربة منها، كسوق الذهب، والجواهر، والنحاس، والنسيج وما شاكل ذلك.. والذي يتتبع أخبار هذه الأسواق الضخمة، وما ينتج فيها من صناعة يدوية، وما تحتوي عليه مخازنها من الأعلاق النفيسة، وكل ما يدخل في وسائل الترف والزينة، أو اللباس والغذاء، والحاجات الأخرى، يعلم بأن بغداد كانت عاصمة الدنيا دون منازع في هذا المجال، كما هي في المجالات الأخرى.

وأمعن البغداديون في التظاهر بالنعمة، وأسرفوا بالترف واللذائذ، وتفنَّنوا فيها. فزيَّنوا بيوتهم بالألوان والأصباغ، وأثّثوها بالوَشي والديباج والستائر المذهبة والبُسُطِ الثمينة، وملأوا حدائقهم بالورود والأزهار الغريبة، وأطلقوا فيها الطيور والحيوانات على أنواعها، وابتاعوا الخيل والجياد والبغال البيض، وطهّموها بالسروج واللجم المفضضة، وحمَّلوا عليها في مواكبهم السلاح المحلَّى بالذهب والجوهر. وقد قال أحد شعرائهم في هجاء أحد الشخصيات منهم:

وما تصنعُ بالسَّيفِ	إذا لم تَكُ قتَّالا ؟
فكسرْ ذهبَ السَّيفِ	وصِغْهُ لك خَلْخَالا

واقتنوا العبيد والخصيان والغلمان والجواري الفاتنات، من مختلف الشعوب: من تركية ورومية وكرجية وصينية وحبشية، وغير ذلك ممن كنَّ يُجْلَبْنَ من خارج البلاد الاسلامية، أو يُربينَ فيها من أجل البيع والكسب، وقد كان في بغداد سوق خاصة لبيعهن، ومن أشهر تجارها «ابن رامين» الذي قال فيه أحد الشعراء:

هلْ مِنْ شِفَاءٍ لِقَلْبٍ لُجِّ محـزونِ ... صَبٍّ يَميلُ إلى ريمِ «ابنِ رامينِ»

يا ربُّ إنَّ ابْنَ رامينٍ لـهُ بَقَــرٌ ... عِيْـنٌ وليسَ لنا غَيْــرُ البَراذينِ

كما عنوا بتحضير الأطعمة الطيبة، وسخوا في الإنفاق عليها: فجلبوا الفواكه من مواطنها النائية وإن كلف شراؤها ما يعادل وزنها من الفضة، واستوردوا لحوم الطيور والأسماك في غير مواسمها، لمجرد التظاهر بالبذخ في ولائمهم، وأطعموا دجاجهم الجوز واللوز، وسقوه الحليب ليكون لحمه لذيذاً على المائدة، وربما استخدم واحدهم عدة طباخين من بلاد مختلفة، ليهيِّىء كل منهم الطعام الذي امتازت بلاده بصنعه. وقد علمنا بأنهم كانوا يكثرون من استعمال السيرج في مآكلهم بدل السمن، ويكثرون من التوابل والبهار، ويأكلون الأرزة بالسكر، ويتفنَّنون في صنع الحلوى، كالرُّب واللوزينج والفالوذج المغموس بدهن الفستق، ويستعملون في ذلك أواني الذهب المرصَّعة، والفضة المصقولة، ويشربون بالزجاج الملون المنقوش بأبدع التصاوير، ولهم في إبداعها الأيدي الحاذقة، وفي وصفها طرائف وأشعار جرت على ألسنة الشعراء: يقول أبو نواس:

تُدارُ علينا الراحُ في عسجديةٍ ... حَبَتْها بأنواعِ التَّصاويرِ فارِسُ

قرارتُها كسْرَى وفي جنباتِها ... مهاً تُدرِّيها بالقِسِيِّ الفوارِسُ

فَلِلْخَمْرِ ما زَرَّتْ عليه جيوبُها ... ولِلْمَاءِ ما دارتْ عليهِ القلانِسُ

وكانت المنازل في الصيف تبرّد بالثلج، أو بخيش مبلّل بالماء، يكلَّف عليه من يشدُّه ويربطه، لتكون منه مراوح. ويتعاطَوْنَ الماء مذاباً فيه السكر بعد أن يُعطَّر بماء البنفسج أو سائر الزهور، ويتعاطى الناس الشراب ألواناً، فأحياناً من نبيذ التمر، وأحياناً من عصير العنب. كما اتخذ المترفون الندماء، واشترطوا فيهم شروطاً دقيقة من خفَّة الروح، وحسن الحديث، وحفظ السر، وقوة المروءة، والمبالغة في السماع، فضلاً عن أنهم كانوا يعطرون مجالسهم برائحة العنبر والمسك، ويقدِّمون للضيوف أنواع العطور الغالية لتعطير لحاهم وصدورهم.

وكان لباس الرجال في الأيام الاعتيادية يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية، وإن تقاربت في بعض الوجوه، فكان المترفون يلبسون السراويل المزركشة، والقمصان المطرزة والدراعات والقفاطين والأقبية والجبب والطيالسة والعمائم والقلانس، وكان

بعضهم يلبس الجوارب الحريرية والصوفية. كما كان لهم ألبسة أخرى تختلف باختلاف المناسبات: فلباس الشراب الحرير الملون، أما لباس المواكب والصيد والأعياد والأفراح، فكان مختلفاً تماماً.

وأما لباس النساء فكان في غاية الأناقة وجمال الذوق، إذ كانت بغداد، يومئذ، مصدراً للأزياء النسائية وتصاميمها، كما هي الحال اليوم في بعض العواصم الكبرى، وقد ساعد على ذلك وجود طبقة كبيرة من نساء الأمراء، وعظماء الدولة، والموسرين من التجار، وكثرة القادمين من الأسر المترفة، من أنحاء المملكة إلى بغداد للزيارة أو السكن، وكثرة الجواري المجلوبات من بلاد أجنبية، وهنَّ لابسات أزياء بلادهن على أجمل صورة ليستهوين أذواق الرجال.

وكانت أكثر الأزياء النسائية انتشاراً في العهد الذي نحن بصدده: الملاءة الطويلة المستعملة لتغطية مفاتن الجسم، ووقاية الثياب من عفر التراب خارج البيوت، ومناديل حريرية رقيقة ذات ألوان زاهية يُعصب بها الرأس ويُشدُّ مؤخرها حول الرقبة. ويلبسن العصائب التي ابتكرتها «عليّة بنت المهدي» أخت الرشيد، وهي غطاء حريري ناعم يُرصَّع بالجواهر، ويُحوَّط بسلسلة دقيقة من الذهب. وعلى الجسم قميص حريري فضفاض تحته سروال عريض ملون، ينتهي عند القدم ويربط حوله. وحذاء من الجلد أو النسيج القوي المخلوط بخيوط معدنية دقيقة أو مذهبة.. وقيل: إن زبيدة بنت جعفر كانت تأنف لبس المجوهرات على الرأس والصدر، ولكنها كانت ترصع حذاءها بأثمن الفصوص النادرة.

أما التجميل «التواليت»: فكنَّ يزوِّقن الوجه ببعض المساحيق تزويقاً خفيفاً، ويزججن الحواجب على الطراز المعروف عند الفارسيات من بنات الملوك. ويعقصن الشعر فوق الرأس على شكل التاج، أو يدلّينه على الأكتاف كالعناقيد، ويتركن خصلا منه قصيرة على الجبين في شكل أهلّة. وكان فيهن من يقصّرن شعورهن تشبُّهاً بالرجال، فيقال لهن «الغلمانيات».. وكان للجمال في أيامهم مثل أعلى، كاستدارة الوجه مع حمرته، وقد شاع بينهن كلمة: «الحسن أحمر».. إلى جانب تمتع المرأة بشيء من الحرية، فالحجاب لم يكن في ذلك العهد ثقيلاً فضلاً عن أنه تطور فيما بعد.. كما أن الرجال كانوا يتزوجون المهائر، مثنى وثلاث ورباع، ويقتنون الجواري بقدر ما تملك أيديهم.

وكان للبغداديين أفراح يقيمونها في المناسبات كالزواج والختان وغيرهما، وفي عيد

الفطر وعيد الأضحى، فقد كانت تقام الولائم لعامة الناس، وتفتح أبواب البيوت الغنية للرائح والغادي من أجل تناول الحلوى أو الطعام، وتُوزَّع الصدقات على الفقراء والمساكين.. وعيد «النيروز» وهو عيد فارسي الأصل، لم يكن يحتفل به غير الفرس، ثم صار الجميع، في العهد العباسي، يحتفلون به ويعتبرونه عيد الربيع وعيد السرور والانطلاق، فيخرج الناس فيه الى البساتين النائية والأديرة، بطعامهم وشرابهم ووسائل لهوهم وطربهم.. فضلاً عن أعياد أخرى للنصارى، كان يشارك فيها بعض عشاق اللهو والأنس من المسلمين.

* *

كل هذا البذخ والترف، والانغماس في الملذات، كان ناتجاً من نظام الدولة المركزي، والتضخم النقدي أو الثراء الفاحش في بيت المال، ما خلق طبقات اجتماعية واسعة الغنى والجاه والنعمة. ولم يكن المجتمع البغدادي في ذلك العهد يختلف كثيراً عن أي مجتمع آخر نشاهده اليوم في عواصم الدول الكبرى، التي تسير على نظام حرية العمل والكسب، إلا في ما يتعلق بمراقبة الحسابات ومحاكمة المسؤولين في عهدنا هذا، في حين كان الخليفة، يومذاك، سيِّداً مطلقاً لا يُسأل عما يفعل، ولا يُحاسب عما يُبذِّر.

مئات الملايين من الدنانير، يوم كان للدينار قيمة شرائية كبيرة، كانت تسكب كل عام في خزينة الرشيد، فتصرف على شخصه وعلى من حوله من رجال دولته، في قلب بغداد، في حين لم تكن الأقاليم تنال منها إلا النزر اليسير، إذ إن نصيب كلٍ منها كان مستقلا في أيدي الوالي، ليكفي نفسه بنفسه أولاً.

كان الرشيد وأسرته وأمراء بيته، الذين زاد عددهم على الثلاثين ألف نسمة، يعيشون في ترف وبذخ، وإنفاق عظيم.. فضلاً عن البرامكة الوزراء، الذين ملكوا من الثراء والمال ما ليس في حساب، والذين نافت قصورهم في مقاطعة الشماسية على العشرين قصراً، عدا قصور من كانوا يمتون لهم بنسب وقربى وصنيعة، والذين لم يكونوا أقل بذخاً وترفاً من حالة الرشيد نفسه في بذله وترفه وعطائه.

أما رجال الحاشية من حجَّاب وكتَّاب وقادة وقضاة وجلاَّس وشعراء وأدباء وندماء ومطربين، وعددهم كثير جداً، فليس فيهم من لم ينل من كرم الرشيد ووزرائه وآل بيته

الغنى والجاه والمال الوفير، وكان كل ذلك من حساب بيت المال. هذا عدا المستخدمين والمقاولين، وكل من كانت له صلة، لسبب من الأسباب، بالبلاط العامر.

وهناك طبقة التجار الموسرين، الذين كانوا يسيطرون على الأسواق، فيستوردون البضاعة النادرة والمصنوعات الجميلة من أقاصي البلاد، ليبتزُّوا من هؤلاء المترفين شيئاً كثيراً من ثرواتهم الضخمة.. وقد قيل: إن الرشيد أراد يوماً أن يشتري بعض المجوهرات لابنته «حمدونة» بمناسبة زواجها، فأرسل له «عون الجوهري» سفطاً واحداً من أسفاط مجوهراته، قُدِّرَت قيمته بسبعة ملايين دينار، فلم يعجب الرشيد شيء منه، فردَّه وطلب من جوهري آخر أحسن منه.. ولم يكن باقي الصناع الماهرين الذين يحسنون الصناعات الجميلة الدقيقة، كالصياغ، والزجاجين، وصانعي الأسلحة المذهَّبة، وما شاكلهم، بأقل من طبقات التجار، كسباً وربحاً وفائدة.

ولم يستطع بعض أقسام الطبقة الوسطى من هذا المجتمع أن يصمد أمام هذه التيارات العارمة من البذخ والإسراف في اللذائذ والتمتع، فانجرف معها وإن لم يستطع مجاراتها، فكثر الدائن والمدين، والراهن والمرتهن والمرابي. وانتعشت طبقة الصيارفة، وكان جلُّ أفرادها من اليهود، الذين أدَّوا دوراً خطيراً في هذا المجال لامتصاص أموال بعض هذه الطبقات، عن طريق الربا والقروض التي تستردُّ بربح باهظ، قيل إنه بلغ حد النصف، ما اضطر حكومة الرشيد إلى تعيين «المحتسبين» لمراقبة أعمالهم، وتفتيش حساباتهم، والإشراف على معاملاتهم، لتكون جارية على سنن الشريعة والعدل.

وكان من نتيجة هذا الثراء والعبث والإمعان في اللهو، أن كثر بين الناس شرب الخمرة ومغازلة القيان، وارتكاب المفاسد، ما أوجد كتلاً من الخلعاء والمجان والمتهتكين، وفي مقدمتهم طبقة تدعى باسم «المخنثين» وجُلُّهم من الشباب اليافع، همُّهم لبس الثياب المزركشة المبخَّرة بالعطور، والتشبُّه في استعمال الكلام الرقيق المخنَّث، والتظرف في المعاشرة، مع التباهي بسرعة الخاطر وحبك النكتة، وكانت لهم أماكن خاصة يرتادونها في حدائق الكرخ، حيث تقام حوانيت من الخشب المخرم، محوطة بالمياه والزهور وكؤوس الخمر ولذيذ الطعام ووسائل اللهو والمجانة.. كما كثرت الخلاعة والفجور واللواط، وقد تظاهروا بذلك في أشعارهم.

لكن حكومة الرشيد لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه المفاسد، بل أخذت الشرطة تطاردهم حيثما وجدتهم، وتعاقبهم، وتُنْزِل فيهم القصاص الشرعي من جَلْدٍ وحَبْسٍ وغيره.. كما أن رجال الدين والمرشدين وطلاب الإصلاح لم يقفوا عاطلين أمام هذا التيار المهدِّد للأخلاق، بل قاوموه وعملوا على إضعافه بكل ما أوتوا من وسائل وقوة.

ويجب أن لا ننسى هنا بأن سكان بغداد بلغوا المليوني نسمة أو ما يزيد. فالطبقات الغنية التي تحدثنا عنها، لم تكن تشكّل الغالبية من تلك المجموعة الكثيفة من الناس، ولم يكن ذلك البذخ والترف قد عمَّ طبقات الشعب البغدادي جميعاً، حتى إن الفساد المذكور لم يشمل سوى جانب صغير من جوانب البلد، وما كان بشيء يُذكر لولا ألسن الشعراء ورواة الأدب والمتظرفين.

لقد كانت الطبقة الوسطى هي التي تمثل ذلك المجتمع تمثيلاً صحيحاً، وهي الغالبية، ومنها العلماء والفقهاء والأدباء، وكان عددهم كبيراً جداً في حوض تلك النهضة الفكرية، ويتمتعون باحترام شعبي عظيم، ومعظمهم في حالة عيشٍ دون الوسط، باستثناء من اتصل ببلاط الرشيد فاغتنى واكتنز.. ومنها أيضاً العمال وصناع الحاجات الشعبية، والباعة الصغار، وأصحاب الفنون على أنواعها.

وكانت كل هذه الطبقات المتأنقة خليطاً من شعوب مختلفة وعقليات متفاوتة، وعقول متباينة، انصهرت جميعها في أتون واحد، فشكلت كتلة بشرية غلب عليها الطابع العربي، وسادت فيها لغة الحاكمين العرب، واعتنق معظمها الإسلام.. وهذا لا يعني أنها أصبحت عربية بحتة، فهناك الأُسر الفارسية التي كانت تفتخر بعنصرها، وفي مقدمتهم وزراء الدولة البرامكة وغيرهم من رجال حاشية الرشيد، وكبار التجار، ومشاهير العلماء، كما أنهم كانوا يتكلمون الفارسية في ما بينهم، وفي بيوتهم وفي الأسواق، وكثير منهم من كان يفضل قوميته على القومية العربية ويؤازر الشعوبية ضد العنصر العربي.

ونجد في بغداد أحياء خاصة لأقليات كثيرة، منها «حي الروم» ويقطنه جماعة من البيزنتيين الذين اختاروا لأنفسهم السكن في بغداد، ولهم طقوسهم ولغتهم. وكذلك الهنود، وبعض الأُسر الصينية التي تعمل في صناعة الورق، وتتبادل التجارة بين عاصمة الدولة ووطنها الأصلي، وقد قيل: إن الذي يمر بأسواق بغداد، في ذلك العهد، كان يسمع

لغات أجنبية كثيرة بين الباعة والصناع.. لكن اللغة العربية هي التي سادت في ذلك العصر، كونها لغة البلاط وحكومته، ولغة العلم والأدب والغالبية الشعبية.

وكانت حرية الأديان والمعتقدات، في زمن الرشيد، واسعة إلى حد بعيد: فالإسلام دين الدولة الرسمي، ويشمل الغالبية الساحقة من شعب بغداد، والدليل على ذلك كثرة المساجد والمعابد والفقهاء والمشرعين. وقد ظهرت في عهد الرشيد المذاهب «الحنفية والشافعية والمالكية» وبعده بقليل، ظهر مذهب أحمد بن حنبل، وكان القضاة يفتون على مذهب الأكثرية لذلك البلد الذي يعملون فيه. وكان المذهب الحنفي المذهب السائد في مدينة بغداد، وكان قاضي الدولة، أبو يوسف، أحد تلامذة الإمام أبي حنيفة نفسه. وكانت حكومة الرشيد تحترم الاجتهاد متى كان سليماً، ولكنها لم تكن تغفر للزنادقة مذاهبهم، ولم تتوان في قتلهم والتنكيل بهم.. وإلى جانب المسلمين، هناك أهل الذمة، الذين كان لهم قدر كبير من الحرية في المجادلة والمناقشة والأبحاث الدينية. وقد تُرجم التوراة والإنجيل في عهد الرشيد.. وكان النصارى يتّبعون كنيستين سريانيتين: الكنيسة اليعقوبية، والكنيسة النسطورية، لكنهم، في غالبيتهم، كانوا يتّبعون الكنيسة النسطورية، وكان رئيسهم يعرف بـ «الجاثليق»، وقد مُنِعَ حقّ السكن في بغداد، ولكن، كان له حق إرسال المبشرين إلى نواحٍ مختلفة، فكان له أتباع ومبشرون في الصين، فضلاً عن أديرة وكنائس قرب بغداد يتعبد فيها الرهبان.. وكان جُلُّ أطباء البلاط العباسي من النساطرة، ولهم خدمات موفقة في إيجاد الصلة بين المسلمين والعلوم القديمة بما قاموا به من تراجم المؤلفات إلى العربية، وقد انقلب الرشيد عليهم في أواخر عهده، فألزمهم بنوع من اللباس، يخالفون به لباس المسلمين، وأمر بهدم الكنائس التي بُنِيت بعد الفتح الإسلامي، ويُعتقد أن ما حصل يعود إلى أسباب سياسية، إثر سوء العلاقة بينه وبين دولة الروم «بيزنتية». ولكي يُجبر النصارى القاطنين هناك على النزوح إلى داخل البلاد، فيأمن من احتمال مساعدتهم للدولة المسيحية هذه، أمر بهدم تلك الكنائس التي كانت متاخمة لدولة الروم.

وكان اليهود في بغداد أقلية لا تذكر، ولكن، كان لهم نشاط ملحوظ في التجارة الداخلية، ومع البلاد الأجنبية، والتعامل بالربا وغيره، وكانت لهم مدارس خاصة في (سورا) حيث جرى وضع التلمود بصورته النهائية، فكان لوضعه الأثر البعيد بين يهود العالم كله، وقد ساعد كثيراً على دراسة اليهودية القديمة، والشريعة التي وضعها موسى.

وعلى الرغم من أنهم اتخذوا لهم حيّاً خاصاً بهم داخل العاصمة، فإنهم تأثروا بعادات العرب وأحوالهم، فتكلموا العربية مثلهم، وعاشوا معهم.

وهناك أقليات أخرى، كان أهمها «المجوسية الفارسية»، ولا سيَّما أتباع «زروسترا» أو زرادشت الفارسي. امتهن هؤلاء نقش الزجاج وتلوينه، وصنع السلاح. وأتقنوا اللغة العربية وساعدوا العرب على الاتصال بالحضارة الفارسية القديمة، وقد أسلم معظمهم في عهد الرشيد، واختلطوا بمجموعة الشعب البغدادي كمواطنين.

وإلى جانب هذه الطبقات، وُجِدَتْ طبقة كبيرة لا يستهان بها كانت تعاني الفاقة والفقر، ولم يتسرَّب إليها لا قليل ولا كثير من ذلك الثراء الفاحش الذي كانت تبذِّره أيدي الطبقة الحاكمة وما دونها، بلا قياس ولا ميزان، ولم تتمتع بشيء من الترف والنعمة التي كان يتقلب فيها الموسرون الأغنياء: ففيها الكادح في سبيل خبزه اليومي، وفيها المعدم الذي لا يجد إلا ما يعثر عليه بالسؤال والتسوّل.. وقد وصفها الشاعر «أبو العتاهية» في قصيدة وجَّهها إلى الرشيد، على أثر غلاء الأسعار، يقول فيها:

مَــنْ مُبلِـغٌ عنـي الإمـا	مَ نصـائحـاً متـواليَـة
إنـــي أرَى الأسعـارَ	أسعـارَ الرعيـة غاليَة
وأرَى المكاسبَ نـزرةً	وأرى الضـرورةَ فاشيَـة
وأرَى غمـومَ الدَهْـ	ـرِ رائحـةً تمـرُّ وغـاديَـة
وأرَى المراضعَ فيه عن	أولادِهـا متجـافيَـة
وأرَى الأرامـلَ واليتـا	مَـى فـي البيـوتِ الخاليَة
مـنْ بيـنِ راجٍ لـم يـزلْ	يَسمـو إليـك وراجيَـة
يا ابـن الخـلائفِ لا فَقَدْ	تَ ولا عَـدِمْـتَ العافيـة
إنّ الأصـولَ الطيبـا	تِ لهـا فـروعٌ زاكيَـة
ألقيْـتُ أخبـاراً إليـكَ	مِـنَ الرعيَّـة شافيـة

يسكن أفراد هذه الطبقة أحياء منعزلة، في أكواخ تافهة وأزقة تطلُّ منها الفاقة والعوز، بمعزل عن تلك الميادين الساحرة ذات القصور المسرفة بأناقتها، شأن كل عاصمة كبيرة، منذ ذلك العهد السحيق حتى يومنا هذا.. وهم يعيشون على هامش الحياة، لتكملة ذلك الإطار الاجتماعي، إذ إن الترف في العيش لا يمكن أن يكون إلا على حساب شقاء الآخرين واستخدامهم.

ونجد في الأخبار المبعثرة عن هذه الطبقة، أن أفرادها كانوا يتوغلون في الأسواق سعياً وراء الرزق، عن طريق الأعمال التافهة والخدمة، فيختلطون بالتجار والأغنياء، ويتنافرون أمام مواكب العظماء، وفيهم التقيّ الساذج، كما فيهم المحتال الماكر، واللص والساحر، وطرار الدراهم من جيوب المارّة، والطفيلي والمتندر، والمشعوذ والمقامر، إلى آخر ما نقرأ في بعض كتب الأدب، وقصص ألف ليلة وليلة، وغيرها.

وكان الأكثر شهرة منهم جماعة «العيارين»، وهم أناس من المتشردين، كانوا يتوارون عن أنظار الشرطة والحرس، ويسيرون عراة الأجسام إلا مما يستر عوراتهم، ويشدُّون على أوساطهم المقاليع القوية، كسلاح لهم عند الحاجة، ويحملون الحقائب المملوءة بالحصى والحجارة، كعتاد لمقاليعهم، يعلقونها بأكتافهم. وكانت أجسامهم نحيفة قوية سريعة الحركة والعَدْوِ، وجُلُّ أعمالهم قطع الطرق الخالية على المارة، وسلبهم أو نهبهم. وكان تاريخهم حافل بالحوادث والمغامرات.

وبعد، فإن البحث في حياة المجتمع البغدادي، أثناء خلافة الرشيد، بعناصره وألوانه، ومِهَنِهِ وسُبُل عيشه، وصلاحِهِ وفسادِهِ، يرينا تناقضاً وإسرافاً في كل ناحية من نواحيه الاجتماعية.. مساجد ومعابد كثيرة تغصُّ بالمؤمنين والمتعبدين والزاهدين وطلاب الفقه والعلم والأدب، يقابلها لهوٌ وعبثٌ وسكرٌ ومجونٌ وعربدة.. وثراءٌ ما بعده ثراء ينتج إمعاناً في البذخ والترف، وانغماساً في اللذة، يقابله فقرٌ وبؤسٌ وشقاءٌ.. وإلى جانب ذلك كله، طبقة من الناس تحترم التقاليد وتأتمر بالدين، وتتمسك بالأخلاق، وتنفر للجهاد، وتعمل للدنيا كما تعمل للآخرة. وهذا أمر طبيعي في كل مجتمع صاخب، كثيف النفوس، جمّ الغنى والثراء، يتمخض عن حضارة جديدة آخذة بالازدهار.

أمراء بني العباس

كان يطلق اسم «بني هاشم»، في عهد الرشيد وما قبله، على أمراء بني العباس كافة. وأما غيرهم من أحفاد هاشم بن عبد مناف، فكان يُطلق عليهم أسماء أخرى، كالعلويين الذين هم من ذرية الأمام علي بن أبي طالب، والطالبيين وهم أحفاد أبي طالب من علي وغيره. وكذلك كان يقال: هاشميات وعلويات وطالبيات، إلى آخره.

وكان عدد الهاشميين من آل العباس، في هذا العهد، قد كبر جداً، وأصبحوا بكثرتهم أشبه بقبيلة واسعة الفروع والأفخاذ. فقد ولد للعباس بن عبد المطلب، عم النبي، تسعة أولاد من الذكور، هم: «الحارث وكثير وتمام وعبد الرحمـــن، ومعبد وقثم وعبيد الله والفضل وعبد الله». وولد لعبد الله وحده ستة أبناء، هم: «عباس، ومحمد، والفضل، وعبد الرحمن، وعبد الله، وعلي»، وولد لعلي إثنان وعشرون ابناً، هم: «عثمان، ومبشر، وبشير، وداود، وعبد العزيز، وعيسى، وعبد الله، وسليمان، وصالح، واسماعيل الأكبر، واسماعيل الأصغر، وأحمد، وإسحاق، ويحيى، وعبد الصمد، ويعقوب، وعبد الملك، وعبد الله الأكبر، وعبد الله الأوسط، وعبد الله الأصغر، وعبد الرحمن، ومحمد». وولد لمحمد وحده ستة أبناء، هم: «عباس، ويحيى، وعبد الله ـ الخليفة السفاح، وابراهيم، وموسى، وعبد الله ـ الخليفة المنصور». وولد لعبد الله المنصور عشرة أبناء، هم: «القاسم، والعباس، ويعقوب، وعيسى، وسليمان، وصالح، وجعفر الأكبر، وجعفر الأصغر، وعبد العزيز، ومحمد ـ الخليفة المهدي». وولد لمحمد المهدي خمسة أبناء، هم: «موسى ـ الخليفة الهادي، وعلي، وعبد الله، وابراهيم، وهارون ـ الخليفة الرشيد»[1].

---

(١) جمعنا هذه الأسماء من عدة مصادر موثوقة كالطبري، واليعقوبي، والجهشياري، وتاريخ بغداد، وابن خلّكان، وعيون الأخبار وغيرها.

فإذا علمنا، أن لكل من هذه الشخصيات، التي ذكرناها هنا، أولاداً وأحفاداً، وأن أجيالاً عديدة منهم عاشت حتى أدركت أيام هارون الرشيد، وحضر ابناؤها مجلسه، وتمتعوا زمناً في ظل رايته، أدركنا ضخامة هذه المجموعة، وقدّرنا ما كان لها من مكانة اجتماعية وسياسية في وسط الدولة، حتى إن الرشيد نفسه رأى في خلافته أعمامه، أمثال سليمان وصالح ابني المنصور، وأعمام أبيه كالعباس بن محمد بن علي، وأعمام جده كعبد الصمد ابن علي بن عبد الله بن العباس الذي قيل فيه: «لم يكن في عهد الرشيد امرأة عباسية إلا كانت حراماً على عبد الصمد بن علي، لأنه كان عماً أو خالاً أو جداً أو جد أب لها».

وقد اتخذ الرشيد مشيخة هذه الأسرة كمجلس استشاري أعلى، يستشيرهم في القضايا الخطيرة المتعلقة بولاية العهد أو بالزواج بين أفراد الأسرة، أو بمعاقبة بعضهم إذا كانوا خطراً على العرش، أو في القضايا السياسية المهمة.. وكان يحترمهم ويصل أرحامهم، ويوصي أولاده باحترامهم، ويذود عن سمعتهم لأنها تمسُّه، فلم يكن يغفر لمن ينتقصهم من سائر الناس، اياً كان، ويقول: «هؤلاء عشيرتي، اعتز بهم».

وقيل إن الشاعر «ربيعة الرقي» مدح «العباس بن محمد بن علي» ، عم أبي الرشيد يوماً بقصيدة يقول فيها:

لوْ قيلَ للعباسِ يا ابنَ محمدٍ ... قلْ: لا، وأنتَ مخلّدٌ، ما قالَها

ما إنْ أعِدُّ مِنَ المكارمِ خصلةً ... إلاَّ وَجَدْتُكَ عمَّها أو خالَها

وإذا الملوكُ تسايروا في بلدةٍ ... كانوا كواكِبَها وكُنْتَ هِلالَها

إنَّ المكارِمَ لمْ تَزَلْ معقولةً ... حتّى حَلَلْتَ براحتَيْكَ عِقالَها

وكان العباس هذا بخيلاً، فبعث للشاعر بدينارين فقط، فاحتال الشاعر على استرداد الرقعة التي كتب عليها الشعر، بإعطاء الرسول ذينك الدينارين، وكتب في ظهرها هذه الأبيات:

مدحتُكَ مدحةَ السّيفِ المحلّى ... لتَجْري في الكرامِ كما جَرَيْتُ

فَهَبْها كذبةً ذهبَتْ ضَياعاً ... كَذَبْتُ عليكَ فيها وافْتَرَيْتُ

فأنتَ المرءُ ليسَ لهُ وفاءٌ ... كأني إذ مَدَحْتُكَ قدْ زَنَيْتُ

وأعطاها للرسول، فأعادها، إلى موضعها، فلما قرأ العباس الأبيات، غضب وقام من وقته إلى الرشيد، وأخبره بالهجاء، فدعى الرشيد بالشاعر وقال له: «يا... أتهجو عمي ؟؟ لقد هممت أن أضرب عنقك» فأخبره الشاعر بما جرى، وقرأ عليه أبيات المديح فاستحسنها الرشيد، وقال للعباس: بِمَ أَثَبْتَهُ عليها فسكت، فقال الشاعر: «وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابني إلا بدينارين» فغضب الرشيد وقال للعباس: «سوأة لك، أي حال قعدت بك عن إثابته ؟؟ المال ؟؟ فوالله لقد موّلتك جهدي، أم انقطاع المادة عنك ؟؟ فوالله ما انقطعت، أم أصلك ؟؟ فهو الأصل لا يدانيه شيء، أم نفسك ؟؟ بلى ، نفسك فعلت ذلك بك حتى فضحت آباءك وأجدادك، وفضحتني ونفسك» ثم أعطى الشاعر ثلاثين ألف درهم وقال له: «لا تذكره بشعرك تعريفاً ولا تصريحاً»(١)

ولِبَني هاشم امتيازات كثيرة كان الرشيد يهتم بها، منها أنه ينظر في شؤونهم الخاصة بنفسه دون أن يستعينوا بالوزير، وجعل لهم مكانة في مجالسه عن يمين العرش، وفوق مقاعد مرتفعة دونها أماكن الآخرين. وكان يقدمهم في المواكب أمام غيرهم، ويعيِّن المقربين منهم عمالاً على الأقاليم المهمة، وربما كان معظم عمال دولته منهم، وكذلك في الإمارة على الحج.

وكان لهم سهم معلوم من بيت المال يدعى «سهم ذوي القربى» فيقسمه بينهم بالسوية والعدل(٢). ويغدق عليهم المنح والهبات في المناسبات المختلفة(٣). ويحفظ لهم حقوقهم في ممتلكاتهم الخاصة. ولا يألو جهداً في أن يظهروا في المجتمعات بالشكل اللائق بهم، كأمراء البيت المالك.

أما النساء الهاشميات، فكانت حياتهن داخل القصور مترفة باذخة، يستعملن فيها أواني الذهب والفضة، ويتحلَّين بأثمن الجواهر، ويبرزن أمام الأسر الموسرة في بغداد كنماذج ممتازة في الذوق وحسن الاختيار، على أن ذلك لم يخرجهن من حدود الرزانة إلى

---

(١) الأغاني: ج ١٣ ص ٣٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٤

(٣) الأغاني: ج ٣ ص ٣٨

التبذل.. وإذا كان هنالك شيء مما نقرأه عن بعض الاسترسال في اللهو من بعضهن، فهو محصور، في الحقيقة، ببيت المهدي عند «عليّة» التي كانت تنظم الشعر وتغنّيه في قصرها، فيأخذه بعض الجواري ويُغَنِّيْنَهُ في المجالس، والسبب في ذلك تساهل المهدي في تربية بناته.. فقد جاء في رواية عن أحدهم، قال: «رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش، فرأيته يسير و«البانوقة» ابنته بين يديه وبين صاحب الشرطة، عليها قباء أسود، متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان، وإني لأرى في صدرها شيئاً من ثدييها»[1].. ونحن وإن كنا نشكّ في صحة هذه الرواية أو في بعض صورها، إذ لا يعقل أن تكون بنت الخليفة المهدي على هذا الشكل من التبذل أمام الناس في ذلك العهد، ولكننا رأينا شيئاً كثيراً، في ما أسلفنا، من ضعف المهدي أمام نسائه، وسعة أفق تفكيره في هذا المجال.

وكان معظم الهاشميين يسكنون في قصورهم التي بنوها في مدينة السلام، على عهد أبي جعفر المنصور، ثم خرج بعضهم من حصن المدينة فسكن الكرخ والرصافة، وتوزّع آخرون في مدن كثيرة مثل الكوفة والمدينة ومكة وغيرها من الأقاليم التي تولّوا أمورها وإدارة شؤونها زمناً ما، وبقي بعضهم الآخر في بغداد، وفي مقدمتهم أسرة أبي العباس السفّاح، وأحفاد أبي جعفر المنصور.

وسبق لنا أن ذكرنا، بأن أسرة آل العباس تضخمت في عهد الرشيد، وتشعّبت إلى كتل وأفخاذ، وتنافرت عن بعضها بسبب تلك الأحداث التاريخية التي عرفناها، كمقتل عبد الله ابن علي بإيعاز من المنصور، وانتزاع ولاية العهد من عيسى بن موسى، إلى آخره.. غير أن تلك النفرة وذلك التباغض لم يصلا إلى حد التفرقة في صفوف القوم أو العمل على تقويض العرش، بل إنهم، على العكس من ذلك، كانوا أقرب إلى التكتل أمام كل خطر يهدد ملكهم.

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥٧٢.

شخصية هارون الرشيد

هو « هارون الرشيد، ابن الخليفة محمد المهدي، ابن الخليفة عبد الله المنصور، بن محمد، بن علي، بن عبد الله، بن عباس، عمّ النبي الأعظم، ابن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي...» .

كان مديد القامة، عَبْلَ الجسم، غير بادن ولا نحيف، أبيض البشرة، في وفرة جعدة فاحمة، وجبين ناصع صلت، وعينين كبيرتين دعجاوين، لهما نظرات نافذة، وأنف دقيق مستقيم، يتناسق مع فم رقيق الشفتين، ذي نبرات صافية عذبة، ولهجة فصيحة تعجب سامعيها في الخطابة والحديث.. وله لحية سوداء، تطول بقدر ما تستوعب قبضة الكف، سيراً على قاعدة السنَّة، وعارضان خفيفان يتصلان بجمتّه، وقيل إنه كان أجمل أحفاد المنصور وجهاً[1].

تولّى الخلافة، كما علمنا، في منتصف عامه الثالث والعشرين، وتوفي في نهاية عامه الخامس والأربعين. فهو إذن مارس شؤون الملك في عنفوان شبابه، وترك الدنيا حين بلغ سنَّ الكمال والنضج.. غير أن فترة خلافته كانت مشحونة بالأحداث الجسام التي شغلت التاريخ، كما كانت أيامه من أحسن الأيام وأجملها، فسمّوها «العروس» لبهجتها، وانتعاش الحضارة والمدنية الإسلامية فيها، واتساع نطاق البذخ والترف في جوانبها.. كل ذلك كان من العوامل التي خلَّدت ذكره، ونشرت اسمه في كل مكان، حتى يومنا هذا.

مات وترك وراءه، ككل رجل عظيم الشأن، خلافاً ظاهراً بين المؤرخين حول

---

(١) أنظر: تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٥، الطبري: ج ٣ ص ٧٣٩، الإمامة والسياسة: ج ٢ ض ٢١٩ وغيرها.

شخصيته وحقيقة سيرته: فمن مبغض كاره له، إلى آخر محب معجب به، إلى القليل ممن وقفوا على الحياد، فلم يندفعوا وراء عاطفة جامحة، أو تعصب ظاهر له أو عليه، ما أدى، في النتيجة، إلى تشويه الواقع في تاريخ حياته، وإلقاء غشاء كثيف على الحقائق في سيرته الخاصة والعامة.

فالمؤرخون القدامى الذين عاصروه أو جاؤوا بعده بقليل، وكانوا من شيعة العلويين، لم ترتح نفوسهم لأعماله، بسبب ذلك الاحتكاك الذي حدث بينه وبين عدد من شخصيات آل البيت، على الشكل الذي أوردناه. فراح بعضهم يتغاضى عن الكثير من مفاخره ومحامده، ويدوِّن مناقصه ومثالبه، ويرميه بالقسوة والفظاظة وحب سفك الدماء لمجرد غضبة تعتريه، أو شكٍّ ينتابه.

وأيَّدهم في ذلك عدد من المؤرخين الفرس المتعصبين لعنصريتهم، لأنه كان يمالئ الجانب العربي في صراعه ضد الشعوبية التي استشرت بين رجال بلاطه، ولأنه أيضاً نكب البرامكة نكبة لا هوادة فيها، واجتثَّ جذورهم المتغلغلة في دولته، على الشكل الذي سنذكره، فاتهموه بقلَّة الوفاء، وبالارتجال في الحكم، وسرعة البتِّ بالأمور، على غير هدى ولا صراط مستقيم.

وغير هؤلاء، جاء أدباء من مؤلفي كتب الطرائف والنوادر والقصص الأدبية، في العصور المتعاقبة، فتحدثوا عن مجالس اللهو والشراب والتمتع بالجواري الحسان، في العصر العباسي الأول، فأطلقوا لأخيلتهم العنان، وابتكروا ما شاؤوا أن يبتكروا من وحْي أقلامهم، رغبة في استمالة القراء إلى إنتاجهم الفكري، فزجّوا اسم «هارون الرشيد» في مبتدعاتهم تلك، ليسبغوا عليها لوناً من ألوان التاريخ، مستغلين شهرة هذا الملك الشاب الوسيم، وما عرف به عهده من رُقِيّ أدبي وفنّي، وانغماس في الشهوات واللذائذ وغيرها. فأظهروه على غير حقيقته، وصوّروه للناس فاسقاً عربيداً يعكف على الخمرة والمحرمات، ويتهالك على النساء.

فضلاً عن أن عدداً آخر من المؤرخين، أحبوا سيرة هذا الرجل، واستهوتهم بعض محامده وجميل فعاله، وكانوا من المتعصبين لقوميتهم العربية، فتحزبوا له ضد شانئيه، واندفعوا بعواطفهم الجامحة إلى وصفه بكل مكرمة تزيِّنه، وتجريده من كل شائبة تعيبه،

ووضعوه في مصاف الزاهدين المتعبدين الذين يذيبون محاجرهم بكاء من خشية الله، أو في مصاف الفلاسفة الحكماء في تصرفاتهم البعيدة عن الأخطاء والتناقض.

ونحن لو أخذنا صوراً مختلفة من ذلك الفيض الغزير من أخبار الرشيد التي دوَّنتها كتب التاريخ والأدب، على علاّتها دون دراسة أسبابها، أو معرفة ظروفها وملابساتها، لوجدنا أن لكل من خصومه وأنصاره أعذاراً في ما ذهبوا إليه:

قيل مثلاً: جرت بينه وبين أحد العلويين في مجلسه مجابهة حادة، اغتاظ فيها الرشيد، فقال لصاحبه: «يا ابن الفاعلة»، فأجابه العَلَوي: «تلك أمك التي تواردها النخاسون»، فأحسّ الرشيد بجرح عميق لكرامته من ذلك الجواب الذي أشار إلى شيء من الواقع، ولم يحتمل الصبر عليه أمام رجال حاشيته، فأمر بقتله حالاً.. فقتل[1].

وقيل أيضاً: إنه استدعى «أبا العتاهية» يوماً، وقد زخرف مجلسه وأكثر الطعام والشراب واللذات فيه، وقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم، فقال:

عِشْ مَا بَدا لكَ سالِماً ... في ظِلِّ شاهقةِ القصورِ

تسعَى عليكَ بما اشتَهيْتَ ... لدى الرواحِ إلى البكورِ

فإذا النفوسُ تقعقعَتْ ... عن ضيقِ حشرجةِ الصدورِ

فهناكَ تَعلمُ موقِناً: ... ما كنْتَ إلا في غرورِ

فبكى الرشيد بكاء شديداً. فقال الفضل بن يحيى البرمكي للشاعر: دعاك أمير المؤمنين لتسرُّه فأحزنته؟؟ فقال له الرشيد: «دعه، فإنه رآنا في عمى، فَكَرِهَ أن يزيدنا»[2] وناداه أحدهم، وهو في مكة: «يا هارون، أتعبت الأمة والبهائم» فقال: «خذوه...»، فأخذوه وأدخلوه عليه، فقال له: «ثكلتك أمك، ما حَمَلَك على أن دعوتني باسمي؟؟» قال الرجل: «إن الله سبحانه قد دعا أحبَّ خلقه إليه بأسمائهم، فقال: ﴿يا آدم، ويا نوح ويا عيسى، ويا محمد﴾، وكنّى أبغض خلقه إليه فقال: ﴿تبَّت يدا أبي لهب..﴾ فقال الرشيد: «أخرجوه..» فأخرجوه[3].

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٢٦٣.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ١٢٨

(٣) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٧.

وماتت أمه «الخيزران»، كما رأينا، فجزع عليها جزعاً شديداً، وخرج مع المشيِّعين حافياً باكياً، يحمل النعش على كتفه، في هيئة قد تكون نابية بالنسبة إلى خليفة مثله، يفترض فيه الجد والصبر.. ثم يموت من أهله أشخاص آخرون، فلم يجزع عليهم مثل جزعه على أمه، ولم يظهر من التوجّع ما يزري به أو يؤخذ عليه.

ونراه يحب «جعفر بن يحيى البرمكي» فَيَسْتَوْزِرُهُ ويقربه، ويرفع مكانته فوق مكانة أمراء بيته، ويناديه بكلمة «أخي» ، ويقرن اسمه مع اسمه على أوجه الدراهم والدنانير، ويخيط ثوباً واسعاً يلبسه وإياه في الوقت نفسه حين يجلس للسمر والمنادمة، ويتركه يتصرف في شؤون دولته وفي أموره الخاصة تصرفاً لم يسمح به لوزير قبله.. ثم يغضب عليه، لأسباب نجهلها، فيأمر بقطع رأسه، ويزجّ أباه وإخوته في أعماق السجون حتى يموتوا جميعاً.

ويسمع امرأة تتسوَّل في مكة وتستجدي بقولها:

طحَنَتْنَا كلاكلُ الأعوامِ	ورمَتْنَا حوادثُ الأيّامِ
فأتَيْناكُمُ نَمُدُّ أكُفّاً	نائلاتٍ لزادِكُمْ والطّعامِ

فيبكي لحالها، ويأمر خادمه أن يملأ قصعتها ذهباً، فيملؤها حتى تفيض بالذهب يميناً وشمالاً[1].

ويستهويه جمال جارية حسناء تُعرض أمامه للبيع، فيشتريها بخمسين ألف دينار، ثم ينتبه إلى أنه أسرف وبذّر، فيستغفر ربه.. ويغنّيه أحدهم بيتاً من الشعر فيطرب له، وتتملكه النشوة، فَيَهِبُ للمغني مُلكاً ضخماً ليس مما يوهب للمغنين، لجلال ثمنه ووفرة غلّته.. ومع ذلك، نسمعه يجيب أحد خاصته وقد سأله: «وهل تخشى يا أمير المؤمنين الفقر؟» فيقول: «وهل أحد أخشى للفقر مني ؟؟»[2].

ويدعوه أحد الأمراء إلى وليمة، فيقدِّم له جاماً من الطعام النادر، فيسأل عن ثمنه، فيقال: بكذا دراهم، فَيَسْتَغْليه، ويعنِّف صاحب الدعوة على تبذيره، ويأمر بأن يعطى الْجَامَ

(١) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٨.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٦.

بما فيه إلى الفقراء.. ونقرأ له في مكان آخر: أن لقمة من لحم الجزور أكلها، فكلَّفته أربعمائة ألف درهم[1].. إلى آخر ذلك.

من الجائز أن تكون هذه التصرفات وأمثالها قد حدثت في حياة الرشيد، لكن حدوثها كان في أوقات متفرقة وظروف ومناسبات مختلفة، غير أن بعض رواة الأدب والتاريخ كانوا يقتبسونها من أفواه الناس، ويدوِّنونها في كتبهم، مع كل ما علق بها من المبالغات والإضافات، ويجمعونها في صعيد واحد كأنها صدرت عن الرشيد في ساعة واحدة أو في أوقات متقاربة، فتظهر للقارىء مليئة بالتناقض والمفارقات. فيجد الخصوم في بعضها مجالات واسعة للنيل منه والأخذ عليه، كما يجد الأنصار أيضاً في بعضها الآخر حججاً وأدلّة للدفاع عن شخصه، ومدح سيرته بأكثر مما يستحق.

والحقيقة غير ذلك، فقد كان الرشيد صاحب نواح مختلفة، ككل إنسان يحمل بين جَنَبَيْه عاطفة مشبوبة، وحساً مرهفاً، ويتمتع بشباب مندفع، وسلطان واسع، وثراء دونه ثراء الملوك الآخرين: فإذا جد أمعن أحياناً في جدِّه، وإذا لَهَا ومرح اندفع في بعض الأحايين بِلَهْوِهِ ومرحه، خضوعاً لحدَّة العاطفة التي كانت أكبر صفاته ظهوراً وبروزاً.. ولكن هذا لا يعني قطعاً أنه كان يجنح إلى التطرف في كل تصرفاته. وإذا جنح يوماً ما إلى ذلك، وجد من رزانته وثقافته ما يمنعه من الخروج عن الحدود المشروعة له، والاستسلام إلى شهواته النفسية.. كما أننا لا ننكر أنه ربما حاول أن يجتهد أحياناً فكان يخطئ كما يخطئ غيره.

وربما كان هناك بعض السر في عظمة هذا الرجل، لأنه كان أكثر الناس تبايناً في جوانب شخصيته. فالذي يقرأ ناحية الجدِّ في حياته، دون النواحي الأخرى، يجد أمامه ملكاً حازماً ساهراً على شؤون رعيّته، شجاعاً تقياً، يعمل لآخرته كأنه سيموت غداً.. كما أن الذي يقتفي أخباره العلمية والأدبية، واندفاعه في تشجيع كل إنتاج فكري، يزعم يقيناً بأنه كان دعامة أساسية من دعامات تلك الحضارة التي ازدهرت في عهده، وأنه كان أحد حَمَلَةِ مشعلها وزعيمهم.. ومن يتصفح كتاب «الأغاني» وما يشبهه من الأسفار التي جمعت أخبار لَهْوِهِ ومجالس أنسه وسمره، يكاد يجزم بأنه كان زير نساء، يتقلَّب في أحضان جواريه الحسان، على أنغام العازفين، ورنين كؤوس النبيذ الحلال.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٦

وقد أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يحوي كل هذه الجوانب في سيرته، لولا الغلو في بعض الأخبار التي رُوِيَتْ عنه، وبعض التّهم التي ألصقت به وهو منها براء.. وفيما يأتي صور واضحة عن صفاته وأخلاقه، هي في رأينا أقرب إلى الحقيقة والواقع.

صفاته وأخلاقه

نستطيع القول بأن أهم صفاته وأبرز أخلاقه وسجاياه: «حدة المزاج، والحزم، والتقوى، وحب العلم والعلماء، والميل إلى الأدب والأدباء، والكلف بالغناء، ومعاشرة النساء، وتذوُّق النكتة والدعابة، والأريحية والسخاء..»:

ورث حدة المزاج من أبويه، وبخاصة من أمه «الخيزران»، التي رأيناها في أبحاثنا السالفة، كيف كانت تضعف أعصابها أمام عاطفتها الجامحة.. ومن طبيعة المزاج الحاد جَعْلُ صاحبه سريع الاستثارة إذا جُوبِه بما لا يحب، سَهْلَ الترويض إذا عولج بالحكمة وحسن الاعتذار.. وكان الرشيد كذلك لولا أن حدة ذكائه وسرعة انتباهه وسعة ثقافته كانت كلها تخفف من غلواء أعصابه عند السخط، وتعرّفه بأخطائه إذا غلا واندفع فيها.

كثيراً ما رأيناه في أشد سَوْرَة غضبه، ولكنه قلما أفرط في العقوبة إلا لسبب يكون له أثر في تهديد سلطانه، أو جرح كرامته، أو اعتداء على حقوق رعيته. ورأيناه سريع العفو بعد الغضب، قريب المغفرة إذا شعر بأنه جاوز الحد في إنزال العقاب، أو كان سبب الغضب قد ضعف بعد مرور الزمن الكافي عليه، أو كان جواب المذنب على جانب من حسن الاعتذار والمنطق السليم.. خطب يوماً في مكة أمام الوفود، وحث الناس على طاعة الله وعمل الخير، فقاطعه رجل من السامعين وقال له: «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» فغضب لتلك المجابهة القاسية، وأمر بجلد الرجل في الحال، فجلد مائة سوط. ثم مضت على هذا الحادث أيام، فتذكّر ذلك الرجل، فسأل عنه، فقيل له: «إنه رجل من الزهّاد المتعبدين، وشيخ كبير السن، وقد ساءت صحته على أثر الجلد، وصار يئن في ليله ويدعو بالموت لنفسه»، فتألّم الرشيد لما جرى منه، وأرسل إلى ذلك الرجل من يستميله

ويسترضيه، ولم يزل به، يكرمه ويستحله حتى رضي الرجل وأحله[1]. وكانت قبيلة «ربيعة» وكراً لزعماء الخوارج في شمال العراق، وموطن الشغب والثورات على الدولة، وكان آخر أمرها أنها عصت على عامل الرشيد في الموصل ونواحيها، وقتلت بعض قواده وجنده وأخلّت بالأمن، فأرسل إليها جيشاً قوياً لتأديبها ؛ وأمر قائد ذلك الجيش أن يعمل السيف في كل من يصادفه من أبناء هذه القبيلة المتمردة حتى يأتيه أمره، فأكثر الرجل في بني ربيعة القتل والتأديب زمناً طويلاً، دون أن يعفو الرشيد عنهم، فدخل عليه شاعر منهم، وهو «المنصور بن بحره» وأنشده:

يجردُ فينا السيفُ من بين مارقٍ ... وعانٍ بخسودٍ كلّهُم متحاملُ

وقد عَلِمَ العدوانُ والجورُ والخنا ... بأنك عيّافٌ لهنَّ مزايلُ

ولوْ عَلِموا فينا بأمرِكَ لم يكنْ ... ينالُ بريئاً بالأذى متناولُ

لنا فيكَ أرحامٌ ونعتَدُّ طاعةً ... وبأساً إذا اصطكَّ القنا والقنابلُ

وما يحفظُ الأنسابَ مثْلُكَ حافظٌ ... ولا يصلُ الأرحامَ مثْلُكَ واصلُ

وأنتَ اذا عاذتْ بوجهِكَ عوّذٌ ... تطامنَ خوفٌ واستقرَّتْ بلابلُ

فأمر في الحال برفع السيف عن القوم، وأجاز الشاعر بجائزة سنية[2].

وارتاب يوماً برئيس شرطته «عبد الله بن مالك الخزاعي» بعد سماع أخبار عنه تدلّ على عدم إخلاصه، فطرده من منصبه، ومنعه من بلاطه، وأمر أهله وحشمه وجميع قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته، فتحاماه أقرب الناس إليه من ولد وأهل، ولم يدنُ منه أحد ولم يلطف به، حتى أثر ذلك في نفسه وبدنه. فجاءه صديق له يدعى «محمد بن ابراهيم الهاشمي» في جوف الليل، وقال له: «يا عبد الله، إن لك عندي يداً لا أنساها، ومعروفاً ما أكفّرُه، وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك. وها أنا ذا بين يديك ونَصْبَ عينيك، فَمُرني بأمرك، فوالله لأجعلن نفسي وقاية نفسك، وأسوقها في كل ما نكأها وجرحها».

(١) العقد الفريد: ج ١ ص ٢١.

(٢) الاغاني: ج ١٢ ص ٢٢.

فقال له عبد الله خيراً وأثنى عليه، وأخبره بعذره في موجدة أمير المؤمنين عليه. فوعده محمد أن يكلم الرشيد ويخبره باعتذاره. فلما أصبح محمد، وافاه رسول الرشيد يدعوه إليه ـ وكان الجواسيس قد أخبروه بهذه الزيارة ـ فدخل عنده، فوجده ممتقع اللون من الغضب، فقال الرشيد: «من أتيت هذه الليلة؟؟» قال: «اتيت عبد الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه، وعتق مماليكه، وصدقة ماله، وعشرين نذراً يهديها إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً، والبراءة من ولاية أمير المؤمنين، إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله من عبد الله بن مالك أو اطّلع عليه أو همّ به أو أضمره أو أظهره». فأطرق الرشيد مفكراً، ثم قال: «أحسبه صادقاً يا محمد، فَمُرْهُ بالرواح إلى الباب. قال محمد: «وأكون معه يا أمير المؤمنين؟؟» قال: «نعم». فلما دخل عبد الله بن مالك على الرشيد، انحرف نحو القبلة وخرَّ ساجداً لله، ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد وقال له: «ما بك حاجة إلى أن تعتذر، وقد عرفت عذرك».. فكان عبد الله بن مالك، بعد ذلك، إذا دخل عليه رأى فيه بعض الأعراض والانقباض، فشكا ذلك إلى صاحبه محمد بن ابراهيم الهاشمي، فدخل هذا على الرشيد وقال: «يا أمير المؤمنين، إن عبد الله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين عنه، ويسأل الزيادة في بسطه له». فقال الرشيد: «يا محمد، إنا معاشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجه ليل ولا نهار[1]».

ومن طريف ما يروى: أن الشاعر «منصور النمري» مدح الرشيد بقصيدة يقول فيها هذا البيت:

إن أخلفَ الغيثُ لمْ تُخلفْ معالِمُهُ ... أوْ ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتّسِـعُ

وصادف بعد زمن قصير أن عسرت الولادة على زوجة الشاعر، فذهب إلى صاحبه «كلثوم بن عمرو العتابي» وكان هذا من نوابغ الشعراء والفصحاء من الأعراب، وشكا إليه حال زوجته وتعسُّر أمرها. فغلبت النكتة على هذا، وقال له: أما قلت في مدح الرشيد: «أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع»؟؟ قال: «نعم»، قال العتابي: «فاكتب إذن على فرجها: «هارون

(١) كتاب التاج: ٩٣

الرشيد» ، ليتسع وينفرج الأمر»، وسمع الرشيد بهذه المحاورة فغضب، وأرسل في طلب العتابي ليضرب عنقه، فهرب عن أعين الحرس والشرطة عدة أعوام، ثم التجأ إلى يحيى بن خالد، فشفع له، واستوهب دمه من الرشيد، فصفح عنه على أن لا يدخل عليه، لكن العتابي ساءت حالته وضاقت يده، فاحتال بالدخول عليه متنكراً، ثم جثا بين يديه وقال: «يا أمير المؤمنين، قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك، وردّني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولَنِعْمَ الصائن لنفسي كنت لو عانني عليك الصبر»:

أتتركُني جدبَ المعيشةِ مقتراً ... وكفّاكَ من بحريهما تكفانِ

وتجعلُني سهمَ المطامعِ بعدَ ما ... بللْتَ يميني بالنَّدى ولساني ؟؟

فأعجبه حسن اعتذاره، وفصاحة بيانه، ورقّة شعره، وخلع عليه، وسمح له بالتردّد على بابه. فخرج وهو لا يعي من شدة الفرح بتلك النتيجة[(١)].

لا نختلف في أن حدَّة المزاج نقص في صفات الحاكمين، وأن بعض أخطاء الرشيد كانت ناتجة عن هذا النقص، ولكننا لا نقرأ آراء خصومه فيه من هذه الناحية، فقد كان للرجل صفات ومزايا أخرى تغطي هذا النقص وتضعف من خطره في تصرفاته. وربما كانت حدَّة المزاج هذه، الناتجة عن شعوره المرهف، باعثاً ودافعاً له نحو تلك الأعمال الجبارة التي خلَّدت اسمه في التاريخ، ودعامة متينة لبعض صفاته الأخرى، وفي مقدمتها الحزم.

* *

يقول الجاحظ: «كان الرشيد أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيَّته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمراً»[(٢)].. وفي رواية أخرى: «أنه كان في أيام استقرار أموره، يقسم أعماله في ليالي أسبوعه: فليلة للوزراء، يذاكرهم في أمور الناس، ويشاورهم في المهم منها، وليلة للكتَّاب، يجمع رؤساءهم ويحاسبهم عما لزم من أمور المسلمين، ويرتِّب لهم ما ظهر من صلاح أمورهم. وليلة للقواد وأمراء الأجناد، يذاكرهم في شؤون الأمصار، ويوقفهم

---

(١) الجهشياري: ٢٣٣

(٢) كتاب التاج: ١٧٠.

على ما تبيَّن من صلاح الكور، وسد الثغور. وليلة للعلماء والفقهاء. وليلة للقراء والعباد. وليلة يخلو فيها لنفسه لا يعلم أحد ـ قرب أو بعد ـ ما يصنع، ولا يشك أحد في أنها خلوة عبادة واستغفار»[1]

ومهما يكن نصيب هذه الرواية الأخيرة من الصحة، فإن الذي أجمع عليه القول، هو أنه كان يقظاً شديد الحزم، وقد وصفه بعض معاصريه فقال: «إنه كان يتشبَّه بجدِّه المنصور، ويقتفي آثاره، إلا في العطاء فإنه كان أسخا منه يداً، وأبذل جوداً»[2]. وفي الروايات الأخرى الشيء الكثير الذي مما يدل على يقظة هذا الخليفة الشاب وحزمه: منها أنه كان لا يتساهل مع قواده وأمراء أجناده، إذا قصَّروا في واجباتهم العسكرية، أو تراجعوا أمام العدو. وقد كتب مرة إلى قائد له وهو في حرب مع الخوارج، وكانت قد طالت بينهم المناوشات بدون معركة حاسمة، يقول: «لو أرسلت محلَّك عبداً من عبيدي لعمل أكثر مما عملت، فلئن تقاعست أكثر من هذا، أرسلت من يأتيني برأسك»

ونشبت ثورة في الشام، فهرب عاملها، وكان أميراً عباسياً، فكتب إليه الرشيد يقول: «استحيت لشيخ ولده المنصور، أن يهرب عمن ولده كندة وطي، فهلا قابلتهم بوجهك، وأبديت لهم صفحتك، وبذلت لهم محنتك، وكنت كمروان ـ أي مروان بن محمد الجعدي آخر خليفة أموي ـ إذ خرج مصلتاً سيفه، متمثلاً ببيت الجحاف بن حكيم:

متقلِّدين صفائحاً هنديةً   يتركْنَ مَنْ ضربوا كَمَنْ لمْ يولَدِ

فجالد به حتى قتل ؟!»[3].

ومن دلائل حزمه وحسن تدبيره، اهتمامه بأمر البريد، فالبريد، كما قلنا، شبكة من المراقبة لشؤون الرعية، تصل زوايا الدولة بالعاصمة، وتخبر الخليفة عن كل صغيرة وكبيرة تحدث في أطراف البلاد، سواء أكان ذلك من قبل العمال والمستخدمين أم من

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩٢.

(٢) كتاب التاج: ١٦٩

(٣) العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٣٠.

تصرفات العامة، وكان الرشيد يختار أصدق عماله وأخلصهم لإدارة هذه المؤسسة المهمة. وكثيراً ما كان يعنى بتنظيمها، وتسهيل الطرق للإسراع في أداء واجباتها، والبذل على إصلاحها.. وقد قيل إن ديوان البريد في عهده كان في غاية الإتقان والتنظيم، ولم يصل في عهد خليفة سبقه إلى ما وصل إليه في أيامه.. وقد بيَّنا فيما مضى، أن الرشيد كان من أمهر الخلفاء في بث العيون والأرصاد، وتتبُّع أخبار كل ذي شأن في دولته، من وزير أو أمير أو قائد أو زعيم متنفذ في إقليمه، سواء أكان في قلب عاصمة ملكه أم في المدن والقصبات:

حكى يزيد بن مزيد الشيباني، قال: «وجّه إليَّ الرشيد في وقت يرتاب فيه البريء، فلما مثلت بين يديه قال: يا يزيد، من الذي يقول:

وَمَنْ يفتقر منّا يعِشْ بحسامِهِ | ومنْ يفتقرْ من سائرِ الناسِ يسأَلِ ؟؟

قلت: والذي شرَّفك وأكرمك بالخلافة ما أعرفه، فغضب وقال: ومن الذي يقول:

وإن يكُ جدُّ القومِ فهرَ بنَ مالكٍ | فجدّي «نجيم» قَرْمُ بكرِ بنِ وائلِ؟

قلت: لا والذي أكرمك وشرَّفك يا أمير المؤمنين، ما أعرفه. قال: «والذي أكرمني وشرَّفني، إنك لتعرفه. أتظن يا يزيد، اذ أوطأتك بساطي، وشرَّفتك بصنيعتي، أني أحتملك على هذا؟؟ أو تظن أني لا أرعى أمورك وأتقصاها، وتحسب أنه يُخفى عليَّ شيء منها ؟؟ والله إن عيوني لعليك في خلواتك ومشاهدك.. هذا شاعر جلف من أجلاف ربيعة، عدى طوره وألحق قريشاً بربيعة.. فَأْتِنِي به». يقول يزيد: «فانصرفت أسأل عن الشاعر، فعلمت أنه «بكر بن النطاح» وكان من قومي وصديقاً لي، فدعوته وأعلمته ما كان من أمر الرشيد، وأمرت له بألفي دينار، وأسقطت اسمه من الديوان، وأمرته بأن لا يظهر ما دام الرشيد حياً[1]».

وفي رواية أخرى: أنه غضب مرة على يزيد بن مزيد أيضاً، لكلام سمعه عنه. فأرسل إليه، وقال له: «لقد قلت بالأمس: «أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها»، لا أم

(١) الأغاني: ج١٧ ص ١٥٤.

لك، أي ركن وأي ثائر أنت؟؟ قال يزيد: والله يا أمير المؤمنين، ما قلت هذا، وإنما قلت: «أنا عبد الدولة، والثائر لها»، فأطرق الرشيد، وصار يزيد بن مزيد يكلِّمه حتى انحلَّ عن وجهه الغضب، ثم ابتسم وأنعم عليه وأكرمه[1].

وكان إذا شكَّ بسوء نية أحد من ذوي النفوذ والشكيمة، لم يتركه ليتفاقم أمره، ولم يمهله ليعظم شأنه، وربما باداه بقطع الطريق عليه، اتِّباعاً لقاعدة: «المنع أسلم عاقبة من القمع». لذلك كان يحاسب على الكلمة، ويحاكم على الشبهة، بعد تواتر الأخبار. وقيل إن عامله على البريد في مصر، روى له قولاً من والي مصر «موسى بن عيسى العباسي» يدلُّ على شيء من الاستخفاف وعدم المبالاة في أمر ولايته، وكان موسى هذا من شخصيات بني العباس المرموقين، فغضب الرشيد عليه، وحلف أن يعزله، ويبدِّله بأخسِّ رجل عرف بين الواقفين على بابه.. ففعل.

وسمع يوماً أن «عبد الله بن عبد العزيز العُمَري» من ولد الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، وكان ورعاً تقياً، يريد الثورة عليه، فلم يقتنع بما سمع عنه، وقال لخاصته: «ما أدري والله ما آمر فيه، وأكره أن أقدِم عليه قبل أن أعرف طريقه ومذهبه، وما أثق بأحد أبعثه إليه» فقال الفضل بن الربيع: «أنذهب أنا وعمر بن بزيع إليه، فنرى رأيه؟؟» قال: «فأنتما». فخرجا حتى قدما عليه، وهو بالبادية، فأتياه مع الضحى في مسجده، فدخلا عليه وهما بزيٍّ الملوك من الثياب والعطر، فجلسا بجانبه، وقالا له: «يا أبا عبد الرحمن، نحن رسل من أهل المشرق، يقولون لك: «اتَّقِ الله ربك، فإذا شئت فَقُمْ ونحن معك بسيوفنا» فأقبل عليهما وقال: «وَيْحَكُما، فيمن؟؟ ولِمَنْ؟؟»، قالا: «أنت»، فقال: «والله ما أحب أني لقيت الله بمحجم من دم امرىء مسلم، وإن لي ما طلعت عليه الشمس» فلمّا علما رأيه قالا له: «فإن معنا شيئاً تستعين به على دهرك»، قال: «لا حاجة لي فيه».. فعادا إلى الرشيد وحدّثاه بما جرى، فاطمأن وارتاحت نفسه[2].

لم يغزُ خليفة من خلفاء المسلمين بنفسه بقدر ما غزا هارون الرشيد، ولم تتعطل

---

(١) المستطرف: ج ١ ص ٢٢٧.

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٧٥٠.

حركة الجهاد طوال أعوام خلافته، منذ تولاها حتى قرب أجله، سواء أكان ذلك الجهاد بشخصه أم برجال الحرب من قواده، في شرقي الدولة وشمالها، وفي البر والبحر[1]. وهو الوحيد الذي عرف بين الملوك المسلمين بأنه يغزو سنة ويحجُّ سنة، وفي ذلك يقول الشاعر «أبو المعالي الكلابي»:

فَمَنْ يطلبْ لقاءَكَ أو يُـــرِدْهُ	ففِي الحرمَيْنِ أوْ أقصَى الثُّغورِ
ففِي أرضِ العدوِّ على طمرٍّ	وفــي أرضِ الترفُّــهِ فــوقَ كورِ
وما حازَ الثُّغورُ سِواكَ خلقٌ	مِــنَ المتخلفيــنَ علــى الأمورِ

وحُكِيَ: أن وزيره يحيى بن خالد، ولّى رجلاً بعض أعمال الخراج في أرض السواد، فدخل هذا على الرشيد يودِّعه، وعنده يحيى وجعفر البرمكيان، فقال لهما الرشيد: أوصياه بما يجب أن يتخذه في تصرّفه. فقال يحيى: «وفّر، وأعمر» وقال جعفر: «أنصف وانتصف»، فقال الرشيد: «أعدل وأحسن»[2].

وحدثت، ذات يوم، ثورة في بلاد «أرمينية» فأرسل لها قائده «خزيمة بن خازم» على رأس جيش كبير، وأمره بتأديب الثائرين. فوضع خزيمة فيهم السيف، فاستسلموا له، وألقوا سلاحهم، ولكنه استمر يقتل الناس على الشبهة والظن، فعلم الرشيد بذلك، فغضب وأرسل إليه يقول: «لا أم لك، أتقتل بالذنب من لا ذنب له ؟؟». فأغمد الرجل سيفه[3].

وجاء في الأخبار، أنه رفع إلى أبي يوسف القاضي، مرة، قضية مسلم قتل ذمياً، فَحَكَمَ عليه أبو يوسف بالقَوَدِ، فأتاه رجل بِرُقعةٍ، فألقاها إليه واختفى، وإذا فيها:

يا قاتلَ المسلــمِ بالكافــرِ	جِرْتَ ومــا العـادلُ بالجائـرِ
يـا مـنْ ببغـــدادَ وأطرافِهـا	مــن علمـاءِ النّاسِ أو شاعـرِ

(١) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٢.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٧٤٨

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٧٠٩.

استَرْجِعوا وابكوا علَى دينِكُمْ ... واصطَبِروا فالأجرُ للصّابِرِ
جارَ علـى الدّيـنِ أبو يوسُفٍ ... بقتلِهِ المؤمنَ بالكافرِ

فدخل أبو يوسف على الرشيد، وناوله الرقعة، وحدّثه بالأمر، فقال الرشيد: «تدارك هذا الأمر بحيلة وحزم. لئلا تكون فتنة»، فاعتبر أبو يوسف رأي الرشيد هذا قراراً صدر من أمير المؤمنين، وهو المرجع الأعلى للحكم بين الناس، فطالب أصحاب الدم ببيِّنة على صحة الذمة وثبوتها لدى القتيل، فلم يأتوا بها، فأسقط القَوَدَ، وتدارك ذلك الأمر الذي كاد يفتن الناس[1]

ومما روي في هذا الباب: أن الرشيد غضب مرة على سكان مدينة الموصل، لأنها كانت في عهده ملجأ الخوارج والمتمردين على قوانين الدولة، ومركز الشغب والثورات. فأمر بهدم سورها، فهدم، ثم استفتى أبا يوسف القاضي بوضع السيف في أهلها، فلم يفته ابو يوسف وقال له: «فيهم الأبرياء والطائعون».. فخلى سبيلهم.

ومع ذلك، فنحن لا نبرّىء الرشيد من بعض الهفوات التي صدرت عنه، وهو يريد الحزم ومجاراة السياسة، ولكننا لا نشكُّ في أنه كان يتحاشى الظلم في حزمه وأحكامه، ويبتعد عن الارتجال على الرغم من حدة عاطفته مستعيناً باستشارة الوزراء، أو فتاوى الفقهاء. وكان يحجم عن المضي في عزيمته أمام حدود الشرع.. وله في ذلك رادع من دينه.

* *

وقد علمنا أنه وُلد وتربى في بيت يحرص أهله على أحكام الشريعة الاسلامية. فكان جدّه المنصور أحد شيوخ فقهاء عصره. وكان أبوه المهدي من أشد الناس طاعة لرجال الدين، وأعنفهم على الزنادقة والمارقين، فشبَّ الرشيد في هذا الوسط تقياً، صادقاً في عقيدته، قوياً بإيمانه، تلمذ لأساتذة كبار، عرفوا بالورع والتعفف أمثال «علي بن حمزة الكسائي» أحد شيوخ القراءات القرآنية السبع، وإمام من أئمة الكوفة في اللغة والنحو والأخبار.. وجالس في شبابه فقهاء عصره كأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن وغيرهما من القضاة ورجال التشريع، وبقي على صلته بهم حتى آخر أيامه.

(١) الأحكام السلطانية: ٢١٩.

فكان يصلّي في كل يومماية ركعة، عدا الفرائض[1]. ويتصدق من ماله الخاص، كل صباح، بألف درهم أو ما يزيد، يوزعها على الفقراء بيده او بأمر منه[2]. وثبت في أخباره أنه حجّ في فترة خلافته تسع مرات، بمعدل مرة واحدة كل عامين، عدا المرات التي سبقت خلافته. وأبى في المرة الأخيرة التي حجّ فيها إلا أن يزحف ماشياً، من الرقة إلى مكة، على قدميه رغم صعوبة الطريق وبعد المسافة، لأسباب سيأتي ذكرها.

وكان من عادته إذا ذهب إلى الحج اصطحب معه مائة من الفقهاء على نفقته، وفي السنة التي لا يحجُّ فيها، يرسل عوضاً عنه ثلاثمائة رجل إلى مكة بالنفقة والكسوة الظاهرة. وقد تحرَّينا أعوام حجه فكانت في السنوات التالية: «١٧٠ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٧ ـ ١٧٩ ـ ١٨١ ـ ١٨٦ ـ ١٨٨ هجرية».. وقد ذكرت لنا بعض المصادر أسماء أمراء الحجّ في عهده، في السنوات التي لم يحج هو فيها، فوجدناهم جميعاً من الهاشميين[3]

وكان من عادته في أثناء حجِّه أن يوزّع أموالاً طائلة وصدقات عظيمة في سكان الحرمين وفقراء الحجيج، ولم يسبقه في مثل هذا خليفة من قبل.. وربما كان السبب في

(١) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٦

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥١٢.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٧٠٦: وهذه أسماء أمراء الحج: عبد الصمد بن علي الهاشمي ـ ١٧١ هـ. يعقوب بن أبي جعفر المنصور ـ ١٧٢ هـ.
سليمان بن أبي جعفر المنصور ـ ١٧٦ هـ.
محمد بن ابراهيم بن محمد الهاشمي ـ ١٧٨ هـ.
موسى بن عيسى الهاشمي ـ ١٨٠ هـ.
موسى بن عيسى الهاشمي ـ ١٨٢ هـ.
العباس بن موسى الهادي ـ ١٨٣ هـ.
ابراهيم بن محمد بن عبد الله الهاشمي ـ ١٨٤ هـ.
منصور بن محمد بن عبد الله الهاشمي ـ ١٨٥ هـ.
عبيد الله بن العباس بن محمد الهاشمي ـ ١٨٧ هـ.
العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي ـ ١٨٩ هـ.
عيسى بن موسى الهادي ـ ١٩٠ هـ.
الفضل بن العباس بن محمد الهاشمي ـ ١٩١ هـ.
العباس بن عبيد الله الهاشمي ـ ١٩٢ هـ.

عنايته بالحج، واهتمامه بالترفيه عن أهل مكة والمدينة، تلك الرؤيا التي رأى فيها النبيﷺ قبل خلافته، فقال: «إن هذا الأمر صائر إليك، فاغزُ، وحجّ، ووسِّع على أهل الحرمين»[1]

وكان لشدة تمسُّكه بالدين، يكره المراء والجدل فيه: ويقول «إن الجدال في الدين شيء لا فائدة منه، وبالأحرى أن لا يكون فيه ثواب»[2]

فلم يكن يسمح لأحد بالمناقشة في أصوله وفلسفته أمامه.. وسواء أكان ذلك تزمتاً منه، أم حرصاً على نصوص الدين من أن تعبث بها الآراء، وقد رُوِيَ الشيء الكثير عنه في هذا الصدد.. يقول ابن كثير: «روى له أحد العلماء حديثاً في مجلسه عن النبي، فاعترض عمٌ الرشيد على ذلك الحديث، فغضب الرشيد وقال: أتعترض على الحديث؟؟ عليّ بالنطع والسيف، وهمّ بقتله، فقام الناس إليه يشفعون فيه، فأمر بسجنه ولم يطلقه حتى اعترف بخطئه واستغفر ربه وتاب إليه»[3] .. وسمع أن رجلاً يقول بخلق القرآن، فأحضره وسأله عما قيل عنه، فاعترف الرجل برأيه في أن القرآن مخلوق، فضرب عنقه في الحال[4].

وغلا في منع الجدال في الدين حتى اتهم «علماء الكلام» بالانحراف، زاعماً بأن كثرة مناقشتهم للأمور الدينية تسبب التشويش والخلط على البسطاء من العامة، وهذا ما يُحرفهم عن طريق الصواب. لذلك أمر بحبس هؤلاء العلماء، ولم يطلقهم حتى كانت قصة ملك السند معه.. وملخصها: أن أحد ملوك السند طلب منه أن يبعث إليه من يناظره في الدين الإسلامي ليرى رأيه فيه. فبعث الرشيد إليه أحد القضاة، وجرت بينه وبين رئيس علماء السند مناظرة أمام الملك، سأل السندي فيها القاضي، قائلاً: «أخبرني عن معبودك. هل هو القادر؟؟» قال القاضي: «نعم». قال: «قادر على أن يخلق مثله؟؟» فامتنع القاضي عن الجواب، وقال: «هذه المسألة من علم الكلام، وهو بدعة، وأصحابنا ينكرونه». قال السندي

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١١٤

(٢) المنية والأمل: ٢

(٣) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٥

(٤) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٥ – فكرة «خلق القرآن» انتشرت بعد الرشيد، وكان لها دور في عهود الخلفاء الذين أعقبوه.

للملك: «قد كنت أعلمتك دينهم». فكتب ملك السند بذلك للرشيد، فغضب وضاق صدره وقال: «أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟؟» فقيل له: «بلى يا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدل فيه، وجماعة منهم في الحبس»، قال: «أحضروهم، فسألهم: ما تقولون في هذه المسألة؟؟» فقال أحدهم: «هذا السؤال محال، لأن المخلوق لا يكون إلا حديثاً، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يقال: «يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر» كما استحال أن يقال: «يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلاً». فاختار الرشيد أحدهم وأرسله إلى ملك السند، وأطلق سراح الباقين واختار من بينهم عدداً لمجالسته، وفي مقدمتهم «ثمامة ابن الأشرس»[(١)]

وفي حجة عام ١٧٤ هـ، حضر مجلسه الإمام «مالك بن أنس» وقال له: «إن أباك يا أمير المؤمنين، بعث إليَّ في هذا المجلس كما بعثت إليَّ، وحدثته بما حدثتك به بشأن أهل المدينة، وما يصبرون عليه من البلاء، وشدة الزمان، وغلاء الأسعار، صبراً على ذلك واختياراً لجوار قبر رسول الله ﷺ». فقال الرشيد: «ذاك أبي، وأنا ابنه، وسوف أفعل ما فعل» وأمر في الحال لأهل المدينة بعشرة أبيات مال، أي ضعف ما كان أمر به لهم أبوه.. ثم قال الرشيد لمالك: «ما تقول في منبر الرسول هذا، فإني أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان، وأردّه إلى الثلاث درجات التي كانت بعهد رسول الله ﷺ؟؟» قال: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنما هو من عود شعيف، قد تخرَّمته المسامير، وقد ذهب أكثره. ومع هذا، إنه يا أمير المؤمنين، لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل من المدينة، إذ يأتي بعدك أحد، فيقول أو يقال له: ينبغي لمنبر رسول الله أن يكون معك حيث كنت، فإنما المنبر للخليفة، فينقل كما انتقل من المدينة كل ما كان بها من آثار النبي ﷺ، لأنه ما تُرِكَ له بها نعل، ولا شعر، ولا فراش، ولا عصاة ولا قدح، ولا شيء مما كان له ها هنا من آثار، إلا وقد انتقل».. فأطاعه الرشيد، وانتهى عن ذلك[(٢)].

وقد أجمع الرواة والمؤرخون، على أنه كان «من أرقّ الخلفاء وجهاً، وأكثرهم حياء، وأخشعهم قلباً، وأغزرهم دمعاً عند الموعظة الحسنة»[(٣)] .. وكثيراً ما كان يسمع بواعظ

---

(١) المنية والأمل: ٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩٦.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٦١٨ ـ والفخري: ٢٦٣.

زاهد، فيرسل إليه، أو يأتيه بنفسه، ويطلب منه الموعظة، ويبكي بين يديه.. وسمع يوماً بأوصاف «الفضل بن عياض» الورع المتعبد العالم، فاشتاق إلى مقابلته، فقيل له: «إنه لا يخرج من بيته»، فتوجّه إليه بصحبة فقيه بغداد «عبد الله بن المبارك»، فلما قربا من منزله، قال عبد الله للرشيد: «يا أمير المؤمنين، إن الفضل بن عياض، إذا عرفك وعرف مكانك، لم يأذن لك عليه، ويسفر عنك». قال الرشيد: «تستأذن أنت عليه، وتخفي مكاني عنه حتى يأذن بالدخول». فاستأذن ابن المبارك، فرحب به الفضل، وسأله من معه؟؟ فقال: «رجل من قريش»، قال: «لا آذن، ولا حاجة لي برؤية أحد من قريش». قال ابن المبارك: «إنه من العلم والعناية بالفقه بمكان، إنه سيد قريش في زمانه هذا». قال: «فليدخل»، فدخلا عنده، فقال ابن المبارك: «أتدري من هذا ؟؟ وأشار إلى الرشيد». قال: «لا أدري»، قال: «هذا هارون أمير المؤمنين بن محمد المهدي». فنظر إليه الفضل ساعة، ثم قال: «هذا الوجه الجميل يُسأل غداً عن أمّة محمد ﷺ ويؤاخذ بها. لئن كان العفو والغفران يَسَعُكَ مع ما أنت فيه، إن هذا لَهُوَ الفضل المبين» ثم جعل الفضل يَعِظُهُ ويذكّره، حتى رقَّ هارون وفاضت عيناه، ثم استرسل الفضل وصار يذكر مثالبه ومثالب أهل بيته ورداءة سيرتهم، فلم يعجب الرشيد ذلك، فقال له: «يا أبا الحسن، أما لك ذنوب تخاف أن تهلك بها إن لم يغفر الله لك؟؟» قال الفضل: «بلى»، قال الرشيد: «فما جعلك بأحق مني؟؟ أترجو المغفرة ولا أرجوها أنا؟؟ وأنا على دين يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيئات، ومع ذلك فإني والله ما كنت لأخيّر بين شيء وبين الله إلا اخترت الله على ما سواه، والله المطلع على نيتي وضميري وكفى به شهيداً، وأنا مع ذلك ألي من الإصلاح بين الناس، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ما لا تليه أنت، فما جعلك أن ترجوه المغفرة لي؟؟» فسكت الفضل، ثم قال: «ما ظلمك من حجك[1]».

وسمع مرة بالزاهد المعروف بـ «ابن السماك» فطلب من حاجبه الفضل بن الربيع أن يأتيه به، فجاء، فقال له الرشيد: «عظني». قال: «يا أمير المؤمنين، اتَّقِ الله وحده لا شريك له، واعلم بأنك واقف غداً بين يَدَي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما: جنة أو نار» فبكى الرشيد، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك وقال له: «سبحان الله، وهل

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩١.

يخالج أحداً شكٌّ في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة، إن شاء الله ، لقيامه بحق الله وعدله في عباده؟؟ فالتفت ابن السماك إلى الرشيد وقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا ـ يعني الفضل ـ ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتَّقِ الله وانظر لنفسك(١)».

وله مع «بهلول المجنون» قصص ونوادر.. لقد قيل إنه كان في طريقه للحج يوماً فوجد، قرب الكوفة، بهلولاً هذا راكباً على قصبة وهو يعدو، وخلفه عدد من الصبيان يطاردونه، فقال: «من ذاك؟؟» قالوا: «بهلول المجنون»، قال: «أشتهي أن أراه، فأتوني به غير مروّع، فجاؤوا به، فقال: «السلام عليك يا بهلول»، قال: «عليك السلام يا أمير المؤمنين»، قال: «كنت إليك بالاشتياق»، قال بهلول: «لكني لم أشتق إليك». قال: «عظني»، قال: «وبِمَ أعظك؟؟ هذه قصورهم وتلك قبورهم» قال: «أحسنت فزدني»، قال: «يا أمير المؤمنين، من يرزقه الله مالاً وجمالاً، فعفَّ في جماله، وواسى من ماله، كتب في ديوان الأبرار» فظنّ الرشيد أنه يريد شيئاً، فقال: «قد أمرنا أن يقضى دينك»، قال بهلول: «كلا، لا تقضِ ديناً بِدَيْنٍ، أردِدِ الحقَّ إلى أهله، واقْضِ دَيْنَ نفسك من نفسك» قال الرشيد: «فإنا قد أمرنا أن يُجرى عليك»، قال: «يا أمير المؤمنين، أتظنّ أن الله يعطيك وينساني؟؟» ثم عدا على قصبته راكضاً(٢). وكان من أروع ما قاله بهلول للرشيد ذات يوم: «هَبْ أن مملكة الدنيا تساق إليك، أليس آخر ذلك كله موت؟ فآخر ما ترى القبر واللحد، والثرى؟؟ وإياك والظلم، فإن الملك إذا اشتهر بالظلم بغضته الرعية، وإذا بغضته الرعية خالفته، والمخالفة سبب المحاربة.. فالفتنة نجوى ثم شكوى ثم بلوى(٣)».

وحدَّث الأصمعي فقال: «دخلت عليه ذات يوم فوجدته يقرأ ورقة ويبكي. فلما رآني قال: إجلس، فجلست، قال: أرأيتني أبكي؟؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا. ثم رمى إليّ بالقرطاس، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية في الزهد:

هلْ أنتَ معتبرٌ بِمَنْ خَلِيَتْ   منهُ غداةَ مضى دساكـرُهُ؟؟

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٧٥٤.

(٢) تحفة المجالس: ٣٧٢.

(٣) مفيد العلوم: ١٦٤.

وبِمَن أذلَّ الموتَ مصرَعُهُ فتبرَّأَتْ منْـــهُ عشـائرُهُ ؟؟
أينَ الملوكُ وأين غيرهُـــمُ ؟ صـاروا مصيراً أنتَ صائرُهُ
نَل ما بدا لك أنْ تنـالَ مِـنَ الدّنيـا فإنّ المــوتَ آخــرُهُ

ثم قال: كأني والله أُخاطب بذلك دون الناس[1].

والحديث كثير لا يُحصى عن بكاء الرشيد لدى سماعه المواعظ والعِبَر، وقد شهد بذلك خصومه وأنصاره، فقال صاحب كتاب (الفخري): «كان غزير الدمع عند الذكر»[2]، وقال صاحب (تاريخ بغداد): «ما رؤي أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة: الفضل بن عياض، وأبو عبد الرحمن الزاهد، وهارون الرشيد»[3]، وأيّدهما الكثير من المؤرخين.

ولكن ما نراه هو أن بعض الرواة قد غلوا في أخبارهم عن كثرة بكائه، غلواً جاوز الحقيقة والمعقول، إذ زعم بعضهم بأنه كان يبكي عند كل موعظة، وهذا غير صحيح، والأقرب إلى الظن أن الرشيد كان يُسرف أحياناً في لذائذه المشروعة، وينـدفع اندفاع الشباب في الترف والنعيم الذي بين يديه، ثم ينازعه بعد ذلك شعوره الديني، ويستيقظ ضميره. فيخاف من الله ومن حسابه أو تعجيل عقابه، فيتراجع بقدر ما أوتِي من دقة في الحسّ ورقّة في الأعصاب، ويطلب أن يأتوه بأحد الزهاد العلماء، ويقول له: عِظْني، فَيَعظَهُ بمنطق سليم، وبيان عذب، وديباجة رقيقة، فيخشع قلبه، ويمتلىء صدره بالإيمان، فتدمع عيناه، وترتاح عند ذلك نفسه.. وقد حدثنا التاريخ عن بعض الخلفاء الأتقياء، بأنهم كانوا، في صلواتهم وتهجدهم ليلاً أو سحَراً، يبكون بعد أن يتذكروا أعمالهم في الدنيا، ومصائرهم في الآخرة، فيشفقون على أنفسهم من هول الحساب والعذاب.. وقد يكون الرشيد من هؤلاء في كثرة التذكر، ولكننا لا نقول بأنه كان يبكي عند كل موعظة وفي أيّ حالة أو أيّ وضع كان فيه.

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٣٥٩.

(٢) الفخري: ٢٦٣

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٨.

ويبدو أن الناس في عهده عرفوا فيه هذا الميل إلى سماع الموعظة، وسمعوا الكثير عن بكائه وخشوعه، فصار بعضهم يودّ لو يكلمه بشيء من هذا، فيحظى عنده بالمنزلة.. وقد قيل: إنه كان يطوف يوماً في البيت، إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة. فقال الرشيد: «لا، ولا نعمت عين، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولاً ليناً..»[1]

وروى الطبري فقال: تصدى ناسك للرشيد، وهو في صيده، فوعظه وأغلظ عليه. فقال الرشيد: «يا هذا إنصفني في المخاطبة والمسألة» قال الناسك: «ذاك أقل ما يجب لك»، قال: «أخبرني: أأنا شر وأخبث، أم فرعون؟؟» قال: «بل فرعون». قال: «فأخبرني: أأنت خير، أم موسى بن عمران؟؟» قال: «بل موسى صفيّ الله وكليمه». قال الرشيد: «أفما علمت أنه لما بعثه الله وأخاه هارون إلى فرعون قال لهما: «فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى؟؟» قال: «نعم»، قال: «هذا فرعون في عتوّه وجبروته، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم: أؤدي فرائض الله عليَّ، ولا أعبد أحداً سواه، واقفاً عند أكبر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها، وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فمن كان يؤمنك أن أسطو بك، فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنياً؟؟» قال الناسك: «أخطأت يا أمير المؤمنين، وأنا استغفر الله». قال: «غفر الله لك، إذهب إلى حال سبيلك»[2].

بعد هذا كله نقول: إن من كانت حاله على هذا الجانب من التقوى والإيمان الصحيح، لا يجوز اتهامه بشرب الخمرة، وهي إحدى الكبائر المحرمة، وليس من الصواب الاعتقاد بصحة بعض الروايات الضعيفة التي تنسب إليه ذلك، وتتّهمه بالسُّكْرِ والعربدة.. يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته، ولقد ثبت أنه أمر بحبس أبي نؤاس لمَّا بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع. وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيها معروفة.

(١) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٧

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٧٠٦.

وأما الخمرة الصرف من العنب، فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليداً للأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملّة»[1].

والذي يبدو لنا، أن دفاع ابن خلدون هذا كان على صواب، فلم يشرب الرشيد غير النبيذ الذي أفتى بتحليله جمهرة من فقهاء العراق، ومن بينهم الإمام أبو حنيفة.. ولقد لخّص لنا بعضهم قصة هذا الشراب الحلال فقال: «عندما نزلت آية تحريم الخمرة القائلة: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[الآية ٩٠، المائدة] وقف الاسلام يحارب الخمرة ويحرِّم المسكر. ومع هذا أثيرت أسئلة حول هذه الآية الكريمة: ما المراد بالخمرة ؟؟ أهي عصير العنب وحده، أم كل مسكر خمر؟؟ وما هو القدر المحرم؟؟ أكلٌ نوع مما يسكر كثيره فقليله حرام؟؟ أم أن هنالك أنواعاً قليلها حلال؟؟ وظهر في عالم الفقه مسألة النبيذ، هل يُحِلٌّ أم لا يُحِلٌّ؟

وظهر هذا الخلاف في عهد الصحابة الكرام وما بعدهم، إلى أن كان عصر الأئمة، فكان بينهم الخلاف السابق.. فذهب الأئمة الثلاثة، مالك والشافعي وابن حنبل، إلى سد الباب بتاتاً، ففسَّروا الآية المذكورة بما يشمل جميع الأنبذة المسكرة، وقالوا كلها تسمى خمراً، وكلها محرمة. أما الإمام أبو حنيفة، ففسَّر الخمر في الآية المذكورة بعصير العنب، مستنداً إلى المعنى اللغوي لكلمة الخمر، وأحاديث أخرى، وأداه اجتهاده إلى تحليل بعض أنواع الأنبذة، كنبيذ التمر والزيت إن طبخ أدنى طبخ، وشرب منه قدر لا يسكر، وكنوع يسمى (الخليطين) وهو أن يأخذ قدراً من تمر وقدراً من زبيب، فيضعهما في إناء، ثم يصبٌ عليهما الماء ويتركهما زمناً. وكذلك نبيذ العسل والتين والبر.. ويظهر أن الإمام أبا حنيفة، في هذا، كان يتَّبع الصحابي الجليل، ابن مسعود، إذ كان يرى حِلَّ النبيذ[2].

كان الرشيد يشرب هذا النبيذ الحلال، ويحتسيه في مجلس خاص، مع نفر قليل جداً من جلاسه الأكثر تقرُّباً إليه، ولم يكن يراه أحد دون هؤلاء.. ويرى الطبري بأنه بدأ يشربه في الأعوام الأخيرة من خلافته[3]. ويقول الجاحظ: «إنه كان يشرب في كل أسبوع مرة أو

(١) مقدمة ابن خلدون: ١ ص ٢٥.

(٢) ضحى الاسلام: ج ١ ص ١١٩.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٦١٢

مرتين، على أنه لم يره أحد قطّ يشرب ظاهراً، لأنه كان يقعد هذين اليومين لندمائه»[١]. ويقول أيضاً: «من أخبرك أنه رآه قطّ يشرب إلا الماء فكذبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه»[٢]. ونحن نعبأ برواية الجاحظ هذه، لا لأنه عاصر الرشيد وأدرك أيامه فحسب، بل لأن مصادر أخرى كثيرة تؤيده، وقد جاء في كتاب «التاج» أن الرشيد، حتى في مجلس طربه وسماعه العازفين، كان يسدل ستاراً كثيفاً بينه وبين المغنين لئلا تصدر منه حركة نابية تُروى عنه[٣].. وهذا دليل قاطع على أن ما تناقلته كتب الأدب من أنه كان يشرب الخمرة، أو أنه كان يفقد شعوره مع المغنين، فيزحف مثلاً على سريره، أو يتفوّه بكلمات ناشزة، أو يظهر جواريه في مجلس شرابه، إلى آخر ذلك، كان مختلقاً ولا أساس له من الصحة قطعاً.

ومن الأدلة الكثيرة على تمسُّك الرشيد بدينه ما رواه «أبو معاوية الضرير محمد بن حازم» فقد قال: كنت أجالسه وأروي له الأحاديث، فما ذكرت أمامه كلمة «النبي» إلا سمعته يقول: «صلى الله على سيدي رسول الله»[٤].. وذهب «ابن كثير» إلى أنه كان يروي في خطبه الأحاديث النبوية بأسانيدها، وأن عدداً من الناس أخذوا عنه تلك الأحاديث أمثال سليمان الهاشمي، ونباتة بن عمرو، وغيرهما[٥]. وليس هذا بالغريب، فقد بلغ الرشيد في أواخر أيامه نصيباً وافراً من الثقافة العلمية والدينية بفضل مجالسته الطويلة للفقهاء وشيوخ العلم والأدب.



لقد سبق أن قلنا إن الظروف لم تسعد الرشيد بارتشاف العلم إلى حد الكفاية، في صغره وقبل تولّيه الخلافة، بحكم انشغاله بالغزو والجهاد، وتولّيه بعض شؤون الإدارة في بداية نشأته. لكن نزعته الشديدة للتحصيل، ورغبته الملحّة في الاستزادة من المعرفة

(١) كتاب التاج: ١٥٣

(٢) كتاب التاج: ١٣٧.

(٣) كتاب التاج: ٩٢

(٤) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٢.

(٥) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٢.

واجتناء الفوائد الفكرية، كانت تدعوه إلى اختلاس الفرص للقراءة والمطالعة، ومجالسة العلماء، وإلقاء الأسئلة عليهم في كل ما يجهل، حتى اكتسب ثروة لا بأس بها من تلك الثقافة العامة.. لذا، عندما تولى الخلافة في باكورة شبابه كان وسطاً في ثقافته، لا بالمتقدم البارز في مضمارها، ولا المتأخر الفارغ مما يجب أن يعلم.

ولم يقف عند هذا الحد في ظل خلافته، بل زادت عنايته بمجالسة العلماء والفقهاء، فجمع منهم في مجالسه عدداً كافياً من أقطاب ذلك العصر في مختلف فروع الثقافة، فكانت له تلك المجالس أشبه بمدرسة راقية أفاد منها الشيء الكثير على مدى الأيام. يقول أبو يوسف القاضي في مقدمة كتابه «الخراج» مخاطباً الرشيد: «.. إن أمير المؤمنين أيّده الله تعالى، سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي، وغير ذلك مما يجب النظر فيه والعمل به. وإنما أراد ذلك لرَفْعِ الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم.. وقد كتبت لك ما أَمرت به، وشرحتُه لك وبيَّنْتُه، فتفقَّهْه وتدبَّرْه، وردِّدْ قراءته حتى تحفظه.. وكتبت لك أحاديث حسنة، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله ..»[1] وفي هذا شهادة صادقة على اهتمام الرجل في إدراك ما يجب فهمه.

وقد سمعناه في مناسبات كثيرة يردِّد قوله: «إنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً»[2] وكأنه اتَّخذ هذا المعنى شعاراً له، وحافزاً يدفعه إلى أن يكون جديراً بالاحترام بين المفكرين من رجال دولته، أو أن لا يكون جاهلا بينهم على أقل تقدير. ومن أخباره أيضاً، أنه لم يكن يكتفي بمن جمع حوله من شيوخ العلم، ولكنه كان يغتنم الفرص في أوقات فراغه، فيتنكر في لباسه، ويحضر حلقات الأساتذة الآخرين في مساجد بغداد، ويصغي إلى محاضراتهم، ويسمع المناقشات بينهم وبين طلابهم في جوٍّ فكريٍّ حرٍّ، لم يتقيد بالنظم المتبعة في مجالس بلاطه[3].

ولحسن حظِّه في ذلك، أن ظروفه في الأعوام الأولى من حكمه كانت مؤاتية له، إذ

(١) مقدمة كتاب الخراج.

(٢) تاريخ بغداد: ج ١ ص ٩.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩١.

كانت سفينة دولته تسير رخاء هادئة نحو غايتها، وقد ألقى زمامها، كما أسلفنا، بيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي وأولاده، فكثرت ساعات فراغه التي كان يخصصها لارتشاف العلم، حتى صار يختار من رجال اللغة والحديث والنحو في بلاطه من يدعوه إلى مجالسته على انفراد، ليأخذ منه ما يحتاجه في هذا المجال.. وقد علمنا أن هؤلاء الشيوخ، أمثال الكسائي، والمبارك بن فضالة، وأبي معاوية، وأبي يوسف القاضي، والأصمعي وغيرهم، كانوا يتنافسون في تغذيته بالعلم.

قيل: إن أبا يوسف القاضي دخل عليه يوماً، فوجد عنده عليّ بن حمزة الكسائي وحده، يحدثه في بعض مسائل النحو، ويشرح له غوامضه وقواعده، فقال: يا أمير المؤمنين قد سَعَدَ بك هذا الكوفي، فقال الرشيد: «النحو يستفرغني لأنني أستدلُّ به على معاني القرآن والشعر». فأراد أبو يوسف أن يداعب الكسائي فقال: إن علم النحو إذا بلغ فيه الرجل الغاية صار معلماً ـ وكان الكسائي معلماً للرشيد وأولاده ـ والفقه إذا عرفه الرجل صار قاضياً. فلم يَرُق الكسائي هذا القول، فأجابه: إني أحسن ما تحسن، وأحسن ما لا تحسن، ثم التفت إلى الرشيد وقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له في جوابي عن مسألة من الفقه، فقال الرشيد مبتسماً: قل ليجيب، فقال له: ما تقول لرجل قال لامرأته: «أنت طالق أن دخلت الدار» بفتح همزة (أن) ؟؟ قال أبو يوسف إن دخلت المرأة الدار طلقت. قال الكسائي: أخطأت، إن فتحت همزة (أن) فقد وجب الأمر، وإن كُسِرت همزة (إن) فإنه لم يقع الطلاق بعد.. فسكت أبو يوسف[1].

وكان الرشيد يتقبل الفائدة العلمية في أي ساعة كانت، فيأخذها حيث يجدها، سواء أكان ذلك في مجلس علم، أم في أوقات لهوٍ، أم في سفر. وقد قيل إنه كان يوماً في حِجّة فدخل المدينة زائراً، وأقام فيها بعض أيامه، وبصحبته عدد من الفقهاء، من بينهم أبو يوسف القاضي، فبعث إلى الإمام مالك ليحضر مجلسه، فحضر، ودار الحديث حول «الشهادة في الحكم، والشهود العدول» فطلب الرشيد من الإمام مالك مناقشة أبي يوسف في هذه المسألة، فأبى وأشار إلى أحد طلابه أن يناقشه فيها، فناقشه وغلبه. فسُرَّ الرشيد لذلك، وأكرم الفقيه الذي تفوّق على قاضي قضاة الدولة[2].

---

(١) معجم الأدباء: ج ١٢ ص ١٧٦

(٢) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩١.

وفي ذات يوم حضر ميدان سباق الخيل في الرقة، وأجريت أمامه حلبة، فجاء أحد أفراسه سابقاً فيها، فاغتبط لذلك، وتذكر الأصمعي في تلك الساعة، فاستدعاه إليه، وقال له: خذ بناصية هذا الفرس السابق، ثم صفه من قونسه إلى سنبكه، فإنه يقال إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير. فأنشده الأصمعي قصيدة لأحد الشعراء الأقدمين، وفيها عشرون اسماً من أسماء أعضاء الفرس تتشابه مع أسماء الطير، فزاد سرور الرشيد(١).

ولم يكن الرشيد يعنى بكل الفوائد العلمية والأدبية فيلتقطها ويحفظها، بل كانت عنايته بتلك التي تفيده في فهم شؤون دينه ودنياه، وتعينه في الكلام أو الخطابة على أعواد المنابر، أو في مخاطبات الناس والأدباء والعلماء الذين يحيطون به. وقد تعمد الأصمعي يوماً مخاطبته باستعمال شيء من غريب اللغة، فقال له: «يا أصمعي، علمنا من العلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر، وفي أعطاف الخطب، وفواصل المخاطبات.. ودعنا من حوشِيِّ الكلام وغرائب الأشعار(٢)».

ومن طريف ما رُوِي عنه في هذا الباب، ما حدَّثنا به الأصمعي، حين قال: «دخلت على الرشيد بعد غيبة طويلة، فوجدت مجلسه حافلاً، فسلَّمت، فقال: ما أغفلك عنا، وأجفاك لحضرتنا؟! قلت: يا أمير المؤمنين، ما «لاقتني» بلاد بعدك حتى أتيتك. فأمرني بالجلوس، وسكت عني، حتى نهض من كان في المجلس، فنهضت معهم، فأشار إليَّ بالبقاء، فبقيت حتى خلا بنا المجلس، فقال: يا أبا سعيد، ما معنى قولك «لاقتني» ؟؟ قلت: أمسكتني، وأنشدت:

كفاك كــفٌّ ما تليــقُ درهماً   جوداً وأخرى تُعطي بالسَّيفِ دمـا

قال: «هذا حسن، وهكذا فكن: وقِّرنا في الملا، وعلِّمنا في الخلا، فإنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً. فأما أن أسكت فيعلم الناس أني لم أفهم، إذا لم أجب، وأما أن أجيب بغير الجواب الصحيح، فيعلم من حولي بأني لم أفهم ما قلت»(٣).

(١) العقد الفريد: ج ١ ص ٦٤

(٢) المقريزي:

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٩

ومن كانت رغبته العلمية بالغة عنده هذا الحد، لا بد من أن يحترم العلماء ويقدِّر فضلهم حقَّ قدره. وقد روى «محمد بن حازم» المكنّى بأبي معاوية، وكان ضريراً، قال: أكلت مع هارون الرشيد ذات يوم على مائدته، فصبَّ على يدي بعد الطعام رجل لم أعرفه، فقيل لي: أتعرف من الذي صبَّ على يدك الماء ؟ قلت: لا أعرفه، قالوا: إنه أمير المؤمنين، فاضطربت لذلك، وقلت له: أأنت يا أمير المؤمنين؟؟ قال: نعم، فعلت ذلك إجلالاً للعلم[1].

مع كل هذا، فنحن لا ندَّعي بأن الرشيد كان شيخاً كبيراً من شيوخ العلم والفقه، أو أستاذاً من أساتذة اللغة والنحو، إذ لا يطلب منه أن يكون كذلك، لكن الرجل وصل حداً كافياً من الثقافة العامة، التي كان يجب عليه أن يبلغها كخليفة لذلك العصر ـ عصر النهضة والحضارة ـ وقد بلغها بجدارة من الناحية العلمية. أما من الناحية الأدبية فكان له شأن آخر حريٌ بالإعجاب والدرس:

* *

يكاد يجمع رواة الأدب على أن الرشيد خُلق ليكون أديباً شاعراً، بفضل ما أوتِيَ به من رقة الطبع، ودقة الشعور، وحسن الذوق في الاختيار، مع ذكاء فطري حادّ، وحافظة قوية لاقطة، والتفاتة سريعة، إلى مواطن القوة والضعف في منطق محدِّثيه، حتى كان جلاَّسه من شيوخ الأدب يتَّقون في حضرته زلل اللفظ، وخطأ الكلام[2].. ولولا مشاغل الملك وأعباء الخلافة لَمَا بَعُدَ عن أن يكون أحد نوابغ عصره البارزين في مجالات هذا الفن.

أحبَّ منذ صغره بليغ العبارة وجزيل اللفظ، فنشأ قوياً في خطابه، متيناً في أسلوبه، جزلاً في حديثه، دقيقاً في تعبيره.. تعشَّقَ الشعر في صباه، فحفظ بعض دواوين الشعراء الأقدمين[3]، والقصائد الغرّ التي كانت تصله بفضل كبار رواة الأدب من جلسائه. وما زال يعبأ بالشعر حتى نمت سليقته فيه، وبرع في تحليله ونقده، وعرف أوزانه فنظمه في المناسبات.. وفي كتب الأدب فيض زاخر من إنتاجه، يقوم برهاناً قاطعاً على طول باعه في النثر والنظم:

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٩٠.

(٢) العقد الفريد: ج ٢ ص ٧٣.

(٣) العقد الفريد: ج ٥: ص ٩٣

كان في طليعة ما يُعنى به الخلفاء والوزراء في ذلك العهد، اختيار الجمل الموجزة البليغة، في تواقيعهم على الرسائل أو رقاع المظالم، وهي جمل توضع في آخر الرسالة المطوّلة، وقبل التوقيع بالختم، على أن تؤدي رأي الموقّع في تأييد ما جاء بتلك الرسالة أو الرقعة، باختصار بليغ، وقد بلغ اهتمام الأدباء، يومئذ، بتلك التواقيع حداً كبيراً، فراح بعضهم يبحث عنها، ويدفع ثمنها ليجمعها في مؤلفاته. وقيل إن ثمن توقيع يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، بلغ الدينار أو الدينارين.. ولكن الجاحظ يقول: إن تواقيع البرامكة كانت لا تُعدُّ شيئاً أمام تواقيع الرشيد[1].

لقد وقّع في رسالة لعامله على (فارس) في أمر لم يتصرف فيه تصرف العادل: «كن مني على مثل ليلة البيات».. وفي رسالة أخرى لصاحب (السند): «كل من دعا إلى الجاهلية تعجّل المنية».. وفي أخرى، لعامل خراسان: «داوِ جرحك لا يتّسع».. ووقّع لعامل (طبرستان) على أثر ثورة قامت في ولايته: «من رفع رأسه فأَزِلْهُ عن بدنه».. ولعامل الريّ: «إن الملوك يؤثر منها الحظ».. وكتب إليه ملك الروم مرة يهدده بإعلان الحرب، فوقّع الرشيد على الجواب: «سيعلم الكافر لِمَن عقبى الدار»[2].

ووقّع على رقعة من رقاع المظالم، لرجل يشكو أحد عمال الخليفة، ويطلب الإنصاف: «لا يجاوز بك العدل، ولا يقصر بك دون الإنصاف».. وفي رقعة أخرى لرجل جليل الشأن ظلمه أحد العمال: «قد ولّيناك منصبه، فتنكّب سيرته».. وفي رقعة لمسجون أمر بالإفراج عنه: «من التجأ إلى الله نجا»[3].

وامتاز الرشيد في فن الخطابة، وعرف برزانة حركاته على المنبر، مع جمال الصوت، وحسن الإلقاء، والفصاحة في اللهجة، وكان الغالب على أسلوبه فيها لغة القرآن، واقتباس معانيه.. وخطب، مرة، فقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس:

---

(١) البيان والتبيين: ج ٢ ص ٤٩.

(٢) العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٧١.

(٣) العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٧٠.

أوصيكم بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزاً بالجنة، ونجاة من النار.. وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم لا يستعتب من سيئة، ولا يزاد في حسنة، يوم الآزفة، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

عباد الله

إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، فحصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة.. إنكم سفراء تجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء. فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، إلى الهدى بالأمانة.. وإياكم والأماني فقد غرَّت وأوردت كثيراً حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون.. آمركم بما أمركم الله به، وأنهاكم عما نهاكم عنه، واستغفر الله لي ولكم»[١].

إلى جانب هذا، كان يتأثر بالمنطق السليم والفكرة الصائبة، ويعجب ببلاغة القول وينقاد للكلام الرقيق، فيجيز قائله، ويعفو عن المذنب إذا أحسن في تعبيره واعتذاره.. يقول أخوه «ابراهيم بن المهدي»: «كنت عند الرشيد، فأهديت له أطباق ومعها رقعة، فلما قرأها استفزَّه الطرب، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما الذي أطربك؟؟ قال هذه هدية من عبد الملك بن صالح الهاشمي، ثم نبذ إليَّ الرقعة، فإذا فيها بعد البسملة: «دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً عمَّرته بنعمتك، وقد أينعت أثماره، وفاكهته، فأخذت من كل، وصيرته في أطباق (القضبان) ووجَّهته لأمير المؤمنين، ليصل إلي من بركة دعائه ما وصل إلي من برِّه ونعمائه..» قلت: يا أمير المؤمنين، وما في هذا يقتضي السرور؟؟ قال: ألا ترى ظرفه كيف قال «أطباق القضبان» فكنَّى به عن الخيزران، إذ كان يجري به اسم أمِّنا؟؟ »[٢].

وقيل: إنه غضب يوماً على أحد العصاة المتمردين، فدعا له بالسيف والنطع، فبكى

(١) العقد الفريد: ج ٢ ص ٣٧٢.

(٢) محاسن الملوك: ٨٥.

الرجل، فتعجب الرشيد وقال له: «ما يبكيك؟؟» قال: «والله يا أمير المؤمنين، ما أفزع من الموت، لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط عليَّ» فأعجبه قوله، وخلَّى سبيله[1].

وحكى الأصمعي، قال: كنت عند الرشيد، فجيء له بعبد الملك بن صالح العباسي، مكبلاً بالحديد، وكان قد ارتاب في أمره فحبسه، ودار بينهما حوار طويل أغضب الرشيد، وكان يحيى بن خالد حاضراً، فأراد أن ينال من الرجل، فقال له: إنك لَحَقود!! فأجابه هذا: «أصلح الله الوزير، إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي، فإنهما لَبَاقيان» فأُعجب الرشيد بهذا الجواب، والتفت إليَّ وقال: «حرِّرها يا أصمعي، فوالله ما احتجَّ أحد للحقد بمثل ما احتجَّ هذا»[2].

وثار أحد الخوارج يوماً، فأرسل إليه الرشيد الجند تلو الجند حتى ظفر به، وأحضر بين يديه في مجلسه، فقال له غاضباً وقد صمَّم على قتله: «ماذا تريد أن أصنع بك؟؟» قال الخارجي: «الذي تريد أن يصنع الله بك إذا أوقفك بين يديه» فأطرق الرشيد ملياً. ثم قال: «خلّوا سبيله». فلما خرجِ من عنده، قال بعض الحاضرين: يا أمير المؤمنين، أنفقت أموالك وأتعبت رجالك، ثم أطلقته بكلمة واحدة؟؟ فلن يأمن أمير المؤمنين من أهل الشر بعد ذلك، فقال: «ردّوه»، فعلم الخارجي بأنهم تحدثوا فيه بالغدرة عنده، فدخل عليه، وقال: «يا أمير المؤمنين، لا تُطِعْ أحداً في أسيرك، فإن الله لو أطاع فيك غيرك ما استخلفك ساعة واحدة»، فقال الرشيد: «أطلقوه، ولا تعاودوني فيه»[3].

وأروع من هذا، أخباره مع الشعراء، وهي إن دلت على سموّ ذوقه في الشعر، فإنها، في الوقت نفسه، تدلّ على سعة اطلاع وعلم وفهم فيه.

دخل مروان بن أبي حفصة عليه لأول مرة بعد خلافته، واستأذنه في الإنشاد، فقال له الرشيد: ألست القائل في رثاء معن بن زائدة:

---

(١) أمالي القالي: ج ١ ص ١٢٧.

(٢) مروج الذهب: ج ٤ ص ٣٠٢

(٣) المختار: ٧٧.

أَقمْنَـا باليمامـة بعـدَ معـنٍ ... مقامـاً لا نريـدُ لـهُ زَوالا

وَقُلْنَـا أيـنَ نذهـبُ بعـدَ معـنٍ ... وقـدْ ذهـبَ النَّـوالُ فلا نَـوالا

فإذا كان النوال قد ذهب بذهاب هذا الرجل، فما جئت تصنع عندنا؟؟ ثم قال: أخرجوه من المجلس، فأُخرج. ولكن مروان تلطف فدخل عليه في يوم آخر، وأنشده في مدحه قصيدة غراء أعجبته، فسأله: كم عدد أبياتها ؟؟ قال: مائة بيت، فأمر له بماية ألف درهم، وجعلها راتباً سنوياً له حتى مات[1].

ودخل عليه أحد خواصه، فوجده يضاحك ابنه المأمون، فقال: اللهم زِدْهُ في الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن غده، فقال له الرشيد: تقدمك بهذا المعنى «أعشى همدان» بقوله:

وجدتُـكَ أمس خيـر بنـي لـوي ... وأنـتَ اليـومَ خيـرُ منكَ أمسِ

وأنـتَ غـداً تَزيـدُ الخيـر ضعفاً ... كذاك تَزيدُ سادةَ عبدِ شمسٍ[2]

وأخبروه ذات يوم بأن الشاعر «مسلم بن الوليد» قد تشيَّع وخلع بيعة بني العباس. فأمر بإحضاره، فجاؤوا به وكان قد اختفى، فلمّا نظر إليه رآه قد تغير لونه وساءت حالته، فتذكّر مجالسه السابقة معه وقصائده التي كانت تعجبه، فرقَّ له، وقال: إيه يا مسلم، أأنت القائل ؟:

أنسُ الهوَى ببنِي العمومةِ في الحشَا ... وأراهُ يَطَمحُ عنْ بَنِي العبَّاسِ

قال: بل أنا القائل يا أمير المؤمنين:

أنسُ الهوى ببَنِي العمومـةِ في الحشَا ... مستوحِشـاً في سائِر الإيناسِ

واذا تكـاملَتِ الفضـائـلُ كنتُـمُ ... أوْلَـى بِـذلكَ يـا بَنِـي العبَّاسِ

فعجب لسرعة بديهته، وأخلى سبيله[3].

---

(١) تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ١٤٥ ـ وفي رواية أخرى أن قصة مروان هذه جرت مع المهدي.

(٢) العقد الفريد: ج ١ ص ١٦٩.

(٣) العقد الفريد: ج ١ ص ١٨٨

وبلغ حبُّه للشِّعر مبلغاً عظيماً، حتى أصبح غذاء روحياً له، فصار لا يرفض سماعه في أي حال أو مكان كان: في مرضه وصحته، وفي قصره أو أثناء سيره في موكبه، أو في مجلس قضائه حين ينظر في المظالم، أو في غَزْوِهِ وجهاده، وأثناء طعامه وشرابه، اللهم إلا في موسم الحجِّ فإنه كان يبتعد عن الشعراء خوفاً من انشغاله وابتعاده عن ذكر الله في تلك الساعات المخصّصة للعبادة والاستغفار(١).

ويقول الأصمعي: دخلت على الرشيد وهو محموم، فقال: أنشدني شعراً مليحاً، قلت: أَرَصيناً يريده أمير المؤمنين أم شجياً سهلاً؟؟ قال: غزلاً بين الفحل والسهل، فأنشدته قول «العديل بن الفرخ العجلي»:

صحَا عنْ طِلاَبِ البيضِ قبلَ مشيبِهِ	وراجعَ غضَّ الطرْفِ فهوَ خفيــضُ
دعانــي لــه يومــاً هــوًى فأجابَــهُ	فـؤادٌ إذا يلقَــى المِراض مريــضُ
لمستأنســاتٍ بالحديــثِ كأنَّــهُ	تهلّـلُ غـرٍّ برقُهُــنَّ وميــضُ

فقال لي: أعدها. فما زلت أكررها عليه حتى حفظها(٢).

وبينا هو يسير يوماً في موكبه، استوقفه رجل من بني أمية خائفاً، وبيده رقعة فيها أبيات يستلطفه بها، ويستجير به ويطلب الأمان، فتناولها الرشيد من يده وقرأها والموكب يسير، فاستحسنها، وأعطى صاحبها الأمان، وأمر له على كل بيت ألف دينار، وقال له: لو زدتنا زدناك(٣).

وفي مجلسه للنظر في المظالم، دخل عليه «علي بن الخليل» متنكراً، وكان متهماً بالزندقة، والشرطة تطارده، وأنشده قصيدة يقول فيها:

يــا خيــرَ مــنْ جَــدَتْ لرحلتِــهِ	نُجُــبُ الرّكــابِ بمهمــهٍ جَلْــسِ

(١) الأغاني: ج ٣ ص ١٥٤.

(٢) الأغاني: ج ٢٠ ص ١٩.

(٣) المسعودي: ج ٦ ص ٣٥٤.

إنّي لجأتُ إليكَ مِنْ فَزَعٍ قدْ كانَ شرَّدَني مِنَ الأُنْسِ
واخترْتُ حِلمَكَ لا أجاوِزُهُ حتّى أُغيَّبَ في ثرى رمْسي

وذكر فيها براءته من التهمة، فقال له: إذهب فأنت آمن(١).

وكان قد عيَّن على الموصل، «خالد بن يزيد بن حاتم المهلبي». فلمّا دخل المدينة انكسر لواؤه في بابها، فتطيَّر خالد من ذلك، وكان في معيته أحد الشعراء، فقال:

ما كانَ منكسِرَ اللواءِ لطَيْرَةٍ تُخشَى ولا أمرٍ يكون مويَّلا
لكنّ هذا الرّمحَ أضعفَ ركنَهُ صِغَرُ الولايةِ فاستقلَّ الموصِلا

فوصل الخبر والشعر إلى الرشيد، فوسع ولاية خالد بن يزيد، وأجاز الشاعر(٢).

ومن روائع نقده والتفاتاته إلى أخطاء الشعراء، ما رواه الأصمعي، قال: أنشدته أبياتاً للنابغة الجعدي، فلما وصلت إلى قوله:

أشمٌّ طويلُ السّاعدَيْنِ شَمَرْدَلٌ إذا لم يَرُحْ للمجدِ أصبحَ غادِيا

قال الرشيد: وَيْحَه، لماذا لم يروحه للمجد كما غداه ؟؟ قلت: وكيف كان يجب أن يقول؟؟ قال: «إذا راح للمعروف أصبح غاديا» قلت: أنت يا أمير المؤمنين في هذا أعلم منه بالشعر(٣).

وقال يوماً لأبي نواس، وكان عائداً من سفرته إلى مصر، لماذا وثب بك أهل مصر؟؟ قال: لأني يا أمير المؤمنين مدحت أميرهم «الخصيب» بقصيدة قلت فيها:

فإن يكُ باقٍ إفكُ فرعون فيكُمُ فإنّ عصَا موسى بكفِّ خصيبِ

فغضبوا علي وقالوا لي: يا عدوّ الله، جعلت معجزة النبي موسى للخصيب؟؟ وكادوا

(١) محاسن الملوك: ٢٥

(٢) ابن الأثير: ج ٦ ص ١٣٥

(٣) خزانة الأدب:ج ٣ ص ٣٠٧.

يفتكون بي. فضحك الرشيد وقال: لو قلت بدل ذلك: «فباقي عصا موسى بكفٍّ خصيب» كان شعرك أحسن، وسالماً من التبعة، فقال أبو نواس: لم أفطن لذلك، وأنت يا أمير المؤمنين أشعَرُ مني في هذا(١).

وألقى «العماني الراجز» بين يديه أرجوزة طويلة، وصف في بعض أبياتها فرساً، فلمّا وصل إلى قوله:

كأنّ أذنيه إذا تشوّفا قادمةً أو قلماً محرّفا

استوقفه الرشيد في الحال، وقال له: قل «تخال» بدل «كأن» حتى يستوي شعرك. ولم يلتفت إلى هذا الخطأ اللغوي أحد من الحاضرين غيره(٢).

وبين أيدينا مجموعة كبيرة من القطع الشعرية التي نظمها الرشيد في حياته، وفيها البيتان والأربعة والعشرة، وقد يكون بعضها من صنع الأدباء فحملت عليه، غير أن كثرتها ونشرها في مصادر مختلفة بين كتب الأدب، تدلُّ على أنه كان يقول الشعر، وله سليقة سليمة في نظمه له. وقد يجد الدارس لهذه الآثار الشعرية تبايناً في ديباجة بعضها وأسلوبه، فمنها الرصين القوي، الحسن السبك، ومنها التافه الركيك، وربما كان هذا من صنع غيره، أو من نَظْمِهِ المرتجل، ولا غَرْوَ في ذلك، فإن الرجل لم ينصرف بكلّه إلى هذا الفن الرفيع، بحكم انشغاله في شؤون الخلافة، وقيل عنه: إنه بعث إلى جارية له، اعتلّت عليه بالأمس، ثم جاءته في الغد. فقال:

أَيا مَــنْ ردَّ ودِّيَ أَمْـ سِ لا أُعطيكَهُ اليَوْمَـــا

وَلا والله لا أعطيـــكَ إلا الصــدَّ واللَّوْمَـــا

وَإن كان بقلبي منــكَ حــبٌّ يَمْنَـــعُ النَّوْمَـــا

أَيا مَنْ سِمَتُهُ الوَصْلُ فأعلَى المَهْرَ والسَّوْمَا(٣)

(١) ديوان المعاني: ج ١ ص ٣٦.

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٣٦.

(٣) الأغاني: ج ١٤ ص ١٢٦.

وقيل إن جارية له تدعى «هيلانا» كان يحبها، فماتت، فرثاها قائلاً:

قاسيْـــتُ أوجاعـــاً وأحزانـــا لمـا استخـصَّ المـوتُ هيلانـا

فارقْـتُ عَيْشـي حيـن فارقْتُهـا فمـــا أبالـــي كيفَمَـــا كانـــا

كانـــتْ هـــي الدنيـا فلمّـا ثَوَتْ فـــي قبرِهَـــا فارقَتْ دنيانـا

قـــد كثُـــرَ النـــاسُ ولكنّنـــي لســـتُ أرى بعـــدَكِ إنسانـا

و اللهِ لا أنســاكِ مـــا حرَّكَـــتْ ريـــحٌ بأعلى نجـدِ أغصانا[1]

وقال في ثلاث جوارٍ له، كنَّ يعشنَ معه في قصره:

مَـلَكَ الثـلاثُ الفاتنـاتُ عنانـي وحلِلْـنَ مـن قلبـي بكـلِّ مكـانِ

مالـي تطاوعنـي البريَّـةُ كلُّهـا وأطيعُهُـنَّ وهُـنَّ فـي عصيـانِ

مـا ذاك إلا أنّ سلطـانَ الهـوَى وبـهِ قويـنَ أعزُّ مـن سلطـاني[2]

ومن أبيات له، غناها ابراهيم الموصلي:

أهدَى الحبيبُ معَ الجنوبِ سَلامَهُ فـارِدْ إليه مع الشمالِ سَلامـا

واعرفْ بقلبِكَ ما تضمَّـنَ قلبُهُ وتـداولا بهـواكـما الأيامـا

وإذا بكيْـتَ لـه فأيقِـن أنّـهُ ستجـودُ أدمعُـه عليك كهامـا

فاحبِسْ دموعَكَ رحمـةً لدموعِهِ إن كنتَ تحفظُ أو تحوطُ ذماما[3]

وكان قد ترك جارية له في الرقة، وعاد إلى بغداد، فاشتاق إليها وقال:

سـلامٌ علـى النـازحِ المغتـربْ تحيـةَ صـبٍّ بـهِ مكتئـبْ

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١١٦.

(٢) الأغاني: ج ١٥ ص ٨١.

(٣) الأغاني: ج ٥ ص ١١.

غـــزالٌ مراتـعُــهُ بالبليـــخِ ... إلـى دارِ «ذكْـيِ» بقصـــرِ الخشبْ

أيا مَـــــنْ أعـادَ علـى نفســهِ ... بتخليفــهِ طائعــاً مَـــنْ أَحَـبّ

سأستُرُ والسَّترُ من شيمتـي ... هـوَى مَـــنْ أُحِبُّ بِمَنْ لا أُحِـبّ[1]

وقال يوماً للعباس بن الأحنف: أنت أشْعَرُ من غيرك حيث تقول:

طافَ الهوَى بِعبادِ اللهِ كلِّهِـمِ ... حتّى إذا مرَّ بي من بينهم وقفا

فقال العباس: بل أنت يا أمير المؤمنين أرق قولاً منّي حيث تقول:

أمـا يكفيكِ أنّـكِ تملُكينــــي ... وأنّ النــــاسَ كلَّهُـــمُ عبيـــدي

وإنـكِ لـو قطعتِ يدي ورجلي ... لقلتُ من الهوى: أحسنتِ زيدي[2]

وأتته جارية بتفاحة مكتوب عليها:

سُرورُك ألهاكَ عن موعـدي ... فصيَّـــرتُ تفـاحتـي تـذكـره

فأخذها منها، وأهداها أخرى غيرها، بعد أن كتب عليها:

تقاضيْـتُ وعـدي ولـم أنْسَهُ ... فتفـــاحتـي هــــذه معـــذره[3]

ويقول الأصمعي: دخلت، أنا ومحمد بن علي، المكنّى بأبي حفص الشطرنجي، عليه، فخرج علينا وهو كالمتغير النفس، فقال: أيُّكما نظم بيتاً من الشعر وأصاب به المعنى الذي في نفسي، فَلَهُ عشرة آلاف درهم، فقال أبو حفص:

مجلسٌ يألَـفُ السـرورَ إليه ... لـمحـــبٍّ ريحـــانُــهُ ذكـــراكِ

---

(١) الأغاني: ج ١٧ ص ٧٧.

(٢) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ١١.

(٣) المسعودي: ج ٦ ص ٣٦٥.

قال: أحسنت، فقلت:

لَمْ يَنَلْكِ المُنَى بِأَنْ تَحضُرِينِي ... وَتَجَافَتْ أُمْنِيَتِي عَنْ سِوَاكِ

قال: أحسنت. ثم قال هو:

فَتَمَنَّيْتُ أن يَغْشِيَنِي اللهُ ... نُعَاساً لَعَلَّ عَيْنِي تراكِ

فقلنا: يا أمير المؤمنين، أنت أشْعَرُ منا، فجوائزنا لك، فابتسم: وقال: لا، بل جوائزكما لكما .. وأمر لنا بها في الحال[1].

لم يكن الرشيد أول خليفة نظم الشعر، ولكنه كان أكثر الخلفاء عناية به وتقديماً وإكراماً لأهله، وقد اجتمع في بابه عدد كبير من نوابغ الشعراء لم يجتمع مثلهم لخليفة آخر، ونالوا من الحظوة عنده، ومن فيض كرمه ما لم يكن له مثيل من قبل. وفي الروايات أن جماعة من شيوخهم كانوا يختصون بمدحه، ولا يمدحون غيره إلا بإذن منه، وكانوا يتقاضَوْنَ من أجل ذلك راتباً سنوياً ضخماً بلغ المائة ألف درهم، كمروان بن أبي حفصة، وأبي العتاهية وغيرهما، هذا عدا الهبات والعطايا التي كانت تأتيهم منه في المناسبات.

ويمكننا تصنيف الشعراء الذين كانوا يرتادون بابه وينتجعون موارد كرمه، على النحو التالي: فمنهم من كان يقيم ببغداد، ويتردد على بلاطه فيحضر مجالسه الأدبية كلما عقدت برغبة منه، وهؤلاء هم زعماء الشعر في ذلك العهد، مثل: أبي العتاهية، ومسلم بن الوليد، ومروان بن أبي حفصة وأبي نواس، ومن على شاكلتهم.. ومنهم من كان يقصد بغداد في الأعياد والمواسم والمناسبات، فيدخل مجلسه بعد الإذن، وينشده ما قاله في مدحه، ثم يعود إلى بلده، محمّلاً بالعطاء والجوائز إذا كان من المجيدين ، مثل كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، وأشجع السلمي، ودربن مناذر وأشباههم .

على أن للرشيد مجالس سمر وأنس، كما سنرى، كان يحضرها الأصدقاء المقربون إليه، من شيوخ الأدب والرواية والشعر والطرافة وكل من تأنس به نفسه، فيستطيع أمثال هؤلاء أن يذكروا له شاعراً مغموراً يجيد المديح ويحسن عذب البيان،

(١) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٩

فيأمر بإدخاله إلى حضرته، وينشده، ويصغي إلى إنتاجه الأدبي، وربما استحسن منه ما يسمع، فيغدق عليه من كرمه، أو يأمره بلزوم بابه، وإنشاده في المواسم حين يجلس للشعراء.

كانت مواسم الشعر عند الرشيد تزدهر في الأعياد المعروفة، ولدى عودته منتصراً من الجهاد في بلاد الروم، وحين رجوعه من الحج، أو قفوله من سفر بعيد. وكانت العادة في مثل هذه المناسبات أن يجلس مجلساً عاماً يحضره رجال الدولة وأصحاب السيف والقلم، فيتبارى الشعراء بالإنشاد في حضرته واحداً واحداً، أمام الجموع الملتفة حوله، وينال كل منهم جائزته التي يقدرها له، بحسب إبداعه وإجادته، ما يجعل ذلك المجلس أشبه بسوق «عكاظ» في الجاهلية يوم كانت تنشد المعلقات، إلا أن المنشدين هنا لم يكن هدفهم سوى مدح الخليفة فقط.

يقول الأمير «سعيد بن سلم الباهلي»: كنا عند الرشيد، فدخل عليه الشعراء، وأنشده «أشجع السلمي»:

قَصْــرٌ عليـهِ تحيـةٌ وَسـلامُ	نَثَـرَتْ عليـهِ جمالَهـا الأيـامُ
قَصْـرٌ سقوفُ المُزْنِ دونَ سقوفِهِ	فِيـهِ لأَعْـلامِ الهُـدَى أَعْـلامُ
فِيـهِ اجْتَلَـى الدُّنيا الخَليفةُ والتَقَتْ	لِلْمُـلْكِ فيـهِ سلامـةٌ وسـلامُ
أدْنَتْـكَ مِـنْ ظِـلِّ النبـيِّ وَصيـةٌ	وقرابـةٌ وشَجَـتْ بهـا الأرحـامُ
بَرَقَـتْ سَمَاؤكَ في العَدُوِّ وأمْطَرَتْ	هامـاً لَهَـا ظِـلُّ السُّيوفِ غَمَـامُ

حتى وصَل إلى قوله:

وعـلَى عَـدُوِّكَ يا بْنَ عـمِّ محمدٍ	رَصَدانِ ضَـوْءُ الصبْحِ والإظْـلامُ
فَـإذا تَنَبَّـهَ رِعْتَـهُ وإذا غَفَـا	سَلَّـتْ علـيْهِ سُيُوفَـكَ الأحـلامُ

فرأيت الرشيد قد تملَّكه السرور من جمال البيتين، فأومأت إلى أشجع أن يقطع

الإنشاد بعدهما لأنه لن يأتي بعد بمثلهما، فلم يفعل وأتمَّ إنشاده، ففتر الرشيد، وضرب الأرض بِمِخْصَرَتِه. ثم استنشد الشاعر «منصور النمري» فأنشده:

مـــا تَنْقَضي حَسْـرَةٌ مـنّا وَلا جَزَعُ ... إذا ذَكَـرْتَ شباباً ليـسَ يَرْتَجِـعُ

أيُّ أمْرِىءٍ باتَ مِنْ هارونَ في سَخْطٍ ... فليـس بالصلواتِ الخَمْسِ يَنْتَفِعُ

إن المكـارِمِ والمعــروفَ أوديــةٌ ... أحــلَّكَ اللهُ منهـا حيــثُ تَجْتَمِعُ

إذا رَفَعْــتَ امـرأً فـاللهُ رافِعُــهُ ... ومَنْ وَضَعْتَ مِنَ الأقوامِ مُتَّضَـعُ

نفـسي فِـدَاؤكَ والأبْطَـالُ مَعْلَمَـةٌ ... يـومَ الوَغَى والمنايا صابها فَزَعُ

وكانت قصيدة قلما تقول العرب مثلها، فجعل الرشيد يضرب الأرض بِمِخْصَرَتِه ويردّد قوله: «الشعر في ربيعة اليوم سائر». فلما خرجنا من مجلسنا، قلت لأشجع السلمي: ويحك لقد غمزتك أن تقطع الإنشاد بعد البيتين، فلم تفعل ولم تأتِ بمثلهما، فهلاً متَّ بعد ذينك البيتين أو خرست، فتكون أشعَرَ الناس؟؟![1].

ودخل عليه الشاعر «مروان بن أبي حفصة» لدى عودته مرة من غزو الروم وأنشده قصيدة يقول فيها:

وَسُـــدَّتْ بِهارُونَ الثُّغورُ فَأُحكمَتْ ... بِـهِ مِنْ أمورِ المسلمينَ المَرَائِـرُ

وأبنـاءُ عبَّـاسٍ نجـومٌ مُضيئـةٌ ... إذا غـابَ نَجْـمٌ لاحَ آخَـرُ زَاهِــرُ

حصـونُ بني العَبَّاسِ في كُلِّ مأزِقٍ ... صدورُ العوالي والسُّيوفُ البواتِرُ

لِيَهْنِكُمُ المُـلْكُ الـذي أصْبَحَـتْ بِكُـمْ ... أسِـرَّتُـهُ مختالَــةً والمنابِــرُ

أبـوكَ وَلِـيُّ المصطفـى دونَ هاشِمٍ ... وإن رُغِمَتْ مِنْ حَاسِدِيكَ المَنَاخِرُ

فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه خلعة، وأمر له بعشرة من رقيق الروم الذين

---

(١) الأغاني: ج ١٧ ص ٣٢

أسرهم في تلك الحملة، وأركبه على بِرْذَوْن من خاص مراكبه[1]، وهذه جائزة ضخمة قد يرى بعضهم فيها غلواً كبيراً تجاه قصيدة يقولها شاعر في مناسبة من المناسبات، ولكن الذي يطّلع على مضطرب التيارات السياسية في دولة الرشيد، يرى أن الذي أطرب الخليفة في هذه القطعة الشعرية، ليس المديح وجمال الشعر فحسب، بل ذلك البيت الأخير منها، الذي فضّل بني العباس في الخلافة على غيرهم من الهاشميين، و يعني بهم العَلَويّين.

لقد كان هنالك ما يشبه الأحزاب السياسية التي تصطرع في الخفاء، في ساحة الرأي العام: فحزب العَلَويين، وله شعراء وألْسِنَة تذود عنه، وحزب الأمويين الناشطين في الأندلس، الذي كان يهاجم الرشيد في عقر دولته، وحزب الشعوبيين الذي يرمي، من وراء ستار، إلى إضعاف مركز كل من هو عربي، حتى الخليفة رمز القومية العربية.. فكان الرشيد يحسُّ بذلك، ويرمي إلى تقوية حزبه بهؤلاء الشعراء وإضعاف الآخرين بطريق مطاردته لهم، وحرمانهم من جزيل عطائه.

فلا غرابة، إذن، حين نراه يغدق على شعرائه جزيل العطاء، ما دام الشعر عنده غذاء روحياً، وسلوة نفسية، وما دام المديح وسيلة من وسائل كسب الرأي العام، ودعماً لكيانه السياسي، وقد حدثتنا الأخبار عنه، بأنه كان يحرّض هؤلاء على الاستمرار في إنتاجهم، وربما كان يغضب على بعضهم إذا قصَّر أو توانى عن النظم والإنشاد في حضرته.. وقيل إن أبا العتاهية تزهّد، عندما أحسّ بالكبر، ولبس الصوف، وانقطع عن الشعر في الغزل والسياسة، فنهاه الرشيد عن ذلك، وأمره أن يعود إلى سابق عهده، فلم يفعل، فأمر بحبسه حتى يقول الشعر. وبقي في الحبس أياماً، ثم أرسل إليه يقول:

أنا اليومَ لِي والحمدُ للهِ أشهرُ	يروحُ عليَّ الهمُّ منك ويُبْكِرُ
تَذَكَّرْ أمينَ اللهِ حَقِّي وَحُرْمَتي	وما كنتَ توليني لذلك يُذْكَرُ
لياليَّ تُدْنِي منك بالقربِ مجلسي	ووجهُكَ مِنْ ماءِ البشاشةِ يَقْطُرُ

(١) الطبري ج ٣ ص ٧٤٣

فمنْ لي بِالعينِ التي كنـتَ مرَّةً ... إليَّ بها في سالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ؟؟

فرقَّ له، وأمر بإطلاق سراحه[1].

ولما كان الهدف الرئيسي من إنشاد المديح في المواسم الدعاية السياسية للخليفة، لم يكن يسمح لأيٍّ من الشعراء بالدخول عليه والاشتراك في الإنشاد، ما لم يكن من الفحول المجيدين، الذين تألقت أسماؤهم في أجواء الأدب، وسارت أشعارهم بين الناس، ومن لم يكن كذلك كان أمره في يد الحاجب المسؤول، فإما أن يجيز إدخاله وإما لا.. وكان الرشيد من أعرف الناس بشخصيات الشعراء ومدى شهرتهم، فكانت جوائزه لهم على قدرِ منزلة كل منهم، وعلى مدى إبداعه في القصيدة التي ينشدها.

وقيل: إن أبا نواس، حاول كثيراً، في أول أمره، أن يدخل عليه في موسم من المواسم لينشده مديحه وينال جائزته، فلم يستطع، حتى ذاع صيته بين الناس، وتردّدت أشعاره بين هواة الأدب في كل مكان، فدخل عليه، وأنشده قطعة من روائع انتاجه يقول فيها:

حـيَّ الديـارَ، إذ الزمـانُ زمـانُ ... وإذ الشبـاكُ لنـا حرًى ومَعَـانُ

مَلِكٌ تصـوَّرَ فـي القلوبِ مِثالُهُ ... فكأنَّـهُ لـمْ يَخْـلُ منه مكانُ

ما تَنْطَـوي عنهُ القلوبُ بِفَجْرَةٍ ... إلا يُكَلِّمُـهُ بـهِ اللَّحظـانُ

هـارون ألّفنـا ائْتِـلافَ مـوَدَّةٍ ... ماتَـتْ لَهـا الأحْقَادُ والأضْغَانُ

فِـي كُـلِّ عـامٍ غَزْوَةٌ ووفـادةٌ ... تَنْبُـتُ بيـنَ نَواهُمـا الأقْـرَانُ

حَـجٌّ وَغَزْوٌ ماتَ بينهُمـا الكَرَى ... بِاليَعْمَلاتِ شِعَارُهـا الوخدانُ

يرمي بهـنّ نِياطَ كلِّ تنوفـةٍ ... فـي اللهِ رحـاَلٌ بهـا، ظعَّـانُ

يَصلَـى الهجيـرُ بغرةٍ مهديـةٍ ... إن التقـيَّ مسـدّدٌ ومعـانُ

ألِفَـتْ منادمـةَ الدمـاءِ سيوفُـهُ ... فلقلَّمـا تحتازُهـا الأجفـانُ

---

(١) الأغاني: ج ٣ ص ١٥٤.

حتّى الذي في الرّحْمِ لم يكُ صورةً ... لفؤادهِ مِنْ خوفِهِ خفقانُ

حَذَرُ امرئٍ قصرتْ يداه على العِدا ... كالدّهرِ فيهِ شراسةٌ وليانُ

متبرّجُ المعروفِ عرّيضُ النّدا ... حصر بـ «لا» منه فمٌ ولسانُ

للجودِ مِنْ كلتا يديهِ محرّكٌ ... لا يستطيعُ بلوغَهُ الإسكانُ

فطرب لها الرشيد، وأسنى له الجائزة، وسمح له بالتردُّد إلى بابه متى شاء، فكان ذلك بداية اتصال أبي نؤاس ببلاطه.

وما نعتقده، هو أن الصلة بين هذا الملك الشاعر وهؤلاء الشعراء الذين يَرِدون حوض عطائه، لم تكن مجرد علاقة سطحية تستند إلى كسب المال مقابل المديح والدعاوة السياسية فحسب، بل إنها كانت أمتن من ذلك، وأقرب إلى الروح. وقد رأينا الرشيد يقرِّب بعضهم ويجالسهم، ويناقشهم، ويتفقد شؤونهم أثناء غيابهم عنه، ويقدِّم لهم المال كلما تعثرت الأيام ببعضهم.. وكان الكثير منهم يبادلونه هذا الشعور الطيّب، والحسَّ النبيل، ويكنُّون له الودَّ والوفاء لا كخليفة فقط، بل كشاعر مثلهم، يفهم سرَّهم ونجواهم، ويقدِّرون فضله وعلمه حين يَرَوْنَه يزن عبقرياتهم بميزان فني صحيح، ناهيك عن أثر كرمه وندى كفِّه في نفوسهم.

وحُكِيَ: أن الأعرابي الراجز المعروف بـ «العماني»، وكان قد شاخ وكبر، قَدِمَ بغداد في أحد المواسم، لينشد الرشيد شيئاً من شعره، فقيل له: عليك أن تتزيّا بزيِّ الشعراء المفروض، حين دخولك عليه، فلبس قلنسوة طويلة وخفّاً ساذجاً، ودخل، فعرفه الرشيد، فقال له: «يا عماني، لا أريدك أن تنشدني بهذا الزيِّ الغريب عنك، ولا تأتني إلا وعليك ثيابك العربية الأصيلة، بعمامة مكوّرة، وخفين دلقمين».. فَبَكِرَ إليه في الغد، وقد تزيّا بزيِّه المعتاد، كأعرابي بسيط، وأنشده أرجوزة من روائع شعره، فأجازه، وأقبل عليه فبسطه بالحديث، حتى تمنّى جميع من كان حاضراً أنه قام ذلك المقام، فقال له العماني: «يا أمير المؤمنين، قد والله أنشدت مروان الجعدي ـ الخليفة الأموي ـ ورأيت وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته، ثم يزيد بن الوليد، وابراهيم بن الوليد ـ من خلفاء بني أمية ـ ثم أبا العباس، ثم المنصور، ثم المهدي.. كل هؤلاء رأيت وجوههم، وقبّلت أيديهم، وأخذت جوائزهم، إلى

كثير من أشباه الخلفاء، وكبار السادة والرؤساء.. والله ما رأيت فيهم أبهى منظراً، ولا أحسن وجهاً، ولا أنعم كفاً، ولا أندى راحة منك، يا أمير المؤمنين» فتأثر الرشيد من كلامه، وضاعف له الجائزة[1].

وكان من بين هؤلاء الشعراء المجيدين من لا يحسن إلقاء شعره، أمثال منصور النمري وغيره. وكان الرشيد لا يستسيغ سماع الشعر الجيد بإلقاء رديء أو صوت قبيح. وربما التفت إلى الشاعر، وقال له: «أعانك الله على نفسك»[2]. لكن الظروف أوجدت في مجلسه رجلا يدعى «محمد الراوية» ويلقب بـ«البيدق»، وكان راوية للشعر ومن أجمل الناس صوتاً، وأعذبهم لهجة، ويجيد الإلقاء إلى حدِّ السحر. فكان بعض الشعراء يكلفونه بإلقاء قصائدهم في حضرة الخليفة، لقاء سهم يعطونه من جوائزهم.. وله معهم طرائف كثيرة في مجالس الرشيد:

يقول: دخلت على أمير المؤمنين، وعنده الفضل بن الربيع، ويزيد بن مزيد الشيباني، وبين يديه خوان فيها طعام. فقال لي: أنشدني يا محمد، فأنشدته قصيدة لمنصور النمري، كان قد نظمها حديثاً في مدحه، فطرب ورمى بالخوان بين يديه، وقال: هذا والله أطيب من كل طعام، وأمر لمنصور بجائزة كبيرة، فأخذ منصور الجائزة ولم يعطِني ما يرضيني، وتركني غاضباً، وشخص إلى بلده (رأس العين) فأضمرت له شراً في نفسي. ثم دخلت بعد ذلك على الرشيد، فقال أنشدني، فتذكرت فعلة منصور النمري بي، وأردت أن أنتقم منه، وكان قد تشيَّع في أواخر أيامه، فأنشدته أبياتاً قالها ضد شخص الرشيد:

سادَ منَ الناسِ راتعٌ هاملْ ... يعلّلــون النفوس بالباطلْ

الا مساعير يغضبــون لها ... بسلّةِ البَيضِ والقـنا الذابلْ

فتحرك الرشيد غاضباً، وقال: أراه يحرّض عليّ!! ابعثوا إليه من يجيئني به. فتوجَّه الجند إليه، ولكنهم وصلوه ليلة مات ودفن[3].

(١) عيون الأخبار: ج ١ ص ٩٢

(٢) الأغاني: ج ٢٠ ص ٩١

(٣) الأغاني: ج ١٢ ص ٢٠

كان هذا ديدن هارون الرشيد بين الشعر والشعراء، وليس في الإمكان إحصاء أخباره فيهما، ولا يسعنا في هذا المكان إلا القول: بأنه أكثر من عُنِي بهذا اللون من الأدب الرفيع، من الخلفاء جميعاً، ولم يُمدَح ملك من الملوك بقدر ما مُدِحَ به من الشعر الجيد الخالد على مدى الأيام.

* *

والحديث عن الأدب والشعر عنده، يجرنا إلى الكلام عن الغناء والموسيقى، لما بين هذين الفنَّيْن من صلة وقرابة:

كان أبو جعفر المنصور متقشفاً، لا يسمع الغناء على العزف، ولا يسمح بأن يضرب ويغنَّى في قصره.. وقد سمع، مرة، بعض خدمه ينقرون على الدفِّ ويغنّون في زاوية لهم، فمزّق الدفّ على رؤوسهم، وصاح بهم: «وَيْحَكُم، أفي قصري يُدق ويُغنى ؟؟». أما ابنه المهدي فقد سمع الغناء في خلافته، ولكن ضمن حدود الوقار والحشمة، واضعاً بينه وبين المغنين حجاباً وسترا. ولمّا وليها هارون لم يخرج في سماع الغناء عن طريقة أبيه، إلا أنه جعل له مجلساً خاصاً به، ونظاماً متبعاً، سنتحدث عنه في كلامنا عن مجالسه.

ومن أخباره، أنه كان منذ صغره يتعشق سماع الأصوات الجميلة التي تحسن الأداء، وقالوا: إن جارية كانت في بيت يحيى بن خالد، تدعى «دنانير» لها صوت جميل وتجيد الغناء، سمعها الرشيد فكلف بها، وصار يتردد إلى بيت يحيى لسماعها، فعلمت زبيدة بذلك، فشق عليها واغتارت، والتجأت إلى بعض الهاشميين، فكلّموه بها، فقال: «والله إني لأعشق صوتها وليس لي فيها حاجة» فألحّوا عليه، فتركها(١).

كان يعلم أن سماع الغناء مباح في الشرع الإسلامي، فترك لنفسه أقصى حريتها للتمتع فيه، وعبَّ من هذا الغذاء الروحي بقدر ما استطاع، و لكنه لم يتبذل فيه و لم يسفر بوجهه للمغنين، وأسدل الستارة بينه وبينهم، كما أسلفنا القول، ووضع وسيطاً دونهم يدعى «صاحب الستارة»، ليكون صلة تفاهم وتحاور بين الجانبين. وقد بلغ هذا الفن غايته في عهد خلافته، سيراً مع تلك النهضة الشاملة لأنواع العلوم والفنون، وتوغّل في مختلف

---

(١) الأغاني: ج ١٦ ص ١٣٧

طبقات المجتمع، فمارسه الناس على اختلاف طبقاتهم. من صغير ووجيه وأمير، وأفراد من أسرة الخلافة نفسها. ولم يكن الرشيد يعترض على ذلك، لأنه لم يَرَ في الأمر ما يشينه، حتى وإن كان المغني أخاه، ما دام هاوياً غير محترف للغناء.

ولشدة رغبته في سماع الغناء، اجتمع في قصره عدد كبير من الجواري المغنيات، والعازفات على مختلف الآلات الموسيقية[1].. ورُوِيَ أن المغني المعروف «ابراهيم الموصلي» كان قد عاهد الخليفة السابق موسى الهادي بأن لا يغني لأحد من بعده. فلما توفي انقطع ابراهيم عن الغناء وفاء بالعهد، ولكن الرشيد أمره بأن يغنّي له، فامتنع، فرماه بالسجن ولم يطلق سراحه حتى غنّى في مجلسه[2].

ولقد قادته شدة اهتمامه بضروب الأنغام التي عرفت في عهده، مع حسن إصغائه إلى المغنين والعازفين، ودقة سمعه، إلى معرفة الأصوات ومخارجها، حتى أصبح من أمهر الناس في التمييز بين صحيحها وخطئها، ونشازها وانسجامها. وحكي: أن ابراهيم الموصلي قال يوماً لابن جامع المغني: «والله ما أعلم أن أحداً بقي في الأرض يعرف هذا الغناء معرفة أمير المؤمنين هارون الرشيد»، فقال ابن جامع: «حقّ والله له، إنسان يسمع الغناء منذ عشرين سنة، مع هذا الذكاء الذي فيه»[3]

وربما كان اطِّلاع الرشيد على دخائل هذا الفن وتذوُّقُه له السببَ في غُلُوِّه بإكرام المغنين في حضرته، ومنحه إياهم الهبات الكبيرة التي لم يهبها قبله أحد من الخلفاء، والتي ربما جاوزت الحد المألوف.. وقد غناه يوماً «دحمان الأشقر» الأبيات التالية:

إذا نحن أدلَجْنا وأنتَ أمامَنا	كفَى لمطايانا برؤياكَ هادِيا
ذكرتُكَ بالديرين يوماً فأشرقَتْ	بناتُ الهوى حتى بلغْنَ التراقِيا
إذا ما طواكِ الدهرُ يا أمَّ مالكٍ	فشأنُ المنايا القاضياتِ وشانِيا

(١) التمدن الإسلامي: ج ٥ ص ١١٨ ـ قيل إن ثلاثماية جارية من الحسان كنّ يغنين ويعزفن في قصر الرشيد.

(٢) الأغاني: ج ٣ ص ١٦٢.

(٣) الأغاني: ج ٦ ص ٧٤

فطرب واستعاد الصوت منه مرات، ثم قال له: تمنّ عليّ، قال دحمان: أتمنى أن تهبني «الهنيء والمريء» وهما قريتان غلّتهما أربعون ألف دينار. فأعطاه إياهما، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، قال: لا سبيل لاسترداد ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه، فاشتروهما بثمن كبير[1].

وفي كتاب «التاج» للجاحظ: أن ابراهيم الموصلي غنّى الرشيد صوتاً من مختارات أصواته، فطرب طرباً ما عليه من مزيد، واستعاده عامة ليله، وقال: ما رأيت صوتاً يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة مثل هذا الصوت، فقال له ابراهيم: يا أمير المؤمنين لو وهب لك إنسان مائتي ألف درهم، أكنت تُسرُّ بها أو بهذا الصوت؟؟ قال: والله لأنا أسرُّ بهذا الصوت مني بألفَيْ ألف، قال ابراهيم: فَلِمَ لا تهب مائتي ألف لمن أتاك بشيء فقد ألفَيْ ألف أهون عليك منه؟؟ فأمر له الرشيد بمائتي ألف درهم[2].

ومما رواه صاحب الأغاني، قال: كان الرشيد جالساً في مجلس أنسه وعنده المغني ابن جامع يغنيه، فأرسلت زبيدة إلى الرشيد، تريد أن تراه، فدخل القصر، وجلس هو وزوجته، وترك ابن جامع قريباً منهما دون أن يراهما، فغنّى:

ما رعدتْ رعدةٌ ولا برقتْ ... لكنها أنشأتْ لنا خلقَهْ

الماء يجري على نظامٍ لهُ ... لو يجدُ الماءُ مخرقاً خرقَهْ

بِتْنا وباتتْ على نمارِقِها ... حتى بدا الصبحُ عينه أرقَهْ

فأمرت زبيدة خادمها أن يدفع لابن جامع، على كل بيت مائة ألف درهم، فقال الرشيد: غلبتنا بنت أبي الفضل، وسبقتنا إلى كرم ضيفنا وجليسنا، ثم بعث مقابل ما أعطت، بعدد دراهمها دنانير[3].

وتحدَّث أهل بغداد عن جارية كانت تسمى «خنث» وتُلقَّب «بذات الخال» افتتن بها

(١) تاريخ الخلفاء: ١١٦.

(٢) كتاب التاج: ٤١.

(٣) الأغاني: ج ٦ ص ٧٧.

الشعراء والمغنون، فاشتراها الرشيد بسبعين ألف درهم، وأدخلها قصره، فحظيت عنده، ولكنه رأى أَلْسِنَة الشعراء تلهج بها، فلم يشأ تحمُّل ذلك، وكان شديد الغيرة، فأهداها إلى وصيف له، واكتفى بسماع الغناء منها فقط[١]

وعلى الرغم من كثرة الجواري في قصره، وقد ناف عددهن على الألفين، فإنه لم يكن يترك جارية حسناء تُعرض للبيع أمامه فتعجبه إلا اشتراها، على أن تكون مثقفة في الأدب والشعر، لأنه لن يسمح لها بأن تكون من بين جواريه إلا بعد أن يُجرى لها امتحان، من قِبَل بعض رجال الأدب من خاصته، كالأصمعي والكسائي وغيرهما، أما إذا كانت ذات يد في الموسيقى أو الغناء فتكون أكثر حظوة عنده، ولذلك قيل إن الجواري في قصره، يتوزعن بين شاعرات وعازفات ومغنيات، وليس فيهن مَنْ قيمتها أقل من عشرات الآلاف من الدراهم أو الدنانير.. ولم يجد في كثرتهن بأساً ما دامت الشريعة الإسلامية تبيح له كل «ما ملكت يمينه».

ومن القصص الطريفة، قصته مع الجارية «عنان» التي اشتهرت بسيرتها الأدبية مع أبي نؤاس وغيره من شعراء بغداد، والتي كانت مملوكة لرجل يدعى «الناطفي». سمع الرشيد بشعرها فأعجبته، ورآها فاستهوته، وهمَّ بشرائها ثم أحجم لكثرة ما لاكت الألسن اسمها. وجلس في ليلة سمره مع ندمائه، فغنّاه أحدهم قول جرير:

إن الذين غدوا بلبِّك غادروا ... وشلاً بعينك لا يزالُ مَعينا

فطرب وأعجب بالأبيات، وقال لجلسائه: من أجاز منكم هذه الأبيات بمثلها فَلَهُ عندي هذه البَدْرَةُ (كيس فيه دراهم) فحاولوا فلم يصنعوا شيئاً، فقال خادم على رأسه: أنا بها لك يا أمير المؤمنين، قال: شأنك، فذهب إلى الناطفي في الحال، وأخبره بالقصة، فدخل على «عنان» فأجازتها بما يأتي:

هيَّجتَ بالقولِ الذي قد قلتَهُ ... داءً بقلبي ما يزالُ كمينا

قد أينعَتْ ثمراتُهُ في طيبِهَا ... وسقينَ من ماءِ الهوى فرُوينا

كَذَبَ الذين تقوَّلوا يا سيِّدي ... إن القلوبَ إذا هَوينَ هُوِينا

---

(١) الأغاني: ج ١٥ ص ٨٥.

وجاء بها إلى الرشيد، فسأله عمن قالها، فأخبره بالأمر، فاشتراها بثلاثين ألف درهم، ولكنه لم يبقها عنده غير بضعة أيام، ثم أهداها لأحد خاصته[١].

والجدير بالذكر هنا، أنه كان عف الضمير طاهر الذيل عن أعراض الناس، ولم يسمع عنه قطعاً ارتكاب معصية أو فجور، وهو أبعد الناس عن ذلك، وإنما كان يسترسل، كما ذكرنا، في أمر الجواري، سيراً على قاعدة ذلك العصر، حيث كانت لهن أسواق عامرة راقية، وتجارة رائجة، ومدارس لتعليمهن الغناء والعزف وتثقيفهن بالشعر والأدب وحفظ القرآن، وجعلهن صالحات لمعاشرة الملوك والأمراء، وخدمة أسرهم.. وعلى الرغم من كثرة ما كُتِبَ من أخبار الرشيد، وما صُنِعَ عنه من أخبار، استطاعت أقلام الأدباء وأخيلتهم أن تزوّقها، فإننا لم نجد بينها ما يشين هذا العاهل، أو يحطّ من قيمته، في مسألة المرأة.

وقد تواترت الأخبار، عنه، فقيل أيضاً إنه كان من أشد الناس غيرة على نسائه ونساء أسرته من المهائر، على الرغم من الترف الاجتماعي الذي كان قد توغّل في البيوت والقصور. وكان خاصته يعرفون ذلك عنه فيتحاشَوْن كل ما يمسّ هذا الجانب من عاطفته.. يقول الأصمعي: بعث إليَّ الرشيد في أمر، فدخلت عليه، فإذا صبية بين يديه صغيرة، فقال أتعرف هذه الصبية؟؟ قلت: لا أدري، قال: هذه «موّاسة» بنت أمير المؤمنين، فَدَعَوْتُ لها وله، فقال: قم فقبِّل رأسها، فقلت في نفسي: إن أنا أطعته أدْرَكَتْهُ الغيرة فقتلني، وإن أنا عصيته قتلني بمعصيته، فوضعتُ كمّي على رأسها، وقبَّلت ذلك الكم، فابتسم وقال: لو أخطأتها لأغضبتني[٢]

ولا ننكر أن أخته «عليَّة بنت المهدي» كانت تنظم الشعر وتغنّيه، وقد قرأنا لها قطعاً في الغزل والنسيب، ولم يكن ذلك، كما يدّعي بعضهم، في مغازلة الرجال، بل كان لمجرد الأدب والتجمّل به، وليس في ذلك ما يمسّ كرامتها وطهرها. وقد جاء في بعض الأشعار التي نظمتها اسم شخص خيالي، كما هي العادة عند الأديبات في ذلك العهد، فظُنَّ بها أنها كانت تعشق مملوكاً لها بذلك الأسم «طل» وهذا ما لا نعتقد فيه.. وقد قيل إن الرشيد سألها عن قصدها في ذكر هذا الاسم، فقالت: إنما هو اسم خياليّ أزيِّن به شعري ولا أعني به

---

(١) العقد الفريد: ج ٣ ص ٢٥٨

(٢) تحفة المجالس: ١١٧

أحداً، لكنه منعها عن ذكره حتى وإن كان خيالياً[1] .. واما غناؤها فلم يكن لتظهر به أمام الرجال، كما تفعل الجواري المملوكات، وإنما كانت تغني لنفسها وبين صاحباتها، شأن الكثير من نساء الأسر المحافظة.

وربما ذهب الرشيد في غيرته إلى أبعد من ذلك.. فقد قيل إنه دخل بيت ابراهيم الموصلي ـ وكان هذا يتعاطى تجارة الجواري بعد تثقيفهن وتعليمهن الغناء ـ فهيأ له مجلساً خاصاً وأخرج أجمل جواريه وأكثرهنّ جودة في الغناء، فصرن يغنّين له ويضربن، وغنَّت له إحداهن صوتاً جميلاً تقول فيه:

يا موريَ الزندِ قد أعيتْ قوادِحـــه	إقبسْ إذا شئْتَ من قلبي بمقباسِ
ما أقبحَ الناسَ في عيني وأسمجَهمْ	إذا نظرْتُ فلمْ أبصرْكَ في النـاسِ

فطرب لغنائها، وسألها عن اسمها، ومن صنع لها هذا الصوت الذي غنّته؟؟ فأخبرته بأنها جارية أخته «علية» أرسلتها سيدتها إلى ابراهيم الموصلي ليطارحها الغناء، فاغتار، وقام غاضباً، وقال لابراهيم: «ما ضرّك أن لا تكون خليفة؟؟» فخاف هذا وكادت روحه تخرج من جسده، وراح يعمل ما في وسعه حتى استرضاه[2]. لذلك، فنحن لا نعتقد بصحة الأخبار التي تحدثنا عن أن الرشيد كان يجمع في مجالسه بعض جواريه مع المغنين والعازفين، لأن ذلك لا يتفق مع ما عرف به من غيرة على كل ما يتعلق به من النساء. ولكنه لم يكن يمانع في الحضور عند بعض خاصته ويستمع إلى المغنيات من جواريهم، ما داموا هم لا يرون في ذلك بأساً.

* *

والذي لا يختلف فيه أحد، هو أن الرشيد كان يحب الدعابة والظرف، ولكن ضمن حدود حزمه وتقواه وجلال مكانته، فكان يسمع النادرة فيهشّ لها، وتصنع أمامه النكتة فيضحك منها. وقد اجتمع في بلاطه عدد من ظرفاء عصرهم، اشتهر منهم «ابن أبي مريم»، وكان أجمل الناس حديثاً، وأعذبهم لهجة، وألطفهم تفكيراً في النكتة، عارفاً بأخبار العرب وأنسابهم وألقاب الأشراف منهم، ومكايد المجان، وأشعار الظرفاء.. أحبه الرشيد فبوّأه منزلا في قصره، وخلطه ببطانته ومواليه وغلمانه، وسمح له بأن يحضر مجالس

(١) رسائل المقريزي ٧١

(٢) الأغاني: ج ٥ ص ٣٠

أنسه بين الشعراء والمغنين، ومجالس سمره مع خاصته من رجال الحاشية. فكان له على ندماء الرشيد ومجالسه جرأة، دون إحراج أحد منهم، أو المسٍّ بكرامته، إلا إذا شعر بأن الخليفة يريد ذلك، مع من كان يغضب عليهم لسبب من الأسباب، وعندها يحميه الرشيد من أذاهم وبطشهم(١).. فهو أشبه بمضحكي الملوك عند الفرس قديماً، وعند الأوروبيين في القرون الوسطى، ولا ندري إذا كان له لباس خاص يميِّزه في تلك المجالس، كما كان يفعل أولئك في اوروبا.

ولابن أبي مريم هذا طرائف كثيرة مع الرشيد نفسه، لِسِعَةِ المجال الذي كان يفسحه له، وقلّما نَهَرَهُ عن شيء إلا في ما يتعلق بالدين.. فقد قيل إن الرشيد كان يصلّي، يوماً، الصبح إماماً، وخلفه حاشيته، فقرأ: «.. ومالي لا أعبد الذي فطرني..» فأجابه ابن أبي مريم وهو مقتدٍ به: «لا أدري والله» فما تمالك الرشيد إلا أن يضحك في صلاته، ثم التفت إليه وقال غاضباً: «في الصلاة أيضاً، وَيْحَك؟؟» قال: والله، ما فعلت شيئاً، وإنما سمعتُ منك كلاماً غمَّني جداً، فتأثرت من ذلك، فقال الرشيد: إياك والقرآن والدين. ولك ما شئت بعدهما(٢).

وفي يوم من الأيام، أراد الرشيد أن يشرب الدواء وينقطع عن الناس طوال نهاره، فجاءه ابن أبي مريم، وقال له: اجعلني حاجباً لك يوم الدواء، وأشاركك في الهدايا التي ترسل إليَّ من قِبَل خاصتك، فقبل الرشيد. وفي الصباح جاء رسل الخاصة يسألونه عن صحة أمير المؤمنين. فدخل ابن أبي مريم عليه ثم خرج، وصار يقول لكل رسول: أخبر مرسلك بأني قد قدمت اسمه عند الرشيد على أسماء الآخرين، فيذهب هذا ويخبر مرسله بذلك، فيرسل له أكبر هدية ممكنة، جزاء لإحسانه في تقديمه على غيره. وهكذا تسابق الكل في إكرامه، ولم يأتِ العصر حتى كان بين يديه عشرات الآلاف من الدنانير. ثم دخل على الرشيد، وأخبره بكل ما جرى فضحك وقال له: هات حصتي مما أصابك، قال: نعم والله لقد طلبت حقاً، ثم ذهب وعاد ببضع تفاحات ناضجات كان قد أعدّها من قبل، وقال: هذه حصّتك وقد اخترت لك الأفضل منها، ودعوت لك بالصحة وطول العمر. فضحك الرشيد(٣)

(١) الطبري ج ٣ ص ٧٤٣
(٢) الطبري: ج ٣ ص ٧٤٣
(٣) الطبري ج ٣ ص ٧٤٤

ولم يكن ابن أبي مريم وحده من الظرفاء في البلاط، فهنالك «أبو الحسن الدمشقي» الملقب بالخليع الدمشقي، وابن أبي المغازلي، وآخرون من نوابغ حبك النكتة وخفَّة الروح، ممن كان يستدعيهم الرشيد ليؤنسوه كلما شعر بغمٍّ في صدره.

وكان جلساء الرشيد ومن حوله من العلماء ورواة الأدب، يعرفون رغبته في سماع النادرة والطريفة والنكتة، فلا يبخلون عليه بما يحضرهم في المناسبات، مما قرأوه أو سمعوه في هذا المجال، فتأتي على أفواههم في غاية الروعة والأدب والإبداع الفكري. وكان من أظرف العلماء بين زجال حاشيته، بل أظرفهم جميعاً، «عبد الملك الأصمعي» الذي قال عنه الجاحظ: «أعذب من تحدث وحكى». ولم يكن ظرفه على غرار أولئك المضحكين، ولكنه كان راوية للأدب ونوادر الأعراب والشعر الغريب، وشيخاً من شيوخ اللغة في عصره. لقد ظل إلى جانب هارون الرشيد خمسة عشر عاماً، كان خلالها يجالسه ويفيده ويعلّمه، ويروي له من غرر الأدب العربي، ويدخل عليه متى شاء، ويقصُّ عليه ما يريد، حتى ملأ أجواء مجالسه ظرفاً وعلماً وأدباً، فقال له الرشيد يوماً: «لا حسن لدنيا لا يكون فيها مثلك يا أصمعي»[1] .. وإلى جانب هذا العبقري شخصيات علمية أخرى ظريفة استطاعت أن تجالس الرشيد، وتتمتع بشيء كثير من حرية الرأي والقول في حضرته، أمثال إسحاق بن ابراهيم الموصلي، وكلثوم بن عمرو العتَّابي، وأبي نؤاس وغيرهم من مشاهير الرجال.

وفي يومٍ، اجتمع «ثمامة بن الأشرس» أحد علماء الكلام، بالشاعر أبي العتاهية، في مجلس سمر عند الرشيد. وكان ثمامة قليل الكلام في المجالس الخاصة، سريع الجواب إذا أراد الإجابة، وكان أبو العتاهية كثير الثرثرة إذا انطلقت نفسه، فأراد الرشيد أن يوقع بينهما، فأشار إلى أبي العتاهية أن يمازح ثمامة، فانطلق أبو العتاهية في كلام، ثم قال للرشيد: يا أمير المؤمنين أريد أن أسأل ثمامة في علم الكلام، فمُرْهُ بأن يجيبني. قال: قل، لِيُجِبْكَ، فرفع أبو العتاهية إبهامه أمام ثمامة وقال: أين هذا؟؟ فأجابه ثمامة سريعاً: «هذا في حرِّ أمِّك» فضحك الرشيد حتى كاد يستلقي على سريره. وسكت أبو العتاهية.

ومن طريف ما حدث في مجلس أنسه: أن الرشيد سمع برجل ظريف من أهل البصرة،

(١) الأصمعي: ١٧٦

سريع البديهة، يجيد نظم الشعر ويرتجله، فاستقدمه، وأدخله في مجلسه، وعنده جماعة من كبار حاشيته، فلمّا دخل، طلب أن ينشده قصيدة يمدحه فيها، فقال الرشيد: لا حاجة لنا في مدحك، ولكني آمرك بأن تهجونا جميعاً واحداً واحداً. قال: بِمَنْ أبدأ يا أمير المؤمنين؟؟ قال: إبدأ بسعيد بن سلم الباهلي، فهجاه الرجل بأبيات موجِعَة، فَغَضِبَ سعيد وسَحَبَ سيفه، فقال له الرشيد: مكانك، إنه شاعر. فجلس.. ومرَّ الرجل على الباقين يهجوهم أشد الهجاء، وكلما غَضَبَ أحدهم عليه، صاح به الرشيد: دَعْهُ فإنه شاعر. ولما لم يَبْقَ غير الرشيد نفسه، توقّف عن الهجاء، فقال له: أقسم عليك إلا هَجَوْتَني، فقال:

يا عينُ سحّي الدمعَ في عبرةٍ	قد بايعَ الناسُ لهارونِ
خليفـــــةُ اللهِ ولكنّـــــهُ	لا يعرِفُ البقلَ من التينِ

فَغَضِبَ، وقال له: يا ابن اللخناء، بلغ بك الهجاء إلى ها هنا، فأمر بالسيف والنطع، فقال الجميع: إنه شاعر يا أمير المؤمنين.. فضحك، وأجازه بجائزة سنية[1]. وقيل: إن أبا يوسف القاضي ولّى أحد القضاة على ناحية (جبلة)، فبلغ ذلك القاضي أن الرشيد يريد الانحدار من بغداد إلى البصرة، ماراً بناحية جبلة هذه، فقال لأهلها، إذا مرّ أمير المؤمنين بأرضكم فامدحوني عنده، واذكروني بخير، فوعدوه، ومرَّ الرشيد بأرضهم فاستقبلوه، ولكنهم تقاعدوا عن وعدهم للقاضي، ولم يذكروه بخير أو شر عنده. فسرَّح القاضي لحيته، وكبر عمته، وخرج في طريق الخليفة حتى قَرُبَ منه، وقال: «يا أمير المؤمنين، نِعْمَ القاضي قاضي جبلة» . فعرفه أبو يوسف، فضحك، فقال الرشيد: لم ضحكت؟؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن المثني على القاضي هو القاضي نفسه، فَضَحِكَ حتى فَحَص بِرِجْلِهِ الأرض، ثم قال للقاضي: لقد عزلنا هذا الذي تثني عليه[2]

ويبدو أن حب الرشيد للدعابة وسماع النادرة والنكتة، وبشاشة وجهه بين خواصه، كانت سجية فيه يعرفها الناس فراحوا يصنعون القصص والطرائف المضحكة، وينسبونها إلى بعض حاشيته، ويدّعون أنها جرت في حَضْرَتِهِ، ثم غلوا في ذلك وحملوا

(١) تحفة المجالس: ١٠٧

(٢) تحفة المجالس ١١

على مجالسه نكات سخيفة، لا يخلو بعضها من البذاءة، والركاكة والاستهتار بالأخلاق، وكل ما يزري بشخصية هذا العاهل الكبير، حتى إذا ما توالت الأعوام والعصور، سُجِّلت تلك التوافه في بعض كتب الأدب الرخيص، مع إضافات أخرى أكثر منها تفاهةً.

ومما لا ريب فيه، هو أن الرشيد من أندى الخلفاء يداً وعطاء للناس، ولا سيما أولئك الذين كانوا يبدعون في إنتاجهم الفكري والفني، من كبار الشعراء والرواة وأصحاب العزف والمغنّين، وقد تعمدنا، في أبحاثنا السابقة، ذكر مبالغ بعض الهبات والمنح التي كان يسبغها على من حوله من رجال دولته، ومرتادي مجالسه من خاصته، لكي نلقي ضوءاً على سعة ذلك العطاء الذي يكاد يشكُّ المرء بصحة روايته.. فرأيناه مثلاً يهب قريتين عظيمتين يقدر ريعهما السنوي بأربعين الف دينار، لمغنٍ من الدرجة الثانية، لأنه غناه صوتاً فأطربه، وهذا مبلغ كبير بالنسبة إلى قيمة العملة في ذلك العهد. ورأيناه مرة يطرب، فينثر على من حوله ستة ملايين درهم في جلسة واحدة، إلى آخر ذلك مما يكاد ينكره العقل. ولم نقرأ خبراً عن شاعر أنشده فآنسه، أو عالم أفاده فأعجبه، أو مطرب غناه فأطربه، إلا نال منه جائزة أو مالاً يقدّر بآلاف الدراهم أو الدنانير. ولم تكن أخبار عطاياه مستقاة من مصدر واحد لكي نشكُّ في صحتها، بل هي من مصادر كثيرة، حتى إن بعض أصحابها عاصروا هارون الرشيد نفسه، وليس من الصواب إنكارها.

والذي يمعن الفكر بتلك المبالغ الضخمة، من الهبات التي كانت توزع على هؤلاء، وعلى كبار رجال دولته وأمراء البيت العباسي بخاصة، يرى تبذيراً ما فوقه تبذير، ويمرُّ بخاطره: لو أن هذه الأموال المبعثرة كانت تصرف على مصالح الدولة ومشاريعها العامة لسببت تقدماً أوسع في حياة البلاد، ولبلغت تلك النهضة شوطاً أبعد مما بلغته في تلك الأيام. غير أننا لو درسنا الوضع الاجتماعي السائد، يومئذ، وتذكرنا ما أسلفنا قوله عن مقدار ما كانت تدرّ ضرائب الدولة على الخزينة العامة من الأموال، والتي تعادل ميزانيات أكثر من عشر دول في يومنا الحاضر، وما بلغته الطبقات الخاصة من بذخ وترف، وما وصل إليه ذلك التسابق في اكتساب الحمد واستمالة الرأي العام عن طريق الشعراء والأدباء والرواة وكل ذي لسان ورأي، وهم أشبه بالصحف السيارة في هذا العهد، لو علمنا ذلك كله وأدركنا حقائقه، لأعطينا هذا السخي الجوّاد بعض الحق إن لم يكن الحق كله.

لقد تضخم الثراء في زمان الرشيد عند طبقات متعددة، كالأمراء والوزراء والقواد والحاشية وعمال الأقاليم وتجار العاصمة والحواضر الكبيرة، وطغت موجة من البذخ والتباهي والتظاهر بالعطف على العلم والأدب والشعر، لمجرَّد كسب الثناء والمديح.. وكان في طليعة القوم، البرامكة الوزراء، الذين تموّلوا وأثروا إلى حدِّ الجنون، فصاروا يشترون من الناس ألسنتهم وقلوبهم.. فكان يحيى بن خالد، مثلاً، إذا سار في موكبه حمل بَدَرَاتٍ من الدراهم، يوزعها في طريقه على كل من يسأله العطاء فيحسن السؤال، وكل من يسمعه ثناء وإطراء بكلام فصيح يعجبه[1]. وكان ابنه جعفر يحمل الدنانير مع خادمه إذا زار صديقاً أو أديباً من خاصته، أو مجلساً فيه ألسِنَةٌ تنطق بالخير والشر، ليشتريهم بعطائه وكرمه[2].

وقيل إن الفضل بن يحيى البرمكي، قَدِمَ من خراسان ذات يوم، فاستقبله الرشيد وخاصته ووجهاء الناس، خارج مدينة بغداد، فصار يوزع عليهم الهدايا بمئات آلاف الدراهم، وبالملايين أيضاً[3]. كما وهب يوماً صاحب شرطته «ابراهيم بن جبريل» أربعة ملايين درهم صفقة واحدة[4].. وقيل مثل ذلك عن كرم غير هؤلاء من الشخصيات البارزة التي كانت محببّة عند الشعراء: فقد باع يزيد بن مزيد الشيباني، ذات مرة، قرية له، ووهب نصفها لشاعر مدحه فأحسن مدحه.

فإذا كانت الحال عند القوم قد وصلت إلى هذا الحد بين الخاصة والعامة، فإن الرشيد أحق من غيره بالعطاء، وأحوج إلى المديح والذكر الحسن من هؤلاء جميعاً، بحكم كونه خليفة، فوق الناس أجمعين.. وهو مع ذلك سخيّ اليد بالفطرة، فقد وجد المحيط الذي حوله في سَوْرَةٍ من جنون البذخ والإنفاق، فجاراه ليحفظ توازن سمعته، ولم يجد في ذلك تصنُّعاً أو كلفة، ما دام خرَّاج الدولة في تضخم عظيم.

فَتَرَفُ الرشيد وانغماسه في النعمة لم يكن عن هَوَجٍ وسوء رأيٍ، بل عن فلسفة خاصة به.. يقول القاضي «ابو البختري»: كنت عند الرشيد يوماً، واستدعى ماء مبرّداً بالثلج، ولم

(١) رسائل المقريزي ٧٢

(٢) ابن خلكان: ج ١ ص ١٠٥.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٦٣٤

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٢٤

يكن في الخزانة ثلج، فاعتذر الخادم، وأحضر له ماء غير مبرد، فضرب وجه الغلام بالكوز واستشاط غضباً. فقلت له: أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمن؟؟ قال: قل، قلت: «يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من الغير بالأمس ـ يعني زوال دولة بني أمية ـ والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها، والحزم أن لا تتعوّد الترف والنعمة، بل تأكل اللين والجشب، وتلبس الناعم والخشن، وتشرب الحار والقار». فنفخني بيده وقال: «لا والله لا أذهب إلى ما تذهب إليه، بل ألبس النعمة ما لبستني، فإذا نابتني نوبة الدهر عدت غير خَوَّارٍ إلى نصابي»[1]

وأما في الجود والعطاء، فهو كما يقول صاحب تاريخ بغداد: «كان الرشيد يقتفي أخلاق جده المنصور ويعمل بها، إلا العطاء والجوائز، فإنه كان أسنى عطية، ابتداء وسؤالاً، وكان لا يضيع عنده يد ولا عارفة، ولا يؤخر عطاء اليوم إلى الغد»[2] . وأكثر من ذلك، أنه كان يكره البخلاء كرهاً شديداً ويعد البخل منقصة تزري بصاحبها، وقد قيل إنه عدل عن الزواج بابنة «العباس بن محمد الهاشمي» حين علم بأنه، أي العباس، بخل على شاعر، فهجاه[3].

ومع ذلك، فقد كان يعلم بأن التبذير مَنْهِيٌّ عنه في الشريعة الإسلامية، فإذا انتبه إلى أنه غلا في عطائه غلواً كبيراً، اعترف بخطئه واستغفر ربه. ويقول إسحاق الموصلي: قلت للرشيد ذات يوم: يا سيدي، إن أبي قد أخذ منك أكثر من مائتي ألف دينار، فقال ويحك، مائتي ألف دينار؟؟ قلت: أي والله، فوجم، ثم قال: «استغفر الله من ذلك، فما الذي خلَّف منها؟؟» قلت خلَّف عليَّ ديوناً قدرها خمسة آلاف دينار، قضيتها عنه. فقال: «ما أدري أيَّنا أشد تضييعاً، والله المستعان»[4].

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١ ص ١٢٢

(٢) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٦

(٣) الأغاني: ج ١٥ ص ٤٠

(٤) الأغاني: ج ٥ ص ٢٠

هواياته الرياضية

قلنا في حديثنا عن طفولته ونشأته: إنه كان يمارس الرياضة على أنواعها، وبخاصة ركوب الخيل والطِرَاد وألعاب الفروسية، فمهر بها، وغزا وهو صغير، ولم ينقطع عن الغزو والجهاد حتى قارب أجله. وكان يتعشق الصيد على أنواعه، فلم يترك فراغاً من وقته في مواسم الطرد والقنص إلا استغله من أجل نزهته ولَهْوِهِ.. كما أحب الأسفار، فحجَّ كثيراً، وتنقل في البلاد، ولم تهدأ حركته قبل توليه الخلافة ولا بعدها، حتى توفي وهو على راحلة سفره إلى القتال، قبل أن يبلغ الشيخوخة وسن العجز.

يقول الأصمعي: سألني الرشيد يوماً، عند قدومه من أحد أسفاره، ما أحسن ما قيل في رجل طليح أسفار؟؟ قلت: قول عمر بن أبي ربيعة:

رأتْ رجلاً إما إذا الشمسُ أعرضتْ ... فيضحَى وإما بالعشِيِّ فيخصَرُ

أخا سفرٍ جوّابَ أرضٍ تقاذفَتْ ... به فلواتٌ فَهْو أشعثُ أغبرُ

فقال: أنا والله ذلك الرجل[1].

كان فارساً يحسن الطِرادَ على الخيل إلى حدِّ الإعجاب، وله في الفروسية ألعاب كثيرة، يمارسها أوقات فراغه، كطعن الأهداف بالرمح، وضرب الأشباح المنصوبة بالسيف وهو على صهوة جواده منطلقاً بأقصى سرعته، ورمي الجريد، والتصويب بالسهام.. وله في كل هذه الألعاب مسابقات يعقدها بنفسه، مع مشاهير قواد جيشه وأمراء آل بيته، فيغلبهم ويغلبونه.

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٨

وكانت له حقول واسطبلات لتوليد عتاق الخيل وتربيتها وتمرينها، والتي لديه من جيادها عدد كبير جداً، خصصت لها الحقول الخضراء، وميادين للسباق في الكرخ والرصافة، وفي الرِّقّة حيث يقضي فصل الصيف، وكان يجريها مع خيول الأمراء والوزراء والقواد، ويخصص لها الجوائز الضخمة، ويحضر سباقاتها بنفسه.. ويشرف على العناية بخيله عدد كبير من أمهر الاخصائيين العرب، الذين بلغ عددهم المئات، ولهم بيت مال خاص ينفق على رواتبهم وجوائزهم، ولهم أيضاً رؤساء بلغوا مكانة اجتماعية بين رجال حاشيته، وفي مقدمتهم «ذفافة العنسي» ويدعى: «صاحب خيل هارون الرشيد»(١).

وفي كتب الأدب روايات كثيرة عن الرشيد في ميادين سباق الخيل هذه، لا تخلو من طرافة ومتعة.. يقول الأصمعي: أجرى الرشيد الخيل يوماً في الرقة، فلما أرسلت صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى إليه الأفراس. ثم وقف على فراشه حتى طلعت، فإذا في أوائلها سوابق من خيله، يقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه. فتأملهما، فقال: فرسي والله، ثم تبيَّن الآخر، فقال: وفرس ابني المأمون. وجاء الفرسان يحتنكان أمام الخيل، أولهما فرسه، وثانيهما فرس ابنه، وخلفهما خيول خاصته. فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً، فطلبت المثول بين يديه، فدعاني وقال: ما عندك يا أصمعي؟؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كنت وابنك اليوم في فرسيكما كما قالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد، في أبيها وأخيها «صخر»، حين تطاردت الخيل:

جارى أباه فأقبلا سبقاً	يتقاربان تقاربَ الخصرِ
وهما كأنهما وقد برزا	صقرانِ قد حطّا على وكرِ
برزتْ صحيفة خدّ والده	ومضى على غلوائهِ يجري
أولى فأولى أن يقاربَهُ	لولا جلالُ السنِّ والقدرِ

فازداد سروراً على سروره(٢).

(١) أخبار ابي نواس، لأبي هفان المهزمي: ٨٨.

(٢) المسعودي: ج ٦ ص ٣٤٨

وفي رواية أخرى: أن الرشيد أجرى الخيل في بغداد، فجاءت أفراس جعفر بن يحيى البرمكي سابقة لأفراسه، فاغتمَّ من ذلك وتألم، وكان بجانبه عم ابيه «العبّاس بن محمد الهاشمي» وقد رأى اغتمامه، فقال له: يا أمير المؤمنين، رأيت مرة خيل خالد بن برمك غلبت خيل أبي العبّاس ـ السفاح ـ ونحن في (المدائن) فلم يغضب، وقال لخالد: «هذه الخيل هي لنا عندك، فإنك عدة من عددنا».. فَسُرِّيَ عن الرشيد[١].

والمعروف عنه أنه كان يقلّد جده المنصور في كثير من أعماله وتصرفاته. فكان من تقليده له قيامه كل سنة بعرض عسكري عام في جوانب العاصمة، على أرض (دجيل) أو قرب (قطربل) حيث كان المنصور والمهدي يقيمان ذلك العرض المسلح. وكان يحضر المشهد بنفسه لابساً لامة حربه، كأنه ذاهب إلى القتال، وفي موكبه رجال دولته ووزراؤه والناهضون من أولاده. حتى إذا انتهت مراسيم الاستعراض، بحسب النظام الذي سبق أن تحدثنا عنه، أمر لقواد الجيوش بالجوائز، ووزّع العلاوات على الجنود.. وعاد إلى قصره.

وكان الرشيد أول من لعب (الصولجان) على الخيل من بين الخلفاء، وهي لعبة فارسية تشبه لعبة (البولو) في زمننا هذا. أحبها فشجعها، ولعبها مع وزرائه وقواده وخاصته، وشكل لها فرقاً تتميز عن بعضها بالألوان، وجعل لها ميادين خاصة أنيقة، تحيطها مقاعد مريحة، لجلوس المتفرجين.. ومن طرائف ما يحكى عن هذه اللعبة: أن جعفر البرمكي كان ينضمّ دائماً إلى أعضاء فرقة الخليفة، ولا يلعب ضده. فقال له الرشيد يوماً: كن يا جعفر مع الفرقة المقابلة، لتتزن القوى بيننا، فرفض جعفر، وقال: لا أكون ضد أمير المؤمنين في جد ولا في لعب.. فأعجب بقوله[٢].

وكان لصيده مواسم معينة، في الخريف والربيع، فإذا وجد أن لديه متسعاً من الوقت لهذه الرياضة، صدر أمره إلى حاجبه بذلك، فيخرج هذا إلى الفهادين والبيازرة وأصحاب الكلاب السلوقية والصقور وسائر خدمة الصيد والقنص، فيأمرهم بالخروج إلى أرض (دجيل).. وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم إلى ذلك المكان، يعرفونها ولا يحتاجون

---

(١) الجهشياري ٢٠٨

(٢) تاريخ الخلفاء: ١١٦

فيها إلى ترتيب أو تدريب، حتى إذا تم كل ما يلزم لهذه الرياضة من الوسائل الضرورية، ومن طعام وشراب ولوازم الراحة، أوعز إلى الخدم بأن يقصدوا الأرض التي اختارها أمير المؤمنين لصيده.

وقد يكون الصيد في المواطن النائية عن العاصمة، فيكون السفر إليها طويلاً ويستغرق عدة أيام، أما إذا كان قريباً في أرض مخصصة مهيأة لهذه الرياضة، فلا تستغرق الحملة أكثر من يوم واحد.. وفي الروايات أيضاً: أنه كان للرشيد، قرب بغداد على نهر الفرات أو دجلة، قطع من الأرض، مساحة الواحدة منها عدة فراسخ في مثلها، وقد أحاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة بني بالأعمدة المنصوبة، وشد بعضها إلى بعض بالأمراس والأسلاك، بشكل سور منيع. وكانت عادتهم في الصيد هنا أن يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور، فيضربوا حولها حلقة من الجهة المفتوحة، ويطاردوها بخيولهم وفهودهم وكلابهم، وهي تفرّ أمامهم بين الأعشاب والأدغال، ولا يزالون يضايقونها ويحيدونها، حتى تدخل وراء السور، حيث لا مجال لها للخروج منه. فإذا انحصرت في ذلك الموضع أقبل الخليفة ومن معه من الخاصة، وتأنقوا في القتل، فيقتلون ما يقتلون، ويطلقون الباقي.. وكان الرشيد من أمهر الرماة بالسهام، وله في ذلك ألعاب خاصة، منها «لعبة الحمام» وهي أنهم يشدّون في أرجل بعض الحمام خيوطاً ذهبية، ثم يرمون الخيوط بالسهام، فتنقطع وينطلق الحمام.

ومن هواياته الرياضية أيضاً ركوب الحراقات « السفن المزينة» في نهر دجلة حين يكون في بغداد، وفي نهر الفرات أثناء اقامته بالرقة، وكان الليل أفضل وقت عنده لأجل ذلك، حيث تزدان حراقاته بالأنوار، فتنساب على الشط بين مصابيح القصور المنعكسة على الماء، وتفتح له الجسور لكي يمرّ من تحتها. وإذا كانت نزهته هذه في الليل صحب معه المغنين والعازفين، ولا يكون غناؤهم وعزفهم إلا بعد اجتياز حدود العاصمة حيث لا يبقى على الشاطئين من يدفعه الفضول إلى السماع أو التفرج، وإن كانت في النهار، حمل معه بعض وسائل اللهو، وأهمها النرد والشطرنج.. وقد لعب مرة النرد في حراقته مع نديمه ابراهيم الموصلي على أن يكون للغالب الحكم بما يشاء، فخسر الرشيد، فقال ابراهيم: «إذا أراد أمير المؤمنين أن يلبس الثياب التي عليّ» وهمّ بنزع ثيابه، فضحك الرشيد وأمر له بتخت من ثيابه الخاصة وجائزة سنية، عوضاً عن ذلك.

وقيل إنه أول من لعب الشطرنج من خلفاء المسلمين. وكان مولعاً به أشد الولوع، وممن يحسن لعبه ويتقنه غاية الإتقان، ولم يضاهِه فيه سوى عدد قليل من خاصته أمثال أبي حفص الشطرنجي، وابراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وكان عنده من بين الجواري من يحسنّ هذه اللعبة ويبارينّه فيها.. ولشدة اهتمامه بالشطرنج أنه أرسل من بين الهدايا التي بعث بها إلى شارلمان، ملك الفرنج، رقعة جميلة وأحجاراً ثمينة كاملة لهذه اللعبة، وكان يقول: «الشطرنج يعلم الصبر والسياسة والمكر وعمل الفكر» ويحثّ جلاّسه على تعلّمه.

ورُوِي عنه أيضاً: أنه كان يهوى التنكر في لباسه ليلاً، والخروج مع أحد وزرائه أو خاصته وقليل من الحرس، لحضور المجتمعات الشعبية التي كانت تقام في الأفراح والأعياد، ليشارك شعبه، ويتلمّس، عن قرب، أحزانه ومسراته، وقد أفسحت هوايته هذه مجالاً واسعاً لأقلام الكتّاب وأخيلتهم، فألّفوا منها القصص الشيقة والنوادر الطريفة والمحاورات الظريفة بينه وبين الأعراب أو السوقة أو كبار التجار مع شيء من المغامرات مع النساء، وإن كان معظمها لا يخلو من المبالغة الواضحة أو الركاكة والتفاهة. ثم توسّعوا في ذلك على مدى الأيام حتى كانت قصص ألف ليلة وليلة، وغيرها.

لباسه وطعامه وشرابه

كان للرشيد ألبسة وأزياء كثيرة يتزيا بها في المناسبات والظروف والمواسم. فلباسه الاعتيادي: عمامة يطلق عليها اسم «الرصافية»، وتتكون من قلنسوة تُنسج من القصب الرقيق على شكل مخروط ناقص، وتُغطّى بقماش من الخَزِّ الأسود الناعم، تلتاث عليها عمامة صغيرة من الوبر أو الإبْرِيسْمِ الأسود الثمين، فيظهر أحد رأسيها في مقدمتها نحو الأعلى على شكل ريشة عريضة سوداء، ويتدلى رأسها الثاني من الخلف كَعَذَبَةٍ تصون الرقبة من وهج الشمس، أو عفر التراب في الطريق[1]. وقد خصّص لعمائمه خزانة خاصة، ومستخدماً حاذقاً يُعنى بحفظها وتكويرها وتجميلها، على طراز ملكي لا يتغير، ولا يجوز لأحد من رجال الدولة، أياً كان، تقليدها.

وكان يرتدي على جسمه قميصاً من القطن الأبيض الطريِّ الملمس، يصنع له في بلاد خراسان، وعليه رداء من الحرير المطرَّز حول الصدر والعنق بعناية ودقة، وأكثر ما يكون من صنع اليمن التي اشتهر أهلها بهذا النوع من العمل اليدوي الدقيق. وقد يضع بدل هذا الرداء «بَدَنَةً» من صنع مصر، وهي من أغلى الثياب التي كانت تنسج خصيصاً له، تصنع أكمامها والصدر والرقبة من خيوط ملوّنة بألوان زاهية منقوشة إن لم يكن بعضها من الذهب والفضة، تغطي وجه النسيج دون بطانته[2] .. وفوق ذلك جبة سوداء من القماش النادر، تكون أحياناً بسيطة إلا من تطريز بالإبْرِيسْمِ الأسود، أو بكتابة اسم الله على الأكمام والصدر، أو آية قصيرة من التنزيل، تكتب بأسلاك ظاهرة من الذهب الإبريز[3] . وتحتها سروال عريض يتصل بالقدمين.

---

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٦٥

(٢) سيد أمير علي : ٣٦

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي .

يحتذي في رجليه نعالاً من الطراز العربي، وقلما يتخذ «السيرية الأعجمية» كغيره من وزراء دولته البرامكة، ورجال حاشيته من الفرس. وكان يفعل ذلك عمداً لكي لا يقلد الأعجام في أزيائهم. ويقول: «هذه نعال كان يلبسها آبائي وأجدادي»[1]. وكان يلبس مع النعل جورباً من الحرير الخفيف أو الصوف الليِّن، يطول إلى ما فوق كعب الرجل، فلا يظهر منه شيء إذا جلس على سريره حافياً من غير حذاء، كما هي العادة.

وإذا سار في أبهاء قصره، أو في متنزهاته الخاصة، حمل بيده عصاً من الخيزران بدل السيف الذي يحمله في مواكبه خارج القصر، وهي عادة كانت مألوفة عند أمراء العرب وملوكهم السابقين.. ويظهر من هذا كله أن الرجل كان أنيقاً في ملبسه غاية الأناقة، ولكنه يتوخى البساطة فيه، فلا يقلِّد قياصرة الروم ولا أكاسرة الفرس، في حمل التيجان المرصعة بأثمن الجواهر، وربما كان مظهره في غاية البساطة، إلا في المجتمعات الخطيرة، والمجالس التي يستقبل فيها وفود الملوك الأجانب، فقد كان يظهر أمامهم بما يليق بهيبة الخلافة وعزّ الاسلام.

والرشيد من أكثر الخلفاء ولعاً باقتناء الجواهر على اختلافها، وكانت خزانته الخاصة مليئة بأثمنها وأندرها، ولكنه لم يكن يتظاهر بها، باستثناء الخواتم الثمينة التي كان له ولع خاص بها، فيزيِّن إصبعه بواحد منها، وقلَّما عطلت يده من أحد هذه الخواتم التي حدَّثنا التاريخ عن بعضها، وكانت لكل منها قصة لا تخلو من طرفة أو نادرة تناقلتها كتب الأدب.

من أشهرها ذلك الخاتم المعروف باسم (الإسماعيلي) ولا ندري لماذا سمِّي كذلك، فقد كان من عادة الجوهريين البغداديين أن يطلقوا أسماء على الفصوص النادرة تناسب شكلها وصفاء مائها، أو المناسبات التي أحيطت بها. وربما كان هذا الخاتم هو نفسه الذي سمِّي (البحر) تشبهاً بخضرته، والذي كان الرشيد يعتز به كثيراً. وقد حدَّثنا عنه المؤرخ (البيروني) فزعم أنه كان في يد أبي جعفر المنصور، ثم انتقل إلى المهدي، فأعطاه للرشيد، وهو فَصٌّ من زمرد أخضر على وزن مثقالين، وشراؤه أربعون ألف دينار.. وقيل أيضاً،

(١) العقد الفريد: ج ٣ ص ١٢٥

إنه الخاتم نفسه الذي أراد موسى الهادي في خلافته أخذه من الرشيد، ما اضطر الرشيد إلى رميه في نهر دجلة، ولما تولى الخلافة أمر بإخراجه من ترسبات التراب تحت الماء، كما بيَّنا في حديث سابق.

ومن أخطر ما ملك الرشيد من الخواتم الثمينة، كان الفَصُّ الياقوت الأحمر الذي عرف باسم (الجبل) وشراؤه ـ في رواية للبيروني ـ بثلاثماية ألف دينار، دفعها الرشيد بأكياس نضد بعضها على بعض فصارت كالجبل، فسمِّيَ كذلك. وله تاريخ طويل، فقد قيل: إنه تنقَّل بين أصابع عظماء التاريخ، منذ الأكاسرة، حتى وصل إلى يد هذا الخليفة العباسي، فَنَقَشَ عليه كلمة (أحمد) وقد وصفه المؤرخ المسعودي بأنه من الياقوت الأحمر ـ وربما أراد بذلك الماس الضارب إلى الحمرة ـ لأنه يقول في وصفه: (كان يضيء بالليل كضياء المصباح، ويرى الناظر إليه في الظلام تماثيل تلوح وتختفي)... وآخر ما رُوي عن هذا الخاتم النادر أنه وُجِد في خزانة الخليفة العباسي (المستعين بالله) عام (٢٥٢ هـ)، ثم اختفت بعد ذلك آثاره.

وللرشيد، غير هذا، خواتم أخرى، أهمها خاتم الخلافة الخاص به، وكان يلبسه في الاجتماعات المهمة والمجالس العامة، وقد كتب عليه كلمة (لا إله إلا الله)[١]، ولم نعثر على أخباره وأوصافه.

ومن طريف ما رُوِيَ: أن الرشيد سأل أحد رواة الأدب يوماً فقال له: إن أنشدتني أحسن بيت قيل في الذئب أعطيتك هذا الخاتم، وكان في يده، وشراؤه ألف وستماية دينار.. فأنشده قول الشاعر:

ينام بإحدى مقلتَيْهِ ويتَّقي ... بأخرى الرزايا فهو يقظانُ هاجعُ

فرمى إليه بالخاتم. فسمعت زبيدة بالخبر فأرسلت من اشتراه من الرجل، وجاءت به إلى الرشيد وقالت: (إني رأيتك معجباً به فرددته إليك). فقال لها: (ما كنّا لنهب شيئاً ونرجع فيه)، ثم أمر بإعادته إلى الراوية الذي كان دُفِعَ له[٢]

---

(١) كتاب التاج: ٤٦

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٩

وقيل: إنه كان يلبس في الصيف غلالة رقيقة، يتشح عليها بإزار رشيدي مطرَّز عريض العَلَمِ، واسع الأردان خفيف الوزن[١].. ومن عادته، أيضاً، أن يلبس الثوب أو القميص مرة واحدة ولا يعود إليه ثانية إلاّ إذا كان من التحف في نسجه وتطريزه[٢].. ويلبس في مجالس لَهْوِهِ مع جواريه، القمصان الحريرية المزركشة، المعطرة بأحسن العطور التي كانت تُهدى له من أقصى أقاليم بلاده، وأحياناً من بلاد الصين أو الشرق الأقصى... أما في الصيد فقد كان يستعمل الثياب المتينة الواسعة، لتساعده على الرياضة وركوب الخيل والطرد وراء الفريسة، أو العيش في البوادي.. وله عند الغزو والجهاد لامة حرب كاملة، من أثمن ما يصنع في ذلك الزمن، فيضع على رأسه البيضة مكتوباً عليها كلمتَيْ (غازٍ، حاج)، ويلبس الدرع من الزرد الحصين، وينتعل في رجليه حذاء معدنياً يتَّقي به ضربات السيوف، أثناء الزحف[٣].

وكان شغوفاً باقتناء السيوف، ولديه منها مجموعة نادرة، جُلُّها من سيوف أبطال التاريخ من العرب، وغيرهم. وقد علمنا أن (ذا الفقار) سيف الإمام علي بن أبي طالب، كان ضمن تلك المجموعة، وسنتحدث عنه لاحقاً، وكان ضمنها أيضاً (الصمصامة) سيف الصحابي الجليل (عمرو بن معدي كرب الزبيدي) وسيوف أخرى كان يجمعها في قاعة أشبه بقاعات المتاحف المخصَّصة للسلاح في يومنا هذا.

وله في قصره (الخلد) متحف عامر بثياب الخلفاء السابقين، بمن فيهم خلفاء بني أمية، ومن سبقهم من بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم... حدثنا الأصمعي، قال: ذكرت للرشيد يوماً (سليمان بن عبد الملك)، الخليفة الأموي، وقلت: إنه كان شرهاً على الطعام، إذ يجلس على مائدته، فيؤتى له بالخراف المشوية الحارة، فلا يصبر عليها حتى تبرد، بل يجعل يده في طرف حلَّته، ويدخلها في جوف الخروف، فيأخذ كلاه، فقال الرشيد: ما أعلمك بأخبارهم!! أذكر أنه عُرِضَتْ عليّ ذخائر بني أمية يوماً، فنظرتُ إلى ثياب

(١) حضارة الإسلام ١٩٤

(٢) كتاب التاج: ١٥٤

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٧٠٩

مذهَّبة يمنية، وأكمامها وَدِكَةٌ بالدُّهن، فلم أدرك ما ذاك حتى حدَّثْتَني بهذا الحديث. ثم دعا بثياب سليمان، فوجد آثار ما قلتُ ظاهراً عليها(١).

* *

ولم يكن الرشيد أكولاً، ولا نهماً في طعامه، ولكنه كان ذواقاً للجيد منه، مكتفياً بالقليل. وقد حدثنا بعض مؤرخي الأدب بالشيء الكثير عن طعامه وشرابه وموائده، وإن كان بعضها لا يخلو من صنع الخيال و التناقض مع الحقيقة... وقد علمنا أنه في ذلك العصر، كان للترف أثر كبير في بذخ القوم وإسرافهم في تحضير الأطعمة النادرة الغريبة. فكان طبيعياً أن نرى مطبخ الرشيد في مقدمة ذلك البذخ، وإن لم يكن يحبذ الإسراف والتبذير فيه... فقد قيل إن أحد الأمراء أقام وليمة للرشيد، وقدَّم له فيها صحناً من ألسنة الطيور، فاستنكره وقال: (هذا إسراف غير ممدوح) وامتنع عن أكله.. وجيء له يوماً بصحن فيه نوع من السمك (الخابيار) الغالي، فسأل عن ثمنه، فقيل: ألف درهم، فأمر بأن يعطى الصحن وما فيه لأول فقير يمر بباب القصر.

ولكن هذا لا يعني أنه كان متقشفاً زاهداً في طعامه، زُهْدَ جدِّه المنصور، بل كان يشتهي الشيء منه، فيأمر بإحضاره مهما كلَّف ذلك، ولا يكون هذا دائماً... وأطرف ما رُوِيَ في هذا المجال: أنه دعا طبَّاخه يوماً، وقال له: أعندك من الطعام لحم جزور؟؟ قال نعم، ألوان منه، قال: أحضره مع الطعام. فلما وضع بين يديه، أخذ لقمة فوضعها في فيه، فضحك جعفر البرمكي ـ وكان حاضراً ـ فترك الرشيد مضغ اللقمة، وأقبل عليه فقال: ممَّ تضحك؟؟ قال لا شيء يا أمير المؤمنين، تذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي البارحة، فقال له: بحقِّي عليك لما اخبرتني به، قال: حين تأكل هذه اللقمة. فألقاها الرشيد من فيه، وقال: والله لتخبرني، فقال: يا أمير المؤمنين، بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك؟؟ قال ثلاثة دراهم !؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم!! فعجب من قوله هذا، وقال له : وكيف ذلك يا جعفر؟؟ قال:«إنك طلبت من طبَّاخك لحم جزور قبل اليوم بمدة طويلة، فلم يوجد عنده، فقلت له: لا يخلُوَنَّ المطبخ من لحم الجزور، فصرنا

(١) ابن خلكان: ج١ ص ٤١١

ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخك، لأنا لا نشتري من السوق لحم جزور. فصرف من لحم الجزور، من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعماية ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم، فضحكت لأن أمير المؤمنين، لم يَنَلْهُ من كل ذلك غير هذه اللقمة فحسب... فهي على أمير المؤمنين بأربعماية ألف درهم». فتأثر الرشيد من هذا الخبر كثيراً، ودمعت عينه وهو يستغفر ربه، وأمر برفع السماط من بين يديه، ولم يأكل طوال نهاره، وأوعز بأن يصرف، جزاء ذلك، ألفا ألف درهم على سكان الحرمين، ومثلها على فقراء بغداد والكوفة والبصرة. وبقي مكتئباً لِمَا حدث عنه من تبذير،حتى دخل عليه أبو يوسف القاضي في آخر النهار، فرآه على تلك الحالة، فسأله عن السبب، فحدَّثه بما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإن ما ناله منها لقمة.. فقال أبو يوسف لجعفر البرمكي: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد فَيُرمى، أو يأكله الناس؟؟ قال: بل يأكله الناس، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسّره الله عليك من الصدقة، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾[الآية ٤٦، سورة الرحمن] فسُرِّيَ عن الرشيد، واستدعى بطعام فأكل منه، فكان غداؤه في ذلك اليوم عشاء[1].

وليس غريباً أن يحدث مثل هذا في مطبخ الرشيد، ذلك لأن الرجل، كما أسلفنا القول، يريد أن لا ينقض أمره، ولا يقصر في خدمته، وهو الذي يريد أن يتمتع في حياته بكل ما أوتي من ثراء وسلطان، على ألاّ يجاوز به الحدود المشروعة. وفلسفته في ذلك، كما علمنا، هي أن يحلب الدهر أشْطُرَهُ ما دامت تدر عليه، فإن تنكَّر الزمن له يوماً عاد إلى نصابه وكفاحه غير خوارٍ. وقد علم المشرفون على خدمته رأيه هذا، فكانوا يحاولون إرضاءه، ويتجنبون إغضابه.

وقليلاً ما كان يجلس إلى الطعام بمفرده، فإن لم يكن أحد من أهل بيته، دعا بمن كان في بابه من جلاّسه وخواص حاشيته ليأكلوا معه.. وربما نودي له بشاعر مجيد، أو راوية ظريف، ليسمعه شيئاً من الطرف الأدبية، أثناء الطعام، وقد ينقطع عن الأكل مصغياً إلى القصيدة الجيدة، منصرفاً إلى ما يشعر به من لذة فكرية خلال سماعه لها. وكثيراً ما كان

(١) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢١٦

يبلغ به السرور حدَّ الكفِّ عن الطعام قبل الشبع بسبب ذلك، ويقول: «هذا خير من الطعام»[1]

وحدَّث الأصمعي، قال: «دخلت على الرشيد يوماً، وهو يأكل (الفالوذج) فقال: إيه يا أصمعي، ماذا قالت العرب في هذا؟؟ قلت: يا أمير المؤمنين، وأين للعرب فالوذج؟؟ ولكن شيئاً يشبه هذا، قال فيه (الشماخ بن مزرّد):

ولمَّا مضتْ أمّي تزورُ عيالَها ... هجمتُ على العِكْمِ الذي كانَ تمنعُ

خلطتُ بصاعَيْ حنطةٍ صاعَ عجوةٍ ... إلى صاعِ سمنٍ فوقَها يتربعُ

وذيلتُ أمثالَ الأثافي كأنَّها ... رؤوسُ رجالٍ قطّعتْ لا تُجمّعُ

وقلتُ لنفسي أبشِري اليومَ إنه ... حمى آمنٍ ممّا تخافُ وتفزعُ

فإن كنتُ مصفوراً فهذا دواؤه ... وإن كنتُ غرثانا فذا يوم تشبعُ

فضحك، ودفع إليَّ الصحن الذي كان بين يديه وقال: خذ يا أصمعي، وكل، فذا يوم تشبع»[2].

وما نعلمه هو أنه كان يفضل استعمال عصير الأثمار في شربه مع الماء البارد أيام القيظ. وقد جاء في بعض الروايات عن الخراج الذي كان يأتي من الأقاليم: أن البلاد المشهورة بثرواتها الزراعية وكثرة بساتينها وأثمارها، كانت تدفع خراجها من عين الحاصلات التي تنتجها، بعد عصر الأثمار المعرَّضة للتلف كالرمان والليمون والتفاح، فتأتي في قناني محفوظة، أو زقاق مختومة، فيدخل معظمها قصور الرشيد للاستهلاك الصيفي[3].

لقد كان الرشيد ذا مزاج خاص، فهو لم يكن يحتمل الحرَّ، وكان أكره ما يكرهه السُّكنى

(١) الأغاني: ج ١٢ ص ٢٠

(٢) العقد الفريد: ج ٣ ص ٣٨٥

(٣) الجهشياري: ٢٢٦

في بغداد حين تشتد وطأة الشمس، ويرتفع البخار والرطوبة، ما يضطره للّجوء إلى الرقة وهناك كانت تُهيَّأ له كل وسائل الراحة، فيُجلب له الثلج من الجبال النائية بطرق فنية تجعله يستقيم في قصره زمناً طويلاً.. ويُشرف على طعامه وشرابه أطباء من أمهر مَنْ أنجب عصره، ولم يكن مجلسه، يوماً، يخلو من أحدهم، أمثال جبريل بن بختيشوع وغيره، ممن سنأتي على ذكرهم خلال حديثنا عن بلاطه ومجالسه.

بلاطه، ومجالسه، ومواكبه

يقول الجاحظ في حديثه عن حاشية الرشيد: «اجتمع له أقطاب الجدّ والهزل: فكان وزيره داهية السياسة والتدبير يحيى بن خالد البرمكي، وابناه الفضل وجعفر اللذان لم ير مثلهما سخاء وسروراً. وكان قاضيه أبو يوسف، صاحب الفتاوى، وفقيه زمانه ومؤلف كتاب الخراج النادر في نوعه، ونديمه عمّ أبيه العبّاس بن محمد الهاشمي، ومن قواده يزيد ابن مزيد الشيباني، وهرثمة بن أعين، ومن جلاّسه الأصمعي عبد الملك بن قريب، صاحب النوادر والأخبار وطرائف الأعراب، وأعذب من تحدّث وحكى. وحاجبه الفضل بن الربيع، وهو أتيه الناس وأشدهم تعاظماً. ومن أطبائه جبريل بن بختيشوع، ومن شعرائه أبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة، وأبو نؤاس، وهم أمراء الشعر في عصره. ومن مغنيه ابراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وضاربه زلزل، وزامره برصوم، ومضحكه ومؤنسه ابن ابي مريم المدني»[1].

هؤلاء هم رؤساء القوم، ويتبعهم العشرات أمثالهم، وكلهم كانوا من خير من أنجبت تلك الأيام، مع النخبة الممتازة من أمراء البيت العباسي، وعددهم كثير، وفيهم القائد والأديب والخطيب. ولم يكن الفضل، في جمع هذه النخبة من عباقرة الرجال، عائداً إلى جهود الرشيد الشخصية وحده، بل هناك عوامل كثيرة تظافرت معه في ذلك. فقد كان بعضهم متصلاً، قبل خلافته، ببلاط جدّه المنصور وأبيه المهدي، ومنهم «أبناء الدعوة» الذين سبق لأسلافهم أن خدموا دولة بني العباس منذ تأسيسها، من وزير وحاجب وقائد وعامل.. وفيهم الذين اختارهم هو بنفسه، أثناء حكمه، أو بوساطة وزرائه البرامكة، وكانوا من بين نوابغ ذلك العهد الذي عرف في التاريخ بإنجاب العباقرة في مختلف العلوم والفنون.

(١) تاريخ بغداد: ج ١١ ص ١٤

ولا نغلو إذا قلنا: إن ما اجتمع حول هذا العاهل، الوافر الحظ، من عظماء السياسة والادارة والقيادة والفقه واللغة والأدب والفن، لم يجتمع في حاشية غيره من الخلفاء والملوك لا قبله ولا بعده.. وقد يصحّ لنا أن نقارن بين بلاطه هذا وبلاط «لويس الرابع عشر»، الملك الفرنسي، الذي جاء بعده بألف عام على وجه التقريب[1]. فالوزير «مازران» داهية أوروبا السياسي، والمشرف على شؤون لويس منذ صغره، كان أشبه بيحيى بن خالد البرمكي من عدة وجوه، لا حاجة إلى ذكرها هنا، كما أن شعـــراءه «راسين ، ولافونتين، وبوالو» في إنتاجهم الأدبي، كانوا أقرب إلى أبي العتاهية، وأبي نؤاس، ومروان ابن أبي حفصة. ولا يبعد كل من «روشفوكو، ولا برويير، وفليشه» في اللغة والنقد الأدبي عن الكسائي، والأحمر النحوي، واليزيدي. ولم يختلف «موليير» جليس لويس الرابع عشر، في ظرفه ومسرحياته الشيِّقة، عن الأصمعي نديم الرشيد، في رواياته ونوادره عن الأعراب، إلا من حيث الأسلوب والإخراج والرواية. وربما كان مهرج الملك الفرنسي «بوفون» كثير الشبه بمضحك العاهل العباسي ابن ابي مريم المدني.. وقل كذلك عن باقي العلوم والفنون الموسيقية.

وإذا أطلق الفرنسيون على عصر لويس، افتخاراً، اسم «الشمس، أو النور» فقد سبق للعرب والمسلمين أن أطلقوا اسم «العروس» على أيام الرشيد، لحسنها وبهجة حضارتها. ولا ينكر أحد من المؤرخين، أن ما اجتمع في بلاط بغداد، يومئذ، من بناة الحضارة الفكرية كان أكثر عدداً وأغزر إنتاجاً مما اجتمع في بلاط باريس حينذاك، فضلاً عن الفارق في الأسبقية والقدم.

كان «قصر الخلد» مقر بلاط الرشيد حين يكون في بغداد، و «قصر السلام» عندما يقيم في الرقة.. وكلا القصرين من أفخم قصور الدنيا في ذلك العهد، وأكثرها سعة وجمالاً.. وكانت للبلاط أنظمة دقيقة متبعة في توزيع الخدمات، وتحديد صلاحيات القائمين على إدارة شؤونه، وتهيئة الاجتماعات الملكية العامة، وعقد المجالس بأمر الخليفة، وتحضير المواكب التي يسير فيها.. إلى جانب أنظمة أخرى كانت مفروضة على

---

(١) كانت فترة حكم لويس الرابع عشر بين عامي ١٦٤٣–١٧١٥م

استقبال الوافدين، وإجلاسهم بحسب المراتب، وعلى الهيئة واللباس لدى المثول أمام أمير المؤمنين، وعلى آداب المكالمة والمناقشة بحضوره.

وأول ما يصادف الداخل إلى قصر الخلد، فرقة من الحرس، في ثياب خاصة مزركشة، يحمل أفرادها السيوف والرماح، ومهمتهم حفظ الأمن وحراسة شخص الخليفة، ومراقبة الداخل والخارج، وتنفيذ الأوامر عند الحاجة. ويقف بعض رؤسائها على أبواب قاعات الاجتماعات ويدخل كبارهم مجلس الخليفة إذا اقتضى الأمر، ويكون محلهم وقوفاً بجانب المدخل، أو وراء الرشيد نفسه، وعليهم السلاح المحلى بالذهب والفضة، زيادةً في الهيبة والجلال.

وكان جُلُّ أفراد هذه الفرقة من الفرس، يختارهم البرامكة الوزراء من أناس عرفوا بحسن الخلق والأمانة والطاعة.. وتكون لهم عند الرشيد مكانة وحظوة، فيرعاهم بعطفه، ويعتني بشؤونهم الخاصة، وإن كان يراقب تحركاتهم بعيونه وأرصاده، لخطورة مكانتهم من شخصه وحياته، ولا يقبل منهم إلا من كان منتمياً له بالولاء، زيادةً في الحيطة، ولا يغفل عنهم في العطاء، ولا يردُّ لهم طلباً إذا كان طلباً قابلاً للتحقيق. فظهرت مكانتهم بين طبقات الحاشية، ومدَحَهُم بعض الشعراء من الطبقات الدنيا، طمعاً بعطاء رؤسائهم، والتوسط بهم عند الخليفة نفسه.. وقد حدَّثنا صاحب «الأغاني» قال: أحضر الرشيد ذات يوم عشرة آلاف دينار في مجلسه، ففرّق بعضها على من كان فيه، وبقي منها في يده ثلاثة آلاف، فقال: آتوني بشاعر مجيد أعطيه هذه البقية. وكان بالباب شاعران: «منصور النمري» وآخر من شعراء كبار الحرس يدعى «يوسف بن الصقيل» وكان ماجناً خليعاً، فأراد الحرس إدخاله فلم يقبل الحاجب بذلك، وفضَّل منصوراً لتقدمه وإجادته. فدخل منصور، وأنشده من غرر شعره، فأعطاه ما كان في يده. ثم نظر الرشيد إلى وجوه الحرس فقال: كأني عرفت ما أردتم، أردتم أن تكون هذه الجائزة ليوسف بن الصقيل !؟ قالوا: نعم، فأمر بإدخاله، فدخل وأنشده شعراً في مدحه، فأمر له بثلاثة آلاف درهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إجعلها دنانير.. فأمر بها دنانير[1]

وكان الحاجب المسؤول الأول عن إدارة البلاط، يعاونه عدد من رؤساء

(١) الأغاني ج ١١ ص ٩٣

المستخدمين، ولكل منهم جماعة من الخدم يأتمرون بأمره ونَهْيِهِ، وفي مقدمتهم «مسرور الخادم» ويسمى «مسرور الكبير» وهو من العبيد الخصيان، ومن جبابرتهم، والشخصية الأبرز بين خدم الرشيد، والأكثر تقرّباً، والأبعد أثراً في تاريخ حياته الخاصة والعامة، لطول صحبته له، منذ صغره حتى آخر يوم من حياته. لقد كان يصحبه في غدوه ورواحه، وسفره وإقامته، ولم يفارقه إلا بأمر منه. كما أن الرشيد لم يكن يعتمد على أحد اعتماده عليه، فهو حارس قصور أسرته، وجلاّد أعدائه الذين يريد الخليفة قتلهم إذا غضب، وليس بين عبيد الخلفاء وخدمهم من خلده التاريخ كتخليده، وذلك لأسباب سيأتي ذكرها لاحقاً.

ومن خدم البلاط أيضاً «سعيد الخفتاني» وكان مقرَّباً عند الرشيد، وأحد الذين سهر على خدمته منذ صغره، فبلغت مكانته عنده حداً جعله يأمر رجال إدارة دولته بأن يقبلوا كتبه، وينفّذوا أوامره حتى المائة ألف درهم[1].. ومنهم «مناره» الذي خدم شخص المنصور في بلاطه، والمهدي والهادي فالرشيد. وقيل إنه قضى سني عمره منذ صغره في قصور خلفاء بني العباس، وشهد معظم الأحداث التاريخية التي مرّت فيها، وعرف أسرارها وخفاياها.. وأما الخادم المسمّى «صالح» فكان مكلفاً بتنفيذ أوامر الرشيد في صرف الجوائز والمنح على من يكرمهم من سمّاره وجلاّسه. وربما كان مديراً لبيت مال «السرور» الذي أوجده الرشيد للعطاء والهبات[2].. وغير هؤلاء، هناك عدد كبير من خدام القصر الذين وردت أسماؤهم في كتب الأدب والتاريخ.

وكان «أحمد بن الجنيد الختّلي» أكثر من اشتهر بدور السياف، أو الجلاد، عند الرشيد وقد عُرِف بشدّته وقسوته، ولم يكن يدخل مجالس الرشيد، لكنه أقام بجانبها ليكون حاضراً عند الطلب، أثناء محاكمة الثائرين المتمردين على الدولة، أو الزنادقة المارقين من الدين، أو غيرهم من أعداء السلطان، ومهمته قطع الرأس بالسيف تنفيذاً لأمر الخليفة، السيد المطلق الذي ليس لأمره مرجع آخر.

وهناك «سلامة الأبرش» الذي كان من أشهر سجاني بلاطه، ومدير سجن «المطبق» الذي بناه أبو جعفر المنصور بين سورَيْ مدينة السلام.. و«سلامة» هذا سجّان قديم، عمل لدى المهدي والهادي والرشيد، وهو الذي سجن الرشيد نفسه في بيته حين اختلف مع

---

(١) الأغاني: ج ٢٠ ص ٩٣

(٢) كتاب الأصمعي ١٧٧

أخيه موسى الهادي حول ولاية العهد، كما اسلفنا، ثم أعاده إلى عمله بعد أن غضب الرشيد عليه.. وكان «المطبق» معداً لسجن الشخصيات المعروفة في الدولة من حاشية الخليفة المغضوب عليهم، من قواد وأمراء وعلماء وشعراء؛ وقيل إنه سجن واسع جداً يشتمل على غرف وسراديب مظلمة، لا يخلو بعضها من الرطوبة، سيراً على قاعدة السجون القديمة في تلك العهود. على أن هناك سجوناً أخرى معدَّة للمجرمين.. وربما اتخذ الرشيد لبعض الشخصيات سجوناً مرفَّهة تكون في بيوت بعض خاصته، كبيت «السندي بن شاهك» وغيره.

* *

وتظهر أنظمة البلاط جليَّة أثناء الاجتماعات العامة، والمجالس التي كانت تعقد بحضرة الخليفة. وربما كانت الاجتماعات العامة قليلة الحدوث، لأنها لا تكون إلا في المناسبات: كأخذ البيعة بولاية العهد، وعودة أمير المؤمنين من غزوه وجهاده، أو حجِّه وأسفاره، وفي الأعياد والمواسم، أو على أثر حادث سعيد، أو مأتم تحزن له الدولة كلها.. هناك يجلس الرشيد على منصَّة عالية مزيَّنة في صدر القاعة الكبرى، ويأخذ أمراء بني هاشم أماكنهم فوق الكراسي عن يمينه، ويليهم من يحضر من بني أمية، المؤيدين لسلطان بني العبّاس، على وسائد تثنى لهم. وينتظم بعدهم رجال الدولة وعظماؤها، بحسب مراتبهم: الوزراء، ويلبسون القلانس والجبب السوداء، ثم الفقهاء والعلماء، وعلى رؤوسهم العمائم المكوَّرة، يرتدون الأقبية والسراويل، وعليها الجبب أو الطيالسة السود، فالقضاة، وقد اختار لهم أبو يوسف زياً خاصاً بهم من قلنسوة بدون عمامة، وطيلسان أسود.. ثم القواد، ومجلسهم عن يسار الخليفة، ولهم زيّ عسكريّ خاص يفرِّقهم عن غيرهم، ويجلس دونهم كبار رجال الإدارة، ثم الأدباء والشعراء، ولكل منهم شعار خاص لا يتعداه.. ويأتي بعد ذلك، رؤساء الندماء وأصحاب الموسيقى، ومن يسمح له بالحضور من الكتَّاب والمستخدمين.

يتولى إجلاس هؤلاء على هذا الترتيب، حاجب القصر أو من يقوم مقامه. وليس لأحد أن يخرق هذا النظام فيتعدى مرتبته، إلا إذا شاء أمير المؤمنين ذلك، فيقدِّم من يريد على غيره، وإن أحب أجلسه بجانبه، كما كان يفعل مع وزيره جعفر بن يحيى فيقرِّبه إلى حافة سريره، فوق مراتب الهاشميين. وفي مثل هذا الاجتماع لا يجوز لأحد الكلام؛ ولا تُلقى

الخطب، ولا يُنشد الشعر إلا بحسب منهاج مرسوم من قبل، أو بأمر من الرشيد، أو بعد إذن منه.. فإذا ما انتهى الحفل، وتم الأمر الذي عقد من أجله، تحرَّك الخليفة عن سريره، فيقوم الجميع إجلالاً له، ويؤتى بالنعال فيلبسه، ثم يتَّجِهُ نحو الباب، ويتبعه القوم، بحسب مراتبهم أيضاً، بين صفين من الحرس المسلح الذي يتوزَّع أطراف القاعة ووراء السرير.

عدا هذا، فقد كان للرشيد مجالس كثيرة يعقدها في المناسبات أيضاً، وعند الطلب، مع رجال حكومته، أو مع خاصته الآخرين.. وهي إما أن تكون للنظر في شؤون الدولة ومصالحها وتسمى «مجالس الشؤون العامة»، وإما أن تُعقد لمجرد رغبة منه في أوقات فراغه، وتسمّى « المجالس الخاصة» أو «مجالس الرشيد» ولكل منها طابع خاص يختلف عن غيره.

كان في طليعة مجالس الشؤون العامة «مجلس الأسرة» الذي يقوم بدور الاستشارة في القضايا السياسية العليا، أو في ما يتعلق بشؤون أسرة الخليفة، كالبحث في إعطاء ولاية العهد، وحلِّ النزاعات بين أُسَرِ بني العباس، والنظر في أمور الزواج بين أفرادهم، إذا كانوا من المقرّبين إلى شخص الرشيد.. ويحضر هذا المجلس مشيخة بني هاشم، فقط، المقيمين في بغداد، كلهم أو بعضهم، وليس في قرارهم ما يُلزم الخليفة، لأن الكلمة الأخيرة له بعد المشورة.

و«المجلس الاداري» ومهمته النظر في كل ما يتعلق بشؤون الادارة وإصلاحها، كتعيين الولاة على الأقاليم، أو دراسة حالة أحدها إذا اضطرب خراجه، أو ارتبك أمر بريده، أو ساءت أوضاعه الاقتصادية، إلى آخره.. ويجتمع فيه الخليفة والوزير، وأرباب الاختصاص من رؤساء الدواوين، وكل ذي خبرة ممَّن يُعتمد عليه في درس القضية التي يُراد معالجتها.

ثم «المجلس العسكري» الذي يبحث في الشؤون العسكرية على إثر حدوث انتفاضات أو ثورات في جانب من جوانب الدولة، أو عندما يريد الخليفة الزحف للغزو والجهاد، وراء حدود المملكة. فينعقد برئاسة الخليفة، ويحضره الوزير، وعدد من القواد العارفين بحالات المناطق الثائرة، أو الذين سبق لهم الجهاد والحرب في بلاد الأعداء الذين يريد

غَزْوَهُم. وفي مثل هذا الأمر يستشار رئيس ديوان الجند ليدلي بما لديه من استعداد مالي لتلك الغاية.

و«مجلس المقابلات» وفيه يقابل الرشيد الوفود القادمة إليه من أبناء رعيَّته أو من الدول الأخرى.. فإن كان وفداً من رعيته، أوكل أمره إلى الحاجب ليقدر أهمية تلك المقابلة، ومدى خطورتها، فإما أن يسرع بعقد المجلس وإخبار الرشيد بذلك، وإما أن يؤجلها إلى وقت معين؛ فيصرف الوافدين بالحسنى، أو يحيلهم إلى الوزير وحده.. أما إذا كان وفداً أجنبياً، فتكون العناية بالمقابلة بحسب أهمية الوفد: فالملوك ونوابهم يستقبلون بحفاوة بالغة على أبواب العاصمة، وربما خرج الرشيد بنفسه لاستقبالهم. ثم يكون الاجتماع والمقابلة في قاعة خاصة معدةٍّ لذلك، وقد زُينت بالوشي والذهب والجوهر وكل ما يُظهر عظمة الخلافة الإسلامية وجلال دولتها.

وغير هذه المجالس هناك مجالس كثيرة، للنظر في الأمور العامة، وربما كان لكل ديوان من دواوين الحكومة مجلس ينعقد من أجله عند الحاجة: فمجلس الشرطة، ومجلس القضاء، ومجلس الحرس، والبريد، إلى آخره.. وللوزير الحق بحضورها كلها، من أجل الاطلاع وإبداء الرأي، ما عدا مجلس الأسرة فلا يحضره حتى يدعى إليه.

أما مجالس الرشيد «الخاصة» فلها شأن آخر، وليس لها نظام خاص لعقدها، لأنها تجتمع برغبة منه، وحين يريد، في ساعة من ساعات فراغه.. وهي أيضاً على أنواع: منها «المجالس الفكرية» التي إما أن تكون علمية يحضرها الفقهاء والعلماء، وإما أن يجتمع فيها رواة الأدب والشعر والأخبار. وأكثر ما تكون مجتمعة، يؤمها الفقيه والمتكلم واللغوي والنحوي والنسابة والراوية والأديب.. وهي تختلف عن مجالس السمر والمنادمة والطرب وغيرها مما سوف نذكره.

والرشيد، كما قلنا، من أشد الخلفاء عناية بمجالسه الفكرية، وأكثرهم اهتماماً في اختيار الأفضل لها، بعد الفحص والاختبار حتى استطاع أن يجمع فيها معظم النوابغ والعباقرة. وفي رواية عنه أنه أراد يوماً أن يضم إليها شيخاً من شيوخ الأدب واللغة البصريين، فجيء له بالأصمعي وأبي عبيدة، فاختار الأول بعد مقابلته ومحادثة طويلة أشبه بالامتحان الصعب.. وقد وصف لنا الأصمعي، نفسه، تلك المقابلة وصفاً مسهباً:

سأله الرشيد فيها عن عدد كبير من الشعراء الأقدمين وعن أشعارهم وما قيل فيها وعن بعض الأمثال السائرة والحكايات التي رويت حولها.. وما زال يسبر غوره ويتفقد علمه وحفظه حتى أُعجب به، فأجازه واختاره عضواً في مجالسه(١).

والذي يمعن البحث في مجالس الرشيد الخاصة، على أنواعها، يجد له فيها شخصيتين مختلفتين: فهو في مجالس العلم والأدب أنيق في تصرفاته، محافظ على تقاليد آداب المجالسة، لا يقبل العبث ولا التهاون. يدير الجلسات بشخصه، ويوجّه المناقشة كما يريد، فلا يبدأ أحد قبله بالكلام، ولا يجيب الا بإذن منه، ولا يسمح باستعمال الألفاظ النابية، ولا الاسترسال في التندُّر والضحك، ولا الهَذَرِ بغير معنى أو فكرة رائعة.. وقد انتجت مجالسه هذه روائع الثمرات العلمية والأدبية التي حدثتنا عنها الكتب القديمة الشيء الكثير.

ومن أطرف ما يدل على تضلّعه في آداب مجالسة الملوك، قوله للأصمعي في مجال النصح والإرشاد: .. أنت أحفظ منا، ونحن أعقل منك، لا تعلمنا في الملا، ولا تسرع الى تذكيرنا في الخلوة. واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تزد... وإياك والبدار إلى تصديقنا، وشدة التعجب مما يكون منا. وعلّمنا من العلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر، وفي أعطاف الخطب، وفواصل المخاطبات. ودعنا من حُوشِيِّ الكلام وغرائب الأشعار. وإياك وإطالة الحديث إلا أن نستدعي منك ذلك. ومتى رأيتنا صادفين عن الحق، فأرجعنا إليه ما استطعت من غير تقرير بالخطأ، ولا إضجار بطول الترداد»(٢).

ولم يكن شأنه كذلك في مجالس «سمره وأنسه»، بل كان يأخذ حريته في الكلام ويتقبل الدعابة والنكتة إذا صُنعت أمامه، فيضحك لها، ويشجع على الإتيان بمثلها ويجيز المجيدين فيها. فهو، في النهاية، إنسان شأنه شأن أي إنسان آخر، يحتاج إلى الترفيه عن النفس، والتخفيف من المتاعب والهموم وإراحة الأعصاب، فيعطي للروح حقّها في الانطلاق والمرح والمسرَّة. وأكثر ما كان يجد هذا مع بعض خاصته، ممن عرفوا بالظرف والدعابة، حين يخلو بهم المجلس، أمثال الأصمعي وإسحاق الموصلي والعبّاس بن محمد

(١) كتاب الاصمعي ١٧٢.

(٢) كتاب الاصمعي ١٧٢

الهاشمي والعبّاس بن الأحنف الشاعر وأبي نواس وغيرهم من فحول الأدب والشعر، حتى وزراؤه البرامكة كانوا أرق الناس دعابة وتقبلاً للطرائف والمرح.

يقول الأصمعي: أمطرت السماء بعد انحباس، واستبشر الناس خيراً، وعم السرور في كل مكان، وكنت وحدي عند الرشيد، فقال: هل تحفظ شيئاً للأعراب في نزول الغيث بعد انحباسه؟؟ قلتُ: نعم ولكني أخشى أن يسمع جعفر بن يحيى!! قال: قُلْ ولا تخفْ، قلتُ: حدثني أعرابي، قال: أمحلت سنة، وعندنا رجل غني وله كلب، فصار الكلب يعوي من شدة جوعه، فقال صاحبه:

تَشَكَّى إليَّ الكلبُ شِدَّةَ جوعِهِ ... وبي مِثْلُ ما بِالكلبِ أو بي أكْثَرُ

فَقلتُ لعلَّ الله يأتي بِغَيْثِهِ ... فيضحى كلانا قاعداً يَتَأمَّرُ

كأني أميرُ المؤمنينَ من الغِنَى ... وأنت مِنَ النُّعْمَى كأنك جَعْفَرُ

فضحك كثيراً وقال: قاتله الله من أعرابي.

وفي رواية للطبري، قال: دخل سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي على الرشيد في مجلس شعره، والشعراء يلقون أمامه قصائدهم فقال: يا أمير المؤمنين، بالباب أعرابي من باهلة ما رأيت قط أشعر منه، فأذن للأعرابي، فدخل في جبّة خزٍّ ورداء يماني وقد شدَّ وسطه ثم ثناه على عاتقه، وعمامة قد عصبها على خديه وأرخى لها عذبة؛ وأنشده قصيدة من غرر الشعر الجيد في مدحه أمام الحاضرين وهم: الكسائي وابن سلم والفضل بن الربيع، فلما انتهى قال الرشيد: أسمعك مستحسناً وأنكرك متهماً عليك، فإن يكن هذا الشعر لك وأنت قلته من نفسك، فقل لنا بيتين في هذين، وأشار إلى الأمين والمأمون، وهما حاضران، فقال:

همـا طُنُبَاهـا بـارك اللهُ فيهما ... وأنت أميـرُ المؤمنين عمودُهـا

بُنِيَتْ بِعَبْـدِ اللهِ بَعْـدَ مُحَمَّـدِ ... ذرَى قِبَّـةِ الإسلامِ فَاهْتَزَّ عُودُها

فأعطاه الرشيد مائة ألف درهم[1].

ودخل أبو العتاهية على الرشيد، في مجلس أدب، وعنده الشاعر «محمد بن مناذر»

(١) الطبري: ج ٣ ص ٢٦١

فجرت بين الاثنين مفاخرة، فقال أبو العتاهية: يا أمير المؤمنين، هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في السنة مائتي قصيدة، فقال ابن مناذر: لو كنت أقول يا أمير المؤمنين كما يقول هذا:

ألا يـــا عتبـــة الساعـــة أمـــوتُ الســـاعـــةَ الساعـة

لقلت كثيراً ولكني أقول:

ابن عبد الحميد لما توفّـى هدّ ركنـاً مـا كـان بالمهـــدودِ

ما دَرَى نَعْشُهُ ولا حاملوه ما على النَّعشِ مِنْ عفافٍ وجودِ

فضحك الرشيد ونظر إلى أبي العتاهية، مظهراً إعجابه بقول ابن مناذر(١).

* *

ومن بين المجالس الخاصة النادرة الانعقاد في قصر الرشيد هناك «المجلس الطبي» وكان أعضاؤه يجتمعون في المناسبات، أي عندما يكون الرشيد مريضاً هو أو أحد أفراد أسرته، وربما كانوا جميعهم، وذلك للاستنارة بآرائهم في بعض الأمور الصحية التي يجب اتّباعها، أو لتشخيص مرض منتشر بين الناس، والبحث في علاجه.. ونجد في كتب تاريخ الطب معلومات كثيرة عن أطباء الرشيد ومجالسهم معه. وقد كان معظمهم من غير العرب، ففيهم السرياني والهندي والرومي واليوناني(٢).

وكان أقربهم إليه، وأكثرهم ثقة عنده. طبيبه الخاص «جبريل بن بختيشوع بن جرجيس» من أهل «جنديسابور». ولأسرة بختيشوع تاريخ في خدمة ملوك بني العبّاس الأوائل، فقد كان جرجيس طبيباً لأبي جعفر المنصور ولأسرته زمناً، حتى نبغ ابنه «بختيشوع» في هذا العلم، فخدم المهدي. ولمّا تولّى موسى الهادي الخلافة اختاره طبيباً وقرّبه، وأضاف إليه طبيباً آخر يدعى «عيسى الصيدلاني»، فحدث بين الرجلين منافسة وتباغض شديد. ولمّا كانت الخيزران تفضّل عيسى وتكره بختيشوع، عملت على إبعاده إلى بلده جنديسابور.

(١) الاغاني: ج ٧ ص ٣٦

(٢) العقد الفريد: ج ٣ ص ٣٨٨

وصادف أن مرض الرشيد وهو خليفة، عام (١٧١ هـ - ٧٨٧م)، فأشار عليه يحيى بن خالد بأن يستدعي بختيشوع بعد أن عجز الأطباء عن شفائه، فجاء ومعه ابنه «جبريل» وداواه فبرئ، فأكرمه وخلع عليه وجعله رئيساً على جميع أطبائه[١]. أما ابنه جبريل فقد انصرف إلى خدمة البرامكة يطبِّبهم ويسهر على صحتهم، ثم أصبح الطبيب الخاص لجعفر بن يحيى. ولم يكن، في أول الأمر، يحضر مجالس الرشيد مع أبيه الذي توفي بعد زمن من قدومه إلى بغداد.

وحدث أن كان عند الرشيد حظية حسناء، تمطَّت ذات يوم ورفعت يدها، فبقيت منبسطة لا تستطيع ردَّها. فأقلق الرشيد أمرها، و جمع أطباء القصر وعلى رأسهم «سنيد» و«ابن ماسويه» وصاروا يعالجونها بالتمريخ والأدهان، فلم تأتِ بنتيجة. فقال الرشيد لجعفر: قد بقيت هذه الصبية بعلّتها، فقال جعفر: لو دَعَوْتَ طبيبي جبريل بن بختيشوع لَعَلّ لديه حيلة في معالجتها. فحضر، وقال للرشيد: إن لم يَسخَطْ أمير المؤمنين فلها عندي حيلة، قال: ما هي؟؟ قال: تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريده. وتمهَّل عليَّ ولا تعجل بالسخط. فأُحضرت الجارية، فتَقَدَّم إليها جبريل وأمَسَكَ ذيلها يريد أن يَكْشِفَها ويعرِّيها، فَجَفَلَتْ من الخجل، وبحركة لا شعورية بسطت يدها إلى أسفل لتمنعه من أن يفعل ما يريد، وأمسكَتْ ذيلها بيديها، فبَرَأَتْ، فقال جبريل: انتهى كل شيء. فوَهَبَهُ الرشيد جائزة عظيمة وجعله مكان أبيه المتوفَى، رئيساً على الأطباء في بلاطه[٢].

وبقي جبريل مع الرشيد يصحبه في حَلِّه وترحاله، ويسهر على حياته وصحته حتى توفي بين يديه، كما سنرى. ولجبريل أخبار كثيرة رَوَتْها كتب تاريخ الطب والأخبار.. وقيل: كان الرشيد مرة في سفره فَقُدِّم إليه طعام من سمك قد فسدَ، فَفَحَص جبريل ذلك الطعام ببعض العقاقير فَثَبَتَ لديه تسممُهُ، فَمَنَعَهُ من أكله، وأَطْعَمَ منه حيواناً فمات، فتأثَّرَ الرشيد لإخلاصه وزادت ثقته به، وصار يقول: «من يَلومُني على محبة هذا الرجل الذي يدبِّرني هذا التدبير؟؟»[٣]. ثم التَفتَ إلى خاصته وقال: «كل من كانت له حاجة إليَّ،

(١) عيون الاخبار: ج ١ ص ١٢٦

(٢) تاريخ الحكماء ١٣٤

(٣) المسعودي: ج ٦ ص ٣٠٦

فليخاطب بها جبريل، لأني أفعل كل ما يسألنيه ويطلبه مني»[1].. وقيل أيضاً: إن الرشيد دعى له يوماً، وهو بالموقف في مكة، فأنكر ذلك عليه بعض بني هاشم، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، إنه ذمي!؟ فأجابهم: نعم إنه ذمي ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائـه.. قالوا: صدقت[2].

وقال جبريل يوماً لابراهيم بن المهدي: «إن عيشي وعيش أبي وجدّي لم يكن من الخلفاء فحسب، وانما كان من الخلفاء وولاة العهد وإخوة الخلفاء وعمومتهم وقرابتهم ووجوه مواليهم وقوادهم. ولي أبوان خدما الخلفاء، وقد أفضل عليَّ الرشيد فرفعني من حدِّ الطب إلى المعاشرة والمسامرة. وليس لأمير المؤمنين أخ ولا قرابة ولا قائد ولا عامل إلا وهو يداريني، إن لم يكن مائلاً بمحبته فشاكراً لي على علاج عالجته به، أو محضر جميل حضرته له ووصفته وصفاً حسناً عند الخليفة فنفعه»[3].

وقد عثرنا على قائمة بخطٍّ كاتب جبريل بن بختيشوع نفسه، ينقلها لنا صاحب «طبقات الأطباء» تدلُّ على ما كان يَرِدُ هذا الطبيب من مال في كل عام من الرشيد وخاصته، وترينا وجهاً من وجوه تلك الحياة المرفهة:

دراهـــم	جهات القبض
١٢٠,٠٠٠	راتب نقدي } من بيت مال العامة
٦٠,٠٠٠	المنزل } من بيت مال العامة
٥٠,٠٠٠	راتب نقدي
٥٠,٠٠٠	قيمة ثياب
٥٠,٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
١٠,٠٠٠	قيمة ثياب هدية على عيد الشعانين
٥٠,٠٠	عيد يوم الفطر نقداً
١٠,٠٠٠	قيمة ثياب ليوم عيد الفطر
١	لفصد الرشيد دفعتان في السنة
١٠٠,٠٠٠	لشرب الدواء
٦٠٠,٠٠٠	المجموع (المقبوض من جانب الخليفة)

(١) تاريخ الحكماء: ٢٣٩

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢ ص ١٦٢

(٣) تاريخ الحكماء: ١٩٨

دراهـــم	جهات القبض
	من عيسى بن جعفر
	من زبيدة بنت جعفر
٥٠,٠٠٠	من العبّاسة
٣٠,٠٠٠	من ابراهيم بن عثمان
٥٠,٠٠٠	من الفضل بن الربيع
٧٠,٠٠٠	من فاطمة أم محمد
١٠٠,٠٠٠	كسوة وطيب ودواب
٤٠٠,٠٠٠	المقبوض من خاصة الرشيد
١,٢٠٠,٠٠٠	من جعفر بن يحيى
١,٢٠٠,٠٠٠	من الفضل بن يحيى
٨٠٠,٠٠٠	غلة من ضياعه
٧٠٠,٠٠٠	من فضل مقاطعاته
٣,٩٠٠,٠٠٠	مجموع ما يقبضه من البرامكة وواردات أملاكه
٤٠٠,٠٠٠	المقبوض من خاصة الرشيد
٦٠٠,٠٠٠	المقبوض من الرشيد
٤,٩٠٠,٠٠٠	الجملة(١) : أربعة ملايين وتسعماية ألف درهم في السنة عدا الهدايا والمنح الأخرى .

يبدو لنا من هذه القائمة أن ما كان يدفعه كل من الفضل وجعفر البرمكيين هو أضعاف ما كان يدفعه الرشيد لهذا الطبيب، لكن للرشيد أطباء آخرين سبق أن ذكرنا اسماءهم ولهم رواتب مثل جبريل، ومن بينهم أيضاً طبيب هندي يدعى «منكه» من أمهر أطباء بلاده وفلاسفتهم، استقدمه الرشيد مرة لمعالجته من مرض استعصى على الأطباء دواؤه، فَقَدِمَ وعالجَهُ حتى بَرِئَ من عِلَّتِهِ، فأَجْرَى له رزقاً واسعاً وأموالا وافرة(٢).

* *

(١) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٣٦.

(٢) الطبري : ج ٣ ص ٧٤٦

ومن مجالسه التي تستحق البحث أيضاً «مجلس الطرب»، فقد كان هارون الرشيد أول خلفاء بني العباس، في جعل المغنين والموسيقيين طبقات ومراتب على غرار نظام «أردشير بن بابك» أحد كبار ملوك الفرس. وقد جاء في كتاب «التاج» للجاحظ: «إن أردشير هذا أول من رتَّب الندماء عند الفرس، وأخذ بزمام سياستهم، فجعلهم طبقات: فكانت الأساورة وأبناء الملوك في الطبقة الأولى، ومجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستار. ثم الطبقة الثانية، ومجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدِّثوه من أهل الشرف والعلم. ثم الطبقة الثالثة، ومجلسهم على عشرة أذرع من أهل الشرف والعلم. ثم الطبقة الرابعة، ومجلسهم على عشرة أذرع من الثالثة، وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة، غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الرابعة خسيس الأصل ولا وضيعه، ولا ناقص الجوارح، ولا فاحش الطول أو القصر، ولا مصاب بعاهة.. وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك، أهل الحذاقة بالموسيقيات والأغاني. والذي يقابل الثانية من ندماء الملك وبطانته، الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات. والذي يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين، أصحاب الونج والمعازف والطنابير.. وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين الا على الحاذق من المغنين، وإن أمره الملك بذلك راجعه واحتج عليه»[1].

وقد أخذ الرشيد هذا النظام بحذافيره فطبَّقه، ولكنه لم يجمع في مجلس طربه رجال العلم والدين، ولا أمراء بيته مع المغنين والعازفين. وقد سبق ان تحدثنا بهذا في بحثنا عن حب الرشيد لسماع الغناء والموسيقى، وقلنا إنه كان يأمر بوضع ستار كثيف بينه وبين المطربين تحاشياً لصدور حركة منه عند النشوة لا تليق بمكانته كخليفة للمسلمين. وقلّما كان يسمع الغناء وحده دون حضور بعض ندمائه، وربما كان يسمع الغناء مع بعض جواريه على أن يكون المغنون وأصحاب العزف، حينئذ، بعيدين عن مجلسه، في قاعة أخرى يتسرَّب منها النغم إلى مسمعه.

وتتكون الطبقة الأولى من أصحاب هذا الفن في مجلس الرشيد من «ابراهيم الموصلي، وابنه اسحاق، وأبي القاسم اسماعيل بن جامع، ومنصور زلزل» وفي الثانية

(١) كتاب التاج: ٣٧

كل من «سليم الكوفي، ومسكين المدني، وعمرو بن نابه الغزال، ويحيى المكي، وأبي زكار، وهاشم بن سليمان، ودحمان الأشقر، وشاريه، وزريق، والهذلي، ومخارق، وعلويه، وعريب، ومحمد الرف» وفي الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير وكلهم من ذوي الشهرة في فنهم[١].

وكانت العادة المتَّبعة عند أفراد هذه الطبقات أنه: إذا وصل الرشيد أحد أفراد الطبقة الأولى بجائزة جعل لأصحابه الذين من طبقته منها، وجعل للذين هم من الطبقتين الأخريين سهماً منها أيضاً. ولا يأخذ أصحاب الطبقة الأولى شيئاً من جوائز من هم دونهم في الدرجة[٢]. وإذا جادَ أحد المغنين أو العازفين أمر الرشيد برفعه إلى الرتبة التي تعلو رتبته.

وحكي: أن برصوماً ـ وهو في الطبقة الثانية ـ زَمَرَ زمرةً على الناي، فَطَرِبَ الرشيد، وقال له: إزمِرْ على غناء ابن جامع. قال: إن كنت أزمرُ على الطبقة العالية رُفِعْتُ إليها، فأما أن أكون من الطبقة الثانية وأُزمِرُ على الأولى فلا أفعل، فَرَفَعَهُ الرشيد إلى الطبقة الأولى وأعطاه البساط الذي كان يجلس عليه المغنون وقيمته ألفا دينار[٣].

وكثيراً ما كان الرشيد يناقش المغنين، ويحكم بينهم إذا اختلفوا، بفضل ما أُوتِي من علم في هذا الفن وإدراك لدقائق أموره.. غناه مرة ابن جامع وأحسن الغناء، فاستعاده منه مرات عديدة، ثم أوعز إلى ابراهيم الموصلي أن يغنّي ذلك الشعر نفسه، فغنّى ولم يُجِدْ، فقال الرشيد لصاحب الستارة: قل له: مرعى ولا كالسعدان، لأنك اخطأت في كذا وكذا. فقال ابراهيم، معترفاً بصحَّة حكمه: والله ما أخطأت ولكني أغفلتُ في هذين الموضعين[٤].

ومن لطيف ما رُوِي عن ابراهيم الموصلي، قال: غَنَّيْتُ يوماً على ضرب «زلزل» فخطَّأني الرشيد، فقلتُ لصاحب الستارة: إن الذي أخطأ هو زلزل، فقال صاحب الستارة: يقول أمير المؤمنين إنك أخطأت وليس زلزل. فَحُمِي زلزل وقال: يا ابراهيم تُخَطِّئُني؟؟

(١) الاغاني: ج ١٧ ص ٧٧ ـ وكتاب التاج: ٣٨ ـ وغيرهما من المصادر.

(٢) كتاب التاج: ٣٧.

(٣) كتاب التاج: ٤١

(٤) الأغاني: ج ٦ ص ٧٤

فوالله ما فَتَحَ أحد فمه بغير لفظ إلا عرفتُ غرضه، فكيف أُخطِئ وهذه حالي؟؟ قال الرشيد: صدقت، أنت كما وصفتَ نفسك، وأخطأ ابراهيم. فَحَزِنْتُ لذلك، وقلتُ لصاحب الستارة: أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي، أن في بلاد فارس رجلاً يدعى «سنيد» لم يخلق الله أضرب منه بعود، ولا أحسن مجساً، وإن بعث إليه أمير المؤمنين فحمله وعرف فضله، وتغنيتُ على ضربه، فإن زلزلاً يكايدني مكايدة القصّاص والقرادين.. فوجّه إلى الفارسي، فَحمل على البريد، وأخذنا مجلسنا، وجاؤوا بالعيدان وقد سوِّيَتْ، فَضَرَبَ الفارسي على عوده، وغَنَّيتُ أحسنَ غناء، ثم قال صاحب الستارة: يا منصور - أي زلزل - إضربْ، فلمّا جسَّ عودَهُ، ما تمالك الفارسي أن وثَبَ من مجلسه بغير إذن حتى قبَّلَ رأسه وأطرافه، وقال له: جُعِلْتُ فداك، مثلك لا يُمتَهَنُ بل يُعبَد. فَعَجِبَ الرشيد من قوله، وعَرَفَ فضيلة زلزل على الفارسي. فأَمَرَ له بِصِلَةٍ وردَّه إلى بلده[1].

وانقسم أصحاب الفن في أيام الرشيد إلى مدرستين: «القديمة»، ورئيسها ابراهيم الموصلي، ومن بعده ابنه إسحاق، وترمي إلى المحافظة على التراث القديم في الغناء وإبقائه على ما هو عليه والمحافظة على قواعده، و«المدرسة الحديثة» ويترأسها ابراهيم بن المهدي، أخو الرشيد، الذي كان قد نبغ في هذا الفن، وهدف مدرسته التجديد، وإدخال ما يأتلف والتطور على النغم الأصيل.. وقيل: إن سبب هذا الانقسام هو أن ابراهيم بن المهدي، تغنَّى ذات مرة بلحن قديم فأضاع صناعته، وتصرَّف به، فردَّ عليه إسحاق الموصلي، وعابَهُ على ذلك، فَغَضِبَ ابراهيم، وقال له: أنا أمير وابن ملك، أغنِّي كما أشتهي وعلى ما ألتذّ. فاختلفا على ذلك، ووجد كل منهما من يؤازره في رأيه ، وانقسم أصحاب الفن بينهما إلى جانبين، طال بينهما الأخذ والردّ[2].

وحريٌّ بالذكر هنا، أن أصحاب الفن هؤلاء، الذين يحضرون مجالس الرشيد لتسليته وإيناسه، كانوا من الشخصيات المحترمة في مجتمعهم، ففيهم الحافظ للقرآن، والعالم والأديب والشاعر، لكن حرفة الغناء قد غلبت عليهم. فقد كان ابراهيم الموصلي أديباً شاعراً كريم اليد والعطاء، وهو من أسرة فارسية عريقة في قومها، وكان كوفيٍّ

(١) كتاب التاج ٤٠

(٢) الأغاني: ج١٣ ص ٢٠

المولد، مرَّ في صغره بمدينة الموصل ومكث فيها بضعة أعوام فسمِّي «الموصلي»، ثم سكن بغداد وتوفي فيها أيام الرشيد[1]. وكان ابنه إسحاق أديباً عالماً وشاعراً مجيداً، وله إلمام بالفقه، وقد قال فيه المأمون بن الرشيد: «لو لم تغلب عليه صفة الغناء لولَّيْتُهُ القضاء».

وأما اسماعيل بن جامع فكان حافظاً للقرآن، متضلعاً في الفقه، عارفاً بأخبار الفقهاء والمحدِّثين. وقد قيل: إنه تزهَّد في أواخر أيامه، فكان يخرج من منزله في فجر كل يوم جمعة، فيصلّي الصبح، ثم يصف قدميه ويقرأ القرآن حتى تطلع الشمس، فلا تكون صلاة الظهر حتى يختم كتاب الله كله. ثم يصلّي ويعود إلى منزله[2]. وكان « منصور زلزل» من أجواد الناس وذوي الإحسان فيهم، وله آثار عمرانية كثيرة منها «بركة زلزل» المشهورة بجمالها، والتي أوقفها على المسلمين. وله تاريخ حافل في دنيا الموسيقى، والضرب على العود بوجه خاص.. وشى عليه بعض حسّاده عند الرشيد، فسجنه عدة سنين، وتوسّط له ابراهيم الموصلي ـ زوج أخته ـ وقيل إنه هو الذي كان وشى به، فأطلق سراحه، فلم يشأ البقاء في بغداد، فتركها وهَامَ على وجهه في البلاد، وانتهى به المطاف في الأندلس، وتقرّب من ملوكها الأمويين، وعظم فيها شأنه، وبقي مغترباً حتى مات[3].

فإذا ما قلنا إن أصحاب العزف والغناء عند الرشيد لا يحضرون مجالس الفقهاء والقضاة والعلماء، فما ذلك عن زراية بهم، ولكن خدمة الفقهاء والقضاة والعلماء للدين، توجب عليهم تجنّب مصاحبة الدعاة إلى اللهو والطرب واللذائذ، من مغنين ومضحكين وعازفين وأشباههم، لاختلاف أهداف كل من الجانبين عن الآخر

يحكى: أن قاضي القضاة «أبا يوسف» التقى المغنّي «ابن جامع» في مجلس من مجالس الرشيد العامة، وهو لا يعرفه، فأعجبه مظهره وظنّه أحد الفقهاء، فسأله عن بلده، فقال من الحجاز، فراح يسأله عن أخبار فقهاء الحجاز، وابن جامع يجيبه أجوبة العالِم المطّلع على أخبارهم وبعض الخلاف الفقهي الذي كان بينهم. وطال الحديث بين الرجلين

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ٢٤

(٢) الأغاني: ج ٦ ص ٦٩

(٣) الاغاني: ج ٥ ص ٢٢

ثم افترقا، فقيل لأبي يوسف: إن الرجل الذي أطَلْتَ الحديث معه أمام رجال الدولة هو أحد المغنين.. وفي اجتماع آخر عقده الرشيد، تقرَّب ابن جامع من أبي يوسف القاضي، فابتعد هذا عنه ولم يشأ أن يكلمه، فأدرك ابن جامع السرّ في ذلك، وقصد أبا يوسف متعمداً، وقال له: أجبني عن سؤالي يا أبا يوسف: قال قل، قال: هل الغناء حرام في الإسلام؟؟ قال لا، قال: هل كان رسول الله ﷺ يسمع الشعر؟؟ قال: نعم، قال: فلو جاءه شاعر وأنشده:

يا دار ميّةَ بالعلياءِ فالسنَدِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأمدِ

أكان يسمعه، أم ينفر عنه؟؟ قال: بل كان يسمعه، قال ابن جامع: فلو غنَّيْتُ لك هذا البيت هكذا ـ وغنَّى البيت بصوت عذب ـ هل زدتُ فيه شيئاً، أم سهَّلْتُ لآذانك سماعه؟؟ قال أبو يوسف: أعفني من هذا يرحمك الله، وابتعد عنه.

وكان الرشيد يجالس بعض هؤلاء المغنين كابراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وبرصوم، في غير مجالس طربه وأثناء العزف والغناء، ويسمع أحاديثهم، وأشعارهم ونوادرهم، ويشجِّعهم على إتقان فنِّهم ويأمر لهم بالجوائز والهبات، ويأخذ آراءهم في بعضهم، وكأنه لهم صديق حميم. ولا يستطيع ملك أن يصنع أكثر من هذا في رفع دعائم هذه النهضة الفنية، التي بلغت أوجها في ظل رعايته[1].

* *

ولم تكن عنايته في رفع مستوى مجالسه وتنظيمها، بأقل من اهتمامه في تنسيق مواكبه وإظهارها بالمظهر الذي يليق بشخصه، من ركاب ولباس وسلاح وحراسة وصحبة. وهي عنده على أنواع، تختلف باختلاف الأهداف والغايات التي تسير من أجلها.. ففي الأحوال الاعتيادية حيث يتنقَّل بين قصره ومسجده، وفي زياراته ومتنزهاته داخل المدينة أو في ضواحيها القريبة، يكون موكبه مؤلفاً من شخصه ووزيره، وعدد من أفراد حاشيته وخَدَمِه، ويسير أمامه جندي يحمل حربة طويلة في يده، عليها شارة السواد، تشبه العَلَمَ في أيامنا هذه. وتصحبه كوكبة من الحرس «الأنصار» بألبسة زاهية

(١) كتاب التاج ٤٤

مذهَّبة، وفرقة من الجنود المشاة يحملون القسيّ والبندق - وهي نوع من الكرات المعدنية ترمى بدل السهام - وتسمى «فرقة النمل» ومهمتها فتح الطريق إذا ازدحم بالمارة، والسير على جانبي الموكب لمنع الناس عن شخص الرشيد والتعرض له.

ومن أجمل مواكبه «موكب العرض العسكري» وفيه يلبس لامة حربه، ويخرج كأنه سائر نحو الجهاد، ومعه عظماء دولته، وكلهم على شاكلته، في ثيابهم الحربية وأسلحتهم المحلاّة بالذهب والجوهر. ثم «موكب الصيد» و «موكب الرياضة واللعب بالصولجان» وموكب «الطراد وسباق الخيل» ولكل منها ألبسة خاصة يرتديها ونظام يتبعه.

وربما كان أخطرها «موكب الحج» إلى بيت الله الحرام. وتتخذ له الاحتياطات اللازمة قبل السفر بعدة أشهر. فتنظم الطرق وتؤمّن، وتُهيّأ وسائل الراحة فيها له ولمن في ركابه من طعام وشراب وبيوت صغيرة أو خِيَم جميلة للنزول والإقامة، بحسب ما يتلاءم وذلك الفصل من السنة، الذي يصادف فيه موسم الفريضة، شتاء كان أم صيفاً.. حتى إذا تم كل شيء، وحان موعد السفر، خرج الرشيد من قصره إلى جامع المدينة لأداء فريضة الصلاة. ثم يزحف في موكبه، فيعسكر في مكان قريب، بضعة أيام، يتفقد فيها المسؤولون لوازم السفر، ويتمّمون نواقصه.

ويكون معه في هذا الموكب جماعة من آل بيته الهاشميين، وعظماء دولته، والفقهاء الذين يختارهم ليحجّوا معه على نفقته وفي ضيافته، وفرقة مسلحة من الجيش لحماية الحجيج من قطّاع الطرق واللصوص، والدفاع عن شخص الخليفة.. وتسير في مؤخرة الركب وبصحبته قوافل الحاج من العراقيين والفرس، ومما يجاور هذين الاقليمين من البلاد، التي يكون سيرها إلى الحجاز في الطريق نفسه.

كان سفر الرشيد إلى الأرض المقدسة يستغرق بضعة أشهر، لذلك جعلوا له بريداً خاصاً يصله بجوانب الدولة، وينقل إليه أخبارها يوماً بعد يوم، وفي المواطن التي يطؤها في طريقه، فلا ينقطع فترة طويلة من الزمن دون أن يعلم بأخبار رعيته. وقد اتخذوا لذلك كل الوسائط السريعة كالنوق العصافيرية، والخيول النشيطة، حتى الحمام الزاجل الذي يربّى من أجل هذه الغاية(١).

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٩١

وربما كان أجمل مواكبه زينة، وإظهاراً لجلال الخلافة وهيبتها هو «موكب استقبال الوفود الأجنبية» التي كانت تَفِدُ إليه من بعض الملوك المعاصرين من غير المسلمين، كوفد ملك الهند الذي كان يرأسه أحد أمراء بيته لعقد الصلات الودية مع خليفة بغداد. ووفد ملك الروم للتشاور في أمر الصلح بين الطرفين. ووفد امبراطور الفرنجة «شارلمان» وغيرهم... وكان الرشيد في مثل هذه الحالات يستقبل الوفود القادمة في جناح من قصره «الخلد»، الذي يشتمل على قاعات مزدانة بأبهى الحلي والجواهر، والعروش المذهبة.. وقلَّما يخرج للاستقبال وراء أبواب عاصمته، وإن فعل، فقد كان يخرج بموكب ضخم تحيطه الهيبة والجلال ودلائل القوة.

* *

وجدير بالذكر، هو أن ما تحدَّثْنا به عن مجالس هارون الرشيد المختلفة وعن ليالي أُنْسِه وسَمَرِه، وعن تلك الظواهر الاجتماعية والفكرية الرائعة، التي كانت تحيط بلاطَهُ، فتشعُّ منه على أجواء عاصمته بغداد، لم تَدُمْ أكثر من سبعة عشر عاماً، فقد انْتَهَتْ على أثر الصراع السياسي الدامي، الذي طوح بصروح البرامكة، وأطفأ جذوتهم، وأبقى الرشيد وَحْدَهُ مستقلاً في حكمه، يقارع الزمن، ويجابه الأحداث الصعاب، ويسهر على كيان عرشه وأنظمة دولته، حتى توفّي.

القسم الخامس

الحركة الفِكرية في مجتمع الرّشِيد



- العلوم
- الآداب
- الزندقة
- الشعوبيّة


الناشر

العلوم

كانت أيام الرشيد أخصب أيام العصر العباسي انتاجاً فكرياً، وكان بلاطه، كما قلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، أغنى قصور الملوك بالنوابغ من العلماء والأدباء وأرباب الفن.. ولما كان التوغل في هذا البحث يقودنا إلى فصول طوال، قد لا تكون في صلب بحثنا، اكتفينا بنظرة تكشف لنا لمعاً من جوانب هذه النهضة التي تبلورت قبل عهد الرشيد بما يزيد على نصف قرن، ثم نمت وأورقت وتبرعمت قبيل خلافته، ولكنها أعطت أوائل ثمرها في أيامه، فكان ثمراً غزيراً امتاز بكثرته ونضجه.

بدأت الحركة الفكرية أول ما بدأت حول العلوم القرآنية، فسمّوها «العلوم النقلية» أو العلوم اللسانية، ثم تضخمت وأنتجت علوماً أخرى سمّيت «العلوم العقلية» وتشعبت بعد ذلك إلى فروع كثيرة.. وكان في مقدمة العلوم القرآنية علم «قراءات القرآن»، على الطرق السبع المعروفة حتى ذلك العهد عند المسلمين، نسبة إلى سبعة من القراء الذين نقلوا عن الصحابة قراءات مختلفة اختلافاً بسيطاً لا يتعلق بجوهر المعنى للآيات المنزلة. ثم ارتفع عدد هؤلاء المقرئين إلى أكثر من سبعة، وكان أشهر من عاصر منهم خلافة الرشيد: أستاذه الأكبر «علي بن حمزة الكسائي»[1] و«أبو عبد الرحمن المقري»[2] و«خلف بن هشام البزاز»[3].

وما احتاج إليه العرب في ضبط قراءة القرآن، بعد فتوح الأمصار وانتشار الإسلام في

---

(١) توفي الكسائي عام ١٨٩ هـ.

(٢) توفي ابو عبد الرحمن المقري عام ٢١٣ هـ.

(٣) توفي خلف بن هشام عام ٢٢٩ هـ.

الآفاق كان «النحو». وقد بعثهم على الاستعجال في وضعه وضبط قواعده ما شاهدوه من لحن الناس في القراءة، فتمَّت قواعده قبل نهاية القرن الثاني للهجرة، وذلك بفضل المنافسة بين علماء البصرة أولاً، ثم بين مدرستَي البصرة والكوفة. وقد نبغ في عصر هارون عدد كبير من أساتذة النحو، الذين استطاع بعضهم أن يتَّصل ببلاطه[1]، ولهم مؤلفات معروفة لا يزال بعضها موجوداً حتى يومنا هذا.

واحتاجوا إلى تفسير بعض الآيات القرآنية، وإيضاح الغريب فيها، وإثبات معاني الألفاظ الصعبة منها، فاستعانوا من أجل ذلك بالرجوع إلى أقوال فصحاء العرب الأقدمين وأشعارهم وخطبهم، وقارنوا معانيها بمعانيه وألفاظها بألفاظه، فنشأ عن ذلك «فقه اللغة»، ونبغ فيه عدد كبير من اللغويين، الذين جمعوا اللغة من أعراب البادية وسكان الصحاري، ورووا الأمثال والأشعار، وألَّفوا الكتب اللغوية التي أصبحت، فيما بعد، أساساً لتنظيم المعاجم التي بين أيدينا.

ولما كان لعلم النحو صلة مباشرة بعلم فقه اللغة، لأن كليهما يحتاج في ضبط قواعده إلى البحث في لهجات العرب، وجمع أقوالهم وأشعارهم وخطبهم وحكمهم وأمثالهم، ظهرت طبقة من العلماء الذين اشتغلوا بالنحو وفقه اللغة ورواية الغريب من الأدب معاً، فَهُمْ نحاة ولغويون ورواة أدب في آن، وربما كان أحدهم قد برع في فرع من هذه الفروع أكثر من غيره فصار يعرف به. ومن اللغويين الذين جالسوا الرشيد أو تعرفوا إليه: الكسائي، وعبد الملك الأصمعي الذي جالس الرشيد وعايشه زهاء خمسة عشر عاماً[2]، وأبو عبيدة معمر بن المثنى وكان قد اتصل به في أواخر أيامه[3]، ويحيى بن المبارك اليزيدي الذي علَّم أولاد الرشيد ودرَّسهم.. ومن رواة الأدب والشعر: خلف الأحمر، وزياد البكائي، وابن عياش، وغيرهم كثير، ولكنْ، لم يكونوا جميعاً على صلة بالبلاط العباسي.

---

(١) أشهر من نبغ في عهد الرشيد من النحاة: عمرو بن عثمان المعروف بـ(سيبويه) ت ١٨٢ هـ، ومعاذ الهرَّاء ت١٨٧ هـ، والكسائي، ويحيى بن زياد الفراء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، ت ١٨٠ هـ.

(٢) كتاب الأصمعي: ١٦٥.

(٣) كتاب الأصمعي: ١٦٦.

ولما كان للعلوم اللغوية اتصال مباشر بالعلوم الشرعية، كان تفسير القرآن في العصر العباسي من اختصاص اللغويين النحاة، وقد ألَّف هؤلاء كتباً كثيرة في تفسير بعض أجزاء القرآن، ولم يصبح «علم التفسير» مستقلاً عن غيره من العلوم إلا في العصر العباسي الثاني.

وكان اتساع رقعة دولة المسلمين وتلوّن العيش فيها على أثر نهضاتها الاقتصادية والمالية وتنوُّع المعاملات، قد اضطر الفقهاء إلى البحث والدرس في إيجاد حلول شرعية للحكم بين الناس في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية، معتمدين على القرآن والحديث والسنَّة، فاستنبطوا الشريعة وأحكامها وهو «الفقه» بفروعه المختلفة، كعلم النظر والمناظرة والجدل والفرائض والشروط والقضاء والفتاوى ونحوها. وكان من أشهر الفقهاء الذين عاصروا حكم هارون الرشيد[1]: الإمام مالك بن أنس، والإمام الشافعي محمد بن إدريس، والإمام أحمد بن حنبل، ولم يكن مذهبه قد انتشر بعد، وعدد كبير من طلاب الإمام أبي حنيفة أمثال: أبي يوسف القاضي[2]، ومحمد بن الحسن الشيباني[3]، وعدد آخر من تلامذة الإمام مالك بن أنس، وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن القاسم بن خالد ابن جنادة[4].. وجلُّ هؤلاء قابلوا الرشيد وحدَّثوه، أو جالسوه، أو عملوا له في دولته.

وكان من نتائج انتشار العلوم القرآنية، وتوسُّع المسلمين في مسائلها، أن كثر الجدل والنقاش حول المعتقدات الدينية وأهدافها وفلسفتها، فظهر «علم الكلام» ويقصد منه الأقوال التي كانت تُصاغ على نمط منطقي أو جدلي، لذلك اتهم أصحابه في أول نشأته بالزندقة، وقاومهم الخلفاء العباسيون، وسجن الرشيد بعضهم، ثم ظهر له فضلهم، فأخرجهم وقرَّب رؤساءهم منه، كما سبق أن بيَّنا.

وفي عهد الرشيد، نما في العراق «التصوف» والدعوة إلى الاهتمام بباطن النفس لا

---

(١) أدرك الأئمة الأربعة عصر بني العباس الأول، إذ توفي أبو حنيفة عام (١٥٠ هـ) ومالك بن أنس عام (١٧٩ هـ)، والشافعي عام (٢٠٤ هـ)، وأحمد بن حنبل عام (٢٤١ هـ)، وكان مولده عام (١٦٤ هـ).

(٢) توفي أبو يوسف القاضي في خلافة الرشيد، كما ذكرنا، عام (١٨٢ هـ).

(٣) توفي محمد بن الحسن عام ١٨٩ هـ.

(٤) توفي ابن القاسم عام ١٩١ هـ.

بظواهرها، وبحقيقة الشريعة لا مجرد أعمال الجوارح، ورياضة النفس عن طريق الزهد والعبادة، والوصول إلى المعرفة عن طريق الوحي والإلهام، وإدراك الحقيقة بالذَّوق والشعور لا بالنطق والتجاوب والقياس[١]، ووضعوا الكتب في التصوف كما كان يفعل الفقهاء في تأليف الفقه.

ثم إن اشتغال المفسرين في تفسير القرآن، وانصراف الفقهاء إلى درس المسائل الشرعية، ألجأتهم إلى البحث عن الأحاديث النبوية وجَمْعِها، فنشأ «علم الحديث» وتفرَّع إلى فروع كثيرة.. وساقهم هذا إلى النظر في تراجم رواة الحديث ومعرفة أحوالهم وتقسيمهم إلى طبقات، فتألف من ذلك تراجم العلماء والفقهاء وغيرهم. ما ساعد على وضع الأسس في تكوين «علم التاريخ» وظهور «علم الانساب»[٢].

وما يقال عن أسباب نشوء علم التاريخ عند المسلمين، يقال أيضاً عن أسباب معرفة «علم الجغرافيا» أو تقويم البلدان. فالأسفار من بلد إلى بلد آخر في طلب الحديث، وفي الحج إلى مكة، والرغبة في تطبيق القواعد الفقهية، كالخراج والجزية على الأراضي التي فتحها المسلمون صلحاً أو عنوة، جرّتهم إلى معرفة البلاد ومواقعها وأحوالها. بيد أن هذا العلم بقي بدائياً، ولم يتسع وينتشر وتكثر مؤلفاته إلا في العصور التي أعقبت عصر الرشيد.

إلى جانب هذه العلوم «النقلية» انتعشت العلوم «العقلية» أيضاً كالفلسفة والقصص الحكمية، والحساب والهندسة والطب والنجوم ونحوها، وقد استمد العرب هذه العلوم من ثقافات مختلفة، يونانية ورومية وفارسية وسريانية وهندية وكل ما اتصل بالعرب من حضارات فكرية للشعوب التي دانت لحكمهم أو تعاملت معهم، ونقلوها إلى لغتهم وتصرفوا بها، ولوَّنوها بطابع عربي خاص. لذا، كثرت تراجم الكتب الأجنبية إلى العربية، وازدادت العناية بالترجمة في عهد الرشيد الذي كان يمد المترجمين بالمساعدات، حتى

---

(١) اشتهر من المتصوفة: ابراهيم بن أدهم (ت ١٩٥ هـ) وشفيق البلخي (ت ١٩٥ هـ) ومعروف الكرخي (ت٢٠٠هـ).

(٢) عاصر الرشيد من المؤرخين: الواقدي محمد بن عمر وهشام بن محمد الكلبي وغيرهما.

قيل إنه أمر بترجمة كل ما عثر عليه في غزواته من كتب البيزنتيين واليونان، ومنح في سبيل ذلك الأموال والهبات واقتدى به وزراؤه وعماله.

خلاصة القول، إن العصر العباسي الأول كان من أغزر العصور الإسلامية إنتاجاً في العلم، فقد وضعت فيه المئات من كتب العلوم القرآنية وما يتعلق بها، لكن معظمها أصيب بالضياع، وكان الفضل في معظم هذا الانتاج العلمي يعود إلى تشجيع الخلفاء العباسيين الأُول. وكان هارون أكثرهم رغبة في هذا التشجيع، وقد كتب في عام (١٧٥هـ ـ ٧٩١م) إلى الولاة على الأمصار وإلى أمراء الأجناد يقول: «أما بعد، فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب الفقه وعمَّر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفَيْ دينار من العطاء، ومن جمع القرآن ورَوَى الحديث وتفقَّه في العلم واستبحره فاكتبوه في أربعة الآف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم، فإن الله تعالى يقول: «أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم»[١]

وقيل إن المكتبة الأولى التي تشكلت عند العرب كانت مكتبة «بيت الحكمة» وتدعى أيضاً «خزانة الحكمة» كان قد أنشأها الرشيد في قصر الخلد، ثم وسَّعها ابنه المأمون. لكن أمر هذه المكتبة ظلَّ غامضاً، لا يُعرف ما إذا كانت في أيام الرشيد مكتبة بسيطة أم معهداً ومرصداً أيضاً؟؟ وقد جاء في «أخبار الحكماء»[٢] أن الرشيد ولّى «يوحنا بن ماسويه» السرياني، ترجمة الكتب الطبية القديمة، التي كان يعثر عليها في أسفاره بين البلاد، وفي غزواته وجهاده، فيجمعها في خزانة الحكمة.. ثم أصبح يوحنا هذا أميناً على المترجمين جميعاً، واختار له الرشيد كتّاباً حاذقين يحسنون الترجمة من لغاتهم الأصلية إلى العربية الفصحى.

وكان «الفضل بن نوبخت» المكنّى بأبي سهل الفارسي، ينقل كتب حكماء الفرس، التي جمعت من خراسان وفارس، إلى العربية[٣].. ومثله «علان الفارسي»، الذي كان يعمل في

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠٠

(٢) أخبار الحكماء: ٣٨٠

(٣) الفهرست: ٢٤٧

خزانة الحكمة، ويترجم للرشيد والبرامكة ايضاً[١] .. إلى جانب وجود عدد كبير من المترجمين عن السريانية، واليونانية، والرومانية وغيرها.

وقد انتشر في زمن الرشيد مجموعة كبيرة من الكتب المنقولة عن اللغات المعروفة في ذلك العصر: من علوم الطب والفلك والفلسفة والحكمة والأدب والقصص ونحوها.. فضلاً عن المؤلفات العربية الجديدة التي كان ينتجها علماء العربية في مختلف أنواع العلوم القرآنية كاللغة والنحو والأخبار والتاريخ وسائر الفروع الأخرى التي نوّهنا عنها.

ومن الأمثلة الدالة على توسع الثقافة، وتقدم الحركة الفكرية في عهد الرشيد، وإقبال مجتمعه على ورود مناهل العلم، قصة كتاب «كليلة ودمنة» المتداول بين أيدينا اليوم: وهو كتاب وُضِعَ في إصلاح الأخلاق، وتهذيب النفوس، وضعه فيلسوف هندي يدعى «بيدبا»، منذ نيِّف وعشرين قرناً، لملك من ملوك الهند، يدعى «دبشليم»، وجعله على ألسنة الحيوانات كقصص قصيرة، كلها حِكَمٌ وعِبَرٌ ونصائح.

وقد أُلِّف هذا الكتاب باللغة الهندية «السنسكريتية» ثم تُرجم إلى لغة «التيبت»، ومنها نقل إلى الفارسية القديمة «الفهلوية»، التي عنها ترجمه الكاتب المعروف «عبد الله بن المقفع»[٢] لأول مرة إلى العربية، في أواخر العهد الأموي أو أوائل العهد العباسي.

فلما اطَّلع العرب على ما فيه من آراء قيِّمة وحِكَمٍ بالغة، أُعجبوا به أيما إعجاب، وصاروا يتدارسونه ويتناقلونه، ثم ترجموه غير مرة، وتصدّى بعضٌ منهم لمعارضته.. ونظمه بعض الشعراء في عهد الرشيد ليسهل حفظه، فكان أول من نظمه «الفضل بن نوبخت» خادم أبي جعفر المنصور، ونظمه أيضاً الشاعر «أبان اللاحقي» وأهداه إلى يحيى بن خالد البرمكي، ونظمه كذلك «علي بن داود» كاتب زبيدة بنت جعفر، زوجة الرشيد. وقد ضاع معظم هذه المنظومات ولم يبقَ منها، في عصرنا هذا، إلا القليل مع ترجمة ابن المقفع[٣].

هذه صورة لكتاب واحد من ضمن كتب ذلك العهد، تُطلعنا على ما كان للحركة العلمية

---

(١) الفهرست : ١

(٢) توفي ابن المقفع عام ١٤٧ هـ.

(٣) جرجي زيدان: ج ٢ ص ١٣١

من نشاط عظيم في ظل خلفاء بني العباس الأوائل، وفي أيام الرشيد بخاصة، حين كان في بغداد وحدها مئات من «الورّاقين» الذين كانوا ينسخون تلك الكتب بأيديهم، ويبيعونها للناس بكميات وافرة. كما تصنع المطابع في وقتنا الحاضر.

الآداب

والحديث عن الأدب في عهد الرشيد يطول شرحه أيضاً، ويتفرع إلى فروع كثيرة منها، الإنشاء والخطابة والشعر، و نحوها:

الواقع أن الإنشاء عند العرب في صدر الإسلام، كان بسيطاً أو معدوماً، لا يتعدى إنشاء الرسائل التي تكتب بين الخلفاء والعمال، في قضايا السياسة والإدارة. وفي أواخر العهد الأموي، بدأ يتسع ويطول بفضل جماعة قليلة من الأدباء، كان في مقدمتهم «عبدالحميد الكاتب» و«ابن المقفع».. ثم أخذ يتجدد ويتطور بأسلوبه وديباجته وأفكاره، في خلافة الرشيد وما بعدها، فنبغ فيه الكثيرون، وعلى رأسهم «عمرو بن بحر الجاحظ» وغيره.

وكانت الخطابة معروفة عند العرب، وكانوا يمتازون عن باقي الشعوب، بمتانة الأسلوب، وقصر الجمل المؤدية إلى المعاني الواسعة الدقيقة.. ثم تطورت في العصر العباسي الأول وفي أيام الرشيد.. فرقَّ أسلوبها، وعذبت ألفاظها، وأشبعت بآراء وأخيلة جديدة، بحكم تلك النهضة الفكرية الواسعة ، والثقافات العامة التي تسربت من آراء المفكرين والأدباء غير العرب.

أما الشعر فقد تغيَّر ثوبه واختلفت ديباجته عما كان عليه في الجاهلية بفضل الأموي. ثم اتسعت أخيلته، ودُقَّت أوصافه عن ذي قبل، بفضل ذلك التغير الواضح في أساليب الحياة عند العباسيين، وانتقالها من حالة البداوة الجافة، ورمال الصحاري القاحلة، إلى معالم الحضارة والترف والرخاء، حيث القصور الشامخة، والحدائق المورقة المزهرة، والبساتين المثمرة، والمياه العذبة الجارية. ومن نطاق اجتماعي ضيق وتزمُّت مقيت، إلى انطلاق في أجواء شعرية واسعة، حيث تكثر المقاصف والمباذل والجواري الغيد والحسان والغلمان والخمرة.

وكما كان لآداب الأمم الأخرى وأخيلتها أثر كبير في تطوُّر الشعر العربي، كذلك كان للترف والرخاء وسعة العيش في عهد الرشيد وغيره أثر ظاهر، أيضاً، في أسلوب هذا الأدب الجديد من حيث الوصف والمعاني.

وقد تحدثنا قليلاً عن مجتمع هارون الرشيد وما كان يختلط فيه من مجون وخلاعة، و سكر وعربدة، وتحرُّر من كثير من القيود الدينية والتقليدية. فكان لهذا شأن واضح في الانتاج الشعري لذلك الزمن، حيث كثر وصف الغلمان والخمرة، والليالي الفاجرة، على ألسنة الخلعاء من الشعراء، أمثال «أبي نؤاس، ووالبة بن الحباب، وحسين الضحاك، ومسلم بن الوليد» ومن على شاكلتهم.

ولا نبعد عن الواقع إذا قلنا: إن عصر الرشيد كان من أغنى العصور في تاريخ العرب والمسلمين، بنوابغ الشعر، والقريض. ولو أردنا أن نعدِّد أسماء شعراء بلاطه ومن التفَّ منهم حول وزرائه البرامكة وأمراء دولته، لضاق بنا المجال لكثرتهم.. وقد أورد لنا «ابن النديم» صاحب كتاب الفهرست، أسماء جماعة منهم، وعدَّد ما خلَّفوا من القصائد الغرر، فكان شيئاً كثيراً[1].

(١) الفهرست: ١٥٢

الزندقة

كأن من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة، والتوغل في البحث والتدقيق في المسائل الفقهية، وعلم التشريع، والتفسير، واختلاف آراء المجتهدين في بعض المشاكل الدقيقة، وظهور المذاهب المتعددة، وترجمة الكتب الفلسفية للأمم المختلفة، ودخول جماعات من المفكرين من غير العرب في الدين الإسلامي، أن أوجدت طبقة من الناس، ضعيفة في عقائدها الدينية، تقول خلاف ما جاءت به الشرائع الإسلامية، وتتظاهر بالإلحاد، وأطلق على أفرادها اسم «الزنادقة».

والزندقة، في عرف البعض، لون من التفكير الخاطئ، أو الاجتهاد المنحرف عن جادة الصواب. يقول الأصمعي في كلامه عن الزنادقة: «ما تزندق هؤلاء القوم إلا لجهلهم باللغة العربية» ويقصد بذلك أنهم لم يفهموا معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما يجب. لذا، كانت الزندقة محصورة في طبقة محدودة من المفكرين وأصحاب الرأي، وتعيش في الأجواء التي نشطت فيها الحركة الفكرية، وفي مقدمتها (البصرة، و الكوفة) ثم في بغداد بعد تأسيسها وانتعاش النهضة العلمية فيها.

ولما كان الخليفة مسؤولاً عن المحافظة على الدين الاسلامي، وتطبيق أحكامه، وإعلاء كلمته، لزم عليه مطاردة هؤلاء القوم، والقضاء عليهم، والحيلولة دون إفسادهم الناس وتضليلهم. وقد طارد الخلفاء الأُول من بني العباس جموعهم في كل مكان، وأمعنوا فيهم تنكيلاً وتقتيلاً، ولم يرحموا أحداً منهم، حتى أصبحت كلمة «الزندقة» في عهدهم وسيلة للطعن بالخصوم، ودفعهم إلى الموت المحتم.

وكان أبو جعفر المنصور من أشد الخلفاء قسوة على الزنادقة، لأن الحركات الفكرية

أخذت في النشاط والتوسع في عهده، ثم تلاه ابنه «المهدي» فكان أشد منه قسوة عليهم، ومطاردة لهم. فقتل منهم عدداً كبيراً، وقد حذا حذوه في هذا ولداه الهادي والرشيد. وربما كان الرشيد أشدهم نقمة عليهم، بعد التثبت من صحة التُّهم التي توجَّه إليهم.

الشعوبية

أما الشعوبية فلها شأن آخر، نلخِّصه فيما يأتي:

كان العرب في صدر الإسلام، ولا سيَّما في العهد الأموي، يسمّون غير العربي من المسلمين، ممن ينتمي إليهم بالولاء: «مولى»، وكان المسلمون، من غير العرب، القاطنون في البلاد العربية كالعراق والشام والحجاز وغيرها، قد ألفوا عادة الانتماء بالولاء إلى من يريدون من الشخصيات العربية المرموقة، والانتساب إلى قبائلها، إسمياً، وإن لم يكونوا منها، فيكتسبون بذلك بعض حقوق القرابة بالنسب، كالحماية والمساعدة والتأييد، ونحوها.

وكان بعض العرب المتعصبين لقوميتهم، لا يرون هؤلاء الموالي أكفاء لهم وإن كانوا مسلمين مثلهم: فلا يكنونهم بالكنى، ولا ينادونهم إلا بأسمائهم المجردة أو بألقابهم، لما في الكنية عندهم من دلالة على الاحترام.. ولا يسمحون لهم في المواكب بأن يسيروا في الصف إلى جانبهم بل وراءهم.. وإذا أقيمت مائدة عربية وحضرها عدد من العرب، قام الموالي بخدمتهم.. وإن أطعموا أحداً معهم من الموالي لفضله و علمه مثلاً، أجلسوه في طريق الخباز، لكي يعلم من يراه أنه ليس من صميمهم.. ولا يجوز لأحد من الموالي أن يصلي إماماً على جنازة أحد من العرب إذا كان هناك بين المصلين عربي واحد، حتى ولو كان غريراً.. وإذا أراد الرجل من الناس الزواج ببنت أحد الموالي، وجب عليه أن يخطبها، أولاً، من ذلك العربي الذي ينتمي أبو البنت إليه بالولاء، فإن وافق كان للخاطب بعد ذلك أن يخطبها من أبيها، وإلا فلا يجوز له ذلك.

وغلا بعض هؤلاء العرب في أرستقراطيتهم هذه، فصاروا يطلقون على أبنائهم، المولودين من أمهات غير عربيات، اسم «المولدين»، واصطلحوا على العربي من أم غير عربية، كلمة «هجين»، والهجنة في الشيء يعني، لغة، العيب أو النقص وعدم الكمال.

وجرى العرف عند أمراء بني أمية، في أوائل عهدهم، أن لا يبايعوا أموياً منهم بالخلافة إذا كان من أم غير عربية مهما كانت ميزاته وكفاءته، وهذا ما أخَّر بعض أمرائهم عن الوصول إلى هذا المنصب وهم أحق به من غيرهم: فقد كان القائد المشهور «مسلمة بن عبد الملك»، مثلاً، من خيرة رجالهم، وأقدر فرسانهم، وله تاريخ مجيد في الغزوات والفتوح، ولكنهم لم يبايعوه حين شغرت كرسي الخلافة، بعد أبيه، لأن أمه كانت رومية. وفي رواية أخرى: أن الخليفة «عبد الملك بن مروان» خطب يوماً لابنه فتاة من أحد أشراف العرب، فأجابه أبوها قائلاً: «لك ما تريد، يا أمير المؤمنين، ولكن جنِّبني هجناء ولدك» أي أعفني من تزويج ابنتي بأحد أولادك الذين هم ليسوا من أمهات عربيات.

وكانت هذه النزعة الارستقراطية محصورة في رؤساء العرب من البدو، وفي الطبقة العليا من رجال الدولة، وغيرهم من ذوي المكانة.. وربما كان الباعث لها هو الشعور، قبل كل شيء، بأن عنصرهم العربي هو الأكثر إفضالاً على غيره من العناصر الأخرى، لأنهم هم الذين فتحوا البلاد بسيوفهم، وأخضعوا هذه العناصر بالقوة، وهم الذين نشروا الاسلام، وقادوا الشعوب إلى الإيمان وطريق الحقّ بعد أن كانوا من الكافرين.

ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يغذّون هذه النزعة في نفوس العرب، ليس كرهاً بالموالي وترفعاً عليهم فحسب، بل لأنهم كانوا يرون أن عددهم قد تكاثر وتضخم في البلاد العربية نفسها، فصاروا يشعرون بالخوف من تغلُّبهم على الأمور. لذلك رفضوا أن يولّوا أحداً على عمل خطير من أعمال الدولة.. وقيل إن معاوية بن أبي سفيان، دعا الزعيم العراقي «أحنف بن قيس التميمي» وكان معروفاً بالحلم وحسن الرأي، وقال له: «يا أحنف، إني رأيت هذه الحمراء، أي الموالي، قد كثرت، أراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً، وأدَعَ شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق.. فما ترى؟؟» فلم يوافق أحنف على هذا الرأي، وأقنع معاوية بالعدول عنه[1].

ربما كان معاوية قد فكّر بذلك بعد أن تذكّر مقتل الخليفة «عمر بن الخطاب» غيلة بيد

(١) العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٧٠

رجل فارسي، ورأى ما كان للموالي من اليد الطولى في إثارة الفتنة على الخليفة «عثمان بن عفان» وقتله بعد حصاره في بيته، كما رأينا في مقدمة الكتاب. ولم يكن هذا الرأي رأي معاوية وحده، بل كان معه عدد من المفكرين العرب الذين بدأوا يشعرون بأن تلك الفتوحات الواسعة قد أدخلت تحت رايتهم شعوباً عديدة، لها تاريخها وحضارتها، فإذا استيقظت قومياتها، يوماً ما، فستكون خطراً على السيادة العربية حتماً.. وهذا ما حدث فيما بعد.

ومهما يكن، من أمر، فقد بعثت تلك الأرستقراطية العربية ردة فعل في نفوس المفكرين من غير العرب، فترسب في صدور بعضهم الحقد والبغضاء ضد العنصر العربي الذي يحكمهم، ولا يرى المساواة والأخوة معهم كما يأمر الدين الإسلامي. وكان أول من أحس بهذا وفكر به، هم أبناء الطبقة المتعلمة من الموالي الفرس الذين كانوا يذكرون حضارتهم واستقلالهم وسيادتهم في العهد القريب، قبل الفتح الإسلامي. ولكن هؤلاء لم يستطيعوا في العهد الأموي، أن يظهروا مثل هذا الشعور، خشية البطش وإنزال العقاب.. وقد قيل: إن الشاعر «اسماعيل بن يسار» الفارسي الأصل، دخل على الخليفة «هشام بن عبد الملك» وأنشده قصيدة في مدحه استهلها بالتفاخر بأمجاد الفرس، فغضب هشام من ذلك، وقاطع إنشاده وأمر بضربه وإخراجه من المجلس، ثم نفاه خارج بلاد الشام [1].

فلما زال حكم بني أمية، وتأسست الدولة العباسية بمعاونة الفرس على الشكل الذي رأيناه، استوزر بنو العباس رجالاً من العجم الموالي، وشاركوهم في الحكم، فخبت جذوة التعصب العربي، وزال الضغط عن الآخرين.. حتى إذا اتسعت الحريات الفكرية وإبداء الرأي، على أثر ازدهار الحضارة العلمية والأدبية، ولا سيما في العراق، وقُوِيَ احتكاك العناصر المتعلمة بعضها ببعض، تظاهر الحاقدون من الموالي ببغضهم للعنصر العربي، وقالوا وكتبوا في ذلك ما شاؤوا، فسمِّيت حركتهم بـ (الشعوبية) وأطلقوا كلمة «شعوبي» على كل من يكره العنصر العربي، أو لا يفضله على غيره.

وكان أول من ظهر من الشعوبيين، في أواخر العهد الأموي، أناس يقولون: بأن الله

(١) الأغاني: ج ٤ ص ١٢٠

خلق الانسان من طين، وأنزلهم من صلب رجل واحد، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا. وإن الدين الإسلامي ساوى بين المسلمين وآخى بين المؤمنين، ولم يفضِّل عربياً على أعجمي إلا بالتقوى، فما بال المتعصبين من العرب لا يرون أنفسهم مع غيرهم سواء؟؟

ثم تطورت الفكرة عندهم في العصر العباسي، فظهر من يقول: بأن العنصر العربي دون العناصر الأخرى في المحاسن والمزايا، وقال بعض شعرائهم ما قال في هجاء العرب:

في بلدةٍ لم تصلْ «عكنٌ» بها طنباً ... ولا خباءً، ولا «عكٌّ وهمدانُ»

ولا «لجرمٌ» ولا «نهدٌ» بها وطنٌ ... لكنها لبني الأحرارِ أوطانُ

أرضٌ تبنّى بها كسرى مساكنَهُ ... فما بها من - بني اللخناءِ - إنسانُ

ونبغ من بين هؤلاء الشعوبيين علماء ورواة أدب، فألفوا الكتب في «مثالب العرب» و«محامد الفرس». وجمعوا أشعار الهجاء التي قالها شعراء القبائل العربية ببعضهم، وصنَّفوها في كتب خاصة، فلم تبقَ قبيلة إلاّ أصابها من ذلك الهجاء، حتى قريش.

وحرَّفوا الأخبار والتاريخ، وأضافوا على الأدب العربي من عندياتهم ضد العرب، ونسبوها إلى غير قائلها، لغايات في نفوسهم، ولم يكفهم ذلك، بل وضعوا الأحاديث، اختلاقاً على لسان النبي ﷺ. فأساؤوا للتاريخ والأدب والدين، في سبيل الإنقاص من العنصر العربي.. ولم يردعهم عن ذلك رادع ما دامت الدولة العباسية تستند في حكمها إلى العرب وغير العرب، ولا سيّما الفرس الذين ساهموا في تكوينها، وأصبح وزراؤها منهم، عادة تقليدية لا تنقض.

والذي يمعن البحث والدرس في أمر «الشعوبية» هذه يجدها وليدة تلك اليقظة في القومية الفارسية، التي نشطت إلى جانب الدعوة العباسية ضد سلطان بني أمية، ثم ضد السيادة العربية بوجه عام، وقد زادها نشاطاً نجاح تلك الدعوة اولاً، ثم تبوأ بعض الشخصيات الفارسية المكانة العظمى على المسرح السياسي لهذه الدولة، وفي طليعتهم «أبو مسلم الخراساني» الذي كاد يعيدها، كما رأينا، دولة فارسية لولا دهاء أبي جعفر المنصور وحزمه. ثم كانت مشكلة البرامكة الذين نشطت الشعوبية في عهدهم، واستفحل أمر القومية الفارسية في ظل وزارتهم، ما أثرّ على سياسة الدولة وأنظمتها.

القسم السادس

أنظمة دولة الرشيد

- نظام الحكم والإدارة
- وَضْعُ القضاء
- مالية الدولة
- الحالة الاقتصادية

نظام الحكم والإدارة

كانت النظرية السائدة في العصر العباسي الأول هي نفسها التي كان يعتقد بها ملوك الفرس السابقون، وتسمى «نظرية الحق الإلهي المقدس» أي أن الخليفة يحكم بتفويض من عند الله، كقول الرشيد في أحد كتبه التي أرسلها إلى عماله: «.. فإن الله ولي أمير المؤمنين، وولي ما ولاَّه، والحافظ على ما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والضامن له فيما قدَّم وأخَّر من أموره..»(١).

وهذه النظرية تدعو إلى نظام حكم دكتاتوري محض، لأنها تخوِّل الخليفة حقَّ التصرف بأرواح الناس وأموالهم، دون قيد أو شرط، باستثناء قيود الشريعة الإسلامية.. ولما كان الكثير من قيود الشريعة هذه يعود تفسيرها وتقدير نتائجها إلى صاحب السيادة المقدسة وهو الخليفة، أصبحت مقدرات الأمة منوطة بشخصه، فإن كان عادلاً نزيهاً حسن حالها ورَاقَ عيشها، وإلا تعرضت للظلم والبؤس والمصائب.

على أن أسس هذه النظرية تخالف مفهوم الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين، يوم كانت انتخابية تستمد سلطانها من الشعب، وتسير في أحكامها على ضوء القرآن والسنَّة، كقول الخليفة الأول أبي بكر الصديق في إحدى خطبه: «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» وقول الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: «لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً»(٢).

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٦٣

(٢) تاريخ الاسلام: ج ٢ ص ١٩٦.

لذلك كان هارون الرشيد كأسلافه من الخلفاء العباسيين، مصدر كل قوة، ومرجع كل الأمور المتعلقة بإدارة الدولة، ومن كان هذا شأنه يستطيع أن يستبد بالسلطان، ويحتجب عن الرعية ويتخذ الوزراء والحجَّاب، ويحيط شخصه بالجلال والقداسة والرهبة، فينحني أمامه الداخل عليه ويقبِّل الأرض بين يديه، إلا إذا كان من كبار القوم فيكتفي بتقبيل رجليه أو يديه أو طرف من ثوبه.. كما كان يفعل أكاسرة الفرس.

ولم يكن مفهوم نظرية «الحق الإلهي المقدَّس» هذه مجرد ادِّعاء أو اعتقاد من الخليفة أو حاشيته وحدهم، بل نظاماً متَّبعاً ترتكز عليه سياسة الدولة العليا وتروِّجه طبقات العلماء ورجال الدين، إلا ما ندر منهم، وصاروا يطلقون على الخليفة اسم «الإمام» توكيداً للمعنى الديني، كقول أحدهم:

ذاك سيفُ النبيِّ في سالفِ الدهرِ   وهذا سيفُ الإمامِ الرشيـــــــدِ

ولم يكن هذا اللقب معروفاً في عهد الخلفاء الراشدين ولا في أيام بني أمية إلا لمن يؤمُّ الناس في الصلاة[1].

* * *

وكان أول من استعمل الوزارة في إدارة سياسة الدولة عند المسلمين خلفاء بني العباس أيضاً، وهو نظام أخذوه عن الفرس كما أخذوا معظم أنظمة الدولة الأخرى، وطبَّقوها كما يحبون.. يقول «بالمر»: «لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية عليها. ولهذا فإننا نجد جُلَّ وزراء الدولة من أصل فارسي، كما نجد أيضاً أن نظام الخلافة الذي كان يُعمل به هو نفسه الذي تعمل به أمبراطورية فارس»[2]. وكانت الوزارة في ذلك العهد على نوعين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ .. وكان وزير التفويض هو ساعد الخليفة، والقاضي باسمه في جميع شؤون الدولة، والمصدِّر للكتب بخاتمه، بعد استشارته أو دونها.. وكان يُختار هذا الوزير من بين من هم

(١) النظم الإسلامية: ٤٦.

(٢) بالمر Palmer: ١٢٧.

أكثر مهارةً في أمور الإدارة، وأبلغهم علماً ورأياً، وأسخاهم يداً، وأقربهم في الوقت نفسه إلى شخص الخليفة، وأوثقهم عنده.

وقد تكون صلاحية التفويض صلاحية مطلقة، كما كانت لدى يحيى بن خالد البرمكي، في إدارة شؤون بيت المال وحساباته، والإشراف على إجراء العدل والإنصاف والقضاء النزيه، وحفظ الدين والأخلاق والأمن في المملكة، والعناية بأمور الجيوش وتعبئتها، وتشجيع الصناعة والزراعة والعمل على رفاه البلاد، إلى آخر ذلك ما عدا أمور ثلاثة: إعطاء ولاية العهد، والاستعفاء من الخلافة، وعدم عزل من قلَّده الخليفة أحد المناصب، فإنها من اختصاص الخليفة وحده.

أما وزير التنفيذ فيقوم بتنفيذ أوامر الخليفة ومقرراته، دون أن يتصرّف بشيء من تلقاء نفسه، وله أن يشير عليه بما يراه حسناً، وينقل له أمر الرعية وأخبار البلاد، ويحضر مجالسه الخاصة ويطَّلع على بعض الأسرار، فقد كان أشبه بآلة إدارية تعمل على الاتصال بين الرعية والراعي.

وكان الرشيد قد اختار لوزارة التفويض يحيى بن خالد، وأعطاه السلطة المطلقة، كما رأينا، ولم يكن له بجانبه وزير تنفيذ، حتى إذا نقل خاتم الوزارة من يده إلى يد ابنه الفضل، جعله وزير تنفيذ، ولما استوزر جعفر بن يحيى، جعل أباه وأخاه وزيري تنفيذ معه.. وهكذا بقي البرامكة الثلاثة يتناوبون خاتم الوزارة في ما بينهم حتى آخر أمرهم.

وللخليفة حاجب يقف على بابه، والحجابة نظام عرف عند بني أمية فأخذه العباسيون، وأضافوا عليه من عندهم، لمنع الناس من الاتصال بالخليفة إلا في الأمور المهمة وبعد الإذن، وكان للرشيد مجلسان يستقبل فيهما الناس، كلاً بحسب مكانته الاجتماعية، وهما «دار الخاصة» و«دار العامة»، وكان الحاجب هو الذي يعيِّن للزائرين المجلس الذي يراه لائقاً بهم، والموعد الذي يحضرون فيه، وحكمه في ذلك كان حكماً قطعياً، فمسؤولية كل ما يحدث كانت تقع على عاتقه[1].

ويختار الخليفة الحاجب من كبار رجال الحاشية المتميّزين باللباقة والذكاء ومعرفة

---

(١) تاريخ الاسلام: ج ٢ ص ٢٠٢.

الناس، لما لمهمته من خطورة لاطّلاعه على معظم أسرار الخليفة الشخصية، ويجب أن يكون ذا وجاهة وثقافة وصفات ممتازة، لأنه وجه الخليفة أمام الناس ورئيس موظفي بلاطه، ويشبه في يومنا هذا «كبير الامناء» أو «رئيس الديوان الملكي» في قصور الملوك اليوم.

وكان الرشيد يعتمد اعتماداً كبيراً على حجّابه، فيعطي بعضهم حقوقاً معينة فوق مهامهم، كالتولية والعزل والكتابة والنسخ ضمن دائرة معينة، ويغدق عليهم المال ليستميلهم إلى شخصه، وقد قيل إن وارد الحاجب كان يبلغ أحياناً أضعاف راتب الوزير لما يتلقاه من المنح والهبات[1].. وكان على حجابة الرشيد في أول خلافته «بشر بن ميمون» ثم عزله وعيّن «محمد بن خالد» واختار بعده «الفضل بن الربيع»، ثم جعل مكانه «عبد الملك بن الفضل».

***

وكان النظام الإداري لدولة المسلمين في أول أمرها أشبه بالنظام «اللامركزي»، فقد كان الوالي يستقل بأعماله في ولايته، دون أن يتصل بالخليفة إلا في الشؤون السياسية العليا. ثم تطوّر هذا النظام في العهد العباسي ليصبح نظاماً «مركزياً» يقلّص نفوذ العمال في أقاليمهم، ويحدّد اختصاصهم فيها، ويربط بعض أمورها بمركز الخلافة مباشرة.

وكان الرشيد يتولى تعيين العمال بشخصه بعد استشارة وزيره المفوض، وربما ترك له أمر التعيين في بعض الأحيان بعد موافقته.. وكانت الولاية في عهده على أنواع: منها الولاية الكبيرة، كأنْ يولي أحد أولاده، أو شخصاً محبباً موثوقاً عنده، جانباً من المملكة يشتمل على عدة أقاليم وأمصار، ويبقى هذا الوالي في بغداد أو في أحد تلك الأقاليم وينتدب من قِبَلِه - وبعد استشارة الخليفة - من يشاء من رجال الدولة، وقد فعل الرشيد ذلك مراراً مع أولاده وأولاد يحيى بن خالد، كما سنرى لاحقاً.

وقد تكون الولاية على إقليم واحد (ولاية كاملة): تخوِّل صاحبها حق النظر في الأحكام، وتقليد القضاء، وجباية الخراج، وحماية الأمن والدين، والإمامة في الصلاة، وتسيير الوفود للحجِّ، وتجهيز الجيوش للغزو إذا كان ذلك الإقليم متاخماً للحدود. وقد

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢ ص ١٥١.

تكون أحياناً (ولاية منقوصة): وهي أن يرسل الخليفة إلى جانب الوالي عمالاً آخرين للإدارة المالية، أو جمع الخراج، أو إدارة البريد، أو القضاء او غير ذلك، ولا يحقُّ للوالي عزل عامل عيَّنه الخليفة.

وكانت الولايات التي اشتملت عليها دولة الرشيد: «الكوفة، والسواد، والبصرة مع إقليم دجلة والبحرين وعمان، والحجاز مع اليمامة، واليمن، والأهواز وتشمل خوزستان وسجستان، ثم فارس، وخراسان، والموصل، والجزيرة، وأرمينية، وأذربيجان، والشام، وفلسطين، ومصر مع إفريقيا، والسند» وأخيراً، عزل هارون الرشيد «الثغور» عن الجزيرة وسمّاها (العواصم) وجعلها ولاية مستقلة، كما أسلفنا، وعزل شمال إفريقيا عن مصر، وجعل (صقلية) تابعة لولاية إفريقيا(١).

وما امتازت به دولة الرشيد كان توزيع الأعمال الإدارية توزيعاً يقرب من نظام الحكومات الحاضرة، وأهم ما في ذلك كانت الدواوين: وعلى رأسها «ديوان الزمام» وهو أشبه بديوان المحاسبة العامة في يومنا هذا، وتجتمع فيه حسابات الدواوين الأخرى، بإدارة رجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، كديوان «الرسائل» الذي يعين الخليفة والوزير على إذاعة المراسيم والبراءات، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة، وتلقِّي الرسائل التي ترِد على الخليفة من الأقاليم أو من دولة أجنبية.

وديوان «الخراج»، ويقوم بحسابات الخراج والجزية وغيرها (٢).. وديوان «الطراز» ويُعنى بحساب ما يُصرف على تطريز ثياب الخليفة والوزير والأمراء والقواد، بخيوط مذهّبة أو مفضضة أو حريرية.

وديوان «الجند» ومهمته تنظيم حسابات الجنود ونفقات الجيوش وتكاليفها عند زحفها للجهاد أو قمع الفتن.. وديوان «البريد» وهو ديوان يهتم بنقل الرسائل بين الأقاليم، ويترقب الأخبار، ويتجسس للخليفة على حركات العمال.. وديوان «المظالم» وهدفه تنظيم شؤون القضاة وكل ما يتعلق بإجراء العدل.. وديوان «الشرطة»، وديوان «الأَكَرَةِ» الذي

---

(١) فون كريمر: ٢١٨.

(٢) الجهشياري: ١٤٦

يُعنى بالإشراف على شؤون الزراعة من تِرَعٍ وجسور.. وغيرها من الدواوين وهي كثيرة موزَّعة ومصنَّفة بحسب الحاجات الإدارية في الدولة.

وكان في عهد الرشيد إدارة خاصة تنظر في مصالح المسلمين ويسمّى رئيسها «الجهباذ».

ولكل ديوان من هذه الدواوين رئيس أو كاتب من ذوي الاختصاص في أمور ديوانه، فكاتب ديوان الجند، مثلاً، يكون من أعرف الناس بحساب التقدير وشِيَاتِ الدواب والعدد والسلاح. وكاتب ديوان المظالم يكون عالماً بالشروط والأحكام، والناسخ والمنسوخ من القرآن، والحلال والحرام، والفروع والمواريث، إلى آخر ذلك.. وكتّاب الدواوين في عهد الرشيد كثيرون يتقاضى أوسطهم راتباً قدره ثلاثمائة درهم في الشهر[١]، وهم يكوّنون طبقة الموظفين الكبار في الدولة، ولهم عطلتهم الأسبوعية يومي الخميس والجمعة وكذلك أيام الأعياد[٢]، وكانوا يخضعون جميعاً لسلطان الوزير، ويقدمون حساباتهم لرئاسة ديوان الأزمة، التي كان يشغلها في ذلك العهد «عمر بن مطرف الكاتب» وهو من رجال الرشيد الذين كان يحترمهم ويعتمد عليهم[٣].

***

ولما كان نظام الدولة على الشكل المركزي، فقد عنيت حكومة الرشيد بتنظيم البريد عناية فائقة، فجعلت له ديواناً كبيراً في بغداد تتشعب منه شبكة تمتد فروعها إلى أنحاء البلاد دون استثناء، وقد خُصصت لها المبالغ الطائلة لتهيئة وسائل النقل السريعة كالنوق الخفيفة السير، والبغال النشيطة، والخيول القوية، حتى الحمام الزاجل من أجل الأخبار الخطيرة وضمان وصولها.

وكان الرشيد يختار صاحب البريد من أصدق رجاله وأمهرهم وأقربهم إليه لخطورة مركزه، فهو لا يوصل أوامر الخليفة إلى الولاة وينقل أخبار الأقاليم إليه بالتفصيل فحسب،

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢ ص ١٤٥

(٢) الجهشياري: ١٦٦

(٣) بقي عمر بن مطرف العبدي رئيساً لديوان الأزمة في عهد الرشيد حتى توفي عام (١٨٨ هـ). أنظر: معجم الأدباء: ج ١٦ ص ٧٢.

بل يتجسس له على حركات العمال وتصرفاتهم، وعلى أعدائه وراء الحدود، فينذره عند حدوث الخطر، ويطمئنه حين يستتب السلام.. كما يعلمه بكل شيء عن تحركات الشعب في الزوايا البعيدة، حتى عن أسعار الأسواق الاقتصادية من منتوجات زراعية وصناعية.

وعلى صاحب البريد، أيضاً، أن يعتني باختيار أعوانه وعماله في الأقاليم والأمصار، ويؤمِّن لهم وسائل العيش، ويمهِّد الأمن في الطرق ويسهِّلها لهم بوضع المحطات والمراكز، لمساعدة حيوانات النقل وتبديلها عند اللزوم، وكان يستخدم عند الحاجة قوى الشرطة المثبوتة في أنحاء الدولة.. وقد نشط هذا الديوان في أيام الرشيد، حتى قيل إنه كان يتلقى الأخبار من مختلف أنحاء البلاد يومياً ويقدمها للخليفة الذي قيل فيه: إن له عيناً لا تنام حتى عن أقصى زوايا ملكه[١].

وكانت الشرطة في هذا العهد من المنظمات الإدارية المهمة، وهي على أنواع: فهناك شرطة العاصمة، ومهمتها السهر على الأمن وراحة سكان بغداد، وقصور أسرة الرشيد بخاصة، وكان صاحب الشرطة أشبه بالمدير العام لعواصم الدول في عصرنا الحاضر، وهو منصب مرموق لا يصله إلا المقربون الموثوق بهم كل الثقة عند الخليفة.

وقد شغل هذه المهمة أثناء خلافة الرشيد عدد من الشخصيات البارزة في الدولة، وهم بحسب التسلسل: «القاسم بن نصر، ثم خزيمة بن خازم، وأعقبه المسيب بن زهير الضبيّ، ثم عبد الله بن مالك، وعلي بن الجراح الخزاعي، وأخيراً عبد الله بن خازم[٢]» وجُلُّهم من القواد المعروفين بكفاءتهم العسكرية، وكانت لهم رواتب ضخمة جاوزت الخمسمائة ألف درهم في السنة[٣].

وجعل من هذه الشرطة فرعاً يخدم القضاء والعدل، وهو أشبه بالشرطة القضائية في بعض أنظمة الدول الحديثة، وفيها يقول ابن خلدون: «وكان أصل وضعها في الدولة

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ١ ص ١٩١

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥٢٠.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ١ ص ١٩١.

العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حالة استبدائها أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها. فإن التُّهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء، وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزَّه عنه القاضي، يسمى صاحب الشرطة، وربما جعلوا النظر إليه في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي»[1].. وفي عهد الرشيد أودع ـ لأول مرة ـ النظر في الجرائم وإقامة الحدود إلى صاحب الشرطة[2]. بيد أن هذا العمل لم يكن يشمل الطبقات، بل كان حكمه على سواد الناس فقط، وأما الطبقات العليا من الخاصة فأمرهم يعود إلى الخليفة نفسه أو وزيره للنظر فيه[3].

وكان للولاة على الأقاليم شرطة خاصة، يعيِّن الوالي رئيسها، وقد جرت العادة أن يقع الاختيار على رجل من ذوي القوة والعصبية، لأنه سيختار أفراد شرطته من أعوانه وبني عمومته، ليساعدوه على مطاردة الجناة والمفسدين، وتحقيق الأمن وحفظ النظام، بالتعاون بين أولئك النفر وبين رئيسهم.

وهنا يجب أن نفرِّق بين الشرطة والحرس لاختلافهما في النظام والديوان وقد جرت العادة، أن يختار الرشيد رئيساً خاصاً لحرسه يكون من أقرب الناس إليه وأكثرهم ثقة. كما يختار رئيس الشرطة، وربما شارك الخليفة رئيس حرسه هذا في اختيار أعوانه واحداً واحداً لصلتهم كلهم بشخصه، وحراستهم له، ولم يكن يفرّق بين رئيس الحرس وصاحب الشرطة بشيء، ولكن ربما كان الأول أقرب من الثاني إلى الخليفة وأعلى منزلة وأضخم راتباً.

***

ويجرّنا الحديث عن الشرطة والحرس إلى الحديث باختصار عن النظام العسكري

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢١٨.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ١ ص ١٩١.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٢١٨.

وحالة الجيوش ، فقد امتاز عصر الرشيد بكثرة الحروب واستمرار الغزو والجهاد في البرِّ والبحر. ولا غرابة، فإن الخليفة نفسه كان من أكثر الخلفاء السابقين الذين شاركوا، عملياً في مقاتلة الأعداء خارج حدود البلاد، ولم يسبق لأحد منهم قبله أن غزا مثله طوال مدة خلافته، لذلك قيل إن مجموع جنود فِرَقِهِ العسكرية النظامية الدائمة المرابطة في خراسان والعراق والعواصم وشمال أفريقيا وغيرها، يزيد على ألف ألف جندي، ما عدا «المتطوعة» الذين يتبرعون بالجهاد مع العسكر من أجل الكسب والغنائم أو تقرباً إلى الله، وجُلُّهم من البدو وسكان الأرياف.

وكان على كل فرقة نظامية قائد يمتاز بحسن التدبير ومعرفة فنون الحرب، ويمثِّل الخليفة أمام جنده، فيمنعهم من الاعتداء على الغير ويعاقبهم في ارتكاب الموبقات، ويحاسبهم على أوامر الدين ويؤمهم في الصلاة إلى آخر ذلك، ودون هذا القائد قواد آخرون يأتمرون بأمره، ورؤساء للفصائل والسرايا، يرتبطون بأوامر الأعلى، ويخبرون القيادة عن أحوال الجند ولوازمهم ومعنوياتهم وأحوالهم[١].

وكان لدولة الرشيد أساطيل في سواحل سوريا ومصر، وترسانات لصنع السفن وما يلزمها من حاجات للغزو في البحر، والدفاع عن مياه الدولة. كما كان على كل أسطول أمير يدعى «أمير البحر» ومنصبه وواجباته وحقوقه تشبه تلك التي تخصُّ الفرق البرية، وإن اختلفوا بعض الشيء من ناحية النظام والمعيشة والامتيازات.

وكانت الجيوش البرية، يومئذ، شبيهة بنظام التعبئة الفارسي، بتقسيم الكتائب إلى ميمنة وميسرة وقلب، وتكون أمامها في الغالب فرقة تسمّى «المقدمة» وأخرى وراءها تسمّى «الساقة» وأهم عناصرها الفرسان والمشاة والرماة، ورجال الحصار الذين يستعملون «المنجنيق» لقذف الحجارة والنار على الأعداء، وأصحاب (الدبابات) وهي عربة عالية مقفلة يختبىء في داخلها الجند ثم تُدفع إلى الأسوار لفتح الحصون[٢].

وللجيوش البرية هذه ديوان خاص هو «ديوان الجند» ومهمته إحصاء الجنود

(١) مفيد العلوم: ١٨٣.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي: ١٨٢.

ورواتبهم وسلاحهم ودوابهم، وما يلزمهم من نفقات أثناء الزحف والجهاد، وما يعود لبيت المال من الحق أثناء الفتوح والنصر على الأعداء. وللأسطول البحري ديوان مستقل به أيضاً، يُعنى بكل حاجيات السفن والبحارة وحساباتهم من نفقات وغنائم.

على أن هذه الجيوش والأساطيل كانت مسلَّحة في عهد الرشيد بأحدث الأسلحة وأوفرها وأقواها. ولم تكن حالة الجندي في يوم ما أحسن مما هي عليه في هذا العهد، بفضل تضخم ميزانية الدولة، وازدهار حالة البلاد الاقتصادية، فقد بلغ راتب أصغر جندي، عشرين درهماً، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى توافر الحاجات، يومئذ، وبخس الأثمان. هذا مع العلم أنه لا يجوز إبعاد الجندي عن أهله وأسرته، في الجهاد والغزو، أكثر من أربعة أشهر.

وضع القضاء

تطور القضاء في العصر العباسي الأول تطوراً ملحوظاً عن ذي قبل، ولا سيما في عهد هارون الرشيد، بعد أن ظهر مذهبا الإمامين «مالك» و«أبي حنيفة». وانتشر الأول في الحجاز والشام والمغرب، وتوغل الثاني في العراق وبلاد فارس[1]. وأصبح القاضي ملزماً، في كثير من الأحوال، بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذين المذهبين. فإذا اختصم اثنان من غير مذهب القاضي أحال قضيتهما إلى قاض آخر يدين بمذهبيهما، ما اضطر الخليفة إلى أن يختار لكل بلد قاضياً بمذهب الأكثرية فيه[2].

وقد أحدث الرشيد نظاماً جديداً بتعيينه رئيساً أعلى للقضاء، يسمّى «قاضي القضاة» ويشبه منصب وزير العدل في يومنا الحاضر، وربما كان أخطر منه لأنه لم يكن يُعنى بشؤون القضاء في جوانب الدولة، ومراقبة القضاء فحسب، بل كان أيضاً يفتي الخليفة في شؤونه الخاصة، وأعماله وتصرفاته في أخطر الشؤون العامة، وكان عليه حضور مجالسه العلمية ومصاحبته في أسفاره وحجه.

وكان أول من اختاره الرشيد لهذه المكانة الرفيعة «أبو يوسف القاضي» يعقوب بن ابراهيم الأنصاري، أحد كبار فقهاء عصره، وأحدُّهم ذكاء وفطنة، وأكثرهم رزانة وجرأة في الحقِّ، تلمذ للإمام أبي حنيفة ولازمه زمناً طويلاً فكان من أبرز طلابه، وعمل قاضياً للمهدي في بغداد، ولموسى الهادي من بعده، فلمّا اختاره الرشيد، شغل المنصب الجديد بجدارة ولباقة عظيمة على الرغم من حراجة موقفه في ذلك الجو السياسي المتضارب

---

(١) لم يكن المذهب الشافعي قد انتشر بعد.

(٢) النظم الإسلامية: ٢٣٤.

الأهواء، المنغمس بالترف واللذائذ.. وله في بلاط الرشيد فتاوى عجيبة رَوَتْها كتب الأدب والتاريخ[1].

في بادئ الأمر، لم تكن صلاحية أبي يوسف تتعدّى إعطاء المشورة للخليفة في شؤون القضاة ودرجاتهم العلمية، إلى أن منحه بعد ذلك حقَّ تعيين قاضٍ للرصافة باعتباره المشرف على قضاء بغداد، وأخيراً أطلق له الحق في اختيار القضاة وتوليتهم على الأمصار شرط أن لا يخالف أمر الرشيد ولا يعترض عليه إذا عيَّن أحداً.

وعاش أبو يوسف بجانب الرشيد حتى عام (١٨٢ هـ ـ ٧٩٧ م)، فلمّا توفِّي ولِّي مكانه «وهباً بن وهب القرشي» المكنّى بأبي البختري، وكان هذا فقيهاً اخبارياً نساباً، لكنه متهم في الحديث، فلم يسدّ الفراغ الذي تركه أبو يوسف.. وله في بلاط الرشيد فتاوى غريبة لم يرض عنها كبار الفقهاء[2].

وفي كل بلد، كان القاضي يحكم بين الناس ويفصل بين الخصوم، وينظر في شؤون الأوقاف وتنصيب الأولياء، وكان متوسط راتبه في عهد الرشيد ثلاثين ديناراً في الشهر، وهو راتب جسيم بالنسبة لزماننا هذا، وربما كانت غاية الرشيد في ذلك، الترفيه عن هؤلاء، ومنعهم من اللجوء إلى اتباع الطرق الملتوية لما يحدث من جراء ذلك من إخلال بالعدل الذي هو أساس الملك، ومع ذلك فقد رأينا الكثير من الفقهاء في ذلك العهد يمتنعون عن تولي القضاء، تأثُّماً وخشية أن يحملهم عمال الأقاليم على الإفتاء بما يخالف آراءهم في تفسير أحكام الشريعة الإسلامية لتنفيذ بعض أعمالهم السياسية[3].

ولم يكن هؤلاء القضاة مطلقي الصلاحية، في كل خلاف يحدث بين الناس أو اعتداء يقع من بعضهم على بعض، فليس من صلاحيتهم مثلاً أن ينظروا في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا ما انحرفوا عن طريق الإنصاف والعدل معهم. أو على كتّاب الدواوين إذا شطّوا في تعيين أموال المسلمين بالنقص أو الزيادة، ولا ينظرون في

(١) ابن خلّكان: ج ٢ ص ٤٣٢.

(٢) تاريخ بغداد: ١٤ ص ٢٤٨.

(٣) ابن خلّكان: ج ٢ ص ٣٧٥.

المخالفات التي تحصل من قِبَل الولاة، كعدم مراعاة إقامة العبادات في الأعياد والحجّ والجهاد، ولا في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد الدفع لهم.. لأن هذه القضايا كلها وأمثالها كانت تعرض على «مجلس المظالم» الذي يترأسه الخليفة بنفسه أو وزيره[1].

ومجلس المظالم هذا أشبه بـ «مجلس شورى الدولة» وهو في المكانة العليا من القضاء الإداري، كان الخليفة نفسه يترأس هذا المجلس ويقعد للنظر في هذه الشكاوى الخطيرة بصحبة وزيره أو بصحبة كاتبه الخاص، فيصدر أحكامه فيها بعد فهمها وسماع بيِّناتها، ويوقِّع عليها بجملة بليغة تكون فصل الخطاب في الحكم، ثم يذيِّلها الوزير أو الكاتب بِخَتْمِ الخلافة، وترسل بعد ذلك للتنفيذ، ويجوز للخليفة أن ينتدب وزيره المفوَّض للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه، إلا إذا كانت الشكاوى تافهة، عندئذ، يوعز إلى العامل على إقليم تلك الشكوى للنظر فيها.

وكان الرشيد إذا جلس للمظالم حفّت به الشرطة والحرس، حفظاً للأمن، وربما أمر بإحضار بعض الفقهاء ليبدوا آراءهم واجتهاداتهم في تلك القضايا الخطيرة، ويحضر بجانبه، عدا وزيره أو كاتبه الخاص، كتّاب آخرون يدوِّنون أقوال الخصوم وإثبات مالهم وما عليهم، ويجب حضور الخصمين أمامه، أو حضور الخصم المدّعي على الأقل ومعه شهوده وبيِّناته ليناقش في دعواه[2]. وتنعقد محكمة المظالم هذه مرة في الأسبوع في مسجد المدينة أو في دار خاصة، وذلك بتعيين من عند صاحب المظالم، سواء أكان الخليفة نفسه أم وزيره[3].

وهناك بعض القضايا التافهة، التي لا تتعلق بواجبات الشرطة، ولا هي من اختصاص القضاة: كالنظر في شؤون الأسواق، والخلافات التي تحصل بين البائع والمشتري، في ما يتعلق بالمكاييل والموازين، والغشّ في البيع، وتزييف الدراهم، وتنظيم المرور ومنع

(١) كتاب التنبيه: ج ٨ ص ٣٤٦.

(٢) الأحكام السلطانية: ٨١.

(٣) تاريخ الإسلام: ج ٢ ص ٢٢٤.

الزحام وغير ذلك من الأمور، فتعود إلى إدارة معينة تدعى «الحسبة» ويسمى صاحبها «المحتسب».

وللحسبة دار خاصة في كل مدينة، ومن حقِّ المحتسب أن يطلب جلب من يشاء من الباعة إلى هذه الدار، أو أن يجمعهم في وقت واحد ومعهم موازينهم فيعيّرها ويقيسها، وإن وجد فيها خللاً صادرها وعاقب صاحبها وألزمه بشراء غيرها أو إصلاحها، وللمحتسب أعوان كثيرون يطوفون الأسواق ويراقبون حالتها وسير الأمور فيها.

مالية الدولة

يهمنا أثناء البحث في وضع دولة الرشيد أن نعرف ثلاثة أمور: موارد الخزينة، ونفقات الصرف، والعملة المتداولة.

كانت واردات بيت المال كثيرة، أهمها «الخراج» وهو مقدار معيَّن من المال أو الحاصلات، يفرض على الأرض التي كان يملكها المشركون قبل الفتح، وهي إما أن تكون مفتوحة بحرب، فوقفت على مصالح المسلمين جميعاً وقُسِّمت على المحاربين الفاتحين، وإما أن تكون قد فتحت بدون حرب، فصالح الخليفة أهلها على أن تُترك لهم حرية التصرف بها لقاء خراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال(١).

وكان الخراج في زمن الرشيد يُجبَى على طريقة «المحاسبة» نقداً أو نوعاً أو كليهما معاً، أو على طريقة «المقايسة» بدفع صاحب الأرض ضريبة نوعية من محصولها، أو على طريقة «المقاطعة» باتفاق معيَّن بين الحكومة ومستغِلِّ الأرض على نوع أو شكل أو قيمة ما يدفع لبيت المال(٢). ويدخل في هذا النظام معظم الأراضي العائدة للدولة.. وقد حُدِّد موعد الخراج يوم عيد النيروز الذي يقع عادة في فصل الربيع.

ومن واردات بيت المال أيضاً: «الجزية» وهي ما يدفعه الذِّمِّي لقيام المسلمين بالدفاع عنه وعن ماله في الحروب ضد الأعداء، لأنه معفوٌّ من الخدمة العسكرية، فإذا أسلم سقطت عنه الجزية وحقَّ له الانخراط في جيش المسلمين.. وكان مقدار ما يدفعه الذمِّي في عهد

---

(١) النظم الإسلامية: ٢٦٥.

(٢) الأحكام السلطانية: ١٨١

الرشيد يختلف باختلاف ثرائه، ويراوح بين الأربعة عشر درهماً والثمانية دراهم في السنة، في حين لا يدفع المعدم والطفل والمرأة شيئاً[1].

و «الزكاة» وهي ما يدفعه المسلم مما يملكه بحسب شروط معروفة عيَّنها الشارع، نقداً، أو سائمة، أو زروعاً، أو ثمراً، أو معدناً، أو عروضاً تجارية.. وتصرف الزكاة على من ذكر في الآية الشريفة: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾[سورة التوبة/ ٦٠].. وخُصِّص للزكاة ديوان خاص في بغداد له فروع في أنحاء البلاد، غايته جمع أموالها وتفريقها على المستحقين ممن عناهم الله في هذه الآية.

و«العشر» وهو الذي يؤخذ من البضاعة التي يقدم بها التجار غير المسلمين من دار الحرب إلى دار السلام، إذا شرط ذلك عليهم، ويجوز أخذ زيادة على العشر أو نقص من ذلك، على ألاّ يؤخذ من ذلك التاجر أكثر من مرة في كل سنة، وهو ما يشبه الضرائب الجمركية في عصرنا.. وقد تعفى تلك البضائع من العشر كله إذا كان في جلبها فائدة أو سدٌّ حاجة عند المسلمين[2].

و«الغنائم» وهي ما يغنمه المسلمون في حروبهم وفتوحاتهم في بلاد المشركين من أرض أو نقد أو متاع أو غيرها، فيؤخذ منه الخمس إلى بيت المال لينفق في أبوابه وفقاً لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾[سورة الأنفال/ ٤١].

وكذلك الأموال التي لا يُعلم لها مستحق، كاللقطة، ومال من يموت وليس له وارث، والأموال التي يصالح عليها المسلمون أعداءهم[3] وغير ذلك. وصفوة القول، فإن الرخاء الذي كان يشمل دولة الرشيد جعل بيت المال يفيض بما كان يُجبَى من الضرائب حتى

---

(١) الأحكام السلطانية: ١٧٥

(٢) صبح الاعشى: ج ٣ ص ٦٦٣

(٣) النظم الإسلامية: ٢٨٥.

بلغت وارداته في السنة: اثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من حبوب وأثمار وغيرها.. وقد قيل إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر السحابة المارة في سمائه ويقول لها: «إمطري حيث شئت، يأتيني خراجك»(١).

وفيما يلي نص القائمة التي قدمها صاحب ديوان الأزمة في دولة الرشيد «عمر بن مطرّف» إلى الوزير يحيى بن خالد، يصف فيها ما حمل في إحدى السنين إلى بيت المال، من نقد وعروض.

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدراهم	الأموال والغلات
السواد	٨,٠٧٨,٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطل
كسكر	١١,٦٠٠,٠٠٠	
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠	
الأهواز	٢,٥٠٠,٠٠٠	ومن السكر ٣٠,٠٠٠ رطل، ومن الورد ٣٠,٠٠٠ قارورة، ومن ماء الزيت الأسود ٢٠,٠٠٠ رطل، ومن الرمان والسفرجل ٢٥٠,٠٠٠، ومن الأبنجات (أي المانجو) ١٥٠٠ رطل، ومن زيت الزيتون ٥٠,٠٠٠ كر، ومن الطين السيرافي ٥٠,٠٠٠ رطل.
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠	و٥٠٠ ثوب يمني وخبيصي و٢٠,٠٠٠ رطل تمر، ومن الكمون ١٠٠ رطل .
مكران	٤٠٠,٠٠٠	

(١) صبح الأعشى: ج ٣ ص ٢٧٠

اسماء الاقاليم	مقدار الجباية بالدراهم	الأموال والغلات
السند وما يليها	١١,٥٠٠,٠٠٠	ومن الطعام بقفير الكيرخ (أي الكيس) ١,٠٠٠,٠٠٠ قفير، وثلاثة فيلة، و٢٠,٠٠٠ ثوب حبشي، و٤٠٠٠ فوطه، و٣٠٠٠ من عود هندي وغير هندي، و٢٠٠٠ زوج بغال.
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة، و ٤٠٠٠ برذون و١٠٠٠ رأس رقيق و ٢٧ر٠٠٠ ثوب و٣٠٠ رطل اهليلج، و ٣٠٠ ثوب، و٢٠,٠٠٠ رطل من حلوى الفايند،
جرجان	١٢,٠٠٠,٠٠٠	و١٠٠٠ من ابريسم
قومس	١,٥٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ١٠٠٠ نقرة و٧٠ كساء.
طبرستان والريان ودنباوند	٦,٢٠٠,٠٠٠	و٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و ٢٠٠ كساء، و٥٠٠ ثوب و٣٠٠ منديل، و٦٠٠ جام.
الريّ	١٢,٠٠٠,٠٠٠	و١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ رمانة و١٠٠٠ رطل خوخ.
همدان	١١,٨٠٠,٠٠٠	و ١ رطل من رب و٢٠,٠٠٠ رطل عسل
أصفهان	١,١٠٠,٠٠٠	و٢٠,٠٠٠ رطل عسل
البصرة والكوفة	٢٠,٧٠٠,٠٠٠	
شهر زور وما يليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠,٠٠٠ رطل من العسل الابيض
الجزيرة والديارات والفرات	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
موقان وكرخ	٣٠٠,٠٠٠	
جيلان		من الرقيق ١٠٠ رأس، و١٢ زق عسل و١٠ بزات، و٢٠ كساء، و٢٠ بساطاً.

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدراهم	الأموال والغلات
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	محفور، و٨٥٠ قطعة رقم، و١٠,٠٠٠ رطل ملح الليمون، و١٠,٠٠٠ رطل طريخ و٣٠ بازياً و٢٠٠ بغل.
قنسرين والعواصم	٤٩٠,٠٠٠ دينار	
حمص	٣٢٠,٠٠٠ دينار	
دمشق	٤٢٠,٠٠٠ دينار	
الأردن	٩٦,٠٠٠ دينار	
مصر	١,٩٢٠,٠٠٠ دينار	
برقة	١,٠٠٠,٠٠٠ درهم	
إفريقيا	٢٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم	
اليمن	٨٧٠,٠٠٠ دينار	
مكة والمدينة	٣٠٠,٠٠٠ دينار	

وقد قدَّر «الجهشياري»[١]، الذي نقل لنا هذه القائمة التاريخية، مجموع ما جاء فيها بعد تخمين تقريبي لِقيَمِ العين وتحويل الدينار إلى اثنين وعشرين درهماً، فجاءت نتيجة تقديره كما يأتي:

قيمة العين: ١٢٥,٥٣٢,٠٠٠ درهم

النقد الورقي: ٤٠٤,٧٠٨,٠٠٠

المجموع: ٥٣٠,٢٤٠,٠٠٠ درهم

أي خمسماية مليون درهم، ومايتان وأربعون ألف درهم.. فإذا كان ثمن الكبش من الغنم في ذلك الزمن يساوي، بحسب تقدير الطبري، درهماً واحداً، وهو اليوم يساوي أربعة دنانير تقريباً، فإن ميزانية دولة هارون الرشيد السنوية تكون «مليارين، ومايتين

(١) الجهشياري: ٢٨٨.

وعشرين مليون دينار، وتسعماية وستين ألف دينار» من الدنانير العراقية الحالية، وهي ثروة ضخمة لم تُصبّ في بيت مال خليفة ولا ملك، أياً كان، قبل الرشيد.

وكانت هذه الثروة العظيمة التي تكاد تكون ثروة خيالية، تنفق في وجوه عديدة، فهي تُوزَّع قبل كل شيء، إلى الخزائن أو بيوت الأموال المخصصة لدواوين الدولة: كديوان الجند، والشرطة، والحرس، والمظالم، والبريد، وغيرها من الدواوين الكثيرة الشاملة لمجموع النواحي العامة من شؤون الدولة وحاجاتها.

وهناك نفقات أخرى، أهمها نفقات الخليفة: فقد كان له بيت مال خاص يسمّى «بيت مال الخاصة» ويصرف منه على أهله، وبلاطه، وحاشيته، وخدمه، وجواريه، وعطاياه وهباته، ويتفرع بيت المال هذا إلى بيوت أموال صغيرة بحسب حاجات الخليفة، ولكل منها رئيس وحسابات مدوَّنة، آخرها «بيت مال السرور» وكانت أمواله تصرف على من يأمر له الخليفة بالعطاء، كالشعراء والأدباء والرواة، والموسيقيين والمغنين، والندماء المضحكين، وعلى من كان الرشيد يجالسهم، أو يقبل حضورهم في مجالس أنسه(١).

ومن النفقات أيضاً: رواتب الوزراء والحجّاب والكتّاب ومستخدمي الدولة الآخرين، وهي، أيضاً، مبالغ ضخمة جداً لكثرة المستخدمين وضخامة رواتبهم.. هذا ما عدا النفقات التي كانت تخُصص للمشاريع العامة، كبناء الجسور وإقامة السدود، وفتح القنوات ورَيٍّ الأنهار، إلى آخر ذلك.

إلا أن هذا النظام المالي لم يكن مطبَّقاً في الواقع تطبيقاً صحيحاً ، لأن السيادة المطلقة التي بِيَدِ الخليفة لم تَقِفْ أمامها حدود وقواعد في الصرف، كما أن البرامكة في عهد الرشيد كان لهم سلطان واسع في صرف أموال الدولة باسم المصلحة العامة، فكان إذا نضب ما في بيت المال الخاص بالخليفة، اقتُرض من بيت المال العام بموافقة الوزير، ولكن هذا القرض قد لا يعود إلى مصدره، وليس هناك من يحاسب الخليفة على دينه إذا امتنع عن الدفع. وكان الوزراء البرامكة يتصرفون ويهبون من أموال الخراج وغيرها، ولم يكن الخليفة يحاسبهم، وسيبدو لنا من خلال الأحداث، التي ستمرّ بنا، أن يحيى بن خالد كان

---

(١) تاريخ بغداد: ج ١٤ ص ٩.

الأكثر اقتصاداً وحفظاً لأموال الدولة عند صرفها من ولديه، الفضل وجعفر، اللذين كانا يفرطان في العطاء على حساب بيت المال. لذا، كانت هذه المبالغ الضخمة، من واردات الخزينة العامة، تُصرف في سبيل شخص الخليفة ووزرائه وحواشيه، ومع ذلك، فإن ما كان يتبقى منها ويصرف في بعض شؤون البلاد هو الذي أوصل دولة الرشيد إلى ذلك الازدهار والرقيّ، وإن لم ينقذ الأمة كلها من البؤس[١].

وكانت العملة المتداولة في أسواق مملكة الرشيد متنوعة، فمنها ما كان مضروباً في عهد بني أمية كالدنانير «الخالدية» نسبة إلى خالد عبد الله القسري، العامل في العراق، والدنانير «اليوسفية» نسبة إلى يوسف بن عمر الثقفي، العامل في الكوفة، و«الهبيرية» من ضرب يزيد بن هبيرة، آخر عمال بني أمية على العراق، ومنها ما كان مضروباً في عهد الخليفة العباسي الأول عبد الله السفّاح وقد كتب عليها «السكة العباسية» مع نقش مشابه لنقش الدنانير التي كانت متداولة في ذلك الزمن. وقد ضرب السفّاح هذه الدنانير في عاصمته «الأنبار» وجعل وزنها معادلاً لوزن الدنانير الأموية، ثم أنقص وزنها حبة كاملة عن الأصل، ثم حبتين. ولمّا جاء أبو جعفر المنصور أبقاها على وضعها، ثم عاد بعد ذلك، وأنقصها ثلاث حبات، وفي العام (١٥٨ هـ ـ ٧٧٤ م) ضرب المهدي سكة، جعلها على شكل دائرة وسطها نقطة، ووزنها على وزن دراهم أبي جعفر، ثم أنقصها عن ذلك قيراطاً إلا ربع حبة.

هذه الدنانير والدراهم، هي العملة التي كانت متداولة في أسواق الدولة قبل مجيء هارون الرشيد، ولمّا ولي الخلافة أبقاها، وأعطى وزيره، جعفر بن يحيى، حق ضرب سكة جديدة، فكان يضربها في مدينة السلام، وفي المحمدية من ضواحي الري، ويكتب اسمه مع اسم الرشيد على الدنانير والدراهم معاً، وجعل نقصان الدرهم قيراطاً إلا حبة واحدة[٢].

وكانت دور الضرب تدفع ضريبة للدولة: درهماً عن كل مائة درهم[٣]. وهو ما

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٥ ص ٦٩

(٢) رسائل المقريزي: ٩.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ١ ص ١٠١.

يسمونه «أجرة الضرب». أما شكل الدرهم والدينار المضروبين في عهد الرشيد، فقد كان على شكل دائرة وكانت تطبع عليه الكتابة بشكل دائري، أيضاً، ومتوازٍ. ويُكتب على أحد الوجهين اسم الله تحميداً وصلاة على النبيِّ، ويكتب على الوجه الآخر تاريخ الضرب واسم الخليفة الرشيد ثم اسم جعفر البرمكي[1]. فضلاً عن أشكال أخرى.

ونذكر هنا أن درجات العملة في ذلك العهد كانت خمساً: الدينار، والدرهم، والقيراط، والحبة، والدانق[2]. وكانت مقاييس التبادل والصرف لهذه العملة تختلف باختلاف أوزانها ونقاء معدنها، فكان الدينار يساوي مرة عشرة دراهم وأحياناً خمسة عشر أو عشرين أو اثنين وعشرين[3]. وكان الدرهم يعادل ستة دوانق، والقيراط أربع حبات. وقد رأى الرشيد في أواخر أيامه أن يرفع هذا التبلبل في استعمال النقود بتوحيده لها، لكن مشاغله حالت دون تحقيق هذه الفكرة[4]. وقيل: إن حكومته لم تكن تتناول من الناس في الخراج إلا الدنانير العباسية، أو الخالدية[5].

(١) مقدمة ابن خلدون: ٥٠.

(٢) معجم البلدان: ج ١ ص ٦٨٢

(٣) الجهشياري: ٢٨٨.

(٤) حضارة الإسلام: ١٥٢.

(٥) رسائل المقريزي: ٩.

الحالة الاقتصادية

كل هذا الثراء الذي ملأ خزائن الرشيد ذهباً وفضة، كان نتيجة لبلوغ الحالة الاقتصادية في الدولة غايتها رفاهاً وانتعاشاً، ولا نبعد عن الواقع إذا قلنا إن عهد هذا الخليفة كان أشبه بموسم اقتطاف الثمر لما غرس أسلافه، كأبي جعفر المنصور، بخاصة، من اهتمام في الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها.

وكانت الزراعة من أغنى موارد بيت المال، ولذلك كانت العناية موجّهة إليها بشكل خاص في نواحي التنظيم والمساعدات والتشجيع. ففي عهد أبي جعفر المنصور، نُظِّمتْ وسائل الإرواء في العراق، وشُقِّتِ الجداول، وحُفِرت الترع، وبُنِيَتِ الجسور والقناطر، فارتوت الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان، بعد أن مُدَّت بجانب بغداد قناة من نهر (دجيل) الذي يأخذ ماءه من دجلة ووُصِلت بقناة (كرخايا) التي تسحب ماءها من الفرات، وجعلتا تجريان في المدينة وحولها، إلى جانب قنوات أخرى[1].

وكان العراق أخصب أقاليم الدولة، وأكثرها مياهاً وسِعة أرض صالحة للزرع، اعتنى به الأوائل من خلفاء بني العباس، فكانوا يديرونه مباشرة، دون إعطائه كولاية لعامل من العمال، فحسنت حالته وعرف بثروته النباتية، وكانوا يلقبونه بـ «أرض السواد» لوفرة مزارعه واتصال بعضها ببعض، وخضرة بساتينه والتفافها. وتمتد أرض السواد هذه من جنوب الموصل إلى الخليج الفارسي طولاً، ومن القادسية شرقاً إلى حلوان غرباً، وتبلغ مساحتها ستة وثلاثين مليون جريب، ويساوي الجريب عشرة آلاف ذراع[2]، كلها مشققة بشبكة من الجداول والترع المحيطة بالحقول والرياض.

---

(١) كتاب البلدان: ٢٥٠.

(٢) تاريخ بغداد: ج ١ ص ١١.

واعتنت حكومة الرشيد بشؤون الزراع ومطالبهم، وتخفيف الضرائب عنهم كلما ضعفت حاصلاتهم(١). وكان أول ما قام به في الإصلاح الزراعي أن رفع العشر الزائد عن النصف الذي كان يؤخذ من أهل السواد(٢). وجعل الضرائب تدفع بنظام «المقاسمة» أي من نوع الغلة المزروعة، إذا كانت قابلة للخزن، وإلا فتدفع نقداً بالدنانير العباسية أو الخالدية، كما أسلفنا القول.

أما باقي الأقاليم فكانت العناية الزراعية فيها ترتبط بأشخاص الولاة المتعاقبين عليها، ومقدار حرصهم على الإصلاح الزراعي... كما كان لكل أقليم أسلوبه الخاص في الزراعة، بحسب طبيعة أرضه، وأنواع معينة من الغلة والثمر والإنتاج، فالشعير والحنطة، مثلاً، يزرعان في معظم أنحاء دولة الرشيد كغذاء رئيسيّ للناس. كما اشتهرت أراضي جنوب الجزيرة العربية بجودة الذرة، وبلاد اليمن وفلسطين بالكروم والأعناب، أما الفواكه فقد زُرعت في كل مكان ولا سيّما في الأراضي المعتدلة المناخ كالعراق والعجم وسوريا ومصر، وُزرِع الجوز واللوز وما شاكلهما في المناطق الجبلية من أذربيجان وجبال الكرد، والنارنج في الهند والبصرة وعمان، والتمر في جنوب العراق.. إلى آخر ذلك.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على هذه البقعة الواسعة من دولة الرشيد، وفيها الجبال الشاهقة و الهضاب العالية، والسفوح المنحدرة، والسهول المنبسطة، والوديان المنخفضة، مع اختلاف المناخ على أنواعه من بارد ومعتدل وحار، ورياح تهب شرقية وغربية وجنوبية وجبلية وبحرية، لو نظرنا إلى ذلك كله لوجدنا هذه الدولة دنيا مستقلة بذاتها في كل ما يزرع، فهي لا تحتاج إلى شيء يستورد من خارج الحدود.

ويقال مثل ذلك في إنتاجها الحيواني، إذ قلّما عرف نوع من الحيوانات التي تعيش في المنطقة المعتدلة من الكرة الأرضية، سواء أكان وحشياً أم أليفاً، إلا كان موجوداً فيها: كالفيلة والأسود والنمور و الذئاب والقردة والضباع والثعالب وما شاكلها من الهوام، وكذلك البقر والغنم والجاموس والخيل والبغال والحمير وكل ما كان أليفاً يعيش بين الناس، هذا ما عدا الطيور الكاسرة والداجنة والنحل والأسماك وما يعيش في البحار. وقد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٧

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٧

*قيل إن حدائق بعض الأمراء والمترفين في بغداد على عهد الرشيد كانت أشبه بحدائق الحيوانات المعروفة اليوم التي تجمع الأنواع النادرة من هذه المخلوقات.

وكانت الصناعة بأنواعها وفنونها عنصراً فعالاً من عناصر الحضارة في دولة الرشيد ومورداً مهماً لخزينة بيت المال.. والصناعة على أنواع: معدنية وحيوانية ونباتية.

أما المعادن فهي كثيرة ومدفونة في أتربة تلك البقاع الشاسعة وعلى سطحها، فالحديد والنحاس والرصاص متوافرة في خراسان وفارس، لذلك اشتهر أهل هذه البلاد بصنع الأدوات والأواني والآلات والأسلحة على أنواعها. فملأوا أسواقهم منها وصدّروها إلى خارج منطقتهم.. كما اشتهرت بلاد فارس والشام والبصرة بصنع الزجاج، وتلوينه بالمينا، ونقشه بالذهب، وترصيعه بالجواهر، وتزيينه بالتصاوير الجميلة. وكان الذهب يستخرج في نقفور، والفضة في طبرستان، والخزف والمرمر في تبريز، والملح والكبريت في شمال فارس، والنفط والقار في أرمينية وكرجستان وشمال العراق[(١)].

وقد نبغ في الصناعة المعدنية في كل إقليم، صنّاع وملوّنون ورسامون، فاجتمع عباقرتهم والمَهَرَة منهم في أسواق بغداد حيث تتمركز الثروة ويعمُّ الترف بين الأمراء والوزراء والأعيان حول بلاط الخليفة. وهناك ابتكروا الحُلي الرائعة الجميلة للنساء، وتفنّنوا في صنع الأواني الذهبية والفضية والزجاجية[(٢)]. فضلاً عن صناعة الورق التي انتشرت على أيدي بعض القادمين إليها من الصين ومصر، وتأسست دور للتطريز الذهبي على غرار الدور القديمة في فارس، ونُصبت الرحى المائية، وصُنعت الساعات الدقاقة، وغير ذلك من وسائل الحضارة اليدوية.

واشتهرت مصر بصنع السفن للتجارة والأساطيل للحروب، فضلاً عن صنع الذهب والفضة وتجهيز الأدوية والعقاقير، ونسج الثياب (البَدَنَة) المنسوجة بخيوط ذهبية غالية كان يلبسها الخليفة والأمراء والموسرون، إذ إن قيمة الثوب كانت تبلغ أحياناً مئات الدنانير.. وعرفت خراسان وأرمينية بصنع البسط والستور. وبلغت الشام مكانة عالمية بصنع الحرير ونسيج الوشي (الدمقس). وامتازت الكوفة بِنَسْجِ الصوف الرقيق

---

(١) سيد أمير علي: ٣٦٤.

(٢) حضارة الإسلام: ٢٥.

(الكوفية) والخَزِّ الناعم، وأخذت الموصل شهرة واسعة في حَوْكِ الحرير الرقيق الذي سمّاه الغربيون «موسلين»، وصدَّرتِ اليمن ثيابها الفاخرة، فلبسها النساء والرجال في أنحاء المملكة، لجمالها وحسن وشْيِها.

وراجت صناعة الجلود ودباغتها فصنعت منها السروج والأحذية وغيرها مما يستعمل في حاجات الانسان. وساد صنع الفراء الجميل على شكل بسط وثياب وزينة في البلاد التي كانت تكثر فيها الحيوانات ذات الفراء، وعرضت في الأسواق للأغنياء والمتْرَفين. كما نهضت الصناعات النباتية كالصابون، والسكر وعصير الاثمار، والحلوى، والعطور، والزيوت على أنواعها.. وقد وصف لنا بعض المؤرخين حضارة بغداد الصناعية وما كانت تبدعه أيدي الفنانين والصنّاع، وصفاً يدلّ على عظمة تلك المدنية والحضارة الخالدة التي بقيت، أمداً طويلاً، مشعلاً أضاء سبيل الرقيّ أجيالاً طويلة من الدهر.

***

واتَّسع نطاق التجارة في عهد الرشيد اتساعاً كبيراً، بفضل امتداد الطرق وجعلها صالحة لسير القوافل، وتوطيد الأمن، وقطع دابر اللصوص والأشرار الذين كانوا يشكلون تهديداً للمسافرين، ما جعل غرب البلاد يتصل بشرقها، وشمالها بجنوبها.. ويعود الفضل في هذا إلى دواوين البريد التي كان الرشيد يُعنى بها كل العناية، وكثرة الشرطة والفرق العسكرية وانتشارها في الأقاليم، وانصراف الولاة إلى مطاردة الأشقياء والخارجين على سلطان الدولة.

وكانت هذه الطرق، بمعظمها، تمرّ بعاصمة الخلافة بغداد، ما سهّل على التجار أن يحملوا، كما حملوا إلى غيرها من أمهات المدن في الأقاليم الأخرى، آنية السند، ومصنوعات خراسان، وتوابلَ الصين، وثيابَ اليمن، وحُلِيَّ فارس، وخيزران الهند وتوابلَها، وياقوتَ سرنديب ودُرَرَها وماسها، وفَرْوَ أرمينية وبُسُطَها، وزجاجَ الشام ودمقسَها، وحرير الموصل وعَسَلَها وبَدَنات مصر وأدويتَها، وغير ذلك الكثير.

وانتعشت الصلات التجارية، في فترات مختلفة، بين دولة الرشيد وجيرانها من الأمم الشرقية، كالصين والهند وتركستان والروم، وهي فترات كان يسود فيها السِّلم في ما بينهم، وذلك بفضل سهولة المواصلات البرية والبحرية. أما مع أوروبا فقد كانت التجارة

ضئيلة لبعد المسافة، وتعدد وسائل النقل من البر إلى البحر والعكس، باستثناء بعض الأقاليم الواقعة على ساحل البحر الأبيض، كسوريا وفلسطين ومصر، التي كان يسهل الإتجار بينها وبين السواحل الأوروبية الجنوبية عن طريق السفن الشراعية المتنقلة شرقاً وغرباً وفي كل الجهات، وهي سفن عربية أو إيطالية كانت تمخر بحر أنطاكيا أو غيرها من الموانئ الإسلامية متَّجهة نحو جبل طارق وبلاد الأندلس أو العكس[1].

وكانت سفن العرب قد أبحرت من البصرة وغيرها في المحيط الهندي حتى وصلت إلى ساحل المحيط الهادي بقصد تبادل التجارة.. ويقول المؤرخ (هايد) في كتابه «تاريخ تجارة الشرق في القرون الوسطى»: إن العرب جاوزوا في العصر العباسي الأول جزيرة (سيلان) وجابوا البحار الواقعة على سواحل الهند، وأخذوا يقومون برحلات طويلة حتى وصلوا بلاد الصين، وكفوا تجارها مؤونة القدوم إلى الخليج الفارسي لعرض بضاعتهم. وكان ميناء (سيراف) على الخليج الفارسي مرسى للسفن التي كانت تعود محمّلة بالبضائع الواردة من البصرة وعمان وبلاد فارس إلى بلاد الصين والهند الصينية، أو العكس[2].

وقد اقتسم العرب، مع تجار مدينتي (جنوى ـ البندقية) الإيطاليتين، طرق التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا. فكان العرب ينقلون التوابل والمجوهرات النادرة من الصين والهند وجزر الملايو إلى البحر الأحمر، فيصعدون بها إلى خليج العقبة أو خليج السويس، ثم تفرغ إلى البرّ، فتحملها الجمال إلى ساحل البحر الأبيض، ومن هناك كانت تشحن بالسفن الإيطالية وأحياناً بالسفن العربية المتواجدة في هذا البحر.. وهذا ما جعل هارون الرشيد يفكر بفتح قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر.

يقول السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»: إن الرشيد أراد فتح قناة تصل البحر الأبيض بالأحمر مما يلي مدينة (الفرما) المصرية، ليقرِّب المجال بين الشرق والغرب، فتصل سواحل شمال أفريقيا والأندلس وصقلية والفرنجة بسواحل جزيرة العرب وفارس والعراق. غير أن بعض خاصته ثناه عن هذا العمل، ومنهم يحيى بن خالد البرمكي، بحجة

(١) هايد: ٤١.

(٢) هايد: ٤٢.

أن الروم يصبحون من خلال هذه القناة قادرين على الاتصال بالأراضي المقدسة، فتأتي مراكبهم إلى سواحل الحجاز وتقطع طريق الحجّ على المسلمين، وقال له بعضهم أيضاً: إن هذه القناة تسبب غرق سواحل مصر والصعيد، فيطغى البحر الأبيض على البحر الأحمر وتغرق سواحل اليمن والحجاز، لارتفاع مستوى الأول على الثاني، فَعَدَلَ الرشيد عن فكرته[1].

وما عدا بغداد عاصمة الدولة وملتقى طرق الأقاليم من أنحاء المعمورة، كانت هناك أيضاً مدن كبيرة لها أهميتها التجارية: فالبصرة من أهمها وهي باب العراق ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من كل مكان بعيد، ومحطّ رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى[2]. وكانت مدينة القدس كعبة حجاج أوروبا القادمين من الغرب للاتصال بتجّار الشرق خلال حجّهم. وكذلك الشام والاسكندرية وعدن، وغيرها من المراكز التجارية المهمة في ذلك الزمن.

والجدير بالذكر، أن الحياة الاقتصادية، من زراعية وصناعية وتجارية، لم تكن طوال خلافة الرشيد، تتمتع برفاه واستقرار كامل، وحرية تامة، بل كانت تتأثر، في بعض الأحيان، بالمشاكل السياسية على نوعيها: الخارجية والداخلية.

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٨٩.

(٢) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة: ٣.

القسم السابع

سياسة دولة الرشيد الخارجية والداخلية

- السياسة الخارجية :
  - مع الأمويين في الأندلس
  - مع الأدارسة في المغرب
  - مع الروم في القسطنطينية
  - مع شارلمان في فرنسا
- الأحداث السياسية في الداخل :
  - في شمال إفريقية
  - في مصر
  - في اليمن
  - في الشام
  - في شمال العراق
  - في أرمينية
  - في خراسان
- مشكلة ولاية العهد :
  - بين الأمين والمأمون

السياسة الخارجية

كانت رقعة دولة الرشيد مترامية الأطراف، تمتد من المغرب الأقصى حتى أراضي السند وتخوم الصين شرقاً، ومن بلاد أرمينية شمالاً حتى سواحل اليمن جنوباً.. وبحكم هذه السعة، كان لها جيران من مختلف الشعوب والأقوام والأجناس، يدينون بغير الإسلام ولا يفرّطون بحرياتهم، ما كان يتسبّب بحروب بينهم وبين عمال الأقاليم الإسلامية المتاخمة لحدودهم، فضلاً عن غارات على مدى الأيام، أو بعقد الهدن ومواثيق الصلح في ما بينهم بين آونة وأخرى، بحسب الظروف.

ولمّا كانت حدود الدولة الشرقية بعيدة عن مقرّ الخلافة «بغداد» كانت المناوشات فيها مجرد مناوشات بسيطة لا أهمية لها. لكن فتوحات في كل من بلاد الأفغان وتركستان والخزر وغيرها كانت قد جرت في عهد الرشيد وسنأتي على ذكرها لاحقاً.

***

أما الحدود الغربية فكانت مجاورة لدولتين عدوّتين، ولكنهما عربيتان مسلمتان، هما دولة أمية في الأندلس، والأدريسية العَلَوِية في المغرب الأقصى.. وقد أسس الأولى «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» الذي هرب من سيوف بني العباس حين تنكيلهم ببني أمية والعمل على إبادتهم بعد تقويض عرشهم على الشكل الذي سبق لنا أن أوضحناه في مقدمة الكتاب. وقد استطاع عبد الرحمن هذا، المعروف بـ «صقر قريش»، أن يؤسس دولته في شبه جزيرة الأندلس، ونصّب نفسه ملكاً على تلك الأصقاع، وعمّر فيها وشيّد، وأقام أسساً لحضارة زَهَتْ في عهده وبعده حتى عُدَّتْ من أروع حضارات التاريخ، ودام ملكه أربعاً وثلاثين سنة (١٣٨ هـ - ١٧٢ هـ).. وقد توفي بعد مرور عامين على خلافة الرشيد، فخلفه

ابنه «هشام» الذي دام حكمه مدة ثمانية أعوام، ثم خلفه ابنه «الحكم» الذي توفي عام (٢٠٦ هـ ـ ٨٢٢ م). وكان الرشيد ينظر إلى هذه الدولة بِعَيْنِ الكره والحذر، ولكنه لم يصطدم بها لبعد الشقة بينه وبينها أولا، ولأن هؤلاء العصاميين من أمية كانوا منشغلين بالجهاد ضد بلاد الفرنجة «فرنسا» وقد غزوها مراراً، واستولوا على قسم من أراضيها الجنوبية والغربية، وخاضوا حروباً شعواء ضد جيوش ملوكها «پپن القصير بن شارل مارتل» وابنه «شارلمان» كما يحدثنا التاريخ.

***

أما في المغرب الأقصى فقد كانت دولة الأدارسة متاخمة لحدود الرشيد في شمال إفريقيا، وقد أراد عامل إفريقيا أن يحتلها، وكان باستطاعة الرشيد أن يأمره بذلك، ويمدَّه بالمال والرجال، ولكن «ادريس الثاني» طلب المهادنة والمسالمة فعدل هذا عن فكرته، ولم يعارض الرشيد في ذلك لأنه، كما يبدو لنا، لم يُرِدْ ضم هذه المملكة إلى دولته فيكون بعد ذلك وجهاً لوجه أمام دولة الأندلس القوية الشكيمة. وربما أدّى التحرش بدولة الأدارسة هذه إلى اتفاق العَلَوِيِّين هناك مع الأمويين ضد ولاية ابن الأغلب، فتكون النتيجة مجهولة في مصير شمال إفريقيا كلها. ومَنْ يَدري؟؟ فربما كان الرشيد يتألم من إعلان حرب على دولة جُلّ رعاياها من المسلمين، فَتُسْفَكُ دماء حرَّمَها الدِّين، وتقع فتنة بين المسلمين بمرأى من المشركين في أمبراطوريتي «روما الشرقية والغربية» اللتين تتربصان للإيقاع بهم.

***

وكان أقرب الممالك إلى بغداد وأشدها خصومة وعداء لدولة المسلمين دولة الروم الشرقية «بيزنتية» التي انفصلت، فيما مضى، عن أمبراطورية (روما) القديمة، واستقلت في البلقان وفي جزء من شرقي أوروبا.. وقد غزا العرب هذه الدولة عدة مرات في عهد الأمويين والخلفاء الأُوَل من بني العباس، فغزاها الرشيد مرتين في عهد أبيه المهدي، وانتصر عليها، كما رأينا، ووصل عاصمتها القسطنطينية، وفرض عليها الجزية.

كما غزاها الرشيد، بنفسه، أربع مرات أخرى خلال خلافته، فكانت الأولى بعد أشهر قليلة من تولّيه المُلك عام (١٧٠ هـ) ولكنها لم تكن حملة ذات أثر كبير فأعاد الكرَّة عليها في

العام (١٨١ هـ) وفتح حصن الصفصاف، ثم كانت الغزوة الأخيرة له عام (١٩٠ هـ) وهي الحملة الأعنف التي قام بها في حياته ضد الروم، لأنها اضطرته إلى الهجوم عليهم مرتين بسبب خيانة قائدهم «نكفور» بعد المصالحة، وسيأتي تفصيل ذلك في مكان آخر.

والجدير بالذكر، هو أن الرشيد لم يترك جهاد هؤلاء الأعداء في أعوام خلافته، إن لم يكن بشخصه فبإرسال الحملات بقيادة رجاله، إلا في الأعوام التي كانت حكومة القسطنطينية فيها تدفع له الجزية.. ولم يكن كل هذا الاستمرار في القتال من أجل غايات سياسية فحسب، بل كان الرشيد يفعل ذلك بدافع ديني أيضاً، هدفه الجهاد في سبيل الله.

وفي ما يأتي اسماء قادة الجيوش لهذا الجهاد المستمر:

السنة	القائد
١٧٠ هـ	ـ هارون الرشيد
١٧١ هـ	ـ يزيد بن عنبسة الحرشي
١٧٢ هـ	ـ محمد بن ابراهيم العباسي
١٧٣ هـ	ـ ابراهيم بن عثمان بن نهيك
١٧٤ هـ	ـ سليمان بن أبي جعفر المنصور
١٧٥ هـ	ـ عبد الملك بن صالح
١٧٦ هـ	ـ هاشم بن الصلت
١٧٧ هـ	ـ داود بن النعمان
١٧٨ هـ	ـ يزيد بن غزوان
١٧٩ هـ	ـ الفضل بن محمد العباسي
١٨٠ هـ	ـ اسماعيل بن القاسم
١٨١ هـ	ـ هارون الرشيد
١٨٢ هـ	ـ ابراهيم بن القاسم
١٨٣ هـ	ـ الفضل بن العباس الهاشمي (العباسي)
١٨٤ هـ	ـ ابراهيم بن محمد العباسي
١٨٥ هـ	ـ ابراهيم بن عثمان بن نهيك
١٨٦ هـ	ـ ابراهيم بن عثمان بن نهيك
١٨٧ هـ	ـ القاسم بن هارون الرشيد مع عبد الملك بن صالح
١٨٩ هـ	ـ الفضل بن العباس العباسي
١٩٠ هـ	ـ هارون الرشيد ، فتح هرقلة ، وأغزى حميد بن المعيوف في بحر الروم ، فاستردَّ جزيرة قبرص .

وفي العام (١٩١ هـ) خرج الرشيد للغزو، فلمّا صار في درب «الحدث» أغزى جيشه بقيادة هرثمة بن أعين.

***

كانت أخبار هذه الحروب المستمرة بين الرشيد ودولة «بيزنتية» تدوّي أصداؤها في جوانب أوروبا الغربية، وتصل إلى سمع ملك (الفرنجة) وصاحب أمبراطورية روما المقدسة «شارلمان» فيرتاح لها، لأن هذه الغزوات كانت تشغل البيزنتيين عن التفكير بالتوسع في شرق أوروبا، واجتياز حدود مملكته. كما أن المناوشات المستمرة أيضاً بين شارلمان وجيوش الأمويين في الأندلس، كانت تلاقي ارتياحاً لدى هارون الرشيد، لأنها تشغلهم عن الالتفات إلى غزو شمال إفريقيا.. وهذا ما جعل بعض المؤرخين الأوروبيين يتحدثون عن وجود صلات ديبلوماسية حدثت في الشرق والغرب بين هذين العاهلين العظيمين.

ذكرت بعض المصادر اللاتينية وجود تبادل رسائل ووفود بين ملوك الأسرة «الكارلونجية» في غرب أوروبا وخلفاء بني العباس الأُوَل، وادّعت أن الملك «پپن القصير ابن شارل مارتل» أرسل في عام (٧٦٥ م - ١٤٩ هـ) وفداً إلى أبي جعفر المنصور خليفة بغداد، فبقي في الشرق ثلاث سنوات، ثم عاد عن طريق البحر إلى «مرسيليا» مصحوباً بوفد عربي أرسله المنصور، مزوّداً بالهدايا إلى أمبراطور أوروبا. وقد بقي الوفد العربي ضيفاً معزّزاً في عاصمة الأمبراطورية «ميتز» عام (٧٦٨ م - ١٥٢ هـ)، حتى عاد بعدها إلى بغداد.

وذكرت أيضاً، أن «شارلمان» خلف أباه «پپن القصير» على عرش فرنسا، وأصبح أمبراطوراً لروما المقدسة بعد تتويجه من قِبَل البابا «ليون الثالث». وكان معاصراً لهارون الرشيد ، فاستؤنفت تلك العلاقات بينهما من جديد، ولكن ضمن نطاق أوسع، غرضها إقرار سياسة الصداقة والتقرُّب بين الأمبراطوريتين، وإن لم تهدف إلى إقرار معاهدة أو عقد اتفاق ما..

وذهبت هذه المصادر إلى شيء من التفصيل، هذا بعضه: أرسل أسقف القدس إلى شارلمان يرجوه تشجيع المسيحيين من رعيته على الحج إلى فلسطين، ويطلب منه الالتفات إلى مسيحيّي هذا البلد المقدّس، بصفته العاهل المسيحي الأعلى شأناً على

الأرض، فأرسل شارلمان وفداً من قِبَله إلى الأسقف المذكور. على أن يزور بعد ذلك بغداد ليقدِّم آيات الصداقة إلى خليفة المسلمين.. وكان الوفد مؤلفاً من ضابطين هما «كونت لانتفريد» و«كونت سيكمويند» ومعهما تاجر يهودي يدعى «اسحاق» يتكلم العربية والفرنسية ليكون دليلاً وترجماناً لهما.

وتحرك الوفد من فرنسا عام (١٨١ هـ - ٧٩٧ م) فَوَصَلَ القدس بعد سفر طويل شاق دام أكثر من عامين، وقابل الأسقف هناك، ثم واصَل طريقه إلى بغداد عاصمة الشرق الإسلامي. وكان الرشيد قد أعدَّ لاستقبال الوفد مجلساً خاصاً، كالذي يعدُّه كلما أراد استقبال قادم من كبار الملوك أو نوابهم، إذا أراد إرهابهم بعز الإسلام وجلال الدولة وأبَّهة الخلافة.

وبعد انتظار دام شهراً في بغداد، دخل الوفد مجلس أمير المؤمنين، وكان قد تربَّع على سرير من الذهب الإبريز مرصَّعٍ بالجواهر، فوق سدة نُصِبَتْ في صدر القاعة بين اسطوانتين مجلَّلتين بالوَشْيِ المنسوج بالذهب، تحت مظلة قائمة على عمد من الآبنوس المنزل في العاج، وسقفها من الديباج الأسود المزركش برسوم مذهبة في غاية الجمال، وفي حواشيه من الأمام والجانبين أهلَّة من الذهب، تدلَّت في كل هلال منها أترجة ذهب مسبك، وتعلق حول كل أترجة دُرَرٌ كبار بينها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق على نظام بديع يبهر النظر.. إلى آخر ذلك من أوصاف اقتبسها مؤرخو الغرب من كُتبٍ قصصية كألف ليلة وليلة، ونحوها.

استقبل الرشيد الوفد على تلك الصورة الجميلة اللائقة بعظمته، وتحدّث معه طويلاً، ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن تلك المقابلة، والمسائل التي بُحِثَتْ فيها.. ثم أمر الخليفة بإكرام الضيوف، وتشييعهم بكل احترام، واختار وفداً عربياً يتوجّه إلى شارلمان مع وفده، مصحوباً ببعض الهدايا الرمزية من دولة الشرق الإسلامية، عرفنا منها «الساعة المائية الدقّاقة» التي احتار فيها رجال شارلمان وظنّوا أن فيها شياطين تحركها، وكذلك «رقعة شطرنج» مرصّعة بالأحجار الكريمة، وقد نُحِتَتْ بيادقها من العاج المحلّى بالذهب المرصّع، مع «حُلىً شرقية» نُسِجَتْ خيوطها من الذهب والفضة، و«فيل» جميل كان قد جُلِب من الهند ليكون في إحدى حدائق بغداد.. وسافر الوفدان إلى بلاد الفرنجة عن طريق شمال إفريقية.

أما أسقف القدس فقد أرسل وفداً خاصاً به إلى شارلمان، يتألف من قسيس وراهبين، ومعهم مفتاح كنيسة القيامة، وراية دينية، رمزاً للتقرُّب والولاء، وقد توجَّه الوفد نحو إيطاليا حيث كان الأمبراطور في زيارة رسمية للبابا «ليون الثالث» فالتقى به في روما، وبلّغه رسالته عام (١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م) ثم عاد إلى بلاده، كما عاد شارلمان إلى عاصمته.

وفي العام الذي تلاه، وصل الوفد العربي مدينة «إكس لاشابل» عاصمة مملكة الفرنج، وكان الضابطان الفرنسيان قد توفيا في الطريق، وتأخر اليهودي صالح بصحبة الفيل، فاستقبل شارلمان الوفد العربي استقبالاً شعبياً حافلاً، وتقبَّل الهدايا فأعجب بها. ثم وصل الفيل بعد ذلك ببضعة أشهر فأثار اهتمام الناس هناك لأنهم لم يكونوا قد رأوا فيلاً قبل هذا.. ومكث الوفد زمناً في بلاد الغرب، فكان موضع اهتمام الحكومة وتبجيل الشعب، وقيل إن جماهير الناس هناك كانت تحيط بأعضائه أينما ساروا، وتتغزّل بجمالهم وبِسُمْرَةِ العرب التي لوّحتها شمس الصحراء، وتنظم الأغاني والأهازيج فيهم، وتغنّيها لهم حيثما تنقَّلوا وساروا.. ولم يشأ شارلمان أن يعود الوفد إلى بغداد دون أن يرسل معه وفداً آخر يحمل الهدايا الثمينة إلى هارون الرشيد.. وبقيت تلك العلاقة الودية بين العاهلين حتى فرَّق الموت بينهما.

هكذا رَوَت المصادر التاريخية اللاتينية. وكان أول من نوّه عنها منهم «أينهارد» مؤرّخ الأسرة «الكارلونجية» وأحد معاصري شارلمان نفسه، وأيدّه بعد ذلك أحد مؤرخي القرن التاسع عشر «كونت دي ريان» ثم أعقبه في التأييد المؤرخان «بكلر» و«لويس بريبه» وغيرهم من مشاهير كتّاب التاريخ في أوروبا.

لكن المؤرخين العرب الذين نقلوا لنا معظم العلاقات الديبلوماسية بين الخلفاء والملوك الأجانب، سكتوا عن هذه العلاقة، ولم يذكر أحد منهم شيئاً عنها، وكأنها لم تحدث، وهذا صاحب كتاب «العقد الفريد» مثلاً، ذكر الوفود السياسية التي تبودلت بين الأمبراطورية البيزنتية والأمويين في الشام، وحدّثنا بأن وفداً جاء من ملك الهند إلى هارون الرشيد، وحمل إليه بعض الهدايا، فاستُقْبِلَ بحفاوة بالغة، وذكر غيره من المؤرخين علاقات أخرى، لكنهم لم يذكروا شيئاً عن الصلات بين هذين العاهلين.

لقد أدّى سكوتهم هذا إلى فتح مجال واسع للنقاش بين علماء التاريخ في العصر

الأخير، فمنهم من أنكر وجودها ومنهم من أيَّدها. وقد ذهب الذين أنكروا بتحليلهم إلى أن سكوت المؤرخين العرب دليل على أن هذه العلاقات لم تحدث، وربما كانت من ابتكار بعض المؤرخين الأوروبيين القدماء، وأن بُعدَ الشُّقة بين شارلمان والرشيد كانت تحول دون هذا الاتصال، وكان أشهر من كتب في هذا من المفكرين «بوكيفيل» الذي نشر رسالته الفرنسية عام (١٨٢٣ م) وأيده المؤرخ الروسي «بارتولد». وناقش هذا الموضوع مناقشة علمية الأستاذ الألماني «شميد» في مجلة الإسلام[(١)].

أما حجج المؤيدين الذين أيَّدوا هذا وصدَّقوا هذه الأخبار، فهي كثيرة، منها: أن الطريق البحري التجاري بين الشرق والغرب كان مفتوحاً، لأن التجارة كانت تنشط بين سكان السواحل الأوروبية الجنوبية وسوريا ومصر وشمال إفريقيا، وأن قوافل الحجّاج المسيحيين من أوروبا إلى فلسطين كانت مستمرة، وبشكل دائم، وكانت أخبار الرشيد تُنقلُ، من خلالها، إلى فرنسا وغيرها من البلاد. وفي هذا العهد، نُقِلَتْ بعض آثار المسيح من فلسطين إلى بلاد الغرب، كقِطَعِ الصليب الذي صُلِبَ عليه، وبعض الشوك من الإكليل الذي وضع على رأسه حين قُدِّمَ إلى الصلب.. ثم إن العرب كانوا على علم ببلاد الفرنجة التي وَصَلَتْ جنودهم إليها في عهد الأمويين في الشام، وأثناء حكمهم في الأندلس، وقد وصلوا بفتوحاتهم فيها إلى مدينة «بواتيه» الواقعة في الوسط الغربي من هذه البلاد، كما أن سكان أوروبا الوسطى لا يجهلون دولة الرشيد، وهم يسمعون بغزواته المستمرة لدولة بيزنتية، وبوصول جيشه ذات يوم إلى أبواب القسطنطينية، وفَرْضِهِ الجزية عليها.. ويزيدون على ذلك قولهم: إن مصلحة كل من المَلِكَيْن للعمل على إضعاف خصومه، تقضي بالتقرُّب في ما بينهما، وتدعو إلى مثل هذا التفاهم الديبلوماسي البسيط.

وقد علَّل الكاتب الفرنسي «أوديزيو» سكوت المؤرخين العرب عن هذه الصلة بقوله: «إنهم سكتوا عنها لتفاهتها في نظرهم. ولأنها لم تتعدَّ إرسال الهدايا وتبادل العواطف بين ملِكَيْن بعيدَيْن بعضهما عن بعض، وما شارلمان عند المؤرخين العرب القدماء يوم كتبوا تاريخهم إلا ملِكٌ من المشركين في بلاد لم تصل حضارتها بعد إلى جزء من حضارة العرب ومدنيتهم».

---

(١) انظر مجلة الإسلام: ج ٣ ص ٤٠٩.

ويستند بعضهم أيضاً إلى وجود آثار تلك الهدايا التي لا تزال باقية حتى اليوم، وأهمها بقايا الشطرنج في متحف الأوسمة بباريس الآن، والتي حُفِظت في علبة فخمة من العاج، وقد ساور بعضهم شكٌّ في حقيقة أن هذه الهدية هي من الرشيد إلى شارلمان، لكن بحث العلماء لنقوشها وخطوطها الموجودة على البيادق، وطراز صنعتها، أثبت أنها مصنوعة في الهند حوالي أواخر القرن الثامن بِيَدِ صانع مسلم كتب اسمه على أحد أحجارها حيث قال: «مِنْ عَمَلِ يوسف» وأضاف كلمة أخرى لا يمكن تفسيرها.. وقد توفي الرشيد عام (٨٠٩ م)، فلا يبعد أن يكون الشطرنج هذا من هداياه.

الأحداث السياسية في الداخل

كانت الأهداف الرئيسية لسياسة حكومة الرشيد في داخل البلاد، المحافظة على كيان الدولة قبل كل شيء وقمع الاضطرابات والشغب، وطمأنة نفوس الناس من غوائل الفوضى، وإقرار الأمن، ولكي نحيط علماً بالأحداث التي مرّت في أقاليم الدولة المتباعدة، يجدر بنا أن نستعرض تاريخ كل منها خلال تلك الحقبة من الزمن.

في شمال إفريقيا:

في العام الأول من خلافة هارون الرشيد، توفي والي شمال إفريقيا «يزيد بن حاتم المهلَّبي» فخلفه ابنه «داود بن يزيد»، فقاتل «الإباضية» من الخوارج الثائرين هناك، فانتصروا عليه وهزموا جيشه، ولكنه جمع قواه وكرّ عليهم وهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وبقي على إفريقيا تسعة أشهر، فأرسل الرشيد مكانه عمه «روحَ بن حاتم» ثم نقل ولايتها إلى يد «الفضل بن روح» الذي كان من المقرّبين لديه.

وفي العام (١٧٧ هـ - ٧٩٣ م) قَدِمَ الفضل بن روح هذا إلى ولايته واستعمل على مدينة (تونس) ابن أخيه «المغيرة بن بشر بن روح» وكان شاباً مغروراً سيِّئ الإدارة، فاستخفَّ بالجند، فنقموا عليه وكتبوا إلى عمِّه يستعفونه من ابن أخيه المغيرة، فلم يجبهم، فأعلنوا تمرُّدَهم بقيادة «عبد الله بن الجارود» وأخرجوا المغيرة عنهم وكتبوا إلى الفضل يقولون: «إنا لم نخرج عن طاعة، ولكن المغيرة أساء السيرة فأخرجناه، فولِّ علينا من نرضاه» فأذعن لهم، وعيَّن عليهم «عبد الله بن يزيد بن حاتم المهلَّبي».

وقبل أن يصل ابن يزيد المهلَّبي هذا إلى مدينة تونس بمرحلة، أرسل إليه ابن الجارود

جماعة ينظرون في أيِّ شيء قَدِمَ، فساروا إليه وقالوا لبعضهم: إن الفضل المهلَّبي يخدعكم بولاية ابن عمه عبد الله هذا ثم ينتقم منكم بإخراجكم المغيرة أخاه» فَغَدُوا على عبدالله بن يزيد فقتلوه، وأخذوا قواده أسرى عندهم.

فاضطر ابن الجارود، بعد أن حدث ما حدث، إلى الاستمرار، هو ومن معه بالعصيان والعمل على إزالة الفضل عن ولاية شمال إفريقيا، واعتمد في مراسلاته على رجل يدعى «محمد بن الفارسي» فكتب هذا إلى جميع القواد العرب في إفريقيا كتاباً في نسخ عديدة يقول فيه: «إنا نظرنا في صنع الفضل المهلبي في بلاد أمير المؤمنين وسوء سيرته، فلم يَسَعْنا إلا الخروج عليه لنخرجه عنا، ثم نظرنا فلم نجد أحداً أولى بنصيحة أمير المؤمنين منك، فرأينا أن نجعل نفوسنا دونك، فإن ظَفِرْنا جعلناك أميرنا، وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك، وإن كانت الأخرى لم يعلم أحد أنا أردناك، والسلام».

وبذلك أفسد الجند كافة على الفضل المهلَّبي، وكَثُرَ الجمع عندهم، فَسَيَّرَ إليهم الفضل عسكراً كبيراً، فهزموه وأعادوا فلوله إلى القيروان حيث يقيم الفضل، وتبعهم أصحاب ابن الجارود وحاصروا القيروان، ثم دخلوها، وأسروا الفضل، فأراد ابن الجارود قتله فنصحوه ألاّ يفعل ولكنه قتله، فانشقَّ جيشه إلى قسمين، وخرج الغاضبون لقتله، فهاجمهم ابن الجارود بعسكر من تونس وقاتلهم وفَتَكَ بجماعة من أعيانهم الذين تجمعوا حول قائد يدعى «العلاء بن سعيد».

كان هارون الرشيد قد بلغه ما فعل ابن الجارود، فوجَّه إليه «هرثمة بن أعين» وهو من خيرة قوّاده ومعه يحيى بن موسى الكندي، وأراد هرثمة أن يعيد ابن الجارود إلى الطاعة فأرسَلَ إليه يحيى، فأتى القيروان ودفع إلى ابن الجارود كتاب الرشيد، فقال: «إنا على السمع والطاعة، وهذا العلاء بن سعيد قد جمع البربر حوله وتوجَّه إليَّ يريد قتلي، فإن تركتُ القيروان وثب البربر عليها فملكوها، فأكون قد ضيَّعْتُ بلاد أمير المؤمنين، ولكني أخرج إلى العلاء بن سعيد، فإن ظَفَرَ بي فشأنكم والثغور، وإن ظَفِرْتُ به انتظرتُ قدوم هرثمة فأسلِّم البلاد إليه وأسير إلى أمير المؤمنين» وكان قصد ابن الجارود في ذلك المغالطة، فأحسَّ يحيى بن موسى بالحيلة وتيقَّن أنه يريد أن ينتصرَ على العلاء بن سعيد ثم يَمْنَعَ هرثمة عن البلاد، فالتجأ إلى محمد بن الفارسي، فأظهر هذا أنه على الطاعة وجمع

جموعه لقتال ابن الجارود لكنه قتل غيلة، وهرب يحيى إلى هرثمة في طرابلس يخبره بالأمر، فزحف هرثمة على ابن الجارود، فَكَتَبَ هذا إلى هرثمة يدعوه لاستلام القيروان، لكن العلاء بن سعيد سَبَقَ هرثمة إليها وقتل جماعة من أعوان ابن الجارود ودَخَلَها فاتحاً، وانهَزَمَ ابن الجارود إلى هرثمة مسلِّماً نفسه خوفاً من العلاء بن سعيد، فأرسله إلى بغداد، واستمرَّ بالتقدم نحو القيروان فَدَخَلَها عام (١٧٩ هـ ـ ٧٩٥ م)، وسَمِعَ الرشيد بما فَعَلَ العلاء بن سعيد فاستَقْدَمَهُ وأكْرَمَهُ وأعادَهُ إلى بلاده.

وبَقِي هرثمة في القيروان يُشرِفُ على إدارة شمال إفريقيا، فحسَّنَ حالها، ووطَّدَ الأمن في ربوعها، ثم بنى قصراً كبيراً في «المانستير»، وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر. وكان في ولاية (الزاب) هناك رجل يُدعى «ابراهيم بن الأغلب» استطاع أن يتقرّب من هرثمة ويُظْهِرَ كفاءته، فولاّه ناحية الزاب، فَحَسَّنَ أثره فيها، وبعد عامين ونصف العام قضاها هرثمة في شمال إفريقيا، كتب إلى الرشيد يريد العودة إلى بغداد، فاستعفاه وسَمَحَ له فَعَادَ عام (١٨١ هـ ـ ٧٩٧ م).

وعيّن الرشيد مكانه «محمد بن مقاتل العكي» وكان هذا أخاً للخليفة بالرضاعة، فَقَدِمَ القيروان وتسلَّمَ الإدارة من هرثمة، ولكنه لم يكن محمود السيرة في عمله فاختلف عليه الجند، وقاتلوه، وأجبروه على الخروج من إفريقيا، فسار إلى طرابلس، غير أن ابراهيم بن الأغلب انتصر له وزَحَفَ على الثوار بجيشه، وهزمهم، واحتل القيروان، ودَعَا محمد بن مقاتل للعودة إلى ولايته، فعاد، ولكن أهل البلاد استثقلوا ولايتــه عليهم، فَحَمَلوا ابراهيم ابن الأغلب على أن يكتب إلى الرشيد فيطلب منه ولاية إفريقيا، فكتب إليه بذلك، وأضاف في كتابه يقول: «إن على ديار مصر ضريبة سنوية قدرها مائة ألف دينار، تُدفع إلى والي إفريقيا، تتمة لنقص ريع هذه البلاد، فإذا أراد أمير المؤمنين تَوْلِيَتي عليها فأنا أستغني عن هذه المعونة المصرية، وأدفع فوق ذلك أربعين ألف دينار في كل عام إلى بيت المال في بغداد».

ووصل طلب ابراهيم إلى هارون الرشيد مع الشروط، فأحضر ثُقاته واستشارهم فيمن يولِّيه على إفريقيا، وذكر لهم كراهة أهلها لولاية محمد بن مقاتل، وثورتهم عليه، فأشار هرثمة بن أعين إلى تولية ابراهيم بن الأغلب، وذكر ما رآه من عقله ودينه وكفايته

فضلاً عن قيامه بحفظ إفريقيا على ابن مقاتل، فولاّه الرشيد إياها عام (١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م) فَحَسُنَتْ حاله فيها، واستقرّ الأمن، وهدأت تلك الجموع المتمردة الثائرة، وبنى مدينة (العبّاسية) قرب القيروان، وسكنها.

ثم بلغ ابن الأغلب أن «إدريس بن إدريس العَلَوي» قد كَثُرَ جمعه بأقصى المغرب، فأراد قتاله، وكتب إلى «بهلول بن عبد الواحد» البربري، القائم بأمر إدريس، وأرسل له الهدايا الكثيرة، وحرَّضَه على إدريس، فَفَارَقَهَ ومَالَ إلى ابراهيم. وكاد ينتهي أمر إدريس لولا أن كتب هذا إلى ابراهيم يستعطفه ويسأله الكفَّ عن ناحيته ويذكّره بقرابته من النبي ﷺ، فكف عنه[1].

لكن ثورة قامت ضد ابراهيم بقيادة «عمران بن مخلد»، وعظُم أمرها، وانضمَّت إليها القيروان ومعظم بلاد إفريقيا، فخاف ابراهيم وحاصر مدينة العبّاسية وخَنْدَقَ حولها، فَدَامَ الحصار سنة كاملة، حتى سَمِعَ الرشيد بالأمر، فأرسل إلى ابراهيم خزانة مال جسيمة، فلمّا وَصَلَتْه أمَرَ منادياً ينادي: من كان من جند أمير المؤمنين فَلْيَحْضُرْ لأخذ العطاء، فتفرّق جيش عمران وخذلوه، وجاؤوا يأخذون الأموال، فَوَثَبَ عليهم أصحاب ابراهيم فانهزموا، ثم نادى بالأمان والحضور لقبض العطاء فحَضَروا، وقَلَعوا معه أبواب القيروان، وهَدَموا سورها، واستقامَ الأمر بعد ذلك له وهدأتِ البلاد. وكتب ابراهيم بما جرى إلى الرشيد، فَسَرَّتْه النتيجة وكافأه بأن ولاّه مدة حياته على إفريقيا، وبأن تكون الولاية بعده لأولاده على أن يكونوا جميعاً تحت ظل الراية العبّاسية.. وبقي ابراهيم والياً عليها حتى توفي عام (١٩٦هـ ـ ٨١١ م) أي بعد وفاة الرشيد بثلاثة أعوام.

في مصر:

أما إقليم مصر فقد كانت حالته هادئة طوال فترة خلافة الرشيد، ولم يعكّر صفوَ الأمن فيه سوى أمور تافهة إذا ما قارنّاها بحوادث الدولة الخطيرة. كان «موسى بن عيسى العبّاسي» أول عامل للرشيد عليه، وقد مرّت أيامه بسلام، لكنه عزله وولّى مكانه «مسلمة

(١) ابن الأثير: ج ٢ ص ١٠٧.

ابن يحيى بن قره» عام (١٧٢ هـ ـ ٧٨٨ م) فَحَدَثَت في عهده فِتَنٌ، خاف الرشيد أن يستفحل أمرها فَعَزَلَهَ وعيَّن محلَّه «محمد بن زهير الأزدي»، إلاّ أن وكيله على الخراج شدَّد على الناس، فنفرت منه القلوب، وثار عليه الجند، وقاتلوه وحصروه في داره، ولم ينجده الوالي محمد بن زهير، فَغَضِبَ الرشيد عليه وعَزَلَه، وأرسل مكانه «داود بن يزيد بن حاتم المهلَّبي» فهدَّأ الأمور وبقي في مصر عاماً كاملاً[١]. ثم عاد الرشيد فأبدله ثانية بموسى بن عيسى عام (١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م).

لكن خبراً تسرَّب إلى الرشيد، بأن موسى يطمع بالخلافة، وأنه لا يأتمر بأوامره، فثار غاضباً، وحلف بأن يضع مكانه أخسّ وأهون رجل يتردّد على بابه، فأشار عليه جعفر البرمكي بتعيين «عمر بن مهران»، وكان في ما مضى كاتباً للخيزران، ولم يكتب لغيرها، وكان أيضاً مشوَّه الوجه، في لباس رخيص، يطيل ثوبه من الأمام ويقصِّره من الخلف عمداً ليثير فضول الناس حوله فيتندَّرون عليه، فاستدعاه الرشيد وقال له: قد ولَّيْتُك مصر خراجها وحربها وضياعها، فقال عمر: أتولاها على شريطة، قال: وما هي؟؟ قال: يكون إذني إليّ، فإذا أصلحت البلاد انصرفتُ، قال الرشيد لك ذلك، فَسِرِ الآن إلى عملك.

ومضى ابن مهران إلى مصر، وقد علم موسى بن عيسى بالأمر، فراح يتوقع قدوم الوالي الجديد ولم يكن يعرفه، ووصل عمر عام (١٧٦ هـ ـ ٧٩٢ م) على بغل، ومعه غلامه «أبو درَّة» على دابة من دواب النقل، وقصد دار الإمارة حيث الوالي في مجلسه، فجلس في مؤخرة القوم، وبقي حتى تفرَّق المجلس، فقال له موسى: ألك حاجة أيها الشيخ؟؟ قال: نعم، ودفع إليه كتاب الرشيد، فقرأه وقال: سمعاً وطاعة، وأنا بانتظار قدوم الأمير، قال: أنا هو، فنظر موسى إليه على تلك الهيئة المزرية والصورة المضحكة، وقال: أنت عمر بن مهران؟؟ قال: نعم: لعن الله فرعون حين قال: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟». ثم سلَّمه العمل وعاد في الحال إلى بغداد.

ووضع عمر الجباية، وأمر الناس أن يؤدّوا حقَّ بيت المال، وكان في مصر قوم اعتادوا المَطْلَ والتسويف وكسر الخراج فدعاهم جميعاً، وطالب أحدهم أمام الآخرين، فاعتذر وماطل، فألَحَّ عليه بالدفع فقَصَّرَ، فقال له عمر: «والله لا تؤدي ما عليك من الخراج

(١) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٠ ٨١.

إلا في بيت المال في مدينة السلام، إن سَلِمْتَ» فأراد الرجل أن يدفع ما عليه في مصر، فأبى، وأشخصه حالاً مع رجلين من جنده إلى بغداد، وبعث معه برسالة إلى الخليفة الرشيد يخبره بالأمر، فلمّا رأى الناس ما فعل بصاحبهم، أدّوا ما عليهم من الخراج في مواعيده، وهكذا أغلق عمر بن مهران مال مصر كاملاً، وانصرف إلى بغداد بعد غيبة دامت سنة كاملة، فقيل: لم يقدر أحد من الولاة على غلق مال مصر كاملاً غيره(١).

ولم تذكر المصادر التاريخية اسم عمر هذا بين أسماء ولاة مصر، لأن الرشيد كان قد ولّى جعفر البرمكي على النصف الغربي من دولته، والذي يشتمل على عدة أقاليم، كانت مصر أحدها، فكان جعفر يديرها بمندوبين يختارهم من قِبَلِه، لذا، اعتبروا عمر بن مهران مندوباً عنه لا والياً أصلياً.

غير أن ولاية جعفر هذه لم تدم أكثر من سنة واحدة، فقد عَزَلَهُ الرشيد عنها، وجاء إلى مصر بولاة عديدين حدثت في أيامهم أمور كثيرة، بعضها يتعلق بأحوال مصر الداخلية، وبعضها الآخر بشؤون إفريقيا وثوراتها، كما أسلفنا(٢).

وكان الحادث الأهم الذي جرى في مصر بعد ذلك ما رواه بعض المؤرخين، قال: إن الحَكَمَ بن هشام في الأندلس ندب قائده «عبد الكريم بن مغيث» لقتال الفرنج وغزو بلادهم في عهد الأمبراطور شارلمان، فدخل عبد الكريم أراضي فرنسا، وبثَّ سراياه فيها، وحارب أمراء الإقطاع في معارك طاحنة، فَأَسَرَ وسَبَى خلقاً كثيراً، فأراد الفرنج القيام بحركة انتقامية وصمّموا على غزو شمال إفريقيا وأرادوا أن يبدأوا بالاسكندرية زاحفين نحو الغرب، فخرج عليهم والي مصر عبيد الله بن المهدي (أخو الرشيد) بعسكره، ومَنَعَهم من النزول إلى الساحل فعادوا فاشلين(٣).

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٢٨

(٢) كان الولاة على مصر بعد جعفر البرمكي: ابراهيم بن صالح العبّاسي، وهرثمة بن أعين، وعبد الملك بن صالح، وعبيد الله بن المهدي، وموسى بن عيسى (للمرة الثالثة) وعبيد الله بن المهدي (للمرة الثانية)، واسماعيل بن صالح العبّاسي، واسماعيل بن عيسى العبّاسي، والليث بن الفضل الأبيوردي، وأحمد بن اسماعيل العبّاسي، وعبد الله بن محمد بن ابراهيم العبّاسي، والحسين جميل مولى المنصور، ومالك بن دلهم الكلبي، والحسن بن البحباح. أنظر (النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٦٣).

(٣) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٩٤

في اليمن:

وكان«العبّاس بن سعد» أول عامل لهارون الرشيد في بلاد اليمن ولم يُحْسِنْ إدارتها، ولم تُحْمَدْ سيرته فيها، فَعَزَله ووَلَّى مكانه «ابراهيم بن محمد العباسي» الذي لم يَقْدِرْ على إصلاح ما أفسده سلفه، والذي لم يَرْضَ به أهل اليمن، فَصَرَفَهُ ووَلَّى عليها «عبد الله بن مصعب الزبيري»، ثم عيَّنَ بعده «أحمد بن اسماعيل العبّاسي» وآخرين غيرهم، وكانوا، جميعاً، عاجزين عن إخماد ثائرة اليمانيين، والبقاء بينهم طويلاً.

فلما رأى الرشيد صعوبة إدارة هذا الإقليم المتمرِّد، اختار له مولاه «حماد البربري»[1]، وكان فظّاً غليظ القلب، فجار على اليمانيين وقسا عليهم. فتمرَّدَ عليه «الهيصم بن عبد الحميد الهمداني» عام (١٧٩ هـ - ٧٩٥ م) وأعلن ثورته واعتصم بالجبال، وثار بجانبه أيضاً «عمر بن أبي خالد الحميري» وتحصّن في (عشتان) وأيَّدَهما «الصبّاح» وأقام بناحية (حرار)، ثم اجتمع الثوار الثلاثة على حماد البربري بجيش كبير، فقابلهم حماد بعساكره، ودارت بين الطرفين رحى حرب طاحنة قتل فيها نيف وعشرون ألف رجل، وَوَقَعَ عمر بن أبي خالد أسيراً، وأُرسل إلى الرشيد، ودامت الحرب بين الهيصم وحماد تسع سنوات، حتى أُسر وأُرسل إلى هارون الرشيد، فلمّا دخل عليه مكبَّلاً بالحديد، لم يعتذر، وأنشد أبياتاً يقول في آخرها:

وشفاءُ ما لا تشتهيـــــهِ   النفسُ تعجيلُ الفـــراقِ

فأمر الرشيد بضرب عنقه.

ثم وجَّهَ حماد البربري جهوده إلى قتال «صبّاح» وشدَّد عليه الخناق فطلب من حماد الأمان، فلم يعطِه إياه، وقاتله حتى أسره، وتوجَّه به إلى الرشيد مع عدد من رجال الهيصم، فضرب أعناقهم جميعاً، وصلّب جثة الصبّاح إلى جانب جثة الهيصم للعبرة والدرس.

وأقام حماد البربري في اليمن ثلاثة عشر عاماً سَامَ أهلها أشدَّ أنواع العذاب، حتى

---

(١) الطبري: ج ٢ ص ٧٣٩.

صَاحَ قوم منهم بالرشيد وهو في مكة، قائلين: «نحن نعوذ بالله وبك يا أمير المؤمنين، إعزِل عنا حماد البربري، إن كنت تقدر» وكان الرشيد قد امتلأ غيظاً عليهم لما قاموا به من ثورات طوال تلك الأعوام، فأجابهم قائلاً: «لا، ولا كرامة».. وأخيراً عَزَلَهُ واختارَ مكانه «عبد الملك بن مالك» فأحْسَنَ إليهم وسارَ فيهم سيرة حسنة، فأحبّوه.

ولم يَحْدُثْ في بلاد الحجاز ما يستحق الذكر طوال فترة خلافة الرشيد، وقد تداول على ولاية المدينة عشرة ولاة، كما تداول على ولاية مكة ستة عشر والياً، جُلُّهم من العبّاسيين[1].

في الشام:

وأهم ما حدث في الشام كانت تلك الفتنة العارمة التي حصلت عام (١٧٤هـ - ٧٩٠م) بين القبائل اليمانية والنزارية، والتي تفاقم أمرها فاستمرت بضعة أعوام قضى نتيجتها كثير من الأنفس البريئة، ثم ما لبثت أن تطورت إلى ثورة دامية ضد عمّال الرشيد وجيوشه.

ملخَّصُها: أن رجلاً من قبائل «القيس» النزارية خرج بطعام له ليطحنه في الرحى بالبلقاء، فَمَرَّ ببستان رجل من «لخم» اليمانية، وفيه بطيخ، فتناول منه واحدة، فَشَتَمَهُ صاحب البطيخ، وتضاربا، فسارَ القيسي مهدداً بالعودة للانتقام، ما حَدَا باللخمي أن يجمع قوماً من أهل اليمن ليدافعوا عنه لدى عودة خصمه، وجاء القيسي ومعه بعض أعوانه، فاقتتل الطرفان وقُتِلَ رجل من اليمانية، فأخذ اليمانيون يطالبون بدم المقتول وتجمعوا للثأر، وتأهب الطرف الثاني للدفاع عن النفس واحتاطوا للمفاجأة، ولمّا خاف الناس من تفاقم الأمر بين الطرفين، اجتمع الرؤساء وأصحاب الرأي ليصلحوا ما بينهم،

---

(١) تولى إدارة مكة: العبّاس بن محمد العبّاسي، وسليمان بن جعفر العبّاسي، وموسى بن عيسى العبّاسي، وعبدالله بن محمد العبّاسي، وعبد الله بن قثم العبّاسي، ومحمد بن إبراهيم العبّاسي، وعبيد الله بن قثم العبّاسي، وعبد الله بن محمد بن عمران، وعبد الله بن محمد العبّاسي (للمرة الثانية)، والعبّاس بن موسى العبّاسي، وعليّ ابن موسى العبّاسي، ومحمد بن عبد الله العثماني، وحماد البربري، وسليمان بن جعفر العبّاسي (للمرة الثانية) وأحمد بن اسماعيل العبّاسي، والفضل بن العبّاس العبّاسي.

وتولى إدارة المدينة إسحاق بن عيسى العبّاسي، وعبد الملك بن صالح العبّاسي، ومحمد بن عبد الله العبّاسي، وموسى بن عيسى العبّاسي، وإبراهيم بن محمد العبّاسي، وعلي بن عيسى العبّاسي، ومحمد بن إبراهيم العبّاسي، وعبد الله بن مصعب الزبيري، وبكار بن عبد اللطيف بن مصعب، وأبو البختري وهب بن وهب.

وأتوا بني القيس وكلموهم فأجابوا طلبهم، ثم جاؤوا إلى اليمانية فكلَّموهم، فقالوا انْصرِفُوا عنّا حتى نَنْظُر، لكنهم بيَّتوا بني القيس وأغاروا عليهم في ليلة، وقتلوا منهم ستماية رجل، فانْدَلَعَتِ النار بين الجانبين، والتَحَقَتْ كل قبيلة بِنَسَبِها، هذا نزاري وهذا يماني.

ولمّا كان عامل الرشيد على الشام «عبد الصمد العبّاسي» شيخاً كبيراً لم يستطع إطفاء النار التي نَشَبَتْ، فَعَزَلَهُ الرشيد وأرسَلَ محلَّه «إبراهيم بن صالح العبّاسي»، لكن القتال دام سنتين كاملتين قُتِلَ خلالهما عدة آلاف من الطرفين، ثم اصطلحا بعد شرٍّ طويل. وكانت أخبار هذه الفتنة قد أقْلَقَتْ بغداد، فَوَفَدَ إبراهيم بن صالح على هارون الرشيد بعد الصلح، وحدَّثَهُ عن تلك الفتنة في مجلسه مُلقياً اللوم على قبيلة قيس، فدافَعَ بعض الحاضرين عنها، فسكت الرشيد وعفا عن الجميع بعد أن حدث ما حدث.

وظنَّ الناس بأن الفتنة قد انتهت، لكن إبراهيم بن صالح، لدى قدومه إلى بغداد، خلَّف مكانه ابنه «إسحاق»، فأخذ هذا جماعة من قيس، وحبسهم وأهانهم، فَنَفَرَ أعوانهم وحلفاؤهم، وتجددت الفتنة، ثانية، لكنها كانت أشدَّ من الأولى .. وعلى أثر حادث من الحوادث الدامية، نهض زعيم النزاريين «عامر بن عمارة» المكنّى بـ«أبي الهيذام» وكان قد اعتزل الحرب، فَقَدِمَ إلى الأمير إسحاق بن إبراهيم ليشكو له ما فَعَلَتِ اليمانية ـ وكان هوى الأمير مع قبائل اليمن ـ فلم يأذن له بالدخول، واستمر القتال، فعاد أبو الهيذام، ثانية، لمواجهة الأمير، فلم يسمع شكواه، وحرّض اليمانية على قتله، لكن أبا الهيذام ثار واستولى على دمشق، وأخرج أهل السجون منها، ودارت حرب دامية بينه وبين القبائل اليمانية على أبواب دمشق وتكررت عدة مرات وكان النصر فيها دائماً حليف أبي الهيذام.

وأراد الأمير إسحاق أن يتخلّص منه، فأرسل إليه يأمره بالكفِّ عن القتال، فأطاع الأمر وكفَّ وألقى السلاح، لكن الأمير أرسل إليه جماعة من اليمانية ليغتالوه في بيته، فأحسَّ بهم وركب فرسه مع عدد من جماعته، وقاتلهم فهزمهم، ثم عاد إلى بيته وألقى السلاح ثانية، غير أن الأمير حاول قتله، مرة أخرى، إلا أنه لم يستطع.

ولما رأى اليمانية أن لا قِبَلَ لهم بقوى أبي الهيذام طلبوا منه الأمان. فأمَّنهم وانتهت المعارك بينه وبينهم، أما الأمير إسحاق فبقي مصمماً على التخلّص من هذا الفارس الجريء، فجهَّزَ عليه جيشاً من عسكره بقيادة «الفدافر السكسكي» فقاتله طوال النهار حتى

انهزم السكسكي أمامه وتفرق جنده. وفي اليوم التالي، تقدّم الأمير إسحاق بجيشه ونازل أبا الهيذام، فالْتَحَقَ به أعوانه وحاربوا ذلك الجيش البالغ عدده اثْنَيْ عشر ألف مقاتل مع من التحق به من اليمانية الذين نكثوا العهد، فانهزم جيش إسحاق ودخل دمشق متحصّناً.

فلمّا سمع الرشيد بهذه المجازر الوحشية، أرسل إليها القائد «السندي بن شاهك» مع كتيبة من الجيش، فَقَدِمَ دمشق، واجتمع حوله اليمانية وأوغروا صدره حقداً على أبي الهيذام. فأرسل أبو الهيذام إلى السندي يقول: إنه على الطاعة وإنه كان مكرهاً على إحداث ما جرى، لكن السندي أرسل إليه جيشاً بثلاثة آلاف مقاتل، ما اضطره إلى الخروج بألف من أعوانه، إلا أن الطرفين لم يلتحما بحرب ذلك اليوم، وما لبثا أن تصالحا، وأمن أهل دمشق والناس، وسار أبو الهيذام إلى (حوران) وأقام السندي بدمشق، ثم عاد إلى بغداد، وأخبر الرشيد بتفاصيل الأزمة.

بعد ذلك أرسل الرشيد موسى بن عيسى بدل إسحاق بن ابراهيم، فلم يشأ هذا إفلات أبي الهيذام، وأرسل من يأتيه به حفظاً على شوكة الدولة وحرمتها، فخرج إلى هؤلاء الرسل وقاتلهم فهربوا منه، فأرسل موسى إليه جيشاً كبيراً فهزمه، أيضاً، أبو الهيذام قرب مدينة (بصرى) وشتّت شمله.

وهنا ضاق الرشيد ذرعاً بهذه الحوادث المستمرة. وقال لوزيره جعفر البرمكي: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا إلى الشام، قال: بل أنا أقيك بنفسي، فَشَخَص بجيش عظيم وعليه جُلَّة القواد والكراع والسلاح، وجعل على شرطته وحرسه رجلين من أعوانه، وحين وصل إلى الشام عام (١٨٠ هـ - ٧٩٦ م)، ألقى الطرفان أمامه السلاح[1]. وفي رواية أخرى، قيل: إن أبا الهيذام قاتل جيش جعفر حتى قُتِل فاستسلم جيشه[2].

وأصلح جعفر بين المقاتلين، وقتل زواقيلهم والمتلصّصة منهم، وجرّدهم من السلاح، ولم يَدَعْ في تلك الديار رمحاً ولا فرساً إلا ألقى الحجز عليه، وولّى على البلقاء وما يليها «صالح بن سليمان» واستخلف على الشام «عيسى العكي» ولم يعد حتى خمدت الثورة وعادت الطمأنينة إلى النفوس، ولدى عودته اصطحب رؤساء تلك القبائل المتحاربة،

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٩١ ـ في رواية ابن الأثير أن أبا الهيذام ألقى السلاح وعاش حتى عام ١٨٢ هـ.

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٤٩٤.

فاستقبله الرشيد ورجال دولته، وعمَّ السرور بغداد، ونظر يحيى بن خالد في أمر أولئك الرؤساء، فعفا عنهم جميعاً بعد أن صفّى ما كان بينهم من أحقاد، واستبقاهم في بغداد زمناً طويلاً ثم أعادهم إلى بلادهم.

في شمال العراق:

وكانت مدينة الموصل وربوع الجزيرة[1] وما حولها، من الأقاليم الأكثر اضطراباً وفتناً وثورات على الدولة منذ العهد الأموي، وفي العصر العبّاسي الأول، وبعده أيضاً. ويرجع سبب ذلك إلى عاملين: أولهما، وجود بعض القبائل العربية المسلّحة القوية الشكيمة، أمثال قبيلتيْ «بكر و تغلب» وغيرهما، ثانيهما، الموقع الجغرافي لهذه المنطقة، الذي يجمع بين شعوب وعناصر مختلفة من العرب والكرد والأرمن والروم والفرس، فكان طبيعياً أن يُخْلَقَ فيها جوٌّ مضطرب النزعات والعقائد والآراء، يتقبل كل فكرة تدعو إلى التمرُّد والعصيان والانتفاضات ضد نظام أي حكم كان.. وما كان يُلاحَظ في تاريخ هذه البقعة من الأرض، قبل عهد الرشيد وبعده، انتشار «المذهب الخارجي» الداعي إلى الثورة على كل سلطان لا يدين بهذا المذهب.

ففي العام (١٧١ هـ ـ ٧٨٧ م) خرج الصحصح «في الجزيرة» فكان من أمره مع الرشيد ما سبق أن ذكرناه في بحث مضى.. وفي العام نفسه، استعمل الرشيد على صدقات «تغلب» وخراجها أحد قواده «روح بن صالح الهمداني» الذي نشب خلاف بينه وبين رجال هذه القبيلة، فقتلوه مع أصحابه، فمشى إليهم ابنه «حاتم بن روح» بجيش كبير، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر بعضهم، فاغتاظ الرشيد مما حَدَثَ وعَزَلَ والي الموصل، عبد الملك بن صالح العبّاسي، وأرسل إسحاق بن محمد الهاشمي فوضع السيف على تغلب حتى ضجَّ القوم من وطأة التأديب، فعفا الرشيد عنهم[2].

وفي العام (١٧٣ هـ ـ ٧٨٩ م) خرج العطاف بن سفيان الأزدي، فاجتمع عليه أربعة آلاف مقاتل، وغلب على مدينة الموصل، وجبى خراجها مدة سنتين، على الرغم من وجود

(١) الجزيرة: هي البقعة الواقعة بين نهر الموصل والفرات.

(٢) ابن الأثير: ج ٦ ص ٨٧.

عامل الرشيد «محمد بن العبّاس الهاشمي» فيها، وبقِي متمرداً في أطراف الموصل والجزيرة حتى مشى إليه الرشيد بنفسه فهرب إلى أرمينية، لكن الرشيد هدم سور الموصل وعزم على قتل أهلها، إلا أن أبا يوسف القاضي فلم يُفْتِه بذلك، فعيَّن عليها «يحيى ابن سعيد الحرشي» الذي سام أهلها أشد الظلم حتى نزح بعض سكانها عنها[1].

وافتعل الخوارج في هذه البلاد حوادث كثيرة استطاعوا من خلالها أن يقلقوا الرشيد طوال خلافته، وكان أهمها وأشدها خطورة حادث «الوليد بن طريف الشاري»:

كان الوليد عربياً من تغلب، وكان على مذهب الشراة من الخوارج. ظهر في الجزيرة عام (١٧٨ هـ ـ ٧٩٤ م) وقتل عامل الرشيد على نصيبين «ابراهيم بن خازم بن خزيمة»، وكثرت جموعه، وقويت شوكته فدخل أرمينية وحاصر مدينة (خلاط) فافتدى أهلها أنفسهم منه بمال كثير، ثم سار إلى أذربيجان، ودخل قراها، ونشر الرعب في جوانبها، بعدها انتقل إلى (حلوان) وأراضي السواد، يجبي الناس ويفرض عليهم الإتاوة، وينهب من يمتنع، ويقتل من يعارض، ويَبثُّ دعواه ومذهبه، ثم لقَّب نفسه بأمير المؤمنين، وأخيراً، عَبَرَ إلى غرب دجلة، وقصد مدينة (بلد) بالقرب من بغداد، فخافه أهلها وافتدوا أنفسهم منه بأموال طائلة، وراح يتنقل في البلاد، فلم يلتقِ بجيش إلا بدَّده، ولا بحرس إلا قضى عليه.

وكان الرشيد قد أرسل له عدة جيوش، لكنها لم تصمد أمامه، ولم يستطع أحد من قوّاده أن يطيل النزال معه، وكان آخر ما فعله أن هاجم (الرقّة) مصيف الرشيد وفيها القائد المشهور عبد الملك بن صالح، فلم ينازله وتحصن وراء الأسوار، ما أثار الرعب في قلوب الناس، حتى بغداد نفسها خافت منه.. فاستشار الخليفة وزراءه في من يرسله إليه، فأشاروا إلى «موسى بن حازم التميمي» فأرسله بجيش كبير، فقتله الوليد وفرَّق جيشه، ثم أرسل بعده «معمر بن عيسى العبدي» فنازله في مواقع عديدة فلم يستطع.. وأخيراً استقرَّ رأي الرشيد على أكبر قواده «يزيد بن مزيد الشيباني»[2].

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ٩٦.

(٢) ابن خلّكان: ج ٢ ص ٢٨٣ ـ قيل إن الذي أشار على الرشيد بإرسال يزيد بن مزيد هو يحيى البرمكي بعد أن علم خطر الوليد. وكان البرامكة يكرهون يزيد فأرادوا قتله بذلك على يد الوليد أو على يد الرشيد إذا انهزم منه.

دعا الرشيد يزيد بن مزيد، الذي كان غائباً عن بغداد، فأتاه، فقال له: يا يزيد، إني قد أعددتك لأمر كبير، قال يزيد: «يا أمير المؤمنين إن الله عزَّ وجل قد أعدَّ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مشحوذاً على عدوِّك.. فإذا شئت فقل»[1]، قال: «قد اخترتك لقتال الوليد بن طريف الشاري، فتهيأْ له، وسرْ مستعجلاً، واصْحَبْ معك الجيش الذي تريده، ولا تستهنْ بالأمر فإنه أصعب مما تتصوّر» ثم أعطاه سيفاً كان معه، وهو السيف المعروف بـ «ذي الفقار» الذي كان في ما مضى سيف الإمام علي بن أبي طالب(رض)[2].

وشاع الخبر بين الناس، فَفَرِحُوا لاختيار الرشيد هذا القائد العظيم.

وقال أحد الشعراء:

لا تُرسِلَنَّ إلى ربيعةَ غيرَها ‏ ‏ ‏ ‏ إن الحديدَ بغيرِهِ لا يَفْلَحُ

ذلك أن بين الوليد بن طريف ويزيد بن مزيد نسباً مشتركاً تجتمع فيه قبيلتاهما «شيبان، وتغلب» بربيعة بن وائل.

وعلم الوليد بن طريف باختيار الرشيد ليزيد بن مزيد الشيباني، فاغتم للأمر، واهتم له كما اهتم يزيد له أيضاً، وكل منهما يعرف شدة صاحبه وبطشه وطول باعه في ميادين الحروب.. وراح كل منهما يتأهب للمعركة الحاسمة، ونادى الوليد بن طريف أعوانه من كل مكان، فاجتمعوا حوله، وأرسل يزيد بن مزيد أبياتاً يقول فيها:

سَتَعْلَمُ يايزيدُ إذا التَقَيْنَا ‏ ‏ ‏ ‏ بِشَطِّ الزَّاب أيَّ فتىً أكونُ

وسار يزيد بجموعه إلى (الحديثة) من أرض الجزيرة الفراتية، يريد خصمه، فالتقيا

---

(١) ابن خلّكان: ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) ابن خلّكان: ج ٢ ص ٢٨٤ - كان السيف (ذو الفقار) لرجل من قريش قتل في معركة بدر، قتله علي بن أبي طالب وأخذ سيفه هذا، ثم ورثه ابناؤه حتى وصل إلى محمد بن عبد الله العَلَوِي (النفس الزكية)، فلما قُتِلَ في عهد المنصور أخذه أحد التجار لقاء دين له على النفس الزكية فاشتراه منه جعفر بن سليمان العبّاسي، ومنه انتقل، إلى المهدي فالهادي ثم إلى هارون الرشيد.

هناك، وجعل كل منهما يخاتلُ صاحبه ويماكِرُه ويتجسَّسُ عليه، ويتعرَّفُ قوته، وراح الوليد يتنقَّلُ من موضع إلى آخر ليختار الأرض الصالحة لخُطَطِهِ العسكرية، ويزيد يتبعُهُ ولا يعاجلُهُ، وهارون الرشيد وراءه يرسل إليه المدد بعد المدد.. حتى طال بينهما الانتظار والمراوغة لتحين الفرصة من أجل الانقضاض، وعِيلَ صبر الرشيد من ذلك الانتظار، فاغتنم البرامكة، خصوم يزيد، الفرصة وقالوا للرشيد: إن يزيد يتجافى منازلة هذا الخارجي لِصِلَةِ الرحم والقُربى بينهما، وهوَّنوا في عينيه أمر الوليد بن طريف، فأرسل الرشيد إلى يزيد كتاباً يقول فيه: «لو وجَّهتُ أحد الخدم لقامَ بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهنٌ متعصبٌ، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجِهَنَّ إليك من يَحْمِلُ رأسك».

وفي أول خميس من شهر رمضان عام (١٧٩ هـ ـ ٧٩٥ م) التقى الخصمان، للمرة الأخيرة، قرب مدينة (نصيبين) بجانب تل يدعى (نهاكى)، وبينما يزيد بن مزيد يصلّي صلاة الصبح، إذا بالوليد بن طريف يطلع عليه بعسكره، فاصطفَّت الخيل، ثم تزاحفت، واقْتَتَلوا حتى ظُهْرِ ذلك اليوم، فنادى يزيد: يا وليد، ما حاجتك إلى التستُّر بالرجال؟؟ إبرزْ لي، فأجاب الوليد: نعم والله، ما قلتَ إلا الحقّ، وعندها افترقَ الصفان، وراحَ كل من الفارسين يُصلِحُ حاله، وكان الحر شديداً، والصوم قد أخذ منهما مأخذه، فَوَضَعَ يزيد خاتمه في فمه من العطش وقال: «اللهم إنها شدة فاسترها» ثم نزل إلى الميدان، وأقبلَ عليه الوليد يرتَجِزُ ويقول:

انا الوليدُ بنُ طريفِ الشاري

قَسْوَرَةٌ لا يُصْطَلَــى بناري

ظُلْمُكُم أخرجَني مــن داري

ووقف العسكران مبهوتين أمام ذلك الصراع العنيف، بين أمهر فارسين عَرَفَتْهُما دولة هارون الرشيد، وظلَّ القائدان يتطاردان دون ان ينتصرَ أحدهما على الآخر حتى مَضَتْ ساعات النهار، وسنحت ليزيد الفرصة، فضرب رِجْلَ خصمه فَقَطَعَها، وسَقَطَ الوليد من صهوة فرسه، فَرَمَى يزيد نفسه عليه واحتزَّ رأسه، ونادى برجاله: «فداكم أبي وأمي، إنما هي الخوارج فاثبتوا» والتَحَمَ الجيشان بقية النهار حتى تراجع الخوارج.

وكانت «ليلى بنت طريف» الشاعرة المعروفة باسم «الفارعة» في عسكر أخيها، فلمّا

عَلِمَتْ بمصرعه، رَمَتْ خمارها، وحَمَلَتْ على قوم يزيد حملة اللبوة التي فقدت أشبالها، وهي تضرب بالسيف وتصيح فانكفَّ عنها الفرسان، ثم تصايحوا عليها، فقال يزيد لأصحابه: دعوها، أنا لها، وكان قد عرفها، فلمّا رأته تهيَّبَتْهُ، ووقفت أمامه خجلى. فضرب يزيد بالرمح قطاة فرسها وقال لها: «إعزبي.. لقد فضحتِ العشيرة» فانصرفت تبكي وتقول:

يا بَنِي وَائلٍ لَقَدْ فَجَعَتْكُم	مِنْ يزيدٍ سُيوفُهُ بالوليدِ
لو سيوفٌ سِوَى سيوفِ يزيدٍ	قَاتَلَتْهُ لاقَتْ خِلافَ السعودِ
وائِلٌ بَعْضُهَا يُقَتِّلُ بَعْضاً	لا يَفِلُّ الحَديدَ غَيْرُ الحَديدِ

ثم جَمَعَ يزيد جرحى جيشه ومن بينهم ابنه «أسد بن يزيد» وأرسلهم أمامه مع رأس الوليد بن طريف إلى بغداد. وتوجّه هو بعدهم ودخلها منتصراً، ثم توجَّه إلى قصر الخُلد لمقابلة الرشيد، فَمَنَعَهُ الحاجب وقال له: إن أمير المؤمنين غاضب عليك ولا يريد مقابلتك، فقال يزيد: «أخْبِرْهُ بأني أريد رؤيته.. وحقِّ أمير المؤمنين لأصيِّفَنَّ وأشتُوَنَّ على فرسي، أو أدخل» فأخبر الفضل بن الربيع الرشيد بذلك، فأَذِنَ له، فَدَخَلَ فَضَحِكَ الرشيد وقال له: «مرحباً بالأعرابي، مرحباً بالأعرابي».

فقال يزيد: «يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي سهَّلَ لنا سبيل الكرامة وحلَّ لنا النعمة بلقاء وجهك، وكشف عنا صبابة الكرب بأفضالك، فجزى الله في حال سخطك رضى المنيبين، وفي حال رضاك جزاء المنعمين الممتنين» ثم جلس يحدِّثُ الرشيد عما جرى، فقال له مداعباً: ما أكثر أمراء المؤمنين في ربيعة (ويقصد زعماء الخوارج) ؟ فقال يزيد: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن منابرهم الجذوع (أي أن مصائرهم الشنق والقتل)[1].

---

(١) أنظر: ابن الأثير: ج ٦ ص ٩٧، الطبري: ج ٣ ص ٧٤٩، العقد الفريد: ج ٢ ص ١٤٧، ابن خلّكان: ج ٢ ص ٢٨٣.

كان انتصار يزيد على الوليد من أكبر الانتصارات التي بعثت الفرح في نفوس الناس بعد ذلك القلق والخوف من الخوارج، وقد مدح الشعراء يزيد إثر ذلك بقصائد كثيرة منها قول سلم الخاسر:

إن لله في البريةِ سيفينِ	يزيدَ وخالدَ بْنَ الوليدِ
ذاك سيفُ النَّبيِّ في سالفِ	الدَّهرِ وهذا سيفُ الإمام الرشيدِ

وكان من فرح الرشيد بهذا الانتصار أن عزم على أداء فريضة الحجِّ شكراً لله، فاعتمرَ من يومه في شهر رمضان، وانصرفَ إلى المدينة، فأقام بها إلى حين أداء الفريضة، ومشى من مكة إلى (مِنى)، ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد كلها سيراً على قدميه[1].

في أرمينية:

ولم يكن تاريخ (أرمينية) في خلافة الرشيد خالياً من الأحداث والمشاكل أيضاً. فقد كانت البلاد، بحكم بعدها عن عاصمة الدولة ووعورة مسالكها، موضع قلق واضطراب في فترات متقاربة[2].

كانت أرمينية قد انتفضت على السلطة في أواخر أيام المهدي، وبقيت كذلك في زمن الهادي، فلمّا جاء الرشيد ولى عليها أحد رجاله المعروفين في حسن الإدارة والحرب «خزيمة بن خازم التميمي» فَضَبَطَها، وأعطى أهلها الأمان فأطاعوه، وحَسُنَتْ حالة البلاد على يده مدة سنة وشهرين، ثم ولّى مكانه «يوسف بن راشد السلمي» فَنَقَلَ إليها جماعة من النزارية، وأسكَنَهُم بجانب اليمانية الذين كانوا غالبين عليها، ولما تولّى أمرها، من بعده، يزيد بن مزيد الشيباني نَقَلَ إليها قوماً من ربيعة، وضبط البلاد أشد ضبط، ثم تركها بأمر الخليفة، فحلَّ محلَّه «عبد الكبير بن عبد الحميد الخطابي» ومعه جماعة من مضر، لكنه لم يبقَ فيها أكثر من أربعة أشهر، فخَلَفَهُ الفضل بن يحيى البرمكي، الذي لم يوفّق أيضاً في إدارتها. فقد حدثت في عهده حروب وفتن إثر ظهور «أبي مسلم الشاري» الخارجي، واستشرى أمره بعد انتصارات عديدة على الجيوش التي أرسلها الفضل بن يحيى باستشارة الرشيد.

ولما استفحل أمر أبي مسلم الشاري، أرسل الرشيد إليه جيشين أحدهما بقيادة يزيد ابن مزيد الشيباني، والآخر بزعامة يحيى الحرشي، فانتصرا عليه، وقاتلا المتمردين حتى هدأت الاضطرابات وساد الأمن والاستقرار، ثم عادا إلى بغداد، فولّى الرشيد عليها

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٢٨

(٢) أنظر: اليعقوبي: ج ٢ ص ٥١٥، الطبري: ج ٣ ص ٦٤٧، ابن الأثير: ج٦ ص ١١١.

«موسى بن عيسى الهاشمي» فانتقضت عليه، فَعَزَلَهُ وولّى مكانه يحيى الحرشي، فوَضَعَ السيف في أهل البلاد حتى سكنت غائلتهم. ثم أرسل مكانه سعيد بن مسلم الباهلي، فبقي فيها زمناً حتى عادت الفتنة من جديد، وأخذت طوراً خطيراً على الشكل التالي:

كان بين الفضل بن يحيى البرمكي وبين (خاقان) ملك الخزر صلة حسنة، انتهت بأن خطب الفضل ابنته، فَحُمِلَتْ إليه عام (١٨٢ هـ - ٧٩٨ م) ونَزَلَتْ في طريقها بمدينة (برذع) وكان عاملاً عليها يومئذ، سعيد بن سلم، فماتت هناك بطريقة تدعو إلى الريبة، فرجَعَ من كان معها من الحاشية والجند إلى أبيها وأخبروه بأنها قُتِلَتْ غيلةً، فحَزَنَ وتجهَّزَ لقتال المسلمين، وفي العام التالي، خرج مع جيش الخزر من محل يدعى (باب الأبواب) وأوقع بمن صادفه من المسلمين وأهل الذمة، وقتل عدداً لا يُحصى منهم، وسَبَى أكثر من مائة ألف نسمة. وفتك بالناس فتكاً لم يسبق أن سُمِعَ بمثله، ثم زحف إلى أرمينية، ودخل عليها من جانب (الثلمة) فانْهَزَمَ سعيد بن سلم أمامه، فأرسَلَ إليه الرشيد جيشاً بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني، وجَمَعَ له أرمينية وأذربيجان، فقاتله يزيد قتالاً دامياً وهزمه إلى مقرِّه، واستعاد البلاد منه، وسدَّ تلك الثلمة التي دخل منها، وأعاد الأمن إلى نصابه، ثم قَفَلَ إلى بغداد(١).

ثم أرسل الرشيد بعده خزيمة بن خازم (للمرة الثانية) على أرمينية، فأخذهم بالعنف، فتمرَّدوا عليه وقاتلوه، فأمدَّه الرشيد بجيش أخمد ثورتهم. ثم وَلّى عليها «سليمان بن يزيد ابن الاصم» وكان ضعيفاً فلم يستطع إدارة البلاد فعَزَلَهُ وبَعَثَ «محمد بن زهير الضبيّ» فأحسن إدارتها، وكان آخر عامل عليها للرشيد.

في خراسان:

أما إقليم خراسان فكان من أخطر أقاليم الدولة على الإطلاق، لا لأنه مهّد للثورة العباسية وساعد على نجاحها فحسب، بل لأنه كان من أغنى الأقاليم ثقافة وأعرقها

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٤٨ - في رواية تقول إن سبب هذه الحروب وخروج الخزر من بلادهم هو أن سعيد بن سلم الباهلي قتل «المنجم السلمي» فدخل ابنه الخزر واستجاشهم على سعيد فقاتلوه... إلى آخر ذلك.

حضارة، وأكثرها طموحاً إلى إعادة أمجاده وحرياته، وقد لعب في تاريخ حياة هارون الرشيد أعظم الأدوار، فضلاً عن الظروف والصدف التي جعلته مكان مولده ومماته حتى مدفنه أيضاً.

كان العامل على هذا الإقليم في عهد الخليفة السابق موسى الهادي «الفضل بن سليمان الطوسي» وكان رجلاً حصيفاً متَّزِنَ الرأي، حسن التدبير والإدارة، لم ينغمر في الصراع السياسي الذي نشب بين الهادي وأخيه الرشيد على ولاية العهد، لكنه كان ميالاً إلى يحيى بن خالد، مؤيداً لسياسته في مساندة الرشيد ودعم حقِّه بولاية العهد. فلما تولّى الرشيد أبقاه في منصبه عاماً آخر، ثم استدعاه إلى بغداد وأعطاه خَتَمَ الخلافة الذي كان في يد «جعفر بن محمد بن الأشعث» بعد أن عيَّنه مكانه على خراسان وأمَرَهُ بالسفر إليها، فلمّا وصَلَها واستقامت أموره فيها، بعث ابنه «العبّاس بن جعفر بن الأشعث» على رأس جيش كبير لغزو بلاد الأفغان، فتوغَّل في أراضيها، وفَتَحَ المدن والقرى، وحصل على أموال، وثروة لا تُعَدُّ ولا تُحصى وأرسلها إلى بيت المال في بغداد. فاستحسن الرشيد عمله، وأراد إكرامه، فعيَّنه على خراسان مكان أبيه الذي استدعاه إلى بغداد ليوليه عملاً آخر.. وبَقِيَ العبّاس هذا والياً عليها حتى العام (١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م) محمود السِّيرة والإدارة. غير أن «الغطريف بن عطاء» خال الرشيد أراد هذه الولاية، فولاّه عليها وعَزَلَ العبّاس بن جعفر. لكن الغطريف لم يحسن إدارتها بحكم ضعفه وسخف تفكيره، فساءت الأحوال فيها وكَثُرَتِ الشكاوى عليه من قِبَلِ الخراسانيين، وعلى الرغم من ذلك، فإن الرشيد أبى أن يَعْزِلَه، فَنَشَبَتِ الاضطرابات والفِتَن، وتمرَّد عليه «حصين الخارجي» من موالي قيس، فاستولى على سجستان، ثم زحف يريد مقاتلة الغطريف. فكتب الرشيد إلى خاله يأمره بمقاتلة الحصين، فسيَّر الغطريف إليه «داود بن يزيد» على جيش من اثني عشر ألف مقاتل، فَهَزَمَهُ الحصين بستماية جندي، وراح يَعْبَثُ بأمن البلاد.

ووَصَلَتْ أخبار الهزيمة إلى الرشيد، فَغَضِبَ وعَزَلَ الغطريف، وبَعَثَ مكانه «حمزة بن مالك الخزاعي» عام (١٧٦ هـ ـ ٧٩٢ م) فقاتل الخوارج ولكنه لم يستطع إخضاعهم، فَعَزَلَهُ الرشيد وعيَّنَ مكانه الفضل بن يحيى البرمكي، وأضاف إليه الريَّ وسجستان، إلا أن الفضل لم يتوجَّه بنفسه إليها، بل بَقِيَ في بغداد وأرسل عنه «عمر بن شرحبيل» الذي استطاع إخماد تلك الفتنة.

وفي العام (١٧٨ هـ - ٧٩٤ م) توجَّهَ الفضل البرمكي إلى خراسان، وأقام فيها عاماً كاملاً، اتصل خلالها بِوُجَهَاء خراسان، ووزَّعَ عليهم الهدايا والمِنَحَ، وبنى بعض المساجد وشيَّد الرباطات، ثم أراد أن يغزو ما وراء النهرين، فخرج إليه مـــلك (أشروسنه) قرب (سمرقند)، وبعد قتال طويل، عُقِدَتْ بين الطرفين هدنة تقضي بعدم اعتداء أحدهما على بلاد الآخر.

ثم عاد الفضل إلى الري، وأرسل رئيس سلطته القائد «ابراهيم بن جبريل» غازياً إلى بلاد الأفغان، فدَخَلَها كما دَخَلَها العبّاس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ، وفَتَحَ كابُل، ووَضعَ فيها حامية لِمَنْعِ الأعداء من استرجاعها، بيد أن كتباً كانت تَردُ إلى الرشيد عن بعض أعمال الفضل هناك، لم تَسرِّه، فطَلَب من أبيه يحيى بن خالد أن يَرْشِدَه ففَعَل[1]

وكان أخطر ما صنعه الفضل بن يحيى هناك، أن ألَّفَ جيشاً عظيماً مـــن العجم، بلغ عدده خمسماية ألف مقاتل، ونَظَّمَهُم بأسمائهم ودفاترهم، وجَعَلَ ولاءهم له، وسمَّاهم «العبّاسية» وعيَّن لهم أرزاقاً يتقاضَوْنَها من بيت المال[2]. ثم عاد إلى العراق مصطَحِباً معه فرقة من جيشه الجديد، وعددها عشرون ألف جندي، فاستقبله الرشيد ووُجَهاء دولته، فوزَّع البرمكي الهدايا على المستقبلين من رجال الحاشية في بِدَرٍ مختومة على خمسماية ألف درهم، وألف ألف درهم أو يزيد، فألقى الشعراء قصائد الحمد والثناء عليه، ومدحوه بما لم يُمْدَحْ به الخليفة نفسُهُ[3].

وبَقِيَتْ خراسان خاضعة لولايته حتى العام (١٨٠ هـ - ٧٩٦ م). بعد ذلك، عزلهُ عنها وعيَّن على الريِّ «محمد بن يحيى بن الحارث»، وعلى طبرستان والرويان «عبد الله بن خازم» وولّى على خراسان وسجستان وما حولها جعفر بن يحيى البرمكي، ولكن لمّا أراد السفر إليها مَنَعَهُ الرشيد وعَزَلَهُ ولم يكن قد مضى على تعيينه أكثر من بضعة أيام، وجعـــل مكانه «عليّ بن عيسى بن ماهان» المعروف بعدائه للبرامكة.

---

(١) ابن خلّكان: ج ١ ص ١٠٥

(٢) سنأتي على ذكر هذا الجيش واهدافه في مكان آخر.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٦٣٢

وكان تعيينه هذا خلافاً لرغبة يحيى بن خالد، وعلى الرغم من معارضته ومعارضة أولاده جميعاً، وذلك لأسباب أغفلها المؤرخون، وسنتحدث عنها بإسهاب في مكان آخر[١]، فإن ابن ماهان سار إلى خراسان وأقام فيها مدة، اضطهد خلالها بعض شخصياتها وزعمائها من أعوان البرامكة، فضجّوا من إدارته، وكثُرَتِ الشكاوى عليه، وأظهر أبناء برمك للرشيد امتعاضهم من وجود هذا العامل على خراسان، لكن الرشيد لم يُصغِ إليهم، فنشبت بعض القلاقل والثورات.

وكان «حمزة بن أترك الخارجي» أول من تحرّك فيها بالقرب من مدينة (هراة) فقاتله عاملها فانتصر حمزة عليه، فأرسل إليه عليُّ بن عيسى بن ماهان ابنَه الحسين في عشرة آلاف مقاتل، لكنه لم يستطع مقاومته ولم يصمد أمامه فهرب، فأعاده أبوه، ثانية، بجيش آخر، مكّنه من أن يَهْزُمَ حمزة بعد أن قتل أصحابه، وأحرق الحسين جميع القرى التي ساعدت هذا الخارجي، وقتل من سكانها عشرات الألوف، لكنَّ حمزة لَمْلَمَ جموعه مرة أخرى، وهاجم عمّال عليّ بن عيسى، وجرت بين الطرفين حروب دامية انتصر في آخرها ابن ماهان، وأمن الناس. غير أن خارجياً آخر يدعى «وهيب بن عبد الله النسائي» ثار في مدينة (نسا) فسار إليه ابن ماهان بجيشه فقتله وشَرَّدَ جموعه، ودخل مدينة (مرو) وجعلها مقراً له[٢]. وبَقِيَ فيها حتى كانت ثورة «رافع بن الليث» التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

كانت الأحداث السياسية في خلافة الرشيد كثيرة ومتعاقبة ، بحيث لا تكاد تمر سنة دون أن يكون فيها حَدَث خطير أو ثورة جامحة مهدِّدة. وقد يكون هذا أمراً طبيعياً لأسباب كثيرة منها: سِعَةُ رقعة الدولة، وبُعْدُ الأقاليم النائية عن العاصمة، وبُطْءُ وسائل النقل في ذلك الزمن، واختلافُ عناصر السكان والشعوب المنضوية تحت راية الدولة، ووجودُ المذهب الخارجي وانتشارُه في كل مكان، والدعوةُ العَلَوِيَّة ضد نفوذ بني العبّاس، وطموحُ الفرس إلى إعادة استقلالهم، إلى آخر ما هنالك من عوامل القلق والانتفاضات.

ولم تكن هذه الحال حالَ عهد الرشيد فحسب، بل هي حال العهود التي سبقته أيضاً.

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٤٣

(٢) ابن الأثير: ج ٢ ص ١١٨.

وربما كانت الأحداث السياسية والتنقلات في أيام بني العبّاس أكثر مما كانت عليه في أيام بني أمية، لأن النظام الإداري المتبع في عهد الرشيد وأسلافه كان يضطر الخليفة إلى تبديل عمّال الأقاليم باستمرار قبل أن تتوطّدَ مراكزهم فيها فَتُحَدِّثَهم أنفسهم بالانفصال عن سلطان الخليفة. وكان في هذه الطريقة أخطاء بليغة، أهمها عدمُ استقرار الأحوال في تلك الأقطار، وحدوثُ البلبلة في السياسة والإدارة، واهتمامُ الولاة بجَمْعِ المال والإثراء، بَدَلَ التعمير والإصلاح ما داموا مهدَّدين بالتحويل والعَزْلِ بين الحين والحين.

وكذلك كانت الحال في المدن الكبيرة، فقد وجدنا في خلافة هارون الرشيد أن عدد الولاة الذين عُيِّنوا على مدينة الكوفة، كان أكثر من تسعة ولاة، وعلى البصرة خمسة عشر عاملاً، وعلى المدينة أحد عشر، وعلى مكة ستة عشر والياً، ومثل ذلك على الشام والموصل وغيرها.

وكان جُلُّ ولاة الأمصار والأقاليم يُختارون من أمراء بني العبّاس. وقد يكون لذلك أسباب أيضاً، منها: إبعادُ هؤلاء بين حين وآخر عن البلاط خوفاً من التكتل والتآمر، فيكون بذلك خطرهم أقل من خطر غيرهم إذا تباعدوا عن بعضهم وتوغّلوا في الأقطار. كما أنه كان على الرشيد إسكاتُهم، ومشاركتُهم في ملكِهِ، وفسحُ المجال لهم في الحكم وجَمْعِ المال والإثراءِ أيضاً، ولو كان هذا على حساب إدارة الأقاليم، وبذلك يستطيع كَسْبَ وُدِّهم، وفسح المجال أمامه في تدبير شؤون خلافته وجَعْلِها وراثية مستمرة بين أولاده. إلى جانب هذه الأحداث السياسية كلها التي جرت في دولة الرشيد، كانت هناك مشاكل أخرى، تَحْدُثُ بين الآونة والأخرى في عاصمة الخلافة، وحَوْلَ بلاط الرشيد نفسه.. وكان أهمها: ولاية العهد بين الأمين والمأمون، التي أقْلَقَتِ القصر ومَنْ حوله زمناً طويلاً.

مشكلة ولاية العهد

أخذ الرشيد، كما أسلفنا، البيعة بولاية العهد لابنــه «محمد بن زبيدة» ولقّبه بالأمين، عام (١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م) وقدّمه، مضطراً، على أخيه الأكبر «عبد الله بن مراجل» مؤملاً بأن يكبر الصغيران، ويظهر فضل أحدهما على الآخر فيختار الأصلح منهما للخلافة، فاختار لهما أحسنَ المعلّمين وأفضل المؤدِّبين، ووَضَعَ محمداً في حِجْرِ الفضل بن يحيى، وعبدالله في كَنَفِ جعفر.

ولِشدَّةِ حرصه على تأديبهما، كان يوصي أولئك المعلمين واحداً واحداً، ويُرْشِدُهم إلى اتِّباع الطريقة التي يرغبها هو في تعليمهما. فيقول لهم: «إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فَصَيِّرْ يدك عليه مبسوطة، وطاعتك واجبة وكُنْ له حيث وضعك أمير المؤمنين، إقرئْهُ القرآن، وعَرِّفْهُ الآثار، ورَوِّهُ الأشعار، وبصِّرْهُ مواقع الكلام وبَدْأَهُ، وامْنَعْهُ الضحك إلا في أوقاته، وخُذْهُ بتعظيم مشايخ بَني هاشم إذا دخلوا عليه، وارْفَعْ مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَنَّ بك ساعة إلا وانت مغتنم فيها فائدة تُفيدُهُ إياها، من غير تخرُّق به فتُميتَ ذهنه، ولا تُمْعِنْ في مسامحته لَيِسْتَحْلي الفراغ ويَأْلَفُهُ، وقوِّمْهُ ما استَطَعْتَ بالقرب والملاينة، فإن أباهما فبالشدة والغلظة»[١]

وكان يتعمد إرسالهما إلى كل ما يمكن أن يفيد منه الطفل بالسمع والنظر، فيبعثهما إلى المساجد حيث يُلقي أساتذة العلم في حلقاتهم المحاضرات والدروس والمواعظ على الناس. ويُحْضِرُ لهما أهل الكلام والنظر ليعلِّموهما ما يتفق والسنّ التي هما فيها[٢].

---

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٣٢١.

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥٠١.

ويَصْحَبُهما إلى ميادين الرياضة واللعب، ليشاهدا أبطال القوى والفروسية، ويُحْضِرُهُما سُوحَ العرضِ لمشاهدة الكتائب والجيوش وهي تُسْتَعْرَضُ بأسلحتها وخيولها أمام أميرالمؤمنين وعظماء الدولة.

وفي الوقت الذي كان فيه هذا الأب الحازم يعمل على إنشاء ولديه هذين كأحسن ما ينشأ عليه الرجال، ويختار لهما الطريق الأصلح، ليكونا قادِرَيْن على أداء الواجب الأكبر في المستقبل، كانت زبيدة، مدفوعة بعاطفة الأم تجاه وحيدها، تذلِّلُ لابنها الأمين وسائل الأنس، وتَمْنَعُ أساتذته ومؤدبيه من أن يزعجوه في الدرس والمطالعة، ويضيِّقوا عليه في التهذيب والتدريب والتثقيف، خوفاً من إجهاد فكره، وحرصاً على ألاّ يضيق صدره، فكانت ترسل إلى معلميه، وتوصيهم بألاّ يُرْهِقُوه، وتقول لهم: «حاجتي إليكم، أن تُرفقوا بمحمد، فإنه ثَمَرَةُ فؤادي، وقُرَّةُ عيني، وأنا أرِقُّ عليه رِقَّةً شديدة»[(١)].

فكان من جراء ذلك أن نشأ ابنها مدللاً، يستهويه اللعب والسمر، وينفر من كل ما يُرْهِقُ الفكر ويَكُدُّ الذهن، بعكس أخيه الذي شَبَّ على حب العلم، وتحلَّى بالصبر والجَلَدِ من أجل الفائدة الفكرية، واتَّصَفَ بالذكاء والحافظة القوية مع الاناة والحزم[(٢)].

وامتدت الأيام بالصبيَّين. وبدأ الرشيد يشعر شيئاً فشيئاً بنموٍّ الفارق بينهما كلما تقدما في السن وظهرا في المجتمع، وراح شعوره يزداد يقيناً بأن عبد الله أصلحُ للخلافة من أخيه الأمين الذي أضعفه دلال أمه وإشفاقها عليه، وربما كان يحسُّ في قرارة نفسه بندم يَخِزُهُ على ما فَرَطَ منه تجاه ولاية العهد، ومستقبل الخلافة[(٣)]، وإلى جانبه وزيره جعفر بن يحيى، الذي لم يترك فرصة تمرّ إلا اغتنمها للاشادة بذكاء عبد الله وكفاءته وحسن سيرته، حتى استطاع أن يبعث في نفس الرشيد رغبة في تدارك الأمر وإصلاح الخطأ الواقع.

ولكن ماذا في استطاعته أن يفعل؟! وزبيدة له بالمرصاد، وحولها عدد كبير من بني العبّاس يؤيِّدونها في ابنها، وهؤلاء الشعراء أبواق الدعاية قد ملأوا سمع الناس بِمَدْحِ

---

(١) الأخبار الطوال: ٣٨٣.

(٢) الأخبار الطوال: ٣٨٠.

(٣) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥٠١.

الأمين والثناء عليه ووَصْفِهِ بالفضائل والمكارم إرضاء لأمه وطمعاً بنوالها العظيم، حتى استقرَّ الرأي العام على أنه هو، وليس غيره، صاحب الخلافة بعد أبيه، وأيقن الرشيد بأن انتزاعها منه وإعطاءها لأخيه سيُحْدِثان مشاكل وصعوبات لها ذيول لا تُعْرَفُ نتائجها.

قيل إنه كاشف بعض خواصه بما يشعر، فتسرَّبَ الخبر إلى زبيدة، فجاءت تعاتبه وتلومُهُ على ما في نفسه من هذا الأمر حتى أزعجته، فقال لها: «وَيْحَكِ إن ابنك قد زيَّنه في عينك ما يزيِّن الولد في عين والديه، فاتقِ الله، فوالله إن ابنك لأحب إليَّ، ولكنها الخلافة لا تصلح إلا لِمْنَ كان لها أهلاً وبها مستحقاً، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق، ومأخوذون بهذا الأنام. فما أغنانا أن نلقى الله بِوِزْرِهِم، وننقلب إليه بإثمهم!!»[1] فأجابته بما لا يحب، وخرجت من عنده حانقة غاضبة، وهَجَرَتْهُ زمناً لا تدخل عليه، متظاهرة بالحزن وانحراف الصحة.

ولم يَقِفْ جعفر البرمكي أمام زبيدة مكتوف اليدين، وهو الذي يهمُّهُ تقديم عبد الله بن مراجل الفارسية، وقد تعب في تربيته وتهذيبه، والتأثير عليه حتى صار طَوْعَ يديه كما كان الرشيد طَوْعَ أبيه يحيى، فَرَاحَ يُحَرِّضُ الرشيد على إعطاء الحقِّ لصاحبه وللأصلح للخلافة، ويسعى ومن معه من صنائع آل برمك في الخفاء ليزيِّنوا له انتزاعها من الأمين باسم المصلحة العامة، ونشأ بين الطرفين صراع صامت عنيف أقَض مضجع الخليفة وسد عليه منافذ الرأي.

يقول الأصمعي: بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليل إذ لقيته قلقاً يقعد مرة ويضطجع أخرى، ويبكي، ثم يقول:

قَلَّدْ أُمور عِبَادِ اللهِ ذَائِقَةً ... مُوَحَّدَ الرَّاي لانِكْساً وَلاَ بَرِمَا

فلمّا سمعتُ ذلك علمتُ أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال للخادم: عليَّ بيحيى بن خالد، فما لبِثَ أن جاءه، فقال له: «إنك تَعْلَمُ كيف ارتَدَّ العرب في خلافة أبي بكر، وكيف سَلَّمَتِ الأمة لعمر بن الخطاب، ورَضِيَتْ بخلافته، فلمَّا صيَّرها شورى حَدَثَتِ الفتن ثم صارتْ إلى غير أهلها، وقد عُنِيتُ بتصحيح هذا العهد، وتصييره إلى من أرضى سيرته، لكنَّ بني هاشم

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٣٢٣

مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لِهَوَاه، والتصرُّف مع طَوِيَّتِهِ، والتبذير لما حَوَتْهُ يداه، وعبد الله مرضية طريقته موثوق به، فإنْ ملتُ إليه أسْخَطْتُ بني هاشم، وإن أفْرَدْتُ محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية، فأشِرْ عليَّ برأيك فإنك لطيف النظر».. ثم تحادثا طويلاً على انفراد وافترقا على أن يُعْقَدَ الأمر لعبد الله بعد الأمين[1].

ويبدو أن هوى يحيى بن خالد كان إلى جانب عبد الله، ولكنَّ الأمر دقيق حساس بالنسبة إليه، وليس من السهل إبداء الرأي فيه جهرة، فيبعث الخصومة مع زبيدة ومعظم الهاشميين إن لم يكن كلهم. لذا، كانت مناظرته مع الرشيد سرية وطويلة، قَلَّبا فيها الأمور على وجوهها، فلم يستطيعا إيجاد حلٍّ للأزمة، ولم يخرجا إلا بهذا الرأي الذي تنقصه الحكمة والسداد في إعطاء ولاية العهد لكلا الأخوين، وهو الرأي عينه، الذي اتَّبعه المهدي، فكان له ما كان من تلك النتائج السيئة التي ذكرناها.

والاغرب من هذا ما قيل عن الرشيد: بأنه استشار الفضل بن الربيع أيضاً في الأمر نفسه، فأشار عليه بأن يُوَلّي محمداً العهد، ويصيّر عبد الله من بعده، ويقسِّمَ الأموال والجنود بينهما، على أن يقيم محمد بدار الخلافة ويتولّى عبد الله خراسان[2].. ونحن نستبعد أن يكون هذا رأي رجل كالفضل بن الربيع، لأنه أضعف الآراء وأخطرها على سلامة الدولة ووحدتها، وليس ثمة شيء أقرب إلى تمزيق البلاد من أن يُقَسَّمَ النفوذ والسلاح بين ولِيَّيْ عهد متباغِضَيْنِ[3].

يبدو لنا من كل هذا أن الرشيد وقع في حيرة شديدة من أمره، وأنه استشار عدداً كبيراً من رجاله، فأشاروا عليه بآراء متنوعة، لا يخلو بعضها من غايات شخصية ترمي إلى التقرُّب من زبيدة بنت جعفر صاحبة النفوذ عند زوجها ومشيخة بني هاشم، أو إلى التزلُّف للوزير جعفر بن يحيى الذي بلغ عند الخليفة مكانة لم يَبْلُغْها وزير قبله.

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٣٢٣

(٢) الأخبار الطوال: ٣٨٤.

(٣) الأخبار الطوال: ٣٨٤ ـ وقد دلّت الحوادث فيما بعد على أن الفضل كان ضد هذه الفكرة.

وربما كان للرشيد بعض العذر في حَيْرَتِه قبل أن يستقر رأيه على أحد الأخوين، وهو بين ضغطين شديدين: ضغط الحقِّ الصريح لعبد الله بمساندة الوزير، ورغبة آل بيت الخلافة في تولية محمد الأمين، مع العلم أن كليهما حديث السن وما زال في الثالثة عشرة من عمره، والفارق بين سنيهما لم يكن يزيد على السبعة أشهر، وهي مدة قصيرة ليس لها أثر كبير في أعمار الرجال.

ومهما يكن من أمر، فقد كان واجباً على الرشيد، بعد تلك الحَيْرَة، أن يتَّجه إلى اختيار واحد من الاثنين، وإبعاد الآخر عن العهد فيقطع أمله، في سبيل وحدة الصفوف ومصلحة الدولة، ثم ينصرف إلى توجيه الابن المختار منهما وتربيته وتدريبه وإصلاح أخطائه إن كانت له أخطاء.. ولَكِنْ ما حَيَّرَ المؤرخين، هو تبنيه الرأي القائل بإعطاء ولاية العهد لكليهما، فكأنه نَسِيَ أو تناسى ما جرى في الماضي القريب، بين أبيه المهدي وعيسى بن موسى، وبالأمس، بين أخيه موسى الهادي وبينه هو نفسه. ولم يكن يدري بأنه، في عمله هذا، دوّن في سِجِلِّ القدر صحيفة حمراء دامية جَرَّتْ على البلاد كارثة موحشة بعد موته.

وفي شهر رجب من العام (١٨٢ هـ ـ آب ٧٩٨ م)، جمع الرشيد في «مصيف الرقَّة» مشيخة بني هاشم وكبار الدولة وقادتها، وأُجْرِيَتِ المراسيم في تجديد البيعة له بالخلافة، وبولاية العهد الأولى لمحمد الأمين، وبالثانية لعبد الله، ولقَّبَهُ بـ «المأمون» وولاَّهُ إدارة خراسان وما جاورها في شرقي الدولة، وكلَّفَ جعفر البرمكي القيام بإدارة شؤونه وأعماله ودواوينه [١].

ويبدو أن جو الحفل في هذه المرة لم يكن، من حيث الروعة والبذخ والأفراح، كما كان يوم أخذ البيعة لمحمد الأمين، وربما كان السبب في ذلك شعور الحاضرين بخطر ما يُقْدِمونَ عليه، وكلهم قد رأى، بالأمس، حدَّة الصراع ونتائجه المحزنة بين ولاة العهد حين كانوا يتنافسون على المُلْكِ [٢]. ولم يكن استياء الرأي العام من هذه النتيجة أقل من استياء المسؤولين، وقد قال أحد الشعراء:

---

(١) الجهشياري: ٢١٤.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٦٦.

أقــول لِغُمَّــةٍ فــي النفــسِ منّي ... ودمعُ العينِ يطّـــرِدُ اطّرادا
خـــذي للهـــولِ عدَّتَــه بحــزمٍ ... ستلقـي مـا سيَمنَعُكِ الرُقـــادا
فإنك إن بقيـــتِ لقيــتِ أمـــراً ... يطيـــلُ لكِ الكآبة والسُـهـــادا
رأى الملــكُ المهـــذَّبُ شــرَّ رأيٍ ... بقسمتِـــهِ الخِلافةَ والبِـــلادا
رأى مـــا لـــو تعقبـــهُ بعلـــمٍ ... لبيّض مـــن مفارقِهِ السَـــواد
أراد بــــه ليقطـــعَ عـــن بنيــهِ ... خلافَهُـــم ويبتذِلوا الـــوِدادا
فقـــد غرسَ العـــداوةَ غيـــرَ آلٍ ... وورثَ شمـــلَ ألفتِهِم بـــدادا
فويـــلٌ للرعيّــــةِ عـــن قليـــلٍ ... لقد أهدى لـها الكربَ الشِـــدادا
ستجــــري مـــن دمائِهِم بحورٌ ... زواخرُ لا يـــرَوْن لـهـا نَفــــادا
فـــوِزْرُ بلائِهِـــم أبداً عليهِـــم ... أغيّـــاً كان ذلك أم رَشــــادا[1]

والأغرب من كل ذلك، أن هذا الحل لم يُرضِ أحداً من المعسكَرَيْنِ، بل أغضب الطرفين، فَنَمَتِ الأحقاد والبغضاء، قبل كل شيء، بين الأخوين، وأسفَرَت عن خصومات شديدة بين زبيدة وجعفر بن يحيى ما لبثت أن تطورت إلى صراع صامت انقَسَمَ فيه البلاط إلى عربي وفارسي.

أما الرشيد فقد زَادَتْ هواجسه ومخاوفه على مستقبل الدولة بعد وفاته، وزاد في بواعثها أنه سَمِعَ يوماً بمهاترة جَرَتْ بين الأمين والمأمون، استعملا فيها التهديد وقارص الكلام وكل ما يدلّ على بغضاء ونفور مستحكم في نفسيهما، فساءه ذلك، وأكد على أن الخطر واقع غداً، من خلاف يَحْدُثُ بينهما لا محالة، وراح مغموماً يردِّدُ هذا البيت:

أهمُّ بأمرِ الحزمِ لو أستطيعهُ ... وقد حيلَ بينَ العيرِ والنَّزَوَانِ [2]

وفي رواية للأصمعي، قال: «دخلت على الرشيد، فأومأ إليَّ بالجلوس قريباً منه، فلمَّا خَلاَ المجلس نهضتُ، فقال: يا أصمعي ألا تحب أن ترى «محمداً وعبد الله»، قلت: بلى يا

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٧٦٦.

(٢) الأخبار الطوال: ٤٨٥.

أمير المؤمنين، فَدَعَا بهما فأقبلا وسلَّما عليه بالخلافة، فأومأ إليهما، وأجلس محمداً عن يمينه وعبد الله عن شماله. ثم أمَرَني بمطارحتهما، فكنتُ لا أُلقي عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا، فضمَّهما إلى صدره، وسَبَقَتْهُ عبرة حتى تحدَّرت دموعه، ثم أذِنَ لهما فخرجا، فالتَفَتَ إلي وقال: كيف بكم إذا ظَهَرَ تعاديهما وبدا تباغضهما، ووَقَعَ بأسُهُما بينهما، حتى تُسْفَكَ الدماء ويودُّ كثير من الأحياء أنهم كانوا موتى؟؟ قلت: يا أمير المؤمنين أهذا شيء قضى به المنجِّمون عند مولدهما، أو شيء آثرته العلماء في أمرهما؟؟ قال يبدو لي ذلك [1]». وقد قيل إنه سَمِعَ بوجود هذا الخلاف بينهما عن لسان عيسى بن جعفر العبّاسي [2].

وظلَّ الرشيد فريسة لهذه الوساوس، وليس في استطاعته ما يدفعها عنه، كما ليس في يده إصلاح ما فَسَدَ بعد أن انتهى الأمر وتَألَّبَ كل حزب حول صاحبه: حزب زبيدة ومؤازريها وحزب جعفر بن يحيى ومن حوله.. وفكر في الأمر، فاهتدى أخيراً إلى فكرة كتابة عهود ومواثيق بين الأخَوَيْنِ توضِحُ بالتفصيل حدود صلاحية كل منهما، وتبيِّنُ للناس غداً إذا اختلفا، أيُّهما الذي زاغ عما تعهَّدَ به صاحبه.. وأراد أن تكون هذه المواثيق محترمة ليس في صياغتها فحسب، بل في مكان كتابتها وتوقيعها أيضاً، فقرَّرَ أن يُجري ذلك في (الكعبة) بمكة أثناء موسم الحجّ حيث يجتمع المسلمون من كل مكان.

كان هذا في العام (١٨٦ هـ - ٨٠٢ م) فكَتَبَ وهو في مدينة (الرقَّة) إلى عمّاله وولاته في جميع الكور والمدن والأقاليم، يخبرهم أنه قاصد الحجّ وكاتب شروط ولاية العهد لكل من ولديه، الأمين والمأمون، ويطلبُ منهم أن يخبروا وجهاء الناس بذلك، ويشجعوهم على أن يوافوا أمير المؤمنين في مكة عند حلول الموسم القادم، وقبل أن يغادرُ الرقَّة، جَهَّزَ جيشاً بقيادة ابنه الصغير «القاسم» وجَعَلَ معه عبد الملك بن صالح العبّاسي، وأرسَلَهُ إلى مدينة (مَنْبِجْ) لحماية الثغور، تحسّباً منه أن يغتنم الروم انشغاله في المسألة، فَيُهاجِموا الحدود الإسلامية هناك [3].

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٨٤.

(٢) كتاب الأصمعي: ١٨٧.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٦٥١

وعيَّنَ على مدينة الرقَّة من رجاله «إبراهيم بن عثمان بن نهيك» ثم خَرَجَ في شهر رمضان قاصداً الحجاز، وفي موكبه الأمين والمأمون ووزراء الدولة من آل برمك، وقواد الجيوش. والتَحَقَ به من بغداد من كان فيها من رجال الدولة وأعيان العاصمة، وكل من له قَدْرٌ وذِكْرٌ، وجدَ في سَيْرِهِ دون أن يَدْخُلَ بغداد حتى وافى المدينة المنوَّرة، فأقام بها أياماً، وَزَّع فيها ثلاث أعطيات باسمه وباسْمَيْ وليَّيْ عهده، وفَرَّقَ في الناس أموالاً قُدِّرَتْ بألف ألف دينار.

ولمّا انتهى الجميع من حجِّهم، دَخَلَ بهم حرم الكعبة، فأخذوا أماكنهم فيه، ثم دعا محمداً، الأمين، أمام الحاضرين وكان في السادسة عشرة من عمره وهو «أبيض البشرة، طويل القامة، جميل الصورة، صغير العينين، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين»[١] وأَمْلَى عليه كتاب شروط عهده فخطَّهُ بيده، وهذا بعضه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون في صحة من بدنه وعقله وجواز من أمره.

إن أمير المؤمنين هارون ولاَّني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب المسلمين جميعاً، ووَلّى اخي عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ووَلاَّه خراسان بثغورها وكورها وخراجها وطرازها وبريدها وصدقاتها وعشرها وعشورها وجميع أعمالها في حياته وبعد موته.. وشرطْتُ لعبد الله، أخي، على الوفاء لِما جَعَلَ له هارون أمير المؤمنين من البيعة والعهد والولاية، والخلافة وأمور المسلمين بعدي، وتسليم ذلك له.. فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله أخي لا أنقصُهُ صغيراً ولا كبيراً من ماله ولا ولايته.. ولا أعْزِلُهُ عن شيء منها ولا أستبدِلُ به غيره ولا أخلعُهُ ولا أقدِّمُ عليه في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً.. وإن أراد أحد من الناس شراً أو مكروهاً أو خلعاً أو محاربة أن أنصُرَهُ وأحوطَهُ وأدفَعَ عنه كما أدفعُ عن نفسي.. فإن أنا نقضتُ شيئاً مما شَرَطْتُ لهارون وعبد الله أو.. فَبَرِئْتُ من الله ومن ولايته ومن دينه ومن...»

ثم وقَّعَ محمد الأمين الكتاب وأرَّخَهُ بتاريخ ذلك اليوم المصادف في السادس من

(١) الطبري: ج ٤ ص ٢٠٩.

المحرّم عام (١٨٧ هـ - يناير ٨٠٣ م) وشَهِدَ على ذلك واحد وثلاثون شاهداً من الهاشميين والوزراء والقواد والحجّاب، ووقّعوا على العهد بأيديهم [١].

ثم دَعا الرشيد ابنه الثاني عبد الله المأمون، فجاء وهو ابن ستة عشر عاماً أيضاً وبضعة أشهر «أبيض البشرة، تعلو لونه صفرة يسيرة، ربع القامة، حسن الوجه، ضيِّق الجبين، على خدّه خال.. وقيل إن ساقيه من سائر جسده صفراوان كأنهما طُلِيَتا بالزعفران» [٢] وأملى عليه كتاب الشرط فَدَوَّنَه بيده، وهذا بعضه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين في صحةٍ من عقلِهِ وجوازٍ من أمره وصِدْقِ نيتِهِ فيما كَتَبَ في كتابه هذا، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيتِهِ وجماعة المسلمين.

إن أمير المؤمنين.. ولاّني العهد والخلافة وجَمَعَ أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون أمير المؤمنين.. وولاّني في حياته وبعد موته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها من الصدقات والعشر والعشور والبريد والطروز وغير ذلك، واشتَرَطَ لي على محمد بن هارون أمير المؤمنين، الوفاء بما عَقَدَ لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها لا يعرض لي في شيء مما أَقْطَعَني أمير المؤمنين أو ابتاع لي من الضياع والعقد والدور والرباع، أو ابتَعْتُ لنفسي من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب.. وجعلتُ له على نفسي أن أسْمَعَ لمحمد بن هارون أمير المؤمنين وأطيعَهُ ولا أعصيه، وأنصَحَهُ ولا أغشُّه وأُوفي ببيعته وولايته ولا أغدر به ولا أنكُث.. فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند وكَتَبَ إليَّ يأمرني بإشخاصهم إليه أو إلى ناحية من النواحي أو عدوّ من أعدائه.. أن أُنَفِّذَ أمره ولا أخالِفهُ ولا أقصر في شيء كَتَب به إلي.. فإن أنا نَقَضْتُ شيئاً مما شَرَطْتُ وسَمَّيْتُ في

(١) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥٠٢.

(٢) تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ١٨٤.

كتابي هذا أو غَيَّرْتُ أو بَدَّلْتُ، بَرِئْتُ من الله ومن ولايته ومـن دينه ومن..»[1] ووقَّعَ عبد الله المأمون على الكتاب وشهد عليه بذلك الشهود الذين شهدوا لمحمد الأمين في كتابه.

وكان كلما انتهى أحد من هذين الأخوين من عهده، وشهادة الشهود، حَلَفَ لأخيه أمام الحاضرين.. حتى إذا تمت عملية كتابة العهود والإيمان داخل الكعبة، أمر الرشيد القضاة الحاضرين أن يُعْلِموا جميع من حَضَرَ موسم الحجّ ووفود الأمصار بما جرى من هذا الأمر... فقرأ هؤلاء الكتب على الناس، وطلبوا منهم إخبار إخوانهم وأهل بلدانهم[2]. ثم أمر أن يُعَلِّقَ حَجَبَةُ الكعبة هذين العهدين بنسختيهما الأصليتين في صدر الحرم، ففعلوا.. وقيل إن أحد الكتابين حين رفع، وقع قبل تعليقه، فتشاءَمَ من حضر ذلك[3]. وفي اليوم الثاني، دعَا الرشيد كاتبه «اسماعيل بن صبيح» وتَلَى عليه صورة كتاب بيعتِه، وذكر فيه كيف جَرَتِ الكتابة للعهدين وشروطها وأرسَلَهُ إلى جميع العمال في أنحاء الدولة، يأمرهم بنشر تلك الشروط على الناس وتسجيلها في الدواوين[4].

والحق، أن مشكلة ولاية العهد لم تُحَلّ بهذه الطريقة، وربما ازدادت تعقيداً وإشكالاً، وخلقت الانقسام قبل وقوع الخلاف، كما أنها لم تُرْضِ رؤساء الطرفين.. فقد قيل إن جعفر ابن يحيى تقرَّب من محمد الأمين في داخل الكعبة، وسَحَبَهُ من ردائه، وهو يقسم اليمين، ثم قال له: قُلْ: خَذَلَني الله إن خَذَلْتهُ فقال ذلك، ولكنَّ جعفراً كَرَّرَها عليه ثلاثاً مما سَبَّبَ تذمُّر الرشيد نفسه [5]

ويقول المسعودي: دَخَلَتْ زبيدة على الرشيد بعد كتابة الشروط على الأخوين وعودتِه من حجِّه، وقالت له: «ما أنصفت ابنك، محمداً، حيث ولَّيْتَهُ العراق وأعرَيْتَهُ من العدَد والقواد، فصيَّرْتَ ذلك إلى عبد الله دونه» فقال لها غاضباً: «وما أنت وتمييز الأعمال، واختيار الرجال؟؟ إنني ولَّيْتُ ابنَكِ السِّلْمَ وعبدَالله الحربَ، وصاحب الحرب أحوج إلى

(١) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥٠٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٠٧.

(٣) المسعودي: ج ٦ ص ٣٢٦

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٦٣

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٥ ـ الجهشياري: ٢٢٢.

الرجال من صاحب السِّلْمِ، ومع هذا فإنّا نَتَخَوَّفُ ابنك على عبد الله ولا نَتَخَوَّفُ عبد الله على ابنك»[١]

أما سواد الشعب فَلَمْ يَكْتُمْ مخاوفه من النتيجة، وقد تَحَدَّثَ بذلك في مجالسِهِ وعلى ألسنةِ شعرائِهِ ومفكّريهِ.. ويبدو أن الرشيد نفسه أحسَّ أخيراً بارتكاب تلك الخطيئة، ويئس من تدارك الأمر، كما قلنا، فأعطى ولاية العهد الثالثة لابنِهِ «القاسم» أيضاً بعد المأمون[٢]، وسنأتي على ذكره في حينه.

ومهما يكن من أمر، فإن مشكلة ولاية العهد هذه لم تكن، في الحقيقة، ولاية مستقلة بنفسها، ولا بسيطة بحدٍّ ذاتها، ولكنها كانت أزمة كبرى، جرّت وراءها أزمات، ولعِبَتْ أخطر الأدوار بين الرشيد نفسه وبين وزرائه البرامكة في أواخر عهدهم.

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٣١٧.

(٢) المسعودي: ج ٦ ص ٣٢٨.

القسم الثامن

طغيان البرامكة ومصرعهم

- وزراء في حالات الملوك
- أعذار الرشيد وأخطاؤه
- خصوم وصراع
- أخطاء بعض المؤرخين
  - قصة العبّاسة الموضوعة
  - قصة يحيى بن عبد الله العَلَوِي
- السبب الرئيسي للنكبة
  - جيش العبّاسية ، الفارسي
  - فرقة الكرمينية ببغداد
  - حرس القصر من الفرس
- الرشيد يحطِّم قيوده
- الرشيد والبرامكة وجهاً لوجه
- نكبة البرامكة
- ذيول وتصفية

وزراء في حالات الملوك

لم يَمْضِ زمن طويل على استلام يحيى بن خالد خاتم الوزارة من يد الرشيد، يوم بيعته، حتى بدأ يفكر في ضمان سلامته وسلامة أسرته، وفي تجنب النتائج الوخيمة التي آل إليها مصير بعض من سبقه من وزراء بني العبّاس، أمثال أبي سلمة الخلال، وأبي أيوب المورياني، ويعقوب بن داود، وغيرهم.. فقرَّر أخذ عهد وميثاق غليظ من الرشيد، يكتبه بخطِّه ويحلفُ فيه: «بأن لا يبدَأهُ بسوء في شخصه، ولا في شيء من حاله وماله». فأجابه إلى ذلك، وأشْهدَ على نفسه مشيخة بني هاشم وخاص حاشيته[1].

ومَضَتِ الأعوام الأولى على خير ما يتمنّاه يحيى ويؤمِّلُهُ، قابضاً بيديه على مقاليد الأمور، متمتعاً بتلك السلطة المطلقة، تاركاً ولديه، الفضل وجعفراً، مقيمين بجانب الرشيد في رحبة من رحاب قصر الخلد، يرافقانه في حِلِّه وتَرْحاله، ويشاركانه في مسراته وأحزانه، ولا يفارقانه في ساعات فراغه[2]، حتى تمكّنتِ الصلة الروحية فيما بينهم على مرِّ الأيام، بحكم التقارب في السن، والانسجام في الأذواق، والأخوة بالرضاعة، رافلين في إهاب الفتوَّة والشباب وعزَّة السلطان، منطلقين في جوٍّ من الأمن والدِّعة.

وكان الفضل بن يحيى قريب الشبه من أبيه، عقلاً واتِّزاناً، وسخاء يد، وحباً للأدب والأدباء، وكسباً للحمد والثناء، بالثمن الغالي والعطاء الجزيل. متحلِّياً بصفاء الفكر والتعفُّف عما يُحدِثُ سوء القِيلَة أو يَزري بكرامة النفس.. ولكنّه كان تيَّاهاً شديد الكِبْرِ إلى حدٍّ قد تنْفرُ منه النفوس المتحررة، إذا طالتْ عشرتها له.

---

(١) الجهشياري: ٢٤٠.

(٢) المعارف: ١٣٠.

ولم يكن أخوه جعفر على شاكلته في كل شيء، فقد عرف بحدة الذكاء، والمرح والانطلاق، وصراحة الرأي، مع اندفاع عاطفي حادّ، وجرأة فائقة، تزيِّنُهُ بلاغة في الخطابة والكتابة والتوقيع على الرسائل، كما قال فيه أحدهم: «لو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة، لاسْتغنى جعفر عنها، كما استغنى عن الإعادة والتكرار»[1].

أحبَّهما الرشيد، وقرَّبهما منه، وأنِس بصحبتهما زمناً، ثم استوزر الفضل، وأعطاه الخاتم الذي في يد أبيه، وأطلق يده في شؤون الدولة، واحتفظ ليحيى بحقٍّ الاستشارة في كل شيء، والإشراف على تصرفات ابنه، حتى أصبحت مكانته فوق منصب الوزارة ودون منزلة الخلافة، شأنه شأن «الملك غير المتوَّج»، وقَلَّدَ، في الوقت نفسه، جعفراً بريد الآفاق كلّها، والنظر في ضرب العملة والتطريز في الكور والأقاليم كافة[2].

ثم رغب في استيزار جعفر، فاستشار يحيى بذلك، وقال له كلمته المشهورة: «أريد تحويل الخاتم من يدي اليمنى إلى اليد اليسرى» فلمْ يعارض يحيى، بل سُرَّ لذلك، وأشار إلى الفضل بأن يعطي خاتم الوزارة إلى أخيه، على أن يحتفظ هو بوزارة التنفيذ، ويبقى، إلى جانب الرشيد، مشرفاً على تهذيب ابنه محمد الأمين، كما يشرف جعفر على تربية عبدالله المأمون.

ثم عاد الرشيد، ثانية، فأرجع الخاتم إلى يحيى، عام «١٧٦هـ ــ ٧٩٣م»، وولّى جعفراً على النصف الغربي من دولته كلها، الذي يبدأ من «الأنبار» حتى شمال إفريقيا، وأشارَ عليه بأن يمْكُثَ في بغداد مستعيناً بعمَّاله على إدارة تلك الأقاليم.. وقلَّد الفضل، عام «١٧٨هـ ـ ٧٩٥م» إمارة الشرق بأسره، فشخِص هذا إلى عمله، وجعل مقرَّهُ في خراسان، فأصلح وعمّر، وقام بتصريف الأمور على الشكل الذي سبق لنا أن أوضحناه. ويبدو أن التشابه في الأخلاق، والتقارب في المزاج والأذواق بين الرشيد وجعفر بن يحيى، قرَّبا بين روحيهما، وشدّا قلوبهما برباط وثيق من الصداقة والألفة أكثر مما هو مع الفضل. فكان من جراء ذلك، أن عزم على إعطاء وزارة التفويض نهائياً وأبداً إلى جعفر، مع احتفاظه لأبيه وأخيه بمكانتهما اللائقة عنده.

(١) الجهشياري: ٢٠٤

(٢) الجهشياري: ٢٠٤.

ثم غالى في إكرامه وتقريبه، وصار يناديه، بـ«أخي جعفر». كما أمر بأن يُقْرَنَ اسماهما معاً على وجوه الدنانير التي ضُرِبتْ فيما بعد، ورَفع مجلسه إلى جانبه على سرير الخلافة، فوق مراتب بني العبّاس، ما جعل الناس يُطلِقون عليه اسم «السلطان جعفر»(١).. وقيل: إنه اتخذ ثوباً عريضاً، له زِيقان، يلبسه وإياه في مجلس سمره، لكي لا يُرى هنالك فرق بينهما. وقد قال في هذا أحد الشعراء:

قدْ تقطعُ الرَّحمَ القريبَ وتكفرُ الـ ... نُعمَى ولا كتقـاربِ القلبيـنِ

يُدني الهوَى هذا ويُدني ذا الهوَى ... فإذا هما نفسٌ تَرى نفسينِ (٢)

ونحن وإن كنا نشكُّ في صِحَّة هذه الرواية الأخيرة، ونُجِلُّ الرشيد عن مثل هذه التصرفات الصبيانية، فإننا نعتقد بأنه أسرف في تقريب هذا البرمكي، وغالى في تدليله، وإطلاق يده، حتى وجد المجال الواسع في التصرف، لا بشؤون البلاد فحسب، بل في ما يتعلق حتى بشؤونه الخاصة أيضاً، وربما تعدّى هذا إلى أن صار يمارس جانباً من سيادته وحقِّه الشرعي في أموال الرعية وأرواحها.

رُوِيَ: أن جعفراً هذا كان يوماً في مجلس شرابه، وعنده الندماء والمغنّون، فدخل عليه فجأة «عبد الملك بن صالح الهاشمي»، ولم يكن يحضر مثل هذه المجالس، فرحَّب به جعفر، وأقبل عليه يُحدِّثُهُ، ثم سألهُ عن سبب زيارته، فقال: إن أمير المؤمنين واجِدٌ عليّ، وأريد أن تترضّاه، قال جعفر، قد رَضي عنك أمير المؤمنين. قال: وعليّ دين فادح، قال: وهذه أربعة آلاف ألف درهم، تُحملُ إليك غداً من مال أمير المؤمنين، لأن قدْرك أجَلُّ من أن يصِلهُ مثلي، قال: وابني، أريد أن يُنوِّهَ أمير المؤمنين باسمه، قال: قد ولّاه أمير المؤمنين بلاد مصر، وزوَّجه ابنته «عالية» وأمهرها من عنده ألفي ألف درهم.

فلمّا كان الغد بكَّر جعفر إلى دار الرشيد، وحدَّثه بما جرى، فدَعَا الرشيد بأبي يوسف القاضي وجماعة من الهاشميين والفقهاء، وأحضر عبد الملك وابنه، وقال له: إني كنت واجِداً عليك وقد رَضِيتُ عنك، وأمرْتُ لك بأربعة آلاف ألف درهم، فاقبضها من جعفر بن

(١) الأغاني: ج ٤ ص ٣٩

(٢) الأغاني: ج ١٧ ص ٢٦.

يحيى.. ثم التفت إلى من حوله، وقال لهم، اشهدوا، أني قد زوَّجتُ بنتي «عالية» إلى ابراهيم ابن عبد الملك هذا، وأشار إليه، وأمهرتها عنه ألفي ألف درهم... وولَّيتُه مصر[1].

وأغرب من هذا ما رواه الجهشياري في حديث طويل، ملخَّصه أن جعفر بن يحيى كان في الرقة، وهو يأمر وينهى، فدخل عليه صاحب الشرطة يقود رجلاً من أهل الذمة، وقال له: قد أحضرتُ الرجل الذي أمرتني بإحضاره، وهذا هو. فالتفت إليه جعفر وقال: أأنت الحرباني؟؟ قال: نعم. قال: الرُقعة التي رفعتها رُقعتك؟؟ قال: نعم. قال: وما فيها عنك، وأنت تقوله؟؟ قال: نعم. فأطرق جعفر ملياً، ثم قال لصاحب الشرطة: «خذه إليك، فإن أمير المؤمنين أمرك بقتله». فارتاع من كان حاضراً في المجلس، ولم يعرفوا الرجل، ولا الذي في رُقعته.. فأخذه صاحب الشرطة، وقَتَلَه ثم صَلَبه على عمود في ناحية الرقة.. وفي الرواية نفسها ما يفيد بأن الرشيد لم يأمر بقتله، ولم يعلم بالحادث إلا بعد وقوعه، فوقر ذلك في نفسه[2].

ولم تكن تصرفات الفضل بن يحيى دون تصرفات أخيه، وأكثر ما عُرف عنه تجرُّؤه على تبذير أموال الدولة. فكان إذا وُلِّي على ناحية ما، بدَّد خراجها كأنه ملك له، وإذا أُرسل في مهمة غَرفَ من بيت المال، نفقة له، كأنه يغرف من بحر، وبدون حساب.. وقيل إنه عاد من خراسان حين تولّيه على الجانب الشرقي من الدولة، فاستقبله الرشيد خارج بغداد، وأمر الشعراء بِمدحه، فصارَ يُقدِّم الهدايا للمستقبلين بمئات الآلاف وبالملايين من الدراهم، وكلها من بيت مال المسلمين.. وآخر ما كان من أمره، أنه وهب رئيس شرطته، «ابراهيم بن جبريل» خراج سجستان بأجمعه، وقدْرُه أربعة آلاف ألف درهم. فلمّا تلكَّأ ابراهيم عن قبوله، قال له الفضل: «أمَا لك بيت يسعهُ؟؟»[3]. هذا عدا تصرُّفات أخرى كانت أشدَّ خطراً منها، سنأتي على ذكرها في مكان آخر.

وبينما كان هؤلاء البرامكة الثلاثة يتداولون خاتم الوزارة بينهم، ويتناوبون إدارة

---

(١) الأغاني: ج ٥ ص ١١٨ـ الجهشياري: ٢١٢.

(٢) الجهشياري: ٢٣٨.

(٣) الجهشياري: ١٩٢.

شؤون الدولة، ويتقاسمونها كما يريدون، كان بقية آل برمك ـ وكان عددهم يومئذ نحو خمسة وعشرين رجلاً ـ يتقلّبون في المناصب الكبيرة الأخرى، فمنهم الحاجب والعامل والقائد، وكلهم يعملون على اصطناع الرجال، وكسب قلوب الناس، ببذل المال وتوزيع الأعمال، وبفضل ما أوتوا من لباقة وذكاء ولين العريكة، كثر أعوانهم وصنائعهم والمنسوبون إليهم، وتوغّل نفوذهم في أعماق الدولة، وذاعتْ شهرتهم في كل مكان، فقيل: «إن في دولة الرشيد دولة أخرى، ملوكها البرامكة»(١).

ولم يُطْلِقِ الناس هذه الكلمة جُزافاً ولا اتهاماً، ولكنها قيلت وصفاً مقتضباً جداً لتلك التصرفات الشائعة التي تواترت فيها الأخبار وأجمع عليها المؤرخون، وفي مقدمتها: الإثراء الفاحش على حساب بيت المال، واستغلال النفوذ لِجرِّ المغانم الخاصة، واحتكار مناصب الدولة للصنائع والمحسوبين، والإفراط بالدعاوة لأنفسهم.. ونحوها مما يهمُّنا توضيحه:

***

كانت أسرة يحيى بن خالد، قبل تولّيه الوزارة في عهد الرشيد، وسطاً أو دون الوسط في الثراء والغنى.. وقد رأينا في خلافة أبي جعفر المنصور، كيف تصرَّفَ خالد بن برمك بأموال ولايته على طبرستان والريّ ودنباوند، وكيف حاسبه الخليفة، وأدانَهُ بثلاثة آلاف ألف درهم، وهدَّده بالقتل إن لم يدفعها خلال ثلاثة أيام. ولمّا لم يستطع خالد دفعها من ماله الخاص، استعان بأصحابه الأغنياء، فأمدّوه ببعضها، وأمدَّتْه الخيزران أم الرشيد بِقِسْمٍ كبير منها. ثم توسَّط له المهدي عند ابيه، فعفاه من الباقي(٢).

ولم يكد يحيى بن خالد وولداه يتداولون خاتم الوزارة عند الرشيد، ويتناوبون إدارة الدولة، والإشراف على بيت مال المسلمين، وحساباته من دخْلٍ وخرْجٍ، حتى رأيناهم، بعد فترة قصيرة من ذلك، أغنى أغنياء الدولة على الإطلاق، وأغنى من الخليفة نفسه: فملكوا من القرى والبساتين والمستغلات ما لا يُحصى له عدٌّ، ولا يُعرف له ثمن،

---

(١) الأغاني: ج ٤ ص ٣٩

(٢) ابن الأثير: ج ٦ ص ٨.

وأصبح لهم في كل زاوية قرية عامرة، وعلى كل جدول بستان مثمر، وفي كل مدينة أو قصبــة ملك ثمين.. وبلغ ريعهم السنوي الملايين من الدنانير[1]. ناهيك عما كان في أيديهم من تحف نادرة وجواهر مكنونة، في قصور ضخمة، كقصر جعفر في سويقته، الذي بناه بعشرين ألف ألف درهم عدا ما صرف عليه من زينة وأثاث وحدائق غنَّاء[2]... كل هذا، ولم يَمْضِ بين العهد الذي عَجَزَ فيه خالد بن برمك عن سدً ديْنِهِ البسيط، وبين هذه الثروة الخيالية سوى بضع سنوات، لم تَبْلُغْ في عدِّها العشرين.

من أين جاء القوم إذن بهذا الغنى الفاحش؟؟ وكيف اجتمع لهم في هذه الفترة القصيرة، ولم يشتغل أحد منهم خلالها بتجارة واسعة النطاق؟؟ كما لا يمكن اعتبار تضخُّم هذا المال ناتجاً عن الرواتب التي يتقاضَوْنَها من خزينة الدولة، أو الهدايا التي كان يمنحُها لهم الخلفاء في المناسبات!!.. إنها، لاشكَّ، نتيجة استغلال للنفوذ السياسي، والتصرُّف بأموال الدولة تحت ستار المصلحة العامة، يوم كان الرشيد في إغضاءٍ وتراخٍ عن تصرُّفاتهم.

وإذا قيل: بأنه كان للدولة، في عهدهم، دواوين وبيوت أموال، وفيها مستخدمون ولها دفاتر وحسابات تُسجِّلُ الصادر منها والوارد إليها، نقول: بأن تلك الحسابات كانت على شكل بدائي لا يتعدَّى الدفاتر البسيطة، وكان البرامكة، وحدهم، مرجع تلك الحسابات ومراقبتها، وعلى أيديهم صرفها، ولم نسمعْ بأن الرشيد حاسبَهُم يوماً ما، أو سأل غيرهم عن تصرفاتهم ليكون على علم بما يصنعون.. ثم إن الذي يلتفِتُ اليوم قليلاً إلى سوء تصرُّفات بعض المسؤولين في الدول الحديثة التي لم تنتظِمْ حساباتها ومراقبتها بدقَّة، ويرى آثار غناهم على حساب دولتهم، يستطيعُ تقدير سهولة تلاعب البرامكة ببيوت الأموال في ذلك العهد البدائي القديم. هذا، عدا النصوص التاريخية التي تُؤَيِّدُ استبدادهم بأموال الدولة، وتصرُّفهم فيها كما يشتهون.

***

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٢٢١.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٣٤

وكان احتكارهم مناصب الدولة أيضاً ظاهراً في إدارتهم.. فقد كانوا يُقدِّمونها لأعوانهم وصنائعهم ومن يلتفُّ حولهم ويلوذُ بهم، ويُبْعدونها عن خصومهم وكل من لا يأتمرُهُم ولا يكترث لنفوذهم.. وقد اتَّبع يحيى هذه الطريقة منذ تولّيه الوزارة، وحذا ولداه حذوه فيما بعد، فنجحوا فيه، واتَّخذُوه دستوراً لهم، حتى بَلَغَ الأمر بهم إلى أن صاروا يتردَّدون أحياناً في قبول تعيين من يختاره الرشيد لعمل من الأعمال إذا لم يكن من حزبهم وشيعتهم.. فملأوا جهاز الحكم بالخاضعين لسلطانهم.

وكان الرشيد، خلال فترة ثقته بهم، لا يتدخَّل كثيراً في تعيين صغار المستخدمين، تاركاً ذلك لمشيئتهم. ولم يعبأْ إلا باختيار العمال على الأقاليم، لِما كان لمراكزهم من صلةٍ مباشرة في سياسة الدولة العُليا، ومع ذلك، فإنه لم يكن يخرجُ عن استشارتهم في الاختيار، ولا يسيرُ فيه على خلاف رغباتهم، وإن فعل عارضوه بأساليبهم المقنعة، وأرجعوه إلى ما يريدون، وقلّما أصرَّ على رأيه تجاه معارضتهم، لِحِفْظِ الوئام بينه وبينهم.. إلا في تعيين الهاشميين على الأمصار، فإنهم كانوا يتساهلون معه، ويحاولون إفهامه بأنهم يجلّون صِلَتَهُ بآل بيته، ويتظاهرون بأنهم أصغر من أن يعارضوا في أمورهم، ثم يفهمونه، بِطرفٍ خفيٍّ، خطورة ذلك التعيين، إذا كان الأمير المختار من غير مؤازريهم، وإلا حمدوا حسن رأيه، وأسرعوا بإخبار الأمير نفسه، بأنهم هم الذين رشّحوه لدى الرشيد، لِيكْسبوا صداقته، فيكون عوناً لهم عند الحاجة في جوِّ الأسرة الهاشمية

وبفضل أساليبهم هذه، استمالوا جانباً كبيراً من العباسيين نحوهم، وعظمتْ مكانتهم بين رجال الدولة، وعرف الناس بأنهم سادة الموقف، والقابضون على زِمامَيّ الفوز والحرمان، فانقادتْ لهم الأعِنَّةُ، وتكدَّستْ على أبوابهم المواكب، وأصبحت قصورهم كعبة المحتاجين والطامعين في المناصب. وبقيتْ ساحات أبواب قصر الخلد خالية إلا من مواكب الزوّار من حاشية الرشيد، في فترات متقطعة[1].

***

والذي لا يمكننا نكرانه، هو أن البرامكة كانوا أجواداً كرماء، وكانت لهم في ذلك

---

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٢٠٧.

شُهرة، لقد كانت عطاياهم جسيمة، فشملتِ الخاص والعام، وكانت السرَّ الأكبر في رفع مكانتهم واتِّساع شهرتهم بين الناس حتى زاحموا الخليفة نفسه بِسمُوِّ منزلته، وجلال قدره(١).

وقيل: إن الشاعر مروان بن أبي حفصة، شكا يوماً تغيُّر الرشيد عليه، وذكر خدماته له وما نظم فيه من غرر الشعر، فقالوا له: أتَشْكوهُ بعد أن أعطاك فأغناك؟؟! قال: أوَ تعجبون من ذلك؟؟ هذا «أبان الأحقي» شاعر البرامكة، أخذ منهم بقصيدة واحدة مثل ما أخذت من الرشيد في دهري كله، سوى ما أخذ منهم بعدها(٢).

مَنْ يتعقَّبْ خطوات البرامكة في بذلهم وعطائهم، يجدهُم من أمهر الناس في اختيار مواضع كرمهم وإحسانهم.. ويجدْ أسخى ما تكون أيديهم على أناس يُقَدِّرون الاحسان ويتحدَّثون به فينْشُرونَه بألسنتهم وبأشعارهم، أو على قوم نكبوا في أمر من الأمور تحدَّثتْ ألسنة العامة به، أو على هاشمي لِحِقَهُ دينٌ فعجز عن تسديده، أو على سكان الحرمين وفقراء الحجّ، ليعودوا إلى بلادهم فيتحدَّثوا بما فاض عليهم من الكرم البرمكي:

وزعموا أن أحد أمراء بني العبّاس استولى على قرية عظيمة تدعى «الرغاب» فتحاكَمَ أصحابها معه، فحُكِمَ للأمير العبّاسي، وراح هذا يُنذرُهُم بطردهم من قريتهم التي يعيشون فيها، فاستغاثوا يطلبون البقاء، فلم يُنجِدْهُم أحد، وشاع الخبر بين الناس، ولاكته الألسن حتى أصبح حديث الخاصة والعامة، وكان سواد الرأي العام معهم، فانْبرى جعفر بن يحيى، واشترى القرية من الأمير العبّاسي بعشرين ألف ألف درهم، وأهداها لأصحابها بدون أجر، فأطلق هذا العمل ألْسِنة الشعراء، وقال أحدهم:

رَدَّ «الرِّغابَ» نَدَى يَدَيْه وأَهْلُهَا ... مِنْها بِمَنْزِلَةِ السِّمَاكِ الأعْزَلِ
قَدْ أيْقَنُوا بِذَهَابِها وَهَلاكِهِمْ ... والدَّهْرُ يُوعِدُهُم بِيَوْمٍ أَعْضَلِ
فَافْتَكَّها لَهُمُ وَهُمْ مِنْ دَهْرِهِمْ ... بَيْنَ الجِرَانِ وبَيْنَ حَدِّ الكَلْكَلِ
ما كانَ يُرجَى غَيْرُهُ لِفكَاكِهَا ... يُرْجَى الكَرِيمُ لِكُلِّ أمرٍ مُعْضِلِ

---

(١) الفخري: ١٨٥

(٢) الأغاني: ج ٢٠ ص ٧٣

وتحدَّثَ القاصي والداني بتلك المكرمة البرمكية[1].

ورُوي: أن الأمير «محمد بن ابراهيم الإمام» الهاشمي، أتى يوماً إلى الفضل بن يحيى، ومعه سَفَطٌ فيه جواهر، وقال له: «إن حاصلي قد قَصَّرَ عما أحتاج إليه، وقد علاني دَيْنٌ مبلغه ألف ألف درهم. وإني أستحي أن أُعْلِمَ أحداً بذلك، وآنف أن أسألَ أحد التجار أن يُقْرِضَني وإن كان معي رهن يَفِي بالقيمة، فإن شئت قبِلْت رهن هذه الجواهر عندك» فأخذ الفضل السَفَطَ منه وأعطاه ألف ألف درهم، ثم أرسل السَفَطَ إلى داره قبل أن يصل إليها، فجاء الرجل في اليوم الثاني إلى بيت الفضل ليشكُرَهُ على حسن عمله معه، فوجده قد حصَّل له من الرشيد ألف ألف درهم أخرى. فقال له: «بأي شيء أجازيك على هذا الإحسان؟؟ ولكني ألْتزِمُ بالإيمان المؤكدة، وبالطلاق والعتاق، إني ما أقف على باب غيرك، ولا أسأل بعد الله سواك». وهكذا ربح البرامكة هذا الهاشمي الجليل القدر بين قومه، وهو ابن ابراهيم الإمام الذي كان، فيما مضى، صاحب الدعوة العباسية[2].

وكان لهم شعراء يختصُّون بمدحهم على غرار شعراء الرشيد، فلا يمدحون غيرهم من الناس سوى الخليفة إذا سمح بحضورهم بين يديه. ويتقاضون منهم رواتب سنوية، عدا المنح والصلات في المواسم والمناسبات، وكان عددهم كبيراً جداً. ولم يكن، في ذلك العهد، في دولة بني العبّاس من لم يتمنَّ أن يمْدحهُم وينال جوائزهم السنية ويتقرَّب منهم، ولكنهم كانوا يرفضون أن يُنْسبَ إليهم أيُّ شاعر كان، باستثناء أولئك الذين اشتهروا بجودة شعرهم، والذين كانت لهم ألْسِنة ذلقة في المديح والهجاء، ليكونوا أبواقاً عند الضرورة، وسلاحاً على أعدائهم لدى الحاجة، وجُلُّهُم من الذين كانت أشعارهم تسيرُ بين الناس فيُردِّدها المتأدبون والأدباء في مجالس العامة والخاصة.

وقد قال هؤلاء الشعراء في مدحِهم ما لم يقُلْهُ أحد قبلهم إلا في خليفة أو وليِّ عهد: كقول أشجع السلمي في جعفر:

ذَهَبَتْ مَكَارِمُ جَعْفَرٍ وفِعَالُـهُ ... في النَّاسِ مِثْلَ مَذاهِبِ الشَّمْسِ
مَلِكٌ تَسُوسُ لَهُ المَعَالِي نَفْسُهُ ... والعَقْلُ خَيْرُ سِياسَةَ النفسِ
وَإِذَا تَراءَتْهُ المُلُوكُ تَراجَعُوا ... جَهرَ الكَلامِ بِمَنْطِقِ هَمْسِ

---

(١) الأغاني: ج ١٧ ص ٣٢.
(٢) الفخري: ١٨٥.

وقول مسلم بن الوليد فيه:

تَداعَتْ خُطوبُ الدَّهْرِ عَنْ جَارِ جعفرٍ ... وَأمسَكَ أنْفَاسَ الرَّغائِبِ سَائِلُهْ

هُوَ البَحْرُ يَخْشَى سُرَّةَ الأرْضِ سِيبُهُ ... وَتُدْرِكُ أطْرَافَ البِلادَ سَواحِلُهْ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ

ولله سَيْفٌ ما عَلَى الأرْضِ مِثْلُهُ ... مُضَارِبُهُ يِحْيَى وَانْتَ مُقَاتِلُهْ

وقول ابن مناذر في يحيى:

أتَانَا بَنُو الأمْلاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... فَيَا طِيبَ أخبَارٍ وَيَا حُسْنَ منظرِ

إذا نَزَلُوا بَطْحاءَ مَكَّةَ أشْرَقَتْ ... بِيحْيَى وَبالفَضْلِ بْنِ يِحْيَى وَجَعْفَرِ

فَتُظْلِمُ بَغْدادُ وَتَجلُو لَنا الدُّجَى ... بِمَكَّةَ مَا تَمْحُو ثَلاثَةُ أقْمُرِ

وقول مروان بن أبي حفصة في الفضل:

إذا أمُّ طِفْلٍ رَاعَهَا طِفْلُهَا ... تَغَنَّتهُ بِاسْمِ الفَضْلِ يَعْتَصِمُ الطِفْلُ

لِيَحْيِي بِكَ الإسْلامُ إنَّكَ عِزُّهُ ... وإنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَغِيرُهُمْ كَهْلُ

وفي كتب الأدب شيء كثير مما قيل في مدحهم، وجُلُّه على هذا الطراز من الأدب الرفيع... وما كان البرامكة، في الحقيقة، غير رجال إدارة وسياسة، وليس في هذا ما يستجيشُ عواطف الشعراء ويُطلقُ ألْسِنة الناس كما تُطلِقها البطولات في ميادين الجهاد والفتوح مثلاً، أو الزعامات المذهبية الناشئة في ذلك العهد، فاستعانوا على غايتهم ببذل المال، فبذلوه إلى حدِّ الجنون، بذْل من لا يخشى الفاقة والفقر، ومن حقِّهم أن لا يخشوه ما دامت أكُفُّهم طليقة في بيت مال الدولة، فعمَّ سخاؤهم القاصي والداني، حتى قال فيهم الشعراء ما قالوا، ووصفوهم بكل مكرمة، ونعتوهم ببدور الدجى، وعز الإسلام، وسيوف الله على الأرض، وحماة الثغور، وملوك تتراجع أمامهم الملوك هيبة وجلالا.. إلى آخر ذلك مما كان فيهم وما لم يكن من الصفات، حتى لم يبقَ شيء يُمدح به الرشيد دونهم، وهو أحوج منهم إلى الدعاية في سبيل بقاء عرشه، ودعم سلطانه أمام تلك التيّارات السياسية المتلاطمة.

وقيل: إن يحيى بن خالد، كان يحمل «البِدَرَ» من الدراهم والدنانير، إذا سار في موكبه، ليُوزِّعها على مَن يُصادفه في طريقه من ذوي الحاجات أو مَن يُستوقِفُهُ بكلام حسن أو سؤال ينمُّ على فطنة سائله ولباقته وذكائه.. وكان ابنه الفضل يأنفُ من استرداد ديْنه إذا أقرض أحداً من الناس، مهما كان القرض جسيما، فديونه كلها عطاء.. أما جعفر فما كان ينتظر الشعراء والأدباء أن يأتوه في مجلسه ليغترفوا من كرمه، بل كان يذهب هو أحياناً إليهم، فيزورهم في بيوتهم ومعه بِدَرُ الدنانير ليُقدِّمها لهم... وآخر ما كان من أمره، أنه ضرب لنفسه دنانير ذهبية كبيرة، لِيَهِبَها للناس، ويبلغ وزن كل منها مائة دينار ودينار، وقد كتب على وجهيه، وحول صورته:

وأصْفَرُ مِنْ ضَرْبِ دارِ الملوكِ | يَلوحُ عَلَى وَجْهِهِ جَعْفَرُ
يَزِيدُ عَلَى مَائَةٍ وَاحِداً | إذَا نَالَهُ مَعْسَرٌ يَيْسرُ(١)

هذه بعض تصرفات البرامكة وحالاتهم. وهي في الواقع أمور لا يستطيع ضعاف الملوك احتمالها من وزرائهم، فكيف احتملها الرشيد إذن، وهو من قد عرفنا، حزماً ويقظة وسهراً على كيان دولته، وشدة على كل من يرتاب في أمره، مِمَّنْ يحاول التطاول على حكمه وسلطانه؟؟ وكيف نُوفِّق بين ما رأينا من صفاته وبين هذا التراخي من جانبه نحو هؤلاء الفرس الذين غلبوا على يده، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه في قلب عاصمته؟؟

لقد ذهب المؤرخون في تعليل هذا مذاهب شتى، كل بحسب ميله.. ونحن لا نريد أن نخلق للرجل أعذاراً مبررة، ولا نذهب اعتباطاً في حكمنا عليه قبل أن نقلب الأمر على مختلف وجوهه، لنرى ما له من أسباب تُخفِّف عنه بعض العتَبِ الذي وُجِّهَ إليه، وما له من أخطاء يوآخذ عليها حقاً.

---

(١) الجهشياري: ٢٤١.

أعذار الرشيد واخطاؤه

رأينا كيف كانت صلة الرشيد بأسرة آل برمك، منذ ولادته ونموِّه في أحضان نسائهم، ورأينا تأثير شخصية يحيى بن خالد عليه حين أخذ على عاتقه تربيته وتوجيهه وتدبير شؤونه، وهو لا يزال غرّاً صغيراً لم يطرّ شاربه بعد، وكيف اتخذه بازاً لصيده، أو سلَّماً لبلوغ غايته، فدرَّبه وأحسن تدريبه، ووجَّهه فتوفَّق في توجيهه بفضل ما أوتِيَ الرشيد من مواهب فطرية كامنة. ثم سَعَى إلى تقريبه من منصب الخلافة، وما أنفكَّ يحتال للأمر، ويراوغ في سبيله، ويُكافح ويأْتمر، حتى أدرك بَغيَتَهُ يوم بويِع الرشيد بالخلافة، واستلم هو خاتم الوزارة، وقُلِّد الإمارة، ونال السلطة المطلقة في تصريف مقدرات الأمبراطورية الإسلامية كلها.... وما نظُنُّه أنه كان يطمح إلى أكثر من ذلك.

ولا ننكُر أن هذه الجهود المضنية التي بذلها من أجل طموحه الخفي، كانـــــت، في الوقت نفسه، خدمات ظاهرة جليلة، عادت على شخص الرشيد بالفائـدة العظمى، وعلى الرغم من وسائلها الملتوية التي أدَّتْ، في الحقيقة، إلى إضعاف كيان الخلافة العبّاسية، وألحقتْ بأُسرتها النكبات والأحزان بقتل المهدي والهادي، وقوَّت شوكة العنصر الفارسي على حساب القومية العربية... فإن جهود يحيى تلك هي التي أوصلتِ الرشيد إلى صولجان المُلك، ولولاها لكان بعيداً جداً عنه.

غير أن الذي يُمعن البحث في سير تلك المرحلة الشاقة، ويقرأ ما وراء ظواهرها، يرى تأثيرات نفسية شديدة، وحُجباً وأستاراً كان يضربها يحيى نطاقاً حول الرشيد، فلم يكن يُريه المستقبل إلا من النافذة التي يريدها هو، ويجزم، يقيناً، بأن الرشيد منذ يفاعته حتى تولِّيه الخلافة، ولم يكن عمره قد جاوز الثالثة والعشرين بعد، كان أشبه بـ «الوسيط» المعصوب العينين، يُلقِّنه ساحر ماهر في علم «التنويم».. والبرهان على ذلك، أنه لم يكد

يستلم زِمام خلافته حتى ناوله إلى صاحبه، وقال له كلمته المعروفة: «يا أبتي، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلَّدتُك أمر الرعية.. فاحكم بما ترى.. فإني غير ناظر معك في شيء»[1]. ثم أقسم له أغلظ الأيمان، بألا يَمْسَسْهُ بسوء لا في شخصه ولا في حاله وماله.

لكن يحيى لم يكتفِ بذلك، فراح يُحاول إبقاءه تحت تأثير سحره، وهو على سرير مُلْكه: فطوَّقه بنفوذ الخيزران وإشرافها عليه في داخل القصر، وبصداقة ولديه الفضل وجعفر ومراقبتهما في غَدْوِهِ ورواحه. فنجح في ذلك زُهاء أربعة أعوام، حتى تدخَّل القدر في الأمر، فماتت تلك الأم الطائشة، وبدأ سِحْرُ يحيى يضْعف شيئاً فشيئاً في جسم الرشيد، إلى أن أفاق من رقدته. ولكنها كانت أشبه بإفاقة المحموم، وقد أنهك الداء والتعب أعصابه أيَّ إنهاك!! فلم يستطعْ استرداد قواه الطبيعية إلا بعد استجمام.

إلى هنا نجد الرجل معذوراً كل العذر في تصرفاته مع البرامكة، وليس من العدل أن نحاسبَه كما لو كان طليقاً، صعد سُلَّمَ المجد وحده، وبنضاله الشخصي، فتبوَّأ مكانته حراً من كل قيد أدبي، أو نفوذ سياسي يفرض عليه.. وللتاريخ أن يُحدثنا عما جرى بعد ذلك:

أجمع الرواة على أن يحيى بن خالد، انصرف، منذ اليوم الأول من وزارته، إلى توجيه أحوال الدولة نحو الأحسن، مكرِّساً عبقريته ومواهبه النادرة وجهوده نحو التقدم والإصلاح، تاركاً وراءه سياسة الدس والمؤامرات عندما لم يبقَ أمامه ما يُلجئه إلى ذلك، آخذاً شؤون الإدارة بحزم وتدبير، مستعيناً على ذلك بكفاءة ولديه اللذين درَّبَهما على تصريف الأمور أحسن تدريب، مخلصاً لشخص الرشيد وعرشه كل الإخلاص، ما دام هو واثقاً به، وما دامت الأمور في قبضته.

وبقيت سيرتهم طيبة بوجه عام، زُهاء عشرة أعوام، أدُّوا خلالها واجب الوزارة كاملاً، فعملوا على تنسيق أنظمة الدولة، وإنعاش حالتها الاقتصادية، وتشجيع نهضتها العلمية والأدبية والفنية حتى ازدهرت بين أيديهم ذلك الازدهار الذي سجَّله التاريخ.. فكان عصر الرشيد، في بهجته وروعته، عصرهم أيضاً، وربما كان معظم محاسنه ثمرات لجهودهم.

وجد الرشيد، في أوائل هذه الفترة، أن نوايا القوم سليمة لا غبار عليها... ووجدهم قد

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٠٢

سدُّوا فراغاً كبيراً في إدارة ملكه، فأغنوه عن المتاعب وكفَوْهُ مؤونة السهر والجهد، وتركوا له مجالاً واسعاً من الزمن ينصرف فيه إلى غزوه وحجِّه وأسفاره، ومجالسة العلماء والأدباء والندماء على الشكل الذي بيَّناه آنفاً... لكنه، في الوقت نفسه، لم يكن غافلاً عن بعض تصرُّفاتهم المُنتقدة، غير أنه لم يُعِرْها كبير اهتمام، لأنها كانت في مَهْدِها بعد، ولا تزال ضئيلة بالنسبة إلى خدماتهم الجليلة.. فكان من جراء ذلك أن توطَّدت ثقته بهم، وتضاعفت عنده، فأطبق جفنيه عن محاسبتهم، وسدَّ أُذنيه عن كل ما يقال فيهم، وانشغل عنهم وعما يصنعون... فكانت هذه أُولى أخطائه.

في المثل السائر: «من أَمِنَ العقوبة أساء العمل». والبرامكة قوم يعتقدون بأنهم ليسوا كمن سبقهم من وزراء الخلفاء المتقدمين، لأنهم لم يأتوا الوزارة عن طريق الاختيار ولكنهم جاؤوها بعد كفاح وجهاد مرير، وأن هذه الثقة التي نالوها عند الرشيد، والسلطة التي وضعها في أيديهم، لم تكن فضلاً منه عليهم، بل أمراً يقتضيه واجب الوفاء لهم، لخدماتهم السابقة لشخصه قبل تَوَلِّيه الخلافة.

كان هذا شعورهم منذ بداية حكمهم، ولكن سيطرة يحيى بن خالد على جميع وِلْدِهِ وأفراد أسرته في تلك الفترة، كانت تمنعهم عن التظاهر في مثل هذا الرأي، وتصدُّهُم، إلى حدٍّ ما، عن العبث والاستهتار، لأن يحيى، كما عرفناه، من دهاة الساسة وعقلاء الرجال، الذين عركوا الأيام وعرفوا تقلباتها... فلمَّا توطَّدت الإلفة بين الرشيد وجعفر، وكان من أمرها ما تحدَّثنا عنه، فَلَتَ الزمام من يد يحيى، وانتقلت الزعامة البرمكية شيئاً فشيئاً إلى يد هذا الوزير المدلَّل.. لكنه لم يكن كأبيه في لين عريكته، وحسن تدبيره في تذليل المشاكل والعقبات، لذلك لم يستطع الصمود أمام الإغراء والدلال والسلطان الذي وصفناه، فاندمج على سجِيَّتِهِ في جوِّ الرشيد وخصوصياته، واسترسل في غروره واستهتاره، حتى ظنَّ نفسه شريكاً معه في المُلك، وليس في الدولة قوة، بعد هذا الذي هو فيه، تستطيع عزله أو قذفه من برجه إلى حضيرة العامة.. وما زاده تمادياً في ذلك استمرار الرشيد الذي نعتبره أكبر خطيئة ارتكبها هذا الخليفة الشاب، فذاق المرَّ من ثمرها فيما بعد... ولم يَذُقْهُ وحده بل شرب البرامكة أنفسهم كأسه حتى الثمالة.

ولو أن الرشيد سلك جانب الحَزْمِ معهم منذ البداية، كما سلكه مع غيرهم، وأظهر

امتعاضه وعدم رضاه عن أخطائهم الأولى، لوقفوا عند حدٍّ في تصرُّفاتهم، ولحسبوا له حسابه.. لكن إمعانه في الصفح عنهم، وعدم مجابهتهم بأخطائهم، وغُلُوَّه في احترام كبيرهم، وحُبٍّ وزيرهم، وتدليل صغيرهم، وإجابة نسائهم اللاتي أرضعنه: كل هذا فتح لهم آفاقاً واسعة لا حدود لها في دولته، فاستسلموا لرغباتهم ومطامعهم، فكان من أمرهم ما ذكرناه.

ولكن الحظ لم يواكبهم في كل أعمالهم، ولم يحالفهم التوفيق في كل تصرُّفاتهم، فصدرت عنهم أخطاء خلقت لهم خصوماً أَلِدّاء، يبحثون عن كل مثلبة لهم ومنقصة، ليذيعوها في الناس، ولم تَعُزْهُم الحجّة في ذلك، بعد أن تكشّفت العيوب والأخطاء ووضحت للعيون.. وما زاد طالع القوم نحساً، ارتكابهم الأخطاء الخطيرة تجاه شخص الرشيد، فكان ذلك خاتمة المطاف. وقديماً قيل: «لِكُلِّ سيفٍ نَبْوَةٌ، ولِكُلِّ جوادٍ كَبْوَةٌ».

خصوم وصراع

في مقدمة أخطاء يحيى بن خالد، كان إقصاء كبار خصومه عن العمل في الدولة منذ أيام حكمه الأولى، بحجَّة أنهم ساندوا الخليفة السابق موسى الهادي في خصومته مع أخيه الرشيد. وكان عليه أن يحاول إرضاءهم واصطناعهم، وكان في يده من الوسائل، يومئذ، ما يساعده على ذلك.

وكانت في طليعة هؤلاء، شخصيات بارزة سبق لها أن عملت في جهاز الدولة، وخدمت الخلفاء السابقين، وتعوّدت على العيش في هذا السبيل. وقد تحدثنا عن بعض هذه الشخصيات في فصل سابق، أمثال الفضل بن الربيع، وعلي بن عيسى بن ماهان وغيرهما من رجال السياسة.. ورأينا كيف استطاع يحيى إبعادهم مستعيناً بنفوذ الخيزران على الرشيد، الذي كان يضمر لبعضهم الحب والرغبة في تقريبهم منه.

ورأينا أيضاً، كيف عاد الفضل بن الربيع إلى حضيرة الرشيد في يوم تشييع جثمان الخيزران إلى مثواها الأخير.. لكن يحيى بقي مُصراً على معاكسته، وتعطيل أموره، وإحباط مساعيه في كل منصب يريد أن يُولّيه الرشيد إياه، حتى ساءت حالته، وضاقت يده، فترسَّب الحقد والضغينة في صدره ضد كل برمكي، بَلَّهُ يحيى وأولاده.. وقيل إنه دخل ذات يوم على يحيى هذا، وقد جلس للنظر في شؤون الناس، وبين يديه ابنه جعفر، يوقّع على الرِّقاع، فعرض عليه عشر رِقاع لبعض خاصته، وطلب منه النظر فيها وتوقيعها، فتعلَّل يحيى في كل رُقعة بعلّة، ولم يوقّع على شيء منها البتَّة. فتألَّم الفضل من ذلك - وكان أبي النفس - فجمع رِقاعه بعنف، وقال يُخاطِبُهُن: «إرجَعْنَ خائبات خاسئات» ثم نهض يُتمتم بهذين البيتين:

مَتَى وعَسى يَثْنِي الزَّمانُ عِنَانَــه بِتَصْرِيفِ حالٍ وَالزَّمانُ عَثُــورُ
فَتُقْضَى لباناتٌ وتُشْفَى حَسَائِفُ وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الأمورِ أمــورُ

فسمع يحيى قوله، فاستوقفه قائلاً: يا أبا العبّاس، بالله عليك إلا رَجِعْتَ.. فرجع، فوقّع له على جميع الرقاع(١).

ثم عاد فتمادى في معاكسته، حتى بَلَغَ الأمر به إلى أن الرشيد أراد يوماً تعيينه على بريد إحدى النواحي، وطَلَب من جعفر أن يصدّر أمره، فقال جعفر للفضل: اخْتَرِ الناحية التي تريدها، فقال: أختار الموصل وديار ربيعة، فأمر جعفر بأن تُكتب كتبه عليها. ثم ذهب إلى أبيه يَقُصُّ عليه ما جرى ويستشيره بما فعل. فغضب يحيى وقال: هذا لا يكون، وهذه ناحية لأخيك، وقد صرفناه عن بريد أرمينية، ونصرفه، عن هذا أيضاً؟؟ والله لا أفعل. فصار جعفر يُماطل ابن الربيع، ويُقرِّب مواعيده.

وصادف بعد هذا الحادث بقليل أن أراد الرشيد الفَصْدَ «الحجامة» فطلب من جعفر عشرة آلاف دينار نفقات لِفَصْدِهِ، فقال جعفر: ومن أين عشرة آلاف دينار؟؟ قال: فَكَمْ؟؟؟ قال: خمسة فقط، فسكت الرشيد، وكان الفضل بن الربيع حاضراً.. فلمّا فُصِدَ الرشيد، وجاء كل رجل من خاصته بهدية له. لم يجد ابن الربيع لديه ما يشتري به هديته، فباع حصة له في مقاطعة كانت لأبيه، واشترى، بثمنها كله هدية من الجواهر في صندوقين جميلين، يحملهما غلامان في أحسن زينة، وقدم الجميع للرشيد، فاستغرب الرشيد من صنعه، وسأله من أين جاء بالمال؟؟ فقال: بِعْتُ مقاطعة كانت لأبي، وأردت أن أراك حين رأيتك تريد الفَصْدَ وأنت مغموم ـ يشير بذلك إلى معارضة جعفر بن يحيى له في طلبه المال ـ وكان جعفر حاضراً، فقام الرشيد من مجلسه، وقال: والله لأسُرَّنَّك يا ابن الربيع.. فنهض جعفر إلى أبيه وأخبره بالأمر، فكتب يحيى كُتب الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة، وختمها في الحال وبعث بها إليه، فردَّها الفضل بأباء، وقال: لا حاجة لي بها(٢).

وبعد أيام قليلة، عزل الرشيد حاجبه، محمد بن خالد البرمكي، وعيَّن الفضل

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ٥٨٧

(٢) الجهشياري: ٢٤٩.

مكانه[1].. فراح منذ ذلك اليوم يترقَّب زَلاّت بني برمك وهفواتهم وينْشُرُها بين الناس، ويعمل على خَلْقِ خصوم لهم كلمّا وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومضت الأيام تتلوها الأيام، وخصوم البرامكة يزداد عددهم كلما تمادت أخطاؤهم، وساءت تصرُّفاتهم بعد أن تزعَّم أمرهم جعفر بن يحيى. وجُلُّ هؤلاء الخصوم من أصحاب الفكر واللسان من حاشية الخليفة وغيرها.. فهجاهُم الشاعر كلثوم بن عمرو العتابي[2]. وقال فيهم أبو العتاية ما شاء أن يقول من شعر ونثر، حتى أبو نواس الشعوبي الفارسي الذي تغنَّى زمناً بمدحهم، صار يقول في جعفر:

عَجِبتُ لهارُونَ الإمامِ وما الذي ... يَوَدُّ ويَرْجُو فِيكَ يَا خِلْقَةَ السِّلْقِ

قفا خَلْفَ وَجْهٍ قَدْ أُطِيل كأنَّهُ ... قَفَا مَالِكٍ يَقْضِي الهُمومَ عَلى ثَبْقِ

وقال أيضاً:

قالوا امتدحْتَ فَماذا اعْتَضْتَ قُلْتُ لَهُمْ ... خَرْقَ النِّعَالِ وأخلاقَ السَّراويلِ

ذَاكَ الأميرُ الّذِي طَالَتْ عَلاوَتُهُ ... كأنَّهُ ناظِرٌ في السَّيْفِ بِالطُّولِ[3]

وكان وجه جعفر طويلاً ظاهراً في الطول.

وهذا الأصمعي النابغة في النوادر والرواية، كان صديقهم في بدء أمرهم، فلما تكشَّفت له شعوبيتهم وتصرُّفاتهم ضد دولة الرشيد الذي أخلص له الوفاء، تغير عليهم ونبذهم[4]. وكذلك فعل الكاتب «اسماعيل بن صبيح» الذي كان من أعوانهم وخاصة كتّابهم... وكان ليحيى بن خالد أصدقاء ثلاثة يَحُبُّهم، ويقول فيهم: «لا أريد الدنيا إلا لهؤلاء» وَهُمْ «جعفر بن محمد بن الأشعث، وعلي بن عيسى بن يزدا نيروز، ومنصور بن زياد» وقد تغيَّروا كلُّهم عليه، وانقلبوا ضدَّه، ولقي هو وأشياعه منهم ما يكرهون[5]. وقيل

(١) الجهشياري: ٢٣٢

(٢) زهر الآداب: ج ٢ ص ٢٣٧.

(٣) كتاب المعارف: ١٣٠.

(٤) الجهشياري: ٣٠٦.

(٥) الجهشياري: ١٩٣.

أيضاً إن أبناء قحطبة الذين وصلتهم بالبرامكة مصاهرة ونسبٌ، اختلفوا معهم، وتقطَّعت بينهم الأسباب، وتنافرتِ القلوب[1].

وهناك عدد كبير غير هؤلاء ممن خاصموهم، لأسباب لم تكن واحدة: فَمِنْها ما كان حسداً على النعمة، ومنها ما كان لأسباب شخصية، أو مادية كما يحدث لهم عادة مع الشعراء عند تفضيل بعضهم على بعض.. ولكن الذين كانوا أشد هؤلاء خصومة ضدَّهم، أولئك الذين اختلفوا معهم لأسباب سياسية أو عامة، كتلاعُبِهم بأموال الدولة، وتظاهُرِهم بالشعوبية ضد القومية العربية، وتساهُلِهم في بعض القضايا الدينية:

وربما كانت الشعوبية من أبرز مظاهرهم، التي جَمَعَتْ لهم أكبر عدد من الخصوم العرب، خوفاً على شوكة قوميتهم من طُغيان العنصر الفارسي على زمام الدولة... ولم يكن هؤلاء يخفون تعصُّبهم لعنصريتهم، وقد ثبت أنهم كانوا يُفضِّلون كل من هو فارسي على عربي مثله، ويُقدِّمون أبناء جلدتهم في المناصب على العرب الأقحاح، وقد استطاعوا أن يُدخلوا الكثير من النظم الفارسية القديمة في دولة الرشيد وبلاطه، كما أسلفنا القول.

وقد يكون حبهم لعنصريتهم وتمسُّكُهم بها أمراً طبيعياً، لكن مؤازرتهم للفكرة الشعوبية، وحمايتهم للشعوبيين الكارهين للعنصر العربي، من علماء وأدباء يؤلفون الكتب في مثالب العرب وفضائل الفرس، ويَنْظِمونَ الشِّعر في هجو القومية العربية، كانتا تحدياً سافراً للأكثرية العربية، وغمزاً من مكانة الرشيد نفسه الذي كان يعتزُّ بقوميته.

وكان الرشيد يعرف هذا فيهم، وله معهم مداعبات كثيرة يُهاجم فيها نـعرتهم هذه، ويقدح بالعنصر الفارسي كلما تظاهروا بنعرتهم أمامه.. وقد قيل إنه أراد يوماً أن يهدمَ إيوان كسرى، فاستشار يحيى في ذلك، فَلَمْ يُوافقه، وقال له: «لا تهدمْ بناء دلّت فخامته على شأن بانيه الذي غلبته وأخذت مُلكه» فقال الرشيد: «هذا من ميلك إلى المجوسية.. لا بُدَّ من هدمه» فقدَّر يحيى للنفقة على هدمه شيئاً استكثره الرشيد، فأمر بترك هدمه، فقال له يحيى: «لم يكن ينبغي أن تأمر بهدمه. أمّا وقد أمرت، فَلَيْس يحسن أن تُظهر عجزاً عن هدم بناء عدوِّك» فَلَمْ يلتفت الرشيد إلى قوله، ولم يهدمه.

وكان يحيى قليل التظاهر أمام الرشيد في حبِّه لعنصره، شأن العاقل الرزين، أي على عكس وَلَدَيْهِ الفضل وجعفر اللذين كانا لا يتركان فرصة تمرُّ في مجلس أُنسه إلا داعباه بما

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ج ١ ص ٢٠.

يستثير قوميته العربية.. فإذا أنشَدَ شاعر مثلا قصيدة مديح، واستهلَّها بوصف الناقة، قالوا: أَضعْتَ وقتنا في وصف جمل أجرب؟! فيفهم الرشيد ما يقصدون، فيقول لهم: «هذه الجمال هي التي أبادت مُلكَكم، ووطئت أرضكم، وصنع العرب من جلودها سياطاً ضربوا بها أسلافكم»... وإذا شكا من نِعالٍ عُقرت فيه رجله، قالوا: لو لَبِسْتَ بدل هذا «سيرية فارسية» ما عُقرت رجلك، فيقول لهم: «ما تزالون تذكرون هذا الأمر، فأجيبكم بما لا تحبون»[1].

وكان لجعفر مجلس خاص ينعقد في قصره مرة في الأسبوع، ويحضره كبار الشخصيات الفارسية الموجودة في بغداد، ومن يرِدُ إليها من دهاقين خراسان من أجل الزيارة، دون أن يحضره أحد من العرب، لأن لغة التخاطب فيه كانت لغة فارسية.. وكان لهذا المجلس وجهان: ظاهره المؤانسة والاجتماع على الشراب، والتحدُّث في الأدب الفارسي، والتغني بأمجاد ساسان والملوك الأقدمين وذكر فتوحاتهم وبطولاتهم ومذاهبهم وأديانهم، وباطنه أشبه بمقرٍّ لحزب فارسي كبير، يُعنى بشؤون بلاد الفرس، وحَلِّ مشاكلها القائمة، وربط كُتَلِها وقبائلها بآل برمك الذين أصبحوا في ذلك العهد سادة قومهم دون منازع[2].

ويبدو أن استرسالهم في تعصُّبِهم العنصري هذا، وحمايتهم لأولئك الشعوبيين، ومعظمهم من المجان، والمتظرفين وضِعاف الايمان، وأبحاثهم في مجالسهم الخاصة عن تاريخهم القديم، وتاريخ أجدادهم المجوس ودياناتهم، وغير ذلك جعل خصومهم يتَّهمونهم بضعف العقيدة، ويرمونهم بالزندقة.. وكانت الزندقة يومئذ سلاحاً نافذاً في الخصومات لأنها تُثيرُ السلطان وتُغضبهُ على من تَثْبُتُ عليه، فَيَقْتُلُهُ. ولها معانٍ كثيرة عند العامة غير محدودة.

قال كلثوم بن عمرو العتابي:

إن البَرامِــكَ لا تُنْجِيــكَ أنجِيَــةً ... بِصَنْجَــةِ الـدِّينِ مِــنْ نَجْـواهُمُ نَدَبُ

تَصَرَّمَتْ حُجَجٌ مِنْهُمْ ومُنْصُلُهُمْ ... مُضَرَّجٌ بِـدَمِ الإسْـلامِ مُخْتَضَـبُ[3]

(١) العقد الفريد: ج ٣ ص ١٣٨

(٢) زينة المجالس ـ بالفارسية ـ اخذ عنه صاحب تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤ ص ١٤٤.

(٣) زهر الآداب: ج ٢ ص ٢٣٧.

وقال آخر، ويُنْسَبُ إلى الأصمعي:

إذا ذُكِرَ الشركُ في مَجْلِسٍ ... أضاءَت وجُـوهُ بَنِـي بَرْمَكِ

وَإنْ تُلِيَـتْ آيَـةٌ عِنْدَهُـم ... أتَوا بِالأحادِيثِ عَنْ «مَزْدَك»(١)

وصادف أن حجَّ الرشيد ذات يوم، ومعه جعفر البرمكي، فلمّا دخل مكة، فَرَّقَ العطاء في أهلها كعادته عند كل حِجَّة، وأصلح ما تهدَّم من بعض المباني الأثرية، وكسا البيت كسوة حسنة، وقام بإصلاحات كثيرة، فأشار عليه جعفر بن يحيى أن توضع في جوف الكعبة مجامر، يُحرقُ عليها النَدُّ والعود ليلاً ونهاراً ليبقى المسجد معطَّراً دائماً، فلم يَقْبَل الرشيد برأيه وقال: «هذه بدعة في الإسلام، لا أقوم بها» فنقل خصوم البرامكة الخبر إلى الناس، وأشاعوا بأنهم يَدْعون المسلمين إلى عبادة النار في الكعبة، كما كان جدُّهُم برمكُ يَعْبُدُها ويوقِدُها في «النوبهار» بمدينة بلخ.

***

لم يترك خصوم البرامكة جانباً ضعيفاً فيهم إلا غمزوهم منه، وأشاعوا أخطاءهم ومثالبهم في الناس، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى سَمَعِ الرشيد بذلك، لأنه كان في أول أمرهم، كما قلنا، لا يَقْبَلُ وشاية من أحد عليهم، ولا رأياً فيهم، ويغضب من أجل ذلك ويُعاقب عليه.. وكتب إليه يوماً «محمد بن الليث» الفقيه الزاهد يقول: «يا أمير المؤمنين، إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلْتهُ فيما بينك وبين الله.. فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا ربّ، إني استكفيتُ يحيى أمور عبادك. أتُراكَ تحتجُّ بِحُجَّة يرضى بها؟؟» فَلَمْ يرتح الرشيد من هذه الكلمة، ودَعَا يحيى بن خالد، وأخبره بها، وسَألَهُ عن محمد بن الليث، فقال يحيى: «إنه متهم بدينه» فسجنه الرشيد، وبقي في سجنه زمناً طويلاً(٢). ولم يلتفت البرامكة إلى خصومهم هؤلاء، وقد ثبت لهم ضعفهم وتفككهم أمام ذلك النفوذ والسلطان والثقة التي يتمتعون بها عند الخليفة، حتى كان ما كان من أمر زبيدة زوج الرشيد معهم، وإشهارها لهم العداوة والبغضاء.

---

(١) ابن خلكان: ج٢ ص ٢١٧.

(٢) الجهشياري: ١٥٧.

وتبدأ القصة، حين أثيرت قضية ولاية العهد، كما رأينا، عام «١٧٥هـ» فوقف جعفر بن يحيى يدافع عن حقٍّ عبد الله المأمون الذي كان يشرف على تربيته، ويحاول إبعاد محمد الأمين عنها، ويندِّد بآراء أمه زبيدة عند الرشيد، مما أثار حفيظتها عليه وحده، دون أخيه الفضل الذي كان إلى جانبها في تلك الساعة، ودون أبيه يحيى الذي بقي على الحياد، ثم أيَّد الرشيد في ولاية الأمين إرضاء لها.

ولم تنته الأزمة بينها وبين جعفر بانتهاء تلك القضية على ما كانت تريد، ذلك لأن جعفراً لم ييأس من إعادة النظر ثانية في أمر ولاية العهد عندما يكبر الأخوان ويُبيَّن الأصلح منهما للخلافة. فكان يغذِّي المأمون بهذا الأمل، ويُحرِّضُه على الجدِّ والتحصيل ليكون خيراً من أخيه فيستعيد حقَّه، فنشأ من ذلك تنافس بين الصغيرين، ولَّد شيئاً من الكُرْهِ والبغضاء فيما بينهما، حتى تقارصا بالكلام، وصار كل منهما ينال الآخر في غيبته.. ثم صادف أن تلاحيا مرة أمام «عيسى بن جعفر» أخي زبيدة، وتهاترا بسبب ولاية العهد، ثم افترقا، وكل منهما يتوعَّد صاحبه، فنقل عيسى الخبر إلى الرشيد فاضطرب لهذا الأمر وخاف من عواقبه. وعلمت زبيدة بأن الذي يغذِّي هذا الخلاف هو جعفر لا غيره[1].

وشاءت الظروف أن تُفسد أيضاً بينها وبين يحيى بن خالد، فاحتاجت ذات يوم إلى شيء من المال تسدُّ به حاجة ضرورية طرأت في قصرها، وكان الرشيد غائباً عن بغداد، فوجَّهت طلبها إلى يحيى بصفته الأمين المشرف على قصور أسرة الخليفة، فَلَمْ يُلبِّ طلبها، وتركها في ضائقة لم تتعوَّد على مثلها، فلمَّا عاد الرشيد شكته إليه، فتأثَّر ولكنه لم يُفاتحه[2].. وتكرَّرت إساءات يحيى لها، وصار يُضيِّق عليها، ولا يعبأ برغباتها وأوامرها، فأعادت الشكوى عند الرشيد، ففاتح يحيى بالأمر وقال له: إن زبيدة تشكوك، فقال يحيى: أَمُتَّهَمٌ أنا في حرمك يا أمير المؤمنين؟؟ قال: حاشا لله، قال: إذن، لا تسمع قولها.. فسكت الرشيد عنه[3].

ومضت الأيام حتى كان عام «١٨٢ هـ» فأثيرت مشكلة ولاية العهد مرة أخرى، على

(١) كتاب الاصمعي: ١٣٢.

(٢) الجهشياري: ١٤٦.

(٣) ابن خلكان: ج ٢ ص ٤١٧.

الشكل الذي بيَّنّاه، ووقف جعفر بن يحيى متصلِّباً أمام زبيدة، متهالكاً على كسب القضية إلى جانب المأمون، مُحَرِّضاً الرشيد على انتزاع تلك البيعة من الأمين. ولم تقف زبيدة أمامه مكتوفة اليدين، فنازعتْهُ وغلبتْهُ، وأبقتِ ابنها في منصبه، ثم رفعت راية العداء سافرة في وجهِ البرامكة كلهم دون استثناء، واستنجدت بمن حولها من الهاشميين، فانضمَّ إليها عدد من شبابهم، وفي مقدمتهم أحفاد أبي جعفر المنصور، وعلى رأسهم اثنان من أحب الناس عند الرشيد وأقربهم إلى نفسه، هما «عيسى بن جعفر بن المنصور» و «جعفر» بن موسى الهادي، الخليفة المقتول.

وكان جعفر هذا حرباً عواناً على البرامكة، وبخاصة على يحيى ين خالد المدبِّر الأكبر لتلك الجريمة الحمراء التي أوْدَتْ بحياة أبيه في «عيساباذ» يوم كان هو طفلا لا يُدركُ معاني المؤامرات والدسائس السياسية. وها هو اليوم في سِنٍّ الفتوة ونشاط الشباب، وقد تربَّى في كنف عمِّهِ الرشيد، وتزوَّج من ابنته «حمدونة» صاحبة الحُظوة عند أبيها.

وكان الصراع، يومئذ ، بين الشعوبية والعربية في البلاط قد بلغ أشُدَّهُ، فانضمَّ العرب إلى جانب معسكر زبيدة وأعوانها، والتحق بهم خصوم البرامكة من غير العرب أيضاً، لِلنَّيل منهم... وانْقَسَمَ رجال الحاشية إلى معسكرين، عربي وشعوبي، التحما في صراع عنيف، سلاحهما فيه الوشايات والدسائس، وفَضْحُ الأسرار وكَشْفُ المثالب، تنويهاً وهمساً حول سمعِ الرشيد، وليس علناً وجُهْراً، إلا زبيدة بنت جعفر التي بدأت تُصارحه بأعمالهم، وتُحذِّره من أخطارهم، فلا يلتفتُ إليها، وربما تظاهر بِعدم سماع قولها، فتغضبُ منه وتقول له: «إنك غريق في بحر عميق من حبِّك لهم وثقتك بهم». وفي الحقيقة لم يكن، في تلك الساعة، غريقاً حين عمدت زبيدة إلى إنقاذه، ولكنه كان يعلم كل شيء عن تصرُّفاتهم، وقد بدأ يُفَكِّرُ سراً بالتخلص منهم والعمل على الإيقاع بهم للأسباب التي سنذكرها لاحقاً.

أخطاء بعض المؤرخين

لم يكن هارون الرشيد أول خليفة أو ملكٍ يغضب على وزير من وزرائه فَيَقْتِلُهُ، ويزُجُّ أهله وذويه في غيابة السجنِ .. لكنَّ مكانة البرامكة في الناس، بفضل تلك الدعاية التي صنعوها لأنفسهم، وما عُرف من صلتهم الوثيقة بالرشيد وتلك الحظوة عنده، ثم أخْذَهُ لهم بغتة وهم لا يشعرون، وعدم إعلانه سبب ذلك، واحتفاظَه بالسِّرِّ حتى دُفن معه.. كل هذا جعل الناس في عهده، يتساءلون عن البواعث والدوافع لتلك الانتفاضة الدامية التي هزَّتهم، فَلَمْ يعثُروا على طائل يشفي حُبَّ استطلاعهم.

ومن عادة أسرار القصور الضخمة، إذا كانت أسراراً خطيرة، إطلاق ألْسِنة الفضوليين في خلق التفاسير والتآويل، وبَعْثُ الحانقين والمتألمين إلى التشنيع والتُّهم، ودَفْعُ الشامتين والمرتاحين إلى إيجاد الأعذار والمبررات... وهكذا كان الأمر في حادث النكبة. إذ كثرت فيها الأقاويل، وراجت الإشاعات المختلفة، ما جعل بعض المؤرخين، فيما بعد، يخبُطون فيها خَبْطَ عشواء، ويقتبسون من تلك الإشاعات، سواء أكان عمداً أم عن حسن نية، ما يروق أهواءهم حتى وإن كانت من صُنْعِ العامة. أما المحايدون منهم فقد استعرضوا أخطاء البرامكة وذنوبهم، فاختاروا أعظمها، وجعلوه سبباً لمصرعهم، في حين وُجدت أقلية أرادت تجنُّب الارتجال في الحكم، فجعلت تصرفات هؤلاء القوم المنتقدة كلها سبباً واحداً لسوء مصيرهم، فجاء حكمها مصيباً جملةً، ومُقصِّراً تفصيلاً.

وما كنا لنُناقشَ آراء المخطئين، من جماعة المؤرخين، في هذا الحادث الدامي، لولا أن بعضها شاع بين الناس، وكاد يكون مقبولا، على الرغم من تشويهه الحقيقة، لدى بعض كتّاب التاريخ المتأخرين الذين عالجوا هذا الأمر.

فقد زعم بعضهم: أن ليس هنالك مبرر لكي يلجأ الرشيد إلى هذه المأساة الدامية، ولكنها نزوة من نزوات غضبه التي كانت تساوِرُهُ، وغدْرٌ وظُلْمٌ، أو قِلَّةُ وفاءٍ كان قد جُبل عليه، إلى آخر ذلك مما يزعمون. فكأن البرامكة في نظر هؤلاء لم يرتكبوا أيَّ ذَنْبٍ أو تصرُّفٍ يُنْتَقَدُ، وحجَّتُهم في ذلك أن الرشيد كان في وئام معهم حتى الساعة الأخيرة.. على أن المصادر التاريخية الرزينة تُناقض هذا الرأي وتُدْحِضُهُ. وقد ذكر الجهشياري أربع عشرة قضية، عدَّدها الرشيد ليحيى بن خالد في حينه، وكل واحدة منها تكفي عذراً له في التخلُّص منهم وإزاحتهم عن طريقه[1].

كما أن مصادر أخرى تشير إلى أن الرشيد فكَّر بالإيقاع بالبرامكة قبل نكبتهم بعدَّة أعوام.

قصة العبّاسة

ومن أطرف ما رُوي من القصص التي لا يَقْبَلُ بها لا المنطق ولا العقل، قصة «العبَّاسة بنت المهدي». وقد ذكرها «ابن جرير الطبري» في تاريخه:

ملخصها: أن الرشيد كان لا يصبرُ عن جعفر بن يحيى وعن العبّاسة، أخته، إذا جلس للشراب.. فأراد أن يُحْضِرَهُما معاً في مجلسه ذاك، ولكن الشرع الإسلامي يَحُولُ دون جمعهما، لأن جعفراً غريب عنها ومحرَّم عليها، فاحتال الرشيد للأمر، بأن يُزوِّجَه منها لتَحِلَّ له رؤيتها ومجالستها.

فقال لجعفر: أزوِّجُكَها على أن لا يكون منك شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فَقَبِلَ جعفر، وعقد قرانهما... لكن جعفراً اتصل بها، فيما بعد، كزوجة له، فحملت منه طفلا، خافت عليه من أخيها، فأبعدته إلى مكة... وعلم الرشيد بالأمر، فَقتَل الطفل، وانقض على البرامكة لهذا السبب[2].

ونقل بعض المؤرخين هذه الرواية، وتوسَّع بها آخرون على شكل قصة لغايات في

(١) الجهشياري: ٢٤٣

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥٤٧.

نفوسهم، ثم تناقلتها أيدي المستشرقين وبعض الكتاب في أوروبا، في العصرين الأخيرين، وأضافوا إليها من أخيلتهم، وألَّفوا فيها روايات تتلاءم وأذواقهم الاجتماعية في بلادهم، وجعلوها صِلَة غرامية شعرية، كما تعوَّدوا أن يكتبوا عن أمرائهم في القرون الوسطى... والأغرب من هذا، أن بعض الكتاب أو الشعراء العرب، في عصرنا الحاضر، اقتبسوا من الغربيين آراءهم هذه، ونقلوا القصة عنهم ثانية إلى العربية، وألَّفوا فيها المسرحيات نثراً وشعراً، كأن أخبارها صحيحة ومتفق عليها، وكأن ما جاء فيها لا يسيء إلى الحقيقة والتاريخ، ولا يسيء في شيء إلى هذه المرأة المحصَّنة البريئة، أخت الرشيد العاهل العربي الكبير!! ؟[1].

نحن لا ننكر صحة القول المأثور: «ما اجتمع رجل وامرأة في خلوة إلا كان الشيطان ثالثهما». ولا نتعمَّد الدفاع عن العبّاسة لمجرد أنها أخت هارون الرشيد، وامرأة من أكرم الأسر العربية الإسلامية، أو لأنها تَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى صاحب الرسالة ﷺ، كما يريد أن يدافع عنها المؤرخ الكبير «ابن خلدون» بقوله: «والعبّاسة بنت محمد المهدي بنت خليفة، وأخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية، وصحبة الرسول وعمومته، وإقامة الملّة، ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين... فأين يُطلبُ الصون والعفاف إذا ذهب منها»؟[2]

ولكن يهمُّنا توخّي الحقيقة في أساس هذه القصة، لِمَا لها من صلة بتاريخ الرشيد، ومساس بشخصيته من جانبي أخلاقه ومجتمعه.. وقد وجدنا القرائن والمصادر تدلُّ بوضوح على أنها قصة موضوعة ليس لها صلة بالواقع.

يقول الجهشياري، وهو أحد معاصري الطبري الذي روى القصة، وكلاهما قريب من عهد الرشيد: «قال عبيد الله بن يحيى بن خاقان: سألت مسروراً الكبير، في أيام المتوكل، وكان قد عمّر إليها ومات فيها، عن سبب قتل الرشيد لجعفر وإيقاعه بالبرامكة، فقال: كأنك تريد ما تقوله العامة فيما أدَّعوه من أمر المرأة؟؟ !... فقلت له: ما أردت غيره، فقال: لا والله ما لشيء من هذا أصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم»[3]

(١) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان: ج ٦ ص ١٢٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ج ١ ص ١٥

(٣) الجهشياري: ٥٢٤.

فمتى عَلِمْنا بأن «مسروراً الكبير» هذا، هو الذي قتل جعفر بيده، بأمرٍ من الرشيد، وأن السائل له «ابن خاقان» هو الذي نقل هذه الشهادة إلى الجهشياري بنفسه، قدَّرنا إذن قيمة هذه الشهادة من الناحية التاريخية، وأيقنَّا بأن قصة العبّاسة قد صنعها العامة من أهل بغداد حين خُفِيَتْ عليهم أسباب النكبة.. ومتى ذكرنا أنه كان للبرامكة في بغداد، يومئذ، دعاة وأبواق لا تكُفُّ عن التمجيد بهم والطعن بخصومهم أمام العامة في أيام حكمهم، عرفنا أن عدداً كبيراً قد حَزِنَ عليهم يوم نكبتهم وحَنِقَ على الرشيد لإيقاعه بهم، فلا يبعد أن يختلق أحدهم أو بعضهم هذه الحكاية المشينة، فتسري بين العامة. وسواد العامة لا يألفُ الحكايات الطاعنة بالشرف والعرض إلا إذا كانت موجَّهة ضِدَّ كل ذي جاه وسلطان.

وقد روى الطبري هذه القصة بغير سند، خلاف عادته في الروايات التأريخية الأخرى، مما يدلُّ على أنه اقتبسها من أفواه العامة في عصره.. ولم يكن مَيْلُنا إلى تصديق رواية الجهشياري لمجرد أنها ذات سند واضح، وشهادة من «مسرور» الذي وقع الحادث على يده فحسب، بل لأسباب أخرى تَتَّفِقُ والمَنْطِقَ والعقل السليم:

أهمها: أن الرشيد ـ وقد دَرَسْنا أخلاقه وصفاته ـ لم يكن متبذلاً في مجالسه، ماجناً تافِهَ الرأي بحيث لا يصبر عن جمع اخته مع رجل مَحَرَمٍ عليها.. وقد رأينا تمسُّكه الشديد بقوميته العربية، فكيف يزوِّج اخته، وهي من هي بين قومها، برجُلٍ فارسي، في حين كان الوسط من العرب يأنفون من فِعْلِ ذلك؟؟ وحتى لو أراد هو مخالفة هذه التقاليد، فكيف يزوِّجُها على هذا الشرط السخيف «على أن لا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته»؟؟ وكيف يتَّبع هذه الأساليب الخفية المريبة في تزويج اخته دون أن يكون لهذا الزواج مراسيم تليق بمكانة العروسين؟؟ ودون أن يعلم أحد بذلك؟؟.. وأخيراً، فإذا كان قد زوجها من جعفر، وأصبحت زوجة شرعية له، فكيف يسمحُ له ضميره ودينه وتقواه أن يَقْتُلَ طفلاً بريئاً هو ثمرة مشروعة لزواج شرعي صَنَعَهُ بيده، ثم يَقْتُلُ أباه وهو زوج اخته ووزيره المحبَّب إليه؟؟

هذا من ناحية الرشيد، وأما العبّاسة، فعلى الرغم من كَثْرَةِ ما حدَّثَتْنا الأخبار عن جمال اختها «عليّة بنت المهدي» وعن أدبها وأشعارها وغنائها، فإنها لم تُحَدِّثْنا بشيء من هذا عن العبّاسة، ولم نعثُرْ على خبر واحد لمجلس أنس حضرته العبّاسة مع أخيها الرشيد، ما يدلُّ

على أنها لم تكن تملك موهبة واحدة مما يصلح لمجالس الأنس كالظرف أو الأدب أو الغناء، فهل يُعْقَلُ أن يَهْجُرَ الرشيد كل ما في قصره من الجواري الفاتنات - وعددهن كبير جداً - وفيهن البارعات بالغناء والعزف والظرف والأدب، لكي يُجالس اخته أو يشرب أمامها؟؟

لقد كان الرشيد من أشدِّ الناس غيرة على نساء أسرته، وقد رأينا كيف كان يغضب إذا سمع جارية من جواري اخته «علية» تُغنّي بصوت أو شعر من نَظْمِها أمام أحد من الناس، ورأيْنا الأصمعي يضع كمّه على رأس «موّاسة» بنت الرشيد وهي طفلة صغيرة، ويُقَبِّلُ كمَّه خوفاً من غيرة أبيها وبطشِهِ، فكيف يصُحُّ القول بأن الرشيد كان لا يصبر عن مجالسة اخته العبّاسة بحضور رجل غريب عنها، حتى وإن أصبح زوجها؟؟.

وأكثر من ذلك، فإن العبّاسة كانت متزوجة محصّنة، ولكنها كانت منكوبة، منكودة الحظ في زواجها وحياتها الخاصة، فقد تزوَّجتْ في عهد أبيها بالأمير «محمد بن سليمان الهاشمي» والي البصرة فمات عنها كما رأينا [١]. ثم تزوَّجت ثانية بوالي مصر «ابراهيم بن صالح الهاشمي» فمات هو أيضاً [٢]. وقيل أيضاً، إنها تزوَّجت بأمير ثالث ورابع، فماتوا كلهم عنها، فشاع شؤمها بين الناس، وقالوا: «من أراد الموت فليتزوّج عبّاسة» ونظموا في ذلك الأشعار.. فكيف تستطيعُ إذن هذه البائسة الكئيبة، التي ما خرجت من ترمُّل وحزن إلا لتدخل في ترمُّل آخر، أن تحضُر مجالس الأنس والسمر مع الرشيد وجعفر، فتمرح وتنطلق بينهما، وتتظرَّف وتتندَّر؟؟.

ثم إن جعفر بن يحيى كان يستطيع، وهو في شبابه وسلطانه وسِعَةِ ثرائه وجاهِهِ، أن يتزوَّج في كل وقت ممن يُريدُ من حسان النساء المهائر، الأكفاء له من غير الأُسرِ العربية المتزمتة بتقاليدها، وأن يقتني من يشاءُ من الجواري البارعات في الحسن وبأي ثمن كان. هذا مع العلم أنه تزوَّج مبكراً بعدَّةِ نساء، ورُزِقَ منهن أولاداً عُرِفوا في التاريخ، وامتَلَكَ عدداً كبيراً من أرقِّ الجواري وأثْقَفِهِنَّ... ومن كانت هذه حاله لا يُعْقَلُ أن يزُجَّ نفسه في طرقٍ ملتوية مشروعة أو غير مشروعة تزري بكرامته، وتعرِّضُه إلى سخط الرشيد، وعدد غفير من أمراء بني العبّاس، وهو يعلم غيْرتهم على نسائهم.

---

(١) كتاب المعارف: ١٣٠ - والطبري: ج ٣ ص ٥٤٦.

(٢) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٨٤.

إن قصة العبّاسة هذه صَنَعَها الغوغاء من الناس.. ولا يبعد عن الواقع المحتمل، أن يكون مصدرها أحد أبواق البرامكة من الشعوبيين، وقد أراد أن يطعن بها الرشيد في كرامته.. وربما كان مصدرها نكتة فاهَ بها أحد المجّان، ساعة سَمِعَ بمقتل جعفر ولم يعرفْ سبب مقتله، فقال: «تزوَّج العبّاسة فمات» استناداً إلى ما كان شائعاً من شؤمها، فذهبت النكتة مثلاً، ثم صُنعت قصة، فدخلتْ في التاريخ.

***

ومن المؤرخين من يَزْعَمُ أن سبب النكبة، إطلاق جعفر البرمكي سراح «يحيى بن عبد الله العَلَوي»، وملخَّص الخبر: أن الرشيد أمر بسجن يحيى بن عبد الله عند جعفر في بيته، وأوصاه المحافظة عليه ريثما ينظر في أمره ... فأشفق جعفر على يحيى، وحادثه طويلاً، فقال له يحيى: «اتَّقِ الله في أمري، ولا تتعرَّض أن يكون خصمك غداً محمداً ﷺ» فرقَّ له قلب جعفر، وقال له: «إذهبْ حيث شِئْتَ من بلاد الله» فقال يحيى: «وكيف أذهبُ، ولا آمَنُ أن أؤخَذَ بعد قليل، فأُرَدُّ إليك أو إلى غيرك؟؟» فوجَّه معه من أدَّاهُ إلى مأمنه.

وعلم الرشيد بالخبر من الفضل بن الربيع ـ في قصة طويلة ـ فَلَمْ يُظهر امتعاضه، حتى دخل عليه جعفر، فاستقبله الرشيد بالبِشْرِ والترحاب، وتبسَّط معه في الحديث، ودعا بالغداء فأكلا معاً، وجعل يُلَقِّمُهُ ويُحادثُه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: «ما فعِلُ يحيى بن عبد الله؟؟» قال جعفر: بحاله يا أمير المؤمنين، في الحبس الضيِّق والأكبال. قال الرشيد: «بحياتي؟؟». فأحْجم جعفر، وأدرك أن في الأمر شيئاً، وهجس في نفسه أن الخليفة قد علِمَ بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا أمير المؤمنين، ولكن أطلقتُه وعلمت أن لا مكروه عنده، قال: «نِعْمَ ما فَعَلْتَ، وما عدوت ما كان في نفسي...» فلمّا خرج جعفر، أتبعه الرشيد بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه، ثم قال: «قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقْتُلْكَ».

لو عُدْنا إلى ما تحدَّثْنا عنه في أمر يحيى العَلَوي هذا، لوجدنا أنه كان قد اختفى بعد وقعة «فخ» وظلَّ متخفياً يدعو لنفسه قبل خلافة الرشيد، حتى بايعه عدد كبير من الناس في كل مكان، فلمّا تولّى الرشيد الخلافة فتَّش عنه، وطلبه في كل مكان، فلجأ يحيى إلى

«خاقان» ملك الترك، ثم رحل إلى طبرستان، ومنها إلى الدَّيلم. وهناك أعلن عصيانه. وقد رأينا كيف أرسل الرشيد إليه «الفضل بن يحيى البرمكي» فاستماله إلى الصلح وكتب له شروط الأمان بِخَطِّ الرشيد. ثم إن الخليفة ارتاب في أمره وناقشه في قضية شروط الأمان، وسجنه فمات في سجنه.

فمتى إذن حدثت قضية إطلاق سراحه من جعفر البرمكي؟؟ لا ندري، ولم نعثُرْ على مصدر يدلُّ على زمن وقوعها. وقد يكون هذا الخبر من صنع الفرس، ليثبتوا أن مقتل البرامكة كان بسبب ميلهم للعَلَوِيين، مع أن البرامكة قد لا يكونون خصوماً للعَلَويين، ولكنهم لم يكونوا من شيعتهم، وقد ثبت أن غير واحد منهم قُتِلَ على أيدي هؤلاء البرامكة في خلافة الرشيد[1]. وقد روى الجهشياري، أن يحيى بن خالد أمدَّ يحيى بن عبد الله العَلَوِي أثناء عصيانه بأربعين ألف دينار، وأن يحيى اعترف للرشيد بأنه فعل ذلك، لكي يقوى أمر العَلَوي، فيذهب إليه أحد أولاده، فَيُطْفِيءَ فتنته، فتعْظُم مكانته عند الخليفة، فقال له الرشيد:

وما يؤمنك أن تقوى شوكته فَيَقْتُلَ ابنك الفضل ويَقْتُلَني؟؟[2]

وبعد، فإذا سلَّمنا بأن جعفراً أطلق سراح العَلَوي، وكان موت يحيى بن عبد الله في عام «١٧٦ هـ» كما رأينا، فإننا لا نستطيع اعتبار هذا الحادث سبباً لنكبة البرامكة، لمرور ما يزيد على العشرة أعوام بينه وبين النكبة.

***

ولم يخطئ ابن خلدون في جَمْع تصرُّفاتهم كلها وجَعْلِها سبباً لنكبتهم، فقال في مقدمته: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرُّفٌ في أمور ملكه..» ثم عدَّد جميع أخطائهم، التي ذكرناها[3].

(١) مقتل الطالبيين: ٣٨.

(٢) الجهشياري: ٢٤٣

(٣) مقدمة ابن خلدون: ج١ ص ١٥

وذهب جماعة من المورخين في تأييده، وزعموا أن أكبر أسباب غضبة الرشيد هو قضية حرمانه من التصرُّفِ بأموال الدولة، في حين أطلقوا لأيديهم العنان فيها، وضربوا لذلك الأمثال فقالوا:

كان الرشيد ذات يوم في البصرة، ومعه يحيى بن خالد، فَوَرَدَ عليهما من أموال فارس ستة آلاف ألف درهم، وأراد الرشيد أن يأخذ منها ألف ألف يبعثُها إلى عياله في بغداد، إذ كانوا في حاجة إليها، فقال له يحيى: إن أخذت منها درهماً واحداً لهذا الشأن ذهبت هيبتك. فأمسك الرشيد عن طلبه، واقترض حاجته من أحد خاصته. ثم عَلِمَ، فيما بعد، بأن يحيى قد أخذ من ذلك المال ألف ألف وخمسماية ألف، فرَّقها في عمّاله وأتباعه. فَلَمّا سأله الرشيد عن ذلك معاتباً، لم يُجِبْهُ يحيى بما يرضيه فَوَقَرَ هذا في نفس الرشيد، وبدأ يتذكَّرُ باقي تصرُّفاتهم الأخرى في دولته، فتغيَّر عليهم.

لكنَّ عمل يحيى هذا لم يكن الأول من نوعه، وقد سبق له ولابنه جعفر أن حجبا عنه وعن أسرته المال في ساعات الحاجة مراراً، وفي أزمنة مختلفة، فَلَمْ يتغيَّرْ عليهم، ولم يُكدِّرْ صفوه معهم. لذا، لا نعتقد أن حادثاً بسيطاً كهذا سيكون هو وحده السبب الرئيسي لنكبتهم.

السبب الرئيسي للنكبة

قُلْنا إن الرشيد، أغمض عينيه فترة غير قصيرة عن أعمال البرامكة ومحاسبتهم، وفاء لخدماتهم، وثقة بهم ما داموا سائرين في بادىء أمرهم على النهج المستقيم، ورغبة في المحافظة على صفاء الجو بين الطرفين.. لكن الحوادث والأخبار تَدُلُّنا على أن الرجل ما كان غافلاً عما يعملون، ولم تُخْفَ عليه لا صغيرة ولا كبيرة مما يمكن سماعه أو مشاهدته من تحركاتهم إلا كان لديه علم بها، بوساطة أعوانه وأرصاده... حتى إذا تفاقم أمرهم، وبلغ السيل زُباه من تصرفاتهم، أحس بدقة موقفه، وبالخطر الذي يكمن بجانبه، وبالخطأ الذي كان منه تجاه نفسه ودولته ورعيَّتِه.

ومهما كانت أعذاره في إهماله السابق لهم، فإن انتباهته إليهم جاءت متأخرة، بعد أن تركَّز نفوذهم في قلب دولته، وظهر سلطانهم على سلطانه في عاصمته، وتكالَبَتِ النعرة الفارسية والشعوبية ضد قوميته. ولم يكن ثراؤهم الفاحش، وسيطرتهم على جهاز الإدارة، والتفاف الناس حولهم، ورضوخ عظماء الدولة لإشارتهم، بأشد وقعاً عند الرشيد من استبداد يحيى بن خالد بكل شيء، فلا يصدر أمر في شؤون المملكة إلا على يده، ولا يُنَفَّذُ مشروع إلا بإذنه.

والأشد من هذا، أن يجد وزيره جعفراً قد استغلّ حبه وثقته أبعد استغلال، فشاركه في ملكه، واستهان بأمره، وتدخَّلَ في خاص شؤونه، حتى أوقع بين وَلِيَّيْ عهده الأمين والمأمون، وخلق حولهما جواً مسموماً بالحقد والبغضاء، يُهدِّدُ مستقبل الخلافة غداً إذا تنازعا عليها، واستخفَّ بمكانة زبيدة بنت جعفر، سيدة القصر وزعيمة نساء بني هاشم، وخاصمها علناً وخِفْيَةً، ولم يَرْعَ حرمة زوجها ومقام خلافته، وتجرَّأ على الرشيد نفسه في منعه المال عنه إذا طلبه عند الحاجة بحُجَّةِ المحافظة على أموال المسلمين التي راح هو

وجماعته يرتعون فيها بغير حساب. حتى بلغ الأمر به إلى أن بات يسمح لنفسه بمحاسبة الرشيد على تصرُّفاته بأسلوب كلُّه دهاء ومكر، ولا يلتفت إلى اعتراضاته واحتجاجه. فكان لسان حال الرشيد معه كما قال له أحدهم:

أمرُكَ مردودٌ إلى أمـرِهِ وأمـرُهُ ليسَ لـهُ ردُّ

وكان من حق الرشيد أن يقف مبهوتاً أمام هذه التدابير السريعة التي اتخذها البرامكة في احتلال مرافق الدولة وسدِّ آفاقها عليه، ولم يمضِ بعد على حكمهم أكثر من عشرة أعوام.. ومن حقِّه أيضاً أن يحتار في كيفية التملص من هذا الأخطبوط الجبار الذي يزداد التفافاً حوله، وتضييقاً يوماً بعد يوم... وكيف يصنع وقد اتَّسَعَ الخرق على الراتق، وليس البرامكة شخصاً واحداً يمكن القضاء على نفوذه بإزاحته عن الحكم، ولكنهم كانوا عصبة متماسكة كثيرة العدد يتزعَّمها أكبر شخصية مفكِّرة في الدولة، وأدهى رجل فيها «يحيى ابن خالد» وحوله أولاده الأربعة «الفضل، وجعفر، ومحمد، وموسى» وكل منهم يحتلُّ مكان الزعامة في بغداد وفي الجانب الشرقي كله من الدولة.

إننا لا ندري متى بدأ الرشيد ينقلب على وزرائه هؤلاء وينْفُضُ عن جفنيه غبار الغفلة عنهم، ولا نعلم أي أمر من هذه الأمور الخطيرة كلها أثار اهتمامه، وبعث فيه جانب الريبة والحذر بعد الثقة والاطمئنان.. لكن الحوادث والروايات تشير إلى أنه بقي زمناً طويلاً يتردَّد بين الشكِّ واليقين في أمرهم، ويتنقَّلُ بين السخط والرضا عنهم، ولم يبدر منه تجاههم أكثر من التذمر البسيط الذي كان يهمس به في آذان خاصته بين الفينة والفينة كلما رأى من أحوالهم ما يثير حفيظته عليهم... فإذا مرَّ، مثلاً، ببعض قراهم العامرة وممتلكاتهم الواسعة، قال: لقد أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وذوينا. وإذا خطر موكب أحدهم على بُعْدٍ، قال: انظروا إلى عظمة مواكبهم، وتأمَّلوا كيف مرّوا مسرعين، وقد رأونا بجانبهم. وإذا جلس في قصر الخلد على شط دجلة، وشاهد الوفود مزدحمة على أبواب قصورهم في الجانب الآخر، قال: استبدَّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلا اسمها[1]. وإذا سَمِعَ شعراً جيداً في مَدْحِهِم، قال: هذا هو المديح، لم يَبْقَ عند الشعراء ما يقولونه فينا.

---

(١) الجهشياري: ١٢٥.

وكانت هذه التمتمات التي يهمُسُها في آذان بعض خاصته تُنقل إلى أسماع البرامكة، فتزيدُهُم تماسكاً وحيطة لأنفسهم، وتبعث فيهم الريبة منه، وإن لم يكن هو قد فكَّر بعد بالشرٍّ نحوهم... وقد رأيناهم خلال تلك الوشايات يُرسلون صنائعهم من خاصته أو من آل بيته ليُحدِّثوه عنهم ويروا رأيه فيهم، فتأتيهم الأخبار بأن الرجل قد انقلب في السر عليهم، ولم يعد كسابق عهده معهم، فلمّا أيقنوا ذلك فيه، اتَّخذوا لأنفسهم نطاقاً من السلاح يحولُ دون وصوله إليهم، ويجعله في قبضة أيديهم.. فكانت المشكلة الكبرى بينه وبينهم، ونعتقدُها السبب المباشر لنكبتهم.

وقصة ذلك، أنهم كانوا يعتبرون إقليم خراسان وما جاوره منطقة نفوذ لهم، فقد انقادت شعوبها لزعامتهم بحكم الصلة العنصرية، والقومية الفارسية التي ما ازدهرت في عهد من العهود كما ازدهرت في أيامهم، وأصبح لهم فيها أتباع وأنصار من ذوي الشكيمة والقوة، يأتمرون بأمرهم وينفذون رغباتهم... وكان الرشيد يعلم ذلك ويعرفه، وهو من أخبر الناس بحالات خراسان التي ولد فيها، وسافر إليها مراراً وتكراراً، ولم تنقطع صلته بها حتى النهاية.

فَلَمّا عيَّن الفضل بن يحيى سنة «١٧٨ هـ» والياً على الجانب الشرقي من الدولة، كما ذكرنا، شخص إلى ولايته وجعل مقرَّه في خراسان، وأقام فيها عاماً وبضعة أشهر، تصرَّف فيها تصرُّف الآمر الناهي الذي ليس عليه رقيب، وقام بأعمال مختلفة كان بعضها حسناً وبعضها سيئاً، فكان أخطر ما عمل: تنظيم جيش عظيم قوامه خمسماية ألف جندي، بِحُجَّةِ الدفاع عن حدود البلاد هناك، وسمّاه «العبّاسية» ودوّن أسماء جنده في سجلات خاصة، وأجرى عليهم الأرزاق الدائمة من بيت مال المسلمين، وجعل ولاءهم جميعاً لآل برمك، دون غيرهم[1].

وكانت أخباره تصل الرشيد بالتفصيل، عن طريق صاحب البريد.. فلمّا سمع بتكوين هذا الجيش، الذي لم يتكون بمثل عدده جيش قبل اليوم، أوجس ريبة في نفسه، وساءه أن يُقدم البرامكة على مثل هذا العمل دون أن يؤخذ له رأي فيه... ولكنه لم يستطع عمل شيء

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٤.

وهو في بغداد، ولم يشأ أن يُظْهِر مخاوفه لأحد من البرامكة الذين هم بجانبه، واستعان على أمره بالصبر... وصادف أن ورده كتاب آخر من صاحب البريد، ينتقد فيه بعض تصرفات الفضل، فناوله الرشيد إلى يحيى، وقال له: إقرأه، واكتب لابنك وانصحه. فكتب له يحيى في الحال، وأبدى له النصح في أمور كثيرة، لكنه لم يتعرَّضْ لأمر الجيش في شيء[1].. فما كان من الرشيد إلا أن عجَّل على الفضل بالعودة إلى بغداد دون أن يعزله عن ولايته.

وتحرَّك الفضل من خراسان في موكبه، ومعه فرقة من جيش العبّاسية عددها عشرون ألف جندي مسلَّح من الأعاجم، وليس فيهم عربي واحد، باسم الحراسة في الطريق، وأبقى مكانه أخاه «موسى بن يحيى» وكان جريئاً مجازفاً، كثير المغامرات، وله أخبار عند الناس في هذا المجال[2]. وخَرَجَ الرشيد لاستقباله مع كبار حاشيته ووجهاء عاصمته، وعسكر في بستان أبي جعفر، حتى أقبل ومن معه، فتصنَّع السرور والغبطة بِمَقْدَمِهِ، واحتضنه وقَبَّلَه، وأوْعز إلى الخطباء والشعراء أن يلقوا آيات مَدْحِهِم وثنائِهِم بين يديه، فتباروا في ذلك، وانقلب الحفل إلى مهرجان ملكي فخم، لم يُعقد مثله لوزير قبله.

وكان «مروان بن أبي حفصة» أحد الشعراء المنشدين، فقال في قصيدته مُنَوِّهاً بمكرمة البرامكة في تكوين جيش العباسية.

ما الفَضْلُ إلاّ شَهابٌ لا أفولَ لهُ	عِنْدَ الحُروبِ إذا ما تَأْفَلُ الشُّهُبُ
حامٍ على الملكِ قَومٌ غرَّسَهُم	مِنَ الوراثةِ في أيديهِم سبَبُ
أمْسَتْ يَدٌ لِبَني حامي الحَجيجِ بِها	كَتَائِبٍ ما لَها في غَيْرِهِمْ أَرَبُ
كَتائبٍ لِبَني العبَّاسِ قدْ عَرَفَتْ	ما أَلَّفَ الفضلُ مِنها العَجْمُ والعَرَبُ
أثْبَتَ خَمْس مِئِينَ في عِدادِهِمِ	مِنَ الألوف الَّتي أحْصَتْ لكَ الكُتُبُ

فكانت جائزته من الفضل مائة ألف درهم[3].

(١) ابن خلّكان: ج ١ ص ١٠٥.

(٢) الجهشياري: ١٩٨

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٣٦٢

وانتهى كل شيء على ما يرام، واستطاع الرشيد أن يخفي هواجسه عن البرامكة والناس أجمعين، وراح يترقَّبُ أخبار هذه الفرقة الأعجمية التي كان عليها أن تعود إلى مواطنها بعد أن أدَّتْ واجبها في حراسة موكب الفضل من خطر الطريق، لكن البرامكة لم يأتوا بها ليُرْجِعوها، بل لِتَبقى تحت إمرتهم في قلب بغداد. فهيأوا لها ربضاً واسعاً إلى جانبهم في معسكر الرصافة، وأنزلوها فيه، فعُرفت عند البغداديين، فيما بعد، باسم «الكرمينية»[1].. ولم تمضِ فترة قصيرة من الزمن على إقامتها، حتى رأينا عدداً من جنودها يسكنون رحبة من رِحاب قصر الخلد، اختارَهُم البرامكة ليكونوا حرساً لشخص الرشيد وأسرته، كما بيّنا في فصل سابق[2].

والغريب أن نجد بعض المؤرخين يمُرُّ على هذا الحادث الخطير، المؤيَّد بالنصوص التاريخية والأدبية، مرور الكرام، بدون بحث أو تعليق، ويرويه بأخبار متقطِّعة مبعثرة هنا وهناك دون واصل يصل بينها. كما أن بعضهم الآخر أهمله ولم يرْوِه، كأنه أمر تافهٌ لا يستحقُّ الاهتمام، ولا يصلح لأن يُعتبر سبباً ولو بسيطاً من أسباب الخلاف بين الرشيد ووزرائه، إن لم يكن من أسباب نكبتهم... بينما هو، وبحسب رأينا، العامل الرئيسي لذلك الصراع الدامي.

والذي يمعن الفكر في هذه الخطة المدبَّرة، يجدها انقلاباً حقيقياً مسلَّحاً، وضع مصير الرشيد والخلافة العباسية بالذات في قبضة البرامكة... وإن شِئْتَ فَقُلْ: هو أخطر وأدقُّ موقف حاسم وصل إليه الصراع بين الفرس والعرب على الحكم منذ الفتح الإسلامي: إذ لم يَبْقَ، في الواقع، بين سيادة العنصر العربي وبين خضوعه لحُكْمِ الفرس، إلا غضبة برمكية، فيعتقل الحرس شخص الرشيد، وتحتلُّ فرقة «الكرمينية» مدينة بغداد في زُهاء ساعتين، ثم يزحف جيش «العبّاسية» من خراسان لضمِّ باقي أقاليم الدولة إليه... ومن أين للعرب، آنذاك، قوة جاهزة تقف أمام تقدُّم هذا الجيش الذي لم يُخْلَقْ مثله في البلاد؟؟

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٤٦٣ ـ وجدنا اسم هذه الفرقة في الطبري «الكربنيه» وفي مصادر أخرى «الكرمينية» وهو الأصح.

(٢) زينة المجالس ـ بالفارسية: ١٧٤ ـ والأغاني: ج ١٤ ص ٨٠.

هذا إذا أراد آل برمك إعادتها فارسية خالصة، وما ذلك على طموح جعفر بن يحيى ببعيد[1]. وأما إذا أزمعوا على الاكتفاء بخلْعِ الرشيد ونصْبِ غيره ممن يريدون من أمراء بني العباس، فالأمر في غاية السهولة، وقد صَدَقَ جعفر البرمكي حين قال لأحد خواص الرشيد، على أثر عتاب وجَّهَهُ إليه: «... ووالله لئن كلَّفَنا الرشيد بما لا نُحِبُّ، لَيكونَنَّ وبالاً عليه سريعاً»[2].

ومهما كانت نوايا البرامكة في خُطَّتِهم هذه، فالاحتمالات كثيرة، وموقف الرشيد أمام هذا الأمر كان من أخطر المواقف التي مرّتْ في تاريخ حياته، وهو في الواقع أكثر حرجاً من موقف جده أبي جعفر المنصور تجاه خصمه «أبي مسلم الخراساني»... فقد كان المنصور حينها طليقاً في قصره، آمناً في عاصمة دولته، وحوله جيوش وقواد من العرب، يستطيعُ جمْعَهُم متى أراد الزحف على ذلك الخراساني المتمرِّد... أما حالة الرشيد فلم تكن كحالته وقد أصبح اليوم أشبه ما يكون بالأعزل بين فَكَّيْ أسد رابض، لا يستطيعُ الابتعاد عنه، ولا يدري متى يَفْتِكُ الوحش به.

وإذا أعطى المؤرخون العذر لأبي جعفر المنصور في قتله أبا مسلم، للحفاظ على ملكه، فصراع الرشيد مع البرامكة كان معركة دفاع عن النفس، وعن خلافة بني العبّاس، وربما كان دفاعاً عن سيادة القومية العربية التي كانت قد تكالبتْ عليها الأحداث منذ زمن غير قصير.

---

(١) الأغاني: ج ١١ ص ٩٢

(٢) الجهشياري: ٢١١.

الرشيد يُحطِّمُ قيوده

عاد الرشيد من بستان أبي جعفر، بعد استقبال الفضل بن يحيى، وفي صدره ألف هاجسة وهاجسة، وفي رأسه تضطربُ الأفكار والآراء، وهو ينوء بين عاملين يتنازعانه: عامل الخوف من أن يغضب البرامكة عليه في شيء.. فتكون النتيجة مجهولة العواقب، وعامل الحزم والرجولة الذي يدعوه إلى التشمير عن ساعد الجدِّ، وعدم احتمال الأذى.

وقضى ليلته ساهراً يُقَلِّبُ الأمور على جوانبها، ويستعرض الواقع، فَيَصِلُ دائماً إلى نتيجة واحدة: هي أنه خليفة بالاسم فقط، أمام خصوم قابضين على ناصـــية الأمور... هذه خراسان تغلي بقوميَّتها وسلاحها، والعرب في رقدةٍ عميقة، أضعفتْهُم انتفاضة بني هاشم على حِراب الفرس، وأهملتْهُم دولة بني العبَّاس، فانكمشوا بعض الشيء منها، ثم ناموا عنها.. «وأما بغداد فأصبحت برمكية بحتة، وكل شيء فيها يؤول إلى آل برمك في مصيره: ففيها قواهم العسكرية، وأبناء جلدتهم وصنائعهم، وما أكثر صنائعهم وأعوانهم والمنافقين لهم!! حتى حاشية البلاط مشحونة بجواسيسهم، وحتى الشخصيات البارزة من بني العبَّاس تؤيِّدُهم وتتودَّدُ لهم... وما قوة خصوم البرامكة، وهم ما بين امرأة وشباب من بني هاشم، أو شاعر أو أديب؟؟ اللهُمَّ إلا عدد من كبار القواد العرب، وحفنة من رجال السياسة الناقمين عليهم لأسباب شخصية تافهة.. وليس في كل هؤلاء غير ثلاثة يستطيعُ الرشيد أن يبوح لهم ببعض ما في صدره: الفضل بن الربيع الحاجب، ويزيد بن مزيد القائد، وعلي بن عيسى بن ماهان الفارسي».

وأسفر صبح تلك الليلة، فاستدعى يزيد بن مزيد الشيباني، وحادثه طويلاً ثم قال له: «يا يزيد، ما بقي في العرب من يفتكُ؟؟» فقال يزيد: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟؟ قال: «رجل يَقْتُلُ يحيى بن خالد» قال: أنا أَقْتُلُهُ وآتيكَ برأسه، قال الرشيد: «ليس كذا أريد، إنما أريد أن

يَقْتُلَهُ رجل، فأقْتُلُهُ به»[1]. وكان يعتقد، في بادىء هذه المرحلة، أن المدبر لكل هذه الخطط هو يحيى بن خالد.

ثم استدعى الفضل بن الربيع، وحادثه طويلاً، وقال له: «يا أبا العباس، كيف وجدت مهرجان أخينا الفضل بن يحيى بالأمس؟؟» قال: ذاك بفضل أمير المؤمنين، قال: وكيف رأيت السلاح الذي جاء معه؟؟ قال: إنه من خراسان، قال الرشيد: وما قولُكَ ببقاء هذه الفرقة في بغداد؟؟ قال: وجود أمير المؤمنين أمنٌ لنا وسلام قال: قاتلك الله، ما أبعد مرماك؟!(٢)

فكّر الرشيد قبل كل شيء بالعمل على تمزيق جيش «العبّاسية» في خراسان، وإضعاف شوكة البرامكة فيها، وتقليص نفوذ أعوانهم شيئاً فشيئاً، دون إحداث ضجة ما، تستفزُّ الخصوم وتُحدث المشاكل.. وقرّر أن يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان، وقد دلّت النتائج على أنه من أقدر الناس على كَتْمِ أسراره، كما أنه من أمهرهم في التصنُّعِ والتمثيل كما يريد، وفي التظاهر بالرِّضا، وهو في أشد سورة غضبه، إذا اقتضى الأمر ذلك.

فكان أول ما قام به من عمل، أن عزل الفضل بن يحيى عن خراسان وأبقاه على ولاية «طبرستان، والرويان»، ثم عزلهُ عنهما وتَرَكَهُ عاطلا بدون عمل[3]. وعيَّن أخاه جعفراً مكانه سنة «١٨٠ هـ ـ ٧٩٦ م»، فأراد جعفر الذهاب إلى خراسان، فاحتجَّ الرشيد له ببعض الحجج ومنعه عن السفر، ثم عزلهُ ولم يَمْضِ على تعيينه، كما أسلفنا، أكثر من عشرين يوماً، وأبقاه وزيراً إلى جانبه، وولّى مكانه «عيسى بن جعفر» العباسي، أخا زبيدة، فَلَمْ يجد جعفر بُدّاً من الرضوخ أمام هذا الأمر لمكانة عيسى بن جعفر في قومه، وليس في تعيينه ما يُهدِّدُ مصالح البرامكة هناك.

فكان تدبير الرشيد موفَّقاً جداً، استطاعَ به تجنُّب إغضاب البرامكة بعد أن سَحَبَ

---

(١) نثر الدر لمنصور بن الحسين الآبي ـ مخطوط: ج ٢ ص ٨٢ ـ أنظر كتاب: البرامكة في ظلال الخلفاء.

(٢) المقريزي: ٧٣.

(٣) الجهشياري: ٢٢٧.

أيديهم جميعاً من منصب الولاية على منطقة نفوذهم، ولم تكن توليَةُ عيسى بن جعفر سوى وسيلة للوصول إلى هذه النتيجة، ريثما يختار الرجل الذي يودعه سرَّ خطَّته وتنفيذها بحسب إرشاده.

ومضت أشهر قليلة على ولاية عيسى، بذل الرشيد خلالها جهداً في مصانعة البرامكة والتودُّد إليهم، والتظاهر بحبِّهُم والرِّضا عنهم، حتى حانت الفرصة، فعزل عيسى عن ولايته واختار لها «علي بن عيسى بن ماهان» وكان أشدَّ الناس عداوة ونقمة على أبناء برمك الذين استطاعوا إقصاءه عن المناصب، منذ خلافة الرشيد حتى ذلك اليوم الذي ولاَّه على خراسان، كما ذكرنا آنفاً.

فكان طبيعياً جداً أن يعترض البرامكة على هذا التعيين الخطر، وتثور ثائرتهم عليه، فجاؤوا إلى الرشيد، يبيِّنون له خطأ اختياره، ويحذِّرونه من سوء تدبير ابن ماهان، ويعرضون عليه أسماء كثيرة عوضاً عنه، من بني العبّاس ومن خاصة الرشيد، وأسماء أخرى من خصوم البرامكة أنفسهم، إلا ابن ماهان... فكان الرشيد يتبالدُ أمامهم، ويتظاهرُ بالبراءة، ويقول لهم: «إن ابن ماهان هذا فارسي يعرف شؤون هذه البلاد التي ولَّيْناه عليها، وقد حرمناه زمناً من أعمالنا، فَلْنَصْطَنِعْهُ، ولْنُجَرِّبْهُ ... فإن أساء الإدارة عزلناه. وما أسهل ذلك»(١).

وأسرع علي بن ماهان إلى مقرِّ عمله في خراسان، فقطع رواتب جيش «العبّاسية» فانْحلَّ من نفسه دون أيِّ استشارة. واضطهد أعوان البرامكة وصنائعهم، وقتل بعض الوجهاء والرؤساء من اتباعهم، وتنقَّل في المدن والقصبات بين «الريِّ، ومرو، وسمرقند» وجمع أموالا طائلة، وجَّهَ بها إلى الرشيد، فَلَمْ يعْجُبْ ذلك يحيى وقال: «يا أمير المؤمنين إني أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له، حتى ظَلَمَ فيها الأشراف، وأخذ أكثرها ظلماً وتعدِّياً. ولو أمرني أمير المؤمنين لأتَيْتُهُ بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ، ثم أنكُرُها عليهم» فسكت الرشيد، وتَصَنَّعَ الأسف(٢).

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٤٤

(٢) الجهشياري: ٢٢٨

ولعلَّ للبرامكة يداً في ما ورد، بعد ذلك، على الرشيد من كبراء خراسان ووجهائها يشكون ابن ماهان، ويذكرون أنه عاث ببلادهم ووَتَرَ أشرافها، وأخذ أموال أهلها، واستخفَّ برجالها، وذكروا له ولغيره ما كان عليه ابن ماهان من سوء السيرة وخُبْثِ الطوية ورداءة المذهب وسألوا أمير المؤمنين أن يُبدِلهم به من أحبَّ من كفاته وأنصاره وأبناء دولته وقواده.. فأرسل الرشيد إليه يستقدمه إلى بغداد ليحاسبه، وكان ذلك على ما نعتقده إرضاء لشعور البرامكة، وبينما هو في طريقه إلى العاصمة، قال الرشيد ليحيى بن خالد: إذا ثبتت إدانة علي بن ماهان، فمَنْ ترى أن نُعيِّن مكانه على خراسان؟؟ فأدرك يحيى ما أراد الرشيد، وأجابه: «عليك بيزيد بن مزيد الشيباني»[1].

وقَدِمَ ابن ماهان «سنة ١٨٣ هـ ـ ٧٩٩ م» يحمل للرشيد أموال خراسان، كما يحمل أخبارها، فأفاده بأن النار لا تزال بقاياها كامنة في الرماد، وفي حاجة إلى إطفائها، وأن أصابع البرامكة تلعبُ فيها من وراء ستار، وهذا «موسى بن يحيى البرمكي» يُكاتبُ دهاقين الفرس، ويعمل على الانسلال إليهم في الوقت المناسب، والوثوب معهم على السلطان. وأن أهل خراسان يحبّونه ويطيعونه، وله فيهم أعوان وأنصار[2].

فَوَقَرَ هذا الكلام في نفس الرشيد[3]. وأرسل إلى يحيى بن خالد يسأله عن موسى، فقال يحيى: «إن موسى لَحِقَهُ دين فاختفى عن أعين دائنيه، ولا أعلم أين هو»[4]. فامتَعَض الرشيد من هذه الحُجَّة المصطنعة التي لا يَقْبَلُها العقل، وكيف يستقرضُ ابن يحيى وأخو جعفر مالاً ثم يهرب من دائنيه كما يفعل الفقراء المعوزون؟؟ وازدادت ريبة الرشيد بيحيى وأولاده، كما اعتقد بصِحَّة أقوال ابن ماهان، فأبقاه على عمله، وأرسله مزوَّداً بإرشاداته وأوامره. فبقي هناك أعواماً طويلة حتى كان من أمره ما سنذكره.

يرى بعض المؤرخين، أن مخالفة الرشيد رغبة البرامكة في تعيين علي بن ماهان على

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٤٨

(٢) ابن الأثير: ج ٦ ص ١١٧.

(٣) ابن الأثير: ج ٦ ص ١١٨

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٤٨

خراسان كانت غلطة كبيرة سبَّبتْ له المتاعب، وأغضبت أعيان خراسان عليه حتى ساروا يؤيدون كل ثائر على سلطانه... وهذا رأيٌ يدلُّ على عدم العِلْمِ بِخُططِ البرامكة التي نحن بصددها. والتي أرادوا بها ما أرادوا... نعم كان ابن ماهان سيِّئ الإدارة كما كان يقال عنه، لكن اختيار الرشيد له كان لغايات خطيرة، دونها حسن الإدارة وإرضاء الناس.

وقد نجح الرجل في مهمته خير نجاح، وإن قصَّر في غيرها... وربما كانت قسوته وأخذه القوم بالشدة والغلظة خير ضمان لإحباط كل تكتل مسلح يقوم بإيعاز من البرامكة متى أرادوا. كما أن تشتيته جيش «العباسية» وملاحقة زعمائه من صنائع آل برمك قضى على نفوذهم إلى حد ما، وضَرَبَ خطتهم المسلحة في الصميم، فأضعفها، ولم يَبْقَ لفرقة «الكرمينية» في بغداد تلك القيمة العسكرية، بعد فصْلِها عن مصدر القوى والسلاح الكامن في خراسان.. وهذا كل ما كان يريده الرشيد من تعيين ابن ماهان، ولأجله، وحده، صبر على أخطائه وتصرفاته المنتقدة في تلك المنطقة أعواماً طويلة، وما كان من عادته الصبر على أخطاء العمّال وسوء تصرُّفاتهم، كما أسلفنا القول.

الرشيد والبرامكة، وجهاً لوجه

نعتقد أن الفترة التي عبرت بين قدوم الفضل بن يحيى مع فرقة «الكرمينية» من خراسان، وبين تولية علي بن ماهان على إدارتها، وإنجاز مهمته فيها «١٧٩ ـ ١٨٣ هـ» كانت فترة صعبة على الرشيد، ثقيلة على نفسه، لاضطراره إلى الانقياد وفق رغبات البرامكة انقياداً أعمى، خشية إغضابهم أو استثارتهم عليه.. ويقيناً إن أقصى ما وصل إليه طغيانهم، واستغلال نفوذهم لمصالحهم الخاصة، كان في هذه الفترة التي وصل فيها جعفر بن يحيى إلى الجلوس على سرير الخلافة بجانب الرشيد.

وكانت المحبة بينهما قد بدأت تَضْعُفَ وتنحلُّ في الباطن لا في الظاهر. وبدأ الرشيد يتململ ويتذمَّر من أدنى سبب، كلما جاءتْهُ الأخبار بما يسيئه ويُضاعف شكوكه بنواياهم... وقد قيل: إن أحد خواص جعفر، نصحه بأن لا يطاول الخليفة ببذخه وسلطانه خوف تغيره ونقمته، فقال جعفر: «إن الرشيد أعجز من أن يقوم بما يسيء إلينا، وإنه والله ما أكلَ الخبز إلا بنا، وإن دولته لم تَقُمْ إلا على أكتافنا»[١].. وإنه قال في مجلس آخر: «والله لَئِن كلفنا بما لا نُحبُّ، ليكونن وبالا عليه سريعاً»[٢]. وإنه قال في مجلسه أمام وجهاء من خراسان ودهاقينها، جواباً لرجل منهم مَدَحَ «أبا مسلم الخراساني» وكيف استطاعَ نَقْلَ الخلافة من بني أمية إلى بني العباس «لا يستغرب ذلك منه، ولا فضل له به، وقد سفك دماء كثيرة، وإنما الرجل من ينقل الدولة من قوم إلى قوم بدون إراقة محجم من دم»[٣].

---

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٤٠٧.

(٢) الجهشياري: ٢١١.

(٣) زينة المجالس ـ بالفارسية: ١٧٤ ـ أنظر تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤ ص ١١.

كل هذه الآراء المريبة وأمثالها كانت تَصِلُ إلى سمع الرشيد، فيكتمها عنهم، ويتظاهر بالتودُّد لهم والثقة بهم ما دامت كفَّتهم في تلك الفترة راجحة على كفَّته، وما دام علي بن ماهان لم يُسدِّدْ ضربته بعد في خراسان.. حتى إذا ما تمَّ له ذلك، تنفَّس الرشيد الصعداء، إلى حدٍ ما، وبدأ يُدبِّرُ أمره تجاههم على شيء من الهدى والبصيرة.

ولا يُخفى، أن سيطرة بن ماهان على إدارة خراسان وما يتعلَّق بها، وقبْضَتُهُ على زِمام الإدارة بيَدٍ شديدة قاسية، وتبديده جيش «العبّاسية» وإضعاف نفوذ البرامكة، كل هذا ضمِنَ للرشيد جانباً واحداً من الخطر الذي ذكرنا احتمالاته السيِّئة، وذلك بقطعه على البرامكة طريق القيام بحركة واسعة تَقْلُبُ دولة بني العبّاس إلى دولة فارسية خالصة.. لكن بقاء فرقة «الكرمينية» في قلب بغداد، واتخاذ حرسٍ منها لقصر الرشيد، جعل الجانب الثاني من الخطر قائماً، وهو احتمال استغلال البرامكة هذه القوى من أجل اعتقال شخص الرشيد أو اغتياله، بعد الاتفاق مع أمير عباسي أو عَلَوي يَحُلُّ محلَّه.. وهناك تكون المعارضة من العرب، بعد وقوع الحادث، ضعيفة، وقد لا تكون.

بيد أن خطر هذا الاحتمال الأخير كان أضعف من سابقه، لضِيقِ نطاقه، لأن باستطاعة الرشيد أن يُراقب العَلَويين ويضيِّق عليهم، ويتتبَّع خطوات المريبين من أمراء بني العباس من أصدقاء البرامكة، وهم معروفون عنده، وعدد الطامعين منهم قليل جداً.

والجدير بالذكر هنا، أن السياسة التي اتَّبعها يحيى بن خالد تجاه الرشيد، منذ البداية، كانت تتركَّز في نقطة واحدة، وهي جَعْلُهُ دائماً يشعر بخطر يُهدِّدُ بقاء خلافته، فيبقى بحاجة إلى مساعدتهم، والتعاون معهم بأي ثمن كان، وبذلك يدوم حكمهم، ويبقى نفوذهم.. وقد رأيناه يمُدُّ «يحيى بن عبد الله العَلَوي» بمائتي ألف دينار مساعدة له على القيام بحركته في بلاد الديلم، كما ذكرنا، ثم هو يقضي على تلك الحركة بواسطة ابنه الفضل، بعد أن أرهب الرشيد بها[١]. وفَعَلَ مثل ذلك مع «أحمد بن عيسى بن زيد» العَلَوي فأرسل له سبعين ألف دينار، في البصرة، ليقوم بالدور نفسه الذي قام به «يحيى العَلَوي»[٢]. إلى آخر ذلك من المناورات. وكانت خطته هذه ناجحة كل النجاح، لكن جعفر بن

---

(١) الجهشياري: ٢٤٣.

(٢) الجهشياري: ٢٤٣.

يحيى انحرف في هذه المرة عن سياسة أبيه، وجعل الرشيد يشعر بالخطر قادماً من البرامكة أنفسهم، فكان من أمره معهم ما نحن بصدده.

وكانت أول بادرة ظهرت منه تجاههم، على أثر ضمانه جانب خراسان، أن أبعد الفضل بن يحيى عنه، وهجره طويلاً، ولم يكلِّمْه، ولم يَقْبَلْ مواجهته، حتى ضاق به الأمر، فاضطرَّ إلى أن يخرُج في صيف «١٨٣ هـ» من بغداد إلى الرقّة، ومعه أمه «زينب بنت منير» ليتشفَّع بها عند الرشيد، وكانت قد أرضعته في طفولته. فقبل شفاعتها، ورضي عنه، ولكنه لم يُوَلِّه على عمل من الأعمال، وأبقاه عاطلاً. فكان درساً قاسياً للفضل جعله يتجنَّبُ مجالسته والاتصال به إلا لضرورة أو مجاملة، أو بطلب منه(١).

وتدلُّ الأخبار على أن الرشيد كان في ذلك العام أو قبله، قد استقرَّ به الرأي على أن يوقِع بالبرامكة ويجتثَّ جذورهم، بقتلِ جعفر وسجن الباقين، أو بقتلهم جميعاً.. وقد حدّث الجاحظ عن مسرور الخادم فقال: «كنت مع الرشيد في بعض سني حَجِّه، فرأيته قد استلم ستار الكعبة، وهو يلتفت يميناً وشمالا، ويقول: اللهمّ إني استخيرك بِقَتْلِ جعفر، وردَّدَها مراراً، فلمّا سمعت ذلك تسلَّلتُ من الستار خشية أن يراني فَيَقْتُلَني. وكان بين ذلك وبين عام قَتْلِه خمس سنين»(٢) أي في العام «١٨٢ هـ».

وعلى الرغم من تكتّم الرشيد في هذا الأمر، فقد كان يشتدُّ به الضيق أحياناً إلى حدٍ يجعله في حاجة إلى أن يُنفِّس عمّا في صدره، فتبدر منه همسات في آذان أقرب الناس إليه وأشدِّهم خصومة للبرامكة، تنمُّ على ما أضمره نحوهم.. فمن ذلك ما رواه «اسماعيل بن صبيح» إذ قال: كنت عند الرشيد وحدي، فقال: يا اسماعيل، قُمْ وانظُر إلى جوانب هذا المكان، لعلَّ فيه أحداً يسمع ما سأقول. فقُمتُ أبحث في جوانب البهو، فَلَمْ أجدْ أحداً، فأخبرته بذلك، فقال: إجلسْ هنا، فجلستُ، فقال: إني أريد أن أفشي إليك سرّاً، والله إن سمعتُه من أحد من الناس لأضْرِبَنَّ عنقك، فاضطربت من ذلك، وقلت: إن كنت يا أمير المؤمنين، قد قُلْتَهُ لأحد أو تقوله فلا حاجة لي إليه، قال: ما قُلْتُهُ لأحدٍ ولا أقولُه: «إني أريد أن أُوقع بالبرامكة إيقاعاً ما أوقِعُه بأحد، وأجعلهم أحدوثة ونكالاً إلى آخر الأبد» فقلت له

(١) الجهشياري: ٢٢٧.

(٢) كتاب التاج: ٦٦

وأنا مرتعب: «وفقك الله يا أمير المؤمنين، وأرشدك أمرك» قال: إذهب الآن في سبيلك.. وكان هذا قبل وقوع الحادث بعامين، أي سنة «١٨٥ هـ».

وفي رواية أخرى: عن السندي بن شاهك قال: دعاني الرشيد إليه وهمس في أذني وقال: «إذا كان بعد سنة من يومك هذا، فوكِّلْ بدور البرامكة وأسبابهم سراً، ولا يشعر بذلك أحد» فبقيت قلقاً انتظر ذلك اليوم على أحرٍّ من الجمر، حتى كانت الساعة المعينة، فجاءني الخبر بنكبة القوم[١].. كل هذا يَدُلُّ على أن الرجل كان يسير على خطة مرسومة متقنة، وليس كما يزعم خصومه، بأنه نكب وزراءه ارتجالاً لمجرَّد غضبة أو لوقوع حادث من الحوادث التي استثارته فجأة فأوقع بهم.

وبلغ الحزم والحنكة في الرشيد إلى أنه لم يُسيء لجعفر بشيء، ولم يُفزعه أو يستثره بكلام أو حركة ما، بل أبقاه بجانبه آمناً مطمئناً حتى آخر ساعة من أخْذه بالسيف، مع أنه كان موجهاً هدفه نحو شخصه قبل جماعته، وربما كان ذلك عن علم منه بأن جعفراً قد تزعَّم الأسرة البرمكية، وأنه اجرأ من غيره على التمرُّد والعبث إذا استُثير أو شعر بخطر مهدِّد.

ولم تكن حال الرشيد مع يحيى كذلك، وقد دلَّت الروايات على أنه كان يسخطُ عليه تارة ويرضى تارة أخرى.. دخل عليه يحيى ذات مرة بدون إذن كعادته، وسلَّم، فردَّ الرشيد رداً ضعيفاً، فأحس يحيى أن في نفسه شيئاً منه، ولم يُطِقِ الرشيد أن يكتم ذلك، فانصرف بوجهه إلى أحد جلسائه، وقال له: يا فلان، أيدخل عليك، وأنت في مجلسك، أحد بلا إذنك؟؟ قال: لا، ولا يَطْمَعُ في ذلك. قال الرشيد: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن؟؟ فعلم يحيى بأنه هو المقصود، فقال: «يا أمير المؤمنين، قدَّمني الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعة، وما هو إلا شيء خصَّني به أمير المؤمنين ورفع ذكري. حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه، مجرَّداً حيناً وحيناً في ثيابه، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يُحِبُّ. وإذ قد علمت، فإني أكون عنده في الطبقة الثالثة من أهل الإذن» فأطرق الرشيد حياء وقال: «ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون»[٢].

---

(١) الجهشياري: ٢٣٦

(٢) العقد الفريد: ج ٢ ص ١٣٧

وأراد الدخول عليه في وقت آخر، فرآه، عن بعد، خالياً وحده يُفكِّر، فَلَمْ يشأْ أن يُعكِّر صفو تفكيره، ورجع عنه، لكن الرشيد كان قد رآه، أو أُخْبر به، فقال للخادم إلحَقْ بيحيى، وقلْ له: «خُنْتَني فاتَّهمْتني؟؟» فقال يحيى للرسول: قُلْ لأمير المؤمنين: «إذا انقضتِ المدة كان الحتف في الحيلة، والله ما انصرفت عن خلوتك إلا تخفيفاً عنك»[١].

ثم ركب يحيى إلى أحد أصدقائه من الهاشميين يسأله عن سبب تغيُّر الرشيد عليهم، فقال له الهاشمي: أظنُّ أن أمير المؤمنين قد أحبَّ جمْع المال، وقد كثُر ولده، فأحبَّ أن يقتني لهم الضِّياع، وقد كثُر الثراء عند أصحابك، فلو نظرت إلى ما في أيديهم، فجعلت بعضه لولد أمير المؤمنين، وتقرَّبت به إليه كان أسلم لك ولهم. فقال يحيى: يا أخي، جعلني الله فِداك، لأن تزول النعمة عني أحبُّ إلي من أن أزيلها عن قوم كنت سبباً لهم بها[٢].

كان يحيى يرى من الرشيد تناقضاً ومفارقات: فيوماً راضياً مندمجاً في أجوائهم، ظريفاً في حديثه معهم، ويوماً متغيِّراً عليهم، يجدُّ إذا هزلوا ويهزل اذا جدّوا[٣]، وربما أمر الخدم بأن لا يقوموا في وجه يحيى عند دخوله، ولا يُلبُّوا نداءه إذا طلب منهم حاجة ولو شربة ماء[٤]. فيذهب بيحيى الظنّ إلى أن أسباب ذلك اختلاط جعفر به، وطول عشرته ومجالسته له، فيلتفت إلى ابنه هذا، ويلومُه على اتِّصاله الدائم به ويقول له: «إن المخالطة تُظهر العيوب.. فإذا أردت الشرب والغناء، فَابْقَ في قصرك بعيداً عن الحاسدين، فإنّ في الشرب زلاّت يخشى عاقبتها، وفيه فضيحة للأسرار وإبراز للميول»[٥].

فلمّا لم يَلْقَ منه أذناً صاغية قال له: «والله لا يكوننَّ هلاك أهل هذا البيت إلا بسببك» ثم هجره وصار يعرض عنه. وكتب له مرة يقول: «إني إنما أُهملك ليعثر الزمن بك عثرةً تعرف بها أمرك، وإن كنتُ أخشى أن تكون التي لا شوى لها»[٦]. أخيراً، وقد ضاق به الأمر، توجَّه

---

(١) الجهشياري: ٢٢٧.

(٢) الجهشياري: ٢٢٧.

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٣

(٤) الطبري: ج ٣ ص ٦٦٩

(٥) الطبري: ج ٣ ص ٦٦٧

(٦) الطبري: ج ٣ ص ٦٦٥

إلى الرشيد في ساعة من ساعات سروره، وقال له: «يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست آمنُ أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك. فلو عفيته، واقتصرت به على ما يتولاّه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي، وآمن لك عليّ» فأجابه الرشيد، بأن ليس من هذا شيء.

لكن يحيى لم يطمئنَّ لكلام الرشيد، وهو يسمع ويَرَى آثاراً واضحة تدلُّ على انقلابه وتغيُّره.. وأيُّ شيء أوضحُ من أن يأمُر بإخراج الزاهد «محمد بن الليث» من السجن بعد أن حبسه بسبب تحريضه على البرامكة، وقد ذكرنا القصة، فيقول له: اتحبُّني يا ابن الليث؟؟ فيقول: «لا والله يا أمير المؤمنين، وضعت في رجلي الأكبال، وحلت بيني وبين العيال، بلا ذنب أتيت ولا حدث أحدثت، سوى قول رجل يكيد الإسلام وأهله» فيقول الرشيد: «صدقت، انتقم الله ممن ظلمك. وأخذ لك بِحقِّك ممن بعثني عليك»، ويقصد به يحيى[1].

وماذا يستطيعُ يحيى أن يصنع اليوم، وقد أدركته الشيخوخة واتعبته الحوادث، وخرج كل شيء من يده إلى يد جعفر، سوى أن ينطوي على هواجسه، وهو لا يعلمُ أسباب تغيُّر الأحوال عن ذي قبل، وربما كان يجهل مؤامرات أولاده، ومخاوف الرشيد من تدابيرهم وعبثهم.. ويقول أحدهم: رأيت يحيى بن خالد في الكعبة متعلّقاً بأستارها ويقول: «اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلبني نعمتك عندي فاسلبني، اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلُبني أهلي وولدي فاسلُبني، إلا الفضل...» ثم ابتعد عن الستار، وعاد إليه يقول: «اللهمّ سمج بمثلي أن يرغب إليك ثم يستثني عليك.. اللهمّ والفضل» وكان هذا قبيل نكبتهم[2].

لكنّ الأيام التي طالت على الرشيد وهو يترقّب الفرصة، أفهمته بأن رأس الحركة هو جعفر، وإن آلتها موسى بن يحيى المختفي، وليس للفضل ولا لأبيه نشاط ضده، بعد أن ألْقَيا السلاح واعتزلا مجالسته إلا عند الضرورة، وراحا يطلُبان من الزمن المهادنة. كما أن نطاق مخاوف الرشيد تقلّص حتى انحصَرَ في مراقبة أمير عبّاسي واحد كان يشكُّ في نواياه وصِلَتِه بآل برمك، وهو عبد الملك بن صالح:

وقد رأينا كيف كان عبد الملك هذا من خصوم البرامكة، ثم اتَّصل بهم فأجلُّوه وأكرموه، وتقرَّب منهم حتى أصبَحَ من أصدقائهم ... وكان الرشيد منذ خلافته حتى تلك

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٦٩

(٢) الجهشياري: ١٨٠.

الأيام يُحبُّه ويُقرِّبه، ويُعظِّم شخصيته، وقد أسند إليه أعمالاً كثيرة فولاّه على التعليم وأعطاه محافظة الثغور وأرسله مراراً لغزو الصائفة، ثم وضع ابنه «القاسم» في حِجْرِهِ ليُشرف على تهذيبه، ولبَّى طلبه في إعطاء القاسم هذا ولاية العهد الثالثة ـ كما سنرى.. فلمّا اصطدم الرشيد بالبرامكة ارتاب في أمره، وضيَّق عليه المراقبة، ثم صار يشكُّ في نيَّتِه، ويخشى أن يكون متواطئاً مع آل برمك ضده.

يقول الطبري: جاء عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، ومعه كاتب أبيه «قمامة» إلى الرشيد، وذكر له بأن أباه يريد مخاتلة أمير المؤمنين، ويطمع بالخلافة. فَدَعاه إلى مجلسه، وقال له: «أكُفْراً بالنعمة، وجحوداً للفضل؟؟» فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ما ذاك إلا بَغْيُ حاسد نافسني فيك مودَّة القرابة وتقديم الولاية، قال الرشيد: «تضع لي من لسانك وترفع لي من جنانك، وهذا كاتبك قمامة يُخبر بفعلك وفساد نيَّتك، فاسمع كلامه». قال قمامة: أقول يا أمير المؤمنين، إنه عازم على الغدر بك، والخلاف عليك، ثم قال الرشيد: وهذا ابنك عبد الرحمن يؤيِّد ذلك، ولو أرَدْتُ أن احتجَّ عليك بِحُجَّة لم أجد أعدل من هذين الشاهدين فيك، فبِمَ تدفعهما عنك؟؟ قال عبد الملك: «إن الله تعالى يقول: إن من أولادكم وأزواجكم عدواً لكم فاحذروهم». فنهض الرشيد وهو يقول: أما أمرك فقد وضح، ولكني لا أُعجِّل حتى أعْلم الذي يرضي الله فيك، فإنه الحكمُ بيني وبينك. قال: «رضيت بالله حكماً وبأمير المؤمنين حاكماً. فإني أعلم أنه يوثِرُ كتاب الله على هواه، وأمر الله على رضاه..» وخرج وهو يقول: «إني والله لم أطلُبْها، ولو طلبْتُها لجاءتني طائعة طوع البنان»[1].

وشدَّد الرشيد عليه الرقابة، أينما سار وحيثما أقام، وهو لا يدري، وكانت الأخبار تأتيه بأنه لم يقطع صلته بالبرامكة، يزورُهم ويزورُونه، وكان كلما ازدادت هواجسه منهم دعاه إليه وحادثه وعاتبه، ولكنه لم يشأْ أن يؤذيه، خوفاً من تذمُّر العباسيين الذين يحبونه لجلال مكانته عندهم، وخوفاً من أن يكون تذمُّرُهم من ذلك سلاحاً للبرامكة عليه.. وكان آخر أمره معه، أن دعاه إلى مجلس ضمَّ جميع مشيخة بني هاشم. فلمّا دخل عليه سلَّم، فردَّ الرشيد السلام بفتور ظاهر، والتفت إلى الحاضرين وقال:

أُريدُ حياتَهُ ويريدُ قَتْلِي عذيري من خَليلِكَ من مُرادِ

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٠

ودارت بين الاثنين محاورة طويلة، تطوَّرت إلى قسوة في الكلام، فقال الرشيد حانقاً: «.. بي والله سَهُلَ لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمتها، فنذارِ نذارِ، قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل»، فاحتدَّ عبد الملك وقال: «اتَّقِ الله يا أمير المؤمنين فيما ولاّك، وفي رعيته التي استرعاك، ولا تَجعل الكفـــر مكان الشكر، فقد نخلت لك النصيحة، ومحضت لك الطاعة، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه، فقد والله ذللت لك الأمور، وجمعت على طاعتك القلوب التي في الصدور، فَكَمْ من ليل فيك كابدته، ومقام ضيق لك قُمْتُهُ..» ثم قام وخرج. فاتبعه الرشيد بصره، وقال: «أما والله لولا البقاء على بني هاشم لضربت عنقه»(١).

كان لا بُدَّ لهذا الصراع الخفي من صدى يتسرَّب إلى الناس، فيتضخَّم بين صفوفهم. فكثُرَتِ الإشاعات والأقاويل، ونشطت الدعايات بالحقِّ وبالباطل، على الرغم من نفي الرشيد لذلك، وعلى الرغم من استمراره على صِلته بجعفر وأبيه ومن حولهما.. وقد قيل إن إسحاق الموصلي دخل عليه ذات مرة، فقال الرشيد: إيه يا إسحاق، بماذا يتحدَّث الناس؟؟ قال: يتحدَّثون بأنك ستقبض على البرامكة، وتُولّي الفضل بن الربيع الوزارة، فصاح الرشيد بوجهه: وَيْلَك، وما أنت وذاك؟ فسكت إسحاق ولم يحر أمامه جواباً(٢).

وكان جعفر لا يخفي على الرشيد عِلْمَهُ بما يتحدَّث الناس، فيردُّ عليه الرشيد بدعابة واستهزاء، كأن لم يكن عنده من ذلك شيء.. كما قيل إنه قام يوماً عن مجلسه يريدُ دخول إحدى حجرات قصره، فقام جعفر ورفع له الستر بيده، فراح الرشيد يتأمَّل عنق جعفر، وكان طويلاً، فرآه جعفر وهو يتأمَّله، فقال مبتسماً: ما متأمِّل أمير المؤمنين؟؟ قال: حُسْنَ عُنقك وموقع «الجِرّبان» منه، والجربان هو طرف صدر الثوب من الأعلى المحيط بالعنق، فقال جعفر: لا والله، ما تأمَّلت إلا موضع سيفك فيه، فاحتضنه الرشيد يُقَبِّلُه، وقال: أُعيذُك بالله من هذا القول يا جعفر(٣).

إننا لا نستطيعُ تأويل بقاء جعفر على تلك الصلة مع الرشيد على الرغم من هذه

---

(١) اليعقوبي: ج ٣ ص ٥١٢.

(٢) الأغاني: ج ٥ ص ١١٤

(٣) الجهشياري: ٢١٦ ـ وتتمة الرواية أن الرشيد قال للفضل بن الربيع بعد مقتل جعفر: أتذكر ما قاله جعفر ساعة تأملت عنقه؟ إنه كان صادقاً، فما تأملته إلا لأني تصوَّرت موضع السيف فيه.

الظواهر والمكاشفات، إلا بأحد أمرين: إما أن يكون جعفر على ثقة بأن الرشيد لا يستطيعُ قتله أو إيذاءه، وإما أن يكون كل منهما يُدبِّرُ لصاحبه الحفرة التي سيلقيه فيها، وينتظر الفرصة السانحة لتحقيق مؤامرته.

ومهما يكن من أمر، فإن الرشيد كان يعمل بجدٍّ، في تدبير خُطَّته، ويزيده استعجالاً أولئك الخصوم الذين نشطوا إلى دفْعِهِ نحو غايته، ولم يتركوا مناسبة تمرُّ، إلا استغلّوها في تشجيعه على ما عزم عليه، حتى سدّوا أمامه الطرق: فإذا أراد، مثلاً، جارية تُغنّيه، أفهموها بأن تغنيه قول عمر بن أبي ربيعة:

ليتَ هنداً أنجزتْنا ما تَعِدْ ... وشفتْ أنفُسَنا مما تجِدْ

واستبدَّت مرَّةً واحدةً ... إنما العاجِزُ من لا يستبدْ

فيتنبَّه إلى المعنى ويُردِّد: «إنما العاجز من لا يستبدْ»(١)

وإذا جاء إلى سرير نومه، وجد رِقاعاً مكتوبة تُحذِّره من البرامكة وتدفعه إلى الإيقاع بهم، كتلك الرُقعة التي اشتهر أمرها، وفيها الأبيات التالية:

قُلْ لأمين الله في أرضِهِ ... ومَنْ إليه الحلُّ والعقدُ

هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً ... مثلَكَ، ما بينكما حدُّ

أمرُكَ مردودٌ إلى أمرِهِ ... وأمرُهُ ليسَ لهُ ردُّ

وقد بنى الدار التي ما بنى ... الفرسُ لها مثلاً ولا الهندُ

الدرُّ والياقوتُ حصباؤها ... وتربُها العنبرُ والندُّ

ونحن نَخشى أنه وارثٌ ... مُلكَكَ إن غَيَّبَكَ اللحدُ

ولا يباهي العبدُ أربابَهُ ... إلا إذا ما بطرَ العبدُ (٢)

---

(١) ابن خَلكان: ج ١ ص ١٠٨

(٢) ابن خلكان: ج ١ ص ١٠٨ ـ والشعر لأبي العتاهية.

نكبة البرامكة

كان عام «١٨٥ هـ ـ ٨٠١ م» والعام الذي سبقه مليئَيْن بالأحداث الجسام، وقد تواردت فيهما الأخبار عن تمخُّضات سياسية مسلّحة في بعض أقاليم الدولة: في شمال إفريقيا وفي اليمن، وأرمينية، وأذربيجان، وخراسان، ولكل منها شأن خاص لا يرتبطُ بالآخرين[١]. وكان الرشيد قد غادر الرقّة إلى بغداد، بعد أن هجرها أشهراً طويلة. ونزل قصر الخلد، ولكنه، كان على غير عادته.. قليل البشاشة، قليل السَّمر وعقد المجالس، كثير الإطراق والتفكير، شارد البال، كأن هموماً دفينة تشغل باله وتقُضُّ مضجعه.. ومن حقّه أن يكون كذلك، لأن هذه الأحداث، الإقليمية كانت تُعرقل عليه الطريق لتنفيذ أخطر عملية عرفها تاريخ دولة بني العبّاس من حيث النتائج: وهي نكبة البرامكة وتحمُّل تبعاتها المجهولة.

وبينما هو كذلك، ورده من مدينة «برذعة» في أقصى أذربيجان، نبأُ وفاة أنبل قائد من قواده وأعزِّهم عليه وهو «يزيد بن مزيد الشيباني» الذي كان يُعدُّه للخطوب والملمّات الشداد، فكان أمام هذا الحادث المؤلم كمن يفتقد البدر وهو على سفر في ليلة ظلماء، فجزع عليه وبكاه كما يبكي الأخ أخاه الحميم المساعد.. وبقي يبكيه كلمّا تذكَّره أو رُويت له قصائد رثائه[٢].

ولكن الرجل لم يستسلم أمام هذه الصعاب، وبقي في بغداد طوال عامه ذاك، يترقَّب

---

(١) الطبري: أنظر سنة ١٨٤ و ١٨٥

(٢) توفي يزيد بن مزيد عام (١٨٥ هـ) في أذربيجان، بعد إخماده ثورة نشبت هناك، فرثاه الشعراء بأروع القصائد من بينها قصيدة لمسلم بن الوليد يقول في مطلعها:

أحقاً أنه أودِيَ يزيد ؟ ؟ تنبَّه أيها الناعي المشيد

وقيل إن الرشيد كان يتذكرها في أوقات متفرقة فتدمع عيناه (ابن خلّكان: ج ٥ ص ٣٨٠).

أخبار الاضطرابات واحدة واحدة، ويبعث لها القِوى والمدد من قواه ورجاله، حتى استقرَّت الأحوال واستتبَّ الأمن وقام بعد ذلك بتغييرات إدارية، فعزل بعض العمّال على الأمصار، وأبعد عن الولايات من لا يطْمئنُّ لسياستهم، ولا يثق بنواياهم وإخلاصهم لعرشه، واستعمل الرِّفق واللين في إبعاد صنائع البرامكة عن المناصب الحسّاسة، دون أن يستفزَّهُم:

فأعطى شمال افريقيا لابراهيم بن الأغلب، كما بينا سابقاً، وجعلها إمارة موروثة له ولأولاده بعده على أن تكون تابعة لنفوذه، فأمن جانب الاضطراب فيها، ووضعها سداً حصيناً بين دولته ودولتيْ خصومه الأدارسة والأمويين.. ثم التفت إلى جانب اليمن والحجاز المعروفين بميلهما إلى العَلَويين... فولّى عليهما «حماد البربري» وهو أحد مواليه الأشداء المخلصين له وأوصاه باتخاذ الشدة والبطش في أخْذِ كل من تُحدِّثه نفسه بالشغب والفتنة واستغلال الفرصة.. وأرسل داود بن يزيد المهلبي إلى السند، وقال له: «كن مني على مثل ليلة البيات»... وأشخص قائده يحيى الحرشي إلى الجبل، ليجاور ابن ماهان المقيم في خراسان... وجهَّز لعبد الله بن يحيى الحرشي جيشاً كبيراً إلى طبرستان لتأديب الثائرين هناك[1].

وكان علي بن ماهان في غمرة الصراع، ضد المتنفذين من أهل خراسان، الناقمين على وجوده بينهم رغم معارضة البرامكة. وكانت الأحداث هناك تتقلب إلى وجوه مختلفة: بدأت بانتفاضات صنائع آل برمك، فقضى ابن ماهان على شوكتهم، ثم تطوَّرت بعد ذلك إلى ثورات الخوارج، وعلى رأسهم زعيمان قويا الشكيمة، هما «حمزة الشاري» و «ابو الخضيب».. فأمدَّ الرشيد عامله بالمال والعدد، وأكَّد عليه بضرورة القضاء على المتمردين، فقام هو وابنه «عيسى بن علي بن ماهان» بأعمال جبارة وحروب طاحنة ضد هذين الخصمين، فقتلا أبا الخضيب وأبادا أعوانه بأشدِّ قسوة، أما حمزة الشاري فقد هرب إلى بلاد الأفغان، فتبعه عيسى بن علي إليها، وفتح ما صادف أمامه من مدنها ودخل «كابُل ، وقندهار، وزابلستان» وغيرها، وغنم أموالاً لا تُحصى، ثم عاد إلى أبيه في الريِّ بعد أن استقرت الأحوال وهدأت الغائلة[2].

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٥١٨.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٥١٨..

وبقي أمام الرشيد أمر واحد، يحسب له حسابه، هو أمر موسى بن يحيى البرمكي، الذي ما زال مختفياً عن عيونه وأرصاده، فأرسل إلى أبيه يحيى، يسأله عنه، ويطلب إحضاره، ويلحُّ في أمره. فأنكر يحيى معرفة أخباره ومحل اختفائه، وقال له: «يا أمير المؤمنين، إنه شاب، ولا ينكر منه شيء يضرُّك» فامتعض الرشيد وقال: «إن لم يكن منه شيء يضرُّني ففيم اختفى؟؟ والله لأفعلنَّ وأفعلنَّ...» ثم قرَّر الخروج من بغداد وعزم على ألاّ يعود إليها حتى يُبيد البرامكة ويُزيلهم عن طريقه.. فغادرها نهائياً إلى الرقّة، مبتعداً عن خطر «الكرمينية» والحرس المحيط بالقصر. وأبقى فيها وليَّ عهده «محمداً الأمين» مع جماعة من حاشيته.

وكان خروجه منها في شهر رمضان عام «١٨٥ هـ ـ ٨٠١ م»، فجاءه يحيى بن خالد يستعفيه من مصاحبته إلى الرقَّة، ويستأذنه بالعمرة والحجِّ، فأذن له... وقد دلَّت المصادر على أن يحيى بدأ يشعر بوقوع نكبة تحلُّ في بيته[1]. وربما كان هو الذي نصح أبناءه بأن لا يذهب أحد منهم إلى الرقة في تلك السنة... فسافر الرشيد وحده بدون أحد منهم. وسار يحيى معتمراً إلى أرض الحجاز، ورابط في «جدة» حتى حان موعد الفريضة، فأدَّاها وعاد إلى بغداد.

وانصرم ذلك العام، وجاء الذي بعده، والرشيد في الرقّة والبرامكة في بغداد، وليس من الصواب أن تبقى هذه الأزمة بينهم على ما هي. فقدم موسى بن يحيى إلى أبيه، فأشار عليه بأن يتقدَّم إلى الرشيد بالعُذْرِ فيُزيل مخاوفه وأسباب امتعاضه، وسار هو إلى الرقّة معه مصطحباً أمه «زينب بنت منير». ولمّا دخل موسى على الرشيد معتذراً، لم يَقْبَلْ عذره، وأمر بسجنه عند العبّاس بن موسى الهاشمي، فجاءت أمه زينب مسرعة تطلب إعفاءه، فقال لها الرشيد يا أماه، «إنه قد رفع إليَّ من أمره ما لا أحبه» فألحَّت عليه، فقال لها: وهل يضمنه أبوه؟؟ قالت: نعم، فتكفَّله يحيى، فدفعه الرشيد إليه، وتظاهر برضائه عنه، وجامل يحيى، وأزال شكوكه ومخاوفه، وسمح له بالعودة إلى بغداد في موكبه[2].

مضت أشهر معدودة من العام «١٨٦ هـ ـ ٨٠٢ م»، فأرسل الرشيد إلى عمّاله في

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٣

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٥

الأمصار يُخبرهم بأنه قد عزم الحج، وقرَّر أن يكتب على وليَّيْ عهده الأمين والمأمون العهود والمواثيق في داخل الكعبة، وطلب منهم أن يُشجِّعوا من يستطيع من وجهاء أقاليمهم على أن يوافوه في مكة كما قلنا سابقاً... وفي شهر رمضان: أبقى على الرقّة «ابراهيم بن عثمان بن نهيك» وبعث ابنه «القاسم» ليُرابط على حدود الروم، وخرج بحاشيته وموكبه نحو أرض الحجاز، حتى إذا قرُب من بغداد، عسكر بجانبها ولم يدخلها، فالتحق به من كان فيها من رجال الدولة، ومن بينهم وليا عهده والبرامكة بأجمعهم دون استثناء أحد من الرجال.

والجدير بالذكر هنا أن قضية التنافر بين وليَّي العهد كانت تشغلُ بال الرشيد وتُؤْلمه، وقد أبكته مراراً كلّما نظر إليهما، وأوجس خيفة على مستقبل أسرته والخلافة، وتنازعهما غداً عليها، وربما أوجعه أكثر من ذلك منظر حاشيتيهما في موكبه ذاك، وهما أشبه بالزيت والماء اللذين لا يمتزجان: هذه عربية صريحة، وتلك فارسية يتزعَّمها جعفر بن يحيى، ويُدبِّر أمرها «الفضل بن سهل» الفارسي الذي يتوقَّد طموحاً ويتحرَّق كرهاً للعرب وتمسُّكاً بعنصره[1].

وانتهت فريضة الحجّ، ودخل الرشيد ومن معه من الفقهاء والعلماء ورؤساء الوفود بطن الكعبة، وكتب على كل من الأمين والمأمون ميثاقاً لأخيه، على الشكل الذي بيَّناه.. فلمّا نهض محمد الأمين من بين ذلك الجمع وأقسم على نفسه اليمين في تنفيذ ما كتب لأخيه، نهض جعفر بن يحيى، وسحب الأمين من ردائه وقال له: قل: «خذلني الله إن خذلته» فقالها الأمين، وأعادها جعفر عليه ثلاث مرات، فأعادها الأمين[2].

أجمع المؤرخون على صِحة وقوع هذا الحادث من قِبَل جعفر.. وهو في رأينا حادث يدلُّ على قلة تدبير وحكمة من الوزير البرمكي، لأسباب كثيرة: أهمُّها عدم مراعاة شعور

---

(١) الجهشياري: ٢٥٥ ـ أراد الرشيد رجلاً يُعنى بشؤون ابنه المأمون فقدَّم له يحيى بن خالد «الفضل بن سهل» فألْحقه به، وكان الفضل هذا من دهاة الفرس وأذكيائهم، وقد قام بعد موت الرشيد بأخطر دور بجانب المأمون، وكان أحد محرِّضيه على أخيه وموقعي الحرب بينهما، حتى قُتل الأمين، فاستولى على وزارة الدولة وأدى فيها دوراً يُشبه دور البرامكة في عهد الرشيد من وجوه شتّى.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٥٧.

الرشيد في تلك الساعة الرهيبة أمام النخبة العليا من دولة بني العباس، لما في هذه العبارة من إشارة تدلُّ على أن صاحبها لم يؤمن بصدق ولِيِّ العهد الأول وخليفة الغد، وإلا فما قيمة هذه الجملة؟؟ مع العلم أن في الميثاق أغلظ الأيمان وأشدَّها على الوفاء به!! إننا نعتقد بأن حركة جعفر هذه أثارت في صدر الرشيد آلامه، وكل أحقاده على البرامكة، وجدَّدتها، وإن لم تكن في حاجة إلى تجديد، ما دامت خطة الإيقاع بهم قد رسمت وقرُب أجلها.

ثم قفل الحجيج إلى أوطانهم، وتحرَّك موكب الخلافة نحو العراق... وكان من عادة جعفر، في كل حِجَّة للرشيد، أن يقيم له مأدبة في قصره بناحية «عسفان» في جنوب غربي بغداد، على الفرات... فامتنع الرشيد هذه المرة عن قبول الضيافة، واعْتَلَّ بسبب من الأسباب، وطوى الناحية حتى نزل مدينة الحيرة[1]. فأقام فيها بعض الوقت، ثم ركب السفن إلى ناحية «العمر» قرب مدينة الأنبار، ونزلها مع من معه، وأمر بأن يتوزَّع أفراد الحاشية على المنازل والدور التي أُعِدَّت لهم. وانتحى هو وحرسه جانباً من تلك الناحية الهادئة المنعزلة، بين الحقول والحدائق.

وكان الموسم شتاء ـ في غرة المحرم ١٨٧ هـ الموافق لكانون الثاني ٨٠٣ م، فأرسل الرشيد من معسكره كتاباً إلى «السندي بن شاهك» وكان عاملاً على جسور بغداد، يقول فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا، وكنت قاعداً، فَقُم، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تصير إليّ» فوثب السندي على قدميه، وركب خيله مسرعاً إلى ناحية «العمر».. فأخلى له الرشيد المجلس، وقال: «أتدري فيم أرسلت إليك؟؟» قال: لا، قال: «بعثت إليك بأمر لو علم به زر قميصي هذا لرميت به في الفرات.. إمضِ من ساعتك هذه، وجِدْ في سيرك حتى توافي مدينة السلام، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك، ومُرهم وأعوانهم أن يكونوا على أهبة، فإذا أظلم الليل، فَصِرْ إلى دور البرامكة، ووكِّلْ بكلِّ باب من أبوابهم صاحب ربع، ومُرْهُ أن يمنع من يدخل ومن يخرج... إلا باب محمد بن خالد، فدعه حراً، حتى يأتيك أمري»[2].

وأمضى الرشيد نهاره ذاك في الصيد مع جعفر وأصحابه، دون أن يبدو منه ما يُريب،

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٧

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٨١

وربما كان أكثر بشاشة من أي يوم آخر، حتى أسدل الليل أستاره، فعاد وجعفر بجانبه يحدثه، فقال له الرشيد ساعة توديعه: لولا أني أريد الراحة بعد التعب لما فارقتك... وافترقا.

وبعد ساعات، كان الليل في الهزيع الثاني، فدعا الرشيد خادمه الأمين «مسروراً العبد» فدخل عليه مُسرعاً، فوجده متقلّداً سيفه وسلاحه كأنه يتحفّز لقتال، وهو في حالة نفسية ثائرة، يذرع مقصورته عرضاً وطولاً، فارتعب العبد مما رأى، ثم تماسك. فقال الرشيد: «يا مسرور إني قد ندبتك لأمر خطير، لا أرى أولادي محمداً ولا عبد الله ولا القاسم له أهلا وموضعاً، ورأيتك به مستقلاً ناهضاً، فحقّق ظني، واحذر أن تُخالف أمري، فيكون ذلك سبباً لسقوط منزلتك عندي وفساد حالك لديّ... فأين أنت من هذا؟؟ قال: يا أمير المؤمنين، لو أمرتني أن أُدخل السيف في بطني وأُخرجه من ظهري، بين يديك لفعلت، فَمُرْني بأمرك تجدني مسرعاً. قال الرشيد: «أتعرفُ جعفر بن يحيى؟؟» قال: أو ينكر مثلي جعفراً؟؟ قال: «فامضِ إليه الساعة في مقرِّه، فأْتِني برأسه على اية حال تجده عليها» فارتجّ على مسرور الكلام، فصاح به الرشيد: «إمضِ حالا إلى ما أمرتك به، وخذ معك من الحرس والجند»[1].

ومضى مسرور مسرعاً مع جنوده، وأحاط بدار جعفر، ودخل عليه في مجلس شرابه، وحوله العازفون والمغنّون، فأُجْفل من دخوله مسلّحاً وبدون إذن، واضطربتْ حاله. فأمره مسرور بالخروج معه من مجلسه، وقاده إلى مكان غير بعيد من مَضْرِبِ الرشيد، ثم قيَّده ليَقْتُلَهُ، فقال له جعفر مذعوراً: يا مسرور، إن أمير المؤمنين يُمازحني بأصناف المزاح، فأحسب هذا جنساً من ذلك. قال مسرور: ما كان إلاّ جاداً. قال: يا مسرور، إن لي عليك حقوقاً، قال: إلا في ما يُخالف أمر أمير المؤمنين. قال: إرجع إليه، فقُل له: إنك قد نفَّذت أمره، فإن ندم كانت حياتي على يديك، وإلا فعد واصنع ما تشاء.. فوجد مسرور في قوله رأياً، فترك جعفر في أثقل قيد، وأسرع إلى الرشيد، وقال له: يا أمير المؤمنين، انتهى كل شيء ورأس جعفر قريب منك، قال: إأْتِني به قبل أن أُعجِّل عليك، فخرج وعاد برأس جعفر يحمله في طرف قبائه. فأمره بوضعه في إناء، وغطّاه بمنديل[2].

---

(١) الجهشياري: ٢٣٤.

(٢) تنوّعت الروايات في كيفية مقتل جعفر، وقد أوردنا ملخّص ما جاء في أقدم المصادر.

ثم أرسل في الحال من أحاط بالبرامكة جميعاً، وبمواليهم وأعوانهم ممن كان منهم معه في ناحية «العمر». وأمر بأن يبقى يحيى بن خالد في بيته سجيناً، ولكن غير مروّع، وأن يُساق الفضل ومن معه من البرامكة إلى معتقل بجانب منازل الرشيد في حراسة شديدة، ويكبل باقي الأعوان والخاصة والخدم في الأغلال، وأوْعَزَ إلى قائده «هرثمة بن أعين» أن يُطوِّق ناحية «العمر» بجيشه، ويمنع أحداً من جنده أو من الناس أياً كان من أن يتسلَّل في الظلام إلى بغداد، وأن يبقى كل شيء في موضعه حتى ينبلج الصبح.

وفي رواية: أن الذي وُكِّل بأمر يحيى بن خالد في بيته، هو «سلامة الأبرش» الذي كان قد أوكل بأمر الرشيد من قبل أخيه موسى الهادي، وهو نفسه الذي أراد الرشيد قتله يوم بويع بالخلافة فشفع له يحيى، كما رأينا ... وجاء في خبرهما: أن سلامة هذا دخل على يحيى في تلك الليلة وأمره بأن لا يغادر بيته بأمر من أمير المؤمنين، فقال له يحيى: ماذا حلَّ بجعفر؟؟ قال قد قُتل، قال: وأخوته؟؟ قال: في السجن، قال: «هكذا تقوم الساعة.. والحمد لله على كل حال، وأنا بعد له عالم، وبقضائه راضٍ»[1]، ثم قال: «كنت أتوقَّع ذلك، ولكن لا يُطاع لقصير أمر».

وبقي الرشيد ليلته تلك، متقلِّداً سيفه، منتظراً ضوء النهار، دون أن يتقدَّم إلى فراش نومه... يقول الأصمعي: بعث إليّ الرشيد في أواخر تلك الليلة، فجئت مرعوباً، ولم أدرِ ما الخبر، فسلَّمت، فقال: إجلس، فجلست، ثم أشار إليّ أن أرفع المنديل الذي كان على الإناء، فرفعت، فرأيت رأس جعفر، فأُسقط بيدي، فقال الرشيد: يا أصعمي

لو أنَّ جعفر هابَ أسبابَ الرَّدى ... لنجا بمُهْجته طِمِرٌّ مُلجَّمُ

ولكانَ من حذْرِ المنونِ بحيثُ لا ... يرجو اللَّحاق به الغُرابُ القشعمُ

لكنَّه لمَّا تقارب يومُهُ ... لمْ يدفعِ الحَدَثانَ عنهُ مُنجِّمُ

ثم قال لي: إلحقْ بأهلك، ولم يُحدِّثْني بأكثر من هذا.

وقبل أن يتفتّق ضوء الفجر، أمر هرثمة بن أعين بالسَّيرِ مع فرقة من جنده إلى بغداد-

(١) الجهشياري: ٢٤٠ - وغيره.

وبينها وبين ناحية العمر ساعات قليلة ـ ويحمل جثة جعفر ورأسه إلى السندي بن شاهك، ليُعلِّق الرأس في الساحة الوسطى من مدينة المنصور، ويُقسِّم الجثة إلى شقين، فيصلُب كلَّ شقٍّ منها على رأس جسر في بغداد، وأمره بأن يكون على أهبَّة لكل طارىء يحدث هناك من قِبَلِ سواد الشعب أو من فرقة «الكرمينية» وأن يكون على اتصال بالقوى العسكرية العربية المرابطة في أرباض الكرخ، وبالحرس المتكتّل بإمرة السندي بن شاهك... وكان هرثمة بن أعين هذا من أجلّ قواد الرشيد وأشجعهم وأحكمهم تدبيراً.

وبعث معه عدداً من خدامه ومواليه، وأوكل كلا منهم بدار من دور البرامكة وقصورهم ليقبض على من فيه من الرجال، دون التعرُّض للنساء والأطفال، ويستصفي أمواله. وأرسل أناساً آخرين إلى كل بقعة من الأرض فيها للبرامكة قصور أو أموال أو أعوان لِيُصفّوا حسابهم، ويبعثوا إليه ما يجدونه في أسرع وقت.. ثم أمر في الصباح بِسَوْقِ البرامكة وأتباعهم جميعاً إلى سجون الرقّة أمامه. وتوجَّه هو بعدهم إليها.

وهناك أرسل إلى يحيى بن خالد يقول: إني كنت قد عاهدتك أن لا أمسُّك بسوء، وأنا الآن لا أريد إزعاجك، فأقِمْ حيث أحببت، فأجابه يحيى: «إن كُنت راضياً عني، فأحب المواضع إليّ أن أُقيم في مكة أو بعض الثغور، وإن لم تَرْض عني فلستُ أبْرح من موضعي أو ترضى عني» وهو يُريدُ بذلك أن يكتفي الرشيد بمقتل جعفر ويُطْلق سراح الباقين.. ولكن الرشيد يعلم أن ما حدث بينه وبين البرامكة لا يمكن بعده إطلاقهم من السجون، وإلا عرَّض نفسه للخطر تعريض جاهل بعواقب الأمور، فأرسل إليه يقول: أيّ موضع شئت فأقِمْ به وحدك، فأجابه: إني إذن أُحبُّ أن أُقيم مع ولدي... فأبقاه مع أولاده الفضل ومحمد وموسى في دير «القائم» ووكَّل بأمرهم مسروراً العبد. ولم يُفرِّق بينهم وبين عدد من خدمهم، ولم يُقيِّد أحداً منهم بوثاق، وجعل لهم ما يحتاجون إليه من مطعم ومشرب وملبس[1]. وسمح لأم الفضل «زينب بنت منير» أن تكون معهم حين تريد، مع عدة من جواريها، ووصلها بمائة ألف درهم لقضاء حاجاتها، ووجَّه إليها ثياباً غالية، ولم ينقطع عن إهدائها[2]

---

(١) الجهشياري: ٢٤٠

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٦٧٩

وانتشر الخبر في شرق البلاد وغربها، واستيقظ الناس في بغداد على صدى الحادث، فرأوا رأس جعفر وجثَّته على الأعواد، فحزن الأنصار ما شاء لهم أن يحزنوا، وشمت الخصوم ما شاء لهم أن يشمتوا ووقف المحايدون ينظرون إلى صنع القدر، وكيف انْدَكَّ ذلك الحصن الشامخ في ليلة واحدة:

قولا لِمَنْ يرتَجـــي الحياةَ أمـا	فـي جعفـرٍ عبرةٌ ويحْيـاهُ
كانـا وزيــرَيْ خليفــةِ اللهِ هـا	رونٍ هما ما همـــا خَليلاهُ
فـذاكُـــم جَعفـــرٌ، برُمَّتـــهِ	فـي حالقٍ رأسـهُ ونِصْفـاهُ
والشَّيخُ يَحيى الوزيرُ أصبحَ قد	نحّاهُ عـن نفسِـــهِ وأقصـاهُ
كذاك مَـنْ يُسخِـطُ الإلــهَ بِمـا	يرضـى به العبدُ يُجْـزِهِ اللهُ
سبحــانَ مـنْ دانَـتِ الملوكُ لـه	أشْهــدُ أن لا إلــهَ إلا هُـــو

ذيول وتصفية

انتهى حادث البرامكة بسلام، ونجحت تدابير الرشيد على خير ما كان يؤمل... فلم تتحرَّك فرقة «الكرمينية» أمام تلك المباغتة السريعة، واكتفت خراسان بإظهار أسفها على ما حدث، وارتاح من كان يخشى على سلطان بني العباس من طغيان النفوذ الفارسي، وانتعشت القومية العربية بعد ذبولها، وبرزت شخصية الرشيد كأعظم ما تكون في دولته، بدون مطاول أو شريك .... وبقي عليه اتخاذ الحزم والحيطة ضد صنائع جعفر وقومه في دولته، سواء من كان منهم في خراسان أو في بغداد، أو من بقي في حاشيته بمدينة «الرقّة»، وفيهم عدد من المريبين الذين قد تُحدِّثهم أنفسهم بالانتقام لهم وأخذ الثأر غدراً وعلى حين غفلة. فوسَّع نطاق أرصاده وجواسيسه في كل مكان، ولم يتساهل في شيء من ذلك، حتى خاف الناس على أرواحهم من الهمس والنجوى في مثل هذا الأمر، إلى أن سكنت النفوس، وأصبح الحادث عندهم من أخبار الماضي: وقد قيل: سُمِعَ أن كاتب جعفر ونديمه «أنس بن أبي شيخ» يبكي كلما ذكر صاحبه، ويُهدِّد بقتل الرشيد والفتك به، فدعاه إليه وحاكمه، وأشهد عليه من كان يسمع توعُّده وتهديده، ثم سأله: هل كنت في مجلس جعفر يوم أمر بقتل «الحرباني» وصلبه بدون إذن مني؟؟ قال نعم. قال: وأنت قلت لصاحب الشرطة: أصلُبه على أطول عمود في الرقّة؟ قال: نعم. فأمر الرشيد بقتله، وقال أصلُبوه على عمود «الحرباني»[1].

وجاء أحد أولاد «ابراهيم بن عثمان بن نهيك» إلى الرشيد يقول: «إن أبي يجلس إلى الشراب كل يوم في بيته، فإذا أخذه النبيذ، دعا بسيفه، فينتضيه، ثم يقول: واجعفراه

---

(١) الجهشياري: ٢٣٨

واسيداه، والله لأقْتُلَنَّ قاتلك ولأثْأرَنَّ بدمك عن قليل» فقال الرشيد: إنك تتَّهم أباك، فما الذي يدعوك إلى ذلك؟؟ قال: إنني أخاف أن يسمع أمير المؤمنين بقوله، فتُصيبنا النكبة جميعاً. قال: أمعك شاهد على ذلك؟؟ قال: نعم. فهذا خادمه يقول كما أقول .. ولم يشأ الرشيد أن يأخذ ابراهيم بهاتين الشهادتين، وهو مولى من مواليه، فأراد أن يختبره، فدعاه إليه وحده، وسقاه النبيذ حتى ثَقُلَ عليه، ثم قال له: يا ابراهيم، إن في نفسي أمراً أريد أن أودِعَكَهُ، وقد ضاق صدري به، فهل له موضع عندك؟؟ قال: يا سيدي، إنما أنا عبد من عبيدك، وأطوع خدمك، وإني لحافظ للسر، قال الرشيد: «ويْحك إني ندمتُ على قتل جعفر ندامة ما أحسن أن أصفها، فوددت أني خرجت من ملكي، وإنه كان بقي لي، فما وجدتُ طعم النوم منذ فارقتُهُ» فلما سمع ابراهيم ذلك تحدَّرت دموعه وصار يبكي ويجهشُ بالبكاء ويقول: «رحم الله جعفراً وتجاوز عنه، والله يا سيدي لقد أخطأت بقتله، وأوصيت العشيرة في أمره، وأين يوجد في الدنيا مثله؟؟...» فقال الرشيد: قُمْ عليك لعنة الله وغضبه. لقد صدق ابنك في شهادته عليك... فخرج وهو لا يعي، ثم دخل بيته، ودعا ابنه فعاقبه ثم قتله، فأمر الرشيد، حينذاك، بقتله.. نفساً بنفس(١).

ودعا بسهل بن هارون، وكان فارسياً من صنائع برمك، فخاف على نفسه، ولبس ثياب حزنه، ودخل عليه يتعثَّرُ بثيابه من الخوف، حتى كاد يُغْمى عليه وهو ينظر إلى السيف في يد الجلاد قائماً أمامه. فلمّا رآه الرشيد على تلك الحالة. علم أن مثل هذا لا يستطيع عمل شيء ضده، فهدأ من روعه، وقال له: يا سهل، من غَمِطَ نعمتي واعتدى على وصيَّتي، وجانب موافقتي: عاجلته عقوبتي:

مَنْ لم يودبْهُ الجميلُ ففي عقوبتِهِ صلاحُهْ

فقام سهل، وقبَّل البساط ورجْليِّ الرشيد، فقال له: إذهب فقد أحللتك محلَّ يحيى بن خالد، فاحْجِزْ على ما ضمَّته ابنيته وحوى سرادقه، فاقْبِضْ دواوينه، واحْصِ جباءه وجباء جعفر، لِنأمرك بقبضه إن شاء الله.. يقول سهل: «فخرجتُ من عنده، ساعتئذ، وكأني نُشِرْتُ عن كفنٍ، أو خرجت من قبر، فأحصيت جباءهم كلها مع ما يملكون وأخبرت الرشيد

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٩٩

بها، فضمها إلى بيت المال»[1].. وقيل: إنها بلغت ثلاثين ألف دينار، عدا الضياع والمستغلات والقصور.

وكان «عيسى بن يزدا نيروز» من أعزّ أصدقاء البرامكة، ثم تغيَّر عليهم، فأراد الرشيد اختبار ما عنده فيهم، فاستدعاه إلى حضرته، وسأله عن حال جعفر، وهل وقف على أنه أراد غدراً به، أو حيلة لقتله، وذكَّره ببعض أقوال جعفر في مجلسه الخاص الذي كان يجتمع فيه بأعيان فارس، ويحضره عيسى هذا. فحلف له عيسى يميناً كرّرها بأنه ما عرف هذا منه قط . وعاد الرشيد فحلّفه بذلك ثالثاً ورابعاً، فحلف.. ثم تظاهر الرشيد أمامه بندمه على قَتْلِ جعفر فلم يتوجَّع عيسى عليه ولا ترحَّمه فعرف الرشيد صدق نيَّته وأعاد عليه ما كان استصفاه من أمواله، وأبقاه على ما كان يتقلّده أيام جعفر، وهو «الطراز»[2].

وهكذا، استمرَّ الرشيد يتتبَّع خطوات أعوان البرامكة وأصحابهم وكل من يرتاب به، ويتقصَّى أخبارهم، ويمتحنهم في مجلسه، ويتظاهر أمامهم بالندم على قتل جعفر، ليرى ما عندهم... والظاهر، أنه لكثرة ما تصنَّع الأسف والندم أمام هؤلاء على نكبته للبرامكة، ظنَّ بعض المؤرخين أنه نادم حقيقة على فعلته، وراحوا يزعمون أنه كان يبكي عندما يذْكُرُهم، إلى آخر ذلك.. مع أن واقع الحوادث يُكذِّب زعمهم. فلو كان نادماً كما يقولون لأخرج من تبقّى منهم من السجن، ولم يبقهم فيه حتى يُهلكوا جميعاً على الرغم من محاولاتهم الكثيرة في استرضائه.

وجرت له مع شعراء البرامكة قصص أخرى فيها شيء من الطرافة..فقد كان بعضهم لا يخلو من وفاء وصدق عاطفة تجاههم، وكانوا بالأمس أولياء نعمتهم، ومصدر ثرائهم، فرثوهم بأروع الشعر، وغُرر القصائد التي كانت تسري بين الناس فتصل إلى سمع الرشيد، فيدعوهم إليه، ويسألهم عن السبب، ثم يكرمهم ويُجري عليهم من الأرزاق كما كانت تجري عليهم في عهد البرامكة، فيقطعُ ألسنتهم بذلك.. ويقول مسرور العبد: حكيت للرشيد بأني حين دخلت على جعفر لأقتُلَهُ، وجدت عنده «أبا زكار الأعمى» وكان شاعراً

---

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ٣٢١.

(٢) الجهشياري: ٢٦١

ومغنياً، فعلم بما جئت من أجله، فتعلَّق بي وقال: اقتلني معه، فقال الرشيد: هذا رجل فيه مصطنع، فأضْمِمْهُ إليك، وانظُرْ ما كان يُجريه عليــه جعفر، فأتممه له[1].

وجاءه خبر: بأن الشاعر «الرقاشي» أغلق داره عليه بعد نكبة البرامكة، وراح يبكيهم ويرثيهم، ويخرج متخفياً، فيأتي أحد الجذوع التي صلبت عليه جثة جعفر، فيطوف حولها حزيناً باكياً ويقول:

أما واللهِ لــولا خــوفُ واشٍ ... وعيــنٌ للخليفـــةِ لا تنــــامُ

لَطِفْنا حولَ جذعِكَ واسْتَلَمْـنا ... كمــا للناسِ بالحجــرِ استــلامُ

فما أبصرتُ قبلَك يا ابنَ يَحيى ... حساماً حتفُهُ السيفُ الحسـامُ

على اللـذاتِ والدنيـا جميعــاً ... ودولــةِ آل برمــكِ الســـلامُ

فطلبه الرشيد، فجيء به خائفاً، فقال له: ما حملك على ما كنت تصنع وتقول؟؟ قال: يا أمير المؤمنين، كان جعفر محسناً إليَّ، وقد حرَّكني إحسانه. قال: فكم كان يُجري عليك؟؟ قال: ألف دينار في السنة. قال الرشيــد: قد ضاعَفْناها لك...فاخْرُجْ[2].

***

ولما انتهى كل شيء يتعلَّق بذيول البرامكة، التفت الرشيد إلى «عبد الملك بن صالح الهاشمي» الذي كان يُقْلقه ويُريبُه.. فأرسل إلى يحيى بن خالد في سجنــه يسأله: «علمت بأن عبد الملك أراد الخروج عليّ، ومنازعتي في الملك، فاعلمني ماعندك فيه، فإنك إن صدقتني أعدتُك وأولادك إلى حالكم» فأجاب يحيى: «والله ما أطَّلعْتُ من عبد الملك على شيء من هذا، ولو اطَّلعت عليه لكنت خصمه دونك، لأن ملكك كان ملكي، وسلطانك كان سلطاني، والخير والشر كانا فيه عليّ، وكيف يطمع عبد الملك في ذلك مني؟؟ وهل كان إذا فعلت به ذلك يفعل معي أكثر من فعلك؟؟ أعيذُك بالله أن تظُنَّ بي هذا الظن. ولكنه كان رجلاً

---

(١) الجهشياري: ٢٤٤

(٢) الأغاني: ج ٦ ص ٢١٢.

محتملاً، يسُرُّني أن يكون في أهلك مثله، فولَّيْتُه لمَّا حمدت أثره ومذهبه، ومِلْتُ إليه لأدبه واحتماله..» فأرسل الرشيد إليه ثانية يقول: «إن أنت لم تُقِرْ عليه، قتلت الفضل ابنك» فأجابه يحيى: «أنت مسلَّطٌ علينا، فافعل ما تريد» فأمر الرشيد بإبعاد الفضل عنه متظاهراً بالعزم على قتله، وأبقاه بعيداً عنه ثلاثة أيام، وهو لا يعلم ما حلَّ به، ثم أعاده إليه حين لم يجد عنده شيئاً[1].

لكن شهادة يحيى هذه لم تُقنع الرشيد الذي يظُنُّ بأن صلة عبد الملك ومؤامرته عليه كانت مع جعفر المقتول وليست مع يحيى.. فعزم على التخلُّص منه، وإن كان في ذلك إغضاب بني العبّاس كلهم . فعقد له مجلساً ضمَّ وجهاء بني هاشم، واستدعاه إليه، ثم راح يُوجِّهُ إليه التُّهم ويذكر أسماء الشهود عليها، فيُجيبه عبد الملك بالإنكار، ويُحاوره ببيان عذب جميل ـ وكان من أبلغ الناس وأفصحهم ـ ويُذكِّرهُ بخدماته للدولة ولبني العباس، ويُحذِّره من إنكار الجميل، والاعتداء على بني هاشم، وأخْذهم بالشكِّ والظنة.

ويبدو أنه استطاع جلب عطف بني العباس الحاضرين نحوه بكلماته، وأن الرشيد أحسَّ بذلك، فأراد تدارك الموقف بلباقته ـ وكان عبد الملك يُتَّهم بأنه ابن جارية لمروان بن محمد الجعدي الخليفة الأموي، فلمّا قتله صالح بن علي العباسي، أبو عبد الملك هذا، في مصر، وأخذ جاريته تلك، كانت حاملاً منه فولدت عبد الملك ـ فقال له الرشيد: «ما أنت من صالح.» فقال عبد الملك: «إن لم أكن من صالح، فلِمَنْ أنا؟؟» قال: «أنت لمروان الأموي» فغضب عبد الملك وقال: «لا أبالي والله أي الفحلين غلب عليّ».. فشعر الرشيد بأنه قد أضعف عطف الحاضرين عليه، فأمر بسجنه عند الفضل بن الربيع، وطلب منه أن يُشدِّد عليه[2].

وقيل: إن عبد الله بن مالك، صاحب شرطة الرشيد، دخل عليه، وكان صديقاً لعبد الملك، وقال له: «يا أمير المؤمنين، أفي إذن أنا فأتكلَّم؟؟» قال: «تكلَّم»، قال: «والله العظيم يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً، فعلام حبسته وضيَّقت عليه ؟» قال: «ويحك، بلغني عنه ما أوحشني»، قال: ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً يُشبه محبس مثلك مثله ـ

---

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ١٢٥

(٢) الجهشياري: ٢٦٣

وذكَّره بخدماته ـ فدعا الرشيد الفضل بن الربيع، وقال له: امضِ إلى عبد الملك في محبسه، فقُل له: أنظر ما تحتاج إليه في محبسك فاطلُبه. فذهب الفضل بما أمر الرشيد، فقال عبد الملك: لا أطلب شيئاً، وبقي في محبسه[1].

***

وحدَّثتنا الأخبار عن آل برمك في حبسهم، وما كان يَجْري بينهم وبين الرشيد من مساجلات ومعاتبات، وأخْذٍ وردٍّ، وخصوصاً يحيى بن خالد الذي كان حتى الساعة الأخيرة يأمل بإعادة الرشيد إلى سابق عهده من الرضا والصفح.. وقد حاول الكثيرات ذلك من نساء آل برمك، ولكن دون جدوى.

كتب إليه يحيى مرة: «إلى أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين:

من عبد أسلمته ذنوبه وأوثقته عيوبه، وخذله شقيقه، وأناخ عليه الحدثان، وافتقد الهجوع.. أما المحنة بجعفر، فبجرمه عاقبته. فاذْكُرْ يا أمير المؤمنين خدمتي، وارحم ضعفي وشيبتي. فمن مثلي الزلل، ومنك الأقالة» فكتب الرشيد على ورقته: «إنما مثلكم ما قال الله عز وجل: **﴿وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنةً يأتيها رزقُها رغداً من كل مكانٍ، فكفرتْ بأَنْعُمِ اللهِ، فأذاقَهَا اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون﴾**[2].

وجاءته زوجة يحيى «فاطمة بنت الحسن بن قحطبة» وكانت أمه بالرضاعة، جاءته تمشي إليه حافية، فوقفت بباب قصره، وعلم بمجيئها الرشيد، وكان يُحِبُّها، فانتفض واستقبلها حافياً مثلها، وقبَّل رأسها وصدرها، وأجلسها بجانبه. فقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان، ويجفونا خوفاً منك الأعوان، وقد ربَّيتُك وأخذتُ برضاعي لك الأمان من دهري؟؟ قال: وما ذاك يا أم الرشيد؟؟ قالت: وزيرك يحيى، وأبوك بعد أبيك، ولا أرشّحه بأكثر مما عرَّفه به أمير المؤمنين، من نصيحته لك، وإشفاقه عليك، وتعرُّضه للحتف في شأن أخيك.. قال: يا أم الرشيد، قدرٌ سبق، وقضاء حمٌّ، وغضب من الله نزل، قالت: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، قال: صدقت، ولكن هذا ما لا يمحوه الله، ثم أطرق قليلاً، فقال:

---

(١) الطبري: ج ٣ ص ٦٩٢ ـ بقي عبد الملك في السجن حتى توفي الرشيد فأخرجه الأمين وولاه على الشام.

(٢) اليعقوبي: ج ٢ ص ٥١١.

إذا انصرفتْ نفسي عنِ الشّيءِ لمْ تكُنْ إليهِ بوجْهٍ آخرَ الدَّهرِ تُقْبِلُ

قالت: أذكِّرُك يا أمير المؤمنين، بأنك آليت إن أنا استشفعتك شفعتني، قال: وأنا اذكِّرُك بأنك آليت أن لا تشفعي لأحد تعرَّض لدنيا.. يا أم الرشيد: لو وثقتُ بصفاء نيَّتهم لأعدتُهم إلى حالهم، ولكنهم قوم كفروا النعمة، وأرادوا الشرَّ بي، ومن أراد بي ذلك فلا غفران له(١).

واتَّجه نساء برمك إلى زبيدة بنت جعفر، وذكَّروها بجميل خدمات الفضل بن يحيى لابنها الأمين يوم كان يسهر على تربيته، وكانت زبيدة قد رقَّتْ ليحيى والفضل بعد مقتل جعفر، فراحت إلى زوجها تتشفَّع بإخراج من بقي منهم، فلم يلتفت إلى شفاعتها.. فكتبت كلمة رقيقة عن لسان يحيى موجهة إليه، ودخلت عليه مع عدد من نساء بني هاشم فأنَسْنَهُ وحدَّثنه، وغنَّت بعض الجواري حتى ارتاحت نفسه، ثم قامت إليه وقدَّمت إليه الرقعة المكتوبة، وطلبت أن لا يردَّ شفاعتها وشفاعتهن. فأخذ الرقعة وقرأها، ثم كتب عليها: «عظيم ذنبكم أمات خواطر العفو عنكم» ورمى بها إلى زبيدة، فعلمت بأنه غير راجع عن رأيه فيهم، فتركته وشأنه(٢). ولم نسمع بأن أحداً من الرجال تشفَّع لهم عنده، مع كثرة أصدقائهم، مما يدُلُّ على أنه كان يغضب من ذلك.

وفي عام «١٩٠ هـ ـ تشرين الثاني ٨٠٥ م» مرض يحيى في معتقله فمات، ودُفن في الرقَّة على شاطىء الفرات، وبُنيت على قبره قبة عالية(٣). وبعد ذلك بثلاثة أعوام أصيب الفضل بشلل نصفي، عقد لسانه وجمَّد أحد طرفيه، فمات في شهر المحرم من العام «١٩٣ هـ ـ تشرين الأول ٨٠٨ م» فصلَّى عليه من كان معتقلا معه في أحد قصور الرقَّة، ثم أخرجوه للناس فصلّوا عليه ودفنوه بجانب قبر أبيه... ولم يُفرج الرشيد عن أحد ممن بقي، إذ إن أجله لم يطُل بعد ذهاب الفضل أكثر من بضعة أشهر.. حتى تولى محمد الأمين الخلافة فأطلق سراحهم، فاختلطوا بعامة الناس، ولم يتقرَّب بعد ذلك أحد منهم إلى مناصب الدولة.

---

(١) ابن خلّكان: ج ٢ ص ٣٦٥.

(٢) كتاب المعارف: ١٢٥.

(٣) الصناعتين: ٢١٤.

القسم التاسع

استقلال الرشيد في دَولته

مرضه وموته

- دولة الرشيد في ثوب عربي
- الخليفة الحازم اليقظ
- الأسقام بعد الإجهاد
- حركة رافع بن الليث
- زحف الرشيد للقتال وموته
- أحزان ومراثٍ
- ذريته وتركته

دولة الرشيد في ثوب عربي

إذا استوى عقل المرء في شبابه، اجْتَرّ غذاءه من معاني الحوادث التي مرَّت به أيام طفولته ومراهقته وباكورة صباه.. وكان الرشيد أغزر الناس غذاء لعقله وروحه، بعد الذي رأينا من حياته المثقلة، وقد تكدَّست فيها الأحداث بعضها فوق بعض، فامتلأت عِبراً ودروساً.. حتى أعوام خلافته المنصرمة ـ ولم تزدْ على سبع عشرة سنة ـ كانت صاخبة جامحة طواها في مراحل متفاوتة متباينة، تكاد واحدتها تخلق منه إنساناً جديداً يختلف عنه في اختها: وهكذا انتقل من حدث غِرٍ صغير ضاعت شخصيته بين طموح أمه ودهاء وزيره، إلى سيد سادرٍ غافل ترك زمام دولته في يد غيره، ثم إلى حاقد ثائر، رأى عرشه يريد أن ينقض فأقامه بيده.

كان عمره ثمانية وثلاثين عاماً يوم قلّم أظافر وزرائه البرامكة وأزاحهم عن طريقه. ولم يكن عمله بسيطاً، فقد كان انقلاباً، كما رأينا، بالنسبة إلى قوميته وأسرته وذاته. إنه انقلاب قوّض صرحاً قديماً، ليقيم مكانه بناء جديداً.

لذلك وجّه الرشيد اهتمامه، قبل كل شيء إلى سدِّ الفراغ الكبير الذي تركه آل برمك في جهازَيِّ السياسة والإدارة. ورغب في أن يبدِّل بذلك الثوب الفارسي ثوباً عربياً، يكون سداه ولحمته من عناصر إن لم تكن عربية أصيلة، فمن المستعربين الأمناء.. فاختار الفضل بن الربيع وزيراً للتفويض، وجعل عَمْرَ بن مسعدة مساعداً له كوزير للتنفيذ [1]، وأعطى ديوان السر والرسائل لإسماعيل بن صبيح [2]، واتّخذ عبد الملك بن الفضل بن

---

(١) الإمامة والسياسة: ج٢ ص ٣٠٨ ـ وفي روايات أخرى أن عَمْرَ بن مسعدة لم يكن وزيراً للرشيد بل كان من خاصة حاشيته وممن يعتمد عليهم. وقد استوزره المأمون فيما بعد.

(٢) الجهشياري: ٢٧٧.

الربيع حاجباً له [١]، وأبقى كبار الهاشميين عمالا على الأقاليم، إلا عليّ بن ماهان، فأبقاه على خراسان، ولم يُبدِّله.

ثم التفت إلى المناصب، يريد تطهيرها من أعوان البرامكة وصنائعهم، فقال: أريد أن أستعملُ قوماً لم يعملوا معهم؟؟ فقيل له: «لا تجد أحداً لم يكن قد عمل لهم» فاختار أشفَّ من وقع في نفسه من عيون أصحابهم: فقلَّد محمد بن أبان خراج الأهواز وضياعها، وولَّى الفيض بن أبي الفيض الكسكري خراج (كسكر)، وعيَّنَ عليّ بن عيسى بن يزدا نيروز خراج فارس، وولَّى الخصيب بن عبد الحميد مصر وأعمالها [٢].. ثم أعوزه العدد، فجعل خادمه الأمين مسرور العبد على البريد والخرائط يساعده في ذلك ثابت الخادم، ووزَّع عدداً آخر من مواليه ومعتمديه على باقي المناصب[٣] وأوصاهم بقوله: «إياكم والتقاعس عن قضاء حوائج الناس، فإنه من العار أن يقال ضاعت مصالح العامة بزوال أمر البرامكة»[٤].

وكان من حسن طالعه بقاء قيادة الجيوش سالمة بين يديه، وهي قيادة عربية، جمعت نخبة طيبة، من خير ما اجتمع للخلفاء العباسيين من القواد، أمثال: «هرثمة بن أعين، وخزيمة بن خازم، وأسد وخالد ومحمد أولاد يزيد بن مزيد الشيباني، وعبد الله بن مالك، وسعيد الحرشي، ويزيد بن مخلد، وحميد بن معيوف، ويحيى بن سعيد العقيلي، وسعيد ابن مسلم بن قتيبة الباهلي، أحفاد قحطبة الطائي، والأشعث الكندي» وغيرهم من دهاة الحروب وأبطالها.. وقد وزَّع كتائبهم في زوايا البلاد وعلى حدودها، لمجابهة الطوارىء في الداخل والخارج.

وكان أكثر ما يُعنى به الداخل، بعد نكبة البرامكة، أمر الشعب البغدادي المشحون بأعوانهم وبني جلدتهم، وأمر إقليم خراسان الذي تعلَّق أهله بزعامتهم.. غير أن هرثمة بن أعين استطاع بأقل جهد أن يقبض على زمام الأمن في عاصمة الخلافة، فشتَّت شمل فرقة (الكرمينية) وفرَّق معظم جندها على الكتائب المرابطة في الحدود، واستبقى منهم من رأى

(١) الإمامة والسياسة: ج٢ ص٣٠٧.

(٢) الجهشياري: ٢٥٤.

(٣) الجهشياري: ٢٥٨.

(٤) الإمامة والسياسة: ج٢ ص٢٩٧.

فيه الطاعة والولاء. وأخذ المريبين من البغداديين بالشدة واللين، حتى استقرت الأمور بين يديه.

ويبدو أن الرشيد أراد إتمام ذلك الانقلاب الخطير، فجعل الرقَّة عاصمة دائمة له، وآلى ألاَّ يعود إلى بغداد ويقيم فيها يوماً واحداً إلا لضرورة ملزمة[١].. لذلك تغير رونقها الاجتماعي عن ذي قبل، وخملت حركتها بعد نشاط، وخبت أنوار قصورها على الضفتين، وتعطَّلت أنغام الموسيقى في قصر الخلد. وسكتت ألسِنة الشعراء، ورانت على تلك الأجواء الضاحكة مسحة من الكآبة والفتور، لم تَرَ بغداد مثلها منذ أقام أبو جعفر المنصور أسوارها.

أما خراسان التي غرقت في موجة من الألم والأسف على أبناء برمك، فقد بقيت تحت عبء ثقيل من قسوة علي بن ماهان وإدارته، ولم تستطع حراكاً بين يديه، حتى قدم بعض وجهائها إلى (الرقّة) يعرضون للرشيد طاعتهم وولاءهم، ويستغيثون به من ظلم هذا العامل وبطشه، وما يضْمُرُهُ من نية سيئة نحو أشرافهم، وربما تجاه الخليفة نفسه، فوعدهم الرشيد بالنظر في أمره، والمجيء بنفسه إلى خراسان لدراسة أحوالهم، عندما تسمح الظروف بذلك، ثم أكرمهم وأحسن وِفادتهم، فعادوا شاكرين[٢]

وجاءهُ خبر حدوث نزاع جديد، وقع في الشام بين اليمانية والمضرية، على غرار تلك الفتنة التي ثار ثائرها قبل عشرة أعوام بقيادة «أبي الهيذام» فخشي أن يتفاقم أمرها كتلك التي استمرَّت بضع سنوات، فأرسل لها في الحال جيشاً كبيراً استطاع أن يُخمد الفتنة في مهدها، ويضرب على أيدي محركيها، ويُصلح بين المتخاصمين إصلاحاً أرضى الجانبين، فلمْ تَقُمْ فتنة بعدها[٣].

وكان الرشيد قد انقطع عن غزو بلاد الروم خلال انشغاله بأمر البرامكة وغيرهم، فحسب هؤلاء أن ذلك ضُعفٌ منه، وخوف على سلطانه من انتفاضات داخل مملكته،

(١) الطبري: ج ٣ ص ٧٠٩.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٧٦٤.

(٣) ابن الأثير: ج٦ ص١٢٩.

فهدَّدوا الحدود، وحشدوا بعض القوى لاغتنام الفرصة فأرسل إليهم الرشيد جيشاً بقيادة ابنه القاسم مع بعض قواده، فدخل أراضيهم وأناخ على مدينة (قره). وأردفه بجيش ثانٍ بزعامة «العباس بن جعفر بن الأشعث» فحاصر حصن (سنا) وأجهد أهله[1] وألحقه بعسكر ثالث بقيادة «ابراهيم بن جبريل» فالتقى بقائد جيشهم ورئيس مسالحهم «نقفور». لكن هذا أراد تجنُّب القتال والعودة إلى القسطنطينية بسبب حدوث اضطرابات فيها، فلحِقته كتيبة من فرسان ابراهيم، وقاتلته، فانهزم مجروحاً، تاركاً جيشه لحراب المسلمين[2]... فاضطرَّت ملكة الروم إلى مصالحة الخليفة بإرسال الأموال والجزية، وتحرير ثلاثماية وعشرين رجلاً من الأسرى[3].

ولم يغادر الرشيد مدينة الرقّة مدة عامين كاملين، وهو في سهرٍ متواصل وجهد لا ينقطع، حتى استعاد هيبة دولته في الخارج، ووطَّد الأمن والاستقرار في الداخل، فاطمأنَّت له النفوس وانقادت له الأعِنّة، وسارت سفينة الدولة في طريقها، يقودها هو بنفسه، ونخبة من رجاله وجُلُّهم، كما قلنا، من العرب، بدل أولئك الذين كادوا يصْبَغونها بصبغتهم الفارسية، النزّاعة إلى الشعوبية الناقمة.

(١) ابن الأثير: ج٦ ص١٣٠.

(٢) ابن الأثير: ج٦ ص١٢٩.

(٣) ابن الأثير: ج٦ ص١٣٠.

الخليفة الحازم اليقظ

أصبح الرشيد سيد الموقف في دولته، منذ بداية عام (١٨٨ هـ ـ ٨٠٥ م) بعد أن دانت له الأمور، واستعاد هيبة خلافته بعزم شديد، وصار يختلف عن ذلك الرشيد الذي كان بالأمس، يوم ألقى أعباء ملكه على أكتاف وزرائه، منصرفاً إلى مجالس لهوه وسمره، وسماع الشعر ومنادمة رواة الأدب والأخبار، والإفادة من الفقهاء والعلماء.

لقد تغيَّر الرجل كل التغير، وضعُف اهتمامه بتلك اللذائذ الفكرية بعد أن عصرته السياسة، وصهرته الحوادث، فأغلق مجالسه باستثناء بعض فترات يسيرة.. وعزف عن السمر والاجتماعات، ولم يرغب في شيء منها. وزاده في ذلك موت معظم الشخصيات التي كانت زينة قصره وبهجته: فقد توفي أبو يوسف القاضي قبل النكبة بعدة أعوام، ومات الكسائي ومروان بن أبي حفصة، وتزهَّد أبو العتاهية، وترك الأصمعي دار الخلافة إلى مسجده في البصرة، وهلك ابراهيم الموصلي وبعض زملائه، وتفرَّق الباقون.

كأن لَمْ يكنْ بين الحَجونِ إلى الصَّفا　　　أنيسٌ ولم يَسْمَرْ بِمكَّةَ سامــرُ

كل هذا وغيره جعل الرشيد يلتفتُ إلى إدارة ملكه، ويسهر على أداء واجباته كمسؤول أول عن خلافته ورعيته.. وقد حدثتنا الأخبار بأنه كان يفكّر في أداء فريضة الحجّ منذ الأشهر الأولى بعد إيقاعه بالبرامكة، لكن انشغاله في تنسيق الإدارة وتطهير دولته من بقايا خصومه، وسهره على إقرار الأمن في الداخل، وتأديب الروم الذين طمعوا فيه، كل ذلك حال دون تحقيق رغبته هذه.

فلما أتمَّ كل شيء، واطمأنّت نفسه، دعا وزيره عَمْرَ بن مسعدة. وقال له: إني قد عزمت على الحج، ماشياً على قدمَيْ من الرقّة إلى بيت الله الحرام.. فاستغرب الوزير من ذلك، إذ

لم يسبق له أن سمع قبل هذا خليفة مشى راجلاً إلى الحجاز، والطريق طويل شاق، فقال له: أنى لك ذلك يا أمير المؤمنين؟؟ وكيف تصل سيراً على قدميك؟؟ قال: لا بدَّ، وإن كلَّفني الأمر ما لا أطيق، قال: أمْهِلْ إذن عامك هذا، وانتظر الحجَّ القادم حتى أُسهِّل لك الطريق، وأوقِّت لك المواقيت، وأُحدِّد لك المراحل، ليخفَّ ذلك عليك إن شاء الله[1].

لقد أجمعت الروايات على أن الرشيد حجَّ في تلك السنة، ولكنها لم تجمع على أنه سار ماشياً، واستقلَّ «ابن قتيبة» وبعض المؤرخين بذكر هذا الخبر، وأوّلوه بمختلف التآويل. والأقرب إلى الظن أنه فعل ذلك لسببين: تكفيراً ليمينه الذي أقسمه ليحيى بن خالد بأن لا يمسَّهُ بسوء في شخصه وحاله وماله، وتظاهراً أمام الناس بأنه لايزال على عهده في الغزو والحجِّ، وعلى عزيمته وتقواه وارتباطه بأسباب دينه.. ويبدو أنه نجح كل النجاح، فكان لعمله هذا صدى عميق في نفوس العامة والخاصة.

وانصرف عمرو بن مسعدة طوال عامه إلى تذليل الصعوبات أمامه: فعبَّد الطرق الوعرة، وقسَّمها إلى مراحل، وجعل المرحلة بريداً مسافته اثنا عشر ميلاً، وقسمها إلى أربعة فراسخ[2]، وضرب عند كل فرسخ قبة مزوَّقة، فيها فرش ممهدة، ورواقات لها ظلال كثيفة، وفيها ألوان الطعام والشراب والفاكهة. وابتنى على رأس كل مرحلة داراً صغيرة تحوي جميع وسائل الراحة للنوم والاستحمام، وحفر الآبار بقربها، ليتوافر للموكب ماء الشرب والوضوء والطعام والنظافة.. وحرص على أن ترد للرشيد أخبار دولته باستمرار، فاستخدم لذلك الحمام الزاجل الذي يأتي من أقصى الأقاليم في يوم أو يومين، فيتسلَّمها عند رأس كل مرحلة يصل إليها، وكأنه جالس في قصره بالرقّة. هذا عدا الهدايا التي تصل في طريقه بواسطة النجائب الخفيفة من الإبل المعدة للبريد السريع.

وسمعت زبيدة بعزم الرشيد، فطلبت منه أن تشاركه وتسير بجانبه فلم يُمانع، فأقسمت بأن تبذل جزءاً كبيراً من مالها وثرائها الضخم في سبيل الخير والتقرُّب إلى الله، وراحت تستعدُّ لذلك. وشاع الخبر في البلاد فتهيأت جماعات غفيرة من وجهاء الأقاليم في تلك السنة لاستقبال الرشيد في مكة التي سيأتيها حافياً.

---

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص٣٠٧.

(٢) الفرسخ يقرب من ثلاثة أميال.

وفي أوائل شهر شوال من عام (١٨٨ هـ ـ ٨٠٤ م) خرج الرشيد من مدينة الرقّة مُحْرِماً، ومعه زبيدة بنت جعفر تمشي بجانبه وراء ستار من أعين الحاشية والحرس الذي يراقبهما عن بعد.. ووراءهما على مسافة فرسخ، موكب الحجّ تصحبه فرقة كبيرة من الجيش الذي أعدَّه الرشيد للشخوص معه إلى خراسان بعد أداء الفريضة، وقبل العودة إلى مقرّه.

كان الرشيد، يومئذ، قد ناهز الأربعين، ولم يزل في صحة تامة ونشاط ظاهر، كما أن زبيدة لم تجد صعوبة في السير، وكان حولها عدد من شباب أسرتها المقربين، وأمراء بني هاشم يسيرون على بسط مفروشة تحت أقدامهم، منداحة أمامهم حتى نهاية المرحلة. والهواء معتدل في ذلك الموسم الربيعي الجميل.. فإذا قطعوا في سيرهم فرسخاً، نزلوا القبة المضروبة لهم ، فيأخذون راحتهم فيها، ونصيبهم من الطعام والشراب، ثم يستأنفون سيرهم في فرسخ آخر. حتى إذا مشوا أربعة فراسخ، كانت نهاية المرحلة، فينزلون الدار التي أُعدَّت لهم، ويقيمون فيها يوماً أو أياماً معدودات، ثم يستمرّون في السير، بعد أن تكون المرحلة التي أمامهم قد فُرشت لهم وتهيأت فيها أسباب راحتهم على أتم وجه[1].

بفضل هذه التدابير التي عُدَّتْ غريبة في ذلك العهد، استطاع الرشيد أن يجتاز تلك المسافات الشاسعة، ويُدير شؤون دولته وهو في طريقه من خلال البريد الجوي (الحمام الزاجل) الذي كان يروح ويغدو إلى غايته ببضع ساعات، دون أن يُحرم الخليفة سماع أي حادث كان يقع حتى ولو في أقاصي البلاد، ولم يعدم استشارة رجال حاشيته، ووزرائه وكتابه لأنهم كانوا معه في ذلك الطريق.

ولما وصل أرض الحجاز، خرج سكان الحرمين ووفود الحجّ إلى استقباله بحفاوة بالغة مهلّلين، مكبّرين، استبشاراً بهذه البادرة الفريدة من نوعها، والتي شدَّت عرى الدين برباط روحي متين.. فوزَّع فيهم الهدايا، وقسَّم الأموال باسمه واسم زبيدة حتى لم يبق في ذلك اليوم من سكان الحرمين فقير جائع، والتفتت، بدورها، زبيدة بنت جعفر إلى المشاريع الخيرية التي عزمت على تحقيقها، فأمرت بحفر البرك في الصحارى على طُرُقِ

(١) الإمامة والسياسة: ج٢ ص ٣٠٨.

الحجّ، وشيَّدت بجانبها البيوت لراحة الحجّاج على نمط البيــوت التي بناها عمرو بن مسعدة في طريق الرشيد، وبنت قصراً ضخماً في مكة سُمِّي باسمها. وعمَّرت دار أبي يوسف المشهور.. ثم دعت عامل زوجها على مكة وأمرته بأن يُجري ماء تلك العين التي يشرب منها المكِّيون إلى داخل المدينة، فقال لها: إن المسافة بين هذه العين وبين مكة اثنا عشر ميلاً، وإن نفقات ما تريدينه ضخمة تبتلع المال الجسيم. فقالت له كلمتها الشهيرة: «أجرِ الماء إلى مكة ولو كلّفتك ضربة المعول ديناراً» فكان مــا أرادت، وجرى الماء إلى مكة، وسُمِّيت العين باسمها، وهي لا تزال حتى اليوم .. ثم نادت كاتبها الخاص، وأوعزت إليه بأن يجمع أرامل الحرمين وأيتامهم، ويوزِّع فيهم خمسة آلاف ألف درهم باسم ابنها محمد الأمين، وليّ عهد الرشيد.. وما زالت تعمِّر وتتصدَّق حتى قيل إنها انفقت ثمانية وخمسين ألف ألف درهم، في حجَّتها تلك، فضجَّ الحجيج بالثناء والحمد لها وللرشيد، وسرت أخبارهما في البلاد فكانت خير دعاية لهما، ولولدها الوحيد محمد الأمين(١).

وأنهى أداء الفريضة، وقفل الرشيد نحو العراق، وهناك وجَّه بعض الهاشميين ورجال حاشيته مع زبيدة إلى الرقّة، وشخص بجيشه إلى خراسان، لدراسة أحوالها عن كثب، ومحاسبة عاملها عليّ بن ماهان الذي كثرت الشكاوى ضده. وهو في طريقه إلى هناك لم يدخل مدينة بغداد، وعسكر بالنهروان، فالتحق به أولاده الأمين والمأمون والقاسم، ثم غادرها معهم في شهر جمادى الأولى عام (١٨٩ هـ ـ ٨٠٥ م) ونزل مدينة (قرماسي) فعسكر فيها، ودعا إليه جماعة من الفقهاء والعلماء والقضاة، وجمعهم في مجلس واحد، وأشهدهم على أن جميع ما في عسكره، الذي معه، من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وغيرها، يكون لعبد الله المأمون، وليس لأحد غيره من أولاده فيه شيء.. ثم جدَّد البيعة للأمين وللمأمون من بعده.

وبينما كان في مجلسه ذاك وحوله كبار قومه، دخل الفضل بن الربيع ومعه الشاعر المعروف «العماني الراجز» فأنشده أرجوزة يقول فيها:

قل للإمامِ المفتدى بخصمهْ

(١) المسعودي: ج ٦ ص ٣٠١

ما قاسمٌ دون مدى ابن أمّهْ

وقد رضيناهُ، فَقُمْ فسمِّهْ

فابتسم الرشيد، ثم قال: ويحك أما رضيت أن أولّيه العهد وأنا جالس حتى أقوم على رجلي؟؟ قال: إنما أردت قيام العزم. قال: فإنا قد ولّيناه العهد، وأمر بالقاسم أن يحضُر، فحضر وكان عمره، يومئذ، سبعة عشر عاماً، فقال له: يا بني عليك جائزة هذا الشيخ، فقد سألنا أن نوليك العهد، وقد فعلنا. قال: حكمك يا أمير المؤمنين، قال الرشيد: ما أنا وهذا؟؟ بل حكمك أنت. وأمر له بجائزة مع جائزة القاسم[1].. ثم أخذ البيعة له وسمّاه «المؤتمن» وولاّه الجزيرة والثغور، وأُعطي الخيار للمأمون عند تولّيه الخلافة، إن شاء أن يُقرَّ القاسم أقرَّه، وإن شاء خلعه[2].. وأرسل على الفور قائده هرثمة بن أعين إلى بغداد ليُجدِّد البيعة من الناس للأمين ثم المامون ثم المؤتمن. فذهب هذا مسرعاً ونفَّذ طلب الرشيد، وعاد إليه قبل أن يرحل من معسكره[3]..

لاشك في أن عمل أخذ البيعة للمؤتمن كانت خطة مدبرة برضاء من الرشيد قبل اجتماعه هذا.. وربما كان يهدف من ورائها إلى تخفيف حدة التنافس بين الأخوين الأمين والمأمون، ذلك التنافس الذي أقضّ مضجعه زمناً طويلاً، وما زال .. ونحن إذ نخالف رأي بعض المؤرخين في هذا، نقول: بأن بيعة المؤتمن بعد أخويه وجعله وليَّ عهد ثالث، قد أضعفت قيمة ولاية العهد نفسها من الناحية الأدبية... لكن الخطأ الذي نُسجِّله على الرشيد هو إصراره على إعطاء السلاح والجيوش للمأمون دون الأمين وهو أحوج من أخيه إلى تلك القوى. ولو فعل العكس لكان هناك احتمالان: إما أن يبقي الأمين أخاه المأمون على ولاية العهد بعده، وإما أن يخلعه، ولن يكون قادراً على خلعه إلا بوجود السلاح والجيوش بين يديه، وبهذا يأمن الرشيد شرَّ تمزيق دولته بعد موته.. ومن جهة أخرى، كان عليه أن ينظر

(١) اليعقوبي: ج٢ ص ٥١٤ ـ في روايات أخرى، أن القاسم بويع بطلب من عبد الملك بن صالح؛ ولكن الأقرب إلى الاحتمال ما ذكرناه.

(٢) المسعودي: ج٦ ص ٣٢٨ ـ لما صار المأمون خليفة خلع القاسم عام (١٩٨ هـ).

(٣) الطبري: ج٣ ص ٦٠٢

في حاشية ولديه هذين، فيبعد عنهما من يعمل على إحداث التفرقة والكراهية بينهما، أمثال الفضل بن سهل المجوسي الذي أسلم حديثاً وسيطر على أعمال المأمون ونفسيته كسيطرة يحيى بن خالد على الرشيد.. وقد قام، فيما بعد، هذا الفارسي بأدوار خطيرة بين المأمون وأخيه، تشبه أدوار يحيى بين الرشيد وأخيه الهادي تمام الشبه.. نعم، كان باستطاعة الرشيد أن يصنع ذلك فيخفف من هذا الخطر الذي زرعه البرامكة بأيديهم، ولكنه لم يفعل، فكانت النتيجة ما سنراه في نهاية هذا الكتاب.

وقبل مغادرته (قرماسين) أوعز إلى الأمين أن يلتحق بعمله في بغداد نائباً عنه، وإلى القاسم أن يتوجَّه إلى الثغور، وزحف هو ومعه المأمون بجيشه إلى مدينة الريِّ، فوصلها، وأقام فيها أربعة أشهر، استدعى عامله عليّ بن ماهان، فجاءه من (مرو) مع الهدايا والأموال والطرف والمتاع والمسك والذهب والنفائس والسلاح والدواب وغيرها مما لا يُقدَّر بثمن، فحادثه بما وصل إليه من الشكاوى، فلم يجد عنده ما يؤخذ به. فأبقاه في عمله، وأوصاه بوضع السيف والندى في موضعهما (١).

وبعث خادمه «حسيناً» إلى طبرستان، ومعه ثلاثة كتب يعطي فيها الأمان لثلاثة رؤساء كانوا في تمرُّد وحرب على حدود البلاد، وهم «شروين» و«ونداهرمز» و«مرزبان ابن جستان» فجاؤوا إليه يقدمون الطاعة، ودفع الخراج. فرضي عنهم وأخذ من كل واحد منهم ولداً أبقاه عنده رهينة حتى تثبت لديه طاعة أبيه وولاؤه (٢).

وقدم عليه قائده «سعيد الحرشي» ومعه أربعمائة مجوسي من طبرستان الثائرة، فأسلموا بين يديه. وفي الوقت نفسه، صادف قدوم عامل أرمينية «خزيمة بن خازم» ومعه الهدايا والأموال، فأكرمه وأعاده إلى عمله.. وقبل أن يترك الريّ، ولّى عليها عبد الله بن مالك وعلى الرويان وطبرستان كلها، وصيَّر محمد بن الجنيد على همدان، وأرسل عيسى بن جعفر بن سليمان الهاشمي إلى عمان.. كما قام بأعمال إصلاحية وإدارية كثيرة، جعلت أحد الشعراء يقول:

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٠٣

(٢) الطبري: ج٣ ص٦٧٩

إن أميـنَ اللهِ فـي خلقـهِ حَـنَّ بـهِ البرُّ إلـى مولـدِهْ

لِيصلحَ الريَّ وأقطارَها ويُمطِرَ الخير بها من يدِهْ (١)

وقفل راجعاً إلى الرقّة، فمرَّ ببغداد، واجتاز الجسر، فوجد جزءاً من جثة جعفر بن يحيى باقياً على جذعه، فأمر بأن تُجمع باقي الأجزاء مع الرأس أمامه. وصار ينظر إليها وقد أربدَّ وجهه، فقال له عبد الملك بن الفضل: يا أمير المؤمنين، لقد عظم ذنب لم يسعهُ عفوك!! فقال الرشيد: «من يرد غير مائه، يصدُر بمثل دائه، ومن يتعامى عن ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحته» ثم أمر بحرقها(٢).

لكنه لم يشأ البقاء في بغداد ليلة واحدة، وقد حاول الأمين وبعض خاصته إقناعه بالنزول فيها ولو لمدة وجيزة، فأبى وقال: «والله إني لأطوي مدينة ما وصفت بشرق ولا بغرب مدينة لا أيمن ولا أيسر منها، وإنها لوطن آبائي، ودار مملكة بني العباس ما بقوا وحافظوا عليها، ولنعم الدار هي. ولكنني لا أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأمَّة الهدى والحب لشجرة اللعنة، مع ما فيها من المارقة والمتلصلصة ومخيفي السبيل، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت، ولا خرجت عنها أبداً» ثم غادرها، فقال العباس بن الأحنف، وكان في الموكب:

ما أنخنا حتّى ارتَحَلنا فما نَفْـ رِقُ بينَ المُناخِ والارتحـالِ

سألونا عن حالنا إذ قَدِمْـنا فقرنَّا وَداعَهُم بالسُّؤالِ

وكان دخوله الرقّة في أواخر العام (١٨٩ هـ ـ ٨٠٥ م) بعد سفر استغرق عاماً كاملاً أو ما يزيد. وكان «الفضل بن العباس الهاشمي» قد غزا بلاد الروم قبل وصوله بأيام قليلة، فانتصر وعاد، فطلب الروم من الرشيد، على الأثر، عقد اتفاقية افتداء الأسرى بين الطرفين بالمال، وكان الأسير قبل هذا يفكُّ بأسير مثله، أو يموت في محبسه(٣)..

(١) الطبري: ج٣ ص٧٠٢.

(٢) العقد الفريد: ج٣ ص٢٧.

(٣) الطبري: ج٣ ص٢٧

فوافق الرشيد على ذلك، وافتدى جميع أسرى المسلمين عندهم من بيت المال، ففرح الناس واستبشروا، وقال شاعرهم:

وَفُكَّت بك الأسرى التي شيِّدت لها   محابس ما فيها حميمٌ يَزورُها

على حين أَعْيى المسلمين فكاكُها   وقالوا: سجون المسلمين قبورُها (١)

ولم يكد الرشيد يستجمُّ من تلك السفرة الطويلة المتعبة، حتى اضطرَّ إلى ركوب جواده مرة أخرى، ليزحف إلى حرب طويلة دامية... وملخص ذلك: أن ملكة الروم «أوغسطة» كانت تدفعُ جزية سنوية لبيت مال المسلمين، لكن ثورة نشبت في بلادها بزعامة رئيس المسالح «نقفور» الذي استطاع ان يُسقط هذه الملكة العجوز ويحتلَّ عرش (بيزنتية)، فقطع الجزية السابقة، وبهذا استؤنف العداء بينه وبين المسلمين، كما بينا. وأبى «نقفور» إلا أن ينتقم لنفسه من تلك الجروح التي ألحقتها به كتائب ابراهيم بن جبريل يوم التقاها وهو لايزال قائد جيوش الروم ورئيس مسالحها.. فأرسل إلى الرشيد كتاباً في أوائل العام (١٩٠ هـ ـ ٨٠٦ م) يقول فيه:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب:

أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فارددْ ما حُصِّل قبلك من أموالها، وافتدِ نفسك بما يقعُ به المصادرة لك.. وإلا فالسيف بيننا»(٢).

فَوَرَدَ الكتاب إلى الرشيد، فساءه أن يخاطب بمثل هذه اللهجة، وغضب غضباً شديداً، حتى استعجم على وزيره الفضل بن الربيع بين أن يشير عليه أو يتركه يستبدُّ برأيه دونه، ويبدو أنه كان يرى أن الرشيد في حاجة إلى الاستجمام والراحة بعد تلك المتاعب، لكن الرشيد دعا بدواة، وكتب على ظهر رسالة نقفور الجمل التالية:

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج١ ص ١٥٨

(٢) الطبري: ج٣ ص ٦٩٥

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم:

قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ماتراه دون أن تسمعه»[١]

ثم أمر وزيره في الحال بأن يدعو خيرة قواده ليجمعوا شملهم ويتهيأوا للزحف.. وبينما هم يتهيأون، جاء خبر بأن الروم قد خرجوا إلى عين (زربة) و(كنيسة السوداء) على حدود البلاد، وأغاروا على المسلمين فقتلوا وأسروا، فتصدَّت لهم فرقة من أهل (المصيصة) وقاتلتهم واستعادت ما كان في أيديهم.. فأمر الرشيد بالاسراع في إعداد لوازم القتال، وترك ابنه الأمين في بغداد، وأبقى المأمون في مدينة الرقّة، وفوَّض إليه الأمور. وجعل معه وزيره الفضل بن سهل الفارسي[٢]

وخرج مسرعاً بجيش كامل العدد والعدة، يزيد على مائة وثلاثين ألف جندي من النظاميين والمتطوعة، واتَّجه نحو بلاد الروم فتوغَّل فيها، وأناخ على باب مدينة (هرقلة) فحاصرها ورماها بالنار والنفط حتى فتحت له أبوابها.

ومن هذه المدينة أرسل بعض كتائبه متفرقة بقيادة مجموعة من أعيان قواده: «داود ابن عيسى الهاشمي» و«عبد الله بن مالك» و«شراحيل بن معن بن زائدة الشيباني» و«يزيد ابن مخلد الهبيري» وغيرهم، ووجَّههم إلى الحصون والمدن المجاورة ففتحوها[٣]. ثم توغَّل في قلب البلاد، فأتاه «نقفور» يطلب الأمان على أن يدفع له الجزية ويستمرَّ في دفعها كل عام. فصالحه وعاد أدراجه يريد الرقّة.

لكن «نقفور» هذا كان مراوغاً في طلبه الأمان، فنقض العهد، والرشيد لا يزال في طريق عودته، فهاجم المسلمين واخترق حدود المملكة، وقتل ونهب، فجاء الخبر إلى معسكر

---

(١) الطبري: ج٣ ص٦٩٦

(٢) اليعقوبي: ج٢ ص٢٢ – كان الفضل بن سهل وزيراً للمأمون في عهد جعفر بن يحيى؛ وكان مجوسياً فأسلم على يد المأمون.

(٣) الطبري ج٣ ص ٧٨٣.

الرشيد في داخل البلاد الشامية. وأُسقط في يد الفضل بن الربيع، وتردَّد في إعلام الخليفة بما حدث، لأنه يعلم إذا ما سمع الخليفة بالأمر عاد إلى الحرب ثانية، دون استراحة ولا تريث، وكان الموسم شتاء والثلوج قد كست الأرض، والرياح تعصف شديدة باردة، ولكنْ، لابدَّ من إخباره رغم الإشفاق عليه من تلك العودة. فاحتيل له بشاعر من الجيش يُدعى (عبد الله بن يوسف التيمي). فدخل عليه وأنشده:

نَقَضَ الذي أعطيتَهُ نقفور وعليه دائرةُ البوارِ تدورُ

أبْشِرْ أميرَ المؤمنين فإنه غُنْمٌ أتاكَ به الألهُ كبيرُ

نقفورُ إنك حين تَغْدُرُ إن نأى عنك الإمامُ لَجاهلٌ مغرورُ

أظَنَنْتَ حين غَدَرْتَ أنك مفلتٌ؟؟ هبلَتْكَ أمُكَ، ما ظَنَنْتَ غرورُ

فانتبه الرشيد، وقال: أَوَقَدْ فعل نقفور هذا؟؟ قالوا نعم. فكرّ في الحال راجعاً إلى بلاد الروم في أشدِّ محنة وأغلظ كلفة. وقاتل جيوش نقفور ثانية وشتَّتها وأباد معظمها، وخرَّب مدينة هرقلة بعد حصارها من جديد، وسبى أهلها، ولم يرجع حتى بعث له نقفور بالجزية عن كل فرد حتى عن نفسه وعن وليِّ عهده «استبرق» وبطارقته وقساوسته. وتعهَّد أن يحمل إليه أيضاً ثلثماية ألف دينار، كتعويضات حربية، وشرط الرشيد أن لا تُعمَّر مدينة هرقلة بعد هذا، فأُجيب طلبه، وعاد أدراجه ثانية يريد الرقَّة.

ومن طرائف ما حدث في هذه الغزوة التاريخية النادرة، ما حدَّثنا عنه الطبري إذ قال: بينما كان الرشيد مع جيشه في طريق العودة الأخيرة. ورده كتاب من نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته، يقول فيه:

«لعبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين، من نقفور ملك الروم:

سلام عليكم، أما بعد:

أيها الملك، إن لي إليك حاجة لاتضرُّ في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة . أن تهب لابني «استبرق» جارية من بنات (هرقلة) كنت قد خطبتها على ابني، وقد وقعت سبية في جيشك، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأمر في الحال بإحضار الجارية، فأُحضرت أمامه، فأخبرها بالأمر وأوعز بأن تُكسى الثياب، وأهداها شيئاً مما يحمله من الجواهر، وأعطاها المضرب الذي كان نازلا فيه بما يحوي من أثاث وآنية ومتاع، وأثقلها بالهدايا، وأرسلها مع جماعة من رجاله برئاسة أحد قواده، فأوصلها معزَّزة مُكرَّمة إلى أهلها. فأرسل نقفور إلى الرشيد كتاب شكر على أريحيَّته وشهامته، وأرفق الكتاب بكثير من الهدايا الثمينة النادرة.

عاد الرشيد إلى الرقّة، ورايات النصر تخفق على كتائبه، فدخلها ليلة عيد الفطر من العام نفسه باحتفال مهيب يذكِّرُنا باحتفال البغداديين به في عهد أبيه يوم عاد غازياً منتصراً فارضاً الجزية على حكومة القسطنطينية.. ولأول مرة بعد زمن طويل، يجلس في قصره مجلساً عاماً، ويسمح للشعراء بالإنشاد بين يديه:

ألا نــادتْ هــرقلــةُ بالخــرابِ	مـن الملكِ المـوفَّقِ بالصوابِ
غــدا هــارونُ يــرعُدُ بالمنايــا	ويَبْـرُقُ بالمذكَّـرة القضــابِ
وراياتٌ يَحِـلُّ النصــرُ فيهــا	تَمُــرُّ كأنــها قِطَـعُ السحــابِ
أميــر المؤمنيــن ظَفَـرْتَ فاسلَمْ	وأبشِـرْ بالغنيمـة والإيــابِ[1]

وقال أشجع السلمي:

لازلتَ تنشُـرُ أعيــاداً وتطويهــا	تمضــي لهـا بك أيامٌ وتَمضيها
أمسَتْ هرقلةُ تَهوي من جوانِبِها	وناصــرُ اللهِ والإســلامِ يَرميهــا
ملكْتَهــا وقتلْــتَ الناكثينَ بهــا	بِنَصْـرِ مَنْ يملُكُ الدُّنيا وما فيها
ما رُوعِي الدينُ والدُّنيا على قِدَمٍ	بِمِثْلِ هارونَ راعيهِ وراعيهــا[2]

وبينما هو في نشوة انتصاراته هذه، أتته البشائر بأن القائد «حميد بن معيوف» أمير سواحل الشام ومصر، قد غزا بأساطيله جزيرة (قبرص) واستردَّها من الروم بعد حصار

(١) الطبري: ج٣ ص ٦٩٨

(٢) معجم البلدان: ج٨ ص ٤٥٤.

وقتال، وسبى من أهلها ستة عشر ألف رجل من بينهم أسقف الجزيرة نفسه،[1] وقدم بهم إلى الرقّة فتولّى بيعهم «أبو البختري» القاضي، فاستقبل الرشيد هذه الأنباء بوجه طافح بالبشر، ودعا ابن معيوف إليه وقرَّبهُ منه، ثم أمره بالعودة مرة أخرى إلى قبرص ومحاربة أهلها الذين نكثوا العهد وقتلوا الحامية، فعاد وأرجعهم إلى طاعته وسبى منهم خلقاً كثيراً[2].

بعد هذا كله، يمكن القول: بأن الرشيد أقام صرح دولته عالياً بمفرده ودون البرامكة. وبلغ من المجد غايته بساعده وجهوده التي يعجز عن بذل مثلها الكثير من جبابرة التاريخ، ولولا مشيئة الأقدار، وتألب الأسقام عليه، نتيجة ذلك الإجهاد المضني الذي قصَّر عمره، لكان له شأن أجلّ وأعلى... وأما ادِّعاء بعض المؤرخين بأنه لم يستطع سدَّ فراغ البرامكة بغيرهم[3]، أو أنه قوَّض كيان دولته بنكبته لهم، وقول آخرين: بأنه نال من الشهرة أكثر مما يستحقُ بحظّه وحسن طالعه، إلى آخر ذلك... فكلّه كلام لايستند إلى حقائق علمية، أو نزاهة في إصدار الحكم.

نحن لا ننكر أن سير الإدارة بعد البرامكة كان أضعف من قبل، وأن سهم بلاط الرشيد في تشجيع الحركة الفكرية والفنية كاد يتلاشى. لكن ذلك أمر طبيعي بحكم ظروف الإنقلاب السياسي الذي قام به، من أجل التخلّص من اخطبوط البرامكة، وإنقاذ سلطان دولته من نفوذهم.. وليس من الحق أن نحكم على كفاءته في هذين المجالين وهو لم يعش بعد البرامكة سوى ستّة أعوام، قضى أربعة منها في إقرار الأمن واسترجاع هيبة الخلافة وجعلها عربية غير فارسية، وانشغل في السنتين الباقيتين بمصارعة الأسقام التي انتابته فقضت عليه، كما سنرى.

ثم إننا لا نخالف رأي المستشرقين، بأن انحطاط الدولة العباسية بدأ منذ الأيام الأخيرة من حكم الرشيد، وانتقاض جانب خراسان عليه، وموته وهو في طريق الزحف

(١) الطبري: ج٣ ص٧٠٧

(٢) الطبري: ج٣ ص ٧١١.

(٣) الجهشياري: ٢٥٨.

إلى القتال، وهذا لا يعني أن الرشيد كان مسؤولاً عن ذلك الانحطاط إذا قصدنا به طغيان العناصر الأجنبية كالفرس ثم المغول على سيادة الدولة. لأن هذا الانحطاط ثم التدهور كان نتيجة أخطاء سابقة متراكمة، بدأ بها الأمويون في أواخر عهدهم، وضاعفها خلفاء بني العبّاس السابقون باستنادهم في حركتهم إلى حراب العجم، وإشراكهم في الحكم معهم باتخاذ الوزراء منهم.. وما كانت حركة الرشيد ضد البرامكة، في رأينا، إلا ثورة على تلك الأخطاء المتراكمة، وقد استطاع تفكيكها للقضاء عليها.. لكن الأيام لم تطل به، ليتمّم رسالته.

وللإيضاح أكثر من هذا، نقول: إن تآمر الشعوب الغريبة، وبخاصة الفرس، على السيادة العربية، والعمل على تحطيمها، كان قد بدأ منذ أواخر عهد بني أمية، حين بدأ الفرس يلتفّون حول الدعوة العباسية لضرب حكم الأمويين العربي، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، حتى كان من أمر البرامكة ما ذكرناه، فكادت النتيجة تأتي بأثمارها لولا همّة الرشيد وثورته عليهم.

وكلمة (القضاء على السيادة العربية) لا تعني (انفصال الفرس عن الدولة العربية) بل إذلال العرب وإخضاعهم للحكم الفارسي. لأن الدولة كانت، في ذلك العهد، إسلامية موحدة. فإما أن يحكمها العرب فتنضوي باقي الشعوب تحت رايتهم، وإما أن يحكمها غيرهم فيكون العرب في ظل الحاكمين الجدد.. وهذا ما حدث فعلا بعد موت الرشيد، منذ خلافة المأمون حتى عصرنا الأخير هذا.

لذلك، يُمكننا القول، إن الرشيد استطاع، بقضائه على نفوذ البرامكة، أن ينقذ السيادة العربية، ويصون الشعب العربي من الاستعمار الأجنبي زمناً ما... ومن يدري؟؟ فلو طال عمر الرشيد زمناً كافياً لتغيَّر وجه تاريخ العرب، أو تأخَّر، على الأقل، انهيار الحكم العربي أمام طغيان الفرس ثم المغول.

الأسقام بعد الإجهاد

كان على الرشيد أن يرفق بنفسه، فيعطيها قسطاً من الراحة والاستجمام، بعد ذلك الاجهاد الفكري العنيف الذي أصابه من جراء التفكير أعواماً عديدة قبل إيقاعه بالبرامكة، وبعده، حتى استقرَّت أحوال دولته وألقت أزمتها كاملة بين يديه... وقد رأينا بوضوح كيف كان الصراع في صدره عنيفاً يترجّح بين الرأي والعاطفة تجاه أولئك الوزراء. وكيف كانت الخوالج النفسية تتحفز بين جوانحه في تلك الليلة السوداء حين مضى السيف برأس جعفر، واحتضن السجن أكبر أسرة في أشد نفوذ سياسي عرفته خلافة بني العباس حتى تلك الساعة... وأعقبت تلك الليلة ليالٍ أخرى حالكة، مثقلة بالهموم والمخاوف، ألحقت بالرشيد إجهاداً مضنياً، نال من أعصابه الشيء الكثير.

كان عليه أن يخلد إلى الراحة طويلاً حتى يستعيد قواه، فلا يردف ذلك الاجهاد الحسّي إجهاداً جسمانياً أعنف منه، ولكن الحزم والشباب لا يعرفان للتعب معنى، فزحف من الرقّة إلى مكة ماشياً، وأتبعها بسفر طويل طوى فيه الأقاليم إلى خراسان، بين السهول والسفوح والجبال، حيث كان يشربُ الحار والبارد، ويأكلُ الطري واليابس، حتى عاد إلى مقرِّه بعد غيبة طال أمدُها نحو عام ونيِّف.

ولم يلق عصى الترحال بعد، ولم ينفض عن ثيابه غبار السفر، حتى ركب جواده ولبس لامة حربه، وزحف بأكبر جيش لديه إلى بلاد الروم لتأديب «نقفور» الذي استفزَّه بكتابه الجريء المتطاول.. ولو أراد لاستغنى عن السير إلى أعنف قتال بنفسه، ولأرسل نيابة عنه نخبة من قواده، وأمدَّهم بالجيش تلوَ الجيش حتى يبلغ غايته، ولكن الرشيد جُبِلَ على حبِّ الغزو والجهاد، ورأى في كتاب ملك الروم هذا تحدياً لشخصه بالذات، فكيف يحجم عن لقائه بنفسه وهو خليفة المسلمين؟؟ فكانت النتيجة له، وعاد وفي أثوابه نشوة

النصر والظفر. لكن للأقدار غايات، وللظروف أحكاماً، فنكث «نقفور» العهد الذي قطعه على نفسه، وخان شروط المهادنة، وكان على الرشيد أن يُطيع رأي وزيره الفضل بن الربيع بأن لا يعود للقتال مرة أخرى، ويُرجىء أمره إلى عامه المقبل، بعد راحة واستقرار، فلم يُطِعْ، وكرّ براياته على الروم مرة أخرى، ولكن بأشد كلفة، وأعنف مشقة، بين الثلوج والعواصف والرياح الباردة والأراضي المتجمدة، في أيام يكمن فيها الذئب في وجاره مستغنياً عن طلب قوته.

كانت هذه الجهود المتعاقبة في سلسلة متواصلة، إفراطاً من الرشيد في التضحية، وإسرافاً في تحمُّل المشاق، لا تستطيعه القوى الإنسانية مهما أوتيت من جَلَدٍ وحزم، فكان طبيعياً أن يتضعضع كيان جسمه، وتضعف مقاومته، فتتعاوره الأسقام وتهدِّده العلل، فيضطرَّ للّجوء إلى فراشه، بين آونة وأخرى.

لم يجمع الرواة على كنهِ المرض الذي انتابه، ولم يُحدِّثنا أحد منهم متى شعر به، وفي أي مكان أصابه من هذه البلاد الواسعة التي اجتازها في ترحاله وغزواته، وكل ما علمناه هو أنه بدأ يعاني (حمى الربع) إثر قدومه من غزوته المضاعفة لبلاد الروم[١].. ثم أصيب على أثر ذلك بإسهال دموي، وقد يكون نوعاً من مرض (الديزانتري) المعروف[٢]... وفي رواية أخرى، يقال إنه كان يشكو من ألم في جوفه نتيجة مرض ظهرت أعراضه على الجلد الخارجي من البطن في بقعة سوداء ظاهرة للعين، فكان يشدُّها بحزام عريض ويخفيها عن الناس[٣].

وسواء أكان مرض الرشيد واحداً، أم كان أسقاماً متعددة تضاعفت في جسده، فقد أشارت الأخبار إلى أنها بدأت بسيطة، لم يعبأ بها، بادئ الأمر، ولم يكترث لنتائجها، وربما اكتفى بما كان يصفه له أطباؤه من الحمية والطعام الخفيف، حتى إذا ما اشتدَّت عليه بعد مرور الأيام وصارت تلجئه إلى النوم في فراشه بدأ يحسب لها حسابها.. وكان يعتمد

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٧٣١ ـ حمى الربع، هي التي تعاود المريض في كل أربعة أيام.

(٢) تاريخ المسلمين: ١٢٠.

(٣) الطبري: ج٣ ص ٧٣١

على استشارة طبيبه المفضل «جبريل بن بختيشوع» ثم صار يجمع باقي الأطباء معه، لكن ذلك لم يفده بشيء.

وحرص كثيراً على أن لا ينتشر خبر مرضه في الناس، وأن لا يعرفوا حقيقة أمره، خوفاً من أن تَكثُر الإشاعات والأكاذيب، فيحدث من جرائها ما لا يريده ولا يأمن جانبه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأخبار مرضه انتشرت بين الخاصة فلا بد من تسرُّبها إلى العامة. فكان يظهر للناس في ساعات صحوه، ويخرج إلى المسجد الجامع للصلاة، ثم ينكمش في سريره كلما اشتدَّت عليه وطأة الألم.

غير أن الظروف التي كانت تواتيه، والسّعد الذي كان يواكبُهُ في جميع أعماله التي سلفت من حياته، بدأ منذ اليوم يتغيَّر عليه ويجانبه. فكانت أول بادرة منه، ظهور نشاط ملحوظ في حاشيتي الأمين والمأمون ضد بعضهما، استعداداً لما قد يطرأ على حياة الرشيد في يوم من أيام سقمه هذا.. وكانت أكثر الحاشيتين انتباهاً ونشاطاً حاشية المأمون الفارسية، وعلى رأسها الفضل بن سهل، وأخوه الحسن بن سهل، اللذان غلبا على المأمون قبل تلك الساعة، وراحا يدبِّران الوسائل الخفية للوصول إلى الحكم عن طريق دفعه إلى الخلافة بعد أبيه.. يقول الفضل بن سهل: «قال لي يحيى بن خالد يوماً: تتجدَّد الدولة في كل أربعين عاماً، وأظنُّها ستتجدَّد على يديك».

ومن المؤلم حقاً، أن يسمع الرشيد بهذا النشاط يشعله وليا عهده، وهو الذي سهر الليالي وذرف الدموع في سبيل أن لا يصلا إلى هذه النتيجة المهددة بانشقاق دولته.. وأن يعلم بأن كلا منهما له حول سريره عيون وأرصاد تعدُّ عليه أنفاسه وحركاته. وأصعب من هذا كله أن يكون مسرور العبد عيناً للمأمون عليه، ويكون جبريل بن بختيشوع من أرصاد الأمين، وكلا الرجلين يؤمِّل الرشيد أن يكون آخر من يبقى بجانبه.. هكذا كان يعتقد.

ويبدو أن وطأة المرض على الرشيد، ويأسه من شفائه منها، والأخبار التي كانت تصله عن نشاط ولديه هذين، وضعت أمامه صورة ماضية له مع أخيه الهادي في تسابقهما على الخلافة قبيل مصرع المهدي، وربما ساقت إلى مخيلته هواجس أخرى، جعلته يشك بنواياهما تجاه شخصه، ويخشى أن تحدِّث أحدهما نفسه بالقضاء عليه.

كانت هذه الهواجس تنتابه حينما يثقل عليه المرض، ثم صار يفكِّر بقرب أجله ودنوٍّ

مصيره، فيبدو الحزن والوجوم عليه، ويزداد طبعه حدة وشراسة ، فيتخلَّل أحكامه شيء من الجفاف والقسوة، وقد عزفت نفسه عن المجالسة والسمر، وابتعد عن الخاصة والندماء، دون أن يعرف أحد من المقربين إليه سبب ذلك.

يقول طبيبه جبريل: «كنت معه بالرقّة، وكنت أول من يدخل عليه في كل غداة، فأتعرَّف حاله في ليلته، فإن كان أنكر شيئاً وصفه، ثم ينبسط فيحدِّثني بحديث جواريه، وما عمل في مجلسه، ومقدار شرابه وطعامه، وساعات جلوسه، ثم يسألني عن أخبار العامة وأحوالها، فأُخبره بما أعلم. فدخلت عليه في غداة يوم، فسلَّمت، فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكراً مهموماً، فوقفت بين يديه ملياً من النهار وهو على تلك الحال. فلما طال ذلك أقدمت عليه، فقلت: يا سيدي، جعلني الله فداك، ما حالك هكذا؟؟ أعلة فأخبرني بها فلعلَّه يكون عندي دواؤها، أو حادثة في بعض من تحبّ، فذلك ما لا يدفع ولا حيلة فيه إلا التسليم، والغمّ لأدرك فيه؟؟ أو فتق ورد عليك في ملكك، فلم تخل الملوك من ذلك، وأنا أولى من أفضيت إليه بالخبر، وتروَّحت إليه بالمشورة. قال: ويحك يا جبريل، ليس غمي وكربي شيئاً مما ذكرت ولكن لرؤيا، رأيتها في ليلتي هذه وقد أفزعتني وملأت صدري وأفرحت قلبي، فقلت له: فرجت عني يا أمير المؤمنين. ثم دنوت منه وقبَّلت رجله وقلت: أهذا الغمُّ كله لرؤيا؟؟ والرؤيا إنما تكون خاطراً، أو بخارات رديئة، أو من تهاويل السوداء، وإنما هي أضغاث أحلام، قال: رأيت كأني جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها ولا أفهم اسم صاحبها، وفي الكف تربة حمراء، فقال لي قائل: هذه هي التربة التي تدفن فيها. فقلت وأين هذه التربة؟؟ قال: هي في (طوس). وغابت اليد، وانقطع الكلام. قلت: يا سيدي هذه الرؤيا بعيدة ملتبسة، حسبك أخذت مضجعك ففكَّرت في أمر خراسان، وما ورد عليك من انتقاض بعضها - وكانت ثورة رافع بن الليث التي سنتحدَّث عنها قد بدت طلائعها - إبليس كذلك؟؟ قال: كان ذاك، قلت: فلذلك خالطك الفكر في منامك ما خالطك، فولَّد هذه الرؤيا، فلا تحفل بها جعلني الله فداك، وأتبع هذا الغمَّ سروراً يخرجه من قلبك كي لا يولِّد علَّة» قال جبرائيل: فما برحت أطيِّب نفسه بضروب من الحيل حتى سلي وانبسط وأمر بإعداد ما يشتهيه من الطعام[1].

---

(١) الطبري: ج٣ ص ٧٣٥ - كانت طلائع ثورة رافع بن الليث في خراسان قد بدت في عام (١٩٠هـ) واستمرت عدة أعوام.

ويبدو لنا من مقارنة الحوادث أن هذه النزعات النفسية المحزنة عند الرشيد قد بدأت في عام (١٩١ هـ ـ ٨٠٧ م) ولم تكن تفارقه إلا حين يصحو من مرضه الذي كان يأخذه حيناً ويتركه حيناً آخر... غير أنه على الرغم من ذلك كله، لم يهمل أمور دولته ولم يترك صغيرة أو كبيرة منها إلا عالجها بحزم وخبرة. وقد جاء في الأخبار عن حوادث هذا العام والذي بعده، ما يأتي:

ثار أحد الخوارج من عبد القيس، يقال له «سيف بن بكر» فوجَّه الرشيد إليه محمد بن يزيد بن مزيد الشيباني فقتله في (عين النورة) وبدَّد شمله[١]. ثم ثار بعده «ثروان بن سيف» بناحية (حولايا) في جنوب العراق، وظلَّ يتنقّل في أرض السواد ويعيث فساداً فوجَّه إليه «طوق بن مالك» فانهزم ثروان مجروحاً واختفى في البلاد، ثم ظهر في سنة (١٩٢ هـ ـ ٨٠٨ م) في طَفِّ البصرة وقتل عاملها، وظلَّ يتوغَّل في البلاد فيختفي تارة ويظهر أخرى[٢].

وخرج «أبو النداء» بالشام، فوجَّه إليه الرشيد، «يحيى بن معاذ» وولاّه على بلاد الشام، فقاتل أبا النداء، وأسره وجاء به إلى الرقّة، فقتله الرشيد[٣]. وكان قد عيَّن على الموصل «خالد بن يزيد بن حاتم المهلبي» ثم وسَّع له تلك الولاية فقام خالد بإدارتها خير قيام.

وكان قائده «يزيد بن مخلد الهبيري» على حدود بلاد الروم، فاستشاره بالغزو عام (١٩١ هـ ـ ٨٠٧ م) فأجازه، فزحف بعشرة آلاف فارس من جانب طرطوس، وفيما هو يجتاز مضيقاً في طريقه، سدَّ الروم عليه ذلك المضيق، ففدى جيشه بنفسه وبخمسين رجلاً من جنده.. فلمّا سمع الرشيد بالخبر حزن على قائده الكبير، وأبى إلا الزحف على الأعداء رغم ضعف صحته، وسار حتى وصل (درب الحدث) وأقام فيها ثلاثة أيام، ولكنه لم يستطع متابعة السير والدخول في القتال لاشتداد مرضه عليه، فأوعز إلى قائده

(١) الطبري: ج٣ ص ٧١١.

(٢) الطبري: ج٣ ص ٧١١

(٣) الطبري: ج٣ ص ٧١١.

هرثمة بن أعين أن يسير بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ليثأر ليزيد، فتوغّل هذا في بلاد الأعداء وهزم جيوشهم وقتل خلقاً كثيراً منهم وسبى آخرين وعاد منتصراً إلى الرقّة حيث يقيم الخليفة المريض[١]

وجاءت الأخبار إليه بأن بعض رعاياه من أهل الذمة من النصارى المقيمين قرب تخوم الروم، يظهرون ميلهم لهؤلاء الأعداء بحكم رابطة الدين معهم، ويساعدونهم أثناء تقدُّمهم وغاراتهم على الحدود الإسلامية، فغضب ومنع إقامة الكنائس قرب التخوم، وحاول إجلاءهم إلى داخل البلاد ليأمن شرَّهم ومساعدتهم لأبناء دينهم على المسلمين. ثم أوعز لمن يسكن منهم في سائر البلاد الإسلامية أن يلبسوا ثياباً غير ثياب المسلمين ليتميَّزوا عنهم في الزيّ[٢].

وفي أواخر عام (١٩٢ هـ ـ ٨٠٩ م) تحرَّك جماعة من (الخرمّية) في أذربيجان، وأعلنوا عصيانهم وثورتهم هناك، فبعث إليهم قائده عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فارس، فقاتلهم أشد قتال، وهزمهم، وأسر جمعاً كبيراً منهم، وسبى نساءهم، وجاء بهم إلى الرقّة. فأمر الرشيد بقتل الرجال وبيع النساء[٣] وكانت هذه آخر أخبار دولته، قبل زحفه إلى خراسان لقتال الثائر «رافع بن الليث».

(١) الطبري: ج٣ ص ٧١٢

(٢) الطبري: ج٣ ص ٧١٣.

(٣) الطبري: ج٣ ص ٧٢٢

حركة رافع بن الليث

رافع بن الليث بن نصر بن سيار[1]: حفيد آخر عامل أموي على خراسان «نصر بن سيار» الذي قاتل جيوش العباسيين بقيادة أبي مسلم الخراساني، وصاحب الرسالة المشهورة التي أرسلها للخليفة مروان بن محمد الجعدي، يقول فيها:

أرى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نارٍ　　　وَيوشَكُ أن يكونَ لَها ضِرامُ[2]

وحركة رافع هذه بدأت تافهة، ثم تضخَّمت وعظم أمرها، فكانت ثورة خطيرة، أخرجت هارون الرشيد من قصره في الرقّة، وهو مريض، فمات في الطريق.. وفيما يأتي ملخصها:

كان «يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي» أحد وجهاء الناس المعروفين بين خاصة البلاط العباسي قد تزوَّج ابنة عم له، ذات جمال وثراء عظيم، ولكنها كانت جافة الطبع سليطة اللسان، فلم يقدر على العيش معها، فتركها في مدينة (سمرقند) وأقام هو في بغداد. وطالت إقامته فيها، فبلغ زوجته أنه قد اتَّخذ له أمهات أولاد من الجواري يعيش معهن، فلم يرقها ذلك وطالت غيبته عنها، فطلبت منه الطلاق، فأبى، والتمست لها الأسباب للخلاص منه فلم تجد، ما دامت باقية في عصمته.

وعلم رافع بن الليث بأمرها، فطمع بمالها وجمالها، ودسَّ إليها من يقول لها: إنه لا سبيل إلى التخلُّص إلا بأن تشركي بالله، وتحضري لذلك شهوداً عدولاً، وتكشفي شعرك

---

(١) الجهشياري: ٢٦٧

(٢) الطبري: ج٣ ص ٧١٧.

بين أيديهم، فتطلقي من زوجك شرعاً بمجرد الشِّرك، ثم تتوبي فتعودي إلى الإسلام، فتحلّي لأزواج بعد ذلك.ففعلت ما أشير به عليها، ثم تقرَّب منها رافع فتزوَّجها.

وسمع زوجها بالخبر، فدخل على الرشيد وأخبره بما جرى، فغضب لهذا العمل الشنيع المنكر، وكتب إلى عامله على خراسان، علي بن ماهان، يأمره بأن يفرِّق بينهما، ويجلد رافع بن الليث الحدّ المشروع في الزنى، ويطوف به على حمار في مدينة سمرقند، ويشهِّر به ليكون عبرة لغيره، ثم يسجنه... وكان ذلك في عام (١٩٠ هـ ـ ٨٠٦ م).. فكتب علي بن ماهان إلى عامله على سمرقند «سليمان بن حميد الأزدي» يأمره بأمر الرشيد، فجلد سليمان رافعاً الحد الشرعي للزنى وفرَّق بينه وبين المرأة، وحمله مقيداً مهاناً على حمار، وطاف به أسواق المدينة، ثم حبسه عند صاحب شرطته «حميد بن المسيح».

وبقي رافع في السجن أياماً، ثم هرب ولحق بعامل خراسان، علي بن ماهان، في مدينة (بلخ) وطلب منه الأمان، فلم يعطه، وهمَّ بضرب عنقه، فتشفَّع له عيسى بن علي بن ماهان عند أبيه، وجدَّد أمامه طلاق المرأة، فعفا عنه وأمره بالعودة إلى سمرقند، فعاد، وفي نفسه ما فيها على سليمان الأزدي الذي أهانه تلك الإهانة المزرية به، ثم جمع أعوانه، ووثب عليه فقتله، وأعلن التمرُّد والعصيان على الدولة. فوجَّه إليه علي بن ماهان جيشاً بقيادة ابنه عيسى، فخاف أهل سمرقند من النكال والتخريب، وجمعوا قواهم، ورأسوا عليهم أحد رجالهم المعروفين بفنون الحرب والقيادة «سباع بن مسعدة» واستعدُّوا بكل ما لديهم من رجال وسلاح لقتال عيسى إذا هاجمهم، ولكن سباعاً هذا ألقى القبض على رافع بن الليث وقيَّده ليكون على حذر من الطوارىء. فلم يعجب هذا العمل أهل سمرقند، فوثبوا على سباع بن مسعدة، وقيَّدوه وأمَّروا عليهم رافع بن الليث نفسه وبايعوه، والتحق به خلق كثير من سكان (وراء النهر).

وزحف رافع لقتال عيسى، والتقاه قرب سمرقند، ودارت بين الطرفين حرب عنيفة انهزم فيها عيسى وجيشه، فقويت شوكة رافع في خراسان، والتحق به كل ناقم ومتذمر سواء من كان ثائراً لمقتل البرامكة أم حانقاً على طغيان علي بن ماهان وظلمه وقسوته في إدارة البلاد .. وتوجَّه عيسى بعد هزيمته إلى مدينة (نسف)، ولم يعلم أبوه بحاله، فكتب أهل نسف إلى رافع يعطونه الطاعة، ويسألونه بأن يوجِّه إليهم مدداً من عنده لقتال عيسى

المقيم مع فلول جيشه بجانبهم، فوجَّه إليهم صاحب الشاش التركي ومعه أتراكه، وحاربوا عيسى فقتلوه في شهر ذي القعدة من عام (١٩٠ هـ ـ ٨٠٦ م) ولم يعرضوا لأصحابه بأذى.

وعلم علي بن ماهان بمقتل ابنه عيسى، فخرج عن مدينة (بلخ) وتوجَّه بجيشه إلى (مرو) مخافة أن يسير إليها رافع قبله فتقوى شوكته أكثر مما هي الآن. ثم كتب إلى الرشيد يطلب المساعدة منه، ويقول: إنه قد أنفق كل ما معه حتى حُليَّ نسائه لقتال رافع، وإنه في حاجة إلى المال والرجال لإخماد الفتنة قبل ان يتَّسع الخرق على الراتق.

وكان من سوء حظ علي أن ولده عيسى، قبل أن يخرج لقتال رافع فيقتل، كان قد دفن أموالاً تُقدَّر بثلاثين ألف ألف دينار في بستان داره في مدينة (بلخ)، ولم يعلم أحداً بذلك غير جارية محظية عنده، فلمّا قتل وخرج أبوه من (بلخ) إلى (مرو) وهو يجهل سرَّ المال المدفون باحت الجارية بذلك السر إلى ذويها وأطلعت بعض الخدم عليه، فانتشر الخبر بين السكان وتحدَّثوا به، فاجتمع علماء أهل بلخ ووجهاؤها، ودخلوا البستان وأخرجوا المال ووزَّعوه على العامة، في أواخر عام (١٩١ هـ ـ ٨٠٧ م).

وجاء نبأ ذلك إلى الرشيد عن طريق صاحب البريد الذي أخبره بأن طغيان ابن ماهان وظلمه هو الذي شجَّع ثورة رافع وقوى شوكته، وكانت أسقام الرشيد قد بدأت تعتاده، فغضب مما سمع غضباً شديداً على ابن ماهان بعد أن كان مشفقاً عليه، وقال: «خرج على غير أمري من (بلخ) وخلَّف وراءه مثل هذا المال الكثير، ويرسل إلي بأنه قد أنفق حُلي نسائه فيما أنفق على محاربة رافع؟؟ والله لأعْزِلَنَّهُ ولأفعلنَّ وأفعلنَّ.» ثم دعا هرثمة بن أعين سراً وقال له: «إني لم أشاور فيك أحداً، ولم أطلعه على سرِّي، وقد اضطرب عليَّ ثغور المشرق، وأنكر أهل خراسان أمور علي بن ماهان إذ خالف عهدي، ونبذه وراء ظهره، وقد كتب يستمدُّ ويستجيش، وأنا كاتب إليه، وسأخبره أني أمدُّه بك، وأوجِّه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئنُّ إليه قلبه وتتطلَّع إليه نفسه، وأكتب معك كتاباً بخطِّي فلا تفضُّه ولا تطَّلعنَّ على ما فيه حتى تصل مدينة (نيسابور)، فإذا نزلتها فاقرأ الكتاب واعمل بما فيه، وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله. وأنا موجِّه معك الخادم «رجاء» بكتاب أكتبه لابن ماهان بخطِّي ليتعرَّف ما يكون منك ومنه، فهوِّن عليه أمر ابن ماهان، ولا

تظهرنَّه عليه، ولا تعلمنَّه ما عزمت عليه. وتأهَّب للمسير، واظهر لخاصَّتك وعامَّتك أني أوجِّهك مدداً لابن ماهان».

ثم كتب الرشيد إلى ابن ماهان بخطه كتاباً يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: يا ابن الزانية، رفعت من قدرك ونوَّهت باسمك وأوطأت سادة العرب عقبك، وجعلت ملوك العجم حولك وأتباعك، فكان جزائي أن خالفت عهدي ونبذت وراء ظهرك أمري، حتى عثت في الأرض وظلمت الرعية، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك وظاهر خيانتك. وقد ولَّيت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان، وأمرته أن يشدَّ وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به حتى تردُّوه إلى أهله. فإذا أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك فَلَهُ أن يبسط عليكم العذاب، ويصبَّ عليكم السياط، ويحل بكم ما يحلُّ بمن نكث وغيَّر وبدَّل وخالف وظلم وتعدَّى وتحشَّم، انتقاماً لله عز وجل بادئاً، ولخليفته ثانياً، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً. فلا تعرِّض نفسك للتي لا شوى لها، وأخرج لما يلزمك طائعاً أو مكرهاً».

قد يكون لموقف الرشيد هذا من علي بن ماهان أسباب كثيرة خالطها شيء من الالتباس وعدم الاطلاع على واقع الحال: فقد كان الرشيد بعد مصرع البرامكة كثير الحذر من جانب خراسان للأسباب التي ذكرناها، لا يصغي إلى الشكاوى التي كانت توجَّه ضد ابن ماهان. ولكن، عندما نشبت ثورة رافع، وأتته الأخبار بأن جموعه تزداد يوماً بعد يوم، وقيل له إن سبب ذلك يعود إلى تذمُّر الناس هناك من سوء معاملة هذا العامل المستبد، بدأ يفكر بتغيير الوضع بالتي هي أحسن، دون أن يضرب ابن ماهان الذي أدّى له تلك الخدمات الجلى. ولكن خبر دفن هذه الآلاف المؤلفة من الدنانير التي حسبها الرشيد من صنع ابن ماهان وبعلم منه، وطلب ابن ماهان المساعدة بالمال والرجال وإظهار العوز والفقر، كل ذلك بعث الشكَّ والريبة في نفس الخليفة من عامله هذا، وإن كان الواقع غير ذلك كما علمنا... وربما كانت الحكمة تقضي على الرشيد أن يمدَّ ابن ماهان بعدد من قواده وجيوشه ليقضي على ثورة رافع أولاً، ثم يحاسبه بعد ذلك، لكن مرضه، وحالته النفسية التي أضعفت أعصابه فأفقدته الصبر وطول الأناة، دفعته إلى أن يضرب الخصمين بسهم واحد، فدبَّر تلك الخطة مع هرثمة بن أعين، وجهَّزه بالرجال والسلاح، وقال له: «إعمل يا أبا

حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت الله وديني على هواي وإرادتي وكذلك فليكن عملك، وعليه فليكن أمرك. ودبِّر في عمل الكُوَرِ التي تمرُّ بها في صعودك. وابسط من آمال أهل ذلك الثغر، ومن أمانهم وعذرهم، ثم إعمل بما يَرضي الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره إن شاء الله». ثم أعطاه العهد بالتولية على كامل خراسان وما جاورها، قائلاً: «هذا عهدي وكتابي بخطي، وأشهد الله وملائكته».

وخرج هرثمة من الرقّة مجداً، دون أن يعرِّج على شيء، شاعراً بخطورة المهمة التي أُلقيت على عاتقه، وفي الطريق وجَّه كتاباً إلى ابن ماهان يخبره بأنه قادم لمعاونته وتقوية أمره أمام الثائر المتمرد، وأرسل مع الكتاب أموالاً وسلاحاً وخلعاً وطيباً، متظاهراً بالصداقة وحسن النية، حتى إذا نزل (نيسابور) قرأ كتاب الرشيد الذي كان قد أوصاه بأن يقرأه في هذا المكان، وفيه تفاصيل ما يجب أن يعمل تجاه ابن ماهان قبل مقاتلة رافع بن الليث.

فجمع جماعة من ثقات أصحابه من ذوي السن والتجربة والخبرة، ودعا كل رجل منهم منفرداً، وخلا به سراً، وأخذ عليه المواثيق والعهود بأن يكتم ما يأمره به. وولّى كل واحد منهم كورة على نحو ما كانت حاله عنده، ووزَّعهم على (نيسابور، ونسا، وسرخس، وغيرها) وأمرهم بالمسير حالاً إلى ما ولاهم عليه، وجعل على جرجان «اسماعيل بن حفص بن مصعب» وكان هذا رجلاً يأتمنه الرشيد ويعتمد عليه.

فلمّا صار هرثمة على مرحلة من (مرو) حيث يعسكر ابن ماهان، دعا بعض رؤساء جنده وكتب لهم أسماء أولاد هذا الرجل وأهل بيته وكتابهم في رقاع، ودفع إلى كل منهم رقعة باسم من يوكّله بحفظه منهم عند صدور الأمر لئلا يفلت منهم أحد، ثم وجَّه إلى علي ابن ماهان كتاباً يقول فيه: «أحبُّ أن يوجه الأمير، أكرمه الله، بعض ثقاته لقبض ما معي من أموال، فإنه إذا تقدَّم المال أمامي كان أقوى للأمير وأفتَّ في عضد أعدائه، وأيضاً فإني لا آمن عليه إن خلّفته وراء ظهري أن يطمع فيه من تحدِّثه نفسه إلى أن يقتطع بعضه، ويفترض غفلتنا عند دخولنا المدينة» فوجّه ابن ماهان جهابذته لقبض المال، لكن هرثمة أوصى الحرس أن يشاغلوا هولاء، ويؤخروهم تلك الليلة، ويعتلّوا عليهم في حمل المال بعلّةٍ تقرب من أطماعهم وتزيل الشك عن قلوبهم.

وتقدَّم هرثمة نحو (مرو) ولما صار على بعد ميلين منها، تلقَّاه علي في ولده وأهل بيته وقواده بأحسن لقاء، وتعانق الإثنان، ثم سارا حتى وصلا بيت علــي، وكان «رجاء» الخادم لا يفارق هرثمة في ليل أو نهار بحسب توصية الرشيد، فلما انتهيا من طعام الغداء، قال علي لهرثمة: إني هيّأت لك قصراً لراحتك، قال هرثمة: إن لديَّ أموراً لا أستطيع تأخيرها، وأشار إلى رجاء الخادم بأن يسلِّمه كتاب الرشيد، ففعل. وعندها جاؤوا بالقيود والسلاسل وأوثقوا الجميع بها. وخرج هرثمة إلى المسجد الجامع وخطب في الناس وبسَّط من آمالهم، وأخبرهم بأن أمير المؤمنين ولاّه ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة ابن ماهان، وقرأ عليهم كتاب العهد له بالولاية، ففرحوا بذلك وكبروا ودعوا للخليفة بالتوفيق، لما كانوا يشعرون به من وطأة حكم ابن ماهان.

وعاد هرثمة إلى دار الإمارة، ودعا بالمقيّدين جميعاً، وأرسل من استصفى جميع أموالهم وما يملكون من خزائن ومتاع وعقار، ولم يترك لهم شيئاً حتى حليّ نسائهم، وجمع ديونهم وأماناتهم عند الناس، كما أجبرهم بأن يؤدوا ما للغير عليهم من مطالب ومظالم. حتى إذا استوفي كل شيء منهم وقد بلغ ثمنه نحواً من ثمانين ألــف ألف دينار، أرسلها إلى بيت مال المسلمين. وبعث عليّ بن ماهان وأولاده وكتّابه وعمّاله مكبلين بالقيود إلى الرشيد، فوصلوا عام (١٩٢ هـ ـ ٨٠٧ م)، فأمر بأن يسجنوا في بغداد في دار ابن ماهان نفسه دون أن يضيِّق عليهم. وكتب إلى هرثمة بن أعين يقول:

«.. ثم إعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخوص إلى سمرقند، ومحاولة إرجاع رافع بن الليث ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطمارستان بالدعاء إلى الفيأة والمراجعة، وابسط أمانات أمير المؤمنين التي حمَّلكها إليهم، فإن قبلوا وأنابوا وفرّقوا جموعهم فهو ما يحبُّ أمير المؤمنين أن يعاملهم به من العفو عنهم والإقالة لهم إذ كانوا رعية، وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم، إذ أجابهم إلى طلبهم، أمن روعهم وكفاهم ولاية من كرهوا ـ أي علي بن ماهان ـ وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلامتهم. وإن خالفوا ما ظن أمير المؤمنين فحاكمهم إلى الله إذ طغوا وبغوا وكرهوا العافية وردّوها فإن أمير المؤمنين قد قضى ما عليه فغيَّر ونكّل وعزل واستبدل، وعفا عمن أحدث، وصفح عمن اجترم، وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن أثاروه،

وعناد إن أظهروه، وكفى بالله شهيداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه يتوكَّل وإليه ينيب، والسلام.

كتبه اسماعيل بن صبيح

بين يدي أمير المومنين»

فانصرف هرثمة إلى معالجة أمر رافع، وبعث له الرسائل تلو الرسائل، يستميله ومن معه إلى إلقاء السلاح ولزوم الطاعة، ويعطيهم عهود أمير المؤمنين بالعفو عنهم جميعاً، ويخبرهم بأن الرشيد قد عزل عليّ بن ماهان وقاضاه وقاصصه، ولم يبق بعد اليوم عذر لثائر، ويحذِّرهم عاقبة البغي والعدوان، والاسترسال بالثورة على السلطان، لكن رافعاً ومن معه لم يتراجعوا ولم يلقوا السلاح وأصرّوا على التمرد والعصيان والمكابرة فزحف هرثمة بجيشه وسلاحه إلى سمرقند لقتالهم.. وأخبر الرشيد بذلك.

زحف الرشيد للقتال، وموته

كان الرشيد قلقاً ينتظر نتيجة المراسلة بين هرثمة ورافع بفارغ الصبر، وكان يأمل أن تسكن الغائلة هناك، وتطفأ نار الثورة بدون قتال بعد أن عزل ابن ماهان واقتصَّ منه، وبذل العفو والأمان للمتمردين، ووعدهم بإسدال الستار على الماضي. لكن إصرار رافع بن الليث ومن معه، على عدم إلقائهم السلاح أثار حفيظته، وعلم بأن القوم يريدون الشر به نفسه، فقرَّر على الرغم من حالته الصحية المتعبة أن يزحف ويلحق بهرثمة لتأديب العصاة، وقد حاول وزيره الفضل بن الربيع أن يرجعه عن رأيه وينتظر نتيجة القتال، ويكتفي بمدٍّ هرثمة بالقواد والجنود والمال، فلم يقبل.

وأمر بالسفر إلى بغداد ليجمع فيها الجيوش والمؤن والذخائر اللازمة لخوض حرب ضروس. وأقسم لينتقمنَّ من رافع ومن معه شرَّ انتقام.. فاستخلف على الرقّة ابنه القاسم المؤتمن وبجانبه القائد خزيمة بن خازم، ثم ركب السفن في الفرات حتى وصل قرب بغداد، وسار إليها فدخلها بعد أن كان قد هجرها مدة ستة أعوام أو ما يزيد، وذلك في ربيع الأول عام (١٩٢ هـ - يناير ٨٠٨ م) ومكث فيها خمسة أشهر، حتى كمل تنظيم جيشه وتسليحه.

وحان موعد الزحف، فاستخلف ابنه محمداً الأمين بمدينة السلام، وجعل معه عدة من رجاله يعينونه في أداء واجباته، وأمر عبد الله المأمون بأن يقيم مع أخيه الأمين فقبل.. غير أن الفضل بن سهل الفارسي، مساعد المأمون والقائم بأعماله، قال له: «لست تدري ما يحدث بأبيك وهو مريض وخارج إلى خراسان، وهي ولايتك التي ولاّك عليها بعده، وإن محمداً الأمين المقدّم عليك يخلعك، وهو ابن زبيدة، وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها،

فاطلب إلى أبيك أن يشخصك معه»، فطلب المأمون ذلك، فأبى الرشيد أن يصحبه معه. فقال الفضل بن السهل للمأمون قل له: «أنت عليل، وإنما أريد المجيء معك لأخدمك، ولست اكلِّفك شيئاً» فأذن له الرشيد بعد إلحاح، وصحب معه الفضل بن سهل[١]..

وشخص الجميع من مدينة السلام عشية الاثنين في الخامس من شهر شعبان (١٩٢هـ - تموز ٨٠٨م) من جهة الخيزرانة، وفي الركب بجانب الرشيد عدد من أولاده فيهم المأمون وصالح، وغيرهما، وكان الجو حاراً خانقاً، ما اضطرَّ الخليفة المريض أن يسير ليلا ويقيم نهاراً.. ولكن حرارة المناخ كانت تهيضُ عليه علله، فلم يكد يجتاز بضع مراحل حتى عاودته أوجاعه وصار يشعر بالضعف والألم من جديد.

يقول صباح الطبري أحد خاصة الرشيد: «شيَّعته حين خرج إلى خراسان من بغداد، حتى نزل (النهروان)، وجعلت أُحادثه في الطريق فقال لي: «يا صباح لا أحسبك تراني أبداً» قلت: بل يردُّك الله سالماً، قد فتح الله عليك وأراك في عدوِّك أملك، قال الرشيد: «ولا أحسبك يا صباح تدري ما أجد!!» قلت: لا والله، قال: تعال حتى أريك. فانحرفنا عن الطريق قدر مائة ذراع، فاستظلَّ الرشيد بشجرة، وأومأ إلى خدمه، فتنحّوا عنه وابتعدوا. ثم قال: «أمانة الله يا صباح أن تكتم عليّ» قلت: يا سيدي، عبدك الذليل تخاطبه مخاطبة الولد !! فكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالي بطنه، وأثر سواد على الجلد، ثم قال: «هذه علة أكتمها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب... فمسرور الخادم رقيب المأمون، وجبريل ابن بختيشوع رقيب الأمين. وما منهم أحد إلا وهو يُحصي أنفاسي ويُعدُّ أيامي ويستطيل عمري. فإن أردت أن تعرف ذلك، فالساعة أدعو بدابة فيجيؤنني ببرذون قطوف يهملج، ليزيد في علّتي» قلت: يا سيدي، ما عندي في هذا الكلام جواب ولا في ولاة العهود، غير أني أقول: جعل الله من يشنأك من الجن والأنس والقريب والبعيد فداك، وقدمهم إلى تلك قبلك، ولا أرانا فيك مكروهاً ابداً، وعمَّر بك الله الإسلام، ودعم ببقائك أركانه، وردّك الله مظفراً مفلحاً على أفضل ملك في عدوك، وما رجوت من ربك، قال: أما أنت فقد تخلَّصت من

(١) كان هذا المجوسي «الفضل بن سهل» الذي أسلم أخيراً، من أشد العاملين على التفرقة بين الأمين والمأمون. وكان جعفر بن يحيى أو ابوه من اختاره كاتباً ومساعداً للمامون.

الفريقين... ثم نادى بالرحيل، ودعا له بداية، فجاؤوا ببرذون قطوف كما وصفه في حديثه. فركبه والتفت إليَّ وقال: انصرف، غير مودّع، إلى أشغالك»[١].

وغادر موكب الرشيد النهروان ونزل مدينة (قرماسين) فقام فيها شهر رمضان، ثم توجَّه إلى الري، وفي طريقه نزل (حلوان) فهاج به الدم، وازداد مرضه، فأشار عليه الطبيب أن يأكل جمّار النخيل، فأحضر دهقان حلوان وطلب منه جماراً، فأخبره بأن ليس في حلوان نخيل ولكِنْ على (العقبة) بالقرب من المدينة نخلتان، فأمر بقطع إحداهما فقطعت، وجيء له بجمارها، فأكله. ثم سار، ومرَّ بطريقه بجانب النخلتين وقد قطع نصف إحداهما من أجله، فاستوقفه منظرهما، فقيل له: وجدنا بجانب جذع إحداهما مكتوباً:

أسعداني يانخلتَيْ حلوانِ ... وأبكِياني من ريبِ هذا الزمانِ

أسعِداني وأيْقِنا أنَّ نحساً ... سوف يَلْقاكُما فَتَفْترِقانِ

فاغتمَّ من هذا الخبر وتطيَّر منه، وقال: يعزّ عليَّ أن أكون نحسُّهما، ولو كنت سمعت بهذا الشعر من قبل ما قطعت إحداهما ولو قتلني الدم[٢].

ومن غرائب الصدف، أنه بعد أيام أتاه خبر بأن (عيسى بن جعفر) أخا زبيدة وكان قادماً من جرجان لمقابلته، مات فجأة في الطريق، فبكى عليه لأنه كان يحبُّه كثيراً[٣].

ومضى في طريقه نحو غايته، ولكنه كان متعباً هزيل الجسم، وقد ازدادت أوجاعه حتى وصل مدينة طوس. فنزل في قصر «حميد بن قحطبة الطائي»[٤] في موضع يدعى «المثقّب» في ضاحية (سناباذ) قرب المدينة، ثم أعيى، فلم يعد باستطاعته إتمام السفر، فارتمى على فراشه، واجتمع حوله الأطباء الذين كانوا معه.

يقول جبريل بن بختيشوع: بينما أنا بجانبه وهو على فراشه إذ ذكر تلك الرؤيا التي

(١) الطبري: ج٣ ص ٧٣١.

(٢) الطبري: ج٣ص ٧٣١ - والأغاني: ج١٢ ص ١٠٨.

(٣) اليعقوبي: ج١٢ ص ٥٢٠.

(٤) وفي رواية أخرى أنه قصر الجنيد بن عبد الرحمن.

كان قد رآها في الرقة قبل عامين، فوثب متحاملا، يقوم ويسقط كمن فجأه حادث مرعب. فاجتمعنا إليه مذهولين، وقلت: ما دهاك يا سيدي؟؟ قال: يا جبريل أتذكر رؤياي التي حدَّثتك بها بالرقّة، اذ رأيتني أموت في طوس؟؟ قلت: بلى، قال: كنت ناسياً لها فتذكرتها الآن. ثم دعا بمسرور العبد وقال له: جئني بكفٍّ من تربة هذا البستان فجاء بشيء منه، قال: أحسر عن ذراعك، فحسر عنه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه الكفّ بعينها، وهذه التربة الحمراء.. ما نقص شيء، ثم استلقى على فراشه وغاب في تفكير عميق[1].

ووصل خبر مرضه الأخير إلى بغداد، فوجَّه محمد الأمين أحد بطانته «بكر بن المعتمر» ودفع إليه عدة كتب موجهة إلى المأمون، وصالح بن الرشيد والفضل بن الربيع واسماعيل بن صبيح وغيرهم، يأمرهم بالقفول إلى مدينة السلام إن حدث بالرشيد حادث. وقال لرسوله: لا تظهر هذه الكتب إلا بعد الوفاة ولو أدّى ذلك إلى قتلك، فإذا كانت الوفاة فاعْطِ كل كتاب إلى صاحبه، ولك جزاء ذلك في كل يوم ألف دينار، ثم أعطاه كتباً أخرى غير سرِّية يسلِّمها إلى أبيه الرشيد إذا وجده عند وصوله حياً. وهي كتب باسمه ومن آل بيته يسألونه بها عن حال أمير المؤمنين وعن صحته، ويتمنّون له الشفاء وطول العمر.. وسار بكر بن المعتمر مسرعاً بما معه، وقد أخفى الكتب السرّية، وأظهر الأخرى، قاصداً مدينة طوس. لكن أرصاد الرشيد وعيونه سبقته إلى طوس وأخبرت الخليفة المريض بأنباء الكتب السرّية.

وكانت أخبار القتال بين هرثمة ورافع قد تأخَّرت عنه، فاستبطأ وهو ينتظرها بفارغ الصبر. وخالجه الشك كذلك بهرثمة بن أعين أعظم قواده على الإطلاق، وأصدقهم معه، فعزم على عزله، وأرسل ابنه المأمون إلى سمرقند وأوصاه بأن يأخذ القيادة ويقاتل رافع بنفسه، وبعث معه نخبة من قواده الكبار كعبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد ابن مزيد الشيباني، والعباس بن جعفر بن الأشعث، وسعيد الحرشي، ونعيم بن خازم وغيرهم، مع فرقة كبيرة من الجيش.

(١) الطبري: ج٣ ص ٧٣٥

وبينما المأمون في طريقه إلى سمرقند، قابله رسل هرثمة وهم قاصدون الرشيد، فأخبروه بأن هرثمة التقى جيش رافع قرب مدينة بخارى فانتصر عليه وفتح المدينة وأسر أخاه بشير بن الليث، وبعثه وأسيراً آخر معه إلى الرشيد، وإن جيش هرثمة الآن يحاصر مدينة سمرقند التي فيها رافع وأعوانه. فأمرهم المأمون بأن يكملوا سيرهم إلى أبيه.

وكان الرشيد في صراع عنيف ضد مرضه، يغيب تارة ويفيق أخرى، فيسأل عن الأخبار وشؤون البلاد فيخبره الفضل بن الربيع بذلك ويطمئنه..

ويقول «سهل بن صاعد»: كنت عند الرشيد في بيته الذي قبض فيه، وهو منهك على فراشه، فدعا بملحفة غليظة فاحتبى بها واعتدل، وجعل يقاسي ما يقاسي، فنهضت لأتركه: قال: إلى أين؟؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما يسع قلبي أن أراك ما تعاني في العلّة، فلو اضّطجعت كان أروح لك. فضحك ضحكة السليم وقال: يا سهل، إني أذكر في هذه الحال قول الشاعر:

وأني مِنْ قومٍ كرامٍ يزيدهم شماساً وصبراً شدّة الحدثانِ

وأشاع أهل طوس بأن الرشيد قد مات، وجاءته الأخبار بذلك، فاعتدل على فراشه وقال: أريد مطية أركبها وأخرج إلى الناس لأريهم بأني على غير ما يقولون، فجاؤوا له بمطية طيعة، وأعانوه على ركوبها فخانته رجلاه، وارتخى جسمه على الجواد، فقال أنزلوني، لقد صدق الناس. ثم عاد إلى فراشه، واستراح في غفوة طويلة، ثم أفاق، فرأى ابن الربيع على رأسه، فقال: يا فضل، ما عندك من الأخبار؟؟ قال: البشرى يا أمير المؤمنين، فقد انتصر هرثمة على رافع، واكتسح مدينة بخارى، وهو الآن يحاصر رافع في سمرقند، وقد أرسل لك أخاه أسيراً ومعه أحد رؤساء عسكره لترى رأيك فيهما[1]. وهذا بكر بن المعتمر قد قدم من بغداد يحمل إليك كتب ولي العهد وأهل بيتك فابتسم وقال:

أحينَ دنا ما كنتُ أرجو دُنُوَّهُ رَمَتْني عيونُ الناسِ منْ كلِّ جانبِ

فأصْبَحْتُ مرحوماً وكنتُ محسَّداً فَصَبْراً على مكروهٍ من العواقبِ

(١) بقي هرثمة محاصراً لسمرقند حتى عام ١٩٥ أي بعد موت الرشيد بعامين.

ودعا ببكر بن المعتمر، واستلم منه الكتب الموجهة إليه، ثم سأله عن الكتب السرية الأخرى فأنكرها، فهدَّده بالقتل، فلم يعترف، فأمر بحبسه ريثما ينظر في أمره.. وفي اليوم الثاني جلس جلوساً عاماً في مضرب خز أسود، استدارته أربعمائة ذراع وفي أركانه أربع قباب مغشاة بالخزّ على عمد من الخيزران، وعليه جبة سوداء من الخز بغير قميص، وغطاء من الفرو لشدة ما هو فيه من البرد والعلّة، وعلى رأسه قلنسوة سوداء ملتاثة بعمامة الخز الأسود، وقد وضعت تحته الفرش وأُسند بعدة مخاد، وخلفه خادم يمسكه بيديه لئلا يميل، وهو في شحوب و اصفرار وشيب ظاهر على فوديه، مسترسلاً قليلاً إلى لحيته الخفيفة.. وكان السيف بين يديه وبجانبه الفضل بن الربيع وحوله كبار القوم من حاشيته. فقال: أحضروا لي بكر بن المعتمر، فأحضر، فسأله عن الكتب السرية التي معه، فأنكرها وقال: ما معي يا أمير المؤمنين غير الكتب التي قدَّمتها لك. فقال الرشيد: قنّبوه، أي شدّوه بالحبال، فشدّوه، فأيقن الرجل بالموت، وصمَّم على الاعتراف إذا أريد به غير ذلك، لكن الرشيد أمر بحبسه على تلك الحالة.

ثم أمر بإحضار الأسيرين فأُحضرا، فقال لهما: أيتوهَّم رافع أنه يغلبني؟؟ والله الذي لا إله إلا هو، لو كان جيشه عدد نجوم السماء لتلقَّطتهم واحداً واحداً حتى أقتلهم عن آخرهم. قال بشير بن الليث: «يا أمير المؤمنين، قد كنت لك حرباً وقد أظفرك الله بي، فافعل ما يحبُّ الله، أكن لك سلماً، ولعلَّ الله أن يلين لك قلب أخي رافع إذا علم أنك قد مننت عليّ» فاحتدَّ الرشيد وقال: يا ابن اللخناء أرجو أن لا يفوتني أخوك خامل - يريد رافع - كما لم تفتني أنت، قال بشير: «اتَّق الله فيَّ وفي الرجل» فأجابه صاحبه، وكان جريئاً،: «قطع الله لسانك يا بشير، إنا والله منذ زمن بعيد ندعو بالشهادة، فلمّا رزقناها على يدي شر خلقه أخذت في الاعتذار؟؟» فقال الرشيد: أكذلك أنتما؟؟ قال الرجل: «إفعل ما شئت.فإنّا نرجو الله الشهادة، ونقف نحن وأنت بين يدي الله في أقرب مدة فنعلم كيف يكون حالك»، فأمر الرشيد أن يأخذوهما إلى الجزارين ليقطعوهما عضواً عضواً [1].

وعاد إلى فراشه وهو على أشد ما يكون من الإعياء، فاجتمع حوله من كان في عسكره من بني هاشم، ولمّا استراح قال لهم: «يا بني، إن كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وقد نزل بي

(١) الجهشياري: ٢٧٣

ما ترون، وأنا أوصيكم بثلاث: الحفظ لأماناتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم.. وانظروا محمداً الأمين وعبد الله المأمون، فمن بغى منهما على صاحبه فردّوه عن بغيه، وقبِّحوا له عذره ونكثه.. ثم أوصى بما يريد، وأمر بتوزيع أموال كثيرة ورباع وقرى كانت له، صدقات للفقراء والمعوزين[1].

وبعد يوم أو يومين من ذلك أحسَّ بدنو أجله، فدعا الخدم، وأمرهم بأن يحفروا له قبراً في القصر الذي هو فيه، فحفروه أمامه وهو جالس في محفة بالقرب منه، وأنزل فيه قوماً يقرأون القرآن، وهو يستمع إليهم ويستغفر ربه، ويعيد بعض الآيات التي يسمعها، ثم أمر بأن يحمل إلى فراشه[2].

وفي صباح يوم الجمعة، الثاني من جمادى الآخرة عام (١٩٢ هـ ـ ٢٥ مارس ٨٠٩م)، ثقل المرض عليه فاجتمع حوله الأطباء، فلم يجدوا سبيلاً لإنقاذه، وأظهروا يأسهم منه. بيد أن جبريل بن بختيشوع أراد محاولة اليائس معه فأعطاه دواء زاد آلامه، فظنَّ بأنه أراد به شراً، فعزم على قتله، وكاد يأمر بذلك، لكن جبريل تخلَّص بحيلة، وقال له: أمهلني يا أمير المؤمنين إلى غد فإنك ستبرأ، فإن لم يكن ذلك فاقتلني، فأمهله.

وأقبل الليل، وهو يزداد في كل لحظة ضعفاً، ويرى الموت يدنو منه، فلم يبق لديه ريب في أن حياته باتت سويعات قصيرة ثم تنتهي.. يقول الطبري: أفاق الرشيد في الصحو الذي يسبق الموت، فرأى مسروراً العبد بجانبه، فقال: يا مسرور أنشر الوشي الذي معك واختر أجوده، وهيِّئه كفناً لي، فقام مسرور، واختار ما أراد[3]. ومضت ساعة صامتة رهيبة، وقف فيها قلب الرشيد، وصعدت روحه إلى جوار رب غفور.

مات هارون الرشيد، وعمره خمس وأربعون سنة، وطوى التاريخ بموته حقبة كانت من أروع فتراته، وأُسدل الستار على مسرحية ممتعة تتدفَّق، رغم هنواتها، حضارة وكرامة، دامت فصولها على مسرح بغداد السياسي ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوماً... هي خلافة الرشيد.

---

(١) المسعودي: ج٦ ص ٣٥٧.

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٧٣٧.

(٣) الطبري: ج٣ ص٧٣٧.

أحزان ومراثٍ

توفي الرشيد، والأمين في بغداد، والمأمون في طريقه لقتال رافع بن الليث، والقاسم المؤتمن في الرقّة ومعه زبيدة بنت جعفر، وأما صالح فكان في تلك الليلة بمدينة طوس، فجاءه الخبر بموت أبيه، فأسرع في الحال إلى (سناباذ) ودخل قصر حميد بن قحطبة فوجده مسجًّى في فراشه، فبكى عليه بكاء حاراً، حتى أشرق الصبح واجتمع عليه القوم ممن كانوا في عسكر الرشيد. فصلّوا عليه ودفنوه في القبر الذي كان قد حفره لنفسه داخل القصر[1].

وشاع الخبر في كل مكان هناك، فبعث بكر بن المعتمر من سجنه إلى الفضل بن الربيع يقول له: لا تعجل بإبرام أمر مقابلتي، فإن معي أشياء تحتاج إلى معرفتها، فأرسل من أخرجه من السجن، وتناول منه الكتب السرية التي بعثها الأمين معه، وكان قد أخفاها في قوائم المطابخ، وأرسل كل كتاب إلى صاحبه، ودفع إلى صالح بن الرشيد كتاب أخيه الأمين، وهذا ملخصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سبق في علم الله، فشمِّر من أمرك، وإياك أن تلقي بيدك، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له، وهو متفقِّد مواقع فقدانك، فحقِّق ظنه، ونسأل الله التوفيق. وخذ البيعة على من قبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ثم للقاسم ابن أمير

(١) الطبري: ج٣ ص٧٦٨.

المؤمنين على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين. وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأي استصلاحهم وردّ مظالمهم وتفقد حالاتهم، وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم، فإن شغب شاغب أو نعب ناعب فاسْطُ به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

واضمم ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله إلى الفضل بن الربيع، ومُرْهُ بالمسير فيمن معه وجنده ورابطته، وصيِّر أمر العسكر وأحداثه إلى عبد الله بن مالك، فإنه ثقة ومقبول عند العامة، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومُرْهُ بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة، وصيِّر مقدمتك إلى أسد بن مزيد الشيباني، وساقتك إلى يحيى بن معاذ، والزم الطريق الأعظم، وإياك أن تنفِّذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع. وأنفذ إلي عند وصول كتابي إليك اسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد، ولا يكون ذلك عرجة ولا مهلة بموضعك الذي أنت فيه توجَّه إلي بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله...».

ولحق رسول صالح بن الرشيد بالمأمون، وكان قد اجتاز مدينة (مرو) في طريقه إلى سمرقند، فأعلمه بحادث الوفاة، وأعطاه كتاب الأمين، فعاد إلى مرو ثانية ودخل دار الإمارة، ثم صلّى في المسجد بالناس وصعد المنبر فأبَّن أباه وبكى عليه، وأمر بمال فوزَّع على الناس، وأخذ البيعة لأخيه الأمين بالخلافة ولنفسه بولاية العهد، ولأخيه المؤتمن بعده، وكتب إلى عمّاله على الثغور هناك بكل ما أوصاه الأمين في كتابه، وأعطى الجند الذين معه رزق اثنيْ عشر شهراً، وأقام في مرو ينتظر أوامر الخليفة الجديد[1].

ووصل النبأ المحزن مدينة بغداد في ١٥ جمادى الآخرة عام (١٩٣ هـ ـ ٧ ابريل ٨٠٩م) فبكى الناس، واجتمعوا في مسجد مدينة السلام، وصعد إسحاق بن عيسى الهاشمي المنبر وخطب فيهم فقال: «رزئنا بأعظم رزيئة، وعوِّضنا بأحسن بقية، مات الرشيد وبقي الأمين...» وحضّ المجتمعين على الطاعة. وفي الغد اجتمع الناس للصلاة، فأمَّهم الأمين، وخطب بهم، وعزّى نفسه والأمة كلها، ووعدهم بالخير، وذكر خطته التي

(١) الطبري: ج٣ ص ٧٧١.

سيسير بها فيهم، ودعا أهل بيته ورجال دولته إلى البيعة، فبايعوا، وفرَّق في الجند الذين في بغداد رزق أربعة وعشرين شهراً [١].

ثم داهم نعي الرشيد مدينة الرقّة، فأخذ القاسم المؤتمن البيعة من الناس لأخيه الأمين بالخلافة، وللمأمون بولاية العهد ولنفسه من بعده.. وكانت زبيدة بنت جعفر في حزن عميق على أخيها «عيسى بن جعفر» الذي كان قد توفي قبل أيام وهو في طريقه إلى الرشيد، كما قلنا، فكان نعي الرشيد لها صدمة أخرى أنستها الأولى وأجرت دموعها زمناً طويلاً.

يقول إسحاق الموصلي: بعثت إليّ زبيدة، فسرتُ إليها، فأرسلتْ إلي إحدى خادماتها تقول: إنني قد جمعت بنات الخلفاء وبنات هاشم لننوح على الرشيد في ليلتنا هذه، فقل الساعة أبياتاً رقيقة واصنعهنَّ صنعة حسنة حتى أنوح بهن، وسأبعث إليك بجارية حسنة الصوت فطارحها النغم حتى تطارحنيه هي. فاخترت أبياتاً كنت سمعتها من نائحة في (المدينة) من شعر «الأحوص» وتلحين «معبد» وهي:

قد لعمري بِتُّ ليلـي	كأخي الـداءِ الوجيـعِ
ونَجيُّ الهمِّ منـي	باتَ أدنى من ضلوعي
كلّما أبصرتُ ربعاً	دارساً فاضَتْ دموعي
مقفراً من سيدٍ كا	ن لنا غير مضيـعِ

أخذت الجارية الصوت مني وطارحته أم جعفر حتى حفظته [٢].

وعلم الأمين بأن الأحزان قد أخذت من صدر أمه مأخذها وهي في الرقة، فأرسل إليها يقسم عليها بأن تعود إلى بغداد، وتترك عزلتها، فتوجَّهت بحاشيتها وخزائنها، وأقامت في قصرها (دار القرار)، ولم تستطع رغم محاولات ابنها أن تستعيد بهجتها وسرورها بعد فقد كل من أخيها عيسى وزوجها الرشيد [٣].

---

(١) ابن الأثير: ج٦ ص١٥٢.

(٢) الأغاني: ج٨ ص١٣

(٣) الطبري: ج ٣ ص ٧٧٥.

ورثى الشعراء المجيدون خليفتهم الشاب الجوّاد الذي كان قد أغناهم بمنحه وعطائه، ونظموا فيه القصائد الغر، فقال ابن مناذر من قصيدة طويلة:

مَنْ كان يبكي للعلى ... ملكاً وللهممِ الشريفة
لبَّيْك هارونُ الخَليفةُ ... للخَليفةِ للخَليفة[1]

وقال أشجع السلمي:

غَرَبَتْ بالمَشْرِقِ الشَّمْسُ ... فَقُلْ للعَيْنِ تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شمساً ... غَرَبَتْ منْ حيثُ تَطْلَعْ[2]

وقال أبو نواس:

جرتْ جوارٍ بالسعدِ والنَّحسِ ... فنحنُ في مأتمٍ وفي عُرْسِ
القلبُ يبكي والسنُّ ضاحكةٌ ... فنحن في وَحشةٍ وفي أُنْسِ
يُضحِكُنا القائمُ الأمين ويُبـ ... كينا وفاةُ الإمامِ بالأَمْسِ
بَدْرانِ، بَدْرٌ أضحى بِبَغْدادَ بالـ ... خلدِ وبَدْرٌ بِطوسَ في رَمْسِ[3]

وله فيه أيضاً:

الناسُ ما بين مسرورٍ ومحزونِ ... وذي سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونِ
منْ ذا يُسرُّ بدنياه وبهجتها ... بعد الخليفةِ ذي التوفيق هارونِ[4]

---

(١) الأغاني: ج١٧ ص ٢٤

(٢) الأغاني: ج١٧ ص ٥٠ - في رواية للطبري (ج٣ ص٧٦٣) إن هذه القصيدة للشاعر أبي الشيص قالها في الرشيد.

(٣) الطبري: ج٣ ص ٧٦٣.

(٤) ديوان ابي نؤاس: ٥٨٣.

وقال معزِّياً الفضل بن الربيع لدى قدومه من خراسان في الموكب الذي كان بصحبة هارون الرشيد:

تُعزَّ أبا العباس عنْ خيرِ هالكٍ بأكرمِ حيٍ كان أو هو كائنُ

حوادثُ أيامٍ تدورُ صروفُها لهنّ مساوٍ مرةً ومحاسنُ

وفي الحيِّ بالميتِ الذي غيَّبَ الثَّرى فلا أنت مغبونٌ ولا الموتُ غابنُ[1]

(١) الطبري: ج ٣ ص ٧٦٣.

ذريته وتركته

تزوَّج الرشيد عدة نساء مهائر، لم يجمع منهن أكثر من أربع في آن، وهن: «زبيدة» أمة العزيز بنت جعفر بن المنصور، وكانت السيدة الأولى في قصور الرشيد كما علمنا. و«فاطمة بنت صالح بن المنصور، المعروف بصالح المسكين» وكنيتها أم محمد، وكان الرشيد قد أعرس بها في الرقّة في ذي الحجة عام (١٨٧هـ ـ ٨٠٢ م) وأمها بنت عيسى بن علي الهاشمي، وقيل إنها كانت عند ابراهيم بن المهدي، ثم خلعت منه، فتزوَّجها الرشيد، و«العباسة بنت سليمان بن المنصور» أي ابنة عمه، وقد أعرس بها في الشهر الذي أعرس بفاطمة بنت صالح. و«العثمانية بنت عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان» وجدة أبيها فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب[١]، وتدعى «الجرشية» أيضاً لأنها ولدت في جرش باليمن، وقيل إن الرشيد كان في غاية السرور حين خطبت إليه في الحجاز، وكان يردِّد قول الشاعر:

إن عثمـانَ والزبيـرَ أحـلا	دارهـا باليفـاع إذ وَلَـداهـا
إنهـا بنْـتُ كلِّ أبيضَ قـرمٍ	نالَ في المجدِ منْ قصيٍّ ذَراها
سكنَ الناسُ بالظواهرِ منها	وتَبـوَّا لنفسِـه بطحاهـا[٢]

وقد بقي هؤلاء المهائر الأربع حتى أيام الرشيد، ومات قبلهن اثنتان، همـا: «عزيزة بنت الغطريف بن عطاء ـ خال الرشيد» وكانت قبل ذلك عند سليمان بن جعفر. و«أم علي ـ أمة العزيز»[٣].

---

(١) الطبري: ج٣ ص٧٥٧ ـ لم نعثر على الاسم الصريح للعثمانية، وقد يكون السبب طغيان نسبتها على اسمها.

(٢) الأغاني: ج١ ص ١٩٥.

(٣) الطبري: ج٣ ص ٧٥٧ ـ لم نعثر على نسب أم العزيز هذه.

أما أمهات الأولاد من جواريه، فعددهن كبير، وقد اختلف المؤرخون في نقل أسمائهن، وهن : «مراجل ـ ومارِدة ـ ونادر ـ وشجا ـ وسريرة ـ وبربرية ـ وسكينة ـ وخبث ـ وقصف ـ وحلوب ـ وعرابة ـ وغصص ـ وسكر ـ وخزق ـ وشجر ـ ورحيق ـ وحلي ـ وأنيق ـ وسمندل ـ وزينة ـ ورئم ـ وشذرة ـ ورواح ـ ودواج ـ وكتمان ـ وواسطة»[1].

وقد ولد للرشيد من هؤلاء الزوجات والجواري أمهات الأولاد عدد كبير من البنين والبنات، لم يعتن المورخون بذكر أسمائهم على الوجه الأكمل، ولم يتَّفقوا على أسماء أمهات بعضهم. وقد عرفنا منهم ثلاثة عشر ولداً ذكراً هم :

١ ـ محمد الأمين بن زبيدة، ويدعى (محمد الأكبر)

٢ ـ عبد الله المأمون بن مراجل

٣ ـ القاسم المؤتمن بن قصف

٤ ـ محمد المعتصم (أبو إسحاق) بن ماردة

٥ ـ محمد (أبو العباس) بن خبث

٦ ـ محمد (أبو يعقوب) بن شذرة

٧ ـ محمد (أبو سليمان) بن رواح

٨ ـ محمد (أبو علي) بن دواج

٩ ـ محمد (أبو احمد) بن كتمان

١٠ ـ صالح (أبو عيسى) بن رئم

١١ ـ أحمد بن عرابة، المعروف : (السبتي)

١٢ ـ العباس بن واسطة

١٣ ـ علي بن أمة العزيز

(١) أخذنا هذه الأسماء من عدة مصادر : المقريزي : ٣٩ ـ والطبري : ج٣ ص ٧٥٨ ـ والعقد الفريد : ج٣ ص ٥٤ .

وليس غريباً أن يتعدَّد بينهم اسم «محمد»[1] ثم يميَّز أحدهم عن الآخر بالكنية، فتلك عادة مألوفة في ذلك العهد عند الآباء الذين يرزقون أولاداً كثراً من الذكور من أمهات عديدات، وقد حدَّثنا التاريخ كثيراً عن ثلاثة منهم أصبحوا بعد أبيهم الرشيد خلفاء استطاعوا أن يقوموا بأدوار خطيرة في تاريخ بني العباس وهم «محمد الأمين، وعبد الله المأمون، ومحمد المعتصم»، وبقيت سِيَرُ الآخرين مجهولة إلا في نُبَذٍ قصيرة عن بعضهم ترد في بطون الكتب عند المناسبات... وقد توفي الرشيد عن أكثرهم وهم صغار.

والجدير بالذكر، أن محمد الأمين تولّى الخلافة بعد أبيه، ولم تكد تستقرُّ الأمور بين يديه حتى اختلف مع أخيه المأمون، وجرت بينهما حروب طويلة، انتهت بقتل الأمين عام (١٩٨ هـ ـ ٨١٣ م) وتولّى المأمون الخلافة بعد نزاع حدث بينه وبين عمِّه ابراهيم بن المهدي الذي بويع بالخلافة في بغداد على أثر مقتل الأمين، كما سنرى، ثم خلع نفسه متنازلاً عنها للمأمون.

ولم يطل عمر «القاسم المؤتمن» فمات عام (٢٠٨ هـ ـ ٨٢٣ م) بعد أن خلعه المأمون من ولاية العهد.. أما محمد المعتصم فقد كان شجاعاً قويَّ الجسم، لكنه لم يصب سهماً وافراً في الثقافة، والسبب في ذلك ما رواه صاحب تاريخ بغداد: أن غلاماً كان يتعلَّم معه في «الكتّاب» فمات وهو صغير، وكان الرشيد يومئذ حياً، فلمّا علم بموت الغلام أسف عليه، وقال للمعتصم: أصحيح يا محمد أن غلامك قد توفي؟؟ قال: نعم يا سيدي، واستراح من «الكتّاب»، فعجب الرشيد من جوابه، وقال: وإن الكتّاب ليبلغ عندك هذا المبلغ؟؟ ثم التفت إلى مربيه وقال. دعوه إلى حيث انتهى، ولا تعلِّموه شيئاً، فنشأ أمياً دون باقي أخوته. بيد أن الأقدار جعلت منه خليفة بعد أخيه المأمون، وأبقته على العرش تسعة أعوام (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) وجعلت خلفاء بني العباس المتأخرين عنه من ذريته[2].

وكان «صالح بن رئم» المكنّى بأبي عيسى، من أحسن الناس وجهاً وظرفاً وأحدِّهم نكتة، وألطفهم دعابة، وقد قيل: انتهى جمال ولد الخلافة إلى أولاد الرشيد، وأجمل أولاد الرشيد هو أبو عيسى هذا.

---

(١) أنظر: الطبري: ج٣ ص٧٥٨ ـ المقريزي: ٣٩ ـ الأغاني: ج٩ ص ١٩ ـ ابن خلّكان: ج ١ ص ١٥٠.

(٢) تاريخ بغداد: ج٣ ص ٣٤٢.

وفي رواية: أنه كان إذا عزم على الركوب جلس الناس له في الطريق ليـروا جماله، ويمتّعوا أنظارهم بحسنه، وهو مع ذلك شاعر يميل إلى المجون في شعره، وله أخبار وأشعار وردت في بعض كتب الأدب كالأغاني وغيره.. وقد قال له الرشيد يوماً يداعبه: ليت جمالك لعبد الله المأمون!! فأجابه قائلاً: على أن حظه منك لي، فعجب من جوابه وضمَّه إلى صدره، وكان الرشيد يحبه كثيراً وهو صغير ويصحبه في أسفاره، وهو الذي حضر وفاته في طوس، وكان بجانبه، كما أسلفنا.. وقد عاش أبو عيسى حتى رأى خلافة أخيه المأمون، ثم توفي في عهده عام (٢٠٩ هـ ـ ٨٢٤ م) وهو في ريعان شبابه [١].

أما «العباس بن واسطة» فكان أسمر غامق لون البشرة، يقرب إلى السواد، وكان الرشيد يشمئزُّ منه حين يراه، لولا ما كان عليه من ذكاء عظيم وسرعة في البديهة.. وقيل: تنبَّأ رجل يوماً، فدعاه الرشيد إليه وحاكمه، وكلما أراد منه أن يرعوي عن غيِّه ويتخلّى عن فكرته ازداد إصراراً على نبوته ودعواه، فأمر بتجريده وضربه بالسياط، وكان بعض أولاد الرشيد حاضراً، وفيهم العباس وهو صغير، فلمّا أخذت السياط تنهال على المتنبئ جعل يضطرب اضطراباً تحتها، فقال له العباس:

«ويحك، إصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» فاستطار الرشيد لهذه البديهة فرحاً، فناداه وقبَّله، وقال: «ابني والله حقاً» [٢].

واختلف المؤرخون في أمر «أحمد السبتي»، فمنهم من قال هو ابن الجارية «عرابة» ومنهم من ادّعى غير ذلك. وقد جاءت أخباره غريبة لا يخلو بعضها من مناقضة لسير الحوادث، كقولهم مثلاً: إنه ولد وعاش في حضن أمه التي امتلكها الرشيد في أحد أسفاره ثم تركها، فلمّا كبر الطفل لم يتّصل بأبيه ولم يخبره أحد عنه، فصار يشتغل بالطين بأجرٍ زهيد يعيش به، وبقي على هذه الحالة حتى مات شاباً، ولم يشعر الرشيد بوجوده إلا بعد موته، فذهب إلى قبره وبكاه، إلى آخر ذلك من الأخبار.

ولكن الذي يتّفق عليه الرواة هو أنه كان ورعاً تقياً، لم يشأ أخذ المال من أبيه ليصرفه

---

(١) انظر: الطبري: ج٣ ص٧٣٨ ـ الأغاني: ج٩ ص ٩١

(٢) المقريزي: ٣٩.

على نفسه، بل كان يفضِّل العيش من كسب يده.. وقد ذكر ابن خلّكان شيئاً عنه فقال: «كان عبداً صالحاً، ترك الدنيا في حياة أبيه، ولم يتعلّق بشيء من أمورها وإن كان أبوه خليفة الدنيا، وآثر الانقطاع والعزلة، وقد سُمِّي «السبتي» لأنه كان يتكسَّب بيده في يوم السبت شيئاً ينفقه في بقية الأسبوع، ويتفرَّغ للاشتغال بالعبادة، ولم يزل على هذه الحال حتى توفي»[1].

وكان للرشيد بنات كثيرات أيضاً عرفنا منهن خمس عشرة بنتاً، هن:[2]

١ ـ سكينة بنت قصف

٢ ـ أم حبيب بنت ماردة

٣ ـ أروى بنت حلوب

٤ ـ أم الحسن بنت عرابة

٥ ـ حمدونة بنت فاطمة أم محمد

٦ ـ فاطمة بنت غصص

٧ ـ أم أبيها بنت سكر

٨ ـ أم سلمة بنت رحيق

٩ ـ خديجة بنت شجا

١٠ ـ لبانة بنت شجا

١١ ـ أم القاسم بنت خزق

١٢ ـ رملة بنت حلي

١٣ ـ أم علي بنت أنيق

١٤ ـ العالية بنت سمندل

١٥ ـ ريطة بنت زينة

---

(١) ابن خلّكان: ج١ ص١٥٠.

(٢) الطبري: ج٣ ص٧٥٧.

ويلاحظ، أنَّ ستة من أسماء هؤلاء البنات، غير معروفة، وإنما ذكرن بكنيتهن، وقد أهمل التاريخ سِيَرَهنَّ ولم يلتفت إلى واحدة منهن لعدم وجود شهيرات بينهـــن،باستثناء «حمدونة» و«عالية» ولم نعلم مقدار اهتمام الرشيد بتربيتهن وتثقيفهن، وإن كان الغالب على الظن أنهن نشأن كباقي بنات الخلفاء في ثقافة متوسطة لا تتعدًى قراءة القرآن وأمور الدين مع شيء من الكتابة، ولو كن غير ذلك لبرزن إلى حضيرة التاريخ بين مشاهير النساء.

هذا ما كان من أمر ذرية الرشيد وأسرته، وأما تركته من أمواله الخاصة فقد حدَّثنا عنها الفضل بن الربيع الذي كلَّفه الخليفة الأمين بإحصائها قال: «جمعت كتَّاب الخزانة، فأقاموا يحصون الكسوة والفرش والآنية. فكان في خزائن الكسوة أربعة آلاف جبة وشي، وأربعة آلاف منسوجة بالذهب، وعشرة آلاف قميص، وعشرة آلاف خف، وألفا سروال من أصناف الثياب، وأربعة آلاف عمامة، وألف طيلسان، وألف رداء من أصناف الثياب، وخمسة آلاف منديل، وخمسماية قطعة خز، ومائة ألف وسادة خز، وألف بساط طبرستاني، وألف وسادة خزّ مرقوم، وألف ستر خزّ ساذج، وثلثماية ستر مرقوم، وخمسماية بساط طبري، وألف مرفعة، وألف مخدة طبري، وألف وسادة طبري.. ومن الآنية ألف طست ذهب، وألف إبريق ذهب، وثلثماية كانون فضة، وألف من الشمع المذهب، وألف قطعة نحاس من كل صنف، وألف منطق ذهب، هذا عدا ما تركه من عبيد وجوارٍ وغلمان ملك يديه، ومن الخيل والبغال والدواب وأثاث في القصور والمجوهرات الثمينة المخزونة»[1].

وقد ترك الرشيد بعد موته خزينة بيت المال غنية كل الغنى على الرغم مما أنفقه في أيامه الأخيرة على الحجِّ ماشياً، وإكرام أهل الحرمين، وسفره إلى خراسان، وغزوه لبلاد الروم مرتين، وإرسال الأموال لقتال رافع بن الليث، وتجهيز الجيش عند زحفه الأخير، ولم تبلغ ثروة في بيت مال المسلمين على عهد أي خليفة ما بلغته في عهد الرشيد قبيل وفاته وقدرها تسعماية ألف ألف دينار ونيِّف[2].

(١) تحفة المجالس: ١٢٠

(٢) الطبري: ج ٣ ص ٧٦٣.

تاريخ قبر الرشيد

وضرورة نقله إلى بغداد

- ملخص ما حدث بعد الرشيد
- تاريخ القبر
- ضرورة نقله إلى بغداد

ملخص ما حدث بعد الرشيد

مات الرشيد، ودفن في قصر حميد بن قحطبة الطائي، في قرية سناباذ، على بعد ميل واحد من طوس، فأقام المأمون على ضريحه قبة وسيَّجها بسياج جميل، وبعد عشرة أعوام من ذلك (٢٠٢ هـ ـ ٨١٨ م) توفي الإمام «علي الرضا بن موسى الكاظم» وكان يومئذ ولي عهد للخليفة المأمون، فحزن عليه ودفنه بجانب قبر الرشيد، داخل تلك القبة.

ولهذا الحادث تاريخ طويل، ملخَّصه: أن الفضل بن الربيع عاد على أثر وفاة الرشيد، من طوس إلى بغداد برفقة الجيش الذي كان معه، لتنفيذ أوامر محمد الأمين، فغضب المأمون، وعدَّ ذلك نكثاً للعهد الذي أُعطي له في حياة أبيه بجعل ذلك العسكر من حصته، فاستغلَّ الفضل بن سهل ذلك الحادث، وأشار على المأمون بأن يتهيَّأ لكفاح حاسم، لأن أخاه الأمين قد جرَّده من جيشه، ولا بد من أنه يريد نكث بيعته والاستئثار بميراث أبيه. ونصحه بالتقرُّب من أخواله الفرس الذين وطَّدوا حكم العباس وأدالوا دولة الأمويين. فاقتنع المأمون بمشورة وزيره هذا، وعمل على توطيد السلم في خراسان، واستمال زعماءها، ولكنه لم يشأ أن يخلَّ بالعهد، فبايع أخاه بالخلافة، وراح يتصرَّف بشؤون ولايته كما يريد.

وسعى الفضل بن الربيع، من جانبه، إلى إقناع الأمين في أن يخلع المأمون من ولاية العهد ما دام قد جنح إلى جانب الفرس، واتّكل على رجالهم، وألقى أزمة أموره في يد الفضل بن سهل المعروف بشعوبيته ضد العرب، وبميله الذي يخفيه تجاه العلويين، فأعلن خلعه منها عام (١٩٤ هـ ـ ٨١٠ م) وأخذ البيعة لابنه «موسى» فاستعرت نار الحرب بين الأخوين ودامت عدة أعوام تطاحنت فيها جيوشهما، وانتهت بمصرع الأمين، وقَطْعِ رأسه في بغداد وإرساله للمأمون في (مرو) برهاناً على انتهاء الحرب

وبويع المأمون حينئذ بالخلافة، لكنه لم يجرؤ على الشخوص إلى بغداد وكل من فيها ناقم على أعماله، حزين على مقتل الأمين، الهاشمي أماً وأباً، بسيوف الأعاجم الملتفين حوله، فبقي في مرو يتهيأ للزحف إلى بغداد بعد أن تهدأ غائلتها، وهو في أشد الحنق على أولئك الذين آزروا الأمين ضده، وجلّهم من أمراء بني العباس من أقرباء زبيدة وأنصارها. وكان خلال هذه المدة تحت تأثير شديد من وزيره الفضل بن سهل الذي قوي حزبه بين رجالات الفرس وقوادهم حتى أطلقوا عليه اسم «ذي الرياستين».

وكان هذا الوزير طموحاً إلى أبعد حدود الطموح بقدر ما كان متعصباً لعنصريته، كما قلنا. فلمّا رأى غيظ المأمون على بني عمومته من آل العباس، أقنعه بأن يخلع أخاه القاسم «المؤتمن» من ولاية العهد، ويأخذ البيعة بها للإمام «علي الرضا بن موسى الكاظم» وله قرابة فارسية[1].

وبذلك يكسب حزب أشياع العلويين والفرس.. والإمام الرضا من أنبل الناس خلقاً وأحسنهم سيرة وعملاً.

فأرسل المأمون يستقدمه من المدينة في الحجاز، فأجاب الإمام إلى ذلك، وتوجه إلى (مرو)، ووصلها بعد سفر طويل، فاستقبله المأمون ورجال دولته وأتباعه من شيعته استقبالاً حافلاً، وأُنزل في قصر عظيم.

وفي رمضان عام (٢٠١ هـ ـ ٨١٦ م) بويع بولاية العهد، فكان المأمون أول من أخذ بيده وبايعه، ثم زوّجه بابنته «أم حبيب» وضرب الدراهم والدنانير باسمه واسم الإمام الرضا، ونقش عليها العبارة التالية: «ملك الله والدين، المأمون أمير وخليفة المسلمين، والرضا إمام المسلمين»[2]

وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام، وهو شعار العباسيين، واستبدل به اللون الأخضر شعار العَلَويين.

---

(١) عيون أخبار الرضا ١١.

(٢) عقيدة الشيعة : ١٧٤

ويبدو أن طغيان العنصر الفارسي في حاشية المأمون، استثار الكثيرين من العرب المقيمين في خراسان، كما أن إعطاء ولاية العهد لأحد العَلَويين أثار من كان هناك من بني العباس، وكان عددهم كبيراً جداً. ولما انتهى خبر هذه الأعمال إلى من كان في بغداد من العباسيين وحزبهم العربي، وعلموا أن الأمر خارج عنهم، أجمعوا على خلع المأمون، وبايعوا عمه «ابراهيم بن المهدي» في شهر المحرم عام (٢٠٢ هـ ـ ٨١٧ م).

فاستاء المأمون من هذه النتيجة، وقرَّر مغادرة خراسان والزحف إلى العراق لإثبات حقه بنفسه.

وخرج في السنة نفسها يريد بغداد، ومعه، كما قال اليعقوبي، الرضا عليه السلام، وذو الرياستين الفضل بن سهل[١]... فلما صار في (سرخس) نزل الوزير مع المأمون، فقتل في الحمام غيلة، قتله «غالب الرومي» و«سراج الخادم» فقتلهما المأمون جميعاً وقتل قوماً معهما. وقد اختلفت الآراء في عوامل قتله، والأرجح أن الحزب العربي[٢] اغتاله.

ولما صار الجيش، بعد يوم أو يومين، قرب مدينة طوس، توفي الإمام علي الرضا بقرية سناباذ، في أوائل العام (٢٠٣ هـ ـ ٨١٧ م).. يقول اليعقوبي: «إن علته لم تكن غير ثلاثة أيام، وقيل إن علي بن هشام أطعمه رماناً فيه سمّ. وأظهر المأمون عليه حزناً شديداً»[٣].. أما المسعودي فيقول:

«إن الرضا مات لعنبٍ أكله وأكثر منه. وقيل إنه مات مسموماً»[٤]..

ويذكر «ابن بابويه» في كتابه «عيون أخبار الرضا» عدة أسباب جعلت المأمون يَسمُّ

---

(١) اليعقوبي: ج٢ ص ٥٤٨

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مادة «المأمون»

(٣) اليعقوبي: ج٢ ص

(٤) المسعودي: ج٧ ص ٦١

الإمام، ويبيّن الظروف التي نصَّب فيها الرضا ابنه محمداً للإمامة بعده[1]... ومهما يكن من أمر، فإن الرواية المعروفة هي أنه أكل عنباً مسموماً فمات. وأظهر المأمون حزنه عليه، ودفنه بجانب قبر أبيه الرشيد، داخل القبة نفسها.

(١) عيون أخبار الرضا: ٥٩.

تاريخ القبر

إلى هنا ينتهي تاريخ سبب دفن المأمون علياً الرضا في القبة التي يرقد فيها هارون الرشيد.. غير أن بعض المؤرخين أطلق على القبة كلها كلمة القبر فقالوا: «دفن في قبر الرشيد»[١].. فحسب من جاء بعدهم من ناقلي الأخبار، بأن جثمان الإمام الرضا أُنزل فوق جثمان الرشيد في ضريح واحد.. والمنطق والأخبار والنصوص الكثيرة تخالف هذه الآراء وتدحضها: إذ لا يعقل، قبل كل شيء، أن يأتي رجل كالمأمون، خليفة المسلمين، فيدفن رجلاً عظيماً فوق جثمان أبيه الخليفة ولم يمض على موته أكثر منَ تسعة أعوام، ولم تبلَ عظامه بعد، إذ إن ذلك لايتَّفق وكرامة الميِّتين معاً، ويخالف العرف الديني... ولو أن المأمون فعل ذلك لتحدَّث المؤرخون عن هذا العمل الغريب.

ومن جهة أخرى، يصرِّح كبار المؤرخين والنصوص الأدبية بأن «الرضا» دفن بجانب قبر الرشيد.

ويقول النوبختي في كتابه ـ فرق الشيعة ـ ما يأتي: «ودفن الإمام علي الرضا في قصر حميد بن قحطبة الطائي، بجانب قبر هارون الرشيد»[٢]. وقد استعمل كلمة «بجانب» صراحة.. وكذلك يقول المؤرخ ابن كثير:

«صلى عليه المأمون، ودفنه عند قبر أبيه الرشيد»[٣] وكلمة «عند» تعني بجانبه لا في داخله. وأيَّده في ذلك كل من المؤرِّخين: الطبري[٤] وابن الأثير[٥].

---

(١) أنظر كتاب عقيدة الشيعة: ١٨٥ ـ وقد نقل المؤلف عن كتاب عيون أخبار الرضا: ٥٩ ـ فقال: «دخل ـ أي ـ جثمان علي الرضا ـ دار حميد بن قحطبة الطائي، فدخل قبر هارون الرشيد».

(٢) فرق الشيعة: ٨٦.

(٣) البداية والنهاية: ج٤ ص ٢٤٩

(٤) الطبري: سنة ٢٣٠ هـ.

(٥) ابن الأثير: ج٥ ص ٢١٩

وفي كتاب معجم البلدان: «أن سناباذ قرية بطوس، فيها قبر الإمام علي الرضا وقبر أمير المؤمنين هارون الرشيد»[١].. وفي رواية لابن خلّكان: «توفي الإمام علي الرضا بمدينة طوس، صلى عليه المأمون، ودفنه ملاصق قبر أبيه هارون الرشيد»[٢] وكلمة «ملاصق» واضحة هنا.

كل ذلك يدلُّ على وجود القبرين المتجاورين تحت تلك القبة التي مرَّت عليها أحداث تاريخية كثيرة.. ففي القرن الرابع الهجري، نجد القبور المجاورة لسناباذ محاطة كلها بأسوار عالية، ويذكر «ابن حوقل» و «المقدسي» وجود مسجد يزوره الكثير من الناس. وفي رواية أخرى أن مسجداً بني عند قبر الإمام الرضا بأمر الأمير «فائق، عميد الدولة» ولا يوجد أجمل منه في خراسان، وقبر هارون الرشيد إلى جانب قبر الإمام، وشيِّدت دور وسوق في جوار ذلك البستان[٣].. ولكن هذا البناء الجميل تخرَّب بعد مدة قصيرة من إتمامه، وقد ظلَّ خراباً لسنوات عديدة.

ثم أمر السلطان «محمود بن سبكتكين» بتعمير مشهد الرضا وإقامة بناء فخم، عليه قبة عالية، وتمَّ البناء بإشراف حاكم «نيسابور».

ولكن هذا البناء تخرَّب أيضاً بعد مدة قصيرة على يد القبائل التركية، واللصوص[٤]. ويبدو أن الخراب كان كاملاً، فلا توجد اليوم كتابة على بناء المشهد الحالي يرجع تاريخها إلى ما قبل ذلك الدور[٥]

وفي مطلع القرن السادس الهجري، أعاد «أبو طاهر القمي» في زمن السلطان «سنجر» السلجوقي، تشييد البناء على نفقته. وبقي هذا البناء الجديد نحو مائة سنة حتى تخرَّب معظمه على يد المغول بعد تخريب مدينة طوس، ونهب المشهد الذي كان فيه قبرا علي الرضا وهارون الرشيد[٦].

---

(١) معجم البلدان: مادة «سناباذ».

(٢) ابن خلّكان: ج٢ ص ٤٣٢

(٣) لسترنج: ٣٨٩

(٤) مطلع الشمس للمرزا محمد حسن خان: ج٢ ص ٤٩

(٥) عقيدة الشيعة: ١٨٠

(٦) أنظر: السير برسي سايكس، تاريخ إيران: ج٢ ص ٩٣٥ ومطلع الشمس: ج٢ ص٥٠

وكان أول من أسلم من المغول هو السلطان «محمد الجايتو» فأعيد في عهده قبر علي الرضا. وقد زار «ابن بطوطة» المشهد، في القرن الثامن الهجري بعد تجديد بنائه بسنوات، فيذكر أنه وجد المشهد مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه. والمشهد عليه قبة عظيمة، وعلى القبة قناديل فضة معلقة. ويقول: «وبجانب قبر الرضا قبر هارون الرشيد»[1].

وفي عهد «تيمورلنك» شنَّت غارات مغولية على مدينة طوس وأصاب المشهد كثير من الضرر، لكن شاه «رخ» ابن «تيمورلنك» أعاد تعمير ما تخرَّب منه، وفي عهده تضخمت قرية (سناباذ) وأصبحت مدينة عامرة سمِّيت (مشهد) الشهيرة.. وليس ما يدلّ على حدوث تلف آخر في مشهد الرضا بعد ذلك. اللهم إلا ما حدث من الزلازل فانشقَّ جدار البناء الرئيسي على زمن الشاه «سليمان الأول الصفوي» فأعاد هذا الشاه بناء ما تصدَّع، وغطَّى القبة بالصفائح الذهبية على شكل طوابيق رقيقة يبلغ عددها ثلاثة آلاف طابوقة[2]. وزيد في تزيين الجامع على عهد الشاه «عباس»، وبعده في عهد «نادر شاه» وبعض الشاهات القاجاريين.

وآخر تلف مهم حدث في المشهد هو ما كان نتيجة القصف الروسي له عام (١٩١١م). فقد أغار على المدينة جماعة من اللصوص فنهبوها والتجأوا إلى حرم المشهد وأعلنوا عصيانهم على الحكومة. ولما كانت الحكومة الإيرانية ضعيفة، آنذاك، فيقال: إنها خوَّلت الروس الذين كانت لهم قوات كبيرة في خراسان، أن يعيدوا الأمن إلى نصابه، فقصف الروس الحضرة الرضوية بالمدافع من موضع مناسب خارج المدينة، ولم تمض دقائق معدودات حتى تلف قسم كبير من القبة والأبنية العالية.. ثم تعمر بعد ذلك.

وقد وصف «دوايت م. رونلدسن» صاحب كتاب «عقيدة الشيعة» غرفة الضريح الحالي فقال: أما غرفة الضريح فمربعة، طول ضلعها أربعة وثلاثون قدماً، ترتفع فوقها القبة الذهبية إلى علو اثنين وثمانين قدماً.

(١) رحلة ابن بطوطة: فصل ١٢ ص ٥٩

(٢) عقيدة الشيعة: ١٨٣

ضرورة نقله إلى بغداد

لسنا من عباد القبور، ولا نكون ممن يهتم بتوافه الأمور إذا قلنا بضرورة نقل تراب الرشيد من مدفنه في مدينة طوس الفارسية إلى قلب عاصمة دولته بغداد. فهذه الدول والشعوب الناهضة في عصرنا، تهتم بآثار عظمائها ، وتجمعها في متاحف خاصة، وتقيم لها النصب التذكارية والتماثيل في ميادينها العامة، لتبقى أمام الأجيال الصاعدة من أبنائها رمزاً للمجد، أو حافزاً للاعمال الجليلة، أو موجِّهاً للنهوض والتقدم في خدمة الإنسانية، أو باعثاً وطنياً للتحرر من نفوذ الطغيان والظلم...... إلى آخر ذلك من المعاني النبيلة.

ويقيناً، إن هارون الرشيد، كما رأيناه في كتابنا هذا، من عظماء الرجال. فهو رمز لحقبة تاريخية انبثقت فيها أروع حضارات العالم في العهد القديم، هي الحضارة الإسلامية. ومن أجلّ الخلفاء والملوك الذين احترموا العلم وآزروه، وشجعوا الأدب والفكر وأطعموه، وسقوا شجرة الفن والذوق السليم، وكل ما امتازت به البشرية الصالحة.

وماذا صنع الرشيد ليكون جزاؤه كل هذا؟؟ انه كان علماً من أعلام العرب والمسلمين، وأكثر الخلفاء حجاً وغزواً وجهاداً في سبيل الله ونبيلاً من نبلاء الناس، على اختلاف مللهم ونحلهم وميولهم، بعاطفته، وضميره، وآثاره، وخدماته لأمته، ومكانته في التاريخ، وقرابته من بيت النبوة.

كنت، وأنا طفل صغير في مدارس الأحداث العراقية، أرتل الأناشيد، وجُلّها يحمل اسم الرشيد وعهده وحضارته، وما كنت أعلم أين هو الرشيد هذا الذي أتغنّى باسمه، حتى علمت فيما بعد.. وما كنت أعرف مقدار اهتمام الشعوب بعظمائها حتى زرت الكثير من عواصم الدنيا الكبيرة، وشاهدت آثارها ومعالمها التاريخية وتماثيل رجالها، فلم أجد من بين أصحابها من كان أعظم من الرشيد في حياته وآثاره.

ولقد ساورتني فكرة نقل تراب هذا الرجل إلى بغداد، على أثر مشاهدتي نقل تراب «فرخ النسر» ابن نابليون، من مدفنه في عاصمة النمسا إلى جوار قبر أبيه في «الأنفاليد» بمدينة باريس، على يد الحكومة الألمانية، خلال الحرب العالمية الثانية عام ـ ١٩٤١ م ـ فاتصلت، فيما بعد، بعدد من الشخصيات السياسية في العراق، وتعرَّفت إلى بعض كبار الساسة في إيران، وحدَّثتهم جميعاً بفكرتي هذه، فوجدت عقبات صعبة، اجتماعية وسياسية، تقوم في طريقي إلى تحقيقها .. ثم وجَّهت طرفي إلى «الجامعة العربية» في أوائل تكوينها، وأردت منها يداً للمساعدة، فلم أفلح . فألَّفت كتابي هذا ليقرأه الناس في أي بلد كان، لعلَّ هناك من يتبنَّى الفكرة، فيأتي يوم ينقل فيه قبر هذا الغريب إلى عاصمة ملكه، لتستقرَّ وتستريح روحه، بعد كل تلك الأحداث التي عاناها الرجل حياً وميتاً.

المصـــادر

١ ـ **ابن الأثير**: علي بن أحمد بن أبي الكـــرم، (توفي عام ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٨م) .كتاب (الكامل في التاريخ) ـ بولاق / ١٢٧٤ هـ .

٢ ـ **الأصبهاني**: أبو الفرج، علي بن الحسين بن محمد الأموي، (ت ٣٥٦ هـ ٩٦٧م)(الأغاني) ـ بولاق / ١٢٧٤ هـ (مقاتل الطالبيين) ـ النجف/ ١٣٥٣هـ.

٣ ـ **الأنباري**: أبو البركات، عبد الرحمن بن أبي الوفاء، (ت ٥٧٧ هـ ـ ١١٨٢م) (نزهة الألباء) ـ القاهرة/ ١٣٤٧هـ.

٤ ـ **البغدادي**: عبد القادر بن طاهر، (ت ٤٢٠ هـ ـ ١٠٢٩م) (الفرق بين الفِرَق) ـ القاهرة/ ١٣٢٨هـ.

٥ ـ **البغدادي**: عبد القادر بن عمر، (ت ١٠٩٣ هـ ـ ١٦٨٢م) (خزانة الأدب) ـ القاهرة/ ١٣٤٧هـ.

٦ ـ **البلاذري**: أحمد بن يحيى بن جابر، (ت ٢٧٩ هـ ـ ٨٩٢ م) (فتوح البلدان) ـ القاهرة/ ١٣١٨هـ.

٧ ـ **البلخي** : أبو زيد، أحمد بن سهل، (ت ٣٢٢هـ ـ ٩٣٣م) (البدء والتاريخ) ـ باريس/ ١٨٩٩م.

٨ ـ **البكري**: عبد الله بن عبد العزيز الأويني البكـــري، (ولد عام ٤٨٧ هـ) (سمط الآلي في شرح أمالي القالي) ـ القاهرة / ١٣٤٢هـ

٩ ـ **البيروني**: أبو الريحان، محمد بن أحمد، (ت ٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٨ م) (الآثار الباقية عن القرون الخالية) ليبزك / ١٨٧٩م.

١٠ ـ **ابن بطوطة**: محمد بن عبد الله، (ت ٧٧٩ هـ ـ ١٣٧٧ م) (تحفة النظار) ـ باريس/١٨٥٣ م.

١١ ـ **التوحيدي**: أبو حيان، (البصائر والذخائر) ـ القاهرة / ١٣٧٣ هـ .

١٢ ـ **الجهشياري**: أبو عبد الله، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ ـ ٩٤٢ م) (الوزراء والكتاب) ـ القاهرة/ ١٩٣٨م

١٣ ـ **الجومرد**: عبد الجبار بن محمد شيت الجومرد . (الأصمعي ـ حياته وآثاره) ـ بيروت/ ١٩٥٥

١٤ ـ **الجاحظ**: أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥ هـ ـ ٨٦٩ م) (البيان والتبيين) القاهرة/ ١٩٢٨ م (الحيوان) ـ القاهرة / ١٣٥٩ هـ (البخلاء) ـ القاهرة / ١٣٧٠ هـ.

١٥ ـ **ابن أبي الحديد**: عبد الحميد بن هبة الله، (ت ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧م) (شرح نهج البلاغة) ـ القاهرة / ١٣٤٥ هـ.

١٦ ـ **ابن حجة الحموي**: تقي الدين بن علي، (ت ٩٣٧ هـ ـ ١٤٣٣م) (خزانة الأدب) ـ بولاق/ ١٢٩١ هـ.

١٧ ـ **ابن حزم**: أبو محمد، علي بن أحمد، (ت ٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٤م) (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ـ القاهرة/ ١٣١٧ هـ.

١٨ ـ **الحصري**: أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن تميم، (ت ٤٥٣ هـ ـ ١٠٦٤م) (زهر الآداب) ـ القاهرة/ ١٢٩٣ هـ.

١٩ ـ **ابن حوقل**: أبو القاسم، محمد بن حوقل، (ت ٣٨٠ هـ ـ ٩٩٠م) (المسالك والممالك) ـ ليدن/ ١٨٨٩ م).

٢٠ ـ **الخضري**: محمد الخضري ـ (تاريخ الدولة العباسية) ـ القاهرة/ ١٩١٦ م.

٢١ ـ **الخطيب البغدادي**: أبو بكر، أحمد بن علي، (ت ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م) (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ.

٢٢ ـ **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد، (ت ٨٠٨ هـ ـ ١٥٠٦م) (المقدمة) ـ بيروت/ ١٨٨٦ (كتاب العبر) ـ القاهرة/ ١٢٨٤هـ .

٢٣ ـ **ابن خلّكان:** أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨١ ـ هـ ١٢٨١م) (وفيات الأعيان) ـ بولاق/ ١٢٨٤هـ.

٢٤ ـ **خليفة:** مصطفى كاتب شلبي، حاجي خليفة، (ت ١٠٦٧هـ ـ ١٦٥٧م) (كشف الظنون) ـ ليبزك/ ١٨٣٥م.

٢٥ ـ **الخوارزمي:** أبو بكر محمد بن عباس، (ت ٣٨٣ هـ ـ ٩٩٣م)(مفيد العلوم) القاهرة/ ١٣١٠هـ.

٢٦ ـ **الدميري:** كمال الدين، أبو البقاء، محمد بن موسى (ت ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦م) (حياة الحيوان) ـ القاهرة/ ١٣٤٥هـ.

٢٧ ـ **ابن رشيق:** أبو علي، الحسن بن علي، (ت ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م). (العمدة) القاهرة/ ١٣٤٥هـ.

٢٨ ـ **الربعي:** عبد الله بن أحمد بن زير «المنتقى من أخبار الأصمعي» ـ مجلة المجمع العلمي في دمشق ١٩٣٣م.

٢٩ ـ **زيدان:** جرجي بن حبيب، (ت١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤م) (تاريخ التمدن الإسلامي) ـ القاهرة/ ١٩٠٢م (تاريخ الأدب العربي) ـ القاهرة/ ١٩٢٥.

٣٠ ـ **ابن الساعي:** علي بن أنجب بن عثمان، (ت ٦٧٤ هـ ـ ١٢٧٥م) (مختصر أخبار الخلفاء) ـ بولاق/ ١٣٠٩هـ.

٣١ ـ **ابن سلام:** أبو عبيد، القاسم، (ت ٢٢٤ هـ ـ ٨٣٩م) (كتاب الأموال) ـ القاهرة/ ١٣٥٣هـ.

٣٢ ـ **السيوطي:** عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١ هـ ـ ١٦٠٥م) (تاريخ الخلفاء) ـ القاهرة/ ١٣٥١هـ (نزهة المجالس) ـ مصر/ ١٩٠٨ (المزهر) القاهرة/ ١٣٢٥هـ.

٣٣ ـ **السيرافي:** أبو سعيد، الحسن بن عبد الله السيرافي، (ت حوالي ٣٨٠ هـ ـ ٩٩١م) (أخبار النحويين البصريين) ـ بيروت/ ١٩٣٦

٣٤ ـ **الشابشتي:** أبو الحسن، علي بن محمد، (ت ٣٨٨ هـ ـ ٩٨٨م) «الديارات» بغداد/ ١٢٩٥هـ.

٣٥ـ **الشهرستاني:** محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨ هـ ـ ١١٥٣ م) (الملل والنحل) ـ القاهرة / ١٣١٧ هـ.

٣٦ ـ **ابن شاكر:** محمد، (ت ٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٢م) (فوات الوفيات) ـ بولاق/ ١٢٨٣هـ.

٣٧ ـ **الطرطوشي:** محمد بن الوليد، (ت ٥٢٦ هـ ـ ١١٢٦م) (سراج الملوك) ـ بولاق/ ١٢٨٩ هـ.

٣٨ ـ **الطبري:** أبو جعفر، محمد بن جرير، (ت ٣١٠ هـ ـ ٩٢٢م) (تاريخ الأمم والملوك) ـ ليدن/ ١٩٠١ م.

٣٩ ـ **الطقطقي:** محمد بن علي، (ت ٧٠٢ هـ ـ ١٣٠١م) (الفخري في الآداب السلطانية) ـ القاهرة/ ١٩٢٣ م.

٤٠ ـ **ابن طيفور:** أبو الفضل، أحمد بن أبي طاهر، (ت ٢٨٠ هـ ـ ٨٩٣ م) (تاريخ بغداد ـ الجزء السادس) ـ القاهرة/ ١٣٤٦ هـ.

٤١ ـ **ابن عبد ربه:** شهاب الدين أحمد، (ت ٣٤٩ هـ ـ ٩٤٠م) (العقد الفريد) ـ القاهرة/ ١٣٤٦.

٤٢ ـ **ابن عرب شاه:** أحمد بن محمد بن عبد الله، (ت ٨٥٤ هـ ـ ١٤٥٠م) (فاكهة الخلفاء) ...ـ القاهرة / ١٨٨٩ م.

٤٣ ـ **الغزالي:** أبو حامد، محمد بن محمد، (ت ٥٠٥ هـ ـ ١١١١م) (المنقذ من الضلال) ـ دمشق/ ١٣٥٢ م.

٤٤ ـ **العسكري:** أبو هلال، الحسن بن عبد الله، (ت ٣٨٢ هـ ـ ٩٩٣م) (ديوان المعاني) ـ القاهرة/ ١٣٥٢ هـ (الصناعتين) ـ الآستانة/ ١٣٢٠ هـ.

٤٥ ـ **أبو الفدا**: اسماعيل بن علي عماد الدين، (ت ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١) (تقويم البلدان) ـ باريس/ ١٨٤٠م (المختصر) ـ الآستانة/ ١٢٨٢ هـ.

٤٦ ـ **الفيروزآبادي**: محمد بن يعقوب بن إبراهيم، (ت ٨٦١ هـ ـ ١٤١٣م) (القاموس المحيط) ـ القاهرة/ ١٣١٢

٤٧ ـ **القالي**: أبو علي، اسماعيل بن القاسم، (ت ٣٥٦ هـ ـ ٩٦٧ م) (الأمالي) ـ القاهرة/ ١٣٤٤ هـ.

٤٨ ـ **ابن قتيبه**: أبو محمد، عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م) (المعارف) ـ القاهرة/ ١٣٥٣ هـ (عيون الأخبار) ـ القاهرة/ ١٣٤٣ هـ (الإمامة والسياسة) ـ القاهرة/ ١٩٠٤م.

٤٩ ـ **قدامة بن جعفر**: أبو الفرج، (ت ٣٣٧ هـ ـ ٩٤٨م) (مختصر كتاب الخراج) ـ باريس/ ١٨٦٢م.

٥٠ ـ **القزويني**: زكريا بن محمد محمود، (٨٦٢ هـ ـ ١٢٨٣م) (أخبار العباد وآثار البلاد) ـ كوتجن/ ١٨٤٨م.

٥١ ـ **القلقشندي**: أحمد بن علي، (ت ٨٢١ هـ ـ ١٤١٨م) (صبح الأعشى) ـ القاهرة/ ١٩١٧م.

٥٢ ـ **الكندي**: أبو عمر، محمد بن يوسف، (ت ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١م) (كتاب الولاة والقضاة) ـ لندن/ ١٩١٧م.

٥٣ ـ **لسترنج**: (ت ١٩٣٣ م) (بلدان الخلافة الشرقية) مترجم إلى العربية ـ بغداد/ ١٣٧٣ هـ.

٥٤ ـ **الماوردي**: ابو الحسن، علي بن محمد، (ت ٤٥٠ هـ ـ ١٠٥٨م) (الأحكام السلطانية) ـ القاهرة/ ١٢٩٨ هـ (أدب الدنيا والدين) ـ الآستانة/ ١٢٩٩ هـ.

٥٥ ـ **المبرد**: محمد بن يزيد، (ت ٢٨٦ هـ ـ ٨٩٩ م) (الكامل) ـ القاهرة / ١٩٢٨م.

٥٦ ـ **المرزوقي**: أحمد بن محمد الأصفهاني، (ت حوالي ٤٦ هـ ـ ١٠٦٣م) (الأزمنة والأمكنة) حيدر آباد/ دكن/ ١٣٣٢هـ.

٥٧ ـ **المسعودي**: أبو الحسن، علي بن الحسن، (ت ٣٤٦ هـ ـ ٩٥٦ م) (مروج الذهب) ـ باريس/ ١٨٧١م (التنبيه والأشراف) ـ لندن/ ١٨٩٣م.

٥٨ ـ **المقدسي**: أبو عبد الله، محمد شمس الدين بن أحمد (ت ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧م) (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ـ لندن/ ١٨٧٧ م.

٥٩ ـ **المقريزي**: تقي الدين، أحمد بن علي، (ت ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م) (رسائل المقريزي) ـ الآستانة/ ١٢٨٩ م (اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا) ـ بيت المقدس/ ١٩٠٨م.

٦٠ ـ **ابن منجب**: أبو القاسم، علي بن منجب، (ت ٥٤٢ هـ ـ ١١٤٧م) (الإشارة إلى من نال الوزارة) ـ القاهرة/ ١٩٢٤م.

٦١ ـ **النوبختي**: أبو محمد، الحسن بن موسى، (ت ٢٠٢ هـ ـ ٨١٧ م) (فرق الشيعة) ـ استنبول/ ١٩٣١م.

٦٢ ـ **النويري** : شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣٢م) (نهاية الأرب في فنون الأدب) مخطوط بدار الكتب المصرية.

٦٣ ـ **ابن هشام**: أبو محمد، عبد الملك بن هشام، (ت ٢١٨ هـ ـ ٨٣٣ م) (السيرة النبوية) ـ القاهرة/ ١٣٣٢ هـ.

٦٤ ـ **ياقوت الحموي**: شهاب الدين، (ت ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩م) (معجم الأدباء) ـ القاهرة/ ١٩٣٦ م (معجم البلدان) ـ القاهرة/ ١٩٠٦ م.

٦٥ ـ **اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، (ت ٢٨٢ هـ ـ ٨٩٥ م) (تاريخ اليعقوبي) ـ ليدن/ ٨٨٣م.

الفهرست

النافذة

الناشر


الناشر



الكاتب

د. عبد الجبار الجومرد:

- ولد عام ١٩٠٩ بمدينة الموصل في بيت يغلب عليه طابع العلم والدين.
- في تشرين الأول ١٩٣٢ سافر إلى دمشق، والتحق بالمعهد العربي للحقوق وحصل على شهادة الحقوق من المعهد عام ١٩٣٥.
- حصل على شهادتي الدكتوراه في القانون والآداب من جامعة باريس.
- عمل في الجامعة العربية خلال الفترة ١٩٤٦ ــ ١٩٤٨.
- في أيلول ١٩٤٨ رشح، ضمن عضوية الوفد العراقي، للمشاركة في اجتماعات هيئة الأمم المتحدة لمناقشة القضية الفلسطينية.
- عين وزيراً للخارجية في أول وزارة عراقية، بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، لكفاءته وخبرته وسمعته الوطنية والقومية.

الكتاب

بَلَغَ اسم **هارون الرشيد**، من المكانة في تاريخ العالَمَين العربي والإسلامي، أنه اكتسب شهرة أسطورية تخطّت هذين العالمين إلى أمم كثيرة تُرجمت أخباره إلى لغاتها، وصارت أخباره فيها كحكايات «ألف ليلة وليلة».

وأسباب هذه الشهرة كثيرة أبرزها: بلوغ الحضارة الإسلامية في عصره مرتبةً ازدهر فيها العلم والشعر والأدب والفن؛ وخطورةُ الأحداث التي جرت في عهده؛ والثراء الفاحش الذي حققته الدولة؛ وما رُوي، حول بلاطه وقصور وزرائه وحاشيته، من أخبار الترف والبذخ والتأنق.

غير أن عواملَ ونَزَعات، أبرزها الشعوبية، قد عبثت بسيرة هذا الخليفة، وشَوَّهت حقيقته، وجعلته حكاية حافلة بنوادر المجون والخلاعة، وحاولت، على الأخص، أن تطمس نزعته العربية، وصموده في وجه الشعوبية وتَصدِّيه لها وانقضاضَه عليها.

هذا التجنّي على التاريخ العربي، من خلال تشويه سيرة هارون الرشيد، هو الذي دفع المؤلف إلى وضع كتابه عنه، ورَسْمِ صورةٍ صحيحة له، ودَحْضِ ما حِيكَ حوله من افتراءات أبرز ما انطلقت منه كان النزعة الشعوبية التي استهدفت القومية العربية، وما تزال.

ويلاحظ قارئُ الكتاب أن المؤلف كان معتدلاً لم يَنْزِعُ إلى التطَرُّف، مُنْطلَقُه العام: أن تاريخ العرب لا يزال محتاجاً إلى دراسات تُخَلِّصه من عَبَثِ العابثين، وأن كتابه محاولةٌ تندرج في هذا الإطار، وتتطلع إلى هذه الغاية.